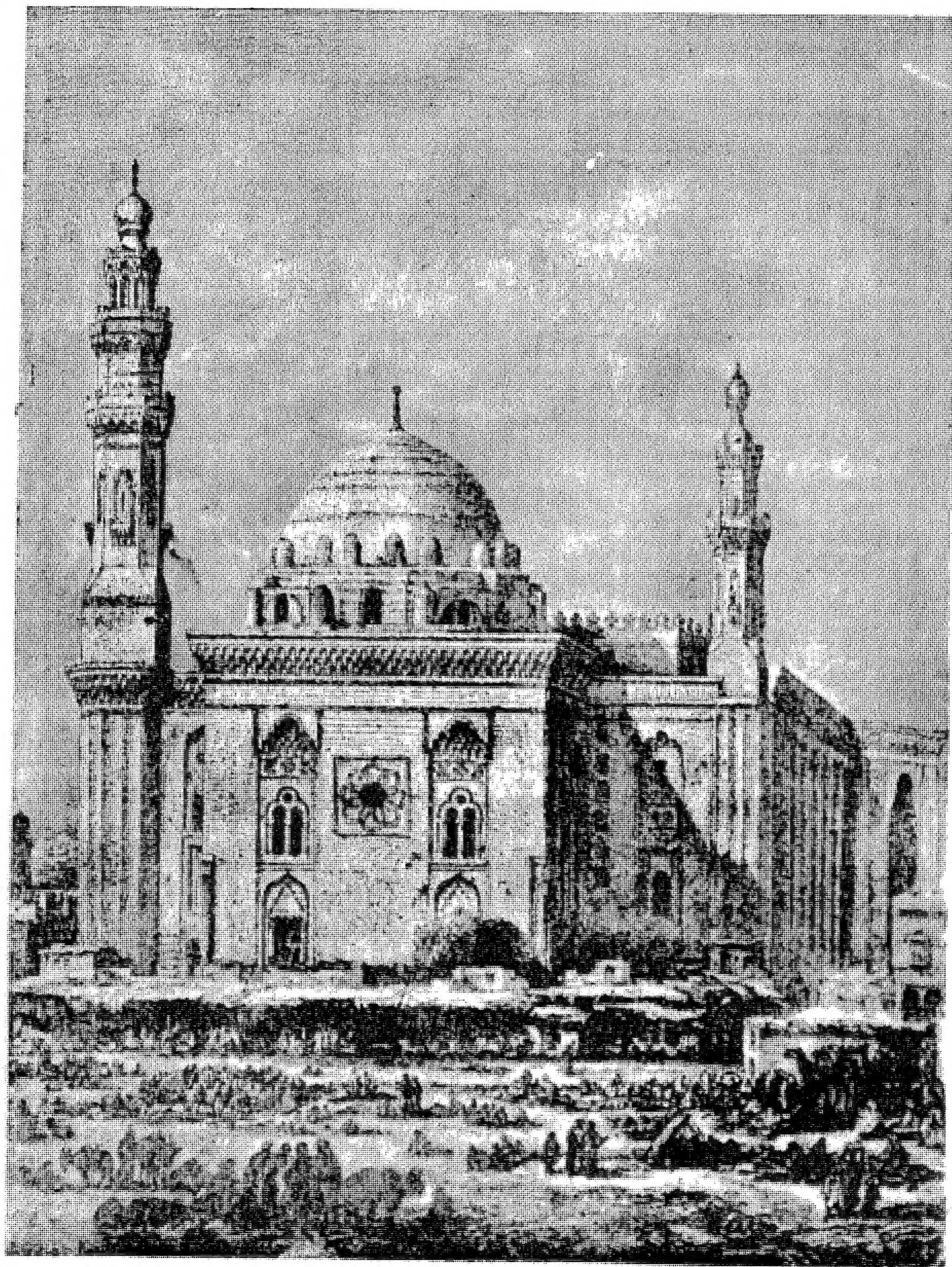
بدائع الزهور
فى وقائع الدهور



السيرة . وعنده عسف وظلم ؛ فسأل الناس عنه عمر راضين

وفيه شرع الأمير يشبك الدوادار فى أمر توسيع الطرقات والشوارع والأزقة . فأمر القاضى فتح الدين السوهاجى ، أحد نواب الشافعية ، بأن يحكم بهدم ما وضع فى الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى ، من أبنية وربوع وحوانيت ، وسقايف ورواشن ومساطب ، ونحو ذلك .

واستمر الحال فى أمر الهدم ، حتى دخلت سنة* ثلاث وثمانين وثمانمائة ، فحصل بذلك بعض نفع فى توسعة الطرقات ، ولكن حصل غاية الضرر لجماعة من الناس بسبب هدم ربوعهم وحوانيتهم . وهدم لخوند شقرا ، ابنة الملك الناصر فرج ، ثلاثة ربوع فى الموازنيين : أحدها كان لجامع الصالح خارج باب زويلة ، فاضطرب أحوال القاهرة ، وكثر الهدم فى الأماكن — ولا سيما المطلة على الشوارع — وحصل للقاضى فتح الدين السوهاجى غاية المقت بين الناس بسبب حكمه بهدم الأماكن . وفى هذه الواقعة يقول الشهاب المنصورى :

تكشفت عن محيا مصر الاستار
وخف عنها من الأثقال أوزار

واهتزت الأرض منها بهجة ورنت
ولاح فيها اضاءات وأنوار

كانت كصبح تعالت فوقه ظلم
شتى ، فجاء لها بالنور اسفار

كانت كشمس تغشاها الغمام ضحى
فمزقته من الأرياح اعصار

فاليوم أعطافها بالبشر مائسة
وقدها فى حلى السعد خطار

وكانت الطرق قد شابت مفارقها
والشيب ان شان ما فى أخذه عار

ومنها :

لما شكا الناس من مصر مضايقها
وحار فيها من الحكام أفكار

فما نلقى أجور القاطنين بها
الا الأمير الذى بالعرف أمار

فهو الهمام النظام المرتقى درجا
ت الفضل يشبك مولانا الدوادار

وهذا اختصار القصيدة المطولة .

وفيه تغير خاطر السلطان على برهان الدين النابلسى ، وكيل بيت مال المسلمين ، فقبض عليه وسلمه للأمير يشبك الدوادار ، ليستخلص منه الأموال ... فاستمر الأمير يشبك يعاقبه ، واستخلص منه جملة أموال لها صورة . وآخر الأمر مات تحت العقوبة شر موتة . وقد أذاقه أنواع العذاب ، وتفنن فى عذابه تفننا زائدا . قيل انه ضربه عدة مرار نحوا من ألفين وستمائة عصا ، وقلع أضراسه ودقها فى رأسه ، وغير ذلك من أنواع العذاب . وكان أصله من دمشق ، وهو ابراهيم بن ثابت ، وكان أحد نواب الشافعية ، وله اشتغال بالعلم ، لكنه أدخل نفسه فى أمور السلطنة ، وطاش وظلم وجار عليهم ، ولم يفتكر فى عقبى ذلك ، فأخذ من الجانب الذى أمن اليه ، بعد أن عادى جميع الناس ممن بمصر والشام ، حتى الأمراء وأعيان الناس ، وأعيان الدولة ، وشقى لنفع غيره حتى سلب من المال والروح .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وعلى يده مكاتبة ، فأكرمه السلطان ، وعاد له الجواب ، وسافر بعد أيام .

***

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الصاحب خشقدم الأحمدى ، وقرره فى الخازندارية الكبرى

والزماميه ، عوضا عن جوهر النوروزى ... فعظم أمره جدا ، وصار وزيرا وخازندارا وزماما . وقرر مشافع الحبشي الطاهرى رأس نوبة السقاة ، وكانت بيده خشداشيه أيضا .

وقبض السلطان على القاضي تاج الدين بن المقسمي ، وقرره في الاستادارية عوضا عن الأمير يشبك الدوادار ... وقد استعفى منها . فصار ابن المقسمي استادارا وناظر الخاص ، فعظم أمره جدا وكانت ذلك نهايته وانتهاء سعده .

وعمل السلطان المولد النبوى بالقلعة وكان يوما حافلا . وحضر القضاة الأربعة ، وجميع الأمراء . فلما انتهى أمر المولد نزل السلطان من القلعة ، وقصد التوجه الى ثغر الاسكندرية ، فسافر من البر ، وجهز سنيحه فى المراكب . وسافر صحبته من الأمراء : الأتابكى أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء الطبلخاناة ، والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية ، والمماليك السلطانية . وسافر معهم سائر المباشرين . وكان القاضى كاتب السر ابن مزهر متوعكا فى جسده ، وخرج وسافر مع السلطان وهو عليل .

وكان علم الدين شاكر بن الجيعان مريضا ، على غير استواء ، فتخلف بالقاهرة . وانما سافر معه ولده عبد المغنى . فلما وصل السلطان الى مدينة الاسكندرية ، زينت له زينة حافلة ، وخرج الى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، وهو بالشاش والقماش . وكذلك قجماس الاسحاقى نائب ثغر الاسكندرية ... واصطف الناس فى شوارع المدينة بسبب الفرجة . فدخل السلطان فى موكب حافل ، وجميع من معه من الأمراء والعساكر ملبسين بآلة السلاح بالعدد الكاملة .

والأتابكى أزبك حامل القبة والطير على رأسه ، والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء ، وقدامه أعيان المباشرين ، وأرباب الدولة ، وطلب طلبا حافلا ، وجر فيه مائتين وخمسين فرسا ، منها خمسون فرسا بالسروج الذهب والكنابيش ، والبقية ملبسة بأنواع الجواغين المكفتة ، والبركستوانات من المخمل الملون ، وفى الطلب كجاوش زركش ، وهى التى تعرف الآن بالجوشن ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، والأوزان عسال ، والشبابة . ومشت قدامه الأمراء رءوس النوب بالعصى ، وشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل ، وكان له يوم مشهود .

ثم ان بعض تجار الافرنج نثر على رأسه ألف بندقى ذهبا ، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان يسقط عن ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس عليه ، حتى أدركه الأمير تمراز وبيده عصا ، فضرب الناس حتى خلص السلطان ومشى . واستمر فى ذلك حتى خرج الى باب البحر الذى هناك ، فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح . وكان من العادة القديمة أن السلطان اذا دخل الى مدينة الاسكندرية ، تقفل أبواب المدينة ، وتلقى على الأرض الى أن يرحل السلطان عن المدينة ... فلم يوافق السلطان قايتباى على ذلك ، وأبقى كل شىء على حاله . ولم يدخل الإسكندرية سلطان من عهد الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وقد دخلها مرتين : الأولى فى سنة سبع وستين وسبعمائة ، لما طرق الافرنج ثغر الاسكندرية ، فدخلها على جرائد الخيل . والثانية كانت فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، فأوكب بها فى هذه المرة ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش له خليل بن عرام نائب الاسكندرية الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضة ، ومشت

بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان فى تروجة . وتوجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعة .

ثم توجه بعده الى الاسكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود . فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم ، من الثلث الى الخمس ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباى ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجماس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء قاطبة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة فى الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافلة . ثم انه توجه نحو المنار القديم ، الذى كان بثغر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا عظيما ، وهو الموجود الآن . ثم ان السلطان رحل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمنهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان فى هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحوا من أربعين يوما ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء فى غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماه ، وأخبر أن نائب حماه ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دواداره وأحرقوه بالنار ، بسبب ظلمه وعسفه فى حق الرعية . فلما بلغ السلطان هذا الخبر ، عين من عنده خاصكيا لكشف الأخبار ، ليرى الظالم من المظلوم .

وفيه حضر قاصد من مكة المشرفة ، وأخبر بنزول صاعقة عظيمة عند باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ، وأخبر بوفاة قاضى القضاة المالكية بمكة المشرفة ، وهو محمد أبو اليمن بن أبى السعادات ، وكان من أهل العلم والفضل .

وأخبر أيضا بوقوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بنى جزازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بنى جزازان .

* * *

وفى ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفى آخر يوم من أبيب . وكسر فى أول يوم من مسرى ، فعد ذلك من النوادر ، وفيه يقول القائل :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
اذا رام جريا فى الخليج تقنطرا
ولكن بهذا الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما فى القرى وتجسرا

وقال آخر :

ان بحر النيل قد وفى لنا
ما عليه من قديم قررا
وفضانا الدين الا أنه
حين وفى ما عليه انكسرا

وكان الوفاء فى غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوما مشهودا .

وفيه كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاكر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند الملوك والسلاطين . وكان عنده تواضع

بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشـيد ، فانه كان فى توجهه . وتوجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعه .

ثم توجه بعده الى الاسـكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، فى سـنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلمـا دخلها كان له بها يوم مشـهود . فوقف له بعض تجار المغاربه بقصة يشكو له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخـذ منهم ، من الثلث الى العشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباى ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجماس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلـع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعـا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء قاطبة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة فى الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجـار الاسكندرية تقادم حافلة . ثم انه توجه نحـو المنار القديم ، الذى كان بثغر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا عظيما ، وهو الموجـود الآن . ثم ان الســلطان رحـل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمنهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان فى هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحوا من أربعين يوما ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء فى غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماه ، وأخبر أن نائب حماه ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دواداره وأحرقوه بالنار ، بسـبب ظلمه وعسفه فى حق الرعية . فلما بلغ الســلطان هـذا الخبر ، عين من هنـاك حادث كتبا لتضمنه الأخبار ، لبرئ الظالم من المظلوم .

وفيـه حضر قاصـد من مكة المشرفة ، وأخبر بنزول صاعقة عظيمة عنـد باب السلام ، فاحترق منهـا عدة أماكن ، وأخبر بوفاة قاضى القضـاة المالكية بمكة المشرفة ، وهو محمد أبو اليمن بن أبى السعادات ، وكان من أهل العلم والفضل

وأخبر أيضا بوقوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بنى جزازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بنى جزازان .

* * *

وفى ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفى آخر يوم من أبيب . وكسر فى أول يوم من مسرى ، فعد ذلك من النوادر ، وفيه يقول القائل :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
اذا رام جريا فى الخليج تقنطرا
ولكن بهـذا الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما فى القرى وتجسرا

وقال آخر :

ان بحـر النيل قـد وفى لنـا
ما عليــه مــن قــديم قــررا
وقضـــانا الــدين الا أنه
حين وفى ما عليـــه انكسرا

وكان الوفاء فى غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوما مشهودا .

وفيه كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان بن عبـد الغنى بن شـاكر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند الملوك والسلاطين . وكان عنده تواضع

زائد للناس قاطبة . وله اشتغال بالعلم . ومولده فى سنة سبعين وسبعمائة ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى بالقرب من بركة الرطلى . وكان نادرة فى بنى الجيعان .

وفيه وصل السلطان الى القاهرة ، وطلع الى القلعة . وكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحو شهر وأيام ، ودخل له تقادم حافلة . فلما استقر بالقلعة خلع على الشرفى يحيى بن شاكر بن الجيعان ، وقرره فى وظيفة والده . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

* * *

وفى جمادى الأولى عرض السلطان جماعة من أولاد الناس ، وقرر منهم من اختاره فى وظائف مثل طبردارية وجمدارية ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن القوصونى ، وقرره فى رياسة الطب ، عوضا عن ابن العفيف .

وكانت انتهت عمارة قاعات الأزبكية ، التى أنشأها الأتابكى أزبك ، فعزم على السلطان هناك فنزل اليه وبات عنده فأضافه ضيافة حافلة . ثم قدم له تقادم هائلة فشكره على ذلك ، ولم يقبل منها شيئا . فلما أصبح توجه هو والأمير يشبك الدوادار الى جهة المطرية ، فأضافه هناك الأمير يشبك فى القبة التى أنشأها هناك . فأقام عنده يوما وليلة ، وانشرح هنالك الى الغاية ، وشكر عمارة الأمير يشبك على عمارة الأتابكى أزبك . ثم طلع الى القلعة ، وبعث اليه الأمير يشبك تقادم حافلة ، فقبل منها شيئا وردّ منها شيئا .

وفيه انتهت زيادة النيل الى أصبع واحدة وعشرين ذراعا . وثبت الى آخر بابة ، وقد كسر الجسور وقطع الطرقات ، وغرقت أراضى المنية . وكان نيلا عظيما .

وفيه خلع السلطان على قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقرره فى مشيخة الخانقاه الشيخونية ، عوضا عن الشيخ سيف الدين الحنفى ، بحكم وفاته رحمه الله تعالى . وكان ابن الشحنة منفصلا عن القضاء .

وفيه ، فى أثنائه ، خرج السلطان على حين غفلة من العسكر ، وتوجه الى الصالحية . ثم بعد أيام أشيع بأن السلطان توجه من هناك الى البلاد الشامية ، فتعجب الناس من ذلك ، وكان فى نفر يسير من العسكر بحيث انه كان معه من المماليك نحو من أربعين مملوكا من خواصه ، وكان معه بعض أمراء عشراوات ، وتانى قرا الدوادار الثانى وآخرون من الأمراء . وكان معه من المباشرين القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهر ، وأبو البقاء ابن الجيعان ، وشهاب الدين بن التاج الموقع . وبرهان الدين بن الكركى الامام ، وغير ذلك مما لا يحضرنى أسماؤهم . وترك بالقاهرة الخليفة المستنجد بالله والقضاة الأربعة ، والأتابكى أزبك ويشبك الدوادار ، وسائر الأمراء المقدمين ، والطبلخانات والعشراوات ، وجميع العسكر قاطبة ، لم يتبعه أحد منهم . فصار الناس فى شك من سفره على هذا الوجه ، ولم يتفق لأحد من السلاطين مثل هذه الواقعة .

* * *

وفى جمادى الآخر ورد هجان من عند السلطان وعلى يده مراسيم الى الأمراء الذين بالقاهرة . فكان من مضمونها أن السلطان توجه الى نحو البلاد الشامية ليكشف عن أمر النواب والقلاع بنفسه . وأرسل يقول للأمراء بأن يتوصوا بالرعية والجد فى الأحوال ، وأن يحضروا الجامكية مادام السلطان غائبا . وكان المشار اليه فى غيبة السلطان

الأمير أزبك ، وقد عظم أمره جدا والتمد السلطان عليه دون الأمراء .

وفيه فى غيبة السلطان توفى القاضى نور الدين ابن الأبنابى ، نائب كاتب السر ، وكان رئيسا حشما عارفا بأحوال المملكة ، وكان انسانا حسنا لا بأس به رحمه الله تعالى .

* * *

وفى رجب توجه القضاة الأربعة الى بيت الأتابكى أزبك والأمير يشبك الدوادار ، وهنوهما بالشهر .

وفيه خرج الأتابكى أزبك الى السرحة ، فغاب أياما وعاد الى القاهرة .

ومن جملة ألطاف الله تعالى أن فى غيبة السلطان لم يقع الخلف بين الأمراء ، بل كان الأمان والاطمئنان فى القاهرة وجميع ضواحيها ، حتى عد ذلك من النوادر .

* * *

وفى شعبان وصل هجان من عند السلطان ، وأخبر بأن السلطان دخل الى حلب ، وأقام بها ، وهو قاصد الى جهة الفرات ، وقد عرج قبل دخوله الى حلب نحو طرابلس .

ثم حضر هجان ثان وعلى يده مراسيم للأمراء بالسلام ، ومكاتبة للأتابكى أزبك بأنه يتوجه الى المطعم بالريدانية ، ويلبس الأمراء هناك الصوف وأن يصرف الكسوة للجند . فخرج الأتابكى أزبك الى المطعم وصحبته الأمراء قاطبة والعسكر وكان له يوم مشهود . فألبس الأمراء هناك الصوف كعادة السلاطين . وخلع فى ذلك اليوم على الأمير جانى بك الفقيه أمير سلاح ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر اقبردى الأشرفى بالركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشهابى أحمد بن أبى الفرج ، نقيب الجيش ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الغنى ، وتوفى بحلب . وكان خرج صحبة السلطان فمات هناك .

وقيل انه حصل له رجفة من السلطان فانطرب ومات عقيب ذلك . وكان شابا قليل الأذى للناس لا بأس به .

* * *

وفى رمضان وقع بالقاهرة بعض اضطراب ، وسبب ذلك مضى الثلاثين من شعبان ، ولم ير الهلال ، فأكل غالب الناس فى أول رمضان ، فنادى القاضى الشافعى بالامساك فثار عليه العوام ، وقصدوا الاحراق به ، فثبت رمضان برؤية الهلال قرب الظهر . ولكن أفطر غالب الناس فى ذلك اليوم .

وفيه وقع بين تنم الضبع أخى تنبك الجمالى ، وبين القاضى ابى الفتح السوهاجى ، تشاجر بسبب هدم مكان . فسب الأمير تنم الضبع السوهاجى ، فشكا الى الأمير يشبك . فطلب تنم فلما حضر أمر بضربه بين يديه ، فضرب ولم يوقره لأخيه تنبك الجمالى ، فحصل بسبب ذلك بعض مقلقة بين الأمراء .

وفيه جاءت الاخبار من حلب ، بأن السلطان لما توجه الى الفرات أقام هناك أياما . ثم عاد الى حلب ورحل عنها ، وقصد التوجه الى حماة ، فلما دخلها وأقام بها ، حصل له هناك مرض فى جسده ، فلما ثقل فى المرض وعجز عن الحركة ، أحضروا له محفة فحمل بها ، وتوجه الى دمشق فدخلها وهو مريض على غير استواء . فكثر القيل والقال بين الناس ، وصار فى كل يوم يشاع بالقاهرة خبر جديد بأن السلطان مات ودفن هناك ...

فاضطربت أحوال الأمراء فى بعضهم ، وأظهر كل واحد منهم ما فى نفسه من السلطنة . وأرجفت القاهرة بموت السلطان غير ما مرة . ونقل للأمير يشبك الدوادار بأن برد بك جيش ، أحد الأمراء الآخورية ، وكان من أخصاء جانبك الفقيه أمير سلاح ، قد مشى بين طائفة المماليك الخشقدمية ، بأن يكونوا من عصبة جانبك الفقيه . واذا صح موت السلطان يقومون معه ويسلطنونه

وكان جانى بك الفقيه تحدثه نفسه بالسلطنة ، ويقرب الفلكية والمنجمين ، وحظى عنده جماعة بسبب ذلك .

ثم ان الأمير يشبك أرسل خلف برد بك جيش ، وذكر له ما نقل عنه ، فأنكر ذلك وحلف أيمانا عظيمة أنه لم يصدر منه شيء من ذلك ، فقامت عليه البينة وكذبوه فى وجهه . فسكت ولم ينطق بحرف واحد ، فعند ذلك أمر الأمير يشبك بضربه ، فضرب بين يديه ضربا مبرحا حتى أشرف منه على الهلاك . ثم أقامه وأحضر له عمامة يهودى صفراء ، وألبسها له ، وقصد يشهره بالقاهرة . فتشفع فيه بعض الأمراء ، فأركبه على حمار وجرسه بين يديه فى الدوار . ثم شكه فى الحديد ، وأمر بنفيه الى الواح .

كل ذلك جرى والسلطان غائب ، لم يعلم له خبر ، وكانت هذه الواقعة سببا لنفى جانى بك الفقيه أمير سلاح كما سيأتى الكلام على ذلك

وفيه ختم البخارى بالجامع الأزهر ، وحضر به القضاة الأربعة ، وفرقت هناك الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء ، وكانت قراءة البخارى من اول رمضان فى الجامع الأزهر ، وعند الدعاء يدعون للسلطان بالسلامة .

فبينما القاهرة فى اضطراب واذا بخاصكى حضر من عند السلطان ، يقال له برد بك سكر ، وعلى يده مكاتبات للخليفة والقضاة الأربعة ، والأتابكى أزبك ، والأمراء قاطبة . فكان من مضمونها آن السلطان قد حصل له توعك فى جسده ، وقد بعث الله تعالى له بالعافية والشفاء ، وحصل له البرء . فضربت البشائر بالقلعة ، ودخل على برد بك سكر عدة كوامل بسمور من الأمراء ، والخليفة ، وقضاة القضاة ، وأرباب الدولة ، ودقت له البشائر على أبواب الأمراء ، ونودى فى القاهرة بالزينة سبعة أيام ... فزينت وأظهرت الناس الفرح والسرور بعافيته . وسكن الاضطراب الذى كان بالقاهرة ، وبطل القيل والقال الذى كان بين الأمراء وفى ذلك يقول الشهاب المنصورى :

بعافية السلطان مولى الأنام قد
تهلل وجه الدهر فهو جسل
وقد صح الدنيا لصحة جسمه
وليس بها غير النسيم عليل

وكان الأمير يشبك الداودار من حين توجه السلطان للسفر ، وهو مجتهد فى توسيع الطرقات واصلاح وجوه أبواب الجوامع والمساجد ، وجلى رخامها ، وبيض حيطانها ، وكشف عن أبواب جامع الملك الصالح ، وظهر منه عواميد رخام فجلاها ، وأمر بتبييض الدكاكين ، ووجوه الربوع التى تطل على الشوارع ، وخلع على شخص من أبناء الناس ، وجعله منسد الطرقات ، فصار يستحث الناس فى سرعة البياض والدهان ، حتى صارت القاهرة كأنها استجدت فى بنائها وزخرفها ... وصارت مثل العروس التى تجلى .

ثم ان الأمير يشبك أمر بقلع عتبة باب زويلة وأعلى العتبة وأصلحها . فان الأرض كانت علت على العتبة ، فقطع الأرض ، ومهد قدام الباب . واستمر باب زويلة مغلقا أياما حتى انتهى العمل منها ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه حضر هجان من عند السلطان ، وأخبر أن السلطان خرج من الشام بعد ما جلس بالقصر الذى بالميدان ، وحكم بين الناس ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء . وخلعت الأمراء على الهجان . ثم حضر عقيب ذلك هجان ثان ، وأخبر بأن السلطان خرج من غزة ، وهو قاصد الديار المصرية ، فشرع الأمراء فى الخروج الى ملاقاة السلطان . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان وصل الى قطيا .

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى الصالحية . وصلى بها صلاة العيد ، وهو عيد الفطر . فعند ذلك خرج الاتابكى أزبك والأمير يشبك الدوادار . وبقية الامراء قاطبة ، الى ملاقاة السلطان . ثم وصل الى الخانقاه ، فخرج اليه القضاة والعسكر بأجمعهم . وزينت له القاهرة بالزينة . فزينت زينة حافلة .

فلما كان يوم الخميس رابع شوال ، دخل السلطان الى القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه القضاة الأربعة . والامراء والعسكر . على ما جرت العادة به فى المواكب . وكان له موكب عظيم ويوم مشهود ، الى أن طلع الى القلعة . فعملت له حينئذ ما يناسب الملوك ، الى أن دخل الحوش ، فمدت الأسمطة الى القلعة . ثم أخلع على من كان مسافرا بصحبته .

ولما وصل السلطان الى الفرات ، قدم عليه شخص من أولاد حسن الطويل ، وهو ابن محمد اغرلو بن حسن الطويل ، وكان شابا جميل الصورة له من العمر نحو من ثمانى عشرة سنة ، فخاف عليه أبوه أن يقتله أستاذه ، فحضر به الى السلطان ، فحضر به الى القاهرة وحبس عنده . وكان عند مروره من القاهرة [illegible] كالملوك والامراء . واستمر بمصر حتى مات كما سيأتى الكلام عليه .

وكان اسمه حسين بك وقيل مرزاه ، وهو المشهور عند الناس .

ولما رجع السلطان من هذه السفرة عظم أمره جدا ، وكان انتهاء سفره الى الفرات ، وكشف على عدة قلاع بنفسه ، ودخل الشام وحلب وطرابلس وحماة ، وغير ذلك من البلاد الشامية . ودخل عليه من النواب وأعيان الناس جملة تقادم وأموال لها صورة . وعدت هذه السفرة من النوادر الغريبة .

وكانت مدة غيبة السلطان فى سفرته نحوا من أربعة أشهر . وفى هذه الواقعة يقول الشيخ محمد ابن الزيتونى هذه القطعة الزجل ، وهى من محاسن هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهى هذه :

سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين
من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدا يروم الفرات
فأسقى الخيول من ماه وربه حماه

***

فى مصر فرسان أربعين بالعدد
لدورة المحسل يسوقوا الجياد
ورعبهم ساكن قلوب الملوك
يردوا الخارج وأهل العناد
فى دا العدد راح الملك وافتخر
بهم على سائر ملوك البلاد

***

وخير سوار لاقاه وفى صحبته
ولد حسن بك بالخدم ما أباه
وخلع عليه اطلس وخلع على
ولد حسن خلعه وشتت أباه

***

كامل مظفر بالعدا لم يزل
يجرى دماهم فى الفيافى نهر

خرج لتطمين العباد فى البلاد
فكم شكر عادل وظالم نهر
امامنا الأعظم مليك الزمان
بالعدل فى هذا الوجود اشتهر

***

كشف عن النواب فمن خان وجار
أنكر عليه فعلو وبالعزل جاه
ومن رآه عادل وفعلو حسن
خلع عليه وأعطاه منازل وجاه

***

هذا الملك صالح وسرو ظهر
لا شك انو قطب فى الدائره
لما خرج فى الأربعين خلتهم
بدر الدجى حولو نجوم زاهره
له منازل كل حد منزله
شىء للرصد شأنه وشىء سامره

***

كشف بلاده واعتبر أهلها
واحد رفع قدره وآخر ساه
وطلعتو فاقت شموس الضحى
وأخفت البدر المنير فى سماه

***

لما دخل للشام وكان قد ضعف
من الهوا والشرب من ماء العيون
وربنا عافاه وجابو لنا
سالم وقرت به جميع العيون
عادل وربه بالظفر أيده
عجب لسلطان حايز جميع الفنون

***

ومهد الدنيا بعدلو وان
راد ينثنى عزمو الشديد ما ثناه
وفاز بتاريخ ما فرح به ملك
قبلو ونال قصده وسعى بناه

***

أهل الفضائل والعلوم وزخو
وكل واحد فى الكتابه ذهب
يكتب تواريخ الملوك بالمداد
الا لقايتباى كتب بالذهب
هو فارس الاسلام وليث الوغى
وفهلوان الحرب مثل العجب

***

وخالقه علا مقامه الشريف
على الملوك وآنشاه ومن ما براه
وكل ذا فى اللوح قديم فى الأزل
خطلو القلم جل الذى قد براه

***

تاريخ سنة اثنين جمادى الأخير
يلى ثمانين مع ثمان من مئين
من هجرة الهادى عليه السلام
خير النبيين سيد المرسلين
تجهز السلطان يريد السفر
وأخفى عن العسكر خرج فى آربعين

***

وفر لبيت المال خزائن ذهب
ما تحصرو أقلامنا مع دواه
وريح العسكر وكم من ضعيف
كان التخلف فى بلاده دواه

***

لاجل الدوادار الكبير قد برز
أمره بتوسيع الطريق المضيق
وكشف أبواب المساجد وما
بين المدارس كان على غير طريق

وصلح الأبواب وشيء يبيضه
وأخلع على واحد مشد الطريق
***
ووكله بالقاهرة كل يوم
بقى يدور راكب وفى ايده عصاه
فيأمر الناس بالبياض والدهان
طاع الجميع أمره وما واحد عصاه
***
صارت مدينتنا عروس للملك
وذا عجب كيف العريس هو الولى
ونقشوها بالدهان فى البياض
وأضحت عروسه بالطراز تنجلى
ومدت المدات نهار الفرح
وزينوها بالحلل والحلى
***
وبان لها سيقان عواميد رخام
جلاهم الصانع ونعم جلاه
ودقت الكوسات نهار الدخول
وكان دخوله فى المواكب جلاه
***
وقبل ذا صلوا على المصطفى
خير الخلائق واعلنوا بالسلام
بكل مرة من صلاتك عليه
جزاك عشره بالصلاه يا كرام
وبالشفاعة يدخلك جنته
من بابها الأول لدار السلام
***
هو أول الرسل الكرام فى الوجود
وهو لهم خاتم وما حد تلاه
وانزل القرآن عليه العزيز
على لسان جبريل مفرق تلاه
***

فى ليلة المعراج بخير الأنام
ساقوا حديث مسند صحيح السياق
نزل عليه جبريل وقال له الاله
يدعوك الى الحضره على ذا البراق
ركب عليه حتى صعد للسما
وصار الى السبع العوالى الطباق
لجنة المأوى رقى وارتقى
وزج به فى النور وزاد فى شفاه
وأفرض عليه الخمس كان أصلها
خمسين وفيها خطابه شفاه
***
هذا المعانى والبديع والجناس
من نظم زيتونى لفقه دخول
أبو النجا العوفى نظم فى الملك
من حين خروجه فى السفر للدخول
فان تجد عيبا فسد الخلل
اذا سمعته فى نظامه يقول
***
سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين
من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدى يروم الفرات
فأسقى الخيول من ماه وربه حماه

وفيه ، فى ثامن عشر منه ، خرج الحاج وكان أمير ركب المحمل الأمير جانى بك الفقيه ، أمير سلاح وبالأول أقبردى الأشرفى ، فلما خرج جانى بك الفقيه رسم السلطان بهدم سبيله الذى قد أنشاه بالرميلة . فأخذ الناس يلهجون بأنه لا يعود الى القاهرة ، وكذا جرى ...

***

وفى ذى القعدة قدم قجماس الاسحاقى نائب الاسكندرية ، وأقام بالقاهرة بباب السلسلة . وكان

قد جمع بين نيابة الاسكندرية وبين امرية الآخورية الكبرى .

وفيه نزل السلطان ونوجه الى بر الجيزة وكشف عن خيوله ، وأقام هناك أياما . ثم توجه الى جهة منوف العلا ، وكشف عن جسورها ، وأمر باصلاحها ، وأقام هناك أياما وعاد الى الجيزة . ثم سافر من هناك الى الفيوم ، وكان معه فى هذه المرة الأتابكى أزبك ، وتمراز التمشى رأس نوبة كبير . وكان معه من الأمراء العشراوات ، ومن الخاصكية عدة وافرة . فلما دخل الى الفيوم تلقاه خاير بك ، وكان مقيما بالفيوم ، فخلع عليه خلعا فاخرة ، وأقام هناك أياما ، وهو فى أرغد عيش ، على سبيل التنزه .

فبينما هو على ذلك اذ ورد عليه من جهة الصعيد ، بأن عرب هوارة ثاروا مع يوس بن عمر ، على برسباى كاشف الوجه القبلى فكسروه . ووقع بينهما مقتلة ، قتل فيها جماعة كثيرة من الجند والبلاصية ، فتنكد السلطان لهذا الخبر . وقصد أن يتوجه من هناك الى بلاد الصعيد ، فمنعه الأمراء من ذلك . وكان الأمير يشبك متمرضا برجله ، وهو بالقاهرة ، فأرسل السلطان يستحثه فى سرعة السفر الى جهة الصعيد .

***

وفى ذى الحجة عاد السلطان من سفره من الفيوم ، فلما استقر بالقلعة ، خلع على بركات بن يحيى بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر عوضا عن نور الدين الانبابى ، بحكم وفاته ... وهذا أول ضخامة الزينى بركات بن الجيعان .

وفيه توفى الناصرى محمد بن قرقماس الحنفى ، وكان عالما فاضلا من أعيان الحنفية ، وكان يدعى معرفة علم الحرف وعلم الكيميا ، وكان ولى مشيخة تربة الظاهر خشقدم . ومولده سنة اثنتين وثمانمائة وكان ناظما ناثرا ، وله عدة مصنفات ، منها « كتاب زهر الربيع فى شواهد البديع » وغير ذلك من التآليف ، وله معارضة مقامات الحريرى ، وكان يدعى دعاوى عريضة ، ومن نظمه :

اذا من من تهوى عليك بنظرة
أماط الجوى من قلبك الباس والداوى

فكن شاربا صبرا لمر صدوده
فما ذاق من الوصل من هم بالسلوى

وقوله فى مليح من ركاب الخيل وأجاد :

وظبى من العرب الكرام سألته
لمن فى الورى تعزى فقال مؤنبى

أنا ابن الذى تمشى الملوك أمامه
اذا ما رأوه راكبا يوم موكب

وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب تلك الفتنة التى وقعت بين يوس ابن عمر ، وبين داود بن عمر قريبه ، وأخذ معه جماعة كثيرة من الجند .

وفيه توفى حسن بن محمد بن أيوب الكردى ، نائب القدس ، ونائب الكرك ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . وكان قد شاخ وناف على الثمانين سنة .

وتوفى القاضى شهاب الدين أحمد البلولونى الحنفى ، أحد نواب الحكم . وكان مفرطا فى السمن جدا ، بحيث لم يكن فى عصره أسمن منه . ومما وقع له أن جماعة من الفلاحين تحاكموا عنده على دين ، فأنكر الذى عليه الدين ، فألزمه القاضى باليمين ، فلما أراد أن يحلفه ، قال له الخصم : ان كنت ما أخذت منى شيئا نيمى فى سمن هذا القاضى . فاعترف لخصمه بالدين ولم ينكره .

سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة (١٤٧٨ م) :

فيها . فى المحرم ، خلع السلطان على العلائى على بن الصابونى ، وقرره فى وكالة بيت المال ، عوضا عن النابلسى ، وقرر فى قضاء الشافعية بحلب ، عز الدين الخشناوى ، وصرف عنها أبو البقاء ابن الشحنة .

وفيه جاءت الأخبار بأن السلطان قبض على جانى بك الفقيه ، أمير سلاح الذى توجه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه من العقبة ، وأرسله من هناك الى القدس بطالا .

ونفى أيضا قايتباى الخشقدمى الى جهة حلب ، ونفى أيضا يشبك جنب الظاهرى جقمق الى جهة دمشق . لكونهما كانا من أصحاب جانى بك الفقيه .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد قاسى فى السنة المذكورة شدائد عظيمة من الغلاء ، وموت الجمال ، وانقطع جماعة من الحاج من رجال ونساء . وقتل فى السنة المذكورة قاضى المدينة المشرفة وخطيبها . وقد قتله بعض الرفض ... وسبب ذلك أن الخواجا شمس الدين بن الزمن ابتدأ بعمارة مدرسة السلطان ، فأخذ مكانا كان يسكنه هذا الرافضى ، فدخله فى بناء المدرسة ، فتعصب القاضى على الرافضى فى هدم مكانه ، وكان ذلك سببا لقتله .

أقول : وأنا حججت تلك السنة ، وشاهدت الواقعة ، وقبض جانى بك الفقيه من العقبة .

وفيه خلع السلطان على جانم قريبه وقرره فى نظر الجوالى : وهو جانم الشريفى . وهذا أول اشتهار جانم الشريفى فى الوظائف . فأقام فى نظر الجوالى مدة يسيرة . ثم أنعم عليه بتقدمة ألف . وهى تقدمة جانى بك الفقيه أمير سلاح . فعظم أمر جانم جدا ، وكان أمرد لم يلتح .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على شاد بك الصغير ، وقرره فى نيابة سيس ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقدم أزدمر الى القاهرة .

وفيه كان عقد جانم الشريفى ، قريب السلطان ، على خوند ، ابنة العلائى ، على بن خاص بك . وكان بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة . وكان عقدا حافلا ، وخلع فيه على قاضى القضاة ، ولى الدين الأسيوطى لكونه تولى العقد . وخلع على كاتب السر ابن مزهر لكونه كان وكيلا عن جانم .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه عين السلطان وردبش الظاهرى ، بأن يخرج الى اللجون ، بسبب احضار الأخشاب . وعين معه جماعة من الجند ، وأمرهم بأن يدخلوا الى قبرس ، ويطالبوا أصحابها بالجزية ، ويتوجهوا من هناك الى اللجون ، لاحضار الأخشاب .

وفيه وقف الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيار ، الى السلطان بقصة يشكو فيها قانصوه خمسمائة ، بسبب المكان الذى أنشأه بقناطر السباع ، تجاه بيت ابن أسنبغا الطيار ، وذكر فى القصة أن قانصوه خمسمائة قد جار عليه ، وفتح من عنده بابا بغير طريق شرعى ، وقطع من عنده عدة أشجار ، وقد أضر ذلك بحاله . فلما سمع السلطان ذلك وبخ قانصوه خمسمائة بالكلام ، وأمره بأن يسد الباب الذى فتحه ، ويرضيه فى قيمة الأشجار التى قطعها من عنده . وأنصف السلطان ابن أسنبغا الطيار على قانصوه ، فعد ذلك من النوادر لكونه أنصف ابن اسنبغا على قانصوه ، مع خصوصيته بالسلطان ، ولكن كان قانصوه متعديا على ابن أسنبغا الطيار .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على قجماس الاسحاقى ، أميرآخور كبير وقرره فى امرية الحاج ، بركب المحمل ، وخلع على فارس الركنى ، وقرره بامرية الركب الأول . فاستعفى فارس من ذلك فأعفاه السلطان ، وقرر عوضه أقبردى الأشقر على عادته . وقيل ان فارسا استعفى بمال عن امرية الحاج .

وفيه جاءت الأخبار بأن يشبك الدوادار قبض على يونس بن عمر الهوارى ، وقد تتبعه الى بلاد النوبة ، وجرى معه أمور يطول شرحها . وآخر الأمر قبض عليه وقطع رأسه ، وقبض على أخيه أحمد ، وعلى جماعة من أقاربه ، وانتصر على بنى عمر نصرة عظيمة ، وبعث برأس ابن عمر يونس الى القاهرة ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة أياما .

وكان يونس هذا من خيار بنى عمر ، وهو يونس بن اسماعيل بن يوسف أمير عربان هوارة ، وكان مشهورا بالشجاعة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى فى رابع مسرى ، فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

ومن الحوادث الغريبة أن فى ليلة الوفاء انقطع جسر أبى المنجا ، وانقلب عن آخره ، فحصل للبلاد التى تحته غاية الضرر ، وغرق الكثير من أموال الناس والمقطعين .

ومن العجائب أن البحر لم يتأثر لقطع جسر أبى المنجا ، ووفى فى تلك الليلة . وزاد عن الوفاء اثنتى عشرة أصبعا . فعد ذلك من النوادر .

ثم فى ثانى يوم من كسره زاد ست عشرة أصبعا ، وأكمل الذراع السابعة عشرة فى يومين ، حتى تعجب الناس من ذلك وقد قال القائل :

آرى النيل قد وافى وزاد ولم يزل
يجود على أهل القرى بالمكارم
أفاض عليها الماء من بسط راحه
أصابعها فاقت أيادى حساتم

* * *

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حماة ، بأن سيف بن نعير الغاوى وقرابته قد خرجوا عن الطاعة ، وأن نائب حماة تقاتل مع الغاوى فكسر نائب حماه ، وقتل من عسكره ما لا يحصى . ثم خرج اليه نائب حلب وأوقع معه ففر منه ، فتبعه وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة بين المماليك الجلبان ، حتى تقارعوا بالسيوف ، فحنق منهم السلطان ، ورمى النمجاة والترس من يده ، ونزل من القلعة ، وتوجه الى نحو شطنوف . فلما تحقق الجلبان ذلك أخذوا فى أسباب تلافى خاطره ، وسكن أمر الفتنة التى كانت بينهم . ثم توجه الأتابكى أزبك ، وكاتب السر الى السلطان ، وتلافوا خاطره ، وتلطفوا به فى عوده الى القلعة ، فما زالوا به حتى عاد الى القلعة بعد جهد عظيم .

وفيه وصل الأمير يشبك الدوادار من جهة الصعيد ، وحضر صحبته جماعة من بنى عم يونس وأقاربه ، وهم فى الحديد ، وأحضر الأمير أحمد ابن عمر الهوارى أخا يونس الذى قطعت رأسه ، فلما تمثل بين يدى السلطان خلع السلطان على الأمير يشبك خلعة حافلة ، ونزل الى داره ومعه أحمد بن عمر فى الحديد .

* * *

وفى جمادى الآخرة عرض أحمد بن عمر على السلطان ، فرسم بتسليمه الى الوالى هو ومن معه ، وكانوا سبعة أنفار ، فأركبوهم على جمال ، ونزلوا بهم الى باب زويلة ، فكلبوا الجميع ،

وعلقوهم بباب زويلة ووسطوا منهم جماعة ، وكان لهم يوم مشهود ، وتأسف عليهم الكثير من الناس ، فانهم كانوا خيار بنى عمر ... ولكن كان للأمير سسبك عليهم ثأر قديم ، فاقتصه منهم . كما قيل « الموت فى طلب الثار ، ولا الحياة فى العار »

وفيه نزل السلطان الى قبة بشبك التى بالمطرية فأضافه هناك كاتب السر ابن مزهر ضيافة حافلة ، وبات هناك ثم طلع الى القلعة .

* * *

وفى شهر رجب خلع السلطان على الشريف سبع ، وقرره فى امرية الينبع ، عوضا عن صقر بحكم القبض عليه .

وفيه خلع السلطان على يوسف بن ابى الفتح المنوفى ، نائب جدة ، وقرره فى كتابة المماليك ، عوضا عن عبد الكريم بن جلود بحكم وفاته . وكان متحدثا فيها بغير تقرير

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانى بك الفقيه ، الذى كان أمير سلاح ، ونفى من العقبه الى القدس ، فمات هناك . وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق . وكان يعرف بجانى بك بن ططخ . وكان انسانا حسنا ، وكان له اشتغال بالعلم ، وتولى عدة وظائف سنية منها أميرآخور تانى ، ثم بقى أميرآخور كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم نفى الى القدس ، ومات به بطالا .

وفيه توفى دولات حسام الأشرفى وكان يعرف بدولات باى بن تغرى بردى . ومات وهو نائب الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه عزل تاج الدين بن المقسى من الاستادارية ، وأعيد اليها الأمير يشبك الدوادار ، وأقام ابن المقسى فى الترسيم على مال يورده وكان ذلك آخر سعده .

* * *

وفى شعبان خلع على بدر الدين بن محمد ابن الكويز وقرر فى نظر الخاص ، عوضا عن تاج الدين بن المقسى بحكم انفصاله عنها ، وفيه خلع السلطان على محمد بن عجلان ، وأعاده الى مشيخة العرب بالشرقية . وكان له نحو من عشر سنين وهو فى البرج بالقلعة .

وفيه خلع السلطان على أقباى الطويل ، وقرره فى كشف الشرقية ، واقباى هذا هو الذى ولى نيابة غزة فيما بعد .

وفيه توفى دولات باى سكسكان الاشرفى برسباى توفى بحماة ، وكان أتابك العساكر بها ، وكان من أعيان الأشرفية ، ولا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بموت حسن الطويل ، ملك العراقين ، وأن ولده خليل تولى على العراقين بعده . وقيل ان موته كان فى رجب ، وكان ملكا جليلا عاقلا سيوسا ، كثير الحيل والخداع ، اقتلع ملك العراقين من أخيه جهان كبير ، بحيل غريبة ، وقتل عمه الشيخ حسن ، وانقرضت دولة بنى أيوب على يده . ثم قوى على جهان شاه ، وحاربه حتى كسره ، وقتله وشتت أولاده ، وملك تبريز والعراقين ، وبلغ مبلغا لم يصل اليه أحد من أجداده ، ولا من أقاربه .

وقد تحرش بابن عثمان ملك الروم ، بأن يأخذ من ملكه شيئا ، فما قدر عليه

ثم تحرش بسلطان مصر وجرى له مع الأشرف قايتباى أمور يطول شرحها . وكان الأشرف قايتباى يخشى من سطوته ، فلما مات عد ذلك من جملة سعد الأشرف قايتباى .وقد قيل فى المعنى :

أيا ملكا صار من سعده
بموت الأعادى حقيقا يفوزا
لقد أهلك الله عنك العداه
وينصرك الله نصرا عزيزا

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو القـرين ، ثم الى الخطارة ، وكشف عن الجامع والسبيل اللذين أنشأهما هناك ، والحوض الذى أنشأه هناك ، على الدرب السلطانى . وكان المشد على العمارة الأمير يشبك الجمالى ، فجاءت هده العمارة فى غاية النفع .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على اينال الأشرفى ، مملوك السلطان ، وقرره فى نيابة الاسكندرية ، عوضا عن دولات باى حمام

وفيه كان ختم البخارى بالقلعـة ، على العادة وكان ختما حفلا .

* * *

وفى شوال فى يوم عيد الفطر ، خلع السلطان على الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، وكاشف التراب ، ومدبر المملكة ، وغير ذلك فصار رأس مجلس الميسرة ، وهو بالقصر ، ويقف فى الحوش ، ولم تجتمع هذه الوظائف فى أحد من الأمراء قبله .

وفيه توفى شمس الدين العـاقل أحد الموقعين والشهود العدول ، ولا بأس به .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير الركب بالمحمل قجماس أميرآخور كبير ، وأمير ركب الأول اقبردى الأشرفى .

وحج فى السنة المذكورة الشيخ صلاح الدين الطرابلسى الحنفى .

* * *

وفى ذى القعدة قصد قانصوه الألفى أن يسافر الى بلاد جركس ، وكان قد حصـل له توعك فى أذنه وعينيه ، فتـوجه هناك للتداوى — وكان يومئذ خاصكيا — فغاب هناك مدة طويلة ، ثم عاد الى القاهرة .

وفيـه توفى أبو يزيد بن طراباى الأشرف رأس نوبة الجمدارية ، وهو والد الناصرى محمـ[د] أبى يزيد ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ذى الحجة نزل السلطان من القلعة ، و[توجه] الى بر الجيـزة ، وكشف عن القنـاطر التى بانشـائها على يد الأتابكى أزبك ، وكان ال[...] محتاجا لاصلاح تلك القناطر ، وكانت قد تهد[مت] فصرف عليها جملة مال حتى جددها ، وهى باقي[ة] الآن .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة تانبك[ا] بك قلقسيز ، وكان أميرا جليـلا ، رئيسا حش[ما] وأصله من مماليـك الأشرف برسـباى ، موصوفا بالشجاعة والفروسية ، وتولى عدة و[ظائف] سنية ، منها : حجوبية الحجاب الكبرى ، و[رأس] مجلس ، وامرية سلاح ، ثم ولى الأتابكية وترشح أمره للسلطنة غير ما مرة ، ثم أسر [...] سوار ، ثم أطلق وأعيد الى امرية سلاح ، ثم نيـابة الشام ، ومات بها . وكان كفئـا للم[...] والمهمات وغير ذلك .

وفيه أرسل السلطان الخواجا محمد بن مح[مد] المغربى ، الى ملك التليان الأفرنجى ، وأرس[ل] على يده هدية حافلة فسـار اليه ، وفى عقيب [ذلك] أرسل صاحب قبرس ما عليه من الجزية الم[...] وقصد السلطان أن يجهز له تجريدة ، فلما [أرسل] ما عليه سكن الأمر .

وفيه توفيت خوند فاطمة ، بنت المؤيد أح[مد] الأشرف اينال ، وهى زوجة الأمير يشبك الد[وادار] أم ولده منصور ، وكانت شابة جميلة وفيها ال[...] فحزن عليها الناس .

وفيه توفى شاهين الظاهرى أحـد ا[...] العشراوات وكان لابأس به .

سنة أربع وثمانين وثمانمائة (١٤٧٩ م) .

فيها ، فى المحرم ، توجه الأمير يشبك الدوادار الى ثغر دمياط . وكان السلطان قد جعله متحدثا عليها ، فلما توجه هناك أنشأ على فم البحر الملح عند برج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سلسلة من حديد زنتها نحو من مائتين وخمسين قنطارا . وكانت هذه السلسلة قديما هناك ، ثم بطل أمرها فجددها الأمير يشبك الدوادار ، فى السنة المذكورة ، وحصل بها النفع ، لطرد المراكب التى الفرنج .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة وحمدت سيرة الأمير قجماس أمير المحمل .

وفيه فى يوم السبت رابع عشريه ، كانت وفاة أمير المؤمنين الجمالى يوسف رحمه الله تعالى المستنجد بالله العباسى ابن محمد المتوكل على الله ابن المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله سليمان ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله العباسى الهاشمى . وكان الثالث عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . تولى الخلافة بعد أخيه حمزة ، ودام فى الخلافة نحوا من خمس وعشرين سنة وأشهر . وكان رئيسا حشما ، وعنده لين جانب ، مع تواضع زائد ، ورأى فى خلافته العز وقلد فيها خمسة من السلاطين ، وهم : المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، والظاهر خشقدم ، والظاهر يلباى ، والظاهر تمربغا ، والأشرف قايتباى ، ومات وله من العمر زيادة على الثمانين سنة . ومولده بعد التسعين والسبعمائة . ولما مات دفن عند أقاربه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها . وهو أول خليفة سكن بالقلعة ، ودام بها حتى مات ، ومات عن غير ولد ذكر ، بل خلف بنتا تسمى ست الخلفاء ، فعهد بالخلافة بعده لابن أخيه العزى عبد العزيز .

خلافة المتوكل على الله العباسى

هو المتوكل على الله ، أبو العز عبد العزيز ، ابن يعقوب ، ابن محمد المتوكل على الله ، ابن المعتضد بالله أبى بكر ، ابن المستكفى بالله سليمان ، ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد العباسى الهاشمى . وهو الرابع عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . بويع بالخلافة بعد موت عمه الجمالى يوسف بعهد منه . وكانت ولايته فى يوم الاثنين سادس عشرى المحرم من السنة المذكورة ، فطلبه السلطان ، فحين حضر حضر القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة ، وكان يومئذ عمه موسى موجودا ، ولكنه كان غير صالح للخلافة . فلم يكن فى بنى العباس يومئذ أمثل من العزى عبد العزيز ، فوقع الاتفاق من السلطان والأمراء على ولايته ، فتولى الخلافة فى ذلك اليوم ، ولم يل الخلافة من اسمه عبد العزيز سواه . ثم انه أراد أن يلقب نفسه بالمستعز بالله ، فعورض فى ذلك ولقبوه بالمتوكل على الله ، كلقب جده محمد المتوكل ، فأحضر اليه شعار الخلافة ، وأفيض عليه ، وقدمت اليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش . ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وأمامه قضاة القضاة ، وأعيان الدولة . فتوجه الى مكان تسكن فيه الخلفاء . ثم تحول من يومه وطلع الى القلعة ، وسكن بدار عمه يوسف ، التى هى داخل الحوش السلطانى ، وطالت أيامه فى الخلافة وكان كفئا لذلك . وكانت سنه لما تولى الخلافة نحوا من اثنتين وستين سنة أو أكثر من ذلك . وكان مولده سنة تسع عشرة وثمانمائة ، وكانت أمه تسمى حاج ملك بنت مقبل ، وهو شخص من المماليك السلطانية .

* * *

وفى صفر تغير خاطر السلطان على أزدمر

الطويل الابراهيمى الاينالى ، حاجب الحجاب ، فرسم بنفيه وبعث اليه بألفى دينار يتجهز بها .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى منف ، وأقام بها أياما ، ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على تانى بك قرا الاينالى بتقدمة ألف ، وهى تقدمة أزدمر الطويل ، وعين الدوادارية الثانية الى قانصوه خمسمائة ، وخلع عليه بها بعد أيام .

وفيه نقل السيفى قانصوه اليحياوى من نيابة حلب الى نيابة الشام ، عوضا عن المرحوم جانى بك قلقسيز ، بحكم وفاته . ونقل أزدمر قريب السلطان من نيابة طرابلس الى نيابة حلب عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وقرر فى نيابة طرابلس برد بك المعمار نائب صفد ، عوضا عن أزدمر بن مزيد ، قريب السلطان . وقرر عوضه فى نيابة صفد جانى بك أحد مماليك السلطان ، وكان مقيما بالشام بطالا .

وفيه توفى جانم الأعور بن بلباى أمير شكار ، أحد العشراوات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى .

وفيه ضرب الأمير يشبك الدوادار الكبير الكرة مع السلطان ، فسقط صولجان الأمير يشبك من يده ، فترجل الأمير جانم الشريفى قريب السلطان ، أحد المقدمين عن فرسه ، وأخذ الصولجان من الأرض وناوله للأمير يشبك ، فلما كان فى اليوم الثانى صنع الأمير يشبك وليمة حافلة جدا ، وعزم على جانم وقانصوه خمسمائة وآخرين من الأمراء فلما حضروا أصلح الأمير يشبك بين جانم وبين قانصوه خمسمائة . وكان بينهما وحشة . ثم خلع على كل واحد منهما كاملية بسمور ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ... وكانت هذه الوليمة من نوادر الضيافة الحافلة .

* * *

وفى ربيع الآخر كانت نهاية ضرب الكرة ، وأضاف السلطان الأمراء ضيافة حافلة . ونزلوا الى دورهم .

وفيه كانت وفاة الأمير جانم الشريفى ، قريب السلطان أحد المقدمين . وكان من حين أضافه الأمير يشبك وهو مريض ، حتى اتهم الأمير يشبك بأنه قد شغله فى ذلك اليوم فى شىء من المأكول ، فلما تزايد به المرض وتورمت قدماه ، حمل فى محفة وتوجهوا به الى بولاق ، فأقام هناك بعض أيام ومات . فأمر السلطان بحمله الى داره فى محفة ، فغسل وكفن وصلى عليه بسبيل المؤمنين ، وكان له يوم مشهود . ثم توجهوا به الى تربة السلطان فدفن بها . واستمر العزاء عمالا بالقلعة ثلاثة أيام بدور الحريم . وتأسف عليه السلطان غاية الأسف . وقيل ان السلطان جلس بقاعة البحرة ، ورسم لنساء عرب اليسار أن يدقوا ويلطموا على الأمير جانم وهو ينظر اليهن . وقد جلس للعزاء وصارت الأمراء تتلطف به وتسليه . وقيل ان جانم كان يقرب للسلطان من جهة النساء ، وكان جميل الصورة حسن الهيئة ، قد بدا عذاره . وكان رئيسا حشما وافر العقل جليل القدر ، ورأى غاية العز والعظمة على صغر سنه ، وأقام بالطبقة مدة يسيرة ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى ناظر الجوالى ، ثم بقى شاد الشرابخاناه ، ثم بقى مقدم ألف . وجاءت اليه السعادة سريعا ، وزالت عنه فى مدة يسيرة ، وقد دهمه الموت فتوفى وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكان كريما سخيا بالعطاء حتى قيل فيه :

ففت الكـرام فى الـورى
يا مطـلب الرائـم
مـا أنت الا حاتـم
تصـحفت بجـانم

وكان قد تزوج بخوند أخت خوند زوجة السلطان ، وكان له مهم حافل ، وكان له زفاف ليلة خلا بزوجته لم يسمع بمثله . وزينت له القاهرة بالمصابيح والشموع ، وعلقت ليلة زفاف عرسه التنانير بها القناديل من سويقة العزى الى ما بين القصرين ، ومشى أمامه الأمراء المقدمون ، وكان الأمير يشبك ماسكا عنان فرسه من جهة الميمنة ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ماسكا لجام فرسه من جهة الميسرة ، وبقية الأمراء مشاة قدامه بالشموع ، من سويقة العزى الى بيت العلائى على ابن خاص بك ، وكان المهم هناك . فزف وزفت له العروس فكان أبهى من العروس كما قيل :

ما سمعنا فيما سمعنا قديما
بعروس يجلى عليها عروس

وكان زفاف الأمير جانم من المعدودات ، بحيث لم يقع بعده مثله .

فلما انقضت وفاة الأمير جانم كثر الكلام فى حق الأمير يشبك بسبب جانم ، ونسب الى قتله بالسم ، وصار فى تهديد ووعيد من المماليك الجلبان . ووقع بسبب هذه الحادثة أمور شنيعة يطول الكلام فى شرحها . وقصدوا قتل الأمير يشبك غير ما مرة . وصار السلطان يرجع المماليك عن الأمير يشبك ، وصار الأمير يشبك يترضى خاطر المماليك الجلبان بكل ما يمكن ، حتى سكنت هذه الفتنة قليلا . وصار على رأس الأمير يشبك طيرة من الجلبان ، حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه قدم الملك المؤيد أحمد من الاسكندرية . وكان سبب قدومه أن والدته خوند حصل لها توعك شديد وقد أشرفت فيه على الموت ، فأتى اليها الأمير يشبك ليعودها . فسألت فضله أن يسأل السلطان فى حضور ولدها الملك المؤيد الى مصر لتنظره قبل أن تموت . فلما طلع الأمير يشبك الى القلعة ، تكلم مع السلطان فى ذلك ، فرسم باحضاره . فلما حضر طلع الى القلعة ودخل الحوش وهو راكب ، وكان معه ولده على ، فقام له السلطان ورحب به وخلع عليه وعلى ولده . ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه الأمير يشبك الدوادار ، وتانى بك قرا وآخرون من الأمراء . فنزل فى داره التى بالجسر الأعظم عند والدته .

* * *

وفى ثالث جمادى الأولى كان وفاء النيل ، وقد أوفى فى تاسع عشرى أبيب القبطى ، وكسر فى آخر يوم من أبيب ، فعد ذلك من النوادر .

فلما وفى توجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا . ثم بعد يومين زاد النيل عشرين أصبعا فغلق الذراع السابعة عشرة وست أصابع من الذراع الثامنة عشرة . فعد ذلك من النوادر .

وفيه خلع السلطان على ألماس الأشرفى وقرره فى شادية الشرابخاناه ، وقرر بيبرس الرجبى قريب السلطان فى استادارية الصحبة عوضا عن ألماس .

وفيه سافر السلطان الى ثغر الاسكندرية ، وهى السفرة الثانية ، فتوجه من البحر فى عدة مراكب كثيرة . وكان سبب توجه السلطان من البحر كثرة ماء النيل فى طرقات البلدان . وكان معه من الأمراء الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وخاير بك ابن حديد ، وأزبك اليوسفى ، وآخرون من الأمراء المقـدمين ، وعدة وافرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية من المماليك السلطانية . وكان معه من المباشرين القاضى

كاتب السر أبن مزهر ، وغيره من أعيان المباشرين . وكان الشهابى أحمد بن العينى ، وسيدى منصور بن الملك الظاهر خشقدم ، وغير ذلك من الأعيان . وكان له ببولاق يوم مشهود عند نزوله الى البحر . وكان سفر السلطان الى الاسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هناك . وقد انتهى العمل منه فتوجه اليه ليرى هيئته . فلما دخل مدينة الاسكندرية لم يركب بها مثل أول مرة ، ولاحملت القبة والطير على رأسه . فلما نزل بالمخيم مد له نائب الاسكندرية مدة حافلة . ثم توجه الى رشيد وكشف عن البرج الذى أنشأه هناك بها ، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الاسكندرية مكان المنار القديم ، فجاء من محاسن الزمان ، ومن أعظم الأبنية ، وأجل الآثار الحسنة . ومن نوادر أفعال الملوك كما قيل :

ليس الفتى بفتى يستضاء به

حتى يكون له فى الأرض آثار

وقيل ان صفة بنيان هذا البرج ، أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر الملح ، من الساحل حتى ينتهى الى البرج ، وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ينظر منه من مسيرة يوم الى المراكب وهى داخلة الى المينا ، وجعل بهذا البرج جامعا بخطبة ، وطاحونا وفرنا وحواصل . وشحنها بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلا ونهارا ، لئلا تطرق الافرنج الثغر على حين غفلة ، وجعل بها جماعة من المجاهدين قاطنين به دائما ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل شادا من خواصه وهو باش عليهم ، يقال له قانصوه المحمدى الخاصكى ، وهو الذى تولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجى . وقيل ان السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف .

ثم ان السلطان أقام بثغر الاسكندرية أياما ورحل عنها . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان دخل الى دسوق ، وزار سيدى ابراهيم الدسوقى ، وهو ماش وحوله الأمراء . واستمر السلطان غائبا فى هذه السفرة الى أواخر الشهر المذكور .

وفيه توفيت خوند زينب والدة الملك المؤيد أحمد ، وهى زوجة الأشرف اينال ، وكانت من أجل الخوندات قدرا ، ورأت فى دولة زوجها الأشرف اينال غاية العز والعظمة ، حتى صارت تدبر أمور المملكة ، من ولاية وعزل . وكانت نافذة الكلمة وافرة الحرمة ... فى سعة من المال ، ولم تتزوج غير الأشرف اينال ، ولم يتزوج هو أيضا غيرها . وصادرها الملك الظاهر خشقدم غير ما مرة ، وأخذ منها جملة مال ، وهى باقية ، وعقد ناموسها لم يتغير الى أن ماتت . وقد جاوزت من العمر نحو الثمانين سنة . وهى زينب بنت حسن ابن خليل بن خاصبك ، لم يجىء بعدها فى الخوندات مثلها . وكانت من مشاهير الخوندات ، وكانت اذا دخلت على الأشرف قايتباى يقوم لها ويعظمها . ولما ماتت لم يحضر جنازتها ، ولم يحضرها أحد من المقدمين ، غير تانى بك قرا . وسبب ذلك أن السلطان كان غائبا ، فلم يجسر أحد من الأمراء أن يجىء عند ولدها الملك المؤيد ، وبعد هذا ما سلم الأمر من القال والقيل ، فحضر جنازتها قضاة القضاة ، وأعيان الدولة .

ثم فى سلخ الشهر المذكور حضر السلطان من السفر فى البحر أيضا ، وطلع من بولاق ، وكان له يوم مشهود . وقد عد سفره من النوادر ، وكونه توجه الى ثغر الاسكندرية ، وترك الملك المؤيد بالقاهرة ، مع أن مماليك أبيه الأشرف اينال كانوا

فى غاية التنمرد ، ينتظرون وقوع الفتن . وظهر منهم فى غيبة السلطان بعض حركة ، وانكشف رنخ جماعة منهم فى هذه الحركة ، ونفى فيما بعد منهم جماعة كثيرة كما سيأتى الكلام على ذلك .

* * *

وفى جمادى الاخرة أضاف السلطان الملك المؤيد صيامه حافلة بالبحرة ، وخلع عليه وعلى ولده ، وأذن لهم بالعود الى الأسكندرية ، وقدم الملك المؤيد للسلطان تقدمة حافلة من مال وتحف ، بحسب موجود والده الذى خلفته .

وفيه ثبت النيل المبارك على عشرين أصبعا وعشرين ذراعا ، فوافق ذلك مثل العام الماضى ، حتى عد من النوادر

* * *

وفى رجب سافر الملك المؤيد الى الاسكندرية وقد أقام بالقاهرة نحو شهرين الا أياما

وفيه ظهر للسلطان أن طائفة الاينالية قصدوا اثارة فتنة فى غيبة السلطان ، فلما تحقق ذلك صار ينفى منهم جماعة بعد جماعة شيئا فشيئا ثم نفى مملوكه يرد بك سكر الخاصكى الى البلاد الشامية ، وكان قد نسب الى أشياء من هذه الاشاعة . وقد تعرب قلوب الأمراء بعداوة الأمير يشبك الدوادار . وقد أشيع أنه قد سم الأمير جانم قريب السلطان . فانقطع يشبك عن طلوع القلعة أياما ، وكثر الكلام فى حقه بسبب ذلك .

وفيه خلع السلطان على على باى مق الذى كان كاشف الشرقية ، وقرره فى نيابة سيس عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقرر أزدمر فى نيابة حماه عوضا عن قراجا الطويل الاينالى ؛ بحكم صرفه عنها وسجنه بقلعة دمشق

وفيه رسم السلطان بنفى ستة أنفار : منهم ثلاثة من طائفة الاينالية ، وهم أبو يزيد ، ومشد وشاد بك ، كل منهم أمير عشرة . وثلاثة من الستة من مشترياته ، فتوجهوا بهم الى نحو البلاد الشامية ثم تتابع النفى بجماعة من الاينالية ، وكثر الكلام فى ذلك جدا .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق تاج الدين بن عرب شاه ، عوضا عن ابن عيد .

* * *

وفى شعبان رسم السلطان بنفى الطواشى معروف اليشبكى شاد الحوش الى جهة قوص ، لأمر أوجب ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى قرا المحمدى الظاهرى ، وقرره فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن أزدمر الطويل بحكم نفيه . وقرر فى شادية الحوش سرور السيفى بن جرباش كرت ، عوضا عن معروف اليشبكى .

وفيه وصل قانصوه الألفى الذى كان قد توجه الى بلاد الجركس ، فأحضر معه عدة من أقارب السلطان ، فخلع عليه ، ونزل الى داره .

وفيه حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند صحبة أبى الفتح نائب جدة ، على يده هدية حافلة الى السلطان .

وفيه أنعم السلطان على قريب له بتقدمة ألف ، وهى تقدمة جانم الشريفى ناظر الجوالى . ثم بعد مدة أرسل له شاشا ، ورسم له بأن يلف تخفيفة ؛ وكذلك قانصوه خمسمائة ، فانه بقى دوادار ثانى وهو بكوفية بفندس .

وفيه توفى جانم السيفى تمر باى الزردكاش الكبير ، وكان أحد الأمراء الطبلخاناة .

* * *

وفى رمضان احتفل الصاحب خشقدم فى مسايرة هائلة ، كان قرر فى امرية الحاج بركب المحمل . وقرر شاهين الجمالى فى امرية الركب الأول . وكان

قرر بها أولا جانم الزردكاش الذى توفى . فكان للصاحب خشقدم يوم مشهود بتلك المسايرة . وقد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يحج فى السنة المذكورة ، فعمل هذه المسايرة بسبب نسوق السلطان الى الحجاز .

وفيه خلع السلطان على مملوكه قنبردى أحد الخاصكية ، وقرره فى كشف الشرقية ، عوضا عن على باى ميق ، الذى استقر فى نيابة سيس . وقرر اقبال الطويل فى كشف الغربية .

وفيه قدم برد بك جبس ، وكان منفيا بالبلاد الشامية ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم السلطان باحضاره ، فحضر ورضى عليه .

وفيه توفى اليشبكى الطواشى شاد الحوش ، ومات وهو منفى بالواحات ، وجرى عليه ما لا خير فيه ، وكان لا بأس به . غير أنه كان عنده تكبر فى نفسه وتعاظم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شاد بك الابراهيمى الاينالى ، وكان من الأمراء العشراوات ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ونفاه الى الشام ، فمات بها .

وفيه رسم السلطان بنفى جانى بك الخشن الاينالى تاجر المماليك ، أحد الأمراء العشراوات ، ونفى أبى زيد أزبك الخاصكى الاينالى . ونفى تغرى برمش أحد الأمراء العشراوات ، والكل اينالية ، وقد سقط نجمهم ، وبدا عكسهم . وصار السلطان ينفى فى كل شهر منهم جماعة فى أماكن شتى .

* * *

وفى شوال خلع السلطان على يشبك الجمالى ، وقرره فى الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن جانم السيفى تمر باى . وقد جمع يشبك الجمالى بين الحسبة والزردكاشية الكبرى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وقد احتفل الأمير خشقدم ببرك عظيم بسبب السلطان ، لسفره الى الحجاز ، فكان معه نحو من مائتى جمل وخمسين جملا وقيل ان السلطان بعث اليه ثلاثين ألف دينار بسبب عمل هذا البرك . وكان لخروج الصاحب خشقدم يوم مشهود .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى ، مقدم المماليك — وكان يعرف بمثقال البرهانى — فخرج منفيا الى طرابلس . وكان هذا كله بسبب خروج السلطان الى البلاد الشامية ، وتوعكه هناك ، وقد تزايدت الأقوال بموته ، وحصل بين الأمراء نقل كلام فيمن يلى من بعده السلطنة ، وانكشف رخ جماعة من الاينالية فى هذه الحركة ولم يعلم باطن الأمر فى حقيقة ذلك . وصار السلطان ينفى كل قليل جماعة من الاينالية ، ومن مماليكه ، واستمر الأمر على ذلك . فلما خرج الحاج من القاهرة ورحل المحمل من بركة الحاج ، نزل السلطان من القلعة فى يوم الخميس ثالث عشرى شوال ، ولم يشعر بسفره أحد من الناس . وخرج على حين غفلة ، فسافر معه بعض أمراء عشراوات ، منهم يشبك الجمالى الزردكاش ، وآخرون من الأمراء من أخصائه ، وعدة وافرة من الخاصكية ، والمماليك السلطانية ، وجماعة من المباشرين ، منهم أبو البقاء بن الجيعان ، وغير ذلك من الأعيان ، منهم برهان الدين الكركى الامام . فخرج السلطان من بين الترب وسافر بعد صلاة الظهر فنزل معه الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، فودعاه ورجعا من أثناء الطريق ، فأوصاهما السلطان بحفظ الرعية . ثم سافر على ظهر البويب ، ولم يتوجه معه أحد من الأمراء المقدمين ، فعد سفره على هذا الوجه من النوادر .

* * *

وفى ذى القعدة رسم الأمير يشبك الدوادار ليشبك بن حيدر والى القاهرة ، بأن يتحدث فى الحسبة ، عوضا عن يشبك الجمالى بحكم سفره مع السلطان . وكان الأمير يشبك الدوادار هو المشار اليه فى غيبة السلطان .

وفيه شرع الأمير يشبك فى بناء القبة التى أنشأها فى رأس دور الحسينية . وخرب عدة ترب كانت هناك . ثم أنشأ بهذا المكان غيطانا ، ومجارى وسواقى ، وقصد أن يجعله من جملة منتزهات القاهرة . ولو عاش لفعل ذلك فجاءت القبة من محاسن البناء فى ذلك المكان .

* * *

وفى ذى الحجة كان انتهاء عمارة الربع الذى أنشأه السلطان بحدرة الكبش . وكان الشاد على العمارة نانق المؤيدى أحد الأمراء العشراوات .

وفيه قدم مبشر الحاج ، وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباى ، وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك . فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل الى مكة ، فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين ... وأنه تصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعا وخضوعا الى الغاية . وكان بطول الطريق لايتكلم فى شىء يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل فى الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف ، فحصل لأسنباى المبشر جملة خلع ، ومال له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان ، وغير ذلك من أرباب الدولة .

وفيه جهز الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وجماعة من الأمراء اقامات لملاقاة السلطان من العقبة . وخرج الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك . وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة ، لملاقاة السلطان من العقبة .

واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها ، وضرب الرنوك عليها ، وجلا واجهة القصر الأبلق ، وما يليه ، حتى ظهر رخامه الملون ، وقد احتفل فى اصلاح ذلك جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بك بن حسن الطويل ، ملك العراقين — وكان أكبر أولاد حسن الطويل — ثار عليه بعض الأمراء فقتله . ولما مات ولى بعده أخوه يعقوب ، وكان من خيار بنى حسن الطويل ... وتوفى تانى بك الأشقر المحمدى البواب أحد الأمراء العشراوات ، وكان كاشف المنوفية .

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠ م) :

فيها ، فى المحرم بعث السلطان نجابا الى الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل الى المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنعم على الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة . ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بألا يخرج الى ملاقاته أحد من الأمراء . وان السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التى بالمطرية . فبادر الأمراء بالخروج الى هناك ونصبوا الخيام . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى البويب ، فلما تحقق الأمراء ذلك ، ركب الأتابكى أزبك ، والأمير يشبك الدوادار ، وبقية الأمراء ، من المطرية وتوجهوا الى ملاقاة السلطان . فلما وصلوا الى البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتى وصل الى الوطاق الذى بالمطرية . وكان له هنالك موكب حافل . وكان دخوله فى ثانى عشر المحرم ، قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكى

هناك مدة حافلة جدا ، وبات السلطان هناك ، وبات عنده قضاة القضاة ، ومشايخ العلم ، وهنئوه بقدومه .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ، ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكى أزبك على رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر ، وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر فى هذا الموكب العظيم . وطلب طلبا حافلا ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب . وكان له يوم مشهود الى أن طلع الى القلعة ... فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة الى الحوش ، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران . فلما دخل السلطان الى الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكى أزبك التى مدها له بالقبة . ثم ان السلطان خلع على من كان معه من أرباب الوظائف ، ونزلوا الى بيوتهم ، وانفض ذلك الموكب . وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ... ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتى ألف دينار من أمير مكة المشرفة وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك . وقد نظم الشعراء فى هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان
من حجه المقبول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف الرا
قى سماء الحسن والاحسان
فهناؤنا ببقائه ، فى نعمة
وسلامة ، فرض على الأعيان
ولقد علمنا أن طاعة أمره
أو نهيه دين من الايمان
لما نوى حجا ولبى محرما
عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش فى أبياتها والدوح فى
اثباتها والطير فى الطيران
ثم الصلاة على النبى المصطفى
عدد الرمال بجملة الكثبان

فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ فى أسباب تفرقة الهدية على الأمراء . فابتدأ بالأتابكى أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو فى منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة . وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضا تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحمدت سيرة الصاحب خشقدم الزمام .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى القرافة فزار ورجع من جهة مصر العتيقة ، وطلع من جهة قناطر السباع ، وأتى الى الكبش فكشف عن عمارته التى أنشأها هناك . ثم طلع الى القلعة من جهة الصليبة وكشف عن عمارة سبيله الذى أنشأه برأس سويقة عبد المنعم التى بالرميلة . وكان الشاد على عمارته تانى بك قرا أحد المقدمين ثم طلع من باب السلسلة الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قراجا الطويل الاينالى ، الذى كان نائب حماه ، ومات بطالا بالقدس ، وكان لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان قانم الأشرفى الذى كان كاشف الشرقية ، فضرب بين يديه ورسم بنفيه الى طرسوس .

***

وفى صفر قرر خالص التكرورى الطواشى فى تقدمة المماليك ، عوضا عن مثقال البرهانى . وقرر سرور الشامى نائب المقدم عوضا عن خالص .

وفيه قدم تمراز التمشى رأس نوبة النوب من

البحيرة . وقد أتى ليهنىء السلطان بعوده من الحجاز .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة بحماه ، وقتل فيها نائب حماه أزدمر بن أزبك قريب السلطان . وسبب ذلك أن سيف أمير آل فضل ، كان قد خرج عن الطاعة . فحاربه أزدمر نائب حماه المقدم ذكره ، فقتل فى المعركة ، وقتل معه جمع من أمراء حماه . فانزعج السلطان لهذا الخبر جدا .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة وكان حافلا . ومما وقع فى ذلك اليوم أن السلطان لما تكامل المجلس بالقضاة الأربعة ، والأمراء ، وانتهى أمر السماط ، حضر كاتب السر ابن مزهر ، وأبو البقاء بن الجيعان ، وخشقدم الزمام ، وصحبتهم ستة أطباق على رءوس ستة طواشية ، فحطت بين يدى السلطان بحضرة القضاة والأمراء ، وكشفوا عنها فإذا هى ستون ألف دينار ذهب عين . فأخذ كاتب السر يقول فى المجلس العام ان السلطان نصره الله تعالى لما حج فى العام الماضى ، رأى أهل المدينة المشرفة فى فاقة زائدة من عدم الأوقاف . فقصد مولانا السلطان بأن يفعل بالمدينة الشريفة شيئا يكون مستمرا من بعده ، وقد أخرج من هذا المال لله تعالى وهو من وجه حل ، من خالص ماله دون مال بيت المسلمين ، ليشترى به ما يوقفه على فقراء المدينة من ضياع ، وأماكن وربوع ، وغير ذلك . مما يصنع فى كل يوم من الدشيشة والخبز والرب ، وغير ذلك كما يفعل بمدينة الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . فارتفعت له الأصوات بالدعاء فى ذلك المجلس ، ثم أمر السلطان بأن يكون هذا المال تحت يد قاضى القضاة الشافعى ، حتى يشترى به أماكن أو ضياعا . فامتنع القاضى من ذلك ، واعتذر عن تسلمه ، حتى أعفى من ذلك .

ثم شرع السلطان فى بناء تلك الربوع التى أنشأها فى باب النصر ، وفى البندقانيين والخشابين والدجاجين وغير ذلك من الأماكن .

وفيه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك ، فلما عاد وقف له جماعة من العوام ، وشكوا له من أمور الحسبة بأنها ضائعة ، وأنه من بعد العصر ما يوجد الخبز على الدكاكين . فلما طلع الى القلعة وأصبح ، رسم للصاحب قاسم شغيته بأن يتكلم فى الحسبة ، عوضا عن يشبك الجمالى . وكان لما تولى الزردكاشية أهمل أمر الحسبة ، وضاعت المصالح فى أمور البضائع وغيرها ، وسعر الغلال ، ووقع بالقاهرة تشحيطة فى الخبز فى تلك الأيام ، وكادت أن تكون غلوة .

وفيه عين السلطان الأمير يسبك الدوادار للخروج الى حماه ، بسبب قتال سيف أمير آل فضل الذى قتل أزدمر نائب حماه ، كما تقدم ذكر ذلك ... وهذه السفرة كانت آخر العهد بالأمير يشبك ، ولم يعد منها الى مصر، وعين معه من الأمراء المقدمين برسباى قرا ، وتانى بك قرا ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وعدة وافرة من الجند . وقد لهج الناس بأن هذه التجريدة خرجت الى سيف ، وكان الأمر كذلك . وراح أكثر الأمراء والعسكر على السيف كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تنطقن بما كرهت فربما
نطق اللسان بحادث سيكون

وقال آخر :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى
ان البلاء موكل بالمنطق

وكان الأمير يشبك له غرض تام فى السفر الى دیار بکر . وقد سأل السلطان فى ذلك بنفسه .

والسبب فى ذلك أن الأمير يشبك كان قد وقع بينه وبين جلبان السلطان بسبب جانم الشريفى ، وقد اتهم به آنه شغله ، فصار معهم فى تهديد وقصدوا قتله غير ما مرة ، فحسن له بعض الأعاجم آن مملكة حسن الطويل سائبة ، وأن العسكر مختلف على ابنه يعقوب ، ومتى حاربتهم لا يقدرون على محاربتك ويسلمونك مملكة العراق قاطبة . فانصاع الأمير يشبك لهذا الكلام ، وسأل السلطان السفر بنفسه ، حتى يجعل الله لكل شئ سببا ، لنفوذ القضاء والقدر كما قيل فى المعنى :

أتطمع من ليلى بوصل وانما
تقطع أعناق الرجال المطامع

فلما عين السلطان الأمراء ، وعرض من بعد ذلك الجند ، وكتب منهم نحوا من خمسمائة مملوك ، وكان الأكثر منهم من طائفة الاينالية ، فلما عرضهم أنفق عليهم ، وأمرهم بسرعة التجهيز والخروج صحبة الأمير يشبك . فبلغت النفقة عليهم فى هذه الحركة زيادة عن المائة ألف دينار .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى بردى ططر أحد المقدمين ، وقرره أمير المحمل ، وقرر يشبك بن حيدر والى القاهرة أمير أول .

وفيه توفى الشهيد الشريف زين العابدين ، وهو محمد بن محمد بن على بن على بن حسين القرشى الهاشمى السنجارى الحنبلى ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، كثير التواضع ، حسن الملتقى .

وفيه خلع السلطان على قانصوه دوادار الأمير يشبك ، وجعله متحدثا فى الاستادارية الى أن يعود أستاذه . فاستعفى من ذلك وأظهر السفر صحبة أستاذه .

وفيه قرر جانم دوادار الأمير يشبك فى كشف أسيوط ، عوضا عن قرقماس الأعور ، فاستعفى جانم من ذلك ، واستقر بها سيباى ، وطلب قرقماس السفر صحبة يشبك .

وفيه فى سلخه كانت وفاة شيخ مذهب الشافعية بمصر الشيخ سراج الدين عمر بن حسن بن حسين العبادى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، مفتيا ، وصار أحفظ أهل زمانه بمذهبه بمصر ، منطرح النفس جدا . وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الأحباس ، ومشيخة خانقاه سعيد السعداء ، وغير ذلك من الوظائف . ومولده سنة احدى وثمانمائة .

وفيه نادى السلطان بأن معاملة الفضة بالميزان وكانت قد خفت جدا .

* * *

وفى ربيع الآخر خرج الأمير يشبك الدوادار الى التجريدة من غير طلب لذلك ، وكان عليه خمدة زائدة ، فتفاءل الناس أنه لا يعود الى مصر أبدا ، وكذا جرى . وكان الناس يقولون خرج لسيفه ، وكان هذا فألا عليه

وفيه قرر السلطان جانم الأعرج السيفى جانى بك نائب جدة فى نيابة حماه ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان .

وفيه برز آمر السلطان الى سيباى كاشف الوجه القبلى ، بأن يقطع رأس أزدمر الطويل الاينالى . وكان نفى الى مكة المشرفة ، ثم بعد مدة نقل الى أسيوط ، وسجن . وكان بينه وبين الأمير يشبك عداوة . وقصد أزدمر قتل يشبك غير ما مرة ، بل وقتل السلطان أيضا . فلما برز الأمير يشبك بالريدانية للتجريدة ، أرسل يشبك يقول للسلطان : « ما أرحل من هنا حتى تقطع رأس أزدمر الطويل ، وتجيء الى » . وتأخر أياما ينتظر ذلك ، فأرسل السلطان يوسف السوام الذى كان والى قوص ،

الى سيباى كاشف الوجه القبلى ، بقطع رأس أزدمر الطويل ، فتوجه فى الخفية الى أسيوط ، وعلى يده مرسوم السلطان الى سيباى ، بقطع رأس أزدمر . فقطع رأسه بأسيوط ، ووضعت فى علبة ، وأحضرت بين يدى السلطان ، فنظر اليها ثم أرسلها الى الأمير سنباى فنظر اليها ، وكتم هذا الأمر عن الناس ، وما خفى بل اشتهر من يومه . وكان أزدمر هذا من أعيان الاينالية شجاعا ، بطلا مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية .

ثم ان الأمير سنباى رحل من الريدانية وقد نال قصده من أزدمر . ثم قطع رأس الأمير سنباى بعد ذلك بمدة يسيرة والمجازاة من جنس العمل .

وفيه توفى برد بك التاجى الأشرفى أحد العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه تغير خاطر السلطان على قاضى القضاة الشافعية ولى الدين الأسيوطى ، وعلى قاضى قضاة الحنابلة بدر الدين السعدى ، فعزل القاضى الشافعى ورسم بنفى القاضى الحنبلى الى قوص . ولم يكن ثم أمر كبير يستحق هذه الكائنة ، بل ما نكب القاضى الشافعى الا بسبب تركة انسان ، والقاضى الحنبلى بسبب كتاب وقف . ونحو ذلك . واستمر أمرهما فى اضطراب مدة أيام ، وتكلموا مع السلطان فيمن يلى قضاء الشافعية وقضاء الحنبلية . وكتب قائمة بأسماء جماعة من طائفتى المذهبين ، ثم عاد الأمر الى اعادتهما الى ما كانا عليه بشفاعة الاتابكى أزبك ، فخلع على القاضيين ، ونزلا الى دورهما وكان لهما يوم مشهود .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى القاضى شرف الدين يحيى ابن الجيعان ، مستوفى ديوان الجيش ، وهو يحيى بن شاكر بن عبد الغنى الشافعى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم والفرائض .

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضى تاج الدين ابن المقسى ناظر الخاص كان ، فرسم بتسميره ، فسمر على جمل ، وطيف به فى القاهرة ، وتوجهوا به الى قنطرة الحاجب ليوسطوه هناك . وكانت هيئته وهو مسمر على الجمل أنه على رأسه عمامة صغيرة ، وهو لابس كبر أبيض . فلما وصل هناك وقعت فيه شفاعة ، فعادوا به وقد أركبوه على فرس ، وفرح الناس بسلامته .

* * *

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان بشنق تاج الدين بن المقسى ، بعد أن عفى عنه ، فتوجهوا به الى غيط الحاجب ، فشنقوه على جميزة هناك . وشنق معه فى ذلك اليوم قاسم بن بقر أمير عربان جذام بالشرقية ، وكان لهما يوم مشهود . وكان اسمه عبد الله بن نصر الله القبطى ، وكان رئيسا حشما كيسا حسن الهيئة ، لطيف الذات ، وولى عدة وظائف سنية ، منها كتابة المماليك ونظر الدولة ونظر الجيش ، ونظر الخاص والأستادارية ، وغير ذلك من الوظائف . ومات وهو فى عشر الخمسين وكثر عليه الحزن من الناس . وقاسى فى أواخر عمره أهوالا وشدائد ومحنا ، وضرب بالمقارع فى يوم شديد البرد ، وآخر عمره شنق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه نزل السلطان فى موكب وتوجه نحو قليوب ، ثم طاب له رؤية البحر ، فأقلع من هناك وتوجه الى الوجه القبلى ، حتى وصل الى نحو ضبدا ، ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى رجب جاءت الأخبار بقتل سيباى العلائى

الاينالى ، كاشف الوجه الفيلى ، قتله بعض العرب بخنجر فى بطنه وهو راقد على فراشه . وكان شابا حسنا شجاعا بطلا ، من خيار الاينالية . وهو الذى قطع رأس أزدمر الطويل ، فكان بينه وبين قتل أزدمر الطويل شهران وبعض أيام .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة برهان الدين ابراهيم بن عمر بن حسن بن على بن أبى بكر الحرباذى البقاعى الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا ماهرا فى الحديث ، ليس من مساويه سوى حطه على الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله ورضى عنه . فلما قامت الدائرة بسبب ابن الفارض ، توجه الى دمشق فمات بها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار لما دخل الى الشام أخذ معه نائب الشام قانصوه اليحياوى وتوجه الى حلب ، وأن قانى بك صلق نوفى بحلب ، وكان صحبة الأمير يشبك . وكان قانى بك صلق أصله من مماليك شادبك الجكمى ، وارتقى حتى بقى أمير طبلخاناه ورأس نوبة ، وكان لا بأس به ، ورأى غاية العز فى دولة الأشرف قايتباى .

* * *

وفى شعبان كان انتهاء القناطر التى بالجيزة . وخلع السلطان على الأتابكى أزبك بسبب كونه كان شادا على العمارة ، فجاءت من آثار الملوك . وقيل ان السلطان صرف على هذه القناطر نحوا من مائة ألف دينار .

وفيه توفى مجد الدين بن الكويز ، وهو محمد ابن سليمان بن عبد الرحمن بن داود بن خليل الشوبكى ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، منها معلم المعلمين ، ونظر الخاص ، وغير ذلك . ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

* * *

وفى رمضان كان ختم البخارى بالقلعة ، وفرقت الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم . وكان قارىء الحديث الشريف برهان الدين بن الكركى امام السلطان ، فخلع عليه . ونزل من القلعة فى جمع حافل .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة الامام الشافعى رحمة الله عليه ورضى عنه ، وكان الشاد على عمارتها الخواجا شمس الدين بن الزمن

وفيه كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الأمشاطى محمد بن محمد بن أحمد بن حسن بن اسماعيل بن يعقوب العينتابى الكحكاوى الحنفى . وكان عالما فاضلا بارعا فى علوم مذهبه ، وافر العقل ، فكه المحاضرة ، وكان ناب فى القضاء مدة طويلة ، ثم تولى القضاء الأكبر ، وباشره بعفة زائدة وحرمة وافرة ، وحمدت سيرته ، وامتاز على غيره من قضاة عصره ، وصمم على عدم حل الأوقاف فى أيامه ، وجمع بين القضاء ومشيخة البرقوقية ، وكان نادرة فى عصره . فلما توفى الأمشاطى تكلموا مع السلطان فى القضاء عوضا عن الأمشاطى ، فلم يوافق على أحد يوليه من أهل مصر . ثم أرسل خلف شخص من الشام يقال له شرف الدين موسى بن عيد ، ليلى القضاء ، واستمر منصب قضاء الحنفية شاغرا الى آن حضر ابن عيد .

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار من الرها بوقوع كائنة عظيمة طامة ، قتل فيها الأمير يشبك الدوادار ، وانكسر العسكر قاطبة ، وقتل الأكثر منهم . وكان سبب ذلك : أن الأمير يشبك لما دخل الى حلب ، كان صحبته نائب الشام ، ونائب حلب ونائب طرابلس ، ونائب حماة ، والعسكر الشامى والحلبى والمصرى ، وغير ذلك من العساكر ... فلما

استقر بحلب بلغه أن سيف أمير آل فضل الذى خرج بسببه قد فر ، وتوجه الى نحو الرها ، فقوى عزم الأمير يشبك بأن يعدى من الفرات ، ويتبع سيفا فى أى مكان كان فيه . فكان كما قيل فى المعنى :

وكم من طالب يسعى لشىء
وفيه هلاكه لو كان يدرى

فعدى من الفرات ، هو والعساكر ، فاجتمع معه فوق العشرة آلاف انسان . فلما عدى توجه الى نحو الرها ، وكان المتولى أمرها يومئذ شخص يقال له بابندر ، أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل ، فحاصر الأمير يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة ، فلما أشرف على أخذها ، أرسل بابندر يتطلف بالأمير يشبك ، ويقول له : « ضمان مسك سيف علىّ » . وأرسل يقول له : « ارحل من الرها ، وأنا أجمع لك من المدينة مالا له صورة » . فأبى الأمير يشبك من ذلك ، لما رأى من كثرة العساكر التى كانت معه . فطمعت آماله فى أخذ مدينة الرها ، ويزحف بعد ذلك على ملك العراق ، كما حسنوا له ذلك . فزعق النفير وركب العسكر قاطبة ، فبرز بابندر ومن معه من العسكر ، وتحارب معهم ، فلم تكن الا ساعة يسيرة ، وقد انكسر عسكر مصر قاطبة ، وبقية العساكر قاطبة ، فأسر الأمير يشبك وهو راكب على ظهر فرسه ، فأتوا به الى بابندر ، وأسروا نائب الشام قانصوه اليحياوى ، ونائب حلب أزدمر ، ونائب حماه جانم الجداوى ، وقتل برد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وأسر برسباى قرا حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين ، وقتل من الأمراء العشراوات ، ومن أمراء الشام وحلب ما لا يحصى ، وقتل من العساكر التى كانت مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم ، وكانت حوافر الخيل لا تطأ الا على جثث القتلى من العسكر . فكان من قتل من أعيان العسكر . برد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وهو برد بك المعمار السيفى جرباش كرت ، وجانى باى أخو سيباى أحد الأمراء العشراوات ، وجانى باى أخو تانى بك قرا ، وسوازار الأشقر الأشرفى ، وكان علامة فى الرمى بالنشاب ، وطقطمش الخشقدمى أحد الأمراء بحلب ، وسليمان بك من أقارب سوار ، وقانصوه البواب الاينالى أحد الأمراء العشراوات ورءوس النوب ، وقرقماس المحمدى الظاهرى ، أحد العشراوات ورءوس النوب . وأما الذى قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية ، فما ضبط لكثرتهم . وقتل من العساكر الشامية والحلبية وغير ذلك ما لا يحصى عددهم . وكانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر .

وأما ما كان من أمر يشبك الدوادار فانه أقام فى الأسر نحو ثلاثة أيام ، ثم فى اليوم الرابع بعث اليه بعبد أسود من عبيد التركمان قطع رأسه تحت الليل ، وأحضرها بين يدى بابندر . وقيل انه حز رأسه بالسيف عدة مرار وهى لا تنقطع فقطعها بسكين صغير وعذبه غاية العذاب . فلما طلع النهار وجدوا جثته بغير رأس وهى مرمية على قارعة الطريق ، وعورته مكشوفة ، حتى ستره بعض الغلمان بحشيش من الأرض . فسبحان من يعز ويذل ، وبيده كل شىء وهو على كل شىء قدير . وقيل فى المعنى :

ما أعجب الدهر فى تقلبه
والدهر لا تنقضى عجائبه
فكم أرانا الدهر من أسد
بالت على رأسه ثعالبه

فلما قطعت رأس الأمير يشبك بعث بها بابندر الى بلاد العجم ، عند يعقوب بن حسن الطويل ،

فكان له يوم مشهود بمدينة ماردين ، وطافوا بها بلاد العجم ، وهى على رمح ، وألبسوا رأس الأمير يشبك تخفيفته الكبيرة لما طافوا بها ، وطافوا بالنواب والأمراء الذين أسروا وهم فى قيود وجنازير ، والمماليك الذين أسروا مشاة . وأرسل بابندر الى يعقوب بن حسن بجميع ما نهبه من العسكر من مال وخيول وسلاح وقماش وبرك وغير ذلك مما لا يحصى . وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة . وكانت قتلة الأمير يشبك فى العشر الأخير من رمضان سنة خمس وثمانين وثمانمائة بالرها ...

وكان الأمير يشبك أميرا جليلا معظما فى سعة من المال ، ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان أصله من مشتريات الظاهر جقمق . وكان يعرف بيشبك بن مهدى ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، حتى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمع فيه عدة وظائف سنية ، منها الدوادارية الكبرى ، وامرية سلاح ، والوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة ، وغير ذلك . فعظم أمره جدا ، ووقع له أشياء غريبة ، لم تقع لغيره من أبناء جنسه فى عصره . ومات وله من العمر نحو من ست وخمسين سنة ، وقد وكزه الشيب قليلا . وكان صفته أبيض اللون مدور الوجه ، أشهل العينين ، أشقر اللحية ، طويل القامة ، ملىء الجسد . وأنشأ أشياء كثيرة من العمائر بالديار المصرية ما بين ربوع وحوانيت ودور جليلة وصهاريج ومغسل وأسبلة وزوايا . وأنشأ قبة بالمطرية ، وقبة برأس الحسينية ، وكان له فى كل سنة عدة شقادف محملة على جمال ومعها الزاد والماء تلاقى الحجاج من العقبة بسبب المنقطعين من الحجاج . وله غير ذلك أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف . وكانت له محاسن ومساو ، وفيه الخير والشر . وقد ساقه أجله حتى خرج فى هذه التجريدة بسبب سيف أمير آل فضل فكانت منيته بالرها . وكان الأمير يشبك باغيا على بابندر ، فانه قصد محاربته من غير سبب ، ولا موجب لذلك ، فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان فى وكره
يوما فلا يأمن من لسعته

وقد نهى بعض الحكماء عن التوجه الى بلاد الشرق من غير حاجة فقال :

اذا شئت أن تلقى دليلا الى الهدى
لتقفو آثار الهداية من كافى
فخل بلاد الشرق عنك فانها
بلاد بلا دال وشرق بلا قاف

ولكن قدر فى الأزل بأن قبض الأمير يشبك يكون بالرها ، فسبب له الأسباب لذلك . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له اليها حاجة » .

ومن النكت اللطيفة ، ما روى فى بعض الأخبار : أن ملك الموت زار سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر الى رجل من جلسائه ، ويطيل النظر . فقال الرجل لسليمان عليه السلام : « ومن هذا الرجل الذى يطيل الى النظر ؟ » ، فقال سليمان عليه السلام : « هذا ملك الموت عليه السلام » . واضطرب الرجل وقال : « يانبى الله أقسمت عليك بالله تعالى الا ما أمرت الريح تحملنى من هنا وتلقينى خلف جبل قاف » . فأمر سليمان عليه السلام الريح بأن تحمل ذلك الرجل ، وتلقيه خلف جبل قاف . فلما حملته الريح الى هناك ، قال سليمان بعد ذلك لملك الموت : « لماذا

كنت تطيل النظر فى الرجل الذى كان جالسا عندى » . فقال ملك الموت عليه السلام : « كان نظرى الى هذا الرجل تعجبا منه ، لأننى أمرت بقبض روحه خلف جبل قاف ، وقد وجدته بحضرتك ، فصرت متعجبا من ذلك » . فلما مضى الرجل خلف جبل قاف ، قبض ملك الموت عليه السلام روحه هناك كما أمر . وهذا مصداق للحديث الشريف .

فكان قبض الأمير يشبك بالرها . فلما ورد هذا الخبر الى السلطان ، اضطربت أحواله ، وماجت القاهرة عن آخرها ، وكان يوما مهولا . ثم أشيع بين الناس أن الأمير يشبك فى الحياة ، وهو فى الأسر عند بابندر . وقيل انه فر بنفسه وهو مختف عند بعض التركمان . واختلفت الأقوال فى أمره ، وصارت دكة النقباء على بابه بعد قتله مدة طويلة ، ونظامه باق على حاله ، ووقع الشك فى حقيقة قتله . ثم أشيع بين الناس أن السلطان قصد السفر الى حلب بنفسه ، ويقيم بها ، خوفا من عسكر يعقوب بن حسن ، أن يطرق بلاد حلب والشام . فان النواب قاطبة كانوا فى الأسر عند يعقوب بن حسن .

ثم ان السلطان عين الأتابكى أزبك الى حلب ، وعين معه وردبش أحد المقدمين ، وخلع عليه ، وأقره فى نيابة حلب ، عوضا عن أزدمر . وعين من الأمراء العشراوات ، والطبلخانات ، عدة وافرة . منهم : جانى بك حبيب أمير آخور ثانى ، وآخرين من الأمراء . ثم عرض الجند ، وكتب منهم جماعة ، واستحثهم على الخروج بسرعة قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب . ولولا فعله ذلك لخرج من يده غالب جهات حلب .

ثم بعد أيام خرج الأتابكى أزبك من القاهرة هو والعسكر فى تجمل زائد ، وكان لهم يوم مشهود . وفوض السلطان أمر البلاد الشآمية والحلبية للأتابكى أزبك ، وجعل له التكلم فى أمور المملكة من ولاية وعزل . ولما أراد الرحيل من الريدانية نزل اليه السلطان ، وودعه وجلس عنده ، واشتوروا فيما يكون فيه المصلحة بسبب هذه الكائنة . ثم ان الأتابكى أزبك سافر .

وفيه عين السلطان تمراز التمشى قريبه لنيابة الشام . فامتنع من ذلك ، وادعى الفقر وعدم البرق ، فوبخه السلطان بالكلام . فحنق منه تمراز ونزل الى داره وأغلق بابه ، ولم يجتمع بأحد من الناس ، وصرف نقباءه عن بابه . وكثر القال والقيل فى ذلك . فأرسل السلطان يقول له توجه الى مكة وأقم بها بطالا . واستمر فى هذه الحركة أياما وهو فى اضطراب ، والسلطان يستحثه فى سرعة الخروج الى مكة . ثم ان الأتابكى أزبك مشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فطلع الى القلعة ، وقابل السلطان ، فخلع عليه ونزل الى داره فى موكب حفل ، وقد زال ما بينه وبين السلطان من الوحشة بسبب نيابة الشام . ثم تحول أمر نيابة الشام الى قجماس الاسحاقى أميرآخور كبير ، فخلع عليه وقرره فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم أسره .

وفيه عقب ذلك وقف الأمير خاير بك بن حديد الى السلطان ، وسأله فى اقطاع الأمير يشبك الدوادار . فنتر فيه السلطان ، فنزل الى داره مغضبا ، وأغلق بابه ، وصرف غلمانه ، وامتنع من الاجتماع بالناس ، وتكلم بكلمات كثيرة فى حق السلطان . وكان الأمير خاير بك صعب المراس ، شديد الخلق قوى الرأس . فلما بلغ السلطان ذلك بعث باحضاره فاختفى خاير بك ، وخرج من داره وهو لابس جبة صوف أبيض ، وتعمم بمئزر صوف أبيض ، وأخذ بيده سبحة ،

وادعى انه قد ترك الدنيا وبقى فقيرا مجردا ، وتوجه الى جامع قيدان ، الذى بقناطر الأوز . وكان أنشأ به جوسقا مطلا على البركة التى هناك ، فأقام به أياما . فلما بلغ الأمير تمراز ذلك توجه اليه ، وتلطف به فى عوده الى داره ، فلم يوافق على ذلك ، واستمر مصمما على عدم عوده . وبقى هناك أياما .

ثم ان السلطان أرسل اليه قانصوه خمسمائة ، وشكه فى الحديد ، وطلع به الى القلعة وهو ماش . فلما مثل بين يديه ، وبخه بالكلام ، وقصد أن يفتك به ، ثم آل أمره من بعد ذلك الى أن أخرجه منفيا الى دمشق ، صحبة الأتابكى أزبك ، لما خرج الى التجريدة المقدم ذكرها . فسجن هناك ، وجرى عليه شدائد ومحن الى الغاية ، واستمر منفيا الى أن مات بمكة المشرفة كما سيأتى الكلام على ذلك . وكان خاير بك من أخصاء السلطان ، وكان من أكبر أصحابه ، من حين كان السلطان خاصكيا ، فانقلب عليه كأنه لم يعرفه قط . فكان كما يقال : « ثلاث لا يؤمن اليهم : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا ، والمرأة وان طالت صحبتها » .

وفيه طلع الأمير لاجين الظاهرى الى السلطان ، واستعفى من أمرية مجلس ، وذكر للسلطان أنه قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة . فأعفاه السلطان من ذلك ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر طرخانا الى أن مات .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين بن الأخميمى الحنفى ، أحد أئمة السلطان ، وقرره فى مشيخة البرقوقية ، عوضا عن قاضى القضاة الامشاطى .

وفيه خرج المحمل فى تجمل زائد من القاهرة ، وكان أمير الركب بالمحمل ، تغرى بردى ططر ، أحد الأمراء المقدمين ، وأمير الركب الأول يشبك ابن حيدر والى القاهرة .

* * *

وفى ذى القعدة وصلت جثة الأمير يشبك الدوادار من الرها ، وهى فى سحلية ، وهى جثة بغير رأس ، فوقع الشك فيها هل هى جثته ، أم لا . فوجدوا بها أمارات تدل على أنها جثته ، فكفنوها ودفنوها فى تربته التى أنشأها عند زاوية كهنبوش . وتحقق موته وانقطعت الاشاعات بأنه فى قيد الحياة . وحضر صحبة جثته قانصوه دواداره وأخبر بحقيقة موته ، وكيفية أمر الواقعة ، ومن أسر من الأمراء . وأخبر بقتل قانم قريب السلطان ، الذى كان أتابك العساكر بحلب قتل على ماردين من جملة من قتل من العسكر وكان شجاعا بطلا لابأس به . فلما ثبت موت يشبك زال أمره كأنه لم يكن .

وفيه وصل شرف الدين بن عيد الدمشقى الذى تقدم ذكره . فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، وأقره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن الأمشاطى .

* * *

وفى ذى الحجة خلع السلطان على تغرى بردى بن يلباى الظاهرى ، خازندار يشبك الدوادار وقرره فى الاستادارية ، عوضا عن مجد الدين ابن البقرى . ورسم السلطان على مجد الدين ليقيم الحساب . وكان فى ذلك دماره .

وفيه توفى دولات باى بطيخ الأبوبكرى المؤيدى ، أحد العشراوات ورءوس النوب ، لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بقتل محمد حسن بن الصوا الحلبى نائب قلعة حلب . من أخصاء السلطان ، ثار عليه أهل حلب

مظالم أحدثها بحلب ، فقتله العامة . وقتل فرج ابن أغلبك، حاجب الحجاب بحلب وكان رئيسا حشما من أعيان أهل حلب ، وكان لا بأس به

وفيه مات مشنوقا شيخ عربان الشرقية قاسم ابن بيبرس بن بقر ، وكان من خيار بنى بقر وتوفى أبو بكر جركس مقدم البريدية وأحد الحجاب بمصر ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

* * *

سنة ست وثمانين وثمانمائة (١٤٨١ م) :

وفيها . فى رابع المحرم ، خلع السلطان على أقبردى بن على باى قريبه ، أحد المقدمين ، وقرره فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن يشبك بن مهدى بحكم قتله فى الرها . فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وسكن فى دار الأمير يشبك ، ورسم له السلطان بجميع ما كان فى بيت الأمير يشبك . فجاءت اليه السعادة من قماش وأوان وخيول وبرك ، وهو لا يشعر بها ، فسبحان المعطى الكريم وهو على كل شىء قدير . وقد قيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفيه خلع السلطان على ألماس ، وقرره فى نيابة صفد فخرج عن قريب ، وخرج صحبته تانى بك الجمالى أحد المقدمين الى حلب ، عونة للأتابكى أزبك ، فطلب وخرج ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ثارت ريح عاصفة ، وثار فيها غبار أصفر يأخذ بالأنفاس ، واستمر من قبل الزوال الى نصف الليل .

وفيه ، فى سابع عشره ، كانت زلزلة عظيمة بمصر والقاهرة ، ماجت الأرض وتحركت المواذن ومالت ، وسمع للأرض دوى كدوى الرحى . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ، واستمرت نحو ثلاث درج وهى فى اضطراب ، حتى دهشت منها الناس ، وخرجت النساء من الحمامات والبيوت وهن حاسرات عن وجوههن . وحصل للناس غاية الرعب ، ومات من هذه الزلزلة قاضى القضاة شرف الدين بن عيد الحنفى ، وكان جالسا بايوان المدرسة الصالحية ، فقام حين وقعت الزلزلة ، فسقط عليه ساقط من أعلى الايوان ، فمات لوقته . وكان عالما فاضلا دينا خيرا بعث السلطان خلفه من دمشق الى مصر ، وولاه قضاء الحنفية ، فأقام بها ثمانية وخمسين يوما ، ومات بهذا السبب . وكان أصله من عجلان ، وهو موسى بن أحمد بن عيد الدمشقى الحنفى ، وكان تولى قضاء دمشق ، ثم طلب وتولى قضاء مصر ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة . فلما أخرجت جنازته نزل السلطان ، وصلى عليه ، ودفن بالصحراء .

وتوفى من الزلزلة عقيب ذلك الزينى أبو بكر بن القاضى عبد الباسط ، ناظر الجيش كان ، وكان رئيسا حشما نادرة فى أبناء الزمان ، ذا شهامة وعظمة ، وكان من أخصاء السلطان ، وكان عليلا فمات مرجوفا من الزلزلة حين ماج به البيت . وكان فى سعة من المال والقماش والبرك ، وولى من الوظائف نظر الجوالى ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانصوه بن طراباى ، المعروف بخمسمائة الأشرفى ، وقرره فى امرية الآخورية الكبرى ، عوضا عن قجماس الاسحاقى ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وكان قانصوه يومئذ شابا بدا عذاره ، وولى الدوادارية ، وهو لابس الكوفية القندس . فلما بقى أمير آخور كبير ، بعث له السلطان بشاش فلف له تخفيفة كبيرة ، وكان حين لبس الدوادارية الثانية ، قبل أن يلبس أقبردى التقدمة ، والأميراخورية الكبرى بعد

ما لبس آقبردى الدوادارية . والمقصود أنه صار مقدم ألف قبله ، وأخذ الدوادارية بالمنزلة فى محله ، وقانصوه نك من الدوادارية الثانية الى الامير اخورية الكبرى . فكان بينه وبينها عدة وظائف .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم أزدمر تمساح ، ويشبك الجمالى الزردكاش الكبير ، وأزدمر المسرطن الظاهرى .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين بن المصنف ، عوضا عن العبدوى ، وعزل العبدوى ، وكان ابن فرفور قرر قبل ذلك فى نظر الجيش بدمشق ، فجمع بين نظارة الجيش وبين قضاء الشافعية . وعزل عن نظارة الجيش الشريف موفق الدين الحموى ، وأودع فى السجن بقلعة دمشق ، وخلع على قطب الدين الخضيرى ، وقرره فى كتابة السر بدمشق ، فانفرد بكتابة السر دون قضاء الشافعية ، وكان قبل ذلك متوليا قضاء الشافعية بدمشق .

وفيه قدم قاصد ملك الحبشة ، فأوكب له السلطان موكبا بالحوش ، وكان موكبا حافلا ، وأحضر صحبته هدية حافلة للسلطان . فأكرم ذلك القاصد جدا . وسبب حضوره أنه جاء يسأل البترك أن يولى شخصا يكون عنه ببلادهم .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على قانى بك جشحة ، وقرره فى الرأس نوبة الثانية ، عوضا عن أزدمر تمساح بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر فى الحجوبية الثانية تانى بك الاينالى ، عوضا عن قانى بك جشحة بحكم انتقاله الى رأس نوبة ثانى .

وفيه نزل السلطان الى جهة قليوب وكان يوم الجمعة ، فلما عاد صلى الجمعة فى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية . وتوجه قاضى القضاة الشافعى وخطب به هناك .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة اينال الأسحاقى الظاهرى ، أحد العشراوات ، وشيخ الحرم الشريف النبوى . وكان اينالا حسنا خيرا دينا وله اشتغال بالعلم ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين العزى بن المغربى وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن ابن عيد ، ولم يكن هذا العزى أهلا لولاية قضاء الحنفية ودلس على السلطان أمره . وكان الساعى له فى هذه الوظيفة تغرى بردى الاستادار ، ويعقوب شاه المهمندار ، وقد عز ذلك على جماعة من الحنفية ، وكان فيهم يومئذ من هو أولى بذلك من العزى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأتابكى أزبك لما وصل الى حلب وجد أمر الفتنة التى وقعت بين عسكر مصر وبين بايندر ، قد سكن أمرها ، وأن يعقوب بن حسن الطويل شق عليه ما فعله بايندر من سرعة قتله للأمير يشبك الدوادار ، ولامه على ذلك . ثم ان الأتابكى أزبك أرسل جانى بك حبيب قاصدا الى يعقوب بن حسن ، فتلطف به فى الكلام . وكان الأمير جانى بك حبيب سيوسا دربا ، حلو اللسان ، فأكرمه يعقوب ، وأجله . ثم أطلق من كان عنده من الأسرى من النواب والأمراء ، وغير ذلك ، فسلمهم للأمير جانى بك حبيب ، فأتى بهم الى حلب صحبته . فلما بلغ السلطان هذا الخبر سر به جدا .

وفيه خلع السلطان على البدرى حسن بن الطولونى ، وأعاده الى معلمة المعلمين ، وكانت قد أخرجت عنه مدة طويلة .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الخانكاه ،

فاعجبه مكان عند قناطر المرج والزيات ، فأمر ببناء زاوية هنالك وحوض وسبيل ، وأخذ فى أسباب ذلك ، وجاء من أحسن البناء .

وفيه توفى القاضى سعد الدين الكماخى أحد نواب الحنفية ، وهو ابراهيم بن محمد بن محمد بن قطلو بك شيخ المدرسة الظاهرية العتيقة ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما دربا محمودا فى قضائه ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الأول جاءت الاخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد المغازى ، ملك الروم ، وصاحب القسطنطينية العظمى ، وهو محمد بن مراد بن محمد بن عثمان ، وكان ملكا جليلا عظيما ساد على بنى عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ، وحاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد ، وسعة المال وكثرة الجيوش ، والاستيلاء على الأقاليم الكثيرة ، وفتح الكثير من حصونها وقلاعها . وكان نائب ملك مملكة الروم فى حياة أبيه ، ثم استقل به من بعده ، ومكث به مدة طويلة تزيد عن احدى وثلاثين سنة ، ومولده بعد الأربعين والثمانمائة . ولما مات تولى بعده ولده أبو يزيد بلدرم ، الموجود الى تاريخه . فلما سمع ذلك السلطان أظهر الحزن والأسف عليه .

وفيه خلع السلطان على العلائى على بن الصابونى ، وقرره فى نظر الخاص عوضا عن بدر الدين بن الكويز بحكم وفاته . وقد جمع بين نظر الخاص ووكالة بيت المال

وفيه خلع السلطان على يشبك بن حيدر والى القاهرة ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر الشهابى أحمد بن الجمالى ناظر الخاص فى امرية الحاج بالركب الأول ، وقرر شاهين الجمالى فى نيابة جدة ، ويخرج صحبته الشهابى أحمد ناظر الجيش ، ويكون هو المتكلم على الحجاج بالركب الأول .

* * *

وفى ربيع الآخر نزل السلطان ، وتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية ، وبات بها وصلى صلاة الجمعة هناك ، وخطب به محمد بن دمرداش امام القبة . وعمل هناك بعد العصر ميعادا بحضرة السلطان ، فأنعم عليه بمائة دينار .

وفيه نزل السلطان ، وعدى الى جهة الروضة ، وأمر بتجديد الجامع الذى هناك تجاه المنشية ، وكان تلاشى أمره ، فأمر بهدمه وتجديده ، وكان الشاد على عمارته البدرى حسن ابن الطولونى . ثم ان السلطان توجه الى المقياس ونزل عن فرسه ، ودخل الى قاعدة المقياس ، وأمر بتجديد بعض أماكنه ، واصلاح أساسه ، وغير ذلك . ثم ان السلطان صار يتردد الى الروضة ، ويكشف عن بناء هذا الجامع ، حتى انتهى العمل منه فى سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وقد جاء فى غاية الحسن والزخرفة ، وصار يعرف بجامع السلطان . وكان أصل من أنشأ هذا الجامع الفخر ناظر الجيش ، وهو صاحب قنطرة الفخر التى أنشأها فى دولة الناصر محمد بن قلاوون . ثم جدد بناءه الصاحب شمس الدين محمد بن المقسى فعرف به . ثم جدد بناءه الأشرف قانباى فعرف به ، وجاء من أحسن البناء هناك .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى علان الأشقر بن ننطخ الأشرفى أحد العشراوات ورءوس النوب ، وهو الذى أنشأ الحوض والسبيل بطريق بركة الحاج ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على اينال السلحدار ، نائب

الاسكندرية ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن يرد بك المعمار بحكم قتله فى واقعة بابندر . وخلع على جكم قرا أمير آخور الجمالى الظاهرى ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن اينال السلحدار بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس .

وفيه توفى الأمير لاجين الظاهرى ، أمير مجلس كان . وجاوز التسعين سنة من العمر ، وكان دينا خيرا رئيسا حشما . وكان من الشجعان قبل أن يهزم ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الزردكاشية الكبرى . ثم شادية الشراب خاناه ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير مجلس واستعفى من ذلك . ومات بطالا ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على قانم الفقيه الظاهرى الأشقر ، بمشيخة الحرم الشريف النبوى ، عوضا عن اينال باى الاسحاقى بحكم وفاته .

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار من حلب ، من عند الأتابكى أزبك ، بأن الجام بن عثمان ، ملك الروم ، قد وقع بينه وبين أخيه أبى يزيد ، وأن الجام وصل الى أطراف بلاد السلطان ، وبعث يستأذن فى الدخول الى حلب ، فعاد من السلطان للأتابكى أزبك بأن يحضر الى القاهرة فى قليل من عسكره ثم ان السلطان أخذ فى أسباب تجهيز الملاقاة اليه الى أن يصل الى مصر .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى خامس عشر مسرى . فلما أوفى رسم للأمير أزبك السيفى بأن يتوجه ويفتح السد .

* * *

وفى رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فوقع بالمجلس كلام بتعلق بالشهابى أحمد بن العيسى ، بسبب تركة شرف الدين ابن كاتب غريب وكان بعض نواب المالكية سمع دعوى ابن العينى، وحكم له ثم ان آمر هذه الدعوى وقف مدة طويلة ، فلما طلع القضاه فى الشهر المذكور ، أخذ السلطان يسأل القاضى المالكى والشافعى عن السبب فى تأخر ذلك بعد أن ثبت حق ابن العينى ، وحكم له بذلك . فطال الكلام فى المجلس بين القضاة ، فحنق منهم السلطان،فقام كاتب السر يتكلم للقضاة من نوع المساعدة لهم فقال له السلطان : « أنت معزول ، والقاضى الشافعى معزول ، والقاضى المالكى معزول » . فنزلوا الى دورهم وهم فى غاية النكد . وكان آخر عزل ولى الدين الأسيوطى ولم يل بعد ذلك القضاء ، وكذلك برهان الدين اللقانى ، فكانت مدة ولى الدين الأسيوطى فى قضاء الشافعية نحوا من ست عشرة سنة . وكان مشكور السيرة فى قضائه .

ثم أخذ السلطان فى أسباب من يلى قضاء الشافعية ، فترشح آمر الشيخ زين الدين زكريا ، فطلب وخلع عليه وتولى القضاء ، وقد تمنع من ذلك الى الغاية . ثم شرط على السلطان شروطا كثيرة ، فأجيب الى بعضها ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، واستمر فى هذه الولاية مدة طويلة وقد أخذها عن ولى الدين الأسيوطى بحكم صرفه عنها . وكان الشيخ زكريا يومئذ رأس الشافعية ثم ان السلطان طلب محيى الدين بن تقى الدين المالكى ، وخلع عليه ، وقرره فى قضاء المالكية . عوضا عن برهان الدين اللقانى بحكم صرفه عنها ، واستمر فى هذه الولاية الى أن مات .

وأما القاضى كاتب السر ابن مزهر ، فانه أقام فى داره نحو ثمانية عشر يوما وهو منفصل عن كتابة السر . ثم ان بعض الأمراء مشى بينه وبين السلطان فى عوده بعد ما كاد ترشح أمر قطب الدين الخضيرى بأن يلى كتابة السر . ثم ان ابن مزهر

أورد السلطان مالا له صورة حتى رضى عليه . فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، وأعاد وظيفته ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وتخلق جماعته بالزعفران ، وزينت له حارته وهنأه الأديب أبو الخير ابن النحاس بقوله فيه :

متام ابن مزهـر فوق السـها
وقـد زاد ربى اجـلاله
وظيفته الدهـر تسـمو به
ولم تك تصـلح الا له

وقال آخر :

يا كاتب الأسرار يا من فضـله
قد جـل الدنيا وزان المصبا
هـذه وظيفتك التى فارقتهـا
عادت اليك فمرحبا بك مرحبـا

وفيه حضر برقوق الساقى الاينالى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان ممن أسر عند يابندر ، وحضر صحبته اياس مملوك الأتابكى أزبك ، وأخبر بأن النواب والأمراء الذين كانوا فى الأسر عند يابندر قد أطلقـوا أجمعـين ، ودخلوا الى حلب صحبة جانى بك حبيب ، وقد خلع عليهم يعقوب بن حسن الطويل . ثم أخبر اياس المذكور أن الجمجمة بن عثمان ، قـد خرج من غزة وهو قاصـد للديار المصرية . فلما أخبر السلطان بذلك آخذ فى أسباب ملاقاة الجام .

وفيه توفيت خوند بنت الملك المنصور ، وهى زوجة تمراز التمشى ، رأس نوبة النوب . وكانت شابة جميلة ماتت نفساء بعد أن وضعت .

وفيه قرر عماد الدين اسماعيل الناصرى الحنفى الدمشقى ، فى قضاء الحنفية بدمشق ، عوضا عن ابن القصيف بحكم انفصاله عنها .

* * *

وفى شعبان خرج الصاحب نخشقدم الزمام الى ملاقاة الجام بن عثمان ، ومـد له أسمطة حافلة ببلبيس والخانكاه ، ثم لاقته الأمراء المقدمون ، والعسـكر ورءوس النوب والحجاب من المسرج والزيات ، فسـار فى موكب حافل حتى طلع الى القلعة من بين الترب . فأقام له السلطان الموكب بالحوش . فلما مثل بين يدى السلطان وهو جالس على الدكة ، تحرك ولم يقم له ، فعد ذلك ناقصة من الأشرف قايتباى . ثم خلع على الجام كاملية بسمور حافلة ، وأركبه فرسا خاصـا من مراكبه بسرج ذهب وكنبوش زركش ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء ورءوس النوب وكان له يوم مشهود . وقد قيل فى المعنى :

يا أيها الملك الهمـام ومن له
أسـد الفلا تأتى اليـه ملجمة
قد فاق قدرك فى الملوك تعاظما
مذ صح بين يديك نطق الجمجمة

وأنزلوه بدار ابن جلود ، كاتب المماليك ، التى بفم الخور ، وقد حضر بصـحبة الجمجمة والدته وأولاده وعياله . وقد فر من أخيه أبى يزيد خوفا على نفسه من القتل ، فالتجأ الى سلطان مصر .

وفيه قبض يشبك بن حيدر والى القاهرة ، على امرأة يقال لها خديجة الرحابية ، وكانت من أعيان مغنيات مصر ، ولها انشاد لطيف ، وكان أصلها من مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا وحظيت عند أرباب الدولة ورؤساء مصر . وكانت جميلة حسنة الغناء فافتتن بها الكثير من الناس ، وقد قال فيها بعض الشعراء :

رحابية يخفى الشـموس جمالها
لها حسن انشـاد يزين مقالها
وقد خايلت بالبـدر ليلة تمه
فما زال من عينى وقلبى خيالها

فلما قبض عليها يشبك ، كانت فى بعض الأفراح فحبسها من هناك ، فلما مثلت بين يديه قال لها : « آنت التى أفسدت عقول الناس » . ثم أمر بضربها بين يديه نحوا من خمسين عصا ، وقرر عليها مبلغا له صورة ، وكتب عليها قسامة بأنها لا تغنى ولا تحضر فى مقام . فلما خلصت من ذلك أقامت مريضة مدة من الرجفة التى وقعت لها ، ثم ماتت عقيب ذلك . وكان لها من العمر نحو الثلاثين سنة ، فتأسف عليها الكثير من الناس .

وفيه كان ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر ببركة الرطلى . وكان له مهم حافل جدا . وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشراوات وحضر عنده جمجمة بن عثمان ، وبات عنده ، وكان النيل فى أواخره ، فأمر كاتب السر سكان بركة الرطلى بأن يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة . وشرع يرسل الى كل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت ، وطبلية فيها آكل فاخر من طعام ذلك المهم ، فاحتفلوا فى الوقدة ، وعلقوا فى الطيقان الأحمال والتنانير ، حتى كانت ليلة مشهودة ، يكاد الانسان أن يدخل الخيط فى خرم الأبرة من عظم ضوء النور . وأحرق حراقة عظيمة لم يسمع بمثلها حتى جاءت اليها الخلائق من كل مكان بسبب الفرجة . وبلغ كراء كل مركب أربعة أشرفية . واستمرت هذه الوقدة والحراقة ثلاثة أيام متوالية ، حتى عد ذلك من النوادر التى لم يقع مثلها . واجتمع بالبركة نحو من أربعمائة مركب موسوقة بالخلائق ، وصار ابن رحاب عمالا ، ومغانى البلد من نساء ورجال فى كل ليلة . وأنفق فى تلك الليلة من الأموال ما لا يحصى ، حتى قيل ابتاع من عصفور الجبان على المتفرجين بنحو من مائة وعشرين دينارا جبنا مقليا ، وكذلك ابن الزيبق الحلوانى ابتاع منه حلوى بمثل ذلك . وقد خرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد . وقد رسم السلطان للقاضى كاتب السر ألا يبقى ممكنا فى هذا المهم لأجل جمجمة بن عثمان لكونه كان حاضرا فى هذا المهم . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا
حتى تباهت على الخلجان والبرك

حفت بضوء مصابيح زهت وغدت
تضىء فى حندس الديجور والحلك

فكان لما تناهى حسن وقدتها
تخفى شموس الضحى فى دارة الفلك

وقال شمس الدين القادرى :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا
لهم دليلا لدى الظلما من اللهب

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها وكأن الشمس لم تغب

وفيه عزم السلطان على الجمجمة بن عثمان ، وأضافه بقبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، وحضر ذلك الأمراء المقدمون . وكانت ضيافة حافلة جدا ، وخلع السلطان على الجمجمة كاملية بسمور

وفيه قرر الجمالى يوسف بن جاهين الكركى سبط ابن حجر فى قراءة الحديث الشريف بالقلعة عوضا عن برهان الدين بن الكركى الامام . وكان السلطان تغير خاطره على ابن الكركى واختفى مدة طويلة .

وفيه أحضر شخص من العرب بين يدى السلطان سنا من نواجذ بنى آدم ، من نسل العمالقة ، فكان وزنه ستة أرطال ونصفا ! فتعجب السلطان من ذلك .

* * *

وفى رمضان ثارت رياح من جهة الغرب ، وكانت عاصفة جدا ، وأظلم بسببها الجو وأرعد وأبرق ، ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان المطر فى غير أوانه فى أواخر بابه . ثم جاءت الأخبار من دمياط بأن هذا الريح كانت قوته بدمياط ، وقد قلع عدة أشجار ، وهدم بعض أماكن ، وأغرق عدة مراكب من مراكب الفرنج . وكان ريحا مهولا جدا .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن فى ليلة ثالث عشر الشهر المذكور ، سقطت صاعقة عظيمة فى أواخر الليل على المسجد الشريف النبوى ، فاحترقت منها المنارة التى تجاه الحجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، واحترقت سقوف المسجد جميعها والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب ، وما سلم من ذلك سوى القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبعض حيطان المقصورة . وقتل المؤذن الذى كان على المئذنة وقت نزول الصاعقة ، وقتل جماعة أيضا ممن كان بالحرم الشريف ، فكتب بذلك محضر ، وثبت على يد قضاة المدينة . وكان مما كتب فى المحضر أن المؤذن لما طلع على المئذنة الشرقية ، لأجل التسبيح ، رأى صاعقة عظيمة نزلت من السماء على المسجد الشريف النبوى ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فعملت فيه النار . فلما عاين المؤذن ذلك خرس ، ونزل من المئذنة ، فأقام ساعة ومات . وقد عاين الناس عدة أطيار بيض بأعناق طوال ، طائفة حول المسجد ، تمنع النار أن تحرق البيوت التى حول المسجد . وأن المسجد جميعه قد احترق حتى صار كالتنور . فلما سمع السلطان ذلك بكى وبكى من كان حوله . وتعجب الناس لهذه الواقعة كيف جرت فى هذا المكان الشريف ، فأخذ شيخنا شمس الدين القادرى يعتذر عن ذلك :

بطيبة سيئات الركب بدّلها
رب العلا حسنات عندما زاروا
وعندما قبلن ضاهت لدى حرم الـ
مختار من أكلت قربانه النار

واعتذر آخر :

لم يحترق حرم النبى لحادث
يخشى عليه ولا دهاه العار
لكنما أيدى الروافض لامست
ذاك الجناب فطهرته النار

واعتذر آخر :

قالوا لقد غاب الصواب لحادث
تبنى عليه رضاهم الكفار
بل ضم شمل السحت وهو محرم
عند الرسول فحرقته النار

ثم ان السلطان شرع فى تجديد المسجد الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فعين الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن بأن يتوجه الى المدينة الشريفة ، وأرسل معه عدة من البنائين والنجارين والمرخمين ، وغير ذلك . وأمر بهدم القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام واعادتها وتجديدها ، وتجديد غيرها من الحديد المخرم ، وكانت قبل ذلك من الخشب ، وتغيير المنبر والموادن التى كانت بالحرم . ثم توجه ابن الزمن الى هناك وشرع فى البناء حتى انتهى منه العمل ، فى أواخر سنة سبع وثمانين وثمانمائة . فجاء غاية فى الحسن من أجلّ الأبنية ، وأعظمها ، حتى قيل ان السلطان صرف على بنائه نحوا من مائة ألف دينار ، وجدد معالمه ، وتناهى فى زخرفته الى الغاية .

ووقع مثل هذه الحادثة فى حرق المسجد الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام سنة احدى وخمسين وستمائة ؛ فى أواخر دولة أيبك التركمانى .

وفيه وصل قاصد من عند يعقوب بن حسن الطويل ؛ وعلى يديه مكاتبة من عند يعقوب ، وهو يعتذر فيها مما وقع من بابندر ، وأن ذلك لم يكن بعلمه . فعتب السلطان على القاصد بسبب ما وقع من بابندر ؛ وسرعة قتله للأمير يشبك . ثم أضاف القاصد وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى فى رأس دور الحسينية ، فكشف عليها ورسم للأمير تغرى بردى الاستادار بأن يكمل عمارتها ؛ فان الأمير يشبك مات ولم يتم عمارتها . فلما رجع السلطان شق من القاهرة ، فقام اليه الناس قاطبة ، وضجوا له بسبب الفلوس الجدد وغلو البضائع . فلما طلع الى القلعة ، رسم بعقد مجلس بالمدرسة الصالحية . فاجتمع القضاة الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص العلائى ابن الصابونى والمحتسب ، ثم أخذوا يتكلمون فى أمر الفلوس . وكان ناظر الخاص ضرب فلوسا جددا عليها اسم السلطان ، وقصد أن يخرجها بأغلى من الفلوس العتق . فلما تكلموا فى أمر الفلوس العتق ، أخذ ناظر الخاص يعارض فى ذلك لأجل غرضه . فلما سمع العوام بذلك ثاروا عليه فى وسط المدرسة الصالحية ورجموه ، ولولا كاتب السر لقتلوه ... فلما طال المجلس فى ذلك اتفق الحال على أن تكون الفلوس كلها — العتق والجدد — بالميزان بستة وثلاثين الرطل . فنادوا فى القاهرة بذلك ، فسكن الأمر قليلا .

* * *

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، ورسم السلطان للجام بن عثمان بأن يلبس الشاش والقماش ويطلع ويصلى مع السلطان صلاة العيد ، فطلع وصلى وحضر الموكب ، وخلع عليه السلطان متمرا وفوقانى بطرز عريض ، ونزل مع الأمراء المقدمين وهو بالشاش والقماش .

وفيه خلع السلطان على بيبرس الرحبى قريبه ، وقرره فى شادية الشراب خاناه ، عوضا عن ألماس ، بحكم انتقاله الى نيابة صفد .

وفيه خلع السلطان على قريبه تمراز التمشى ، وقرره فى امرية سلاح . وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل الأمير يشبك الدوادار .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير المحمل يشبك بن حيدر والى القاهرة ، وأمير الركب الأول الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص . وسافر صحبته الجام بن عثمان هو وأمه وعياله . وقد هيأ له السلطان بركا عظيما صرف عليه جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الأمير أزبك الى غزة ، وصحبته النواب والأمراء الذين كانوا أسروا عند بابندر ، فأرسل السلطان هجانا للأتابكى أزبك بأن يقبض على قانصوه اليحياوى ، الذى كان نائب الشام وأسر عند بابندر ، ويرسله الى القدس بطالا ، وأن بقية الأمراء والنواب يحضرون الى القاهرة . وكان قد بلغ السلطان بأن قانصوه اليحياوى كان سببا لكسرة العسكر وقتل يشبك . فعمل له ذنب كبير بسبب ذلك . فكان كما قيل :

له ألف ذنب لا تعد بواحد

ولى فرد ذنب لا يعادله ألف

وفيه كان وصول الأتابكى أزبك الى القاهرة ، فدخل فى موكب حافل ، وصحبته أزدمر نائب حلب الذى كان أسر عند بابندر ، وكذلك يرسباى قرا

حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين — وكانوا أسروا أيضا — فكان لدخولهم يوم مشهود وأحضر الأتابكى أزبك مثقال البرهانى الذى كان مقدم المماليك ونفى الى القدس بطالا . فلما حضر من غير اذن السلطان شق عليه ذلك ، وأمر بنفيه الى مكة المشرفة ، فلحق بالحجاج .

ثم أن الأتابكى أزبك شفع فيه ، وباس رجل السلطان مرارا ، فرسم بعوده الى القاهرة بطالا ، فعاد من أثناء الطريق .

* * *

وفى ذى القعدة خلع السلطان على قريبه أزدمر الذى كان نائب حلب ، وقرره فى امرية مجلس ، وكانت شاغرة من حين عفى منها لاجين الظاهرى فقرر بها أزدمر بغير اقطاع ، فكان له فى كل شهر ألف وخمسمائة دينار مرتبة على الذخيرة . ثم خلع على برسباى قرا ، وقرره فى الرأس نوبة الكبرى عوضا عن تمراز التمشى ، بحكم انتقاله الى امرية سلاح . وخلع على تغرى بردى ططر ، وقرره فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى . وخلع على قانصوه الغورى ، وقرره فى كشف الوجه القبلى .

* * *

وفى ذى الحجة قرر سيباى نائب غزة فى حجوبية الحجاب بدمشق ، عوضا عن يشبك العلائى ، بحكم انتقاله الى نيابة حماه ، عوضا عن جانم الجداوى ، بحكم انتقاله الى أتابكية دمشق ، عوضا عن شادبك الجلبانى . وقرر سودون الطويل الاينالى فى تقدمة ألف بدمشق ، وقرر فى نيابه عزة دولات باى الأجرود الاينالى ، عوضا عن سيباى ، الذى قرر فى حجوبية دمشق .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وكشف عن الجامع الذى أنشأه هناك .

وفيه توفى طوخ الذى كان زردكاش ، ونفى الى دمياط ، ثم شفع فيه وعاد الى مصر بطالا ، فمات بها . وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى شيخ عربان الشرقية محمد بن عجلان ابن بقر ، وكان لابأس به ، وجرت عليه شدائد كثيرة ومحن ، وكان قد شاخ وكبر سنه وتوفى أبرك الظاهرى احد العشراوات . وتوفى جاهين التاجى دوادار جانم نائب الشام وكان لا بأس به . وتوفى فى أواخر السنة المذكورة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة .

سنة سبع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، جاءت الأخبار بموت جكم قرا العلائى الظاهرى ، نائب ثغر الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه قدم الحاج الى القاهرة ، وحضر الجمجمة ابن عثمان صحبة الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ، ناظر الخاص أمير ركب الأول ، فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة .

وفيه أفرج السلطان عن أمير ركب محمل العراق ، والقاضى الذى كان معه ، وكانا بالبرج الذى بالقلعة من أيام حسن الطويل ، وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه قلق جمجمة من اقامته بمصر ، وطلب التوجه الى بلاده ليحارب أخاه ، فجمع السلطان الأمراء واستشارهم فى ذلك ، ثم أحضر الجمجمة وتكلم مع الأمراء بكلام كثير ، فأغلظ عليه الأتابكى أزبك فى القول ، وهو لا ينتهى عن السفر الى بلاده . فطال الكلام بينه وبين الأمراء فى ذلك ثم انفض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر الى بلاده على كره منه . وكان ذلك عين الخطأ ،

وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ، وسنذكر ذلك فى موضعه .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على شخص من الأراذل يقال له محمد بن العظمة ، وكان صنعته فراء ، ثم سعى له عند السلطان وسائط السوء بأن يقرره فى نظر الأوقاف ، فخلع عليه بذلك . فلما استقر فى الوظيفة حصل على الناس منه غاية الضرر الشامل ، والتزم بمال يورده فى كل شهر له صورة . فصار يرسل خلف الناس من رجال ونساء ويرسم عليهم بسبب الأوقاف ، ويحاسبهم على الماضى والمستقبل ، ويأخذ منهم جملة مال ، وصار بابه أنحس من باب الوالى ، والتف عليه جماعة من المناحيس ، وصاروا يفرعون له الأذى تفريعا وكان ذلك فى صحيفة قايتباى ، رحمه الله ، الذى قرب مثل هذا وسلطه على الناس ، فكان كما قيل :

لبابك بواب عن الخير مانع
يضم لقبح الوجه سوء خطابه
فساويت فيه من غدا يمنع القرى
ومن يربط الكلب العقور ببابه

وكان يورد هذه الأموال للسلطان ، لا يدرى آمن حلال هى أم من حرام ، كما قيل فى العنب :

قيل للصب فيه خمر حرام
فتمنى حرامه وحلاله

وفيه توفى جانى بك كوهية الاسماعيلى المؤيدى الذى تقدم ذكره ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على موفق الدين بن الحمصى الأسلمى ، وقرره فى نظارة الدولة ، وكان فى خدمة الصاحب خشقدم ، وهى أول شهرته .

وفيه توفى أقبردى تمساح بن اسباى الأشرفى أحد العشراوات ورءوس النوب ، وكان من مماليك الأشرف برسباى ، وسافر الحجاز أمير الركب الأول غير ما مرة ، وكان لا بأس به ، ومات فجأة ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر .

* * *

وفى ربيع الأول عقد الامير أقبردى على خوند أخت زوجة السلطان ، وهى بنت العلائى بن خاص بك ، التى كانت زوجة الأمير جانم الجوالى قريب السلطان ، وكان يوم دخولها مهما حافلا .

وفيه ، فى أول يوم من بشنس ، قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وقد خالف العادة فى قلع الصوف بأيام ، ثم عمل المولد النبوى وضرب الكرة .

وفيه ضرب السلطان شخصا يقال له بلبان الكاشف ، فلما ضربه لم يعجبه ضرب رءوس النوب فنزل من فوق الدكة ، وتولى ضربه من عظم حنقه عليه .

* * *

وفى ربيع الآخر وقع بين قاضى القضاة زين الدين زكريا ، وبين الأمير دولات باى الحسنى شاد الشون ، فكانت حادثة عظيمة قام فيها القاضى الشافعى ، فما حصل له من ذلك طائل . وهذه الواقعة مشهورة بسبب وقف .

وفيه خلع السلطان على الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر دولات باى الحسنى شاد الشون فى امرية الركب الأول .

وفيه كان ختان أولاد الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال بثغر الاسكندرية ، وكان حافلا ، فأرسل يطلب على بن رحاب المغنى بسبب الزفة .

وفيه خلع السلطان على الشيخ صلاح الدين الحنفى الطرابلسى ، وقرره فى مشيخة المدرسة

الاشرفية التى بجوار الورافين ، عوضا عن البرهان ابن الكركى بحكم اختفائه لما تغير خاطر السلطان عليه .

وفيه خلع السلطان على واحد من مماليكه يقال له « على باى » وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن جكم قرا بحكم وفاته . وكان على باى هذا كاشف السرقية يومئذ .

* * *

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار بقتل سيف أمير آل فضل ، الذى خرج الأمير يشبك الدوادار بسببه كما تقدم . قتله ابن عمه غسان فى بعض بلاد العراق .

وفيه خرج السلطان وسافر على الهجن ، ولم يعلم الى أين يتوجه ، وكثر الكلام فى حقه فى ذلك بسبب سفره . ثم ظهر بعد ذلك أنه سافر نحو جهات العباسة وغيرها ، ثم رجع بعد أيام .

وفيه جاءت الاخبار من مكة المشرفة بوفاة الأمير خاير بك بن حديد ، الذى كان احد المقدمين بمصر ، وتغير خاطر السلطان عليه ، كما تقدم ، فنفاه الى الشام ، فأقام بها مدة ثم نقله الى مكة المشرفة ، فمات بها . وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان دينا خيرا عارفا بأنواع الفروسية ، وله اشتغال بالعلم ، وحذق جيد ، وفصاحة بالعربية . مات وله من العمر زيادة عن الستين سنة ، وكان من جملة الأمراء المقدمين بمصر ، وهو صاحب المدرسة التى بزقاق حلب .

وفيه كانت وفاة شاعر العصر ورأس الأدباء على الاطلاق الشيخ شهاب الدين أحمد المنصورى ، وهو أحمد بن محمد بن خضر بن على السلمى المنصورى ، المعروف بالهائم ، القاهرى ... الحنبلى ، وكان له شعر جيد ، ونظم رقيق جدا ، وفيه يقول الناصري محمد بن شادى خجا العنبرى :

أخبرتنا ملوك علم القوافى
فى بديع المنظوم والمنثور
ما وجدنا خليفة فى المعانى
ملكا فى البيان كالمنصورى

وكان الشهاب هذا جميل الهيئة ، نير الوجه ، متعففا عن الناس . ولما بلغ خمسا وسبعين سنة من العمر قال :

بلغت من دنياى سنا به
وقعت فى السبعين والخمس
فالحمد لله الكريم الذى
متعنى بالسن والضرس

ولما بلغ الثمانين سنة من العمر قال :

نحو الثمانين من العمر قد
قطعتها مثل عقود الجمان
وما أحوجت يوما يمينى الى
عصا ولا سمعى الى ترجمان

ثم عرض له فى أواخر عمره فالج ، فلزم الفراش مدة طويلة ، وانقطع فى داره عن الحركة ، فأنشأ يقول :

آه يا درهمى ويادينارى
ضعت بين الطبيب والعطار
كنت آنسى فى وحدتى وشفائى
من سقامى وصحتى فى انكسار
كنت تقضى مما حلا من غداء
وعشاء ، منيتى أوطارى
قد حمانى الطبيب عن شهواتى
فاحم يارب قلبه بالنار
طال شوقى الى الفواكه والبط
ـيخ والجبن واللبا والخيار
ضاع لبى على مقاساة لب الـ
ـقرع والهندبا وبزر الشمار

كلما أجمع اختيارا حطاما
فرقته منى يد الاضطرار
ليت شعرى وللزمان خطوب
وبلاء يختص بالأحرار
هل لميت قضى عليه طبيب
من كفيل أو آخذ بالثار

واستمر بهذا الفالج الى أن مات ، وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان بالقلعة ، وقصدوا قتل مقدم المماليك ، حتى فر منهم واختفى وأحرقوا باب الزردخانة . وكانت فتنة كبيرة ، ثم سكن الحال قليلا .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجام لما خرج من مصر ، وتوجه الى بلاد ابن قرمان ، بعث اليه أخوه جماعة من عسكره فتحاربوا ، فانكسر وفر هاربا وندم على خروجه من مصر ، ولم يعلم أين يتوجه .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا.

وفيه هجم اللصوص على قيسارية جركس وقتلوا البواب ، وأخذوا من الدكاكين أشياء كثيرة ولم ينتطح فى ذلك شاتان .

وفيه أنعم السلطان على الناصرى محمد ابن الأتابكى أزبك بامرية عشرة ، وأرسل اليه تاشا فلف له تخفيفة .

وفيه توفيت خوند شقرا بنت الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق ، زوجة الأتابكى جرباش كرت ، وكانت من مشاهير الخوندات ، فنزل السلطان وصلى عليها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجمجمة بن عثمان لما فر من عسكر أخيه ، نزل فى مركب فى البحر الملح فخرج عليه بعض الفرنج ، فى مراكب ، فأسروه ، وقد ذهب جميع ما كان معه من مال وقماش وغيره وكان خروجه من مصر عين الغلط .

وفيه هلك بترك النصارى اليعاقبة ، وكان عند أهل ملته مشكورا .

* * *

وفى شعبان صنع الأتابكى أزبك فى الأزبكية حراقة نفط ووقدة عظيمة ، وكانت ليلة مشهودة .

وفيه رسم السلطان بعمارة سور البيرة ، فجاء من أحسن البناء ، وأنفق عليه مالا له صورة .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن السلطان أنشأ هناك مدرسة ، وجعل لها شبابيك مطلة على الحرم الشريف النبوى ، فقامت على السلطان أسئلة بسبب ذلك ، وأفتى بعض العلماء بأن ذلك لايجوز فان حرمة النبى صلى الله عليه وسلم وهو ميت ، كحرمته وهو حى صلى الله عليه وسلم . وقد أجاز ذلك بعض علماء الجاه .

وفيه توفى الناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت ، وهو ابن خوند شقرا . فكان بينه وبين وفاة أمه نحو من شهر ، وقد مات فجأة ، وقيل وقع بينه وبين سرور مشد الحوش السلطانى ، وكان طواشى والدته قديما ، فحنق منه الناصرى محمد ، فتناول فصا من الماس وابتلعه فمات من ليلته . وكان رئيسا حشما لطيف الذات لا بأس به .

* * *

وفى رمضان توجه الصاحب خشقدم الى الوجه القبلى ، بسبب ضم المغل .

وفيه كان ختم قراءة صحيح البخارى ، وفرقت الصرر والخلع على القضاة والعلماء ، وكان ختما حافلا .

وفيه خسف جرم القمر ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة .

وفيه توفى قاضى المحلة أوحد الدين بن العجمى وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بنفى دولات باى بن مصطفى ، نائب غزة ، فنفى الى مكة المشرفة .

* * *

وفى شوال ظهر قاسم شغيته ، الذى كان وزيرا وكان له مدة وهو مختف . فلما ظهر خلع عليه السلطان كاملية حافلة ، وقرره فى نظر الدولة ، عوضا عن موفق الدين بن الحمصى الأسلمى .

وفيه حضر الصاحب خشقدم من السفر ، فلما حضر رسم السلطان عليه لعمل الحساب .

وفيه ولد للسلطان ولد ذكر من سريته أصل باى الجركسية . فسماه محمدا ، وهو الذى تسلطن بعده .

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل أزبك اليوسفى ، أحد المقدمين . وبالركب الأول دولات باى الحسنى شاد الشون

* * *

وفى ذى القعدة رسم السلطان للقضاة والشهود ألا يعقدوا لمملوك من مماليكه . حتى يأخذوا له اذنا من أغاته . وفى هذه الأيام تزايد شر جماعة من المماليك الجلبان ، وصاروا يأخذون أشياء الناس بالبأس ، من دكاكين التجار وغيرهم ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل .

وفيه توفى محب الدين كلب العجم ، واسمه عبد الرحمن بن حسن بن الأمين الحلبى الحنفى ، توفى بالبيمارستان . وكان فاضلا شاعرا ماهرا ، وله خط جيد ، وكان حسن الملتقى ، ذكى المحاضرة ، وكان من أخصاء الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، لكنه كان مسرفا على نفسه ، يميل الى محبة الأحداث ، وله فيهم أشعار كثيرة ، وكان جاهلا محترفا .

وفيه توفى الفتح محمد المنصورى ، أحد المباشرين ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه قدم الأمير تمراز التمشى من البحيرة ، وكان مسافرا بها ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره .

* * *

وفى ذى الحجة كانت الأضحية غالية ، ولا توجد الا قليلا ، فحصل للناس غاية القلق بسبب ذلك .

وفيه قبض السلطان على شخص يقال له الشريف الأكفانى زعموا أنه قد قتل قتيلا وهو زوجته ، فضرب بين يدى السلطان ، فلم يقر بشىء فرسم بسجنه فسجن مدة طويلة . ثم آل أمره الى أن صالح الورثة بمال ، وأطلق بعد ما قاسى شدائد ومحنا .

وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وقد ثبت الشهر بالأربعاء فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، فحنق السلطان من القاضى زكريا ، وأشيع عزله . وقد فات الناس صوم يوم عرفة ، والتكبير فى صبيحته ، وانطلقت ألسنة العامة على القاضى زكريا وسبوه جهرا .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وأخبر أنه وقع بمكة المشرفة سيل عظيم ، حتى دخل الحرم ، وعام منه المنبر ، ووصل الى قريب عتبة البيت الشريف ، وهلك بالغرق بسببه نحو من سبعين انسانا ، وهدم عدة دور ، وكان أمرا مهولا . وأخبر المبشر بوفاة بدر الدين الدميرى المعروف بكتكوت ، أحد نواب الشافعية ، مات بالأزلم من طريق الحجاز ، وهو محمد بن يوسف بن على بن محمد بن أحمد بن سلطان الدميرى الشافعى . وكان فاضلا عارفا بصنعة التوقيع ، وكان موقع الدست ، وأحد نواب الحكم ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ،

طلق اللسان فى حق الناس . وكانت الشعراء تهجوه كثيرا ، فمن ذلك قول بعضهم :

قد عيل صبرى من خطب ألمّ به
عقلى وطرفى مذهول ومبهوت
فان غدا الديك سلطانا فلا عجب
فقد غدا قاضيا فى الناس كتكوت

وفيه يقول الأديب على بن برد بك :

ان الدميرى صديقى فلا
أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه
بل هو عندى من ملاح الملاح

والنكتة هنا أن الكتاكيت ينادى عليها : ياملاح الملاح

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله بن حسن بن على بن أبى سعد بن الأحمر قد ثار على ابنه الغالب بالله ، صاحب غرناطة ، وملكها من ابنه ، وجرت بينهما أمور بطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك الى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله فى ذلك .

وفيه توفى طرنطاى المحمودى أحد الأمراء العشراوات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان جلب هو والسلطان قايتباى فى سنة واحدة .
وتوفى يونس الكاتب المجيد ، وكان أكتع ، ويكتب بيده اليسرى خطا جيدا . وتوفى أواخر السنة المذكورة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة :

سنة ثمان وثمانين وثمانمائة (١٤٨٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، خلع السلطان على محمد بن عبد الرحمن ، وقرره فى نيابة جدة ، عوضا عن أبى الفتح المنوفى بحكم صرفه عنها .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى سنيت ، بسبب الكشف على الجسور ، ثم زار سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه ورضى عنه .

وفيه كان الغلاء بمصر قليلا والأسعار مرتفعة فى سائر البضائع والغلال .

وفيه توفى الشيخ علاء الدين الحصنى الشافعى وكان عالما فاضلا رئيسا حشما متواضعا .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة ، وقاسى مشقة زائدة ، ولم تحمد سيرة أمير الركب بالمحمل أزبك اليوسفى .

* * *

وفى صفر وقع بين كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر الذى توفى فى انبابة فيما بعد - وكان يومئذ أحد الدوادارية — وبين ناظر الجيش كمال الدين بعض تشاجر ، فلكمه كرتباى الأحمر ، فأطاح عمامته عن رأسه بالحوش فى وسط الناس ، وراحت فى كبسه .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن منجك ، وكانت وفاته بدمشق ، وكان رئيسا حشما من الأعيان .

وفيه توفى الشيخ أبو حامد المقدسى ، وهو محمد بن خليل المقدسى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله عدة مصنفات ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة ، لكنه كان سبهللا ، بليد الذهن قليل الفهم . ومما وقع له أن الزينى أبا الفتح ابن النحاس الشاعر ، داعبه بهذين البيتين ، وكتبهما اليه فى ورقة ، ودفعهما له فى مجلس القاضى كاتب السر ابن مزهر . فلما قرأهما استحسنهما ، ولم يفهم ما فيهما من الدسيسة عليه ، فكتبهما بخطه فى بعض مصنفاته ، وأوردهما لابن النحاس وهما :

أبا حامد أنت الذى شاع ذكره
بكثرة تأليف وجمع به انفرد

فأنت الذى ما مثل حفظك فى الورى

وأنت الذى ما مثل ذهنك فى البلد

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانم الجداوى ، نائب حماه ، وأتابك دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع عن متقال الساقى الطواشى الظاهرى رأس نوبة السقاة ، بأنه بضرب فى بيته الزغل ، فأرسل السلطان من كبس داره وقبض عليه .

* * *

وفى ربيع الأول رسم السلطان بعمل حساب قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزى ، بدار الأمير برسباى قرا رأس نوبة ، وقاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه .

وفيه ثار بالناس فى فصل الربيع دموية وأمراض حادة ، ومات بذلك جماعة كثيرة ، حتى أطلق عليه الفصل الصغير . ومات به من أعيان الناس سيدى فرج ابن تنم نائب الشام ، وكان شابا جميل الوجه لم ملتح بعد فتأسف الناس عليه قاطبة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان شرع فى عمل خيمة كبيرة مدورة برسم المولد الشريف ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش .

وفيه توفى القاضى نجم الدين يحيى بن حجى ، وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن حجى بن موسى ابن أحمد الحسبانى الدمشقى ، ثم القاهرى الشافعى . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، وعد من العلماء ، وكان كريما سخيا ، وولى نظارة الجيش بمصر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر والشام ، فلما مات وجد عنده زيادة عن ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفسة .

وفيه ، فى آخر يوم من برمودة ، قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وقد عجل بلبس البياض قبل أوانه بعشرة أيام .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ، بأن قانصوه اليحياوى الذى كان نائب الشام ، ونفى الى هناك بطالا ، قد أجرى عين ماء بالقدس ، وكانت معطلة مدة طويلة ، فصرف عليها مالا له صورة من ماله ، وحصل بها غاية النفع .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على أزدمر تمساح ، أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرية الحاج فى ركب المحمل ، وقرر أزدمر الأشقر أحد العشراوات فى امرية الركب الأول .

وفيه قرر شادبك المحمدى الظاهرى ، أحد العشراوات ، فى نيابة دمياط

وفيه توفى أبو الفداء الواعظ الناثر المادح ، وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت وجودة الغناء ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بين مماليك أقبردى الدوادار ، وبين مماليك ازدمر نائب حلب ، ووقع بينهم فتنة بالرميلة ، حتى شهروا السلاح على بعضهم ، فثار جماعة من مماليك السلطان ، مع مماليك أقبردى الدوادار ، فكادت أن تكون فتنة عظيمة بين الأمراء . ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه توفى الشيخ الصالح سيدى أبو الفضل ، من أولاد سيدى على وفا . وكان حصل له انجذاب واستمر به الى أن مات ، وكان من بيت كبير الولاية .

وفيه زلزلت القاهرة بعد العشاء ، لكنها كانت خفيفة ولم تدم ، ولو دامت قدر درجة لحصل منها غاية الفساد .

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة ستة أذرع وأربع أصابع .

وفيه سافر الأمير أقبردى الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب ضم المغل ، وكان صحبته أمير عربان هواره داود بن عمر . وكان قد أعاده السلطان الى امريته بالوجه القبلى ، وصرف محمد ابن يونس ولد عمه .

* * *

ومن الحوادث أنه فى جمادى الأولى فى يوم الثلاثاء عاشره ، ثار جماعة من المماليك الجلبان ، وتوجهوا الى دار برسباى قرا ، ونهبوا كل ما فيها وأحرقوها عن آخرها ، ونهبوا الربوع التى بجوارها ، وأحرقوها حتى نهبوا بسط المدرسة الأبوبكرية ، والفخرية ، حتى أخذوا القناديل التى بها ، وكانت مصيبة شنيعة ، وهذا أول فتك الجلبان بالقاهرة ، واستخفافهم بالسلطان . واستمرت الفتن من يومئذ تتزايد ، حتى كان منهم ماسنذكره فى موضعه .

وكان سبب كائنة برسباى قرا أن شخصا من المماليك الجلبان دخل الى سوق الشرب ، ليشترى ثوبا بعلبكيا من بعض التجار ، فتعترس المملوك على التاجر ، وضربه ضربا مبرحا ، وأخذ منه الثوب البعلبكى غصبا ، فشكا التاجر من باب برسباى قرا ، وكان يومئذ رأس نوبة النوب ، فطلب ذلك المملوك . فلما حضر ، قامت عليه البينة بما فعله فى سوق الشرب ، فأدبه وضربه بين يديه ، فلما بلغ خشداشينه ذلك ، ثاروا على برسباى قرا ، وفعلوا به ما فعلوا ، وراموا أن يحرقوا سوق الشرب ، حتى أخلوا منه التجار قاطبة ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة تعم البلد . ثم ان الأتابكى أزبك جرى بين المماليك الجلبان وبين برسباى قرا بالصلح ، وسكن الحال قليلا .

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن على دولات بن دلغادر ، قد أتى الى ملطية فى جمع كثير من العساكر ، وقد حاصر البلد أشد المحاصرة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيه توفى فانى باى الفلاح الأشرفى أحد العشراوات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان بارعا فى فنون الرمح .

وتوفى مغلباى الفقيه أحد العشراوات ، وكان أصله من مماليك العزيز ، وكان له اشتغال بالعلم

وفيه عرض السلطان الجند ، وعين تجريدة الى حلب بسبب على دولات بن دلغادر ، وعين بها من العلماء أزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، والأمير تغرى بردى ططر حاجب الحجاب الثانى ، ومن الأمراء الطبلخانات قانى بك جتسحه رأس نوبة ثانى ، ومن الأمراء العشراوات تانى بك الاينالى الحاجب الثانى ، وسودون الصغير العلائى ، وبرد بك المحمدى الخازندار الثانى ، ومن الجند نحو من خمسمائة مملوك ، وأنفق عليهم فبلغت النفقة على الأمراء والجند زيادة عن سبعين ألف دينار .

وفيه حصر شمس الدين الحلبى تركة يحيى بن حجى ، فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى ، فقال . « هذا الكتاب ينبغى أن يحرق ، وأن ابن عربى كان كافرا أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان » . فقال له بعض الحاضرين : « كيف تحرق كتاب الفصوص ، وفيه آيات من كتاب الله تعالى ؟ » . فقال : « ولو كان » . فمسكوا عليه ذلك ، وأرادوا تكفيره ، فبادر وترامى على كاتب السر ابن مزهر ، فقام معه ، وآل أمره الى أن عزروه ، وكشفوا رأسه ، ثم حكم باسلامه ، وحقن دمه ، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك وفيه يقول أبو النجا القمنى :

أقعــدت يا حلبيى — بالصفع فى قفــاكا

لما ادعيت جهـــلا — حرق الفصوص ياكا[1]

وما خلصــت حتى — أقمت شاهـــداكا

وفيــه توفى قانصوه المداقف المحمدى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان علامة فى الدقاف .

* * *

وفى رجب خرج الأمراء والعسكر الى التجريدة التى عينت الى على دولات بن دلغادر ، وكان آخر العهد بالأمير آزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، فلم يدخل الى مصر بعد ذلك .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، أوفى ثانى عشر مسرى ، فلمــا أوفى توجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه توفى برد بك الطويل المحمــدى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان شــادا على أوقاف الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبــار من مكة المشرفة ، بوفاة محمد بن عبد الرحمن ، ناظر جدة ، وكان رئيسا حشما لطيف الذات عشيرا للناس . ولما مات دفن بمكة المشرفة أعزها الله تعالى .

* * *

وفى شعبان عرض السلطان المقصورة الجديدة التى صنعها للحجرة الشريفة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فنصبها بالحوش فى أول الشهر المذكور ، وكان زنتهــا أربعمائة قنطار من الحديد ، فحملت الى المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على سبعين جملا .

وفيــه توفى جــانم البهـلوان أحـد الأمراء العشراوات ، وكان أصـله من مماليك الظــاهر جقمــق ، وكان رأسا فى الصراع ، توفى بحلب .

ومات أيضا بحلب صنطباى العلائى الظاهرى أحد العشراوات ، وكان رأسا فى الرمى بالنشاب ، وكان من مماليك الظاهر جقمق .

* * *

وفى رمضان خسف جرم القمر خســوفا تاما ، حتى أظلمت الدنيا ، ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة .

وفيه ، فى يوم ختم البخارى ، وقع بين الشيخ بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وبين الشيخ صلاح الدين الطرابلسى تنافس ، حتى خرجا عن الحــد بسبب الجلوس ، فيمن يرتفع عن صاحبه ، وكان الصلاح الطرابلسى متعديا على ابن الغرس ، فما شكر على ذلك ، وكان مجلسا فاحشا لا خير فيه .

* * *

وفى شوال خرج من القاهرة المحمل ، فى تجمل زائد ، وكان يوما مشهودا . وخرج معهم شاد بك أحد الأميراخورية ، لــكنه كان ضخما ، ويلبس كما قصيرا ، وقد قرر على باشية الجند بمكة ومعه خمسون مملوكا ، وأرسل معه السلطان المقصورة الحديد التى صنعها للحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصــلاة والســلام . ثم أرسل معه مصحفا كبيرا حمل على جمــل بمفرده ، كان من النوادر كتبه شاهين النورى ، ومات ولم يكمله ، فأكمله الشيخ خطاب بأمر السلطان ، وهو باق الى الآن فى الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصــلاة والسلام .

وفيه كان عرس الركنى عمر بن أبى البقاء ابن الجيعان ، وكان مهما حافلا .

* * *

وفى ذى القعدة خلع السلطان على أقباى كاشف الشرقية ، وقرر فى نيابة غزة ، عوضا عن دولات

(1) ياكا ... فر

باى بن مصطفى ، الماضى خبره بما جرى عليه ، الى أن نفى الى سكة المشرفة .

وفيه أنعم السلطان على ستة أنفار من الخاصكية الظاهرية بامريات عشرة . منهم يشبك دجاج ، وأبو يزيد ، وبيبرس اليوسفى ، وملاج الأشقر ، وجانى بك البواب ، وقانم السواق ، وأنعم باقطاع جانم البهلوان المسافر فى التجريدة ، على سودون الصغير ، وقانصوه قرا ، وكسباى الشريفى ، وآخرين من جلبانه . وكان هذا اقطاع امرية عشرة ، وخرج بحكم وفاة جانم البهلوان .

* * *

وفى ذى الحجة قرر محمد بن السلاح فى التكلم على جهة الجيزة ، عوضا عن ابن الصعيدى .

وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وكانت الأضحية مشحوتة وغالية ، بسبب قلة الجالب ، من أذى المماليك الجلبان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضى الجماعة الغرناطى المالكى ، توفى بغرناطة ، وكان من أهل العلم والفضل .

وفى أواخر السنة المذكورة كثر الأذى من العبيد والزعر ، وكثر قتل القتلى حتى ان شخصا من البياطرة قتل بالجزيرة الوسطى ، ولا يعلم من قتله . ووجد شخص من المماليك الاينالية مقتولا بمنزله ولا يعلم من قتله . وقتل غير ذلك جماعة كثيرة .

سنة تسع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، توفى الجمالى يوسف الحنبلى ابن الشهابى أحمد بن نصر الله بن أحمد البغدادى ، قاضى قضاة الحنابلة ، وكان رئيسا حشما ، تولى عدة مدارس الحنابلة ، منها المدرسة البرقوقية ، وكان شاهد ديوان الأمير تمراز التمشى أمير سلاح ، وكان لطف الذات ، عشير الناس ، لا بأس به .

وفيه أعيد أبو الفتح المنوف الى نيابة جدة ، عوضا عن عبد الرحمن بحكم وفاته .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد المجذوب سيدى على القليوبى رحمه الله ورضى عنه . وكان له مكاشفات وكرامات خارقة .

وفيه قبض على شخص بالقرافة بتزيا بزى أهل الصلاح ، وله شعر فى رأسه ، فدخل الى مزار سيدى أبى العباس الحرا ، وسرق الستر من فوق ضريحه ، وقد فعل ذلك فى عدة مزارات ، وكان فى زى حسن لا يظن به سوء فلما اشتهر بذلك ضرب وشهر بالقاهرة .

وفيه توفى الشيخ ولى الدين أحمد ، شيخ الآثار النبوية وقاضى ثغر دمياط ، وكان دينا خيرا حسن السيرة لا بأس به .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تأخر دخول المحمل الى رابع عشريه ، مما حصل لهم فى السنة المذكورة من المشقة الزائدة ، من موت الجمال ، والعطش .

وفيه عين السلطان تجريدة ثالثة تقوية لمن تقدم من العسكر ، فعين تمراز التمشى أمير سلاح باش العسكر ، ومن المقدمين أزبك اليوسفى ، وعين من الجند نحوا من أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية . وكان سبب تعيين هذه التجريدة ، أن السلطان قد بلغه أن ابن عثمان ملك الروم ، قد أمد على دولات بعساكر كثيرة . وهذا أول تحول ابن عثمان على بلاد السلطان . واستمرت الفتن بعد ذلك تتزايد ، الى أن كان ما سنذكره فى موضعه .

* * *

وفى صفر توفى الشيخ شهاب الدين الأبناسى ،

وهو احمد بن ابراهيم بن على بن احمد بن محمد الشافعى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا منقطعا الى الله تعالى .

وفيه توفى يحيى بن شاد بك المعروف بقاصد الحبشة ، أحد أجناد الحلقة ، وكان رئيسا حشما عارفا بلغة الحبشة ، فكه المحاضرة . ومولده بعد العشرة والثمانمائة .

وفيه توفى شيخ عربان جبل نابلس ، وهو حرب ابن أبى بكر بن محمد بن على بن عبد القادر ، مات وهو مسجون بالبرج فى القلعة ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وآل أمره الى أن مات مسجونا .

* * *

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن العسكر الذى خرج من القاهرة ، قد تقاتل مع على دولات أخى سوار ، وقد كسر العسكر ، وقتل منهم جماعة كثيرة من الأمراء والجند ... فقتل الأمير قانى بك جشحة رأس نوبة ثانى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، وقتل معه جماعة من أمراء حلب والشام . وكان قانى بك هذا أميرا انسانا حشما حسنا شجاعا بطلا . تولى من الوظائف شادية الشنون ، ثم الحجوبية الثانية ، ثم رأس نوبة الثانية بقى أمير أربعين . وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به

وفيه رسم السلطان بعمل مولد للسيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ، ورسم للخليفة أن يحضر به والقضاة الأربعة وأعيان الناس . واجتمع هناك قراء البلد قاطبة ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وهو أول من أحدث هذا المولد ، بالمشهد الشريف ، وصار يقال له مولد الخليفة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة على العادة ، وكان حافلا .

وفيه توفى المسند رضى الدين الأوكالى ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العز ، الشافعى القاهرى ، وكان عالما فاضلا محدثا مسند القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ عباس الفاسى نزيل القاهرة وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على الجمالى يوسف بن الزرازيرى كاشف البهنسا ، وقرره فى الوزارة ، عوضا عن خشقدم الطواشى ، بحكم صرفه عنها ، وقرر قاسم شغيته فى نظر الدولة .

وفيه كان تفرقة النفقة على الجند المعينين فى التجريدة بسبب على دولات ، ثم بعث النفقة الى الأمراء الذين تقدم ذكرهم . وكان تعين أقبردى الدوادار الى التجريدة . ثم بطل بعد ذلك فشق على العسكر بطلانه ، وكثر القيل والقال بسبب ذلك .

وفيه توفى أقبردى اليوسفى أحد العشراوات ، وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانصوه الغورى بامرية عشرة ، وعينه الى التجريدة ... وقانصوه هذا هو قانصوه سلطان مصر الآن .

وفيه توفى تانى بردى الشرف الاينالى ، وكان لا بأس به ، تأمر بحلب امرية عشرة .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى تاج الدين محمد بن الكردى الحنفى ، وكان عالما فاضلا لا بأس به .

وفيه توفى الخواجا الكارمى بدر الدين حسن ابن ابراهيم بن علیبة السكندرى ، أخو الخواجا عبد القادر تاجر السلطان ، وكان لا بأس به .

وفيه كان خروج الأمير تمراز التمشى ، أمير سلاح ، وأزبك اليوسفى ، ومن عين معهما من الأمراء العشراوات والجند ، فكان لهم يوم مشهود . وكان عدة الجند الذين خرجوا مع الأمراء نحوا من ألف مملوك .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتيعت البطة الدقيق بأربعة أنصاف ، وكل أردب قمح بنصف دينار . وانحطت الأسعار فى سائر البضائع بعد تلك الغلوة التى تقدمت . وكان قد اشتد الأمر جدا وانفرج عن قريب .

وفيه توفى التاجر نور الدين بن مقلاج المصرى ، وكان فى سعة من المال . وتوفى السيد الشريف شهاب الدين أحمد الأرسونى المالكى ، أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا مفتيا متواضعا علامة فى مذهبه . ومولده سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

❊ ❊ ❊

وفى جمادى الآخرة توقف النيل عن الزيادة ، وقلق الناس ، ثم تزايد ، واستمرت الزيادة عمالة حتى كان الوفاء .

وفيه عزل الجمالى يوسف بن الزرازيرى عن الوزارة ، وقرر بها قاسم شغيته على عادته .

وفيه خلع السلطان على القاضى شهاب الدين أحمد الدرسالى ، وقرره فى قضاء الاسكندرية ، عوضا عن عفيف الدين بحكم صرفه عنها .

وفيه كثرت المرافعات فى قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزى ، بسبب أوقاف الحنفية ، فرسم السلطان بأن يتوجه الى بيت برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وتحضر القضاة الثلاثة ، ويعقد مجلس بسبب أوقاف الحنفية . فلما حضر الى هنالك حصل له غاية البهدلة من الجباة وغيرهم .

وفيه توفى جانى بك بن تمر باى ، ابن أخت السلطان ، وكان شابا صغير السن جميل الصورة لا بأس به ، ذا عقل وحشمة .

وفيه توفى سيدى محمد السدار ، رحمه الله ورضى عنه ، وكان له كرامات ومكاشفات خارقة .

❊ ❊ ❊

وفى رجب توفى العلامة شمس الدين الجوهرى وهو محمد بن عبد المنعم بن اسماعيل القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، عارفا بمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه . وله عدة مصنفات ، وتولى عدة تداريس ، وشهرته تغنى عن مزيد التعريف به .

وفيه توفى نور الدين على السنهورى المالكى ، وهو الشيخ على بن عبد الله بن على الأزهرى ، وكان اماما فى مذهب المالكية ، وله شهرة طائلة ، وكان بارعا فى الفقه والعربية ، والقراءات السبع ، وغير ذلك من العلوم ، وألف الكتب النفيسة فى العلوم الجليلة ، ومات وهو كفيف . وكان دينا خيرا صالحا مباركا ، ومولده سنة خمس عشرة وثمانمائة . وكان عنده اطراح نفس ، مع تواضع وتقشف ، وقد كف فى آخر عمره فكان كما قيل :

كفيف بالافادة لى كفيل
ضرير ما له فينا ضريب
سليب الكبر ذو قلب سليم
قرين للتقى منا قريب

وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد بن بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، وقرر فى قضاء الشافعية بدمشق ، عوضا عن الشهابى أحمد ابن فرفور بحكم صرفه عنها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى ثانى

عشرى مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى أزبك ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه قبض السلطان على محمد بن العظمة ناظر الأوقاف ، وسلمه الى خشقدم الزمام ، وألزمه بمحاسبته .

***

وفى شعبان خلع السلطان على شرف الدين عبد الباسط بن البقرى ، وقرره فى نظر الأوقاف ، عوضا عن ابن العظمة ، بحكم صرفه عنها .

وفيه توفى جانى بك الشمسى ، نائب الكرك ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى القاضى ولى الدين بركات بن الجيعان ، وهو أبو البركات أحمد بن يحيى بن شاكر القاهرى الشافعى . وكان لا بأس به ، رئيسا حشما عارفا بأحوال المملكة . تولى نيابة كتابة السر ، وصار من أخصاء السلطان ، وترشح أمره لكتابة السر ، وهرعت الناس الى بابه ، ومات وهو شاب فى عشر الثلاثين . وكان جميل الهيئة حسن الوجه ، عاقلا بشوشا ، وله بر ومعروف وصدقات كثيرة ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

قال العواذل ما لمدحك قد غدا
يزداد فى الحركات والسكنات
فأجبتهم : لا تعجلوا وتأملوا
ما زاد الا وهـو فى بركات

فلما مات تأسف عليه السلطان ، وقال : « لو كان يفدى بمال لفديته » . وكان يتصرف فى أشغال السلطان كما ينبغى . ولما توفى القاضى بركات قرر أخاه صلاح الدين فى نيابة كتابة السر ، عوضا عن أخيه بحكم وفاته .

وفيه هبط النيل سريعا ، وقد ثبت على اثنتين وعشرين أصبعا من الذراع الثامن عشر ، فشرق أكثر البلاد ، وزاد سعر الغلال ، ولا سيما القمح ، وكان هذا سببا للغلوة التى وقعت فى السنة الآتية .

***

وفى رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن وردبش، نائب حلب ، خرج فى جمع من العساكر ، وتقاتل مع على دولات أخى سوار ، وقد أمده ابن عثمان بجمع كثير من عساكره . فلما التقى العسكران ، وقع بينهما واقعة مهولة ، فانكسر العسكر الحلبى ، وقتل وردبش نائب حلب ، وجماعة كثيرة من العسكر الحلبى والمصرى . وكان وردبش شجاعا بطلا ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، يعرف بوردبش بن محمود شاه . وتولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة سيس ، ثم نيابة قلعة الروم ، ولم يباشرها . ثم تولى نيابة البيرة ، ثم بقى أتابك العساكر بحلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، ثم بقى نائب حلب ، واستمر بها الى أن قتل على يد على دولات باى . قيل انه ضرب عنقه بين يديه . وقتل فى هذه المعركة جماعة كثيرة ، منهم ألماس نائب صفد ، وكان دينا خيرا ، عارفا بأنواع الفروسية ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها استادارية الصحبة ، وشادية الشرابخاناه ، ثم بقى نائب صفد ، واستمر بها حتى قتل . وكان شابا عاقلا حشما لا بأس به .

وقتل أيضا أزبردى الأشرفى ، أحد الأمراء العشراوات بحلب . وقتل تمراز حشيش بن حشاش الاينالى ، أحد الخاصكية . وقتل أيضا طرباى الأشقر الابراهيمى الاينالى أحد الأمراء بحلب . وتغرى بردى بن محمد بن قاسم أحد الأمراء العشراوات بحلب . وغير ذلك جماعة كثيرة من العسكر .

وتوفى طقطباى المحمدى الأشرفى نائب قلعة حلب ، وكان لا بأس به .

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن الأمير تمراز ، لما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ، ركب هو والأمير أزدمر أمير مجلس ، والعسكر المصرى ، وتوجهوا الى على دولات فتقاتلوا معه ، فانكسر على دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ، ونهبوا جميع بركهم ، وأخذوا صناجق ابن عثمان ، ودخلوا بها الى حلب ، وهى منكسة . وكانت هذه الحركة أول الفتن مع ابن عثمان ، واستمرت من يومئذ عمالة مع سلطان مصر ومعه ، حتى كان من أمرهما ما سنذكره . وكان أصل هذه الفتنة تعصب ابن عثمان لعلى دولات ، وكان ابن عثمان متحملا على سلطان مصر فى الباطن ، بسبب أشياء لم تظهر للناس .

وفيه رسم السلطان بنقل قانصوه الخفيف الاينالى ، من دمياط ، الى مكة المشرفة ، وقد بلغه عنه مايوجب تغير خاطره عليه .

وفيه زاد النيل زيادة مفرطة فى غير أوانها ، بعد انهباطه ، وقد شرق غالب البلاد فدخل الماء الى الخليج ، بعد ما كان قد نشف ، فتعجب الناس من ذلك ، ولكن لم تفد هذه الزيادة شيئا فى رى البلاد التى شرقت قبل ذلك .

* * *

وفى شوال خرج الحاج من القاهرة ، وأمير المحمل كان الأمير أزدمر تمساح أحد المقدمين . وبالركب الأول برسباى العلائى أحد العشراوات ، وحج صحبته سيدى منصور ابن الظاهر خشقدم . وكان برسباى العلائى زوج أم سيدى منصور . وحج فى السنة المذكورة أبو البقاء بن الجيعان ، وصحبته جان بلاط ، ومامای الخاصكيان . وقد توجه بسبب ما رتبه السلطان فى المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، من أمر تفرقة الدشيشة التى رتبها هناك . وحج فى هذه السنة المذكورة عالم سمرقند الشيخ أبو بكر الليثى ، وولده العلامة ، وكانا قدما من سمرقند لأجل الحج . وحج فى السنة المذكورة الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس يروم الحج ، وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة انسان من المغاربة يقصدون الحج .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى ، رأس نوبة السقاة ، فخرج صحبة الحاج منفيا الى مكة المشرفة ، وقد بلغ السلطان عنه أنه يضرب دراهم مغشوشة ، فقبض عليه ، وعلى شخص من مماليك الأتابكى أزبك ، يقال له تمربغا . فوجدوا فى بيت مثقال آلة الضرب التى يصنعون بها الدراهم الزغل ، فرام السلطان قطع أيديهما ، فشفع فيهما من القطع ، فنفى مثقال الساقى ، وسجن تمربغا على مال ، حتى مات فى السجن .

وفيه مات على بن قمتى رأس نوبة النقباء ، وكان من كبار الظلمة ، مات تحت العقوبة . وكان من أعيان الناس ، خدم جان بك نائب جدة لما كان دوادارا كبيرا ، وخدم السلطان قايتباى لما كان رأس نوبة النوب ، وخدم يشبك الدوادار ، ثم تكلم فى بعض جهات السلطان ، فوقف عليه مال ، واستمر تحت العقوبة حتى مات ، وكان من الأشرار .

وفيه توفى سودون الصغير العلائى الظاهرى ، أحد الأمراء الطبلخانات توفى بحلب . وكان يعرف بسودون الخازندار ، وكان لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان محمد بن العظمة ، ناظر الأوقاف ، بالمقارع فى وسط الحوش ، وكتب عليه قسامة ألا يعود قط يسعى فى نظر الأوقاف ،

ومتى سعى فيه يكون دمه هدرا ، ثم سجن بالمقشرة وكتب من هذه القسامة أربع نسخ ، وبعث الى كل قاض نسخة منها .

وفيه توفى قرقماس بن بحشباى البواب ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان موته فجأة . وكان من خواص السلطان .

وفيه توفى أزبك أبو زيد الاينالى أحد أمراء حماه ، وكان لا بأس به

وفيه توفى المسند الشريف أبو السعود محمد العلوى الهاشمى الشافعى وكان من الفضلاء بارعا فى الحديث .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن على دولات ، قد أطلق اينال السلحدار نائب طرابلس ، وكان عنده مأسورا .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى أزدمر أمير مجلس ، ورسم له بعوده الى نيابة حلب ، كما كان اولا ، عوضا عن وردبش بحكم قتله عند على دولات .

وفيه خلع السلطان على مملوكه اينال الخسيف ، الذى كان أتابك العساكر بحلب ، ورسم له بأن يكون نائب صفد . وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه ، فنفاه الى البلاد الشامية ، فأقام بها مدة ثم رضى عليه وولاه نيابة صفد بعد نيابة سيس ، وأتابكية حلب ، ثم ولاه فيما بعد نيابة حماه .

وفيه اقترن المشترى وزحل ببرج العقرب ، وذكر أرباب علم الفلك أن هذا القران لم يقع من منذ مائتين وستين سنة ، وأن ذلك يدل على وقوع فتن عظيمة ، وكان الأمر كذلك كما سيأتى الكلام عليه فى محله .

وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، فأكرمه السلطان ، وخلع عليه .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا من الجند يقال له جرباش المجنون ، وكان غاية فى الرمى بالنشاب ، وقف للسلطان فى طلب اقطاع عن شخص توفى ، فلم يجبه السلطان الى ذلك ، فلما نزل الى داره ذبح نفسه بيده من حنقه من السلطان ، فراحت روحه ولم يرث له أحد .

وفيه توفى الزينى عبد الباسط ابن علم الدين شاكر بن الجيعان . وكان رئيسا حشما متحدثا على مباشرات عديدة من مدارس وجوامع وأوقاف ، وكان دينا خيرا عفيفا عن الرشوة صلبا فى أموره ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه عز وجود القطن جدا حتى بلغ سعر كل قنطار ألفين وأربعمائة درهم ، ولا يوجد .

وفيه خلع السلطان على قريبه بيبرس الرجبى ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن اينال السلحدار ، بحكم أسره عند على دولات .

* * *

وفى ذى الحجة ارتفع سعر البرسيم حتى بلغ سعر كل فدان عشرة أشرفية .

وفيه عز وجود الضحايا من الغنم والبقر بواسطة أذى المماليك الجلبان .

وفى يوم عيد النحر أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأرض ، وحصل للناس مشقة فى مرورهم فى الشوارع الى صلاة العيد .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان أسر عند على دولات ، وقد قطع أصابع جماعة منهم من عند الابهام وأطلقهم .

وفيه جمع السلطان الأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان بسبب ما وقع منه فى تعصبه لعلى

دولات ، فأشار السلطان هو والأتابكى أزبك وغيره من الأمراء ، بأن السلطان يرسل هدية على يد قاصده ، وتزول هذه الوحشة من بينهما . فانصاع السلطان لهذا الكلام ، وعين فى ذلك المجلس الأمير جانى بك حبيب ، أمير آخور ثانى ، وكان حلو اللسان سيوسا دريا وقد تقدم أنه نوجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، وتلطف به فى الكلام ، حتى أطلق من كان عنده من الأمراء والنواب والجند ، كما تقدم .

وفيه خرج بيبرس الرحبى ، الذى قرر فى نيابة طرابلس ، وكان له يوم مشهود .

وفيه توفى ناظر جيش غزة ابراهيم بن عبد الرحمن ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . وتوفى الشيخ المعتقد أحمد السبوعى ، وكان من أعيان الصوفية ، وله اختصاص بالأتابكى أزبك .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وهو شخص من الخاصكية يقال له قايتباى ، من مماليك السلطان ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن القاضى كمال الدين ناظر الجيش اختار المجاورة بمكة المشرفة ، وكان حج فى السنة المذكورة . وحضر صحبة المبشر دولات باى بن مصطفى ، الذى كان نائب غزة ونفاه السلطان الى مكة المشرفة ، فبعث بحضوره ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب قونية من بلاد ابن قرمان ، وهو عبد الله أخو الجمجمة بن عثمان ، تولى على قونية بعد أخيه جمجمة ، وكان حسن السيرة لا بأس به .

* * *

سنة تسعين وثمانمائة (١٤٨٥ م) :

فيها ، فى المحرم ، كانت وفاة قاضى القضاة محب الدين ابن الشحنة الحنفى ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازى الثقفى ثم الحلبى . كان عالما فاضلا بارعا فى مذهب أبى حنيفة . وكان ناظما ناثرا رئيسا حشما ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى عدة وظائف سنية منها كتابة سر مصر ، ونظر جيشها ، وتولى قضاء قضاة الحنفية عدة مرار ، ثم ولى مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومات وهو شيخ بها ، وجرى عليه شدائد ومحن شتى ، واعتراه فى آخر عمره مرض الفالج ، واستمر به الى أن مات وقد ذهل فى عقله وكان مولده سنة أربع وثمانمائة ، ومات وقد قارب التسعين سنة من العمر ، وكان من أعيان الناس ، ورؤساء مصر ، وله عدة تآليف جليلة . ومن شعره قوله :

قلت له لما وفى موعدى
ان سلوى عن هواكم نفاق
وجاد بالوصل على وجهه
حتى سما كل حبيب وفاق

فلما مات تولى ابنه الشيخ سرى الدين عبد البر مشيخة الخانقاه الشيخونية ، عوضا عن أبيه

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحضر أبو البقاء ابن الجيعان وجانبلاط وماماى ، وجماعة من أقارب السلطان كانوا فى الحجاز فى تلك السنة .

وفيه وصل قرقماس التنمى نائب طرسوس ، وكان ممن أسر عند على دولات .

وفيه توفى يشبك العلائى نائب حماه ، وكان لا بأس به ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها امرية عشرة بمصر ، وبقى من جملة رءوس النوب . ثم تولى نيابة الكرك ، ثم نيابة غزة ، ثم حجوبية الحجاب بدمشق ، ثم نيابة حماه ومات بها .

* * *

وفى صفر أرسل السلطان الى سيباى الطيورى صاحب دمشق ، وقرره فى نيابة حماه ، عوضا عن سبك العلائى بحكم وفاته ، وقررا فى حجوبية دمشق بلباى ، أحد الدوادارية بدمشق ، وقرر فى الدوادارية جانى بك الطويل أحد مماليك السلطان .

وفيه كان توجه جانى بك حبيب ، أمير آخور ثانى ، الى ابن عثمان وقد تقدم القول فى ذلك ... فتوجه اليه من البحر المالح من الاسكندرية . وأرسل السلطان صحبته تقليدا من الخليفة الى ابن عثمان ، بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يديه من البلاد الكفرية . وأرسل اليه أيضا الخليفة مطالعة تتضمن تخميد هذه الفتنة التى قد انتشت بينه وبين السلطان ، وفى المطالعة بعض ترفق له .

والذى استفاض بين الناس أن سبب هذه الفتنة الواقعة بينه وبين السلطان أن بعض ملوك الهند أرسل الى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند . فلما وصل الى جدة احتاط عليها نائب جدة ، وأحضرها صحبته الى السلطان ، وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص مثمنة . فطمع السلطان فى تلك الهدية ، وأخذ الخنجر . فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق . وجاء فى عقب ذلك أن على دولات ترامى على ابن عثمان ، وشكا له من أفعال السلطان وما يصدر منه ... فتعصب لعلى دولات وأمده بالعساكر ، واستمرت الفتنة تتسع حتى كان منها ما سنذكره فى موضعه . وقد طمع غالب ملوك الشرق فى عسكر مصر ، بموجب ما وقع لهم مع سوار وباېندر ، وغير ذلك من ملوك الشرق . ثم ان السلطان أرسل الخنجر المذكور والهدية التى بعث بها ملك الهند ، وأرسل يعتذر الى ابن عثمان عن ذلك بعد أن صار ما صار ، فكان كما قيل :

جرى ما جرى جهرا لدى الناس وانبسط
وعذر أنى سرا يؤكد ما فرط

ومن ظن أن يمحو جلىّ جفائه
خفىّ اعتذار فهو فى غاية الغلط

ثم ان جانى بك لبس خلعة السفر ونزل فى موكب حافل ، وتوجه الى ثغر الاسكندرية ، ونزل من هناك فى مراكب ، وتوجه الى بلاد ابن عثمان من البحر الملح .

وفيه قرر فى الأتابكية بحلب قرقماس التنمى ، عوضا عن اينال الخسيف ، بحكم انتقاله الى نيابة صفد . وقرر فى نيابة الكرك أمير زاده بن حسن الدوكارى ، عوضا عن جانى بك الطويل .

وفيه توفى خليفة سيدى ابراهيم الدسوقى ، رحمه الله ورضى عنه ، وهو خير الدين أبو الكرم الشافعى وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الأول عرض السلطان العسكر وعين تجريدة الى على دولات ، وعين بها من الأمراء برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وتانى بك الجمالى أحد المقدمين ، ورسم لهم بأن يتقدموا جاليش العسكر الى أن يخرج الأتابكى أزبك . ثم أنفق على العسكر الذى تعين للتجريدة فبلغت النفقة زيادة عن مائة ألف دينار .

وفيه توفى قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو بدر الدين محمد أبو السعادات ابن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الكنانى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا . تولى قضاء الشافعية بمصر فى دولة الظاهر خشقدم ، ولم تطل مدته بها ، وكان عنده خفة روح زائدة ، ورهج فى الأمور .

وفيه توفى عبد القادر الحمامى الجابى ، وكان رئيسا حشما سيوسا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد ، وكان حافلا ، ونصب فى ذلك اليوم الخيمة العظيمة التى أقامها على يديه ، وجاءت فى غاية الحسن والتزخرف . وحضر فى هذا المولد ملك التجار أحمد بن محمود ابن كاوان ، وكان جاء صحبة الحجاج من مكة المشرفة ، فعظم أمره بمصر جدا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف بوفاة الواعظ المحدث شهاب الدين أحمد العميرى المقدسى ، وكان عالما فاضلا علامة فى فن الوعظ ، دينا خيرا ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه توفى برسباى بن تمربغا الظاهرى المعروف بحشيش ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل مولد السيدة نفيسة رحمها الله ورضى عنها ، وحضره الخليفة والقضاة الأربعة ، وكان حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف بوفاة الشيخ سعد الله الهندى الحنفى امام المسجد الأقصى . وكان من أهل العلم والفضل ، عارفا بالقراءات السبع ، وكان أحد نوب النوب بدمشق .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة يشبك البجاسى ، الذى كان نائب حلب ، وعزل عنها ، مات بصفد ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، ولا سيما ما وقع مع النابلسى وكيل بيت المال . وكان رئيسا حشما تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة ملطية ، ونيابة حماه ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حلب ، وصودر وسجن بدمشق ، ثم نقل الى صفد فمات بها .

وفيه رسم السلطان للقضاة والشهود « ألا يعقد أحد منهم نكاحا على جلب من مماليكه » ، فقلق المماليك من ذلك ، ثم توجهوا فيما بعد للزواج ، ولم يلتفتوا الى قول السلطان .

* * *

وفى ربيع الآخر وجد شخص من المماليك السلطانية ، يقال له فارس الزردكاش ، مقتولا بالصوة ، ولا يعلم من قتله ، وجد بعد صلاة الصبح .

وفيه خرج العسكر المعين الى على دولات ، وكان باش العسكر برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وصحبته تانى بك الجمالى أحد المقدمين ، وعدة من الأمراء العشراوات . وقد خرج المقدمون من غير طلب .

وفيه قبض آقبردى الدوادار على جماعة من أولاد ابن عمر وسجنهم فى البرج الذى بالقلعة ، وقد أحضرهم صحبته لما توجه الى الوجه القبلى ، وقد تغير خاطر السلطان على بنى عمر .

* * *

وفى جمادى الأولى قرر فى امرية الحاج بالمحمل أزدمر المسرطن أحد المقدمين ، وبالأول برسباى اليوسفى أحد الأمراء الطبلخانات

وفيه قرر دولات باى الحسنى الظاهرى ، شاد الشون ، فى رأس النوبة الثانية عوضا عن قانى بك جشحة ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة مدة طويلة

وفيه توفى قراجا نائب جدة ، وكان أصله من مماليك جانى بك نائب جدة ، وكان لا بأس به .

وفيه وصل الى القاهرة اينال السلحدار الأشرفى الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان ، وخلع عليه ، وأقره فى شادية الشراب خاناه .

وفيه توفى الشيخ المعتقد نور الدين على من

أولاد سيدى يوسف العجمى ، رحمة الله عليه ، وكان لا بأس به

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة فى العام المذكور ثمانية أذرع وعشرين أصبعا ، فعد ذلك من النوادر .

وفيـه أعيـد القاضى شهاب الدين بن فرفور الدمشقى ، الى قضاء الشافعية بدمشق ، مضافا الى نظر الجيش ، وصرف عنها ابن المزلق .

وفيه هجم المنسر على النـاس ، وهم فى زيارة الامام الليث بن سعد رحمه الله ورضى عنه ، فأخذوا عمائم الزوار حتى أزر النسـاء ، وعروا النساء فى الطريق بطولها ، حتى وصلوا الى باب القـرافة ، وكانت كائنة عظيمة .

* * *

وفى جمـادى الآخرة ، ضرب السلطان السيد الشريف الذى كان كاتب سر دمشـق ، وأودعه بالمقشرة ، ولم يرث الى شرفه .

وفيه قـرر الشيخ كمال الدين ابن أبى شريف المقدسى ، فى مشيخة مدرسة السلطان التى أنشأها بالقدس الشريف ، وجاءت غاية فى الحسن .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف ، موفق الدين الحموى ، وقرره فى كتابة السر بدمشق .

وفيـه رسم السـلطان بقطع يد مملوك من جلبانه ، قد سرق غير مامرة ، فلما أراد قطع يده شفع فيه بعض الأمراء ، فحنق منه السلطان ، ورسم بقطع رجله أيضا .

وفيه رسم السلطان للأمير أقبردى الدوادار ، وأبى البقاء بن الجيعـان ، وجانبلاط ، ومامای ، ورمضان ، بأن يتوجهوا الى القدس وصحبتهم من القراء والوعاظ جماعة ، وأن يعمل وليمة لمدرسة السلطان التى أنشأها بالقدس ، وقد انتهى منهـا العمل . وخرج ابن أبى شريف صحبتهم ، وقد تقدم تقريره بالمدرسة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسـكر ابن عثمان قد استولى على قلعـة كولك ، وكان بها شخص من المماليك السلطانية يقـال له طوغان الساعى . فلما حاصروه أسلمها اليهـم بالأمان . وكانت هذه أول وقائع ابن عثمان ، ثم اتسع الأمر بعد ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه .

* * *

وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس ، صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن على ابن سعد بن محمـد بن الأحمر . وكان من خيار ملوك الغـرب ، مشتهرا بالعـدل ، عارفا بتدبير المملكة ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيـه جاءت الأخبـار من مكة المشرفة بأن الأمطـار كانت قليلة بها جـدا ، وأن الآبار قد نشفت ، وأن العـين التى أجراها السـلطان قد وقفت ، وحصل لأهل مكة الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفيـه تزايد شر المماليك الجلبـان ، والزعر والعبيـد ، حتى أعيـا أمرهـم الوالى وحاجب الحجاب ، وصارت الأحوال فى اضطراب .

* * *

وفى ثانى شـعبان كان وفاء النيل المبارك وقد أوفى فى العشرين من مسرى ، فلمـا أوفى توجـه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه قرر البدرى محمود بن أجا ، فى قضـاء الحنفية بحلب ، عوضا عن ابن الحلاوى وكان هذا أول شهرة البدرى محمود بن أجا .

وفيه كان أول فتح خليج الأزبكية وكان يوما مشهودا . وعزم الأمير أزبك على الأمراء المقدمين ،

بالقصر المطل على البركة ، ومدت لهم الأسمطة الحافلة .

وفيه جاءت الأخبار بأن الفتن قائمة ببلاد المغرب ، بتونس وفاس وغير ذلك من البلاد ، وأن الفرنج قد استولت على مدينة مالقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس الرجبي قريب السلطان ، الذي كان نائب طرابلس ، وكان قد أشيع ذلك وقد صح .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر ابن عثمان ، قد استولوا على أطراف بلاد السلطان . وأرسل أزدمر ، نائب حلب ، يستحث السلطان بخروج تجريدة ثقيلة ، أو يخرج السلطان بنفسه . فتكدر السلطان لهذا الخبر ، ونادى للعسكر بالعرض ، ثم عرض الجند بحضرة الأتابكي أزبك ، وكان هو المشار اليه في تعيين الجند ، مما يختاره منهم . ثم عرض القرانصة وأولاد الناس ، وصار الذي لا يطيق السفر منهم يقيم له بديلا كاملا بخيوله ولبسه ، وغير ذلك ، ويورد مائة دينار من له اقطاع وجامكية . ثم ان المماليك المعينة للسفر ، أطلقوا في الناس النار ، وصاروا يأخذون بغال الناس وخيولهم غصبا ، حتى أخذوا بغال الطواحين والأكاديش التي بها ، وتعطلت الطواحين بسبب ذلك ، وتشحط الخبز من الدكاكين ، وكادت أن تكون غلوة كبيرة ، حتى وبخ السلطان المماليك بالكلام ، ونادى في القاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن كل من أخذ له بغل أو فرس يطلع الى أمير آخور كبير يخلصه ، فتسكن الحال قليلا .

***

وفي رمضان توفي برسباي الخازندار المحمودي ، وكان من أخصاء السلطان ، وهو من الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة القاضي كمال الدين ناظر الجيش ، وكان مجاورا بمكة المشرفة ، فأتاه الأجل هناك ، وهو محمد بن يوسف ناظر الجيش ، المعروف بابن كاتب جكم ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم ، وتولى نظر الجيش وهو في حداثة سنه ، وباشر ذلك أحسن مباشرة ، وحمدت سيرته بها حتى مات .

وفيه كان ختم البخاري بالقلعة ، وكان حافلا جدا ، وفرقت الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء .

***

وفي شوال خرج العسكر المعين الى علي دولات . وكان باش العسكر الأتابكي أزبك ، وكان صحبته : قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وتاني بك قرا أحد المقدمي الألوف ، وقد تقدم قبلهم ستة من الأمراء المقدمين أزدمر أمير مجلس ، وتغري بردي ططر ، وقرر بعدهم تمراز أمير سلاح ، وأزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين . ثم خرج من بعدهم برسباي قرا رأس نوبة النوب ، وتاني بك الجمالي أحد المقدمين ... فكان جملة الذين خرجوا أولا وآخرا تسعة أمراء بالأتابكي أزبك . ومن الجند نحو من ثلاثة آلاف مملوك مما تقدم في الأول والآخر . وكانت هذه التجريدة من أعظم التجاريد . وطلب الأتابكي أزبك طلبا حافلا ، حتى رجت له القاهرة . وكذلك قانصوه خمسمائة كان طلبه غاية في الحسن بحيث لم يعمل مثله قط ، قيل كان مصروف طلب قانصوه خمسمائة نحوا من ثمانين ألف دينار . وخرج العسكر وهم لابسون آلة الحرب ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مع الأمير أزبك عدة أمراء طبلخانات ، وعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية ، والمماليك السلطانية ، فعدت هذه التجريدة من النوادر .

وفيه كانت وفاة الخواجا محيي الدين عبد القادر ابن ابراهيم بن حسن ، المعروف بابن عليبة

السكندرى ، تاجر السلطان . وكان رئيسا حشما من أعيان التجار .

وفيه خلع السلطان على القاضى شهاب الدين أحمد بن ناظر الخاص يوسف ، وقرره فى نظر الجيش ، عوضا عن أخيه كمال الدين

وفيه خلع السلطان على على بن عامر ، وقرره فى امرية آل فضل بحماه ، عوضا عن عساف بحكم قتله .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحمل آزدمر المسرطن ، وبالركب الأول برسباى اليوسفى .

وفيه طيف برأس شخص من العربان المفسدين ، يقال له محمد بن عامر . أحد مشايخ هوارة ، وبعث بها ابن الزرازيرى الكاشف ، وعدة رءوس من العربان المفسدين .

* * *

وفى ذى القعدة ، فى ثالث عشر هاتور ، زاد النيل زيادة مفرطة نحو الذراع ، حتى تعجب الناس من ذلك .

وفيه عاد جانى بك حبيب الذى توجه الى ابن عثمان قاصدا ، وكان قد سافر أولا من البحر المالح ، وعاد من على ملطية . فلما طلع بين يدى السلطان ، كان عليه خلعة ابن عثمان ، فخلع عليه وعلى من كان معه من الخاصكية . ثم ان جانى بك حبيب خلا بالسلطان ، وأخبره عن أحوال ابن عثمان بأنه ليس براجع عن أذاه لعسكر مصر ، وأنه لم ير منه اقبالا ولا أكرمه ، وأنه غير ناصح للسلطان . فكثر القال والقيل بسبب ذلك .

وفيه توفى شمس الدين الوفائى قاضى الخانقاه ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

* * *

وفى ذى الحجة توفى قانم الفقيه الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان باش المجاورين بسكة المنرفة ، وكان دينا خيرا لابأس به .

وفيه أعيد الزينى أمير حاج الى نقابة الجيش على عادته ، وصرف عنها موسى بن الترجمان بعد كائنة عظيمة وقعت له ، وكان غير محمود السيرة سيىء التصرف فى أفعاله .

وفيه قرر السلطان كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر ، فى كشف البحيرة ، عوضا عن قراكز مملوك تمراز أمير سلاح .

وفيه جاءت الأخبار من نائب حلب بأن على دولات أرسل يسأل فى الصلح ، بعدما اتسع الخرق على الراقع ، كما قيل فى المعنى .

أتروض نفسك بعد ما هرمت
ومن العناء رياضة الهرم

وفيه توفى قاضى الجماعة أبو عبد الله محمد بن محمد القلجانى التونسى المالكى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهبه ، قدم الى مصر ، وأقام بها مدة ، ثم عاد الى بلاده فمات بها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة المستنصر بالله محمد ، من أولاد الملك مسعود ، صاحب تونس . وكان أكبر أولاده مستوليا على احدى جهات المغرب . وكان شابا حسن السيرة عادلا فى الرعية ، فتأسف عليه والده جدا .

وقد خرجت السنة المذكورة عن فتن وشرور ببلاد الشرق وبلاد الغرب . وحصل فى مصر شحيطة فى سائر الغلال واشتد السعر ، ووقع الاضطراب بسبب ذلك لأهل التجاريد . وحصل للناس من المماليك ما لا خير فيه ، من أخذ البغال والخيول وغير ذلك ، مما حصل به الضرر الشامل ، وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة ، وحصل للناس وقوف حال ، بسبب ضرب الفلوس الجدد ، وتبطيل الفلوس العتق ، والأمر لله تعالى فى ذلك .

... احدى وتسعين وثمانمائة (١٤٨٦ م) :

... فى المحرم ، كان خليفة الوقت الامام أمير
... ، المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز ،
... العصر الملك الأشرف قايتباى أبو النصر ،
...روف بالمحمودى الظاهرى . وأما القضاة
...سة فهم : قاضى القضاة زين الدين زكريا
...ارى الشافعى ، والقاضى شمس الدين محمد
... الحنفى ، والقاضى محيى الدين بن تقى الدين
... ; والقاضى محمد السعدى الحنبلى . وأما
...اء المقدمون ، فمنهم أرباب الوظائف ستة وهم :
...كى أزبك بن ططخ أمير كبير ، وتمراز
... أمير سلاح . وأما أمرية مجلس فكانت
...ره من حين عزل منها أزدمر قريب السلطان
... نيابة حلب ، وبرسباى المحمدى الظاهرى
... نوبة النوب ، وقانصوه بن طراباى المعروف
...سمائة أمير آخور كبير ، وآقبردى بن على باى
... دوادار كبير ، وتغرى بردى ططر حاجب
...جاب . وأما الأمراء المقدمون غير أرباب الوظائف :
...ت اليوسفى المعروف بالخازندار ، وتانى بك
...لى ، وتانى بك قرا الاينالى ، وأزدمر تمساح ،
...زدمر المسرطن ، ويشبك الجمالى . وأما الأمراء
...بلخانات فكانت عدتهم يومئذ نحو عشرة . وأما
...مراء العشراوات فكانت عدتهم يومئذ نحوا من
... أميرا . وأما أرباب الوظائف من المتعممين :
...اضى كاتب السر زين الدين أبو بكر بن
... ، ونائبه صلاح الدين بن الجيعان ،
...ر الجيش الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ،
... الخاص ، ومستوفى ديوان الجيش القاضى
... البقاء بن الجيعان ، وناظر الخاص علاء الدين
... الصابونى ، وقد جمع بين نظارة الخاص ووكالة
... المال . والوزارة بيد قاسم شغيتة متحدثا فيها ، وشرف الدين بن البقرى ناظر الدولة ، وقد جمع بين نظارة الدولة وبين نظارة الأوقاف فى تلك الأيام . والبدرى بدر الدين بن مزهر محتسب القاهرة ، ووالى الشرطة يشبك بن حيدر الاينالى ، واستادار العالية تغرى بردى المعروف بالقادرى ، ونقابة الجيش بيد أمير حاج بن أبى الفرج ، وكتابة الخزانة بيد عبد الغنى بن الجيعان ، وكتابة المماليك بيد يوسف بن أبى الفتح نائب جدة ، ونظارة الاصطبل بيد يحيى بن البقرى ، ونظارة الزردخانة بيد عبد الباسط بن تقى الدين ، ونظارة الكسوة الشريفة بيد رمضان المهتار ، ونظر الجوالى بيد نور الدين على البتنونى المعروف بالحنبلى . وأما أرباب الوظائف من الطواشية : فحشقدم الزمام الأحمدى ، وخالص التكرورى مقدم المماليك ، ونائبه عنبر ، وسرور شاد الحوش وغير ذلك من أرباب الوظائف لم نذكرهم خوف الاطالة فى ذلك ، وانما ذكرنا الأعيان منهم . فهذا كان ترتيب أرباب الوظائف فى مستهل السنة المذكورة على حكم ماذكرناه . ثم انقلبت الوظائف الى جماعة كثيرة من الأتراك والمباشرين كما سيأتى ذكره فى موضعه .

وفيه ، أعنى هذا الشهر ، توفى السيد الشريف أبو عوانة ، واسمه أحمد بن أبى بكر النوسى المالكى رحمه الله ، وكان يعرف بالعوانى ، وكان دينا خيرا جميل الصورة حسن الشكل ، ومولده بعد الأربعين والثمانمائة .

وفيه توجه السلطان الى جهة الشرقية ليكشف على الجسور ، فغاب هناك أياما ثم عاد الى القلعة .

وفيه تناهى سعر البرسيم ، كل فدان محضر باثنى عشر دينارا ، وبيع الدريس الحوفى كل مائة قتة بأربعمائة درهم حتى عد ذلك من النوادر ... وسبب ذلك أن حب البرسيم التقاوى كان غاليا ، وكان النيل خسيسا ، والذى طلع من البرسيم

أكلت غالبه الدودة ، وكان سعر الغلال مرتفعا فى السنة المذكورة ، حتى غلا سعر الماء والروايا من عدم العلف لجمال السقائين .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وعدى وهـو راكب ، وكان معـه القـاضى قطب الدين الخضيرى ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجـه الى خرطوم الروضة ، وعدى وأقام به الى آخر النهار ، ونصب له هنـاك خيمة سحابة وموخر ، فطاب له ذلك المكان ، فأمر ببنـاء قصر مطل على الأربع جهات هناك ، فلم يتم له ذلك .

وفيه كان دخول الحاج فى خامس عشريه ، وقد حصل لهم بموت الجمال وشدة الغلاء مشقة زائدة . وكان أمير ركب المحمـل أزدمر ، وبالركب الأول برسباى اليـوسفى . وقد جاور أكثر النـاس ، وانقطع جماعة بالينبع ، ولم يدخلوا القاهرة الا بعد أيام .

وفيه توجه أقبردى الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب فساد أولاد ابن عمر .

وفيه توجه السلطان الى قبة يشبـك الدوادار التى بالمطرية ، فلما رجع نزل عن فرسه وزار تربة الظاهر برقوق ، وكشف عن أحوالها . ثم عاد الى القلعة ، وألزم سرورا شاد الحوش بعمل مصالح الصوفية التى بتربة الظاهر برقوق .

* * *

وفى صفر قتـل القـاضى تقى الدين أبو بكر المعروف بخروف ، قتل ببولاق ولا يعلم من قتله . وكان رئيسا حشما لا بأس به . وكان ترشح أمره بأن يلى قضاء الحنفية فى دولة الظاهر خشقـدم ، وقد سعى له ابن العينى .

وفيه خسف جرم القمر ، وأظلم الجو ، واستمر على ذلك نحوا من خمسين درجة .

وفيه توفى سيدى موسى بن الخليفة المتـوكل على الله ، عم أمير المؤمنين أبى العز عبـد العزيز ، وكان رئيسا حشما وفاتته الخلافة عدة مرار . وقد تولى أربعة من اخوته وهو مبعد لقلة حظه . وكان مولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنـة عظيمـة بين عربان جبل نابلس ، وقتل فيها أقبردى بن بخشايش الاينـالى استادار الأغوات . وقتل أيضا جمـاعة كثيرة من العربان . منهم : أبو بكر أمير حـزم ، ويوسف بن الجيوسى أحد المشـايخ بنـابلس ، وجمـاعة كثـيرة من أولاد اسماعيـل ، وأولاد عبد القادر ، وكانت فتنة شنيعة مهولة . فلما بلغ السـلطان ذلك عين أقبردى الدوادار الكبير بأن يتوجه الى جبل نابلس ويخمد هذه الفتنة التى بين العربان ، فخرج مبادرا الى ذلك .

وفيه كانت وفاة قاضى قضـاة الشافعية كان ، وهو ولى الدين أحمـد الأسيوطى ابن أحمد بن عبـد الخالق بن عبـد العزيز بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محمودا فى أيام قضائه ، رئيسا حشما سيوسا فى أفعاله . ولى القضاء الأكبر ومشيخة الجمالية ، والناصرية ، وعدة تداريس ، وأقام فى القضاء ، وهو مع الناس فى أحسن سيرة ، ودام فيها ست عشرة سنة ، والناس راضون عنه ، وكان مولده سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبـار من حلب ، بأن العسكر المصرى تقاتل مع عسكر ابن عثمان ، وانتصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم جماعة كثيرة نحوا من أربعين ألفا من توابع عسكره ، وقبض على أحمد بك بن هرسـك ، وكان باش عسكر ابن عثمـان وأجل أمرائه — ومعه جماعة من الأمراء أصحاب

.. ن العثمانيـة ، وأسروهم وأودعوهم فى
.. فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

* * *

.. سع الأول عمل السلطان المولد النبوى ،
.. لا ، لكن كان أكثر الأمراء غائبا بالتجريدة .
.. بمصر من الأمراء المقـدمين سوى ثلاثة
..

.. توفى القاضى حسن بن عرب ، وهو على
.. العلنبدى الشافعى ، أحد نواب الشافعية
.. بالديار المصرية ، وكان لا بأس به .
.. اختفى القاضى شهاب الدين أحمـد ناظر
.. أخو القاضى كمال الدين ، فلما اختفى
.. سلطان على البدرى محمـد ابن القـاضى
.. الدين ناظر الجيش ، وقرره فى نظر الجيش ،
.. عن عمه الشهابى أحمد بحكم اختفـائه .
.. البدرى هذا حديث السن ، لما تولى نظر
.. ، لم يلتح بعد .
.. ه قرر شاهين الجمالى فى مشيخـة الحـرم
.. .
.. به توفى المسند شمس الدين محمد البساطى
.. مى ، وكان علامة فى الحديث ، وكان دينـا
لا بأس به .
.. ه وصل دوادار نائب حلب ، وأخبر بصحة
.. ابن عثمان ، والقبـض على أحمـد بك بن
.. ، وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وأعيانهم .
.. خـذ العسكر المصرى من النهب ما لا يحصى
.. يول وجمـال وسـلاح وبرك وقماش وغير
.. ، وأخذوا صناجقهم ، وكانوا نحوا من مائة
.. ين صنجقا ، وقد قطعت عدة وافرة من رءوس
.. ابن عثمان ، وسيحضرون صحبة قيت الرحبى

الساقى الخاصكى ... فسر السلطان لهذا الخبر ، وخلع على دوادار نائب حلب خلعة حافلة .

وفيه سقط الصارى الخشب الذى تعلق فيـه القناديل فى رمضان بمنـارة جامع القلعة ، فأخذ الناس يتفاءلون بشىء يحدث للسلطان عن قريب . فلما كان اليوم الثانى من انكسار الصارى ، ركب السلطان على فرس وسير فى الحوش ، ثم سـاق ونخـع الفرس باللجـام ، فشب به وانقلب على السلطان ، فسقط الى الأرض وبقيت رجله تحت جنب الفرس ، فانكسرت رجل السلطان من عند عظمة فخذه كسرا بليغا ، فأغمى عليه ، وسال منه الدم ، فأرجفت القلعة بموت السلطان ، واضطربت أحوال القـاهرة بسبب ذلك ، وكثر القال والقيل بين الناس ، ولم يشك فى موته أحد ، بل تيقنوا ذلك . فحمله بعض الخاصكية ، وهو مغمى عليه ، وأدخله الى قاعة الدهيشة . فتسامع الأمراء بذلك فطلعوا اليه ، ثم طلع كاتب السر ابن مزهر ، فلما دخل عليه قال له اكتب فى الحـال فى هذه الساعة مراسيم ، وأرسلها الى نائب حلب ، لتطمئن الأمراء والعسكر بسلامة السلطان من هذا العارض . وقد حصـل له السلامة والشـفاء عن قريب ، فكتبت المراسيم بصورة الحال ، وأدرجت على يد هجان فى أثناء ذلك اليوم ، وتوجه الى حلب ، وقد نظم بعض شعراء العصر يعتذر عن هذه الواقعة بهذين البيتين وهما قوله :

وقد زعموا أن الجواد كبا به
وحاشاه من عيب يضاف اليه
ولكن رأى سلطان عز وهيبة
فقبل وجـه الأرض بين يديه

وفيه توفى الشيخ صالح زين الدين عبد الرحيم ابن ابراهيم بن حجاج الأبناسى القاهرى الشافعى ،

وكان عالمـا فاضلا دينا خيرا صالحا ، منجمعا عن أبناء الدنيا ، متصوفا على طريقة السلف ، متواضعا جدا ، وطلب للقضـاء غير ما مرة ، وهو يأبى من ذلك ، ولما مات دفن بزاوية الشـيخ شهاب الدين التى بجدرة الفول عند بركة الرطلى .

* * *

وفى ربيع الآخر طلع القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر ، فأذن لهم بالدخول على السلطان وهو فى القاعة التى بالدهيشـة ، وهى قاعة الحريم ، فلما دخلوا عنـده وجـدوه على سرير وقد قوروا له الفرش من تحته ، ورجله قدامه ، وهو لا ينام ولا يتحرك ، وكان الأمراء والمباشرون يدخلون عليه كل يوم ، ويعطونه الخدمة ، وهو جالس على ذلك السرير فيدعون له وينصرفون .

وفيه وصل قيت الساقى من حلب ، ومعه عدة وافرة من الرءوس التى قطعت من عسكر ابن عثمان . فلما دخل الى القـاهرة ، زينت له زينـة حافلة ، واصطفت الناس للفرجة ، فدخل وقدامه الرءوس محمولة على الرماح ، وكان عـدتها ما يزيد على مائتى رأس . فلما طلع الى القلعة ، دقت له البشائر ، وأقيمت الخـدمة بالحوش ، ووقف أرباب الدولة كل واحد فى منزلته ، على العادة ، وغطيت الدكة التى يجلس عليها السلطان بالملاءة الحرير ... فلما استقر قيت السـاقى بالحوش ، باس الأرض الى نحو الدكة ، فأحضرت له خلعة ولمن كان صحبته من المماليـك السلطانيـة ، فلبسوا تلك الخلع ، ونزلوا فى موكب حافل . وكل ذلك والسلطان منقطع فى القاعة ، وهو فى غاية التألم من رجله . وقيل ان السلطان فرق على الفقراء ، فى مدة انقطاعه بهـذا العارض ، نحوا من ألف دينار على يد قطب الدين الخضيرى ، ثم انه بعد أيام علم على أربعة مراسيم . وكانت العلامة قد تعطلت أيام مرضه .

وفيه توفى الشيخ جلال الدين البكرى ، وكان علامة فى مذهب الامام الشـافعى رضى الله عنـه ورحمه . وكان اسمه محمد بن عبـد الرحمن بن أحمد بن أحمد الديروطى الشافعى . وكان عالمـا فاضلا بارعا فى العلوم ، ناب فى القضاء مدةطويلة ، وتولى قضاء الاسكندرية ، ثم تولى مشيخة الخانقاه البيبرسية ، وكان بيده عـدة تداريس ، ومولده سنة سبع وثمانمائة .

وفيه رسم السلطان على لسان القـاضى كاتب السر ابن مزهر بأن يجمع رءوس النوب ، والنقباء الذين بأبواب الحكام ، ويكتب عليهم قسائم أنهم لا يأخذون من الأخصام عند انفصالهم من الحكم ، أكثر من نصفين ، فجمعهـم وكتب عليهم قسـائم بذلك ،فأقام هذا الأمر مدة يسيرة ، ثم عادوا لمـا كانوا عليه .

وفيه قرر شيخنا الجلال السيوطى فى مشـيخة البيبرسية ، عوضا عن الجـلال البكرى ، بحكم وفاته . وكان الساعى له السيد الخليفة عبد العزيز .

وفيـه هجم المنسر على سوق باب الشـعرية ، وقتلوا البواب ، وفتحوا عدة دكاكين ، وأخـذوا ما فيهـا ، وخـرجوا من الباب ، وتوجهـوا من حيث أتوا .

* * *

وفى جمادى الأولى حملوا السلطان وهو على السرير ، وخرج الى الدهيشة ، وجلس بالشباك المطل على الحوش ، وعرض قدامه عـدة خيول ، فحصل للناس الاطمئنان عليه .

وفيه حصل للسلطان الشفاء ، ودخل الحمـام . فلما كان يوم الجمعة ركب من باب الدهيشة وتوجه الى الجامع ، وصلى الجمعة ، وكان له بالقلعة يوم

مشهود ، وتخلق الخدام بالزعفران ، وفرقت خوند على النـاس البنود الحـرير الأصفر ، للخـدام والخاصكية ، والزمام ومقدم المماليك والغلمـان السلطانية قاطبة ، وأعيان الناس من الحجـاب ، ورءوس النوب ، ونقبـاء الجيش وغير ذلك من الأعيان . ولما رجع السلطان من الجامع لاقته النسوة بالتهانى ، ونثرت خوند على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حوافر فرسه ، وكان يوما حافلا بالقلعة . وخلع على الأطباء والمزينين الخلع السنية ، ودقت له البشائر بالقلعة ، ونودى بالزينة فى القاهرة .

فلما كان الثانى من يوم ركوبه حضر الخليفـة والقضاة الأربعة وهنأوا السلطان بالعافية ، وجلس بالدكة ، وحكم بين النـاس . وكان مدة انقطاعه لهذا العارض نحوا من ثلاثة وخمسين يوما . وكان النـاس قد أيسوا منه ، وعد ركوبه من النوادر بعد ذلك العارض المهول عنـد الكبر . وقد قال القائل فى ذلك :

الله يـدفع عن نفس الامام لنـا
وكلنـا للمنـايا دونه غـرض
فليت هذا الذى يعروه من مرض
بالعـائدين جميعـا لا به المرض
ففى الامام له من غـيرنا عوض
وليس فى غيره منه لنـا عوض
فما أبالى اذا ما نفسـه سلمت
لو باد كل عبـاد الله وانقرضوا

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان ، لما حصلت لهم تلك الكسرة ، تجمع جيشا كثيفا ، ورجع الى المحاربة ثانيا ، وأن عسكر السلطان بعد أن رجع الى حلب ، خرج ثانيا الى نحو كولك . فتنكد السلطان الى الغـاية لهـذا الخبر . ونادى للعسكر بالعرض ، فعرض وعين جماعة من الأمراء المقدمين والجند ، فكانوا نحوا من خمسمائة مملوك . وكان الباش عليهم يشـبك الجمالى الزردكاش الكبير أحد المقدمين ثم أنفق عليهم واستحثهم على الخروج الى حلب . وضاق الأمر بالسلطان حتى قصد أن يخرج الى التجريدة بنفسه . وأرسل السلطان الى كرتباى الأحمـر كاشف البحيرة بأن يجمع له من طائفـة العربان الذين بالبحيرة ما يقدر عليه ، ثم عرض جماعة من الزعر ، وقصد أن ينفق عليهم لكل واحد ثلاثين دينارا ، وأن يخرجوا صحبته ، وصار ينظر ما يرد عليه من الأخبار .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد فاس ، من أعمال المغرب ، وقد حصل بين صاحب فاس والفرنج ما لا خير فيه من الحروب وقتـل العسـاكر ، وأن صاحب غرناطة توجه الى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله .

وفيه خرج الأمير يشبك الجمالى ومن عين معه من الجند الى جهة حلب ، فكان لهم يوم مشهود .

* * *

وفى رجب جاءت الأخبـار بوفاة دولات باى المحوجب الشرفى نائب ملطية ، وكان عنده شجاعة وفروسـية . وتوفى قائم أمير شـكار المحمدى الظاهـرى ، أحد الأمـراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى السيد الشريف على ، أخـو أمير مكة المشرفة ، وهو على بن بركات بن حسن بن عجلان الهاشمى العلوى . وكان مقيما بالقاهرة من حين فر من أخيه وحضر الى مصر ، فأتاه الأجـل بها ، وكان رئيسا حشما فاضلا ذكيا لا بأس به . ومولده بعد الخمسين والثمانمائة .

* * *

وفى شعبان طلع القضاة الأربعة الى القاهرة للنهنئة بالشهر ، فكثرت المرافعات فى قاضى قضاة الحنفية شمس الدين الغزى ، فحنق منه السلطان ، ورسم لنقيب الجيش بالقبض عليه فى المجلس ، وتوجه به الى المدرسة الصالحية ليقيم حساب أوقاف الحنفية ، وجرى عليه ما لا خير فيه ، واستمر فى الترسيم الى أن عزل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد أوفى فى ثانى عشر مسرى فتوجه الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وكان الأتابكى أزبك غائبا فى التجريدة .

ومن النوادر أن النيل زاد فى ذلك اليوم عشرين أصبعا من الذراع السابع عشر فى يوم كسره ، واستمرت الزيادة عمالة حتى أنه زاد فى ثلاثة أيام متوالية من الوفاء تسعة وتسعين أصبعا ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة فى الزيادة . وقد قيل فى المعنى :

وفى النيل اذ وفى البسيطة حقها
وزاد على ما جاده من صنائع
فماذا يقول الناس فى جود منعم
يشار الى انعامه بالأصابع

وفيه نزل السلطان الى الميدان ، وجلس بالمقعد الذى به ، وعرض المحابيس من رجال ونساء ، وأطلق منهم جماعة . ثم أمر بتوسيط أحمد بن بشارة شيخ العشير ببلاد صفد .

وفيه عاد الأمير أقبردى الدوادار من جبل نابلس ، ومعه عدة من العربان ، وهم فى الحديد . وقد قبض على أعيان مشايخهم .

***

وفى رمضان كان أول ما خطب بمدرسة الصاحب الزمام التى أنشأها بخط باب الرميلة ، وقد جاءت من أحسن البناء ، وكان أصلها قاعة ، فصنع بها محرابا واتخذها مدرسة وخطب بها .

وفيه توفى شمس الدين محمد الديجوى ، أحد نواب الحكم من الشافعية ، وكان انسانا حسنا لا بأس به ، ومولده سنة تسع وعشرين وثمانمائة .

وفيه قبض على انسان وهو سكران فى رمضان ، فضرب بالمقارع ، وجرس بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة العلائى على بن شاهين العثمانى نائب قلعة دمشق . وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة فى الحوش . وكان ذلك على خلاف العادة .

وفيه تغير خاطر السلطان على خشقدم الزمام لأمر وقع له وكانت كائنة عظيمة . وقصد الأخراق به وأمر بضربه ، حتى شفع فيه ، ثم آل أمره بعد ذلك الى أن نفاه الى جهة قوص ، كما سيأتى ذكر ذلك .

***

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة [illegible]د بك سكر أتابك العساكر بطرابلس ، وكان شابا رئيسا حسنا حشما لا بأس به ، ولكن وقع له شدائد ومحن ونفى من مصر ، وكان من خواص السلطان ، ثم تغير خاطره عليه وجرى له أمور شتى .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الأخميمى شيخ المدرسة البرقوقية ، وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن شمس الدين الغزى ، بحكم انفصاله عنها . وجرى على الغزى أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح على العادة .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من أعيان المفسدين فى الأرض ، يقال له حمور ، ووسط معه جماعة آخرين مفسدين فى الأرض ، فنزل حمور

من القلعة وهو مسمر على لعبة من الخشب ، غريبة الهيئة تجر بالعجل ، ولها حركات تدور بها ، فرجت القاهرة فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا . وتوجهوا به الى جزيرة الفيل ، فوسطوهم هناك وأراح الله الناس منهم .

وفيه أرسل السلطان تجريدة الى البحيرة بسبب فساد محمد الجويلى شيخ عربان البحيرة ، وكان باش الجند قرقاس المعلم ، أحد الأمراء العشراوات ، واسباى المبشر وأزبك قفص وماماى ونحو من مائتى مملوك من المماليك السلطانية ، فلما وصلوا الى البحيرة تقاتلوا مع الجويلى أشد القتال ، وقتل من الترك والعرب جماعة كثيرة ، ورجع العسكر من غير طائل ، ولا حصلوا من الجويلى على شيء .

وفيه وقعت نادرة : وهو أن مركبا ببولاق عدت تحت الليل ، فغرقت فى وسط البحر بمن فيها من الناس والدواب . ومن العجائب أنه كان بها انسان علامة فى السباحة الى الغاية فغرق ولم يعلم له خبر ، وكان الى جانبه صبى صغير لا يعرف السباحة فنجا من الغرق ، وطلع فعد ذلك من النوادر ، كما قيل فى المعنى :

وقد يهلك الانسان من باب أمنه
وينجو بعون الله من حيث يحذر

وفيه توفى الشيخ قلج الرومى الأدهمى ، شيخ زاوية السلطان بالمرج والزيات ، فلما مات قرر فى مشيخة الزاوية امرأة ، وهى زوجة قلج المذكور ، فعد ذلك من النوادر ، وكانت المرأة تقرب لجهان شاه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر قد ثار على الأتابكى أزبك ، وقصد العود الى القاهرة ، فتشوش السلطان لهذا الخبر . وشكوا من الانشحات . فأرسل السلطان اليهم نفقة هناك . فأنفق الأتابكى أزبك عليهم هناك لكل مملوك خمسين دينارا ، حتى خمدت الفتنة .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ، وتوجهوا الى بيت البدرى بدر الدين ابن مزهر المحتسب ، وقصدوا حرق بيته فاختفى ، وذلك بسبب تسعير البضائع من اللحم والخبز والجبن وغير ذلك ، ثم توجهوا الى الشون وكسروا أبوابها ، ونهبوا ما فيها من القمح والشعير ، وفعلوا ذلك بشون السلطان والأمراء . وكانت فتنة مهولة . فلما بلغ السلطان ذلك ، بعث اليهم جماعة من الخاصكية ، ومقدم المماليك فما قدروا على ردهم . فركب السلطان بنفسه بعد العصر ، وتوجه الى بولاق . فلما رأوه فروا من وجهه ، ثم أتوا الى دار الصاحب قانم ، فنهبوا كل ما فيها . فلما أصبحوا لم ينتهوا عما هم عليه ، ولم يطلع أحد من المباشرين الى القلعة . ثم ان القاضى كاتب السر ترامى على السلطان ، وقبل رجله ثلاث مرات ، بأن يعفى ولده بدر الدين من الحسبة ، فما أجاب الا بعد جهد جهيد .

وفيه توفى الكاتب المجيد الزينى خطاب بن عمر ابن خطاب الأزهرى الشافعى وكان فاضلا وله اشتغال بالعلم ، وكتب المنسوب من الخط الجيد ، وكان له فى ذلك دعاوى عريضة جدا . وفيه يقول الشهاب المنصورى :

بذى التهذيب خطاب تسامت
صحائف زانها خطا وضبطا
فلو نطق الطروس لفضلته
وقالت أجود الكتاب خطا [1]

وفيه وصل قيت الساقى الخاصكى ، الذى كان قد توجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، فعاد ومعه مكاتبة باظهار التودد وصدق المحبة للسلطان .

---

(1) خطا ... ب ...

وفيه توفيت خوند آسية بنت المؤيد شيخ ، وهى والدة سيدى يحيى بن يشبك الفقيه ، الذى كان دوادار كبيرا . وكان حصل لهـا تأسف على ولدها يحيى لما مات فكف بصرها فى أواخر عمرها . ومولدها سنة اثنتى عشرة وثمانمائة وكانت آخر من توفى من أولاد الملك المؤيد شيخ .

***

وفى ذى القعدة ظهر برهان الدين بن الكركى امام السلطان ، وكان مختفيـا من حين تغير خاطر السلطان عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء حتى ظهر وقابل السلطان ، ونزل الى داره بطالا .

وفيه خلع السلطان على أقبردى الدوادار وقرره فى الوزارة ، وكان متكلما فيها بغير تقرير . وقرر موفق الدين بن القمص الأسلمى فى نظر الدولة ، عوضا عن قاسم شغيتة ، بحكم صرفه عن الوزارة ونظر الدولة ، فوكل به ، وأقام فى الترسيم حتى يعمل الحساب .

وفيه خلع السـلطان على كسباى الشريفى ، وقرره فى الحسبة عوضا عن البدرى ابن مزهر بحكم استعفائه .

وفيـه رسم السـلطان بتوسيط عبد العزيز المعروف بعزوز ، من أولاد بنى عمر أمير عـربان هوارة ، ووسط معه جماعة من أقاربه ، وهم يعقوب ابن سليمان ، وموسى بن عبد الله وموسى بن أبى لاسون ، وعلى أخو عزوز ، ومحمد بن بشارة ، فكانت آجالهم متقاربة من بعضها .

وفيه بلغ سعر الأرز الى ستة أشرفية كل أردب ولا يوجـد . ثم عز جـدا حتى تناهى سعره الى اثنى عشر دينارا كل أردب ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من كبار المفسدين ، يقال له أحمد الدنف ، وله حكايات فى فن السرقة يطول شرحها .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان مسافرا فى التجريدة ، وقد حضروا من غير اذن من السلطان وقصدوا الاخراق بالأتابكى أزبك باش العسكر ، وهو بحلب ، فقال لهم : « الذى يقصد الرواح الى مصر يروح ويقابل أستاذه » . فساروا فى الدس ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنـة كبيرة ، وصار جماعة من المماليك الجلبان يقفون للأمراء بالسلم المدرج ويقولون لهم : « قولوا للسلطان ينفق علينا والا يقع منا فتنة كبيرة » . وصاروا يغلظون عليهم فى القول ، وصار القال والقيل عمالا كل يوم بينهم وبين الأمراء ، والاشـاعات قائمة بوقوع فتنة ، وقصـدوا الاخراق بالأمير أقبردى الدوادار غير ما مرة ، حتى امتنع أياما من طلوع القلعة .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق ، القـاضى زين الدين عبـد الرحمن الحسبانى ، عوضـا عن عماد الدين اسمعيل الناصرى بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضى مكة المشرفة ، البرهان بن ظهيرة الشافعى . وهو ابراهيم بن على ابن محمد بن حسين بن على بن أحمد . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم رئيسا حشما ، انتهت اليه رياسة مكة المشرفة ، وكان المرجع اليه بها . ولما مات قرر فى قضـاء الشافعية بمكة المشرفة ولده أبو السعود عوضا عنه .

وفيه كان دخول الأتابكى أزبك وبقية الأمراء والجند ممن كانوا مسافرين فى التجريدة الى على دولات والى عسكر ابن عثمان ، فلما دخلوا الى القاهرة كان لهم يوم مشـهود . وقدامهم الأسراء من عسكر ابن عثمان ، وهم مزنجرين والصناجق منكسة ، وكان صحبتهم جماعة من أعيان أمرائه ، وهم بزناجير على خيولهم ، وصحبتهم أيضا باش

عسكر ابن عثمان ، وهو أحمد بك بن هرسك ، وهو راكب وفى عنقه زنجير . وقيل ان ابن هرسك كان أميرا كبيرا أتابكى ابن عثمان . فلما عرضوا على السلطان وهو بالحوش ، عاتب أحمد بن هرسك ووبخه بالكلام . ثم سلمه الى الأمير فانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ثم وزع بقية الأسراء على جماعة من المباشرين ، حتى قضاة القضاة . ثم خلع على الأتابكى أزبك وعلى بقية الأمراء ونزلوا الى دورهم . وفى عقيب ذلك ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وأشهروا السلاح — وكان ذلك فى سلخ الشهر المذكور — فاضطربت الأحوال ، ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم فى الحواصل ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وجاءت الزعر أفواجا أفواجا .

وقبل ذلك توجه جماعة من المماليك الجلبان الى بيت أقبردى الدوادار ، وتكلسوا معه فى أن يتكلم مع السلطان بأن ينفق عليهم فى نظير تعب سرهم بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم على عسكر ابن عثمان ، وسألوه أيضا فيمن يعمل مصالحهم فى مرتب اللحم والعليق . فلما اجتمع أقبردى بالسلطان كلمه فى ذلك غير ما مرة وهو مصمم على عدم اجابتهم الى ماسألوه فيه ، فلما عاد الجواب لهم بعدم الاجابة فى ذلك ثاروا عليه ، واتسعت الفتنة ، وغلقت الأمراء أبوابها ، واستمر الحال على ذلك .

***

وفى ذى الحجة لم يطلع أحد من القضاة الى القلعة بسبب التهنئة بالشهر ، وكانت الفتنة قائمة كما تقدم ، ثم طلع الأتابكى أزبك الى القلعة واجتمع بالسلطان وكلمه فى أمر النفقة على المماليك ، وتلطف به فى القول فما أجاب الى ذلك الا بعد جهد كبير ، فتقرر الحال على أنه ينفق عليهم لكل مملوك منهم خمسون دينارا ، ثم نادى فى القاهرة بأن النفقة ستكون فى أول السنة الجديدة ، فخمدت هذه الفتنة شيئا قليلا .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وحضر الأتابكى أزبك وفرقت الأقاطيع الشاغرة عمن توفى فى هذه التجريدة من الجند ، وصار الأتابكى أزبك هو المشار اليه فى هذا الأمر .

وفيه أنعم السلطان على أقباى بن جانم الظاهرى خشقدم بامرية عشرة ، وهى امرية أصباى السيفى قرقماش الشعبانى بحكم أنه كان مريضا منقطعا فى داره . وأنعم على أبى شعرة بامرية عشرة ، وهى امرية قراكز بحكم عزله أيضا .

وفيه كانت الضحايا قليلة جدا ولا سيما الغنم .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية ، فامتنع المماليك من أخذها وصمموا وقالوا : « ما نأخذ الا النفقة مع الجامكية ، ولا نصبر الى الشهر الآتى » ... فلما رآهم قد صمموا على ذلك أنفق عليهم ، فأعطى المماليك الجلبان كل واحد منهم خمسين دينارا ، وأعطى القرانصة كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، ولم يعط الذين لم يتوجهوا نحو التجريدة المقيمين ، ووقع القال والقيل بسبب ذلك ، فلم يلتفت الى شىء من كلامهم وخمدت هذه الفتنة .

سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة (١٤٨٦ م) :

فيها ، فى المحرم ، كانت الأسعار متشحطة ومشطة فى سائر البضائع ، وتشحط الخبز من الدكاكين حتى بيع كل رطل من الخبز بنصف فضة ، وكانت أحوال الناس واقفة بسبب الفلوس الجدد حتى غلا سعر راوية الماء ، وعز وجود جمال السقائين ، وصار الغلاء فى المأكول والمشروب ... هذا والمماليك قد طغوا فى حق الناس ، وتزايد

منهم الضرر الشامل ، والعربان قد تزايدت شرورهم فى البلاد من الشرقية والغربية ، وابن عثمان فى غاية التحرك على البلاد الحلبية ، والسلطان فى غاية الظلم والمصادرات للناس بسبب خروج التجريدة الى ابن عثمان ثانيا . وصار العسكر فى أمر مريب بسبب ذلك ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة بين الجلبان ، وقد صاروا فرقتين : فرقة مع قانصوه خمسمائة ، وفرقة مع أقبردى الدوادار ... والاضطراب بينهما عمال .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق . وكان ملكا جليلا وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ورحمه ، حتى صار مفتيا فى طبقة العلماء ، ومات وهو فى عشر الخمسين من العمر . فلما بلغ السلطان وفاته رسم بنقل جثته الى مصر ودفن على أبيه الملك الظاهر چقمق ، وشرع فى أسباب ذلك ، وعين من يتوجه الى هناك ليحضره .

وفيه رسم السلطان بفك قيد أحمد بن هرسك الذى قد أسر ، وكذلك فك قيود من أسر من عسكر ابن عثمان . وأخذوا فى أسباب تجهيزهم الى بلادهم ، وقد أشيع أمر الصلح بين السلطان وابن عثمان .

وفيه اشتد أمر الغلاء جدا حتى بيع القمح كل أردب بستة أشرفية ، وبيعت البطة الدقيق بأربعمائة وخمسين درهما ، وبيع خبز الذرة ... ولم يظهر خبز الذرة فيما تقدم من الغلوات المشهورة حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

زويجى دى المسخرة   يطعمنى خبز الدرة

وصار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات من شدة الجوع . ثم ان السلطان فتح عدة شون وباع منها القمح على حكم خمسة أشرفية كل أردب ، وصار المحتسب يضرب الكثير من السوقة على عدم بيع الخبز واظهاره على الدكاكين .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قيت الساقى بامرية عشرة ، وكذلك مغلباى البجمقدار ، وقرر قيت الرجبى بجمقدارا عوضا عن مغلباى .

وفيه حضرت جثة الملك المنصور عثمان من ثغر دمياط ودفن على أبيه الظاهر چقمق بتربة قانى باى الجركسى .

وفيه قدم اينال الخسيف نائب صفد أحد مماليك السلطان ، فلما حضر أرسل السلطان خلعة وتقليدا الى يلباى حاجب دمشق وقرره فى نيابة صفد عوضا عن اينال الخسيف ، ثم بعد مدة قرر اينال الخسيف فى حجوبية دمشق عوضا عن يلباى بحكم انتقاله الى نيابة صفد .

وفيه توفى الشيخ شمس الدين محمد بن سوله الفارسكورى ، وكان من أعيان الشافعية من أهل العلم والفضل وكان لا بأس به .

وفيه توفى المنشد المطرب الواعظ المادح شمس الدين محمد بن حلة ، وكان من مشاهير الوعاظ وله نظم جيد ، ومولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه انحل سعر القمح وبيع الأردب القمح بأربعة دنانير بعد ستة أشرفية بواسطة كثرة جلب الذرة ، وقد حصل للناس به غاية الرفق .

***

وفى صفر خسف جرم القمر وأظلم الجو ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة ، فلهج الناس بأن زوال السلطان قد قرب ... وما كان شىء مما لهجوا به ، وأقام السلطان بعد ذلك مدة طويلة ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تفعل الشمس شيئا ولا القمر

وعن خسوفهما لا يصدر الكدر

وفيه توفى الشيخ نظام الدين محمد بن الحيبغا الحنفى التركى ، وكان عالما فاضلا من أعيان الناس ، وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس ، فى سعة من المعيشة ، وفيه يقول المنصورى :

سبحان من من بحسن الكلام
على نظام الدين دون الأنام
فلفظ أهل العلم در ، ولا
يزين ذاك الدر الا النظام

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة الأمير قانصوه السيفى الأحمدى الاينالى الذى كان أحد المقدمين ، ونفى الى دمياط ثم نقل الى مكة المشرفة فمات بها ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وكان من أعيان طائفة الاينالية ، وهو الذى تعصب للأشرف قايتباى حتى تسلطن فما ناله منه خير كما يقال :

رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

وقيل انه كان يقول فى مجالس بسطه : « لولا أنا ما فرح قايتباى بالسلطنة قط » ... فلما سمع السلطان قايتباى ذلك جرى على قانصوه ما لا خير فيه . وكان يطلق لسانه فى حق السلطان بما لايليق ، فحقد عليه السلطان بسبب ذلك كما قيل فى المعنى :

وقد يرجى لجرح السيف برء
ولا برء لما جرح اللسان

* * *

وفى ربيع الأول توفى الأمير ملاج اليوسفى نائب القلعة ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان دينا خيرا رئيسا حشما عاقلا عارفا بفنون الفروسية ، وكان لا بأس به .

وفيه تعدى شخص من العوانية واحتكر بيع الملح وضمنه بمكس — ولم يكن يعهد ذلك من قبل — فلما جرى ذلك نشفت الملاحة فى تلك السنة حتى عز وجود الملح جدا .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا على العادة .

* * *

وفى ربيع الآخر توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى عبد العظيم السدار ، الذى كان يبيع السدر والحناء عند الغرابليين ، وكان للناس فيه اعتقاد زائد . وهو عبد العظيم بن ناصر الدين بن خلف المصرى ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة .

وفيه توفى الشيخ محيى الدين عبد القادر الفرضى ، وكان علامة فى الفرائض . وهو عبد القادر بن على بن شعبان القاهرى الحنفى ، وكان امام جامع آصلان .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عمر البلقينى الشافعى ، وكان فاضلا ناب فى الحكم ، وكان محمود السيرة .

وفيه جاءت الأخبار من عند الأمير أقبردى الدوادار بأنه قد انتصر على العرب الأحامدة ، وكان توجه الى بلاد الوجه القبلى بسبب ذلك فقتل منهم ما لايحصى ، وأسر نساءهم وأولادهم وبعث بهم الى مصر وباعوهم كما يباع الرقيق من الزنج . ووقع لأقبردى مع الأحامدة أمور غريبة يطول شرحها ، وعذب جماعة منهم بالدفن فى التراب وهم أحياء ، ونوع لهم العذاب تنويعا ، وقد طهر بلاد الصعيد منهم ، وكانوا أظهروا الفساد بها جدا .

وفيه توفى القاضى سراج الدين عمر بن حريز المالكى . وهو عمر بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن محرز ، الهاشمى القرشى العلوى

الحسنى المنفلوطى المالكى . وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، وتولى قضاء المالكية بعد أخيه حسام الدين ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وعزل عن القضاء ودام معزولا حتى مات .

وفيه اقتتنت طائفتان من الزعر ووقع بينهم أمور وشدائد يطول شرحها ، وصار يقتل بعضهم بعضا جهارا حتى أعيا الوالى أمرهم .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى برد بك طرخان الظاهرى جقمق . وكان انسانا حسنا لا بأس به ، وكان بيده امرية عشرة يأكلها وهو طرخان .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة قناطر بنى منجا ، فخرج البدرى حسن بن الطولونى ومعه جماعة من البنائين والمهندسين بسبب العمارة ، وصرف على ذلك نحوا من سبعة آلاف دينار . وكانت هذه القناطر قد تشعثت وآلت الى السقوط ، فتدارك السلطان ذلك ، وجاءت من أحسن البناء .

وفيه توفيت ست الخلفاء بنت الخليفة المستنجد بالله سيدى يوسف ، وكانت بارعة فى الحسن ، فكثر عليها الحزن والأسف من الناس . وكانت أمها بنت قاضى القضاة البلقينى . وكان عقد لها على الأمير خشكلدى البيسقى ثم فسخ العقد قبل الدخول ، ثم تزوج بها كاتب السر ابن مزهر ، ثم تزوجت بالقاضى قطب الدين الخيضرى ، ثم تزوجت بعده بالسيد الشريف اسحاق البردينى وماتت تحته ، وكان مولدها سنة ستين وثمانمائة .

وفيه ، فى يوم الجمعة ، كان عقد قانصوه خمسمائة على بنت الأتابكى آزبك من خوند بنت الظاهر جقمق ، عقد بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس . وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدة زبادى صينى فيها سكر ومتننات فاكهة فرقت فى القلعة ، فكان كما قيل :

على أيمن الساعات عقد مبارك
بهى كما شاء الاله وأظهرا
سنى المعالى يسرت حركاته
اذا الله سنى عقد أمر تيسرا

وفيه جاءت الأخبار بأن جانم الأجرود الاينالى كاشف منفلوط قد فر الى بلاد النوبة ، وكان السلطان أرسل بالقبض عليه ففر من الخوف على نفسه ، وأقام مدة وهو هارب حتى بعث السلطان له بالأمان .

* * *

وفى رجب لما صعد القضاة للتهنئة بالشهر أمر السلطان بالقبض على جماعة القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، فقبض على علاء الدين الحنفى النقيب ، وعلى أمين الحكم الصابونى ، وعلى جماعة من الجباة ، ووكل بهم لعمل الحساب لأجل أوقاف الشافعية التى تحت نظر قاضى القضاة الشافعى ، فاستمروا فى الترسيم بسبب هذه الواقعة نحوا من ثلاث سنين والسلطان يتغافل عنهم .

وفيه خلع السلطان على القاضى نور الدين الحساوى ، وأعاده الى قضائه بحلب عوضا عن ابن الشحنة أبى البقاء .

وفيه توقف النيل عن الزيادة اثنى عشر يوما متوالية الى تاسع أبيب ، فزاد قلق الناس بسبب ذلك ثم بعث الله بالزيادة واستمرت الى أن وفى .

وفيه كان دخول قانصوه خمسمائة على بنت آزبك أمير كبير ، فحمل الجهاز من الأزبكية الى دار قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ، فلما

شق من القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان الحمالون الذين ينشيلون الأمتعة زيادة على أربعمائة حمال ، وقيل صرف على هذا الجهاز نحو من مائتى ألف دينار . ولما كانت ليلة العرس عمل بالأزبكية ، وكان مهما حافلا . ثم ان قانصوه خمسمائة ركب من باب السلسلة ، ومشت قدامه الأمراء المقدمون بالشاش الذى يلبس فى الجمعة والأعياد ، وكذلك الخاصكية وبأيديهم الشموع الى أن وصل الى الأزبكية ، وعد هذا الزفاف من النوادر الغريبة ... لكن حصل للناس فى تلك الليلة غاية الضرر من الجلبان ، وخطفوا العمائم ، وضربوا جماعة من الأمراء المقدمين ، وخطفوا الشمع من أيدى الخاصكية ، وما حصل تلك الليلة منهم خير ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة .

وفيه رسم السلطان لكسباى المحتسب بأن نجمع له أعيان التجار الذين بالأسواق . فلما عرضوا على السلطان قال لهم : « ساعدونى بشىء على خروج التجريدة » ... ثم فرض عليهم أربعين ألف دينار ، فضجوا من ذلك وقالوا : « ما نقدر على هذا القدر » ... فما زال يحط عنهم من ذلك القدر والتجار يقولون ما تقدر على ذلك . فلما طال الأمر بينهم وبين السلطان تقرر الحال على أن يوردوا اثنى عشر ألف دينار اذا خرجت التجريدة ، وانفض المجلس على ذلك .

* * *

وفى شعبان توفيت فاطمة بنت الجمالى يوسف ناظر الخاص التى كانت زوجة الأمير خاير باك سلطان ليلة ، وكانت رئيسة حشمة لا بأس بها .

وفيه توفى الشيخ تاج الدين ابن قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وكان تولى بعد أبيه مشيخة الجامع المؤيدى . وكان عالما فاضلا أخذ العلم عن أبيه ، ومولده سنة خمس وثمانمائة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك فى ثانى عشر مسرى ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه قرر السلطان قرقماس بن ولى الدين فى امرية الآخورية الثانية وكانت شاغرة مدة ، وقرر فى باشية الجند بسكة المشرفة أزدمر الأشرفى برسباى عوضا عن شاد بك أمير آخور الظاهرى بحكم وفاته .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الديرى وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن عمه تاج الدين ، فأقام بها مدة يسيرة وسعى عليه محيى الدين عبد القادر ابن الدهانة الحنفى فقرره السلطان بها وقد أورد مالا له صورة .

وفيه وصل الأمير أقبردى الدوادار ، وكان مسافرا نحو الوجه القبلى بسبب فساد عربان طائفة الأحامدة ، وقد تقدم ما جرى عليهم منه .

وفيه خلع السلطان على الشيخ بدر الدين ابن قاضى القضاة صلاح الدين المكينى وقرره فى مشيخة الخشابية عوضا عن الشيخ فتح الدين محمد بن قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى الشافعى بحكم وفاته فى شهر رجب ، وقد سعى فيها بدر الدين المكينى بمال له صورة حتى قرر بها .

وفيه توفى القاضى عبد الغفار الميدومى الشافعى أحد نواب الحكم ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم قراءة البخارى الشريف بالقلعة — وكان بالحوش كالعام الماضى — وفرقت الصرر على الفقهاء بحكم النصف ، وقطعت صرر

من له خلع ، وقد شح السـلطان فى الأيام التى خلت فى الشهر المذكور جدا

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة نائب الشـام قجماس الاسحاقى الظاهرى . وكان دينا خيرا فى عابه الاحتشام مع لين جانب ، وكان انسانا حسنا لا بأس به ، وهو الذى أنشأ المدرسه التى عند الدرب الأحمر بقرب سوق الغنم ، وأنشأ مثلها بدمشق ، وله آثار حسنة غير ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على يشبك بن حيدر والى القاهره ، فأمر بنفيه الى الكرك ، فشفع فيه أزبك الأمير الكبير ورده من الخانقاه ، فعزل من الولاية وقرر فى امرية عشرة .

وفيه توفى الجلال أبو البقاء ابن الشـحنة الحلبى الشافعى قاضى القضاة بحلب . وكان عالما فاضلا تقلد بمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه ، وكان والده حنفى المذهب ، فقدم الى القاهرة معزولا ومات بها ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان خلف قانصوه اليحياوى الذى كان نائب الشام الذى كان بالقدس الشريف وهو معزول بسبب ما تقدم ذكره ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره فى نيابة الشام عوضـا عن قجماس الاسحاقى بحكم وفاته .

وفيه خلع السلطان على مغلباى الشريفى الذى كان استادار صحبة ، وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن يشبك بن حيدر ، ثم بعد مدة طويلة خلع على اسباى المبشر وقرره فى استاداريته عوضـا عن مغلباى .

وفيه جاءت الأخبار بفرار شاه بضاع بن دلغادر وكان مسجونا بقلعة دمشق ، فلما بلغ السـلطان ذلك تنكد الى الغـاية ، ورسم بشنق نائب قلعة دمشق ، ثم جاءت الأخبار بأن شاه لما فر من قلعة دمشق توجه الى ابن عثمان فأكرمه وأقام عنـده الى أن كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير المحمل أزدمر تمساح ، وبالركب الأول خاير بك كاشف المحلة .

وفيه توفى مجد الدين اسماعيل الشطرنجى . وكان علامة فى نقل الشطرنج ، وجيها عند الأمراء كثير العشرة للنـاس ومولده بعـد الثـلاثين والثمانمائة

وفيه تغير خاطر السلطان على موفق الدين بن القمص الأسلمى ناظر الدولة فضربه بالمقارع بين يديه بالحوش ، وسلمه للأمير آقبردى الدوادار . ثم خلع السلطان على شرف الدين بن البـدرى حسن وقرره فى نظر الدولة عوضـا عن موفق الدين الأسلمى .

* * *

وفى ذى القعدة جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فانهم أشرفوا على أخـذ غرناطة ، وهو فى المحاصرة معهم ، فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيه أن يبعث الى القسوس الذين بالقمامة التى بالقدس ، بأن يرسلوا كتابا على يد قسيس من أعيانهم الى ملك الفرنج ، صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب أشبيلية ، بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، والا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول الى القمامة ، ويهدمها . فأرسلوا قاصدهم ، وعلى يده كتاب الى صاحب نابل ، كما أشـار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئا وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد .

وفيه توفى الشهاب الأبشيهى أحمد بن محمد

المحلى الشافعى ، وكان عالما فاضلا وناب فى الحكم مدة طويلة وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس .

وفيه توفى أزبك الأشرفى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه كان علف الدواب غاليا ففرق السلطان الأضحية على الأمراء والجند قبل عيد النحر بخمسة وعشرين يوما فعد ذلك من النوادر .

* * *

وفى ذى الحجة فى سابع عشره خرج قانصوه اليحياوى الى نيابة الشام .

وفيه سقطت قبة جامع القلعة على المحراب والمنبر ، وقتل تحتها بواب الجامع وولده فرجت له القلعة وخرج السلطان وهو ماش حتى يرى ما سقط فى الجامع . وكان ذلك قبل يوم الجمعة بثلاثة أيام . فأمر السلطان بشيل الأتربة من الجامع ثم أخذ فى أسباب عمل قبة غيرها فجدد هذه القبة الموجودة الآن وجدد المنبر ، وكان قبل ذلك من الخشب فجعله من الرخام الملون ، وجدد عمارة الميضأة التى بالجامع فجاءت من أحسن البناء .

وفيه خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له سيباى بن بخت خجا وقرره فى نيابة سيس عوضا عن قانصوه الجمالى بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على الجمالى يوسف كاتب المماليك وأخذ منه تسعة آلاف دينار . وجدت عليه وعلى والده أبى الفتح ناظر جدة أمور يطول شرحها حتى آل أمره الى ذهاب عقله واعتراه جنون .

وفيه قويت الاشاعات بثوران فتنة من المماليك الجلبان ، وكثر القال والقيل فى ذلك ونقل غالب الأمراء وأرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفا من النهب عند وقوع الحركة . فلما تزايد الكلام فى ذلك صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم بعد الصلاة جلس بالحوش ، ثم أحضر أغوات الأطباق وأعيان المماليك الجلبان ، وكلمهم كلاما كثيرا ووبخهم بالكلام حتى قال : « اذا كان قصدكم قتلى فدونكم ذلك » فاستغفروا له . ثم آل الأمر الى صلحهم مع السلطان ، وسكون هذه الفتنة قليلا . فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من ثوران الفتنة حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه ، ولم يعلم أين يتوجه ، وقد تزايد القول فى ذلك فكان كما يقال :

لعمرى ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم فى أمر مريج وكانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع ، والاشاعات قائمة برجوع عسكر ابن عثمان وزحفهم على البلاد الحلبية ، والاشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان والأمراء واقفة ، والسلطان ناظر الى الظلم وأخذ أموال الناس ، والأمر لله .

سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة (١٤٨٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، سافر قانصوه اليحياوى الى الشام — وقد تقدم أنه تقرر فى نيابة الشام — فخرج فى موكب حافل .

وفيه سمح خاطر السلطان بأن ينفق على مماليكه توسعه على نزول خيولهم من الربيع ، فأعطى لكل مملوك عشرة دنانير ، والقرانصة خمسة دنانير ، والسيفية ثلاثه دنانير ، فصرف فى هذه الحركة جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل حسن بن سليمان بن عيسى بن عمر الهوارى ، أخى داود بن عمر أمير

هوارة . قتله بعض أعدائه من العربان وكان شابا حشما لا بأس به .

وفيه توفى جانى بك حبيب العلائى الاينالى أحد الأمراء الطبلخانات وأمير آخور ثانى ، وكان رئيسا حشما حلو اللسان حسن العبارة سيوسا دريا عارفا فصيح اللسان بالعربى . توجه قاصدا الى يعقوب بن حسن الطويل ، ثم توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان مقبول الشكل حسن الوجه ومات ولم يظهر الشيب بلحيته ، وجرى عليه شدائد ومحن فى دولة الظاهر خشقدم ، وفر الى بلاد العرب وأقام بها حتى توفى الظاهر خشقدم ، فعاد الى مصر وصار له خصاصة بالأشرف قايتباى .

وفيه توفى بيبرس اليوسفى الظاهرى أحد العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه بلغ سعر الراوية من الماء نحو ثلاثة أنصاف وذلك بسبب عدم وجود الجمال لتسلط المماليك الجلبان على السقائين لأجل الدريس ، فحصل للناس غاية المشقة بسبب ذلك .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة . وكان أشيع عنهم أمور شنيعة فظهر أن ذلك كذب . وكان أشيع عنهم أن طائفة عربان الأحامدة قد استولوا على الحجاج ولم ينج منهم أحد .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل عسكرا عظيما ، وقصد محاربة عسكر مصر . فتنكد السلطان لهذا الخبر .

وفيه حضر خضر بك نائب القدس فضرب بين يدي السلطان ضربا مؤلما ، وأقام بالترسيم حتى أورد مالا له صورة ، وكانت كثرت فيه الشكاوى عند السلطان ، وآل أمره الى أن عزل عن نيابة القدس .

وفيه قرر السلطان دقماق السيفى اينال الأشقر فى نيابة القدس عوضا عن خضر بك بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة السلطان الملك المؤيد أبى الفتح أحمد ابن الملك الأشرف اينال العلائى الجركسى ، وكانت وفاته فى ليلة رابع عشر الشهر المذكور . فلما بلغ السلطان ذلك أخذ فى أسباب احضار جثته الى القاهرة ودفنه على أبيه الأشرف اينال ، وكان المؤيد هذا رئيسا حشما قليل الأذى وجرى عليه شدائد ومحن ونفى الى الاسكندرية ودام بها الى أن مات وهو فى عشر الخمسين .

وفيه وقع من الوقائع الغريبة أن محب الدين أبا الطيب الأسيوطى بلغه أن السلطان تغير خاطره عليه ، وقصد الاخراق به . فلما تحقق ذلك توجه الى المقياس ، وألقى نفسه فى البحر عمدا فغرق ومات ، وكان عالما فاضلا من ذوى العقول رئيسا حشما وجيها عند الأمراء وأرباب الدولة ، وكان من أعيان موقعى الحكم وكان عارفا بأمور صنعة التوقيع ، وكان اسمه محمد بن محمد بن على بن عمر بن حسن القاهرى الشافعى ، ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ولكن هانت عليه نفسه لما تأمل ما سوف يجرى عليه . وكان له أعداء كثيرة فخاف على نفسه من السلطان فكان كما قيل فى المعنى :

لا تظهرن لعاذل أو عاذر
حاليك فى السراء والضراء

فلرحمة المتوجعين حرارة
فى القلب مثل شماتة الأعداء

* * *

وفى ربيع الأول قرر السيد الشريف موفق الدين الحموى فى نظر الجيش بدمشق ، عوضا

عن محيى الدين عبد القادر بحكم وفاته ، وقرر ولده عبد الرحيم فى كتابة السر بدمشق .

وفيه قرر ايدكى الأشرفى فى نيابة القلعة بدمشق عوضا عن على بن چاهين بحكم صرفه عنها .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا على العادة فى العام الماضى .

وفيه أحضر السلطان بترك النصارى ورئيس اليهود وقرر على طائفة اليهود والنصارى مالا له صورة بسبب حروج التجريدة الى ابن عثمان ، وهذا أول فتح باب المصادرات للناس .

وفيه قرر السلطان بركب المحمل چان بلاط الأشرفى الخاصكى أحد الدوادارية ، وقرر بالركب الأول كرتباى كاشف البحيرة .

وفيه أنعم السلطان على مملوكيه — وهما قانصوه الألفى وقانصوه الشامى — بتقدمة ألف

وفيه من الحوادث أن السلطان رسم بتوسيط مجد الدين ابن البقرى ، وقد جرى عليه شدائد ومحن وسجن بالمقشرة زيادة على ست سنين . وكان السلطان يكرهه طبعا . وقد بلغه أن مجد الدين هذا لما قتل يشبك الدوادار ، أظهر الشماتة به وتخلق عياله بالزعفران . وكان حصل له مع يشبك كائنة عظيمة ، فلما فرح به وأظهر السرور بلغ السلطان ذلك ، فتأثر منه وجرى له ما جرى . وكان مجد الدين رئيسا حشما ولى الاستادارية غير ما مرة ، وكذلك الوزارة ، وكان أصله من القبط ، واسمه شاكر بن علم الدين ، ووسطوه ببركة الكلاب ، ثم حملوه الى تربة ابن عمه يحيى فدفن بها ، وكان عنده عنف وظلم .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على جماعة من الأمراء ، فقرر برسباى قرا فى امرية مجلس عوضا عن أزدمر قريب السلطان بحكم عوده الى نيابة حلب ، وكانت امرية مجلس شاغرة فى هذه المدة . وقرر تمرى بردى ططر فى الرأس نوبة الكبرى عوضا عن برسباى قرا ، وقرر تانى بك الجمالى فى حجوبية الحجاب عوضا عن تغرى بردى ططر بحكم انتقاله ، وقرر شبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة أمير آخور ثانى عوضا عن جانى بك حبيب وكان بيده امرية طبلخانات ، وقرر شاد بك ابن مصطفى المعروف بالخوخ فى نيابة القلعة عوضا عن ملاج بحكم وفاته

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على اسنباى المبشر الأشرفى ، وقرره فى استادارية الصحبة عوضا عن مغلباى بحكم انتقاله الى ولاية الشرطة ، وقرر اينال الفقيه الظاهرى فى الحجوبية الثانية عوضا عن تانى بك الأبناسى ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة . وقرر كرتباى ابن أخت السلطان فى معلمية الدلالين ، وهى وظيفة تاجر المماليك ، عوضا عن قانصوه الشامى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه أنعم السلطان بامريات عشرة على جماعة من خاصكيته ، منهم قانصوه السيفى أقبردى ، وقانصوه بن فارس المعروف بقرار ، ودولات باى الفلاح ، وجان بلاط الغورى ، وسودون العجمى واصطمر بن ولى الدين ، وآخرون .

وفيه صرف شرف الدين بن البدرى حسن عن نظر الدولة وضرب بين يدى السلطان . وخلع على قاسم شغيته وأعيد الى نظر الدولة .

وفيه من الحوادث أنه فى يوم الخميس عاشره جلس السلطان على الدكة بالحوش على العادة فثارت ريح عاصف فوقعت من شدتها السحابة التى بالحوش فأصابت جماعه من الأمراء وجرح تانى بك

الجمالى حاجب الحجاب فى وجهه ، وقد وقع عمود السحابة التى بالحوش عليه وجرح أيضا دولات باى الحسنى وطاحت خفائف الأمراء وعمائم المباشرين فقام السلطان من وقته ودخل الى البحرة ، وتهارب العسكر وظنوا أنها القيامة ، وهرب الفراشون أصحاب النوبه خوفا على أنفسهم من السلطان ، وقد أظلم الجو ظلمة شديدة وقام رعد وبرق ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى جرى السيل فى الأسواق والشوارع ، وكان يوما مهولا .

وفيه جاءت الأخبار من سيس بأن فى ذلك اليوم وقعت بها صاعقة مهولة هدمت سور قلعتها وقتل بها من الناس جماعة

وفيه توفى شرف الدين عبد الباسط ابن البقرى أخو مجد الدين شقيقه ، وكان رئيسا حشما ولى عدة وظائف سنية منها نظر الاصطبل ونظر الأوقاف ونظر الدولة وكان وجيها عند الناس حسن الهيئة ، وكان بين موته وموت أخيه نحو من شهر وقيل مات مسموما .

***

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان جهز عسكرا وقد وصل الى ادنة . فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، ونادى بالعرض . فحضر الأتابكى أزبك باش العسكر فكتب بحضرته من الجند نحوا من أربعة آلاف مملوك . وعين من الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة عن ستين أميرا ، حتى عدت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وقد بلغ السلطان أن ابن عثمان جمع من العساكر ما لا يحصى . فلما عرض الجند وعين الأمراء أخذ فى أسباب تفرقة النفقة . ثم انه عين ثلاثة من الخاصكية بأن يسيروا على الهجن لكشف أخبار ابن عثمان ، وما يكون من أمره ، واستحثهم على الخروج ورد الجواب عليه بسرعة . ثم عين أقبردى الدوادار وكاتب السر أن يتوجها الى جبل نابلس بسبب جمع العشراوات من جبل نابلس .

وفيه جاءت الأخبار بأن يعقوب بن حسن الطويل وقع بينه وبين صاحب هراة من الفتن ما لا يعبر عنه ، وآل أمره الى كسرة يعقوب وانهزامه ، وقتل من عسكره ما لا يحصى ، فشق ذلك على السلطان .

وفيه قرر السلطان شرف الدين ابن البدرى حسن فى نظر الأوقاف عوضا عن شرف الدين ابن البقرى بحكم وفاته . وقد وليها ابن البدرى حسن غير ما مرة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير دولات باى الحسنى وأمر بنفيه الى مكة ، فخرج الى الخانقاه ثم طلع أزبك الأمير الكبير وشفع فيه حتى عاد الى داره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانى بك الابراهيمى الطويل الأشرفى ، نائب صفد ثم دوادار السلطان بحلب وكان لا بأس به ، وقرر بدوادارية السلطان بحلب أركماس بن ولى الدين عوضا عن دوادار السلطان بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد استولى على قلعة اياس من غير قتال ولا مانع ، فتنكد السلطان لهذا الخبر .

***

وفى جمادى الآخرة بعث السلطان نفقات الأمراء المقدمين والعشراوات فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار ، والأمراء المعينون الى التجريدة كما تقدم هم الأمير الكبير أزبك وتمراز أمير سلاح وبرسباى قرا أمير مجلس وقانصوه خمسمائة أمير آخور

كبير وتغرى بردى ططر رأس نوبة النوب وتانى بك الجمالى حاجب الحجاب ، ومن الأمراء المقدمين غير أرباب الوظائف أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار وتانى بك قرا الاينالى ، ويشبك الجمالى السيفى ناظر الخاص وقانصوه الألفى وقانصوه الشامى ، ونحو من خمسين أميرا من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ثم أنفق على الجند على العادة فكانت جملة النفقة على الأمراء والجند نحوا من ألف ألف دينار حتى عد ذلك من النوادر ولم يسمع فيما تقدم من الدول الماضية أن أحدا من السلاطين فعل مثل ذلك . وكانت نفقة أزبك الأمير الكبير وحده ثلاثين ألف دينار . وكانت عادة نفقة الأتابكية الى دولة الظاهر برقوق عشرة آلاف دينار ، ولم يسمع بأوسع من هذه النفقة قط فكان كما قيل :

تهب الألوف ولا تهاب ألوفها
هان العدو عليك والدينار

فلما أخذ المماليك النفقة أطلقوا فى الناس النار وأخذوا البغال والخيول حتى أكاديش الطواحين ، وحصل منهم الضرر الشامل فى حق التجار وغيرهم.

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب باستيلاء ألفنش صاحب قشتيلة على مدينة مالقة من بلاد الأندلس ، وكانت كائنة عظيمة وقعت هناك .

وفيه كان خروج أزبك أمير كبير ومن عين معه من العسكر ، وكان يوما مشهودا . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى ما بعد الظهر ، وخرج العسكر وهم لابسون آلة السلاح حتى عد ذلك من النوادر . وكان طلب أزبك أمير كبير وقانصوه خمسمائة غاية فى الحسن حتى قيل كان مصروف طلب قانصوه خمسمائة نحوا من ثمانين ألف دينار . ثم ان الأمراء برزوا ونزلوا بالريدانية واستمروا هناك الى أن رحلوا ولم تخرج من مصر تجريدة أعظم من هذه لا فى زمن الظاهر برقوق ولا غيره .

وفيه قبض السلطان على أبى الفتح المنوفى نائب جدة ورسم عليه بطبقة الزمام ، وكان حصل له ماليخوليا وطرف جنون . ثم خلع على جاهين الجمالى وقرره فى نيابة جدة عوضا عن أبى الفتح ثم أمر السلطان بتوجه أبى الفتح الى البيمارستان فانه لما أحضره السلطان وكلمه رد له جواب من فى عقله خلل ، فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض الأمراء . وشهد جماعة من المباشرين بأنه قد حصل له ماليخوليا ، وأمر بأن ينزلوا به الى البيمارستان ، وهو ماش مكشوف الرأس عريان وفى عنقه زنجير ، ورسم بأن يدعوه عند المجانين ففعلوا به ذلك فأقام بالبيمارستان أياما ثم شفع فيه فعاد الى طبقة الزمام وأقام فى الترسيم . وكان أبو الفتح فى خدمة السلطان مذ هو شاد الشراب خاناه . وكان عنده من المقربين ثم غربه ووقع له أمور يطول شرحها .

وفيه توفى برسباى الطلاشى الشمسى الظاهرى أحد العشراوات وكان من خشداشى السلطان وكان لا بأس به .

* * *

وفى رجب بلغ السلطان أن العربان قالت ان مصر ما بقى بها من العسكر الا قليل ، وزاد طمعهم فى الترك . فرسم السلطان لمن بقى بالقاهرة بأن يركبوا فى كل يوم أحد وأربعاء ويتوجهوا نحو المطرية ويعودوا ويشقوا من القاهرة ، وفى أوساطهم السيوف والطراكيش فصاروا يفعلون ذلك فى كل يوم أحد وأربعاء ، ويدخلون من القاهرة أفواجا أفواجا وتقعد الناس على الدكاكين لرؤيتهم ، فأقاموا على ذلك مدة ثم بطل .

وفيه كان انتهاء القبة التى جـددها السلطان بالجامع بالقلعة عوضا عن التى سقطت ، وجـدد المنبر فجاء من أحسن ما يكون من البناء

وفيه من الحوادث أن السلطان جدد مظلمـة شنيعه ° وهو أنه أرسل لكشاف الغربية والشرقية بأن يأخذوا من البلاد الخمس من خراج المقطعين ، بسبب تجهيز خيالة من الشرقية من عربانها العشير يتوجهون نحو العسكر عونه بسبب قتال عسكر ابن عثمان . فحصل للمقطعين غاية الضرر من كبس البلاد وقبض الفلاحـين ونسب ذلك الى شرف الدين بن البدرى حسن فانه كان هو القـائم فى ذلك الوقت ، فوعدته المماليك الجلبان بالقتـل ونهبوا بيته فيما بعد . وقد جبى الخمس مرتين من خراج المقطعين ستين متواليتين ولم تخرج خيالة من الشرقية ، وكانت زيادة مظلمة أخرى .

وفيه وصل الزينى أبو بكر بن مزهر كاتب السر وقد تقـدم القول أنه خرج الى نابلس صحبـة الأمير أقبردى الدوادار بسبب جمع العشـير من جبل نابلس لأجل التجريدة الماضى ذكرها ، فحضر وهو متوعك فى جسده فلم يقابل السلطان ولا طلع الى القلعة ، واستمر ملازم الفراش حتى مات ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه وصل قاصد ملك الفرنج الأنكيروس من بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه وأنزله فى مكان أعده له .

وفيـه توفى دولات باى بن مصطفى الأشرفى المعروف بالأجرود نائب غزة ثم بقى أحد الأمراء المقدمين بدمشق وكان لابأس به .

وفيه توفى الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم ابن على الشافعى ، شيخ مدرسـة كاتب السر بن مزهر التى أنشأها بحارة برجوان ، وكان من أهل العلم والفضل وله شهرة بمصر وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبـار بوفاة تغرى بردى ططر التمشى الظاهـرى جقمق رأس نوبة النوب توفى بحلب ، وكان من أجل الأمراء وتولى عدة وظائف سنية منها نيابة القلعة بمصر ثم بقى مقدم ألف ثم بقى حاجب الحجاب ثم بقى رأس نوبة كبيرة ، ومما وقع له أن الأمراء كلهم خرجوا بالأطلاب ما عداه فانه خرج من غـير طلب ، فلما طلع الى القلعـة مقته السلطان بسبب ذلك ، فقال له تغرى بردى ططر : « لا تمقتنى ولا أمقتك أنا ما بقيت أرجع من هذه السفرة » . وكان الأمر كذلك ، كما يقال : « ان البلاء موكل بالمنطق » .

وفيه جاءت الأخبـار من حلب بأن ابن عثمان بعث عدة مراكب من البحر وهى مشحونة بالسلاح والعسكر ، وقد وصلت الى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر المصرى ، فما تم له ذلك وخذله الله تعالى ، وكانت النصرة لعسكر مصر كما سيأتى ذكره .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى حادى عشر مسرى فتوجه أقبردى الدوادار وفتح السد على العادة ، ولم يقع لأقبردى أنه نزل وفتح السد غير هذه السنة بموجب غياب الأمير الكبير وبقية الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع السلطان على فارس المنصورى وقرره فى نيابة دمياط عوضا عن شاد بك الأشقر بحـكم صرفه عنها .

* * *

وفى ثالث رمضان كانت وفاة الزينى أبى بكر ابن مزهـر ، كاتب السر بالديار المصرية ، وهـو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن أحمـد بن عبد الخالق بن عثمان ، المعروف بمزهر الدمشقى الأنصارى الشـافعى . وكان عالما فاضـلا ، عارفا

بالفقه رئيسا حشما انتهت اليه رياسة عصره ، وكان وجيها عند الملوك والسلاطين ، وتولى من الوظائف السنية عدة ، منها نظر الاصطبل ونظر الجيش وكتابة السر ، ودام بها نيفا وعشرين سنة حتى مات وهو مقرر بها ، وتكلم فى وظيفة قضاء الشافعية مدة ، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وكان قد شاخ وكبر سنه فلما مات رثيته بهذين البيتين من قصيدة قلتها فيه :

صارت مراسله كمثل أراملى
تبكى بأعينها دما وتترب

وكذا الدواة تسودت أقلامها
حزنا عليه وأقسمت لا تكتب

وكانت جنازته مشهودة ، وغطى نعشه بمرقعة من الصوف . فلما توفى خلع السلطان على ولده المقر البدرى محمد ، وقرره فى كتابة السر بمصر عوضا عن أبيه بحكم وفاته . وذلك فى يوم الخميس سادس عشره ، وأخذ منه مالا له صورة حتى تولى هذه الوظيفة ، وكان شابا فى عشر الثلاثين لما قرر فى كتابة السر وكان السلطان محتفلا به فاستخلص منه أموال أبيه بحسن عبارة . ولما تولى كتابة السر قلت فيه هذين البيتين :

تشرف ذا الانشاء من آل مزهر
بنجل سما قدرا وشاع له ذكر

أضاءت به الأيام فى مصر بهجة
ولم لاوقدأضحى يلوح لها البدر

وفيه جاءت الأخبار أن أزبك الأمير الكبير ملك باب الملك ، واستخلصه من أيدى عسكر ابن عثمان بعد أن أتوا اليه فى ستين مركبا وهى مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، فقلق العسكر من ذلك وانقطعت قلوبهم وظنوا أنهم هم المأخوذون . فبينما هم على ذلك اذ بعث الله تعالى بريح عاصفة فغرق غالب تلك المراكب فى البحر الملح ، والذى فر من البحر من العسكر العثمانى وطلع الى البر قتله العسكر المصرى . وكانت النصره لهم على العثمانية وكانت على غير القياس . فلما تحقق السلطان هذا الخبر سر به ولم يصدق بذلك .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بوفاة صاحب تونس السلطان المتوكل على الله عثمان بن محمد بن محمد بن العزيز أحمد الهنتانى الموحدى ، وكان ملكا جليلا أقام فى الملك نحوا من أربع وخمسين سنة ومات وهو فى عشر التسعين سنة . ومما مدحه به بعض شعراء الغرب :

بقيت ولا أبقى لك الدهر حاسدا
فانك فى هذا الزمان فريد

علاك سوار ، والممالك معصم
وجودك طوق ، والبرية جيد

ولما توفى تولى بعده ولد ولده يحيى المعروف بالحفيد فلم تطل أيام مدته ، وقتل واستطال عليه أعمامه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة سيباى بن تانى باى الطيورى الظاهرى نائب حماه وكان لا بأس به .

وفيه ورد الخبر من أزبك الأمير الكبير بأنه فى ثامن رمضان وقعت معركة عظيمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان فقتل من الفريقين ما لا يحصى ، وكان ممن قتل من أمراء مصر دولات باى الحسنى رأس نوبة ثانى أصيب بمدفع ، وقتل من مماليك السلطان عدة وافرة ومن العسكر العثمانى أكثر . وقد هزموا العثمانية وغنم منهم عسكر مصر أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بدق البشائر بالقلعة سبعة أيام .

* * *

وفى شوال وصل مغلباى البجقمدار أحد الأمراء العشراوات من مماليك السلطان وصحبته عـدة رءوس قطعت من عسكر ابن عثمان وكانت نحوا من مائتى رأس ، فشق مغلباى من القاهرة وقدامه تلك الرءوس وهى عـلى الرماح ، وكان له يوم مشهود . فخلع عليـه السلطان ونزل فى موكب حافل ، ثم أخبر بوفاة مغلباى الفهلوان المحمدى الأشرفى الاينالى أحد الأمراء العشراوات رءوس النـوب ، وكانت وفاته بحلب ، وكان عارفا بفن الصراع علامة فيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر العثمانى بعد ما حصلت له هذه الكسرة عاد أيضا الى أدنة ، وأن العسكر المصرى شرع فى حصارهم بها ، وقد تمادى الأمر فى ذلك حتى أخذت بعد مضى ثلاثة أشهر ، وقتل فى مدة هذه المحاصرة من الفريقين ما لا يحصى ، وآل الأمر الى أخـذها بالأمـان ، وجرى فى ذلك أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحمل جان بلاط الخاصكى أحـد الدوادارية ، وبالركب الأول كرتباى الكاشف . وحـج فى تلك السنة داود بن عمر أمير عربان هوارة .

وفيه توفيت دولات باى الجركسية سرية الظاهر جقمق ، وهى زوجة برقوق نائب الشـام . وكانت دينة خيرة لا بأس بها .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى اينال الخسيف باستقراره فى نيابة حماه وقد سعى له أزبك الأمير الكبير فى ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانم دهيشة بن أزدمر الأشرفى الخاصكى الساقى أحد خواص السلطان ، خرج الى دمشق فى بعض مهمات السلطان بدمشق فمات بها وكان شابا جميل الصورة حسن الشكل لا بأس به .

وفيه أعيد زين الدين الحسبانى الى قضـاء الحنفية بدمشق وصرف عنها مجد الدين الناصرى وسجن بقلعة دمشق .

وفيه توفى الناصرى محمد بن محمد بن سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وكان رئيسا حشما من مشاهير أولاد الأسياد .

* * *

وفى ذى القعـدة توفى القاضى خير الـدين الشنشى محمد بن عمر بن محمد بن حسن بن موسى القاهرى الحنفى ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان عالما فاضلا عارفا رئيسا حشما وترشح أمره لأن يلى قضاء الحنفية بمصر ، ولم يل ذلك وما تم له . ومولده سنة أربعين وثمانمائة .

وفيه قرر شخص يقـال له محب الدين ، وكان أصله من الأقباط ، فقرر فى نظر الجيش بدمشق عوضا عن السـيد الشريف موفق الدين بحـكم صرفه عنها . فعيب ذلك على السلطان ، واتفق أن محب الدين المذكور لما دخل الى الشام أقام بها أياما ومرض ومات . وكان قد جد فى السعى على الشريف موفق الدين وأورد مالا له صورة .

وفيه ضرب السلطان شخصا من نواب الحنفية يقال له شهاب الدين بن القصيف ، ورسم بنفيه الى الواح ، فشفع فيه وكتب عليه قسامة بأنه لا ينوب فى الحكم قط ولا يسعى فى ذلك بل ولا يشهد فى شىء من الأمور الشرعية لأمـر أوجب ذلك .

وفيه أحضرت جثة دولات باى الحسنى رأس نوبة ثانى من أدنة ودفنت بمصر فى تربته .

* * *

وفى ذى الحجة توفى الشـيخ تقى الـدين السخاوى واسـمه أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا

، الحديث ، سمع على الحافظ بن حجر وغيره ، كان لا بأس به .

وفيه قدم الزينى محمود بن آجا قاضى قضاة حنفية بحلب ، فأقام بالقاهرة مدة ، ثم عاد الى لب على وظيفته .

وفيه توفى يرسباى العلائى الطويل الظاهرى د الأمراء الطبلخانات وكان يعرف بالبواب فمات الك لما خرج فى التجريدة .

وتوفى قرقماس المحمدى الظاهرى المعروف لمعلم ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان رفا بفنون الرمح علامة . وتوفى ملاج الظاهرى چقمقى أحد الأمراء العشراوات وكان دينا خيرا ، ذوى العقول . ومما وقع له أنه كان بيده اقطاع اب وعنده عيال كثيرة وأولاد عدة فوقف الى سلطان وشكا له حاله ، وأن اقطاعه خراب يحصل له منها شيء ، فلم يلتفت السلطان الى ئمه ، فنزل الى داره ودخل الى طبقة مهجورة ده ، وعمد الى سلبة وربطها فى سقف الطبقة ، مل فيها خية وشنق نفسه بها فمات . وقد هانت ه نفسه من شدة قهره ، وكان ساكنا فى الجودرية اح القتل فى كيسه ولم يرث له أحد .

وفيه جاءت الأخبار بقتل صاحب طرابلس ـرب ، واسمه أبو بكر بن عثمان بن محمد نفصى ، قتله صاحب تونس وقتل ولده أيضا ماعة من أعوانه .

وتوفى فى السنة المذكورة جماعة كثيرة من عيان منهم قاضى الاسكندرية وهو محمد بن مد عوض المالكى ، وكان لا بأس به .

ة أربع وتسعين وثمانمائة (١٤٨٨ م) :

فيها ، فى المحرم ، لما طلع القضاة لتهنئة السلطان رسم بعرض نواب الشافعية ونواب الحنفية وكلمهم كلاما مزعجا وأمر بابطال جماعة منهم وجرت أمور يطول شرحها ، ثم آل الأمر الى التحجير عليهم فى الأحكام الشرعية وألا يسجنوا الخصم الا باذن من القاضى الشافعى والحنفى ، وعم ذلك سائر النواب .

وفيه تغير خاطر السلطان على الطواشى خشقدم الزمام وخازنداره ووزيره أيضا ، فرسم بالقبض عليه فى وسط الحوش وهم بضربه ، ثم آل الأمر الى أن خرج منفيا الى سواكن ، واحتاط على موجوده قاطبة واستمر منفيا الى أن مات هناك . وكان عنده عسف وظلم وشدة بأس وسفاهة لسان وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا يقال له عبد القادر بن الرماح وكان له خصاصة بالسلطان قال له ان الشيخ عبد القادر الدشطوطى رحمه الله ورضى عنه شخص من عباد الله الصالحين ، وكان قصد السلطان الاجتماع عليه ، فأخبره أنه يتردد الى جامع محمود فى مكان عنده بالقرافة تحت الجبل المقطم ، فقال له السلطان : « ان حضر هناك أعلمنى » . فعمد عبد القادر بن الرماح الى شخص كان شبيها بالشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وكان يدعى أنه شريف ، فأعلم السلطان بأن الدشطوطى يحضر تلك الليلة الى المكان المذكور ، فصلى السلطان العشاء ونزل وصحبته ثلاث أنفس فأتى الى ذلك المكان ونزل عن فرسه ، فوجد ذلك الشخص جالسا ورأسه فى عبه ، فشرع السلطان يقبل رجليه ويقول : « ياسيدى احمل حملتى مع ابن عثمان » . فصار ذلك الشخص يغرب عليه ، ويقول له : « أنت ما ترجع عن ظلم العباد » . فطال المجلس بينهما . ثم ان السلطان دفع له كيسا فيه ألف دينار ، وقيل خمسمائة دينار ، فصار يمتنع من ذلك

والسلطان يتلطف به ويقول له : « فرق ذلك على الفقـــراء » . ثم ركب ومضى وهـــو يظن أنه الدشطوطى .

ثم بعد أيام انكشفت هذه الواقعة ، وظهر أنها مفتعلة . فلمـا تحقق الســـلطان ذلك ، أحضر عبد القادر بن الرماح والشخص الذى تزيا بزى الدشطوطى وخدام المكان الذين كانوا به فضربوا بين يدى السلطان بالمقارع . وأما عبد القادر ابن الرماح الذى كان سببا لذلك فرسم الســـلطان بحلق ذقنه وشهره فى القـــاهرة على حمارة ، ثم سجنه بالمقشرة الى أن مات عقيب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أغرب الوقائع التى لم يســـمع بمثلها مع أن عبد القادر بن الرماح كان من ذوى العقول ، ولكن قد يخبو الزناد ويكبو الجواد ، كما يقال :

وانى رأيت المرء يشقى بعقـله
وقد كان قبل اليوم يسعد بالعقل

* * *

وفى صفر أنعم الســـلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بامرية عشرة ، وهى أول استظهاره فى العلو والرفعة ... وجان بلاط هـــذا هو الذى تسلطن فيما بعد .

وفيه جاءت الأخبار أن صاحب فاس من بلاد الغرب قد غزا الفرنج ، واستخلص منهم عدة بلاد كانت أخذت من أيدى المسلمين ، فأعادها لهم ، وقتل أخوه فى المعركة .

وفيه صار العسكر الذين من مماليك السلطان يدخلون الى القاهرة شـيئا فشيئا قبل حضـــور الأتابكى أزبك فتنكد السلطان لذلك .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى وكان غالب الأمراء مســـافرين فى التجريدة ، وكان أمر السماط فيه بحكم النصف على العادة .

وفيه بلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من التجريدة قصـــدوا أن يثيروا فتنة كبيرة ، ويطلبوا من السلطان نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم . ثم بلغ السلطان أن المماليك قالوا ان كان السلطان لا يعطينا نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين كانوا بمصر ولم يســافروا ، وذكروا كلمات كثيرة من هذا النمط . فلما تحقق السلطان ذلك أخذ فى أسباب تحصيل المال ، واجتمع الســلطان بالقضـاة الأربعة ، وذكر لهم أن الخزائن نفـد ما كان فيها من المال ، وأن المماليك يقصـــدون نفقة ، وان لم أنفق عليهم شيئا يثيروا فتنة كبيرة ... فاتفق الحـــال على أن يؤخذ من أرباب الأملاك والأوقاف التى بمصر والقـــاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقـــة . وانفض المجلس على ذلك .

ثم ان السلطان أمر تغرى بردى الاستادار بأن يتكلم فى ذلك هو وناظر الخاص ابن الصابونى ، فاقتسموا التصرف فى ذلك ، وشرعوا فى جبـاية المال .

وفيه دخل الأمير الكبير أزبك ومن كان معـه مسافرا فى التجريدة من الأمراء وبقية العسكر ، وكان لهم يوم مشهود . ومن العجائب أنه فى حالة دخولهم الى القاهرة أشيع بين الناس عودهم الى حلب عن قريب ، لأن عسكر ابن عثمان قد استولى على سيس ، وعلى طرسوس ، وغير ذلك من البلاد الحلبيـــة . وحضر مـــع أزبك الأمير الكبير جماعة كثيرة من عســـكر ابن عثمان ، أتوا طائعـــين باختيارهم ، فأنزلهم السلطان فى ديوانه ، وقرر لهم الجوامك ، وهم الى الآن باقون فى الديوان يسمون العثمانية .

ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنـــة كبيرة ، وأن

المماليك قد صمموا على أخذ النفقة لكلّ واحد مائة دينار ، فقلق السلطان لهذه الاشاعات ، واشتد عليه الأمر .

* * *

وفى يوم السبت رابع ربيع الآخر جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وأرسل خلف القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فلما تكامل المجلس قال السلطان للأمراء والقضاة : « هؤلاء المماليك يرومون منى النفقة ، وقد نفد جميع ما كان فى الخزائن من المال على التجاريد ، ولم يبق بها شىء من المال » . ثم أقسم بالله أنه نفد منه على التجاريد من حين ولى السلطنة الى الآن سبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستون ألف دينار . ثم قال للأمراء : « اختاروا من تسلطنونه غيرى ، واشهدوا على أيها القضاة أنى خلعت نفسى » . وشرع يفكك أزراره وقصد الدخول الى قاعة البحرة فتعلق به القضاة ومنعوه من ذلك . وشرع قاضى القضاة المالكية ابن تقى يبكى وأظهر التأسف لهذه الواقعة وصار يتضارش ويترب . ثم ان الأمير تمراز أمير سلاح صار يمشى بين الجلبان وبين السلطان فى عمل المصلحة ، فكثر القال والقيل فى ذلك ، وضج العسكر ، وترددت الوسائط بين السلطان وبين الجلبان . ثم استقر الحال بعد جهد كبير على أن السلطان ينفق على الجلبان لكل واحد منهم خمسون دينارا من ذلك أربعون دينارا معجلة ، والآخر عشرة ينفقها عليهم بعد مدة شهرين ، وأن القرانصة ينفق عليهم خمسة وعشرين دينارا فاستقر الحال على ذلك وسكن الاضطراب قليلا .

ثم ان السلطان أرسل خلف الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز — وكان ساكنا عنده بالحوش — فلما حضر جدد له مبايعة ثانية بحضرة القضاة الأربعة . فكانت مدة سلطنته فى هذه المرة الأولى الى يوم خلعه هذا احدى وعشرين سنة وسبعة أشهر . ثم قام الخليفة ونزل القضاة الى دورهم ، وانفض الموكب وكان يوما مهولا .

ثم ان السلطان أخذ فى أسباب تحصيل المال لأجل النفقة واستحث فى احضار ما يجىء من المال بسبب الشهرين اللذين فرضهما على أرباب الأملاك ، ثم فرض على المماليك القرانصة وأولاد الناس الذين لم يسافروا فى التجريدة : على كل من له جامكية ألفان أربعون دينارا ، ومن له ألف جامكية بحكم ذلك ، ومن لم يورد شيئا من ذلك تقطع جامكيته ستة أشهر حتى يغلق ما فرض عليه . ثم أنفق على المماليك فيما بعد . ثم ان الأمير تمراز شفع فى القرانصة وأولاد الناس ألا يوردوا شيئا مما قرر عليهم ، وكان الغالب منهم أورد شيئا فراح عليه والمتأخر لم يحط شيئا بسبب الشفاعة .

وفيه ثار جماعة من العوام على الشيخ شهاب الدين أحمد الشيشى الذى تولى قضاء الحنابلة فيما بعد ، وكادوا أن يقتلوه لولا أنه اختفى مدة طويلة حتى سكن الأمر . وسبب ذلك ما نقل عنه أنه قد أفتى السلطان بحل ما يجىء اليه من أجرة الأملاك فى الشهرين الماضى خبرهما . فلما بلغ العوام ذلك ثاروا عليه وقصدوا قتله ... واستمر مختفيا حتى توجه الى مكة وجاور بها مدة .

وفيه كانت وفاة الشيخ بدر الدين بن الغرس وهو محمد بن محمد بن محمد بن خليل القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا عارفا بأصول الفقه وله نظم جيد وولى عدة وظائف سنية ، وناب فى القضاء مدة ثم تولى مشيخة تربة الأشرف برسباى ودام بها حتى مات ، وكان من أعيان الحنفية وذكر الى قضاء الحنفية غير ما مرة . ومن نظمه قوله :

ان جاءكم صب بكم فأكرموا
مثواه تجزون خيار الثواب
وجاوبوا العذال عمن غدا
من سقمه لا يستطيع الجواب

ولما مات رثاه الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفى بقوله :

لقد أظلمت مصر وأقفرت الدنيا
لموت عديم المثل بل أوحد العصر
سأعجب ان ضاءت ليالى عصرنا
وكيف يكون الضوء مع عدم البدر

وفيه كانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع . وسبب ذلك اهمال كسباى المحتسب ، فانه لم ينظر فى أحوال المسلمين فوبخه السلطان بالكلام ، ثم بطحه وضربه بين يديه نحوا من عشرين عصا . فلما نزل من القلعة أطلق فى السوقة النار وكذلك سماسرة القمح ، وجرى بسبب ذلك أمور شتى .

وفيه كانت وفاة الحافظ قطب الدين الأخيضرى محمد بن محمد بن عبد الله بن خيضر بن سليمان ابن داود بن فلاح بن ضمرة الرملى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حشما ، وكان من أخصاء الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية : منها كتابة سر دمشق ونظر جيشها وقضاء الشافعية بها وغير ذلك من الوظائف ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه بعث السلطان بالقبض على مملوكه أزبك النصرانى ، وكان قرر فى نيابة كركر ، فوقع منه غاية الفساد هناك ، وآل أمره الى أن حزت رأسه وعلقت على باب كركر وكان من أشرار الناس .

وفيه من الحوادث : أنه أشيع بين الناس بأن فرس البحر قد ظهرت عند شبرا وصارت تتراءى للناس مدة ، ثم اختفت وتحققت الأقوال بذلك .

وفيه خلع السلطان على أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار ، وقرره فى رأس نوبة كبير عوضا عن تغرى بردى ططر بحكم وفاته . وخلع على شاد بك الخوخ بن مصطفى وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن قانصوه الألفى بحكم انتقاله الى التقدمة وكانت الدوادارية الكبرى شاغرة مدة طويلة . وأنعم على مملوكه طقطباى بامرية عشرة وجعله متحدثا فى نيابة القلعة فاستمر بها من غير أن يخلع عليه بها . وأنعم على يشبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة بتقدمة ألف مضافا لما بيده من الآخورية الثانية . وأنعم على مملوكه جانم الذى كان بالشام أميرا بتقدمة ألف ، وكتب له بذلك البشارة وهو بالشام . وقرر مملوكه مغلباى الشريفى فى تقدمة ألف مضافا لما بيده من ولاية القاهرة ، فأقام على ذلك مدة حتى تقرر غيره .

وفيه كان ابتداء تفرقة النفقة على الجند كما استقر الحال عليه فيما تقدم .

وفيه توفى تقى الدين ناظر الزردخانة فلما مات قرر ولده عبد الباسط فى نظر الزردخانة عوضا عن أبيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه بضاع بن دلغادر حضر الى الابلستين ، ومعه طائفة من عسكر ابن عثمان ، وكبس على أخيه على دولات وقبض على اثنين من أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد لهذا الخبر جدا .

وفيه قرر الشهابى أحمد ابن الجمالى يوسف ناظر الخاص فى نظر الجيش وصرف عنها بدر الدين ابن أخيه كمال الدين .

وفيه عين السلطان عدة من أمراء البلاد الشامية ، فقرر فى حجوبية دمشق يونس نائب البيرة ، وقرر فى نيابة البيرة اينال باى من جلبانه ، وكان يقرب

، وقرر باكير بن صالح الكردى حاجب حلب فى
ة قلعة الروم ، وقرر مملوكه قانصوه الغورى
جحوبية حلب عوضا عن باكير ... وقانصوه هذا
الذى تولى السلطنة فيما بعد . وقرر أركماس بن
، الدين فى دوادارية السلطان بدمشق ،
ـرر قانى بك البهنسا فى دوادارية السلطان
لب ، وقرر فى نيابة البهنسا كرتباى الأشرفى من
ليكه . فخرجت اليهم المراسيم بمعنى ذلك .

وفيه أراد السلطان أن يقرر تانى بك الجمالى
س نوبة كبير فامتنع من ذلك وصمم أنه ما يلى
أمرية مجلس عوضا عن برسباى قرا بحكم
انه فى التجريدة بحلب ، فتغير خاطر السلطان على
ى بك الجمالى ، وقصد نفيه الى مكة بسبب
ك ، وأقام على ذلك أياما لا يطلع القلعة . ثم
سل خلفه ووعده بها ، وصار يتكلم فيها على
ه منه .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى عبد الرازق أخى
ى دولات ، وقرره فى أتابكية حماه عوضا عن ابن
غل وتقل ابن طرغل الى نيابة طرسوس .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
ـكر ابن عثمان لما بلغهم رجوع العسكر المصرى
حوا فى أخذ البلاد الحلبية ، وأرسل يستحث
لطان فى خروج تجريدة بسرعة لحفظ مدينة
لب . فلما بلغ السلطان ذلك عرض العسكر وعين
جريدة ، وكتب عدة وافرة من الجند الذين كانوا
يمين بالقاهرة ، وجعل الباش على هذه التجريدة
نصوه الشامى أحد المقدمى الألوف ، ومن
أمراء الطبلخانات يشبك رأس نوبة ثانى ، وأزدمر
نقيه الظاهرى ، وكرت باى بن تمر باى ابن أخت
سلطان ، واصطمر بن ولى الدين أحد العشراوات .
ثم أنفق عليهم وعلى الأمراء وأمرهم بسرعة الخروج
الى التجريدة من غير اهمال .

***

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ محب الدين أخو قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ، وكان عالما فاضلا وناب فى الحكم وتولى خطابة الجامع المؤيدى ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى القاضى بدر الدين محمد بن الحليس أحد نواب الحنابلة وكان من أعيان الناس مشكور السيرة .

وفيه أنعم السلطان على طوخ المحمدى البجمقدار بامرية عشرة .

***

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان بسلخ شخص يسمى أحمد بن الديوان من أهل حلب فسلخه فى المقشرة ، وسلخ معه والده محمد وأشهروهما فى القاهرة على جمال . وكان أحمد بن الديوان من أعيان الناس الرؤساء بحلب ، وكان من أخصاء السلطان ، فنقل عنه أنه كاتب ابن عثمان فى شىء من أخبار المملكة . فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره عليه ، وجرى عليه أمور يطول شرحها . وكانت من الوقائع المهولة .

وفيه خرجت التجريدة ومن عين بها من الأمراء والعسكر وكان يوما مشهودا . قيل قد بلغت النفقة على الأمراء والجند فى هذه التجريدة الخفيفة نحوا من مائة وخمسين ألف دينار غير جامكية أربعة أشهر ، وثمن الجمال . وكان السلطان دريا فى خروج هذه التجريدة لصون مدينة حلب .

وفيه قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا الى ابن عثمان لعل أن يكون الصلح . فرد له الجواب :

« اذاأطلق تجار المماليك الذين عنده ، وبعث مفاتيح القلاع التى أخذها ، كاتبنـاه فى أمر الصـلح ، وأرسلنا له قاصدا » ... ولكن جرى بعـد هذه الواقعة أمور شتى .

* * *

وفى رجب خلع السلطان على تانى بك المحمدى الاينالى أحد العشراوات وقرره فى شادية الشون وأشركوا معه أقبردى ططر الظاهرى أحد الأمراء العشراوات أيضا .

وفيه توفى جمال الدين الكورانى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وهو عبد الله بن محمد بن حسن ابن خضر بن محمد الأردبيلى الشافعى وكان عالما فاضلا دينا خيرا ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

* * *

وفى شعبان قرر فى مشيخة خانقاه سعيد السعداء الشيخ زين الدين عبد الرحمن القناوى الشافعى عوضا عن جمال الدين الكورانى بحكم وفاته .

وفيه ثارت فتنة من المماليك الجلبان ، بسبب العشرة دنانير التى تأخرت لهم من الخمسين التى استقر الحال عليها فى أمر النفقة فما سكنت الفتنة حتى أنفقها لهم .

وفيه حضر اسكندر بن جيحان أحـد الأمراء المقدمين لابن عثمان ، وقد أسره بعض النواب ، وكان على دولات هو القائم فى القبض عليه فكان له بالقاهرة لما دخل يوم مشهود . وأسر معه جماعة من العثمانية ، فلما عرضوا على السـلطان رسم بسجنهم .

وفيـه توفى سودون الشـور أحـد الأمـراء العشراوات وكان لا بأس به . وتوفى الطـواشى مرجان الجمالى المعروف بستمائة وكان من أعيان الطواشية .

وفيه فى آخر يوم منه كان وفاء النيل المبارك .

* * *

وفى مستهل رمضان كان فتح السد عن الوفاء ، ووافق ذلك سـادس مسرى فنزل أزبك أمير كبير وفتح السد على العادة . وقيل ان جماعة من أوباش العوام أفطـروا فى ذلك اليوم من شدة الحـر والعطش . وفى أثناء ذلك عمل الأتابكى أزبك وقدة هائلة وحراقة نفط فى بركة الأزبكية ، وعزم على الأمراء وكانت ليلة حافلة .

* * *

وفى شـوال كان أول توت وهو يوم النوروز عند القبط وكان عيد الفـطر عند المسلمين ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح ، وكان الحج فى تلك السنة قليلا .

وفيه جاءت الأخبار من سواكن بوفاة الصاحب خشقدم الأحمدى ، وكان رئيسا حشما من أعيان الطواشية وتولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والزمامـية والخازندارية الكبـرى ، وكان ظالما غشوما عسوفا من وسائط السوء .

وفيه توفى الشـيخ أبو الفضل محمـد المحلى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

* * *

وفى ذى القعدة توفى الطواشى مرجان ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى نوروز أخو برسباى قرا أمير مجلس وكان من الأمراء العشراوات من خيار الظاهرية وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ جعفر بن ابراهيم السنهورى الشـافعى شيخ القراء بمصر ، وكان يقرأ بأربع عشرة رواية . وكان علامة فى القراءات .

وفيه جاءت جمـاعة من تجـار الاسكندرية يشكون من نائبها على باى بأنه جار عليهم بالظلم والمصادرات فأرسل اليه السلطان يحذره من ذلك .

* * *

وفى ذى الحجة أنعم السلطان على سيباى نائب
يس بامرية عشرة ، وكذلك كسباى بن أزبك
ساقى .

وفيه توفى شعبان الزواوى شيخ القبانيين .
كان علامة فى صنعة القبانة والتحرير فى الأوزان .

وفيه توفى سليمان بن محمد المغربى ، وكان
ضلا فى علم الميقات وله شهرة فى ذلك .

سنة خمس وتسعين وثمانمائة (١٤٨٩ م) :

فيها ، فى المحرم ، كسفت الشمس كسوفا تاما
حتى أظلمت الدنيا ، وثارت عقيب ذلك رياح عاصفة
حتى فزع الناس من ذلك .

وفيه قدم الى القاهرة شاه بضاع بن دلغادر ،
وقد تقدم القول بأنه هرب من قلعة دمشق ، وكان
مسجونا بهـا . فلما هرب توجـه الى ابن عثمان
والتف على عسكره وملك الأبلستين ، واستمر فى
عصيانه مدة طويلة . ثم وقع بينه وبين ابن عثمان
فتنة وقصد قتله ففر منه والتجأ الى السلطان . فلما
جاء اليه أكرمه السلطان وخلع عليه . ثم بعد مدة
أرسله الى منفلوط ليقيم بها وأجرى عليه ما يكفيه
فعد ذلك من جملة سعد السلطان وكانت من
النوادر .

* * *

وفى صفر توفى الطواشى سرور السيفى قراقجا
الحسنى وكان لا بأس به وتولى رأس نوبة السقاة
وغير ذلك

وفيه كان اقتران المريخ مع زحل فأفرط البرد فى
تلك الأيام حتى أحرق الأشجار وجمدت المياه .
وذكر بعض المنجمين أن هـذا الاقتران يدل على
وقوع فتن ، وأن البرد يستمر أياما متواليـة فى
تزايد من الافراط ، وصار الثلج ينزل فى الليل ،
وينعقد على الجدران بناحية الجيزة ، ومات الكثير
من الحرافيش من شدة البرد ، فكان كما قيل :

ويـوم بـرد مد أنفاسـه
يخمش الأوجـه من قرصـها

يـوم تود الشـمس من برده
لو جرت النـار الى قرصـها

وفيه كثرت الشكاوى فى محمد بن اسماعيـ
قاضى الواح ، فأمر السلطان باحضاره ، فلما حضـ
ضربه بالمقارع ، ثم أشهره بالقاهرة وهو على حمار
ثم سجنه بالمقشرة فمات بها بعد ايام وكان من كبا
الظلمة من المفسدين فى الأرض . فلما خرجـ
جنازته ثار عليـه جمـاعة كثيرة من أولاد أخـ
ورجمـوه بالحجـارة وهو فى النعش ، وأراد
حرقه ، فما خلصوه ودفنوه الا بعد جهد كبير .

* * *

وفى ربيع الأول جاءت الأخبـار من عند عـ
دولات بأن ابن عثمان اهتم فى تجهيز عساكر و
وصل أوائلهم الى كولك . فلما بلغ السلطان ذ
نكد ، وجمع الأمراء وأخذ رأيهم فى ذلك فو
الاتفاق على خروج تجريدة صحبة أمير كبير ،
أخذ السلطان فى أسباب جمع الخمس من نوا
الشرقية كما فعل عنـد خروج التجريدة الماضـ
لأجل فرسان العرب لتخرج صحبة أمير كبير بـ
العسكر ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الأ
وقطع الخمس من خراجهم مرتين .

وفيه عرض السـلطان أولاد الناس أصحـ
الجوامك من ألف درهم فما دونه — وكان أمـ
أن يتعلموا رمى البندق الرصاص قبل ذلك
فلمـا عرضهم ورموا قدامه كتبهم فى التجريـ
وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارا ، وكل ا
أشركهم فى جمل أعطـاه لهـم وخرجوا صـ
التجريدة

وفيه خلع السـلطان على قيت بن قانم الـ
وقرره فى ولاية القـاهرة ، عوضـا عن مـ

الشريفى بحكم انتقاله الى التقدمة وكان متكلما فى الولاية مع التقدمة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه نادى السلطان للعسكر بالعرض وأشيع أمر التجريدة الى ابن عثمان . فلما عرضهم السلطان بادر اليهم بتفرقة النفقة ، ثم وقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب من المماليك الجلبان ، وقام السلطان من الدكة ونزل وقال : « أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضى الى مكة » ، فتلطف به الأمراء . ثم آل الأمر بعد ذلك الى أن أنفق عليهم لكل مملوك مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة أشهر ، وثمن جمل سبعة أشرفية . فأنفق فى ذلك على عدة طباق . واستمر على ذلك حتى أكمل النفقة ثم حملت نفقة الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات وقد تعينوا للسفر أجمعين . ولم يبق بمصر سوى أقبردى الدوادار وأزدمر تمساح ، فكانوا على الحكم الأول كما تقدم ، فبلغت النفقة على الأمراء والجند نحوا من خمسمائة ألف دينار . وكانت هذه التجريدة آخر تجاريد الأشرف قايتباى الى ابن عثمان وغيره ولم يجرد بعدها أبدا ثم نادى للعسكر بألا يخرج منهم أحد قبل الباش ، فما سمعوا له شيئا .

وفيه قرر تنم الرجبى الخاصكى الخازندار فى نيابة جدة عوضا عن جاهين الجمالى ، وقد سئل الاعفاء عن ذلك .

وفيه تعين كرتباى كاشف البحيرة فى امرية الحاج بركب المحمل ، وعين اينال الفقيه الحاجب الثانى فى الركب الأول .

***

وفى خامس عشر ربيع الآخر خرج أمير كبير أزبك من القاهرة ، قاصدا البلاد الحلبية ، وصحبته الأمراء والعسكر وكانت عدتهم عشرة وهم على ما ذكرناه فى التجريدة الماضية ، وأما الأمراء العشراوات والطبلخانات فكانوا زيادة على الخمسين أميرا . وأما المماليك السلطانية فكانوا زيادة عن أربعة آلاف مملوك ، فكان لهم يوم مشهود ، حتى رجت لهم القاهرة . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، وخرج مماليك الأمراء وهم باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعدت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وقد طال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان فى أمر الفتن والأمر لله .

***

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بنقل اسكندر ابن النحال من البرج الذى فى باب السلسلة الى دار كاتب السر البدرى ابن مزهر ، وأمره بالحفظ عليه .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوقوع سيل عظيم فى خامس صفر ، وقيل انه بلغ الى الحجر الأسود وهدم عدة أماكن ، وحصل منه غاية الضرر .

***

وفى جمادى الآخرة قويت الاشاعات بسفر السلطان بنفسه الى حلب . ونزل الى الميدان وعرض الهجن وعين جماعة من الخاصكية للسفر معه ، وأمر من بقى من العسكر بعمل بركهم ، وأن يكونوا على يقظة من السفر .

وفيه وصل أقبردى الدوادار من البحيرة ، وكان قد خرج بسبب فساد العربان .

***

وفى رجب كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى محمد الذى تسلطن بعده وكان عمره يومئذ نحوا من سبع سنين وأشهر ، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات فاجتمع به سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان أن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل

سواق المشهورة وغير ذلك ، وخرج الناس فى
سفه والفرجة عن الحد . وكان العسكر غائبا فى
جريدة والناس فى أمن من أذى المماليك . وكانت
ء الأيام منهودة لم يسمح بمثلها ، ودخل على
سلطان من التقادم ما لا يحصى من مال وحبول
ماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك مما يزيد
ى خمسين ألف دينار . وكان من جملة ما أهداه
شهابى أحمد بن العينى طست وأبريق ذهب
ته ستمائة مثقال برسم الختان ، وأشياء كثيرة
ير ذلك . واختتن مع ابن السلطان جماعة كثيرة
ن أولاد الأمراء والأعيان والخاصكية فكانوا
يادة عن أربعين ولدا . فرسم لكل صبى منهم
كسوة على قدر مقام أبيه فكان من جملة أولاد
لأعيان ابن الخليفة أمير المؤمنين عبد العزيز وهو
بنه سيدى عمر وابن الجمجمة بن عثمان ، وأولاد
لعلائى على بن خاص بك وغير ذلك من أولاد
الأمراء والأعيان . فلما كان يوم الخميس عشريه
اجتمع الأمراء والأعيان من الناس بالحوش
السلطانى ، وركب ابن السلطان من قاعة البحرة
ومشت قدامه الأمراء والخاصكية وهم بالشاش
والقماش ، ومشى قاضى القضاة الحنفى ناصر الدين
الاخميمى ، وسائر أعيان المباشرين وأولاد
الجيعان ، وأعيان الخدام ، وكان ماسك لجام
الفرس الأمير أقبردى الدوادار والشهابى أحمد
ابن العينى وهم بالشاش والقماش ، ولم يكن بمصر
من الأمراء المقدمين غير الأمير أقبردى الدوادار
والأمير أزدمر تمساح والأمير أزدمر المسرطن .
واستمر ابن السلطان فى ذلك الموكب من قاعة
البحرة الى باب الستارة والسلطان جالس فى
المقعد ينظر اليه ، وفرشت تحت فرسه الشقق
الحرير ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضة ،
ولاقته المغانى فنزل عن فرسه بباب الستارة
ودخل به قاعة البيسرية فكان الختان بها ، وقبل
دخل على المزين نحو من خمسة آلاف دينار .
فأنعم عليه من ذلك بألف دينار . والباقى تقاسمه
الرؤساء من المزينين ، وعد هذا الختان من النوادر .
ثم نزل ابن الجمجمة وأولاد العلائى على بن خاص
بك ونوجهوا الى بيوتهم ، فشقوا من القاهرة فى
موكب حافل ، ورسم للقضاة الأربعة بأن يركبوا
قدامهم ففعلوا ذلك .

وفيه كانت وفاة الزينى خضر بن سنان النوروزى
الجركسى وكان رئيسا حشما من أعيان الناس وله
اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله
عنه ورحمه . وكان فى سعة من المعيشة ، ومات وهو
فى عشر الستين .

وفيه خسف القمر ودام فى الخسوف نحوا من
أربعين درجة حتى انجلى .

وفيه عين السلطان جماعة من الجند الى مكة
وجعل عليها باش أقبردى تمساح الظاهرى أحد
الأمراء العشراوات ، وعين الطواشى اياس الشامى
فى مشيخة الحرم النبوى على صاحبه أفضل الصلاة
والسلام .

وفيه ثار مماليك أقبردى الدوادار عليه ،
وحاصروه وهو فى داره ، وطلبوا منه زيادة فى
جوامكهم . فبعث اليه السلطان بالوالى فقبض على
جماعة منهم وضربهم بالمقارع وقطع أيدى جماعة
منهم وفر الباقون الى الجامع الأزهر ، وأقاموا به
أياما ، ثم آل الأمر الى أن نفى طائفة منهم الى
جهة قوص وطائفة الى البلاد الشامية ، فسكن
الحال قليلا .

وفيه وصل هجان من عند العسكر ، وأخبر
بأن العسكر قصد التوجه الى بلاد ابن عثمان وقد
أرسلوا ماماى الخاصكى رسولا الى ابن عثمان ،
فلما أبطأ عليهم خبره زحف العسكر المصرى على

أطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية ، وفتكوا بها ونهبوا عدة من ضياعها وأحرقوها ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن من بلاد ابن عثمان وانقسموا فرقتين ، فرقة الى ماوندة وفرقة مقيمة بكولك ينتظرون ما تكون من هذا الأمر ، ثم حضر جان بلاط الغورى أحد مماليك السلطان وكان من الأمراء العشراوات يومئذ وأخبر بأن العسكر فى قلق زائد بسبب الذى هناك ، وأن العليق ما يوجد ، وأنهم قد عولوا على المجىء الى مصر ، فما سر السلطان ذلك .

* * *

وفى شعبان رفعت امرأة قصة للسلطان تشكو فيها من بدر الدين بن القرافى أحد نواب المالكية ، فأمر السلطان باحضاره فلما حضر ضربه بين يديه ضربا مؤلما ، وآل أمره الى أن غرم فى هذه الكائنة مالا له صورة بعد عقد مجلس بينه وبين المرأة التى رافعت فيه .

وفيه كانت البشارة بالنيل المبارك وجاءت القاعدة سبعة أذرع الا ثمانى أصابع .

وفيه قرر شهاب الدين بن الصيرفى فى تدريس الشافعية بالخانقاه الشيخونية عوضا عن جلال الدين ابن اللبانة بحكم نزوله عنها ، ولم ينزل أحد عن هذه الوظيفة قبل اليوم قط الا أن تحرج عنه بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على دقاق نائب القدس الشريف ، وفخر الدين بن نسيبة من أعيان بيت المقدس ، فرسم باحضارهما ، فلما حضرا أمر بضربهما ، فلما ضربا بين يديه أمر بنفى ابن نسيبة الى الواح حتى شفع فيه .

* * *

وفى رمضان قبض الوالى على جماعة من المماليك الأروام وجدهم يشربون الخمر فى رمضان نهارا فضربهم ، وأشهرهم بالقاهرة وسجنهم .

وفيه أخبرنى من أثق به ، أنه رأى بأسوان شخصا أسمر اللون وله عين واحدة فى جبهته ، وله أنف نابت فى وجهه تحت تلك العين ، وبين أنفه وفمه نحو من أربع أصابع ، فكان من جملة الأعاجيب .

وفيه ظهرت فى القاهرة امرأة ولها ثلاثة أبزاز ، أحدها تحت ابطها .

وفيه فى رابع مسرى كان وفاء النيل المبارك ونزل أزدمر تمساح وفتح السد على العادة ، وكان الوفاء فى عاشر شهر رمضان . ومن النوادر أنه زاد فى اليوم الثالث من مسرى ثلاثة وثلاثين اصبعا فى دفعة واحدة .

وفيه توفى برهان الدين التتائى أخو شرف الدين الأنصارى ، وهو ابراهيم بن على بن سليمان التتائى الأنصارى المالكى ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

وفيه حضر هجان وأخبر بأن العسكر على حصار قلعة كوارة ، ومات فى مدة المحاصرة قانصوه بن فارس المعروف بقرا وهو من مماليك السلطان ، وكان من الأمراء العشراوات ، ثم أخذت هذه القلعة فيما بعد وهدمت الى الأرض .

* * *

وفى شوال كان الموكب السلطانى فى يوم عيد الفطر بالحوش على العادة التى استجدها السلطان فى غيبة الأمراء ، فلم يحضر فى موكب العيد سوى الأمير أزدمر تمساح ، وكان أقبردى الدوادار مسافرا الى جهة البحيرة بسبب فساد العربان ، فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وخلع على المباشرين وأرباب الدولة وانفض الموكب سريعا .

وفيه تزايد شر العبيد حتى خرجوا فى ذلك عن الحد وصار يقتل بعضهم بعضا حتى أعيا الوالى أمرهم وصاروا طائفتين ، طائفة تعادى طائفة .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بحلب شمس الدين محمد بن عثمان الزعيم ، عوضا عن عز الدين الحسبانى .

وفيه قرر شمس الدين محمد بن أبى الفتح الكتبى فى مشيخة القبانين ، ثم تولى بعد ذلك التحدث على مباشرة بندر جدة .

* * *

وفى ذى القعدة رسم السلطان بنقل سوق الحمير من عند باب الميدان الى جهة مدوسة قانى باى الجركسى ، واستمر على ذلك الى الآن .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة المكان الذى أنشأه على بركة الفيل برسم ولده المقر الناصرى ، وكان يظن أن ولده يسكن بعده فيه ويستمر مقيما بمصر فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفيه أفرج السلطان عن علاء الدين الحنفى نقيب قاضى القضاة الشافعى ، وكان قاسى شدائد ومحنا ، وأقام فى الترسيم مدة طويلة ، وغرم جملة من المال .

وفيه رسم السلطان بقلع عينى شخص يقال له على بن محمد المرجوشى ، وقطع لسانه أيضا . وسبب ذلك أنه أوحى الى السلطان بأنه يعرف علم صنعة الكيمياء ، فانصاع له السلطان حتى أتلف عليه جملة مال له صورة ، ولم يستفد من ذلك شيئا . وفعل نظير ذلك بالأمير تمراز الشمسى أمير سلاح فأتلف عليه جملة مال ولم يستفد من هذا شيئا . فحنق منه السلطان وفعل به ما فعل .

وفيه خرج الأمير أقبردى الدوادار مسافرا الى جهة نابلس ، وحصل منه غاية الضرر للناس ، من ذلك أنه أخذ جمال السقائين لحمل سنيحه حتى عز وجود الماء وغلا سعر الراوية بسبب ذلك وضاق الأمر .

وفيه خلع السلطان على الطواشى فيروز وقرره فى الزمامية عوضا عن الصاحب خشقدم بحكم نفيه الى قوص .

وفيه جاءت الأخبار بموت أقبردى ططر الظاهرى جقمق أحد العشراوات وشاد الشون ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأخذ قلعة كوارة من يد عسكر ابن عثمان فسر السلطان بذلك . ثم بعد مدة وردت عليه الأخبار بأن العسكر قلق وهو طالب المجىء الى مصر . فتنكد السلطان لذلك ، وأرسل عدة مراسيم للأمراء بالاقامة فما سمعوا له شيئا . ثم جاءت الأخبار بأن أزبك أمير كبير قد دخل الى الشام هو والأمراء والنواب والعسكر قاصدين الدخول الى القاهرة من غير اذن . وقد جاءوا طالبين وقوع فتنة وصرحوا بذلك . ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى قدم من التجريدة يصعد الى القلعة ، فامتنع المماليك من ذلك ولم يصعدوا الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الفرنج قد استولوا على مدينة غرناطة ، وهى دار ملك الأندلس ، ووقع بسبب ذلك أمور شتى يطول شرحها ، وقتل من عساكر الغرب والفرنج مقتلة عظيمة ، ثم بعد ذلك وقع الصلح بين أهل غرناطة والفرنج . وقرر للفرنج فى كل سنة شىء من المال يوردونه لهم .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية محيى الدين ابن تقى وهو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن على ابن تقى الدميرى المالكى . وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية رئيسا حشما ، وناب فى الحكم مدة

وكان لا بأس به ، وأخـذ العلم عن جماعة من الأقدمين كالبساطى والشيخ عبادة والشيخ طاهر وغير ذلك من المشايخ .

وفى السنة المذكورة كانت وفاة الشيخ الصالح المعتقد سيدى أحمد بن عقبة اليمنى وكان من كبار أولياء الله تعالى . وتوفى القاضى فتح الدين محمد السوهاجى وكان من اعيان نواب الشافعية ، وتوفى زين الدين الطوخى الخالدى وكان من الفضلاء وله نظم جيد .

سنة ست وتسعين وثمانمائة (١٤٩٠ م) :

فيها ، فى مستهل المحرم ، كان دخول أزبك أمير كبير ومن معه من الأمراء والعسكر ، ودخلوا الى القاهرة فى موكب حافل ، وكان لهم يوم مشهود . فلما طلعوا الى القلعـة خلع السلطان على أزبك أمير كبير وعلى بقية الأمراء ، ونزلوا الى دورهم وهذه آخر تجاريد أزبك أمير كبير الى البـلاد الحلبية .

وفيه قرر السلطان كرتباى ابن أخته فى شادية الشراب خاناه ، وقرر مملوكه جان بلاط بن يشبك فى تجارة المماليك .

وفيه أشيع بين الناس أن المماليك يقصـدون اثاره فتنه ويرومون نهبه على جارى العـادة ، فأقسم السـلطان بالله العظيم أنهم ان طلبوا نفقة يتوجه تحت الليل الى مكة المشرفة ويقيم بها

وفيه توفى قاضى القضـاة المالكية كان ، وهو ابراهيم بن عمر بن محمد بن موسى بن جبيـل اللقانى المالكى الأزهرى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهبه دينا خيرا رئيسا حشما مات وهو منفصل عن القضاء ، وكان محمود السيرة فى أفعاله .

وفيه توفى الشيخ سنان الأونجانى الحنفى وهو يوسف بن موسى بن سعد الدين ، وكان قرر فى مشيخـة تربة الأمير يشبـك الدوادار وكان من أعيان الناس الحنفية .

وفيه توفى الشيـخ زين الدين عبد الرحمـن الشنتناوى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ حافظ العجمى المقرى وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على أربعة من خاصكيتـه بأمريات عشرة منهم برد بك بن بير على الذى كان بقى مقدم ألف وخرج الى مكة المشرفة بعد كائنة أقبردى الدوادار ، وأمّر أيضا قيت الرجبى الذى تولى الأتابكية فيما بعد ، وأمّر أيضـا مصرباى الذى تولى الدوادارية الكبرى فيما بعد ، وأمّر أيضا كسشبغاى الذى تولى نيـابة الاسـكندرية ومات بها .

* * *

وفى صفر أنعم السلطان على جانم الذى كان نائب قلعة حلب بتقدمة ألف ، وقد تعينت له قبل أن يحضر الى القاهرة ، فأقام جانم فى هذه التقدمة نحوا من سنة ومات بالطاعون فى السنة الآتية .

وفيه قدم الشهابى أحمد بن فرفور من دمشق وأشيع عنه بين الناس أنه جاء يسعى فى كتابة السر ، فما وافق السلطان على ذلك . فأقام فى مصر مدة ثم عاد الى دمشق .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية فقطع فى ذلك اليوم عدة جوامك من جماعة الجند نحوا من ثمانين انسانا من الشيوخ والعواجز والضعفاء ،

فكثر عليه الدعاء من الناس فى ذلك اليوم بسبب ذلك .

* * *

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الشيخ عبد الغنى بن تقى وقرره فى قضاء المالكيه عوضا عن أخيه محيى الدين بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان للأتابكى أزبك بأن يتوجه الى شبرمنت بنواحى الجيزة بسبب عمارة القناطر التى هناك ، فصرف عليها السلطان نحوا من خمسة آلاف دينار بسبب ترميمها ، فجاءت من أحسن البناء . وبنى هناك رصيفا به نفع للمسافرين فى أيام النيل ، وبنى هناك لنفسه منظرة وغيطا على بركة هناك ، فجاء ذلك غاية فى الحسن من أجل المتنزهات وهو باق الى الآن .

وفيه من الحوادث المهولة أنه فى أثناء الشهر المذكور توجه السلطان الى قبة يشبك الدوادار كان ، التى هى فى رأس دور الحسينية فجلس هناك وأرسل خلف القضاة الأربعة فحضر القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، والقاضى الحنفى ناصر الدين بن الأخميمى ، والقاضى المالكى عبد الغنى بن تقى ، والقاضى الحنبلى بدر الدين محمد السعدى . فلما تكامل المجلس شرع السلطان فى التكلم معهم فذكر لهم أن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحلبيه قد فسدت وآلت الى الخراب ، وأن التجار منعوا ما كان يجلب الى مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون منى نفقه ، وان لم أنفق عليهم شيئا نهبوا مصر والقاهرة ، وحرقوا البيوت ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان الى البلاد الحلبية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم ... ثم شرع يقسم بالله تعالى أنه ما بقى فى الخزائن شىء من المال لا كثير ولا قليل . والقصد أن أفرض على الأوقاف والأملاك التى بمصر والقاهرة من أماكن وغيطان وحمامات وطواحين وأفراز ومراكب وغير ذلك أجرة سنة كاملة أستعين بها على خروج التجريدة . فسكت المجلس ساعة . ثم قال القاضى الشافعى « لعل الله تعالى يكفيكم مؤنة ذلك » . وقال القاضى المالكى : « ان أجرة سنة كاملة تثقل على الناس ولا يطيقون ذلك ، فان كان ولا بد من ذلك فلنفرض عليهم أجرة خمسة أشهر . وقبل ذلك فرض عليهم أجرة شهرين ، فهذه سبعة أشهر وما يطيق الناس أكثر من ذلك » . فتوقف السلطان ، ثم آل الأمر الى ما قاله قاضى القضاة المالكى ، وانفض المجلس على ذلك . فلما بلغ الناس ما وقع ، اضطربت الأحوال وكثر القال والقيل فى ذلك ، وأشيع عن السلطان أنه يفرض على الجماجم من كل ذكر وأنثى من كبير وصغير على كل راس دينارين ذهبا ، وتكلموا من هذا النمط بأشياء كثيرة . ثم بعد أيام رسم السلطان لتغرى بردى الاستادار بأن يكون متكلما فى جباية الاملاك من باب زويله الى دير الطين . ورسم لابن الصابونى ناظر الخاص بأن يكون متكلما فى جباية الأملاك من باب زويلة الى خارج الحسينية . فعند ذلك اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، وتوجهت الرسل الغلاظ الشداد ، ولم يراعوا الوداد ، وأكثر الناس صاروا رسلا . وطلبوا أعيان الناس ، وانقطع الرجاء باليأس ، وصار الانسان يخرج من داره فيرى أربعة من الرسل فى انتظاره . فيكون نهاره أغبر . ويخرج وهو فى أذياله يتعثر ، فيقدحون فيه الزناد ، ولا يرى له من اعتماد ، وقد قال بعض الموالة فى هذا المعنى :

عرمت شهرين عن أجرة مكانى أمس
وأصبحت مغموس فى بحر المغارم غمس

رب الخـلايق والقمر والشمس
ما طقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس

ند جرى فى هــذه الواقعة أمور عجيبــة ،
بات غريبة ، فمن ذلك أن بعض الرسل توجه
لحسينيــة ، فأتى امرأة ســاكنة فى حوش
ـد عندها شيئا من متاع الدنيا ، فطالبها ذلك
ـ بأجرة الحوش الذى هى ســاكنة فيه ،
مليها من الأجرة عشرون نصفا عن مدة خمسة
، فلم تجد شيئا تعطيه للرسول فأغلظ عليها
ز منه الحد . فلما رأت منه ذلك وكان عندها
رة نبق فى الحوش ، فقــالت له اقطع هذه
ـرة وبعها وخذ ثمنها فى نظير ما جاء على ...
ر القطاعين وقطع تلك السدرة وحملها ومضى.
حصل للمرأة غاية الضرر لقطع شجرتها التى
تستظل تحتها فى أيام الصيف . وكانت هذه
نة من أشــنع الحوادث فى دولة قايتباى .
ه صرف هذا المال فى شىء عاد نفعــه على
، ولكن صرفه فى غير مستحقه وراح فى
، ولم ينتفع به كما سيأتى ذكر ذلك .

يه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

يه كانت مصادرة المهتار رمضان ، فضيق عليه
لان حتى أخذ منه ستين ألف دينار ، وقيل
من ذلك . وكان المهتار متحصله فى كل يوم
الأربعين دينارا خارجا عن جهاته وحماياته ،
ذلك . وكان متحدثا فى نظر الكسوة وغير
من الجهــات السلطانية ، ورأى من العــز
لمة ما لم يره غيره من المهاترة السلطانية .

* * *

، ربيع الآخر ثارت المماليك الجلبــان على
لمان ، فطلبوا منه نفقة بسبب هــذه النصرة
وقعت لهم . فلما رأى منهم عين الجد أنفق
م على العادة ، كما تقدم شرح ذلك .

وفيه عين السلطان قرقماش أمير أخــور تانى ليتوجه الى دمشق بسبب جباية أملاك دمشق عن خمسة أشهر ، كما وقع بمصر . وعين قاصدا أيضا الى ثغر الاسكندرية ودمياط ، وكانت هذه المصيبة عامة على الناس ، حتى أخذ من أوقاف البيمارستان خمسة أشهر ، واقتطع معلوم الأيتام الضعفاء فى رواتبهم مدة خمسة أشهر ، وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمدارس والترب . وقطع معلوم الصوفية والصدقات الجارية . فلما توجه قرقماس المذكور الى دمشق أظهر بهــا من المظالم أشياء كثيرة لم يفعلها هناد فى زمانه .وقرقماس هذا هو الذى تولى نيابة حلب فيما بعــد ، وقبض عليــه طومان باى الدوادار لما خرج الى الشام بسبب عصيان قصروه نائب الشام . فسجن قرقماس هذا بقلعة دمشق ثم عاد الى مصر ، وقد تولى الأتابكية .

* * *

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على تانى بك الجمالى وقرره فى امرية مجلس عوضا عن برسباى قرا المحمدى بحكم وفاته فى حلب . وكانت امرية مجلس شاغرة مدة طويلة . وكان تانى بك الجمالى متكلما فيها بغير تقرير .

وفيه انتهت عمارة ابن الجيعان أبو البقاء من تجديد ما عمره فى الزاوية الحمراء التى عند قناطر الأوز ، وصارت من جملة متفرجات القاهرة . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

عجبت لجامع قــد زاد حسنا
وأبدع فى التزخرف والبنــاء
به الأنهار تجرى فى جنــان
وقصر شــاهق لأبى البقــاء

وصنع هنــاك جامعا بخطبة وجاء من أحسن البناء .

وفيه انفصل على باى عن نيابة ثغر الأسكندرية وأتى الى مصر معزولا .

وفيه قدم اقبردى الدوادار وكان مسافرا الى جهة نابلس فأهلك الحرث والنسل فى هذه السفرة وحضر صحبته أركماس بن ولى الدين دوادار السلطان بدمشق ، وقد كثرت فيه الشكاوى فاستجار بالأمير أقبردى وحضر صحبته .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الكرك بأنه ظهر بها فى قبيلة بنى لام رجل من بنى آدم ذقنه قدر غربال القمح ، وكان يأكل اللحم النى بعظمه ، ويأكل الجيف من على الكيمان ، وربما افترس من بنى آدم جماعة ، وكان يفترس البقر والغنم ، وكانوا يخرجون اليه جماعة من بنى لام ويرمونه بالنشاب ، فلا يؤثر ذلك فيه ولو ضربوه بالسيوف وكان اذا صرخ تسقط منه الحوامل . فلما قوى تسلطه على ذلك المكان رحل عنه بنو لام وتركوه له . وقد أعيا الناس أمره ... وهذه الواقعة مشهورة بين الناس ، وقد وصل مطالعة الى السلطان بمعنى ذلك .

وفيه أرسل السلطان مراسيم الى نائب الشام بأن يجمع أعيان التجار بها ومساتير الناس ، ويفرض عليهم الأموال الجزيلة كل واحد على قدر مقامه مساعدة للسلطان على خروج التجريدة ، كما فعل بمصر . وكتب بمعنى ذلك مراسيم الى الاسكندرية ودمياط . وأشيع بين الناس أن السلطان يخرج هذه المرة بنفسه . وقد قويت الاشاعات بذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفة وماجت الناس ، ثم سكنت بعد أن ماجت منها الأرض بعد المغرب .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند ابن عثمان ، صحبة ماماى الخاصكى ، الذى تو[...] قبل تاريخه الى ابن عثمان . وكان هذا القاص[...] الذى حضر من أجل قضاة ابن عثمان . وكان متو[...] القضاء بمدينة بروسه ، وهو شخص من أهل العل[...] يقال له الشيخ على جلبى . فلما صعد الى القل[...] أكرمه السلطان وبالغ فى تعظيمه جدا ، وأحضر عل[...] يديه مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استو[...] عليها فسلمها الى السلطان . وأشيع أمر الص[...] فنزل القاصد فى مكان عد له وهو فى غاية الاكرا[...] ثم ان السلطان أطلق اسكندر بن ميخال الذى كا[...] أسر وسجن كما تقدم ، وأقام مدة طويلة ، فلم[...] أطلقه السلطان أحسن اليه وكساه ، وكذلك أطل[...] الأسراء الذين كانوا مأسورين من عسكر ا[...] عثمان وكساهم وأحسن اليهم . وتوجهوا ا[...] بلادهم صحبة القاصد لما سافر ... وهذا ما كان م[...] ملخص أمر الصلح بين السلطان وبين ابن عثمان

وفيه أمر السلطان بضرب أبى يزيد الصغير آ[...] البجمقدارية ، وكان من خواصه ، ولكن ضربه لأ[...] أوجب ذلك . وأبو يزيد هذا هو الذى صار رأ[...] نوبة ثانى فيما بعد ، وقبض عليه العادل طومان با[...] وسجنه بقلعة دمشق لما توجه الى هناك وتسلطن

وفيه كسفت الشمس كسوفا تاما ودامت الكسوف نحوا من ثلاثين درجة وعاودت الزلز[...] التى كانت بالأمس وكانت خفيفة جدا .

* * *

وفى رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالش[...] وحضر قاصد ابن عثمان فعرض السلطان فى ذ[...] اليوم كسوة الكعبة ومقام ابراهيم عليه السلام وزفه معهما المحمل الشريف ، وكان يوما مشهود[...]

وفيه توفى بركات الصالحى وكيل بيت الم[...] وكان من أعيان الموقعين ، وهو بركات محمد محمد بن أبى بكر القاهرى الشافعى الصالحى ، وكـ[...]

غير محمود السيرة فى أفعاله كثير الظلم والعسف . ومولده سنة احدى وثمانمائة . وكان اعتراه آكلة فى رجله فاستمر بها الى أن مات . وفيه يقول بعض الشعراء مداعبة لطيفة :

بركات زاد الظلم فى أيامه
وعلى الورى قد جار فى توكله

وبرجله كان الهلاك بعاهة
فمشى الى نار الجحيم برجله

وهو الذى كان سببا لايقاف جماعة قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، واستمر الشيخ برهان الدين القلقشندى فى التوكل به حتى مات بركات الصالحى ، فأفرج عنه بعد أن غرم أموالا لها صورة .

وفيه كان انتهاء العمل من جامع السلطان الذى أنشأه بالروضة وجاء فى غاية الحسن ، وكان البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ، ويسمونها البدرية وينصب على شاطىء البحر قدام الجامع من الخيام ما لا يحصى ، وتجتمع المراكب هناك حتى تسد البحر ، ويجتمع الجم الغفير من العالم ويوقد بالجامع وقدة عظيمة . ويحضر هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ ، وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم . واستمر الحال على ذلك مدة ثم بطل هذا الأمر .

وفيه أشيع بين الناس أن الشيخ جلال الدين الأسيوطى أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة . لأن الاجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية . وأما ذكر أن ذلك يجوز فى مذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ورحمه فباطل وليس له صحة فى كتب الشافعية قاطبة .

وفيه خرج جان بلاط بن يشبك قاصدا من عند السلطان الى ابن عثمان ، فخرج فى تجمل زائد وموكب حافل . وجان بلاط هذا هو الذى تولى السلطنة فيما بعد بعشر سنين .

* * *

وفى شعبان قرر السلطان كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر فى حجوبية الحجاب بطرابلس ، ونظر جيشها وغير ذلك من الوظائف بها .

وفيه ظهرت أعجوبة ، وهى انه ولد مولود لستة أشهر ، فلما نظروا اليه وجدوا فى وجهه لحية وعلى فمه شارب ، وقد دارت لحيته فى وجهه ، وفى فمه أسنان مفلجة وكان عليه بشاعة ، فعاش ثلاثة أيام ومات .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على يشبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة وصار مقدم ألف ، وقرره فى نيابة حماه عوضا عن اينال الخسيف فى تقدمة ألف بمصر فيما بعد .

وفيه تغير خاطر السلطان على أزدمر المسرطن أحد مقدمى الألوف بمصر وقرره فى نيابة صفد عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته عنها . وكان أزدمر هذا من خواص السلطان ، وكان عنده من المقربين وكان أغات أقبردى الدوادار ، ثم وقع بينه وبين السلطان فى الباطن ، فمقته وولاه نيابة صفد عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته ، واستمر بها الى أن مات .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية فى سائر البضائع حتى بيع كل ثلاثة أرادب فسح بدينار ، ورخص سائر الغلال جدا .

* * *

وفى شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل المبارك فأخر السلطان فتح السد فى ذلك اليوم ، وفتح فى اليوم الثانى من شوال . ووافق ذلك خامس عشر مسرى القبطى فصار العيد عيدين ، فعد

لثة من النوادر . وفى هذه الواقعة يقول شيخنا
جلال الدين الأسيوطى هذه الأبيات :

يوم عيد الفطر وافى بهنـاء وسعـاده
ختم الصوم وأوفى النيل فى أحسن عاده
يا له من يوم عيـد فيه حسنى وزياده

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب
المحمل الأمير أزدمر تمساح .

* * *

وفى ذى القعدة توفى تقى الدين بن نصر الله
وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوقوع فتنة كبيرة
بين نائب حلب وبين جماعة من أهلها ، وقتل فى
هذه المعركة من مماليك أزدمر نائب حلب سبعة
عشر مملوكا ، وقتل من أهل حلب نحو من خمسين
انسانا ، وأحرقوا جماعة من حاشية النائب بالنار ،
وكادت حلب أن تخرب عن آخرها ، ولولا أن
قانصوه الغورى حاجب الحجاب بحلب قام فى
اخماد هذه الفتنة حتى سكنت ما كان يحصل خير
فى هذه الحركة . فلما سمع السلطان بذلك تنكد
جدا ، وعين ماماى الخاصكى بأن يتوجه الى حلب
ليكشف عن هذه الفتنة ، وأخذ فى أسباب السفر
الى حلب .

* * *

وفى ذى الحجة كان ابتداء الفتنة بين قانصوه
خمسمائة أمير أخور كبير ، وبين أقبردى الدوادار
وقد وقع بينهما بسبب نوتى واستمرت الفتن تتزايد
بينهما حتى كان من أمرهما ما سنذكره فى موضعه .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع
فتنة كبيرة بين ملوك الشرق ، وأن يعقوب بن
حسن الطويل قد قتل أخاه ، ووقع أيضا فتنة بين
خليل الصوفى وسليمان ماجان ، واستمرت الفتن
قائمة هناك فى جهات متعددة ، ووقعت أيضا فتنة
كبيرة فى طرابلس الغرب ، وقتل شماسى بن أبى
النصر بن رجاء الخير قائد طرابلس ، وكان من
خيار أعيان بلاد الغرب .

سنه سبع وتسعين وثمانمائة (١٤٩١ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان دخول المحمل الى القاهرة
وحجت فى تلك السنة زوجة أقبردى الدوادار ،
وهى بنت العلائى على بن خاص بك أخت خوند
زوجة السلطان قايتباى ، وكان طريق الحجاز فى
تلك السنة مخوفا بسبب فساد العربان .

وفيه تغير خاطر السلطان على مجد الدين
اسماعيل الناصرى ، قاضى قضاة الحنفية بدمشق ،
فلما أحضر ضرب بين يديه ضربا مؤلما ، وقيل بل
ضرب بالمقارع نحوا من عشرين شيبيا .

* * *

وفى صفر توفى نور الدين على بن محمد بن
عبد المؤمن اليتنونى الشافعى ناظر الجوالى ، وكان
رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفى يشبك حبيب بن ططخ الظاهرى
جقمق أحد الأمراء الطبلخانات رأس نوبة كبير ،
وكان لا بأس به ، وقد جاوز السبعين سنة من
العمر .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى
على العادة وكان حافلا .

وفيه قرر الناصرى محمد بن جرباش فى مشيخة
المدرسة الظاهرية التى بين القصرين .

وفيه توفى تاج الدين بن الجيعان ، وهو عبد
اللطيف بن عبد الغنى بن علم الدين شاكر ، وكان
متحدثا فى كتابة السر ، وكان شابا حسنا محمود
السيرة فى أفعاله . مات وهو فى عشر الثلاثين .

وفيه توفى أبو يزيد قصيعا الظاهـرى جقمق وكان من الأمراء العشراوات .

* * *

وفى ربيع الآخر تزايدت الأقوال بوقوع الطاعون حتى حكى أن شخصا من الأتراك رأى فى منـامه ملك الموت عليه السلام ، فقال له : « من أنت ؟ » قال : « أنا ملك الموت جئت الى أخذ أرواح الكثير من الناس ، فان الطاعون قد دخـل الى مصر » . فقال له ذلك الجندى : « فهل تقبض روحى فى هـذا الوباء ؟ » فقال له : « قـد بقى من عمرك سبعة أيام » .

فانتبه الجندى من المنام وهـو مرعوب . فلما أصبح كتب وصية ، ثم انه فى اليوم السابع مات كما رأى . فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفيـه جاءت الأخبـار بأن مملكة حسن بك الطويل فى اضطراب ، وأن ابن عثمان قد أشرف على أخذ بلاد حسن الطويل من يد أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريدة صحبة حسـين بن أعزلو بن حسن الطـويل الذى كان مقيما بالقاهرة . ثم آل الأمر الى اهمـال خروج التجريدة . ومات حسين فيما بعد لما حج ، ودفن بالمدينة الشريفة .

* * *

وفى جمادى الأولى قويت الاشاعات بوقوع الطاعون ، وزعموا أن انسانا رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال له : « ان الطاعون كان واقعا عليكم ، فشفعت فيكم ، عنـد ربى ، وقل للناس يصومون سبعة أيام متوالية » فصار الكثير من الناس يصوم سبعة أيام متوالية فلم يفد ذلك شيئا ، ووقع الطـاعون بالديار المصرية . وكان طاعونا مهولا « قلت » ولم يقع الطاعون بمصر من سنة احـدى وثمانين وثمانمائة الا فى هـذه السنة . وقد غاب الطاعون ست عشرة سـنة لم يدخل مصر ، وكان هـذا الطاعون من الطواعين المشهورة بموجب أبطائه هذه المدة ، وهو الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى وكان مبدأ هذا الطاعون من حلب ، وكان فى مدة انقطاعه عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمـر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا الا اخذوا بالفناء » . قال العلامة شهاب الدين بن حجر : والحكمة فى ذلك أن الزنا حده ازهاق الروح فى المحصن ، فاذا لم يقم فيه الحد يسلط الله عليهم الجن فيقتلونهم . ولما كان الزنا يقع من بنى آدم سرا سلط الله عليهم الجن يقتلونهم سرا من حيث لايرونهم . وقاعدة العـذاب أنه اذا نزل يعم المستحق له وغيره ... والرحمة لا تكون الا مخصوصة . ثم يوم القيامة يبعثون على قدر نياتهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « اذا بخس المكيال حبس القطر ، واذا كثر الزنا وقع الطاعون ، واذا كثر الـكذب وقع الهرج » .

* * *

وفى جماى الآخرة هجم الطاعون بالقـاهرة ، وفشا جملة واحدة ، وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، وكانت قوة عمله فى المماليك والعبيد والجوارى والأطفال والغرباء ، ووقع فى هذا الطاعون أمور غريبة وحكايات عجيبة . منها أن الكمثرى يبعت كل رطل بأشرفيين ولا توجد ، ويبعت الواحـدة منها باثنى عشر نصفا . ومنها أن انسانا كان معه خمسة أولاد فطعن الخمسة فى يوم واحد وماتوا فى يوم واحد . ومن العجـائب أن جماعة كثيرة فروا من الطاعون لما دخل الى مصر ، فتوجهوا الى أماكن عديدة ، فلما ارتفع الطـاعون عادوا الى مصر ، ولم يفقد منهم ولا من أولادهم أحـد ، فسبحان القادر على كل شىء . ولما كثر الموت عز

وجود البعلبكى ، وأضر ذلك بحال الناس ، وكفنوا موتاهم فى الخام والملحم ، وغير ذلك .

وفيه توفى برسباى الخازندار أحد خواص السلطان والمتكلم على أوقافه ، وكان شابا رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفى مغلباى الشريفى ابن الطويل ، وكان لا بأس به ، وهو أحد مقدمى الألوف ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفيه توفى جانم بن مصطفى الذى كان نائب قلعة حلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر .

وفيه توفى قيت الساقى أحد العشراوات ووالى القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى مغلباى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وأصله من مماليك قايتباى .

وفيه توفيت بنت أزبك الأمير الكبير زوجة الأمير قانصوه خمسمائة أمير أخور كبير ، وكانت شابة جميلة .

وفيه توفيت أختها بعدها بأيام وكانت بكرا .

وفيه توفى نامق المؤيدى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

* * *

وفى رجب توفيت بنت السلطان قايتباى وكانت تسمى ست الجراكسة ، وكانت شابة جميلة مستحقة للزواج ، وكانت من سريته ، فماتت هى وأمها فى يوم واحد ، وأخرجت قدام نعش ابنتها ، وكانت جنازة بنت السلطان حافلة ، وأخرجت فى بشخانه زركش وقدامها كفارة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بتقدمة ألف ، وبعث اليه بالبلب . وجان بلاط هذا هو الذى تسلطن فيما بعد . وأنعم أيضا على مملوكه شاد بك بن مصطفى الخوخ الدوادار الثانى بتقدمة ألف ، ثم حضر جانم المعروف بالمصبغة من الشام الى مصر ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بمصر ، وأنعم على كرتباى قريبه بتقدمة ألف ، وقرر ماماى الخاصكى فى الدوادارية الثانية عوضا عن شادبك الخوخ بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر قيت الرجبى فى ولاية القاهرة عوضا عن قيت الساقى بحكم وفاته بالطاعون .

وفيه كانت وفاة الشاب الفاضل على باى بن برقوق نائب الشام ، وكان شابا رئيسا حشما دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان له نظم جيد . ومولده سنة ست وستين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق قوله :

عود خيار شنبر قد جاءنا بالعجب
أزهاره أبدت لنا شمارخا من ذهب

ومما مدحه به المنصورى قوله :

محيا على باى بن برقوق مشرق
كطرة وسنى ليس بينهما فرق
فان يك سباقا الى الفضل والندى
فلا تعجبوا منه فوالده برقو . (ق)

ومن النكت اللطيفة ، قيل وقع بين الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرى وبين سيدى على باى هذا بعض وحشة ، فسطا على سيدى على باى وسماه زلابية مضافا الى اسم شخص من الأتراك كان مضحكا تعبث به الناس ، ويقولون له زلابية فيرجمهم ، فلما أشيع ذلك بين الناس أخذ بعض شعراء العصر هذا المعنى وعمل فى ذلك مداعبة ، وقال :

قد شبهوه بمن يدعى زلابية
وصح تشبيههم والأب برقوق
لكنهم فاتهم فى الوز نسبته
فان اسم أبيه نصفه فوق

* * *

وفيه توفى جكم كاشف منف ، وشادبك كاشف قليوب ، ومن الخشقدمية جماعة كثيرة منهم : قان بردى الظريف ، وكسباى المحمدى ، واقباى الطويل ، وقانصوه قمر ، واينال الأشقر ، وغير ذلك جماعة كثيرة من مماليك السلطان والأمراء . ومات من العبيد والجوارى والأطفال والغرباء ما لا يحصى عددهم ... وفى أواخر الشهر المذكور تناقص أمر الطاعون وخف بالنسبة لما كان عليه بعد ما جرف الناس جرفا وأخلى الدور من أهلها . وقيل أحصى من مات فى هذا الطاعون بمصر ، وورد اسمه لديوان المواريث خارجا عن الغرباء ومن لم يرد اسمه الى الديوان ، فكانوا زيادة عن مائتى ألف ، فمن ذلك بنات بكر اثنا عشر ألف بنت من مصر والقاهرة والضواحى . وقد قال القائل فى المعنى :

زالت محاسن مصر فى عينى من هم ودهش
كادت بنو نعش بهـا أن يلحقوا ببنات نعش

وقال الشيخ بدر الدين الزيتونى العوفى هذا الزجل يرثى به أهل مصر لما وقع الطاعون بهـا وهو :

وحــد ومن قد حكم بالمــوت
ونفــد حكمــه بمـا يختــار
واحتجب عن العيون سبحان
جــل من لا تدركو الأبصــار

* * *

بالمــات رب البشر لمـا
قد حــكم فى الكاينات باجمع
اختفوا فى ذا الوجود وأضحوا
ما لهم من ذا القضـا مدفع
جا أخــذ منهـم ملاح كانوا
شــبه أقمـار البدور طلـع

* * *

فاندبوا ياأهــل الحمى وابكوا
واجعــلوا دمع العيون مدران
واحزنوا عــلى الــذين ماتوا
واختفــوا عن أعــين النظـار

* * *

كنت أجــد أقمــار بدور طلع
وشموس تشرق عــلى الأطلال
حســنهم ســما وقد كانــوا
فى هنــا بالجــاه وكتر المــال
جا الممــات سرعــه وعــاندهم
اختفوا حين عاينــوا الأهــوال

* * *

وبقــوا تحت الثرى غيــاب
بعــد ما كانوا يروا أجهــار
يا أســف قلبى وطول حــزنى
عنى قد غابت شموس واقمـار

* * *

حين أتى كأس الممات للنـاس
وبــقى ما بينهــم دايــر
وســقاهم فى القسـام شربه
حتى صار فى سرهم ســاير
أصــبحوا فى حضرتو غيـاب
بعــد ما كان كل أحــد حاضر

* * *

سكروا فى حضرة الســاقى
لمـا كاس المــوت عليهم دار
وبقــوا نــدمان وقــد غابوا
من شراب ما هو خمر خمــار

* * *

ركب الطــاعون وقــد طــلب
وحــل فى عســكر الأطفـال

كم جرح قلوب وكم أفنى
من جموع لما عليهم مال
كم ترك مطعون بقى مطروح
كم كسر شجعان وكم أبطال
* * *
كم رأيت مقتول بذى الوقعة
بعد كسرو ما يجد اجبار
والقضا فرّق جموع الناس
كنْ كان فى أيدى القضا بتار
* * *
كم رأيت ملسوع بسم الموت
قد لسع ولا يجد ترياق
كم رأيت منصاب من افعالو
جت اليه آفة بلا تساق
كم رأيت ثكلى وهى حية
شعرها ناشر من الأشواق
* * *
كم رأيت فارس بقى ملقى
بعد ما كان فى الوجود سيار
كم رأيت من دار خلاها الموت
ما ترك فيها ولا ديار
* * *
يا فهيم انظر لذى الدنيا
كيف بقت تحكى لنا بستان
والبشر قد اصبحوا فيها
كأنهم أثمار على الأغصان
ومليك الموت بأمر الله
قد بقى فيها شبيه جنان
* * *
كلما انتهى الى واحد
وبلغ حدو الى المقدار
جا اليه بأمر الذى أنشاه
قطعوا من بين دى الأثمار
* * *
نسألك يا رب يا رحمن
يا الله يا أول ويا آخر
يا لطيف بالخلق يا حافظ
يا عليم بالذنب يا غافر
يا بصير يا فرد يا واحد
يا سميع يا حق يا قادر
* * *
ارفع الطاعون بجاه أحمد
المجد صاحب الأنوار
وانزل الرحمة ومتعنا
بالرضا والعفو يا ستار
* * *
وأنا العوفى ولى أزجال
من نظام تحكى عقود جوهر
كلما كررتها تحلو
ما أحسن السكر اذا تكرر
فاسمعوا لى ما أقول واصغوا
يا جميع من حل دا المحضر
* * *
وحدوا من قد حكم بالموت
ونفذ حكمه بما يختار
واحتجب عن العيون سبحان
جل من لا تدركو الأبصار
* * *

وفى شعبان ارتفع الطاعون عن مصر والقاهرة جملة واحدة ومشى نحو بلاد الصعيد .

وفيه توفى الشيخ شمس الدين الحمصانى محمد بن أبى بكر بن محمد القاهرى الشافعى الكاتب المجيد ، وكان عالما فاضلا عارفا بالقراءات

السبع . وكان امام جامع ابن طولون ، وكان خيرا دينا لا بأس به ، ومولده سنة عشر وثمانمائة .

وفيه توفى محمد العجمى الذى كان مقيما بجامع كراى وكان من أولياء الله تعالى مشهورا بالصلاح .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفنش صاحب قشتيلة الفرنجى قد ملك غرناطة التى هى دار مملكة الأندلس وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع المهوله فى الاسلام .

* * *

وفى رمضان قرر ناصر الدين محمد الصفدى فى وكالة بيت المال وحصل منه الظلم والعسف فى النـــاس .

وفيه ثارت فتنة بين المماليك الجلبان بسبب تفرقة الأقاطيع التى توفرت عن المماليك الذين ماتوا بالطاعون .

* * *

وفى شوال خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى أمير مجلس ، وبالأول كرتباى قريب السلطان .

وفيه تغير خاطر السلطان على الصاحب قاسم فعزله ، وكان يومئذ ناظر الدولة ، فلما صرف عنها قرر بها عبد القادر الطويل عوضا عن قاسم شغيته .

* * *

وفى ذى القعدة ابتدأ السلطان بتفرقة الأقاطيع المتوفرة عمن مات بالطاعون فى الســنة المذكورة فصار يفرق أقطاع كل من توفى من الطباق لأهل طبقته ، ولا يخرج من ذلك شيئا لغير أهل طبقته . وكانت آغوات الأطباق والمماليك الجلبان يتراصون مع بعضهم بالنوبة ويحضرون ويعرضون ذلك على الســلطان فينعم لهم بذلك ، فمنهم من يكون طبقته فيها اقطاعات كثيرة متوفرة ، ومنهم من يكون فيها شىء قليل فتأخر من المماليك الجلبان جماعة بلا أقاطيع . وذلك الى آخر خرج المماليك فى السنة المذكورة سنة سبع فعرضهم السلطان فيما بعـد وأخرج لهـم أقاطيع كانت متوفرة فى الذخـيرة ، ففرقها على المماليــك الذين لم يخصهم شىء من الاقطاعات المتوفرة من الطاعون ... وصار الديوان يستدعيهم بأسمائهم ، والسلطان يعطيهم ، ويكتب حتى لم يبق من جلبان قايتباى أحـد بلا أقطاع الا الذين استجدوا من بعد الفصــــل ، وكانت الأقطاعات التى فرقت أكثـرها ثلاثون ألفا وأقلها خمسة عشر ألف درهم . والأقطاعات التى توفرت من جماعة المماليك الاينالية فرقها على خشداشينهم الاينالـيــة فوق اقطاعاتهم ، والتى توفـرت من الخشقدمية أعطاها لخشداشينهم من الخشقدمية . وأعطى لبعض خشداشينه وبعض أولاد الناس ممن كان منزلا بالديوان وهو بالطبقة ، أقطاعات خفيفة . واستمرت تفرقة الاقطاعات مدة ثلاثة أشهر .

وفيــه أمر السلطان بتجـديد عمارة الميـدان الناصرى ، وكان أزبك أمير كبير شادا على العمارة حتى انتهى منه العمل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ونزل أزبك أمير كبير وفتح السد على العادة .

وفيه اختفى تغرى بردى الاستادار وقد تغير خاطر الســلطان عليه . فلما طال اختفاؤه خلع السلطان على الأمير أقبردى الدوادار وقرره فى الاستادارية عوضا عن المذكور ، مضافا لما بيده .

وفيه فرق السلطان على جميع العســكر من القرانصة والجلبان وأعطى لكل واحد منهم فرسا

وديعة من موجود الذين ماتوا بالطاعون ، وذلك لأجل كثرة الخيول وقلة الغلمان لخدمتها .

* * *

وفى ذى الحجة جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة الخواجا شمس الدين بن الزمن ، وكان من مشاهير التجار فى سعة من المال ، وله بر معروف . وهو صاحب المدرسة التى ببولاق عند الرصيف ، وكان دينا خيرا وكان لا بأس به .

وفيه توفى شيخ جبل نابلس يونس بن اسماعيل وتوفى يوسف بن برد بك العجمى ، وكان شابا حسنا لا بأس به ، وتوفى على بن الجمجمة الذى كان مقيما بمصر واختتن مع ابن السلطان .

سنة ثمان وتسعين وثمانمائة (١٤٩٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، لم يحضر مبشر الحاج وصار الناس فى قلق بسبب ذلك ، وكان المبشر فى السنة المذكورة تانى بك الأبح أحد المماليك السلطانية ، فاعترضه بعض العربان فى أثناء الطريق ، وأعاقوه عندهم أياما .

وفيه توفى برهان الدين بن النعمان المحدث ، وكان انسانا حسنا لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بأنه نزل برد تحت الليل فكان قدر كل بردة مثل بيضة النعام ، ونزل بها بردة كبيرة فكانت زنتها خمسة وسبعين رطلا بالمصرى ، فقتل بسبب ذلك بهائم وطيور وغير ذلك ، وكان أمرا مهولا .

* * *

وفى صفر خرج الأمير أقبردى الدوادار الى جهة نابلس ، وخرجت تجريدة الى جهة البحيرة ، وكان الباش عليها الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النوب وعدة وافرة من الأمراء العشراوات والجند .

وفيه عاد الطاعون الى القاهرة ثانيا لكنه كان خفيفا بالنسبة لما قبل ذلك . ومات به جماعة من المماليك والأطفال ، ومن كان فر — قبل دخول الطاعون — من القاهرة فى السنة الماضية .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانى باى قرا الرماح بامرية عشرة ، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة قرره فى نيابة صهيون . وقد سعى فى ذلك بمال له صورة وقانى باى هذا هو الذى بقى أمير آخور كبير فيما بعد .

* * *

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على مملوكه أكسباى الشريفى بامرية عشرة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا على العادة وحضر القضاة الأربعة والأمراء .

* * *

وفى ربيع الآخر عين قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير فى امرية الحاج بركب المحمل ، وعين الناصرى محمد بن أزبك أمير كبير بالركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه فى ليلة تاسع عشر صفر سقطت صاعقة عظيمة فى المسجد الشريف ، فأحرقت منه جانبا وتساقطت فى تلك الليلة عدة صواعق خارج المدينة الشريفة ، فلما بلغ السلطان ذلك أمر باصلاح ما فسد من المسجد الشريف .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى بركات بن الظريف المقرى وكان علامة فى قراءات الرياسة بالجوق .

وفيه توفى الناصرى محمد بن برد بك ، وهو سبط الأشرف اينال ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكان مفرطا فى السمن جدا ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الخواجا عمر بن غازى وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الآخرة خسف جرم القمر جميعه .

وفيه توفى الشهابى أحمد بن برقوق نائب الشام ، وهو أخو سيدى على باى بن نائب الشام ، فكان بينه وبين موت أخيه دون السنة ، وكان شابا حسنا جميلا لم يلتح بعد .

* * *

وفى رجب ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان ووقفوا بالرميلة ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، وآل الأمر الى طلب نفقة من السلطان . فمشى بعض الأمراء بينهم وبين السلطان فى ذلك فوعدهم بالنفقة بعد مضى شهر ، فسكن الحال قليلا ، ولكن استمرت الدكاكين مغلقة ، وكذلك الأسواق ... حتى نودى لهم بعد أيام بالأمان والاطمئنان .

وفيه وصل قاصد من عند رستم بن قراملك صاحب العراقين ، وكان ملك العراقين بعد أمور يطول شرحها .

وفيه توفى القاضى نور الدين على بن قاسم أحد نواب الحكم الشريف المالكى وكان عالما فاضلا لا بأس به .

وفيه توفى صندل الحبشى نائب المقدم .

وفيه توفى برسباى أمير جندار وكان قد طعن فى السن .

* * *

وفى شعبان توفى شاد بك الأشقر المحمدى الظاهرى جقمق ، أحد الأمراء العشراوات ونائب ثغر دمياط وشاد الحجر ، وكان لا بأس به

وفيه عين السلطان قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أحد الأمراء العشراوات بأن يتوجه قاصدا من السلطان الى ملك الشرق رستم أحد أولاد حسن الطويل متولى العراقين . وقد جرى بينه وبين اخوته ما لا خير فيه . حتى تولى بعد أمور وقعت له ، فخرج قانصوه المذكور بعد أيام فى تجمل زائد .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهلها قد رجموا النائب قانصوه اليحياوى ، وقد ثارت بدمشق فتنة كبيرة .

* * *

وفى رمضان نودى بالصوم بعد ضحوة النهار ، وقد ثبت الهلال بعد طلوع الشمس بثلاثين درجة . وقد أكل غالب الناس فى ذلك اليوم ، ولا سيما العوام ، فثقل عليهم الامساك فى ذلك اليوم بعد الافطار .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة سودون الطويل الاينالى أحد الأمراء المقدمين بدمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة . فخلع على القضاة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على الفقهاء ، ووقع فى ذلك اليوم بحث بين البرهان الدميرى أحد نواب المالكية وبين بعض الطلبة ، فأنكروا على البرهان الدميرى بما أجاب به فى المسألة ، وكان الختم حافلا جدا .

* * *

وفى شوال كان وفاء النيل المبارك ووافق ذلك ثانى عشر مسرى القبطى ، وتوجه آزبك أمير كبير وفتح السد على العادة .

وفيه خرج الأمير قانصوه خمسمائة بركب المحمل ، والناصرى محمد بن آزبك أمير كبير بالركب الأول ، فكان لهما بالقاهرة يوم مشهود . وطلب الأمير قانصوه ذلك الطلب الذى تقدم ذكره فى التجريدة . ومن غريب الاتفاق أن النيل أوفى

وغالب الناس فى بركة الحاج مشغولون بالحجاج . فلما بلغ أزبك وفاء النيل حضر تحت الليل حتى فتح السد وعاد .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة الشيخ المحدث الواعظ برهان الدين ابراهيم بن الحموى رحمه الله ورضى عنه ، مات بطريق الحجاز قبل وصوله الى العقبة ودفن هناك . وكان عالما فاضلا محدثا بارعا فى الحديث ، وكان دينا خيرا من أهل الصلاح ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه خلع السلطان على داود بن سليمن من أولاد ابن عمر أمير عربان هوارة ، وقرره فى امرية الوجه القبلى ببلاد الصعيد .

* * *

وفى ذى الحجة توفى ابن العبيسى ناظر الأحباس وهو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن أحمد العبيسى الشافعى ، وكان رئيسا حشما محمود السيرة لا بأس به ، وتوفى السيد محمد الشريف القادرى أخو زين العابدين ، وكان لا بأس به .

سنة تسع وتسعين وثمانمائة (١٤٩٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، وصعد أيضا الشيخ جلال الدين الأسيوطى . فلما جلس سأله السلطان عن أى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشىء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه . وكان السلطان عنده كتاب يسمى حيرة الفقهاء ، ثم أجاب الشيخ جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كاف فى هذه المسألة بأنه قصد بذلك الأذان فانه سنه ولم يفعله ، والأصح أنه أذن فى وقت وورد فى ذلك حديث . وعمل فى هذه المسألة كراسا مطولا ، وذكر فيه أشياء كثيرة مما سنه النبى صلى الله عليه وسلم ولم يفعله .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من مماليكه بامريات عشرة ، منهم ماماى جوشن ومصرباى أخو مغلباى وبرسباى العلائى واسنباى الأصم وآخرون .

وفيه وصل الحجاج ولم يثنوا على قانصوه جميلا ولا حمدت سيرته فى هذه السفرة ، وحكوا عنه أمورا غير صالحة ، فانه رمى الناس وأخذ جمالهم ، وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر الملح فيما بعد . وشال له الحجاج راية سوداء وهم داخلون البركة . وما لاقى الحجاج فى السنة المذكورة خيرا . وكانت سنة صعبة على الناس من الغلاء ، وموت الجمال ، واستمر قانصوه خمسمائة فى عكس ، ولم ينجح أمره من بعد ذلك ، حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه توفى الشيخ جمال الدين يوسف بن جاهين الكركى سبط الحافظ ابن حجر القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان تغلبوا على الكرك والشوبك ، وحصل هناك فتن مهولة .

* * *

وفى صفر نزل ابن السلطان من القلعة فى موكب حافل وتوجه الى داره التى أنشأها له السلطان على بركة الفيل فأقام بها ساعة ثم عاد الى القلعة . وهذا أول ظهوره للناس ونزوله الى المدينة . وكان معه أقبردى الدوادار والجم الغفير من الجند . وكان نزوله سببا للانفاق على الجند لكل واحد منهم خمسون دينارا ، وسموها نفقة نزول ابن السلطان . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لكى يشاع ذلك بحضرته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر المسرطن نائب

صفد الظاهرى جقمق ، وكان من أعيان الأمراء جليلا سليم الفطرة ومات وهو فى عشر الستين .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة أزدمر نائب حلب قريب السلطان وكان انسانا حسنا لا بأس به . تولى عدة وظائف سنية ، منها نيـابة طرابلس ، نيابة صفد ونيابة حلب ، وامرية مجلس بمصر ، غير ذلك من الوظائف والنيابات ، ومات وهو فى عشر الستين . وكان فى أوائل عمره فى قلة وخمول ، أقام على ذلك دهرا طويلا . فلما تسلطن السلطان نايتباى ظهر أنه من قرابته ، فجاءت اليه السعادة بغتة فأقام فيها مدة ومات . وكان أصله من مماليك لظاهر جقمق ، وهو أزدمر بن مزيد . ثم بعد موته وسل السلطان خلعة الى اينـال السلحدار نائب طرابلس ، ونقله الى نيابة حلب عوضا عن قريبه زدمر بحكم وفاته . وكان اينال هـذا تولى نيابة صفد أيضـا بعد أزدمر المسرطن وقتل فى واقعة قبردى الدوادار لما سافر الى حلب .

* * *

وفى ربيع الأول توفيت خوند بنج زوجة الأمير زبك اليوسفى رأس نوبة كبير وكانت زوجة تنم لمؤيدى نائب الشام وكانت من مشاهير الخوندات هى والدة سـيدى فـرج الماضى ذكر وفاته ، كانت لا بأس بها ، وكانت تقرب للملك الظـاهر جقمق

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيـه توفى الشيخ أحمـد بن زروق المغربى المالكى وكان من أهل الصلاح والدين .

وفيه قبض السـلطان على بدر الدين الاينالى نائب جيش الشام فضربه بالمقارع بين يديه وأمر بقطع لسانه حتى شفع فيه بعض الأمراء فعوفى من ذلك ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ولكن خرج خلق السلطان فى ذلك اليوم جدا .

* * *

وفى ربيع الآخـر توفى القاضى تاج الدين ابن الامام وهو محمد بن أحمد بن محمد الامام ، وكان أحد نواب الحكم من الحنفية ، وكان غير مشكور فى قضائه وعنده خفة ورهج كما قال فيه الشهاب المنصورى :

قالوا علا التاج وهو فاض
فقلت ياضـيعة الحقـوق
غايتـــه أنه تويـج
ملقى على مفرق الطـريق

وفيه جاءت الأخبـار من ثغر الاسكندرية بأنه سقط بها ثلج حتى عم الأسطحة والشوارع مثل ثلج الشام ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه عين السـلطان أزدمر تمساح أمير حاج ركب المحمل ، وعين الناصرى محمد بن العلائى على ابن خاص بك أمير الركب الأول ، وعين يشـبك الأشقر باش المجاورين بمكة المشرفة .

وفيه عين السـلطان الأمير ماماى بن خـداد الدوادار الثانى بأن يتوجه رسولا الى ابن عثمان ، وقد توجه قبل ذلك مرة أو مرتين ، وهـذا آخر قصاد السلطان إلى ابن عثمان ، فشرع ماماى فى عمل برق عظيم وصنع له دركا ببركة الرطلى فى زمن الشتاء ، وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة ، وهرعت الناس الى هناك بسبب الفرجة ، وعمل الجسر ، وسكن به الناس أياما فى قلب الشتاء ، حتى عد ذلك من النوادر . وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل ، ومغانى عرب ، أو ابن رحاب المغنى ، أو جوق المحبظين ، وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة ، حتى خرج الناس فى ذلك عن الحـد ، وأقاموا على ذلك نحوا من

عشرين يوما ، ثم سافر الأمير ماماى ، وخرج فى تجمل زائد ، وموكب حافل فتوجه الى بلاد ابن عثمان .

وفيه تغير خاطر السلطان على فيروز الطواشى الزمام وأمر بسجنه فسجن فى البرج الذى بالقلعة أياما حتى شفع فيه وأطلق ، وسبب ذلك أن شهاب الدين الكخيتى رافع فيه عند السلطان فتغيظ عليه .

* * *

وفى جمادى الأولى أمر السلطان بتجديد عمارة باب القرافة فعمره ، وأنشأ هناك الربوع والسبل وجاء من أحسن البناء ، ثم بعد مدة يسيرة أنشأ جامعا بخطبة خارج باب القرافة فعمره ، فجاء فى غاية الحسن ، وحصل به النفع للناس .

وفيه قرر برد بك الطويل فى دوادارية السلطان بدمشق ، وقرر برسباى الصغير فى الحجوبية الثانية .

وفيه توفى القاضى محيى الدين بن مظفر ، وهو عبد القادر بن محمد بن أحمد بن على بن مظفر أحد نواب الحكم الشافعى وكان عالما فاضلا رئيسا حشما محمود السيرة فى قضائه وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ الصالح سيدى على الجبرتى ، مقيما بالجامع الأزهر ، مات فجأة وهو بالحمام وكان رجلا مباركا .

* * *

وفى جمادى الآخرة كان الحريق المهول بالقلعة فى حواصل السلطان التى عند قاعة البحرة ، وكان فيها خيام كثيرة فاحترق غالبها ، ولعبت فيها النار ولم يسلم منها شىء سوى خيمة المولد الشريف فقط ، فقومت الخيام التى احترقت فكانت نحوا من مائتى ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك ، ولم يعلم سبب وقوع النار هناك ، فقام السلطان بنفسه وبقى يطفىء الحريق مع المماليك ، فأقامت النار تعمل هناك ثلاثة أيام ، فلما طلع النهار صعد الأمراء الى القلعة وصاروا يسلمون على السلطان بسبب ذلك الحريق ، وقد تأثر السلطان لذلك ، وشق عليه حرق تلك الخيام ، وشرع كل من طلع اليه من الأمراء يشكو له بأنه لم يبق عنده من الخيام شىء . فصارت الأمراء كل من كان عنده شىء من الخيام الجدد يقدمه للسلطان ، ففعل ذلك الكثير من الأمراء والمباشرين ، ثم أشيع بعد ذلك أن النار كانت من مطبخ بيت الخليفة ، وكان الخليفة ساكنا بالقلعة داخل الحوش بجوار قاعة البحرة ، فعند ذلك رسم السلطان للخليفة بأن ينزل من القلعة ويسكن بالمدينة . وما حصل للخليفة خير بسبب ذلك ، ونزل هو وعياله من القلعة وسكن بالقاعة التى بطريق السيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها . وكانت اشاعة النار بأنها من مطبخ الخليفة باطلة ليس لها صحة ، وانما ذلك كلام الأعداء فى حق الخليفة .

وفيه خسف جرم القمر خسوفا تاما حتى أظلمت الدنيا وأقام فى الخسوف نحوا من ثلاثين درجة .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع الغلاء المهول حتى مات من أهلها نحو من ألفين وخمسمائة انسان من شدة الجوع ، وأكلوا الجيف والميتات .

وفيه أمر أزبك الأمير الكبير بتجديد عمارة المدرسة المنصورية التى بدهليز البيمارستان وعمل على الفسقية التى بها قبة ، وجدد بها منبرا ، وأقام بها خطبة ولم يعهد قبل ذلك أن أحدا من الأتابكين قبله أقام بها خطبة ، فعد ذلك من النوادر ولقد رام الأتابكى أيتمش البجاسى فى دولة الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتين وثمانمائة أن يفعل

ذلك فتعذر عليه وأفتاه بعض العلماء بأنه لا يجوز له ذلك وأن فيه مخالفة لشرط الواقف . فرجع عن ذلك فلما تولى الأتابكية تمراز الشمسى بعد آزبك أبطل الخطبة منها . فلما قتل تمراز وأعيد آزبك الى الأتابكية ثانيا أعاد بها الخطبة ، واستمرت الى الآن .

وفيه ثارت ريح مزعجة حتى ارتاع الناس منها ، فلما أصبح الناس اجتاز بعض الناس بالكيمان التى خلف المجراة فرأى فى الأرض أثر قدم انسان فكان طوله فوق الذراع ، وقد أثر ذلك فى التراب خلف المجراة ، فأشيع ذلك بين الناس ولا يعلم ما سبب ذلك .

* * *

وفى رجب كانت وفاة الشيخ صلاح الدين الطرابلسى ، وهو محمد بن محمد بن يوسف الحنفى ، وكان عالما فاضلا مفتيا بارعا فى مذهبه ، وتولى عدة مدارس ، ثم تولى مشيخة المدرسة الأشرفية التى تجاه سوق الوراقين ، ومات وهو فى عشر الستين ، وكان لا بأس به .

وفيه قدم شخص من ماردين يقال له نور على وقد فر من رستم صاحب العراقين لذنب أوجب ذلك ، فانتمى الى سلطان مصر ، فلما حضر أكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه . وأقام بمصر مدة طويلة حتى توفى الأشرف قايتباى ففر الى بلاده .

وفيه توفى يشبك قرقماس الحسينى الأشرفى برسباى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

* * *

وفى شعبان أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية لبرهان الدين الكركى الامام عوضا عن الصلاح الطرابلسى بحكم وفاته .

وفيه كانت وليمة عرس الأمير جان بلاط على ابنه القاضى كاتب السر ابن مزهر ، وهى أخت البدرى كاتب السر ابن مزهر وكان مهما حافلا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب تونس ومدينة افريقية وهو زكريا بن يحيى بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبى فارس الحفصى ، مات بالطاعون ، فلما توفى قرر ولده عمر فى مملكة افريقية عوضا عن أبيه زكريا .

* * *

وفى رمضان رخص سعر البطيخ العبدلى حتى بيع كل حمل بنصفين فضة ، ولولا المكس لبيع كل حمل بأقل من ذلك ، وبيع فى الحوانيت كل قنطار بنصفين فضة .

وفيه كانت وفاة العلائى على بن خاص بك صهر السلطان ، وهو على بن خليل بن حسن خاص بك التركى الأصل ، وكان رئيسا حشما دينا خيرا من أعيان أولاد الناس ، وقد كبر سنه وشاخ ، ومولده قبل الثلاثين والثمانمائة ، وكانت جنازته حافلة وأخرج بكفارة ، ونزل السلطان وصلى عليه فى سبيل المؤمنين ، ومشت قدامه الأمراء للتربة ، وكان له اشتغال بالعلم وكان ينظم الشعر وله شعر جيد فمن ذلك قوله فى مؤذن :

ومؤذن فى حسنه   أنا مغرم لا أصبر
لما طلبت وصاله   أضحى على يكبر

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية ، منهم طوغان باى الثور وتمر القصير الذى بقى زرد كاش ، ثم بقى مقدم ألف ، وقايتباى الأشقر ، وآخرون .

* * *

وفى شوال كان عيد الفطر يوم الجمعة ، ولهج غالب الناس بزوال السلطان عن قريب ، وما ذاك الا أن العيد كان يوم الجمعة ويخطب فى ذلك اليوم خطبتان ، ويدعى للسلطان فى ذلك اليوم مرتين ، فلهج الناس بأن فيه كمال سعد السلطان ، وهو

وجه العلة فى هــذه المســألة . وقد جاء فى أيام الأشرف قايتباى خمسة أعياد بالجمعة ولم يضره ذلك . ومكث هــذه المدة الطويلة ولم يؤثر فيــه ذلك شيئا . فمن ذلك كان عيد الفطر بالجمعة سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ، وعيــد قطر بالجمعة أيضا ســنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر بالجمعة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر أيضا بالجمعة سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وعيد فطر أيضا سنة تسع وتسعين وثمانمائة ، فهــذه خمسة أعياد قد مرت عليه وهى بالجمعة وهو ثابت فى مملكته لم يتزحزح عن ملكه منذ ثلاثين سنة الا أياما وأشهرا ، فكان كما يقال :

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله
فالله يفعل ... لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر
فلا يضرك مريــخ ولا زحل

وفيه توفى الأديب الفاضل محمد بن شــادى خجا المحمدى ، وكان شاعرا ماهرا وله نظم جيد فائق فى المعانى . ومن شعره الرقيق قوله :

ما حيلتى فيمن بنى فى الحشا
بيتــا من الحب لواش وشى

رشــا له لحظ اذا مارنا
أنساك فيه الغى عين الرشا [1]

ومولده بعد الخمسين والثمانمائة ، ومما قاله فيه الشهاب المنصورى من المديح وأجاد :

أنت شــاد بنغمــة الشحرور
فى رياض المنظــوم والمنثور

وادكارى بالعنبر الرطب منــه
ضــائع عنــد طيب ذاك العبير

عجبــا لى مكاتب ورقيـــق
مع أنى أحتـــاج للتـــدبير

يا ابن شاد مذ صار مدحك ذكرى
قلت انى من حسنه فى قصور

وفيه خرج المحمل من القــاهرة وكان أزدمر تمساح بالمحمل واينال الفقيه بالأول .

وفيــه توفى تانى بك الخــازندار ، وكان من خواص السلطان لا بأس به .

وفيــه قرر فى قضــاء الحنابلة بسكة المشرفة الشيشى ، وهو قاضى قضاة الحنبلية الآن بمصر .

وفيه توفى جانى بك المحمودى الظاهرى جقمق خشداش السلطان . وكان من الأمراء العشراوات ، ورأى غاية العز فى أيام الســلطان قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيــه توفى الشيخ أبو الكرم المغربى ، وكان فاضلا فى علم الفلك ومعرفة أحواله .

* * *

وفى ذى القعدة توقف النيل عن الزيادة أياما حتى قلق الناس لذلك وارتفع سعر الغــلال ، وتكالب الناس على شراء القمح والشــعير وغير ذلك من الغلال ، واستمر النيــل واقفا وربما نقص الذى كان زاده . ثم بعث الله تعالى بالزيادة واستمر حتى كان الوفاء ، وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه وهو قول ابن صادق :

قلعت أصــابع نيلنــا عين الذى خزن الغلال
وغدت تقول النقص كان على الوفــا قطعا وزال

وقال شيخنا عبد الباسط الحنفى :

النيــــل وفى ووفى مبشرا بالمنافــع
وخازن القوت عينيــه قلعت بالاصــابع

وفيه كان الوفاء فى آخره ، وحصل للناس غاية الجبر بكسره ، بعد أن كان قد نقص وأيس الناس من طلوعه فى الســنة المذكورة ، فتوجه أمير كبير أزبك وفتح البســد على العــادة ، وكان يوما مشهودا .

---

(1) الرشا ... د

وفيه توفي عبد العظيم أحد كتاب المماليك . وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة يشبك بن حيدر نائب حماه ، وكان أصله من مماليك الأشرف اينال ، وولي عدة وظائف سنية منها ولاية القاهرة والأمير آخورية الثانية ، ثم بقي مقدم ألف بمصر ثم بقي نائب حماه وكان لا بأس به ، ومات وهو نائب حماه ودفن بها . فلما مات يشبك خلع السلطان على أقباي الطويل وقرره في نيابة حماه عوضا عن يشبك بن حيدر بحكم وفاته .

وفيه من الحوادث أنه وقع واقع وهو مقطع بالجبل المقطم على جماعة من الحجارين فماتوا تحته . ومن المماليك ثلاثة أنفار كانوا هناك بسبب النقارة . ومات تحت الواقع عدة جمال وحمير كانت هناك لأجل حمل النقارة . وكان وقع على حين غفلة وكان أمرا مهولا . ومن العجائب أن شخصا من المماليك الذين كانوا هنالك ووقع الواقع عليهم تصلب عليه شيء من الأحجار فأقام تحت الردم ثلاثة أيام ، فعمل له نقب وخلصوه وهو فيه الروح وعاش بعد ذلك مدة طويلة .

* * *

وفي ذي الحجة فتح الاتابكي أزبك سد بركة الأزبكية وكان يوما مشهودا . ثم بعد أيام صنع وقدة حافلة وحراقة نفط ، وعزم على ابن السلطان ، فنزل اليه وبات عنده في القصر المطل على البركة ، ومد له أسمطة حافلة ، وقدم له تقادم حافلة ما بين مماليك وخيول وقماش وغير ذلك ، ثم طلع ابن السلطان الى القلعة في اليوم الثاني أواخر النهار ، ولم ينزل ابن السلطان من المدينة سوى ذلك اليوم من منذ نشأ ، وكان مقيما بالقلعة لم ير البحر قط .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب سمرقند وهو الملك المعظم أحمد بن أبي سعيد ، فلما مات تولى على سمرقند بعده أخوه محمود صاحب بلخشان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب فرغانة من بلاد المشرق وهو عمر بن أبي سعيد ، وكان فيه الخير والعدل في الرعية ، ولما مات تولى من بعده على مدينة فرغانة أخوه أحمد .

سنة تسعمائة (١٤٩٤) :

فيها ، في المحرم ، صعدت القضاة الأربعة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، فلما جلسوا أمر السلطان بعقد مجلس في المدرسة الصالحية بسبب شمس الدين ابن الطواى المغربي القاضي المالكي بدمشق ، وكان قد حضر الى القاهرة لأمر أوجب ذلك .

وفيه انتهى العمل من تجديد عمارة الجامع الأزهر ، وقد جدده الخواجا مصطفى بن محمود ابن رستم الرومي وصرف عليه من ماله نحوا من خمسة عشر ألف دينار ، وجاء غاية في الحسن وهو على ما جدده به الآن .

وفيه تغير خاطر السلطان على شخص يقال له شمس الدين محمد بن عمران المقدسي ، وكان رفيقا لأحمد الحسيني فضرب بين يديه ضربا مؤلما مما أطاق ذلك ومات بعد أيام قلائل .

* * *

وفي صفر جاءت الأخبار بوفاة يونس الاشرفي حاجب دمشق ، فلما مات قرر في حجوبية دمشق قاني بك نائب غزة عوضا عن يونس المذكور .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن الحج الشامي لما رجع الى الشام خرج عليهم في أثناء الطريق طائفة من عربان بني لام فاحتاطوا على الركب جميعه ، وسبوا الحريم ، ونهبوا الأموال وأسروا أمير الركب

أركماس ، وكان أمرا مهولا ، فتنكد السلطان وانزعج لذلك .

وفيه توفى كسباى بن آزبك الساقى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الأول توفى القاضى نور الدين الصوفى الحنفى أحد نواب الحنفية . وكان رئيسا حشما لا بأس به ، وكان من أعيان الناس .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا على العادة .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق وأخذ منه أشياء كثيرة من القماش والأمتعة ، وقتل تحت الليل جماعة من أرباب الدرك .

وفيه توفى يشبك بن قصروه المعروف بيشبك سحاب ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على كرتباى أخى الأمير أقبردى الدوادار وقرره فى نيابة صفد .

وفيه توفى جانى باى الحسنى الظاهرى جقمق أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الأولى قرر عفيف الدين بن الشحنة فى قضاء الشافعية بحلب ، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

وفيه قرر مصرباى بن على باى فى نيابة قلعة حلب .

وفيه تعين تانى بك الجمالى فى امرية الحاج بركب المحمل وعين كرتباى ابن أخت السلطان فى امرية الركب الأول .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى الأمير أزدمر تمساح ابن يلباى الظاهرى جقمق أحد المقدمى الألوف . وكان رئيسا حشما محمود السيرة ولا سيما فى سفر الحجاز . وقد سافر أمير حاج بركب المحمل عدة مرار والناس عنه راضون والثناء عنه جميل .

وفيه توفى الصاحب قاسم شغيته . وكان من الأعيان ، وتولى نظر الدولة والوزارة غير ما مرة ، وجاء فى الوزارة على الوضع ، وكان كفؤا للمنصب ، سائرا بالسداد ، منقادا فى مباشرته ، وجرى عليه شدائد كثيرة ومحن ومات وهو فى التوكل به ... وربما قيل انه كان فى الخشب حتى مات ، وباشر ديوان الوزارة مدة طويلة وآل أمره الى أن مات شر ميتة . نقل بعض المؤرخين أن قاسم هذا كان فى مبتدأ أمره خبازا وأن صلاح المكينى أشهره فى القاهرة لما كان محتسبا ، ثم ان قاسم هذا صار من جملة صيارف اللحم ، فلما قرر شمس الدين محمد البباوى تحشر فيه وصار من جملة المباشرين بالدولة ، فلما غرق البباوى تكلم فى الوزارة هو وعبد القادر الطويل ، ثم ان قاسم راج أمره وترشح للوزارة حتى استقر بها وصار من أعيان الرؤساء بمصر ، وباشر الوزارة أحسن مباشرة ، وتتح فى السداد بها وقد قيل فيه :

وكم سيد يستوجب الرفع قدره
غدا شاكيا من لحن ألفاظه خفضا
وكم جاهل يدعى رئيسا لقوة
كذلك الخصى يدعى رئيسا من الأعضا

* * *

وفى رجب كانت وفاة القاضى شرف الدين يحيى بن البدرى حسن ناظر الأوقاف ، وكان رئيسا حشما ، لكنه أظهر للسلطان نتيجة وعادى الناس قاطبة ولا سيما الأتراك بسبب مافرضه على البلاد

لأجل الحبس كما تقدم ذكر ذلك ، ونهب المماليك داره فى بعض الركبات واستمر فى عكس الى أن مات . ولم ير أحد عليه خيرا فى مدة ولايته لنظار الأوقاف كما يقال :

يولاها وليس له عدو

ويتركها وليس له صديق

وفيه توفى قاضى بولاق بن قرقماس أحد نواب الحنفية . واسمه عبد القادر بن أحمد بن على بن محمد بن أبى بكر الدماصى . وكان يعرف بابن قرقماس ، وكان من اعيان الحنفية مشكور السيرة فى قضائه وكان لا بأس به .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية حتى بيع كل شمرة أرادب قمح بثلاثة دنانير . حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه توفى الطواشى سرور شاد الحوش ، وكان عنده شموخ زائدة وحمق وظلم. وهو الذى أحدث بالقلعة السجن المسمى بالعرقانة من داخل الحوش ، وكان يحبس فيها من يختار من أصحاب الجرائم . واستمر بعده الى الآن يسجن به .

وفيه توفى المسند عبد القادر بن الزيات المناوى ، وكان لا بأس به .

وفيه نقط السلطان على ولده الناصرى محمد وألبسه زنطا ضيقا وكبر حام ونزل به الى طبقة الرماح . وقال لأغاث الطبقة سرور المجنون : « دعه يلبس الطبقة ويقعد على السفرة آخر المماليك ، وان قوى رأسه اضربه علقة قوية ؛ وعامله معاملة المماليك الجلبان » ... فأقام فى الطبقة أياما حتى طلع الأتابكى أزبك وشفع فيه ؛ واستمر عنده ممقوتا حتى مات .

* * *

وفى شعبان وصل الى القاهرة شخص جركسى ، وهو جلب قح وقد جاوز الستين سنة من العمر ، ومعه اثنان من الأولاد وهما شباب ملاح الهيئة ، فذكروا أن ذلك الشيخ أخو السلطان ، وأنه يبيع ببلاد الفرنج . وكان مقيما بها ، فلما حضر استسلمه السلطان وسماه قيت ، واستسلم أولاده وسمى احدهما جانم والآخر جانى بك ، وأنزلهم بالطبقة ورتب لهم جوامك ، وصاروا من جملة المماليك السلطانية .

وفيه قدم الى القاهرة شهاب الدين أحمد بن فرفور الدمشقى ، قاضى القضاة بها الشافعى . فلما حضر جرى عليه أنكاد ومحن من السلطان ، وغرم مالا له صورة . حتى استمر فى قضاء الشافعية بدمشق على عادته .

وفيه توفى أحمد حزينات ، وكان أستاذا فى فن الموسيقى . وعنده فكاهة وحسن محاضرة .

وفيه أشيع الخبر بموت الجمجمة بن محمد بن عثمان ملك الروم بنابل من بلاد الفرنج . وجرى عليه أمور يطول شرحها ، ومات وهو فى أسر الفرنج . وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه غرقت معدية بساحل بولاق فمات بها كثير من الناس من رجال ونساء وأطفال وبهائم .

* * *

وفى رمضان توعك السلطان فى جسده حتى أرجف بموته . ونسب الى قانصوه خمسمائة فى مدة توعك السلطان أنه تقحم على السلطنة فمنع من الدخول على السلطان فى مدة انقطاعه . ثم ان السلطان حصل له الشفاء ونودى فى القاهرة بالزينة واستمرت الزينة أياما فى شهر رمضان حتى تعطلت الناس عن البيع والشراء .

وفيه آقيمت الخطبة بالجامع الذى أنشأه الأمير آزبك اليوسفى رأس نوبة كبير بدرب البابا .

وفيه توفى تغرى برمش الاينالى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

* * *

وفى شوال ليلة عيد الفطر خرج الأمير قانصوه خمسمائة مسافرا الى بعض بلاده ، ولم يحضر موكب العيد فكثر القال والقيل فى ذلك اليوم ، وكان سفره برأى السلطان ، فلما كان يوم العيد ثارت فتنة من المماليك الجلبان ، وركب الكثير منهم فى ذلك اليوم ، وتوجهوا الى دار قانصوه خمسمائة ونهبوا ما فيها . وأحرقوا بعض أماكن بها وأخربوا غالبها ، وهى الدار التى أنشأها فى قناطر السباع المطلة على الخليج الحاكمى . وكان الذى آثار الفتنة طائفة من المماليك من عصبة أقبردى الدوادار فحصل الاضطراب فى ذلك اليوم ، ثم سكن الحال قليلا .

وفيه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى ، وبالأول ابن آخت السلطان .

وفيه توفى القاضى نور الدين على بن داود الصيرفى الاسرائيلى الحنفى أحد نواب الحكم ، وكان من أعيان الحنفية ، وكان يكتب التاريخ مجازفة لا عن قائل ولا عن راو ، وله فى تاريخه خبطات كثيرة وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه فكان كما يقال :

يا من يقول بأن فى التاريخ كتبا كامله
لك بالأباعر نسبة لم تدر ما هى حامله

وكان مولده سنة سبع عشرة وثمانمائة . وكان لا يخلو من فضيلة .

* * *

وفى ذى القعدة وصل سيف قان بردى نائب قلعة دوركى وكان غير محمود السيرة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة وكان هذا آخر فتح أزبك أمير كبير للسد .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية حتى بيع كل ثمانية أرغفة من الخبز البائت بثلاثة دراهم فلوس حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه ابتدأ بالسلطان توعك فى جسده وظهر عليه أشاير الموت ، وضرب الكرة فى السنة المذكورة ضربا هينا بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من القوة فسبحان مغير الأحوال .

وفيه توفى سيدى عبد الرحمن اليمنى وكان من أولياء الله تعالى .

وفيه توفى أقبردى التاسيحى الظاهرى جقمق وكان من الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه توفى أزدمر بن مراد خجا الأشرفى برسباى ، وكان أحد الأمراء العشراوات وباش مكة ، وكان لا بأس به .

وفيه ظهرت أعجوبة وهى أن امرأة ولدت مولودا صورته كصوره الفيل وله زلومة سوداء وكان بشع المنظر فمات من يومه

وفيه توفى الطواشى سرور السيفى نائب المقدم وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب خراسان وهو حسين بن بيمرا بن منصور وبيمرا جده ، قيل انه مات بعلة النقرس .

* * *

وفى يوم الخميس مستهل ذى الحجة جرت كائنة عظيمة ، وهى أن قانصوه خمسمائة لما توجه الى اقطاعه فى ليلة عيد الفطر ، كما تقدم ، توجه طائفة من المماليك الى داره ونهبوا ما فيها وأحرقوا غالبها . فلما رجع قانصوه خمسمائة من السفر ، تعمرت القلوب بالعداوة بينه وبين أقبردى الدوادار ، وصارت العداوة كل يوم فى مزيد . فلما كان يوم الخميس المذكور ركب قانصوه خمسمائة ولبس آلة الحرب ، والتف عليه جماعة من أخصائه وخشداشينه ، مثل قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات جملة كثيرة ، منهم : برسباى الخسيف ، وقرقماس الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتباى المبتدر أيضا ، وأزبك قفص ، وقيت الرحبى ، وغير ذلك من الأمراء ، والجم الغفير من الخاصكية والمماليك السلطانية ... فلبسوا آلة الحرب وتوجهوا الى بيت الأتابكى أزبك الذى أنشأه فى الأزبكية . فاجتمع هناك من العسكر ما لا يحصى . فلما بلغ الأمير يشبك الجمالى الزردكاش الكبير ، أن العسكر قد اجتمع عند أزبك حضر عنده ، وكمل هنالك أربعة أمراء مقدمين ، وجاء العسكر أفواجا أفواجا ، ولا بقى يعلم ان كانت الركبة على السلطان أم على الأمير أقبردى الدوادار ؟ فلما اشتد الأمر طلع تانى بك قرا حاجب الحجاب الى السلطان ، ونصحه وخلا به وقال له : « انما هذه الركبة على السلطان وأن العسكر قائمة مع أزبك أمير كبير لأجل قانصوه خمسمائة ، فانه كان صهره » . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وخشى من اتساع الفتنة ، فنزل وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربى . ثم نادى للعسكر : « من كان طائعا لله ولرسوله وللسلطان فليطلع الى الرميلة ويقف تحت الصنجق السلطانى » . فلما بلغ الأمراء المقدمين ذلك طلع تمراز الشمسى أمير سلاح ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، وأقبردى الدوادار الكبير ، وأزبك اليوسفى رأس نوبة كبير ، وتانى بك قرا حاجب الحجاب ، وجان بلاط بن يشبك ، وشاد بك الخوخ ، وبقية المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلما بلغ من بالأزبكية من العسكر أن السلطان نادى بأن العسكر يطلعون الى الرميلة ويقفون تحت الصنجق ، صاروا فى الحال يتسحبون من هناك شيئا فشيئا ويطلعون الى الرميلة حتى لم يبق فى الأزبكية الا مماليك الأمراء الذين هناك . فظهرت الكسرة على قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء . وهذه أول حركات قانصوه خمسمائة ، وكان معكوس الحركات فى سائر أفعاله كما قيل :

وأخرنى دهرى وقدم معشرا
على أنهم لا يعلمون وأعلم
فمذ أفلح الجهال أعلم أننى
أنا الميم والأيام أفلح أعلم

فبينما الأتابكى جالس بمقعده ، واذا بالأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النواب دخل اليه ، وصحبته الحاج رمضان المهتار بالطشتخانة ، فقال له : « قم كلم السلطان فى خبر » ، فقام من وقته ، وتوضأ وصلى ركعتين ، وركب وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة بيضاء ، وهو مفكك الأزرار فطلع صحبتهما الى القلعة . فلما رآه المماليك الجلبان ، كادوا أن يقطعوه بالسيوف . وقيل ان الأمير أقبردى الدوادار لكمه وشتمه . فلما وقف بين يدى السلطان قام له وأمر بادخاله الى قاعة البحرة خوفا عليه من المماليك الجلبان أن يقتلوه . فلما بلغ قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء ، أن أزبك أمير كبير قد عوقوه

بالقلعة ، ركب وتوجه من على قنطرة الحـاجب واختفى من حيث لا يعلم له خبر وكذلك قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى وبقية الأمراء ممن كان من عصبة قانصوه خمسمائة . فلما اختفى الأمراء انفض ذلك الجمـع الذى كان بالأزبكية كأنه لم يكن . وكان قانصوه خمسمائة فى السنة المذكورة جدد سور باب السلسلة ، وأنشأ المقعد المطل على الرميلة ، والبيت ، وحوله أبراج موجودة به الى الآن ... ثم ان السلطان نادى للعسكر أن يقلعوا آلة الحـرب ، ويتوجهوا الى بيوتهـم . ونادى للناس بالأمان والاطمئنان . وسكنت تلك الفتنة .

فلما كان يوم الجمعة صبيحة ذلك اليوم قبض بعض مشايخ العربان على قانصوه الألفى ، وكان قد توجه الى بر الجيزة ، فقبض عليه من هناك ، وأحضره الى بيت آقبـردى الدوادار ، فقيـده وأرسله الى السجن بقلعة صـفد . ثم ان قانصوه الشامى أرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل له فى ذلك اليوم منديل الأمان . فلما قابل السلطان خلع عليه وقرره فى نيابة حماه ، ورسـم له أن يخرج من يومه الى السفر . ثم ان الأمير آقبردى الدوادار صـار يقبض على جمـاعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ممن كان من عصـبة قانصوه خمسمائة ، فقبض على قنيت الرجبى ، وبرسباى الثور الشريفى ، فقيدهما وتوجهوا بهما الى السجن بالصليبية ، ثم على جمـاعة آخرين منهم ، وهم : برسـباى الخسـيف ، وقرقماس الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتبـاى المبشر أيضا ، وأزبك ققص ، ولكن فر من أثناء الطريق . وقبض على سودون الفقيه . فنفى هؤلاء الجماعة عن آخرهم . واستمر قانصوه خمسمائة مختفيا ، حتى كان من أمره ما سيأتى ذكره فى موضعه . وقد انتصف أقبردى الدوادار على جماعة قانصوه خمسمائة ، وبدد شـملهم ، وفتك فى تلك الأيام وطاش وخف الى الغاية ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد ، ليس على يده يد ، وكان ذلك من أكبر الفساد فى حقه كما قيل :

كل شيء اذا تنـاهى تواهى
فانتقاص البدور عند التمام

ثم ان آقبردى الدوادار فـرق فى تلك الأيام المذكورة أضحية جزيلة على العسكر ، فـكانت تعادل ضحايا السلطان ، من بقر وغنم ، حتى غمر العسكر بالاحسان ، فكان كما يقال فى المعنى :

أنا أسـمر والراية البيضاء لى
لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل لى عيش العـداة لأننى
نوديت يوم الحـرب بالمـرّان

هذا ما كان من أمر هؤلاء — وأما ما كان من أمر أزبك أمير كبير ، فانه أقام بقاعة البحرة ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة رسم له السلطان بأن يصلى معه بالشاش والقماش على عادته ، فخرج وصلى مع السلطان الجمعة . فلما فرغ من صلاة الجمعة أراد أن ينزل فقيل له ان المماليك واقفـة بالرميلة ، ومتى نزلت يقطعوك ويقتلوك لا محالة ، فخاف عليه السلطان وأدخله الى قاعة البحرة . ثم انه اجتمع بالسـلطان وقال له : « أنا ما بقى لى اقامة بمصر ، يقتلنى المماليك الجلبان ، وقصدى أتوجه الى مكة المشرفة » ، فأجابه السلطان الى ذلك .

فلمـا كان يوم السبت ثامن ذى الحجـة من تلك السـنة نزل الأتابكى أزبك من القلعه وهو راكب على أكديش ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، وعليه ملوطة بيضاء من غير تقييد ، ولا أوجاقى خلفه ، فتوجه الى مكة المشرفة من الطور مسافرا بالبحر ، الى أن يصل الى جدة ، ويرحل من جدة الى مكة المشرفة ، ورسم له السلطان أن يأخـذ

ولده يحيى معه الى مكة المشرفة ، وكانت نكبة بغتة على حين غفلة كما يقال :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
ويعرف عند الصبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطباره
فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وكانت مدته فى الأتابكية نحوا من سبع عشرة سنة وسوف يعود الى الأتابكية ثانيا ، كما سيأتى الكلام عليه

وفيه ، فى ذلك اليوم ، رسم السلطان باخراج شبك الجمالى الزردكاش الكبير ، وأحد المقدمين ، فخرج منفيا الى القدس ، ولم يكن له ذنب غير أنه كان من جماعة أمير كبير ، وحضر يوم الركبة ، فصار له ذنب . وكان يشبك الجمالى من خواص السلطان ، ثم انقلب عليه ، فأقام بالقدس منفيا الى أن مات عن قريب . فكان كما قيل :

يعدون ذنبا واحدا ان جنيته
علىّ وما أحصى ذنوبهم عدًا

وفيه جاءت الأخبار من تونس بأن بها ثارت فتنة عظيمة ، وحصل لعساكر المغرب مقتلة مهولة ، والأمر لله تعالى فى ذلك

سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ ــ ١٤٩٦ م) :

ختمها الله بخير وهى أول القرن العاشر وكان مستهلها بالأحد وهو أول أسابيع الأيام ، وأول افتتاح العالم بالأحد .

ففى المحرم كان خليفة الوقت ، الامام المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز العباسى . وسلطان العصر : الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى جقمق وقاضى القضاة الشافعية : زين الدين زكريا الأنصارى والقاضى الحنفى : ناصر الدين محمد الأخميمى . والقاضى المالكى : عبد الغنى بن تقى الدين . والقاضى الحنبلى : بدر الدين محمد السعدى .

فمن حوادث هذه السنة أن السلطان أحدث مكسا على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب نصف فضة ، ولم يعهد هذا قبل ذلك وكانت هذه الفعلة من أقبح مساويه . واستمر ذلك فى صحيفته الى الآن .

وفيه قدم على باى نائب الاسكندرية فقرره السلطان فى تقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء المقدمين .

وفيه قدم الحاج وقد قاسى فى السنة المذكورة مشقة زائدة ، ولم يجدوا الماء بنخل . فعرج بهم أمير الحاج ، الى جهة عيون موسى ، حتى وجدوا الماء ، وأخبر بعض الحجاج أنه سمع ، وهو واقف بعرفة ، ما جرى بمصر من ركوب المماليك وغيره من الأول الى الآخر . فعد ذلك من النوادر ، كيف أشيع ذلك بعرفة من غير مخبر أتى هنالك .

وفيه قدم للسلطان أترجة غريبة الشكل ، اجتمع فيها سبع عشرة أترجة من أصل واحد ، فكانت بديعة الخلقة جدا .

وفيه عاد الشيخ عبد المؤمن العجمى ، شيخ قبة السلطان التى بالمرج والزيات وكان قد توجه الى ابن عثمان قاصدا عن لسان السلطان ، وصحبته هدية حافلة الى ابن عثمان ، من حملتها قماش فاخر ، وسبع ، وزرافة ، وببغا حمراء اللون ، وغير ذلك أشياء كثيرة فلما عاد عبد المؤمن أخبر بأن ابن عثمان قد تلاشى أمر عسكره ، وبطلت همته عن محاربة عسكر مصر ، فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة صالح الكردى ، حاجب حلب ، وشيخ الأكراد بها ، مات قتيلا .

وفيه جاءت الأخبار من حلب أيضا بقتل محمود ابن أبى سعيد ، صاحب سمرقند ، قتله محمود ابن يونس كان ، صاحب شاس ، وملك من بعده سمرقند . وكان محمود هذا آخر ذرية تمرلنك ، وبه زالت دولتهم كأنها لم تكن . وهو محمود بن أبى سعيد بن أحمد بن ميرزا شاه بن تمرلنك ، وكان من أعيان ملوك الشرق .

وفيه ترشح أمر تمراز الشمسى بأن يلى الأتابكية .

***

وفى صفر فى مستهله يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء : فقرر تمراز الشمسى فى الأتابكية ، عوضا عن الأتابكى أزبك بن ططخ ، بحكم نفيه الى مكة المشرفة . وخلع على تانى بك الجمالى ، وقرره فى امرية مجلس عوضا عن تمراز بحكم انتقاله الى الأتابكية . وقرر أزبك اليوسفى فى امرية سلاح ، عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم انتقاله الى امرية مجلس . وقرر تانى بك قرا الاينالى رأس نوبة كبير ، عوضا عن أزبك اليوسفى بحكم انتقاله الى امرية سلاح . وقرر اينال الخسيف فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن تانى بك قرا بحكم انتقاله الى رأس نوبة كبير . وأنعم فى هذا الشهر بتقادم ألف على جماعة من مماليكه منهم : ماماى ابن خداد ، وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، وكرتباى الأحمر كاشف البحيرة ، وقانم قريبه ... وأنعم على جماعة كثيرة ممن هم من عصبة أقبردى بأمرية طبلخانات وعشراوات ، منهم : اقباى الطويل ، وخاير بك الدوادار ، وطقطباى من طبقة الأربعين ، وطقطباى أيضا من طبقة الطازية ، وغير ذلك جماعة كثيرة يأتى الكلام عليهم فى موضعه .

وفيه خلع السلطان على قانى بك الشريفى ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن على باى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه توفى المسند شرف الدين القبانى وكان من أهل الفضل لا بأس به .

وفيه خلع على الأتابكى تمراز وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى ، فتوجه الى هناك فى موكب حافل .

***

وفى ربيع الأول خلع السلطان على شمس الدين محمد بن مزاحم ، وقرره فى نظر الأوقاف والأحباس ونظر القرافتين . وكان أصله من طرابلس ، وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، وهذا آخر موالد السلطان قايتباى . ولم يحضر بعد ذلك مولدا .

وفيه خلع على تانى بك قرا وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر برد بك فى امرية الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة يشبك الجمالى ، الذى تقدم ذكره . وكان دينا خيرا وأصله من مماليك ناظر الخاص يوسف ابن كاتب جكم ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية منها حسبة القاهرة ، والزردكاشية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، وجمع بين الزردكاشية والتقدمة وسافر أمير حاج بركب المحمل غير ما مرة .

وفيه وقع بين الأمير أقبردى الدوادار وقرقماس ابن ولى الدين أميرآخور ثالث ، واستمرت العداوة بينهما تتزايد حتى كان ما سنذكره .

***

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على شاد بك بن مصطفى المعروف بالخوخ ، وقرره أميرآخور كبير

عوضا عن قانصوه خمسمائة بحكم اختفائه . وقرر برد بك المحمدى الاينالى أمير آخور ثانى . وقرر صولان باى بن عينى الاينالى فى الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن بتبك الجمالى بحكم وفاته بالقدس الشريف بطالا وقرر برقوق الساقى الاينالى فى الحسبة . عوضا عن كسباى وقرر كسباى فى الدوادارية الثانية وكان يعرف بكسباى الشريفى . وقرر مصرباى فى شادية الشراب خاناه . وقرر آركماس الحلبى فى نيابة القلعة وقرر سودون العجمى فى استادارية الصحبة وقرر برد بك بن بير على فى تجارة الممالك ، فخلع السلطان على هؤلاء فى يوم واحد .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن أمير المدينة وجماعته هجموا على حواصل المال التى بها من قبل النذور ، فاستولى على اثنى عشر ألف دينار ، وأخذ عدة قناديل دهب كانت معلقة بالحجرة النبوية الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وخرج الى جهة العراق فلم يدرك .

وفيه أخبر جماعة من الفلكية بأن زحلا قد اقترن مع المريخ فى برج الجوزاء ، وذكروا أن هذا القران سيقع فيه فتن عظيمة عن قريب ، فأجاب شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى عن ذلك بقوله :

ليس القران بفاعل	كلا ولا بمؤثر
ان المؤثر من له	خلق القران ففكر
فالفعل عنه صادر	كم يا منجم تفترى

وفيه توفى بيغوت قرا بن قنجق قرا الأشرفى برسباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به . فلما مات أنعم السلطان بامريته على تانى بك الأبح .

وفيه رخص المغل جدا ، حتى بيع كل خمسة أرادب قمح بدينار ، وبيعت البطة الدقيق بثلاثة أنصاف ، وعم الرخاء سائر البضائع .

***

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بقطع أيدى ثمانية أنفار ممن يعمل الدراهم الزغل ، وكان فيهم شيخ قد أناف على الثمانين سنة من العمر ، فقطعت أيديهم وشهروا بالقاهرة .

وفيه توفى قايتباى الناظر الظاهرى خشقدم ، وكان من الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وفيه أذن السلطان للقاضى بدر الدين محمود ابن أجا بأن يتوجه الى حلب على وظيفته فى قضاء الحنفيه ، وكان قد حج فى العام الماضى .

***

وفى جمادى الآخرة نزل جماعة من المنسر على العلائى على بن الصابونى ناظر الخاص ، وكان فى تربته التى أنشأها فى رأس دور الحسينية ، فأخذوا جميع ما كان عنده ، وجرح ابن الصابونى فى يده ، وكانت واقعة مهولة .

وفيه مات ينبك دجاج المحمدى الظاهرى جقمق أحد العشراوات .

***

وفى رجب توفى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب ابن عربشاه الدمشقى الحنفى . شيخ المدرسة الصرغتمشية . وكان من أهل الفضل وكان لا بأس به وقرر عوضه فى مشيخة الصرغتمشية شمس الدين الغزى .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه نائب دوركى ، شنق قاضى المدينة سيف الدين يوسف الحنفى ، وقد بلغه أنه يكاتب ابن عثمان بأخبار هذه المملكة ويدعوهم لذلك .

***

وفى شعبان كانت وفاة القاضى عبد الغنى بن الجيعان ، وهو عبد الغنى بن علم الدين شاكر ، وكان متولى كتابة الخزانة ، وكان من خيار بنى الجيعان ، رئيسا حشما موصوفا بالكرم الزائد ويحكى عنه أشياء فى بره الناس ما لا يحكى عن البرامكة فى أيامهم ؛ ومات وهو فى عشر الثمانين وكانت جنازته حافلة وكان أحق بقول القائل :

فلو أن البرامك عاينوه
وأنعمه تعم الخلق سقيا
فينضب جعفر ، ويعوز فضل
ويبلى خالد ، ويموت يحيا

وفيه هجم المنسر على سوق التجار بجامع ابن طولون ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما كان فيها من القماش ، وراحت على أربابها .

* * *

وفى رمضان توفى سودون أكرش الظاهرى جقمق ، أحد العشراوات ، وكان لا بأس به

وفيه من الحوادث فى الشهر المذكور : أن السلطان نادى للعسكر بالعرض ، فلما طلعوا الى القلعة أحضر لهم المصحف الشريف الكبير العثمانى وحلفهم عليه قاطبة — وكذلك الأمراء — بألا يخرجوا عن طاعته ، ولا يخالفوه فيما يأمر .

وفيه أنفق السلطان على العسكر ، وقيل صدقة ، ففرق على المماليك القرانصة والسيفية الدين كانوا منزلين بالديوان قبل سلطنته ، هم وجلبانه ، لكل واحد منهم مائة دينار . والسيفية الذين نزلوا أيام سلطنته لكل واحد منهم خمسون دينارا . ولأولاد الناس أصحاب الجوامك ألفين ، لكل واحد عشرون أو ثلاثون دينارا . وقيل انه فرق بعد ذلك على الخدم الطواشية لكل واحد منهم عشرون دينارا واثنا عشر دينارا . ثم أرسل نفقة للخليفة ، ولبعض الأمراء فبلغت هذه النفقة زيادة عن أربعمائة ألف دينار . ولا يعلم ما سبب هذه النفقة التى أنفقت من غير موجب لذلك ، والذى أشيع بين الناس أن السلطان قال : « أنا لما تسلطنت لم أنفق على العسكر شيئا فهذه فى نظير ذلك » ، والأصح ذلك لأنه أنفق على القرانصة العتق ، والسيفية العتق ، مائة دينار لكل واحد . وعلى الذى تجدد من القرانصة السيفية فى أيامه خمسين دينارا لكل واحد ، وسماها صدقة . والوجه الثانى ما قيل ان السلطان قصده ظهور قانصوه خمسمائة ، وكانت له به عناية تامة ، فأنفق على العسكر حتى أرضاهم بسبب ظهور قانصوه خمسمائة ... فما سهل ذلك على أقبردى الدوادار وأخذ حذره كما سيأتى .

ومن العجائب أن مال هذه النفقة كان مجمدا حاضرا ، وهو من الخمسة أشهر التى أخذها من أجرة الأملاك والأوقاف ومن أوقاف الجوامع والمدارس والبيمارستان ، وصادر فيها طائفة اليهود والنصارى ، وتجار الفريج وتجار المغاربة والبرانسة وغير ذلك من أعيان التجار ومشاهير الناس . وكان هذا المال الذى جىء من هذه الجهات تحت يد القاضى على بن الصابونى ناظر الخاص ، والأمير تغرى بردى الاستادار . فلما خمدت فتنة ابن عثمان التى كانت سببا لذلك لم يوفق الله تعالى السلطان أن يرد للناس ما أخذه منهم ، كما فعل الأشرف برسباى ، لما أخذ من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ، بسبب تجريدة شاه روخ بن تمرلنك لما تحرك عليه فى سنة احدى وأربعين وثمانمائة . فلما بطل أمر التجريدة ، وحصل للأشرف برسباى توعك فى جسده ، رد لأجناد الحلقة ما كان أخذه منهم ، وكتب ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة . والأشرف قايتباى جمع هذا المال من وجوه المظالم ، وحصل

للناس بذلك مشقة زائدة ، وأخرجه فى غير مستحقه لا فى وجه فيه منفعة للمسلمين كما قيل .

لست أعطى فى حرام أبدا الا حسراما

***

وفى شوال فرر عنبر التكروري فى نيابة تقدمة المماليك ، ثم بقى بعد ذلك مقدم المماليك .

وفيه توفى تنم الصبع الظاهرى جقمق أحد الأمراء العشراوات ، وكان أخو نانى بك الجمالى أمير سلاح . فلما مات تنم الضبع وقف شخص من الأمراء نقال له ملاج بن ططخ الظاهرى جقمق ، يطلب من السلطان اقطاع تنم الضبع ، فلم يوافق السلطان على ذلك ، فحنق ملاج من السلطان . فلما نزل ملاج الى داره شنق نفسه من شدة قهره فمات هو وتنم الضبع فى يوم واحد . وقد تقدم القول على وفاة ملاج .

وفيه وقعت الوحشة بين أقبردى الدوادار وبين جان بلاط . وسبب ذلك أن جان بلاط طلب امرية الأخورية الكبرى وعينت له . دوقف أقبردى وباس الأرض على أن يكون شاد بك الخوخ أمير آخور كبير ، فأنعم السلطان على شاد بك بها ، فمن حينئذ وقعت الوحشة بينهما . وقد التف على كرتباى الأحمر ويشبك قمر ، وكان جان بلاط أعز أصحاب أقبردى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير المحمل الشريف تانى بك قرا ، وأمير الركب الأول برد بك نائب جدة .

وفيه توفى أركماس الحلبى نائب القلعة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى محمد بن نوروز المحمدى الميقاتى ، وكان علامة فى فن الميقات .

وفيه ظهر الأمير قانصوه خمسمائة ، وكان مدة اختفائه تسعة أشهر فلما طلع الى القلعة رسم السلطان له بأن يأخذ ثوبا بعلبكيا حتى يرق عليه قلب العسكر . يعنى جاه وكفنه تحت ابطه . فلما وقف بين يدى السلطان قبل الأرض وخلع عليه كاملية صوف صينى بسمور ، ورسم له بأن يتوجه الى داره . ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وصحبته الأتابكى تمراز وأقبردى الدوادار ، فأوصلاه الى داره ورجعا .

***

وفى ذى القعدة ثارت فتنة كبيرة من المماليك الجلبان ، ممن هم من عصبة قانصوه خمسمائة ، فلبسوا آلة السلاح ، وطلعوا الى الرميلة ، وحاصروا أقبردى الدوادار ... فلما تزايد الأمر أحرقوا الربع الذى عند سوق الحلاق . فلما بلغ السلطان ركب ونزل الى باب السلسلة ، وجلس بالمقعد المطل على سوق الخيل بالرميلة ، فلم تحتش منه المماليك ، وتزايد الأمر . ومما أفحش به المماليك فى حق السلطان أنه قبل ذلك بمدة طويلة ، كان السلطان ينام فى الصيف على الدكة التى بالحوش ، فدخل بعض الخاصكية عليه فى الليل ، وقالوا : « ان المماليك الذين فى طبقة المطلع قد عولوا على أن ينشبوا على السلطان وهو راقد على الدكة » . فلمابلغ السلطان ذلك ، قام وبادر وراح من على الدكة . فلما أصبح وجد ثلاثة أسهم من النشاب فى المخدة واللحاف الذى كان للسلطان بسبب النوم والتغطية عليه . فما وسع السلطان الا أنه فرق المماليك الذين بطبقة المطلع على الأطباق ، وجعل على حائط طبقة المطلع بناء يستتر منه رؤية الحوش ... وقيل ان الذى فعل به ذلك ورمى هو شخص خاصكى من أخصائه يسمى شرامنت ، فأحضره وضربه بين يديه نحوا من ألفى عصا حتى قيل انه مات ، وضرب معه جماعة من أصحابه

وسجنهم بالبرج ، وقطع جوامكهم ، وأبطل شرامنت من الجراكسة ، وذلك قبل فتنة ابن عثمان مع السلطان ... واستمر السلطان جالسا بالمقعد الذى بباب السلسلة الى ما بعد العصر ، فبلغه أن أقبردى الدوادار قد غيب من داره ، فعند ذلك قام السلطان وقد حم فى جسده ، فركب وطلع الى القلعة . وكان هذا آخر ركوبه ورؤية الناس له . فلما دخل الى الحوش طلع الى المقعد ، ودخل الى البيت الذى كان به فلزم الفراش ، وثقل فى المرض من ليلته . ولما غيب أقبردى نهب العوام داره ، ودور الأمراء الذين من عصبته ، منهم اينال الخسيف ، وشاد بك ، وقانم ، وجانم مصبغة وغيرهم . وهذه أول كسرة أقبردى فكان كما قيل :

لا تعجبوا للدهـــر فى أفعاله

ان أضحك الباكى وأبكى الضاحكا

ثم ان السلطان تزايد به الألم ، وقوى عليه أمر الاسهال المفــرط ، وعجز عن الحركة ، وكثر القيل والقال بين الناس .

ثم ان النيل أوفى فى تلك الأيام فرسم السلطان لتمراز أمير كبير بأن يتوجه ويفتح السد ، والناس فى غاية الاضطراب . ثم طلع الأتابكى تمراز الى القلعة ، ولبس خلعة بسبب فتح السد ... هذا كله والسلطان على غير استواء ، وأشيع أنه فى النزع وقد خرس .

فلما كان يوم الجمعـة خامس عشريه طلع الأتابكى تمراز الى القلعة ، ودخل على السلطان فى البيت فوجده فى السياق ، فقال له : « يا مولانا السلطان ان الأحوال قد فسدت ، ومن الرأى أن تسلطن سيدى محمد » فلم يرد السلطان له جوابا . فأخذ سيدى محمد ابن السلطان ، ونزل به الى باب السلسلة ، فأجلسه فى المقعد الذى هناك ، وجلس معه ليوليه السلطنة . فانتظر الأمير أقبردى الدوادار أن يطلع اليه ، فاختفى أقبردى ، ولم يطلع الى القلعة فى ذلك اليوم . فلم يشعر تمراز الا وقــد هاجمته العساكر كالجــراد المنتشر ... وذلك أن قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر لما بلغهما أن تمراز الأمير الكبير بباب السلسلة ، ومعــه ابن السـلطان ، لبســوا السـلاح وهجموا ودخلوا الميدان من عند حــوش العرب ، وطلعوا الى باب السلسلة من الاصطبل ، فقبضوا على تمراز الأمير الـكبير ، وقيدوه وسجنوه بالبرج الذى ببــاب السلسلة ، ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلوا به وهو مقيد بقيدين أحدهما برجليه ، والآخر بركبتيه ، وخلفه أوجاقى بخنجر . فنزلوا به من باب الميدان الذى عند الحوش ، وتوجهوا به من جهة المجراة الى البحر ، فأنزلوه فى الحراقة وتوجهوا به الى الاسكندرية ، فسجن بها . وكان المتسفر عليــه جانم بن برسباى أخو قانصــوه الألفى . وبطلت الاشاعات بسلطنته . فلما جرى ذلك ، وقع النهب فى داره ، وفى دار أقبردى الدوادار وجماعة من الأمراء ممن كانوا فى عصبة أقبردى الدوادار . ثم ان قانصوه خمسمائة وكرتبــاى الأحمر وجمــاعة من الأمراء ممن هم فى عصبة قانصوه خمسمائة ، باتوا بباب السلسلة واشتوروا فيمن يلى السلطنة فترشح أمر سيدى محمد ابن السلطان ، ووقــع الاتفاق على سلطنته .

فلما كان يوم السبت سادس عشرى ذى القعدة اجتمع الأمراء والعسكر بباب السلسلة . وأرسلوا خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة ، وهم قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، وقاضى القضاة ناصر الدين محمــد الاخميمى الحنفى ، وقاضى القضاة عبد الغنى بن تقى المالكى ، وقاضى القضاة

بدر الدين محمد السعدى الحنبلى . فلما تكامل المجلس تكلموا فى خلع الأشرف قايتباى ، بحكم أنه قد أشرف على الموت ، فخلع ، وبايع الخليفة ولده الناصرى محمد بالسلطنة عوضا عن أبيه الأشرف قايتباى ، وشهد عليه القضاة بذلك ... هذا كله والسلطان فى النزع ، لم يشعر بشىء مما جرى .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى الشهر المذكور ، من سنة احدى وتسعمائة ، كانت وفاة السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى الى رحمة الله تعالى فى ذلك اليوم بعد العصر .

ومات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرى ذى القعدة . وتوفى وله من العمر نحو من ست وثمانين سنة . ومات وهو بعلة الدبيلة ، واعترته علة البطن أيضا ، وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، بما فيه من مدة انقطاعه عند توعك جسده ... فانه تسلطن يوم الاثنين سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وتوفى يوم الأحد سابع عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة .. وهذه المدة لم تتفق لأحد من الملوك غيره قبله ، وعاش عمره كله وهو فى عز وشهامة من حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ، وما نفى قط ، ولا سجن ، ولا تقيد . وكانت عليه سكينة ووقار ، ومهيب الشكل فى العيون ، جميل الهيئة ، مبجلا فى موكبه ، كفؤا للسلطنة ، وافر العقل سديد الرأى عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأشياء فى محلها . ولم يكن عجولا فى الأمور ، بطىء العزل لأرباب الوظائف ، يتروى فى الأمور أياما قبل وقوعها . وكان لا يخرج اقطاع أحد من الجند الا بحكم وفاته ، ولا من أبناء الناس المقطعين الا بحكم وفاته ، ويرسل يكشف عليه وهوميت حتى يصدق بموته . وكانت صفته : طويل القامة ، عربى الوجه مصفر اللون ، نحيف الجسد ، شائب اللحية . تولى الملك وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان موصوفا بالشجاعة ، عارفا بأنواع الفروسية ولا سيما فى فن لعب الرمح ، علامة فى فنه .

لكنه كان محبا لجمع الأموال ، ناظرا لما فى أيدى الناس ، ولولا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الجراكسة على الاطلاق . ولكنه كان معذورا فى ذلك ... تحرك عليه فى أيام سلطنته شاه سوار ، وحسن الطويل ، وابن‌عثمان ، وغير ذلك من ملوك الشرق وغيرهم . وجرد عليهم عدة تجاريد كثيرة ، وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ماصرفه على نفقات التجاريد التى جردها فى أيام سلطنته الى أن مات ، فكانت نحوا من سبعة آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار ، خارجا عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد . وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها .

وكان مغرما بشراء المماليك ، حتى قيل لولا الطواعين التى وقعت فى أيامه ، لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . ومن العجائب أنه من بعده قد انحصرت مملكة مصر فى مماليكه فقط دون غيرهم . وتسلطن منهم الى الآن أربعة سلاطين ... وكان متقيا فى نفسه ، لم يشرب قط خمرا ، ولاكان يستعمل شيئا من الأشياء المخدرة . وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة فى الكتب ، وله أذكار وأوراد جليلة الى الآن تتلى فى الجوامع . وكان له اعتقاد فى الفقراء ، ويعظم العلماء ، عارفا بمقام الناس ، ينزل كل أحد منزلته .

وكان تابعا لطريقة الصوفية فى التقشف ، وكان لايوصف بالكرم الزائد ، ولا بالبخل المفرط ، وكان

[illegible] ووقف عنده جهات على وجوه [illegible] محاسنه أكثر من مساويه ، [illegible] ولم يخلف من الأولاد سوى ولده محمد الذى تسلطن من بعده ، وكان من سريته [illegible] ولم يتزوج مدة عمره سوى فاطمة بنت العلائى على بن خاص بك ؛ واستمرت معه الى أن مات رحمه الله تعالى عليه .

وفى أيامه توفى الأديب زين الدين أبو الخير بن النحاس ، وكان من أعيان الشعراء فى عصره ، وكانت وفاته بالشام .

ولما مات الأشرف قايتباى رثاه الشيخ بدر الدين محمد بن الزيتونى بهذا الزجل فقال :

يرحم الله سلطاننا الأشرف
كان مؤيد على العدا ظاهر
وكذا ابنو المظفر المنصور
بنصر الله العادل الناصر

* * *

لما زاد الضعف بقايتباى
والدوادار فى غاية الامكان
وتوافق مع الأمير تمراز
وطلع قانصوه الى الميدان
وأتى القلعة مع كرتباى
والأمارة وهدموا البنيان

* * *

هرب أقبردى وقيدوا تمراز
وتولى سلطاننا الناصر
من يخالف أمره ومن يعصيه
رد مقهور والأمر للقاهر

* * *

فولى الملك سادس العشرين
من شهر ذى القعدة طلوع شمسو
بعد واحد من الستين تالى
تسعماية بعد انقضا امسو
وتوفى أبوه أخير النهار
فى صباحو واروه حلول رمسو

* * *

بعد ملكه تسعة وعشرين عام
وأربعة أشهر بالكاتب الحاصر
ويليها واحد وعشرين يوم
لا تزيد أول ولا آخر
مات الأشرف والقبر صار حاويه
بعد لسعو بالموت وسمو حاق
وسرا فيه سم الدبيب حائق
ما وجدلو من ذى القضا ترياق
وقد أمسى مرهون بأفعالو
وأتت لو آفة قضاه تنساق

* * *

لهف قلبى عليه شجاع وقتو
والخوندات تبكى عليه باكر
كم رأينا ثكلى وهى حية
شعرها صار من حزنها ناشر

* * *

لهف قلبى على الأمير تمراز
كان موقر وهو الأمير كبير
والدوادار حولو رجال وأعوان
يضربوا بالحسام ومالو كثير
قالوا لتمراز ما عندنا غيرك
كن مساعد وانت النظام والمشير

* * *

جت جماعة لقانصوه بالخبر
خبر وبيه ركب وكان صابر
وطلع للقلعة مسك تمراز
وظفر بيه وصار عليه ظافر

* * *

العجب فى الركبة نهار جمعة
من سنه كان فى الأزبكية القوم

كيف يوافق لشهر ذى القعـدة
والعدد فيه خمسه وعشرين يوم
مثل يومو فى الشهر والجمعـة
والعدد فيـه فاعجب لهـذا دوم
* * *
والجزا من جنس العمـل قالوا
وبهـذا صـار المثـل سـائر
كل من كان يحفـر لاخيه حفره
ما يقع فى الحفرة سـوى الحافر
* * *
الدوادار وشـاد بك والخسيف
هم وجـانم غابوا عن الحضـار
والجمـالى نظام أمير سـلاح
بالمقعـد وكرتباى قد صـار
هو المقـدم وكاشف الكشـاف
ومـدبر وزيـر واسـتادار
* * *
وعلى الـكل قانصـوه عالى
خمسماية هو الشـاطر المـاهر
قـد تولى أتابك العسـكر
والأمـير كبير وهـو الناظـر
* * *
خلت دوله كرقعـة الشـطرنج
والدوادار وقانصـوه فى رهان
كم رأينا بيـدق من الحاشـية
قد تقـدم عندو وصـار فرزان
لما ساق الفـرس يريد الفيـل
غالبهم فى حـرمة الميـدان
* * *
ضربوا شاه لما انكشف رخـو
ما وجـدلو فى رقعتو سـاتر

ماتت النفـس وانقلب دسـتو
وهـرب مرماه وهـو الخاسر
* * *
ضربو تخت الرمـل للغيـاب
جـو دلتهم دلت عـلى الحضره
ورآينـا الألـفى نقـا خـدو
فى بياضو قـد أشرقت حمـره
واجتماعو بأصحابو بالاحبـاب
وكـذا اشـكال يلقى بهم نصره
* * *
وظهرلـو راية فرح فى الطـريق
مـع جماعـة بالعز تتبـاشر
بانو يطلع وينظر السـلطان
مرحبـا بالطالع وبالنـاظر
* * *
اعتـذارى للى سـمع قولى
ان صـحبى والقـرب يأتونى
يطلبـونى ويقصـدوا فنى
وان توانيت بالعجـز يرمونى
أستحى أن أظهـر ضعيف نظمى
وأحمـالى تنسـب لزيتـونى
* * *
ولكنى أبو النجـا العـوفى
ان تجـدنى فيما أقـول حاضر
استر العيب واربح ثواب سترى
جل من لا عيب فيه وهو الغافر
* * *
لو تكون البحـار مع الانهـار
وجميـع الميـاه وسيل الغمـام
حبر جارى وسـائر الأعشـاب
والنبات والشجر جميع أقـلام
والسموات والارض والأكوان
تبقى أوراق طباق ليوم القيـام
* * *

وجبيع العالم يجو كتــــاب
بكتبوا المــدح فى النبى الطاهر
للغيـــامه مــا يحصروه ذر
من مديحو ووصــفه الفــاخر

* * *

كان للاشرف خصال ملاح فاسمع
ما وأينـــا فى عصرنا مثـلو
يا الذى جا يسمع بديع نظمى
خــذ وحزر عنى جميـع نقلو
وان آتى لك من يطلب التاريخ
والوقائع عن المــلوك قـلو

* * *

يرحم الله ســلطاننا الأشرف
كان مـؤيد على العــدا ظاهر
وكــذا ابنو المظفر المنصــور
ينصر الله العــادل النــاصر

* * *

وأما ما أنشأه الأشرف قايتباى فى أيام دولتــه من البنيان الفاخر فأشياء كثيرة منها : أنه جـدد عمارة المسجد الشريف النبوى ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، لما احترق ، وأنشأ قبة عظيمة على القبر النبوى الشريف على صاحبه أفضـل الصلاة والسلام ، وأنشأ هناك مدرسة مطلة على الحرم النبوى على صــاحبه أفضـل الصــلاة والسلام ، وأنشأ مدرسة بمكة المشرفة عند باب السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة المشرفة

وأنشأ مدرسة ببيت المقدس ومدرسة وبيوتا ودكاكين بدمشق ، ومدرسة بغزه ، ومدرسة بثغر دمياط ، ومدرســة بثغر الاسكندرية ، والبرج العظيم الذى أنشأه مكان الفنار القديم ، والبرج الذى بثغر رشيد .

وأما ما أنشأه من البنيان بالديار المصرية : فالجامع الذى بالصحراء مكان تربته ، وجامع بالروضه . وجامع برأس الكبش : وجامع بباب الخرق عند الشيخ سلطان شاه ، والسبيل والمكتب الذى بدرب تحت الربع ، وجامع لطيف خارج باب القرافه . وجدد عمارة قبة الامام الشــافعى رضى الله عنه ورحمه . وأنشأ زاوية بالمرج والزيات ، ومدرسة بالخانقاه ، وغير ذلك من الجوامع والمدارس فى أماكن شتى من البلاد ... وأنشــأ السبيل الذى برأس سويقة عبد المنعم . وأنشا بالقــاهرة عدة زوايا وأسبلة وصهاريج وغير ذلك ، وعدة ربوع وحوانيت فى مواضع متفرقة ، وجعلها وقفا على الدشيشة التى قد كان قررها بالمدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وأما ما أنشأه بالقلعة : فالمقعد الذى أنشأه داخل الحوش ، والمبيتان اللذان حوله ، والحواصل التى بجــوار قاعة البحرة ، وجــدد عمــارة الايوان الناصرى الذى بالقلعة ، وأنشــأ مواضع كثيرة بالقلعة .

وجدد عمارة قناطر أبى المنجــا ، والقناطر التى بشبرمنت بالحيزة . وأنشأ هناك رصيفا وحصل به غاية النفع فى أيام النيل للمسافرين . وجدد عمارة قنطرة باب البحر . وجدد عمارة الميدان الكبير الذى بجوار البركة الناصرية ، وصرف عليه جملة مال . وجدد مقام سدى أحمد البدوى ، وبناه بناء حافلا ووســعه . وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين رحمه الله . وجدد عمارة باب القرافة . وأنشأ هناك الربوع . وأنشأ مقعدا ومبيتا وجنينة بدار البقر التى تحت القلعة . وجدد عمارة جامع الرحمة الذى بغيط جانى بك نائب جدة . وأنشــأ عدة ربوع بالخشــابين والبندقانيين ، وبالجامع الأزهر وغير ذلك .

وله عدة أماكن قد أنشأها وحصل بها النفع العام للمسلمين .

وأما ما أبطله فى أيام سلطنته من شعار المملكة ، فخدمة القصر بالشاش والقماش . وقد قررته الملوك السالفة لاقامة الحرمة ونظام المملكة . وأبطل الرمايات التى تعمل ببركة الحبش ، ودخول الملوك الى القاهرة والعسكر قدامها بالشاش والقماش ، ويكون يوما مشهودا . وأبطل لبس الصوف بالمطعم — وكان الملك يشق من القاهرة وهو لابس الصوف هو والأمراء ويكون لهم يوم مشهود — وأبطل المركب المسماة بالذهبية ، وكانت من شعار المملكة ، ولاسيما فى يوم الوفاء بالنيل ، وكانت الملوك تتوجه فيها الى المقياس ، وكان بها ستون مقذافا ... وأبطل المركب المسماة بالدرمونة ، وكانت تحمل مغل الحرمين الشريفين ، وكانت غريبة الهيئة فى شكلها . وأبطل دوران المحمل الرجبى فى أيام سلطنته وما كان يعمل فيه . وأبطل المسايرات التى كانت تعمل فى تلك الأيام ، وكان ينفق فى مدة دوران المحمل ما لا ينحصر ... وأبطل فى أيام سلطنته أشياء كثيرة من شعار المملكة لم نذكرها خوف الاطالة . ولكن آخر من مشى من السلاطين على النظام القديم ، مما ذكرناه ، الظاهر خشقدم رحمه الله تعالى .

وأما ما عد له من المساوى : فانه لما تولى السلطنة ندب يشبك الدوادار لما تولى الوزارة ، فقطع لحوم جماعة من الناس كانت مرتبة لأيتام ونساء أرامل ، وكانت تباع وتشترى من الناس من الديوان الى آخر دولة الظاهر خشقدم . وكانت الوزراء تنتج بالسداد لذلك . ثم فعل مثل ذلك بالجوامك ، وقطع عدة جوامك لجماعة من أولاد الناس . والذى أبقاه أخذ منه مائة دينار ممن له جامكية ألفا درهم ، وأخذ ممن له جامكية ألف درهم خمسين دينارا ، وذلك بسبب بدل تجريدة سوار ممن لم يسافر للتجريدة . وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف من الجوامع والترب بالقاهرة وغيرها أجرة سبعة أشهر ، وحصل للناس بذلك الضرر الشامل . وصادر اليهود والنصارى فى أيامه مرتين . وصادر جماعة من أعيان التجار ، ومن تجار الأرياف والبرانسة . ورمى على البلاد التى فى الشرقية شيئا يقال له الخمس ، بسبب خيالة تخرج مع التجريدة الى ابن عثمان ، وفعل مثل ذلك بعربان جبل نابلس ، ثم قطع هذا الخمس من خراج المقطعين .

ومنها أنه كان ولى جماعة من مماليكه عوضا عن مشايخ العربان ، فجاروا أيضا على الفلاحين ، وأخذوا منهم غير العادة أضعافا . وكذلك الكشاف يقرر عليهم الأموال فيجورون أيضا على البلاد ، ويأخذون المال أمثالا ... فمن يومئذ تلاشى أمر البلاد ، وانحط خراج المقطعين جدا .

ومنها أنه أحدث مكسا على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب نصف فضة خارجا عن ثمنه لمن يشترى أو يبيع . وقد تزايد الأمر بعده فى ذلك حتى صار على كل أردب نصفان . وهو أول من أحدث تفرقة الجامكية بحضرته ، وضيق على الناس ، ولم يفعل ذلك أحد قبله من الملوك . وكان مقدم المماليك ، وأحد رءوس النوب يتولى تفرقة الجامكية فى الايوان ، ولم يشعر السلطان بذلك . فبطل ذلك ، واستمرت من يومئذ تنفق بحضرة السلطان الى الآن .

ومنها أنه فعل بجماعة من المباشرين وغيرهم الأفعال الشنيعة . منها شنق القاضى ابن المقسى ، وتوسيط مجد الدين ابن البقرى الاستادار ، وغير ذلك مما تقدم ذكره . وقطع يد ابراهيم بن فريعين

صرف فى الجامكية وكان فى سن الشيخوخة ، وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو أقطع . وقد رتب له السلطان ما يكفيه الى أن مات . وهو أول من أحدث برددار به السلطان ؛ ولم تكن هذه الوظيفة قبل ذلك تعرف : فصارت زيادة مظلمة أخرى .

ومن محاسن الأشرف قايتباى رحمة الله عليه أنه كان فى شدة غضبه يستحيل فى الحال راضيا ، ويزول ما كان عنده من الحدة ، وهذه من أجمل الخصال . وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساويه . وكان من خيار ملوك الترك بالنسبة لمن جاء بعده من السلاطين . ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان أجل ملوك الجراكسة . وكان من خيارهم ولكن كما يقال :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال بعض الشعراء :

اذا أنت لم تنفع فضر فانما
يرجى الفتى كيما يضر وينفع

ولما مات تولى ابنه محمد .

الملك الناصر أبو السعادات

هو الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ابن الملك الأشرف أبى النصر قايتباى المحمودى الظاهرى .

وهو الثانى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية .

تقدم أنه بويع له بالسلطنة يوم السبت سادس عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٦ م) . وقد تقدم أن قانصوه خمسمائة ، وكرتباى الأحمر والأمراء الذين يلونهم ، لما هجموا على الامير تمراز بباب السلسله - قبضوا عليه وقيد وأرسل الى السجن بثغر الاسكندرية . فلما جرى ذلك ، وقع الاتفاق على سلطنة الناصر محمد ابن السلطان قايتباى ... فأحضروا الخليفة ، والقضاة الأربعة . وخلعوا الأشرف قايتباى من السلطنة ، وبايعوا ولده — من غير عهد له من أبيه — ولقبوه « بالملك الناصر » وكنى « بأبى السعادات » وكان تلقب بالمنصور أولا ، ثم قرر لقبه بالناصر . فلما انقضى أمر المبايعة ، أحضر اليه شعار الملك ، وهى الجبه السوداء ، وقد فصلت على قدره ، ولفت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وتقلد بالسيف الحمائلى ، وقدمت اليه فرس النوبة ، بالسرج الذهب والكنبوش ، وركب من سلم الحراقة .

وكانت مبايعته فى الساعة الرابعة من النهار ، والماضى من الشروق ثمان وأربعون درجة ، والطالع بالميزان .

فلما ركب تقدم قانصوه خمسمائة ، وحمل القبة والطير على رأسه — وقد ترشح أمره لأن يلى الأتابكية — فركب السلطان والخليفة معه ، ومشى بين يديه الأمراء ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض ، وضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ... وفى حال جلوسه على سرير الملك خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ، وخلع على قانصوه خمسمائة ، وقرره أميرا كبيرا عوضا عن تمراز الشمسى . وخلع على جان بلاط بن يشبك وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن أقبردى الدوادار . وخلع على تانى بك الجمالى وصيره نظام الملك مضافا لما بيده من امرية سلاح . وكان القائم فى هذه الأمور وتدبيرها كرتباى الأحمر .

هذا كله جرى والأشرف قايتباى فى النزع لم يشعر بما وقع من هذه الأمور ، ولو كان واعيا لما مكن الأمراء أن يسلطنوا ولده ، ولا كان هذا قصده .

وكان الملك الناصر لما تولى الملك له من العمر نحو أربع عشرة سنة وأشهر ، وقد قارب البلوغ ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة . وكانت أمه جركسية تسمى أصلباى من مشترى الأشرف قايتباى . وكان الملك الناصر محمد هذا جميل الهيئة ، مليح الشكل ، وعنده عترسة ، وجراءة فى الأمور ، متحركا فى نفسه ، وعنده رهج وخفة ، ومما مدح به قول القائل :

ان العناصر فى سلطاننا اجتمعت
شمائل بهرت من حين مولده
قد ناسب النار عزما ، والهوا خلقا
والبحر جودا ، وملك الأرض فى يده

ولما كان يوم الأحد سابع عشرى هذا الشهر ، كانت وفاة الملك الأشرف قايتباى رحمة الله عليه . توفى بعد العصر من ذلك اليوم ، وبات بالقلعة . فطافت له نذراء بالقاهرة ، وهم يقولون : « يصلى غدا باكر النهار على العبد الفقير الى الله تعالى ، الملك الأشرف قايتباى ، رحمه الله » . فتأسف عليه الكثير من الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشريه ، وهو اليوم الثالث من سلطنة ولده ، شرع الأمراء فى تجهيزه واخراجه . فغسل فى البيت الذى مات فيه ، وأخرج نعشه قدام الدكة التى بالحوش ، وصلى عليه هناك ، ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدامه الأمراء والعسكر قاطبة ، وكانت جنازته مشهودة ، بخلاف من يموت من الملوك . فتوجهوا به الى تربته التى أنشأها بالقرب من زاوية سيدى عبد الله المنوفى رحمه الله . فدفن بها وانقضت مدته من الدنيا كأنها لم تكن ، وزال ملكه بعد أن حكم بالبلاد الشامية والبلاد المصرية تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، وهذه المدة لم تتفق لأحد من ملوك الترك قبله . وقد قيل فى المعنى :

ان الذى اغتر بالدنيا وزينتها
وظل فيها بحب المال مفتونا
أتت اليه المنايا وهى مسرعة
فأصبح الجسم تحت الترب مدفونا
قد فارق الأهل والأوطان وانقطعت
آماله وغدا فى القبر مرهونا
خلا بأعماله ما كان من حسن
أو من قبيح به قد صار مقرونا

* * *

وفى ذى الحجة فرق السلطان الملك الناصر الضحايا على العادة للعسكر .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف ، على جماعة من الأمراء منهم : أزبك اليوسفى الظاهرى چقمق المعروف بقشق ، وكسباى الزينى ، ويشبك العجمى المعروف بقمر ، وقرقماس بن ولى الدين .

وفيه كتب المراسيم بحضور الأمراء الذين كانوا أخرجوا الى النفى من حين كانت وقعة قانصوه خمسمائة وأقبردى ، وكتب بحضور قانصوه الشامى الذى كان قرر فى نيابة حماه ، وقرر عوضه بنيابة حماة أركماس أحد المقدمين بدمشق . وكتب بحضور قانصوه الألفى أيضا وبقية الأمراء المنفيين .

وفيه ظهر تغرى بردى الاستادار ، وكان له مدة وهو مختف تزيد على أربع سنين ، وكان قد فر خوفا من السلطان قايتباى لما تجمد عليه مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل أحمد بن بهادر نائب قلعة صفد ، وكان لا بأس به ، وقد قتله كرتباى أخو أقبردى الدوادار . وكان كرتباى يومئذ نائب صفد ، فخرجت المراسيم بقبضه على يد خاصكى يقال له ألماس بن ولى الدين . فلما تحقق كرتباى ذلك ، ضرب عنق ألمـــاس ، وأحمد بن بهادر نائب القلعة ، وخرج من مدينة صفد .

وفيه عينت نيابة صفد لبرد بك الطويل ، عوضا عن كرتباى بحكم صرفه عنها

وفيه قرر القاضى عبد القادر القصروى فى نظر الجوالى ، وهذه أولى وظائفه .

وفيه عظم أمر الأتابكى قانصوه خمسمائة الى الغاية ، حتى انه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ولا صـــلاة الجمعة . ثم أمر باخراج مماليك أقبردى الدوادار الى أماكن شتى من البلاد ، وكان قد تخوف منه .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى على الغزال ، وكان مقيما بخانقاه سرياقوس .

وفيه فرق الملك الناصر جملة أقاطيع كانت فى الذخيرة من أيام الأشرف قايتبـــاى ، وكانت نحوا من ألف اقطاع ، ففرقت على المماليك جميعا ما بين أقاطيع ورزق وغير ذلك .

وفيه قرر جان بلاط الغورى فى نيـــابة القلعة عوضا عن أيدكى .

وفيـــه قرر طراباى الشريفى أمير آخور رابع ، عوضا عن تغرى بردى يونس السيفى الدوادار ، بحكم انتقاله الى أمرية الأخورية الثالثة .

وفيه قرر السيد الشريف عبد الرحيم الحموى فى كتـــابة سر دمشـــق ، عوضا عن محب الدين الأسلمى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، وتوجه الى ابن عثمان فأكرمه .

وفيه قرر بخشباى فى تقدمة ألف بدمشق ، ثم تولى نيابة حماه فيما بعد

وفيـــه قرر كرتباى الأحمـــر فى الوزارة والاستادارية وكاشف الكشاف ، مضافا لمـــا بيده من تقـــدمة ألف ، وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، فأظهر أشياء كثيرة من أنواع العدل ، منها أنه أبطل وظيفة نظر الأوقاف ، ونودى بذلك فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وأبطل عـــدة مكوس ومظالم ، وحجـــر على البردارية والرســـل والنقباء ألا يأخذوا من الأخصـــام أكثر من نصفى فضـــة ، وأن أحدا منهم لا يقرر على أحد رسما ... ولو دام كرتباى بمصر لحصـــل للناس به خير .

وفيه قبض على القاضى أبى المنصور صـــاحب ديوان أقبردى الدوادار ، فتسلمه الأمير جان بلاط الدوادار وضربه ضربا مبرحا ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه خلع على الأمير أقباى الطويل نائب غزة واستمر على نيابته بغزة ، وكان أشيع عزله لأنه كان من عصـــبة أقبردى الدوادار ... فلمـــا أراد أن يتوجه الى غزة أخـــذ معـــه أقبردى الدوادار فى الخفية ، فلما بلغ قانصوه وكرتباى الأحمـــر أن أقبردى الدوادار خرج صحبة أقبـــاى الطويل ، بعثا اليه والى الشرطة الى الخانقاه ، ففتشوا حموله حتى الحوايجخاناه ، وستر الله تعالى على أقبردى حتى خرج من القاهرة ، ولم يظفر به أحد . وهذا كان سبب خروج أقبردى من مصر وتوجهه الى غزة ، وكبسوا بسببه فى ذلك اليـــوم عدة أماكن ودور بالخانقاه ، حتى هجموا هنـــاك الجوامع والزوايا ، وحصل الضرر الشـــامل بسبب ذلك للناس . وقيل انه لما خرج من الخـــانقاه ، فتشوا سنيح الأمير اقباى الطويل أيضـــا ، وكان قـــد

اختفى أقبردى فى الدست الكبير الرخمية ، لما حملوها على الجمل ، فستر الله عليه

وفيه نزل السلطان الملك الناصر من القلعة ، وتوجه الى القرافة ، فزار وعاد الى القلعة ، وهذا أول ركوبه فى حال السلطنة .

وفيه حضر الأمير خشكلدى السيفى ، وكان مقيما بدمشق من أيام الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى . فلما حضر أكرمه السلطان وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه كثرت الاشاعات بوقوع فتنة ، فبادر الأتابكى قانصوه وقبض على جماعة من طائفة الاينالية ، نحو ستة عشر نفرا ، وأخرجوا مع نقيب الجيش شيئا فشيئا ، وتوجهوا نحو البلاد . فكان منهم برد بك المحمدى ، وبرقوق ، ودولات باى بن عيسى ، وآخرون .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على أقبردى الدوادار ، وهجموا بسببه عدة دور فلم يجدوه ، ولم يعلموا أنه خرج صحبة أقباى نائب غزة .

سنة اثنتين وتسعمائة (١٤٩٦ ــ ١٤٩٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام المتوكل على الله عبد العزيز العباسى . وكان سلطان العصر يومئذ الناصر أبو السعادات محمد ابن الأشرف قايتباى . والقضاة الأربعة على الحكم الأول كما تقدم ... وكان الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ونظام الملك تانى بك الجمالى الظاهرى ، والدوادار الكبير جان بلاط بن يشبك ، والاستادار كرتباى الأحمر .

وفيه خرج اصطمر بن ولى الدين ، ومعه عدة من الجند ، بسبب القبض على أمير الحاج تانى بك قرا الاينالى ، فلاقاه من عجرود وقيده ، وبعث به من هناك الى ثغر الاسكندرية ، فسجن بها مع تمراز أمير كبير كان .

وفيه جاءت الأخبار بقتل عساف الحبشى ، نائب صيدا وبيروت ، وكان من مشاهير الرؤساء ، وله شهرة زائدة بتلك البلاد .

وفيه كانت نفقة البيعة على الجند ، فأنفق على الجند على العادة ، ولكن لم يعط مائة دينار كاملة لغير القايتباهية ، وأعطى من دون ذلك لكل واحد خمسون دينارا ، وأنفق على أولاد الناس ثلاثين دينارا .

وفيه أحضر السلطان المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الأمراء والعسكر . ولم يطلع الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ولا حلف ... ولكن طلع بعد أيام ، وحلف أيمانا غير صادقة ، كما يقال فى المعنى :

خان اليمين وعهد الود قد فسخا
ولا ترى قط صدقا خالصا نسخا

وفيه قرر دولات باى بن أركماس الساقى فى نيابة البيرة ، وخرج اليها عن قريب . ودولات باى هذا هو الذى تولى الأتابكية بمصر .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على شمس الدين الفرنوى امام أقبردى الدوادار ، وعاقبه أشد العقوبة ، وتسلم أيضا المنصور وعاقبه أشد العقوبة ، وجرى لهما أمور يطول شرحها ، وما خلصا الا بعد جهد كبير . وكان السلطان له عناية فى الباطن بجماعة أقبردى الدوادار .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على جماعة من الأمراء العشراوات ممن كان من عصبة أقبردى الدوادار منهم : اسنباى الأبراهمى المعروف بالأصم ، وبرسباى السلحدار ، وجانى بك بن أزدمر المعروف بالصغير ، وبخشباى بن عبد الكريم ، وطقطباى ابن برد بك الدوادار . ومن الخاصكية : تمراز

جوشن ، وابنال السلحدار ، وقانصوه الساقى ، وأبو يزيد الصغير وآخرون غيرهم ولم يكن ذلك باختيار السلطان .

وفيه توفى الشيخ حمزة بن محمد ابن حسن ابن على بن عبد الحليم المغربى اليحياوى المالكى ، وكان عالما فاضلا مقيما بالخانقاه الشيخونية ، وكان لا بأس به

وفيه رسم السلطان للخليفة بأن يطلع الى القلعة ليسكن فيها كما كان ساكنا من قبل . وكان السلطان قايتباى رسم له بأن ينزل ويسكن بالمدينة عندما حرق حاصل الخيام كما تقدم .

وفيه من الحوادث أن السلطان ضرب امرأة بين يديه بالمقارع ، وشهرت على حمارة وفى عنقها زنجير ، وهذا لم يعهد قط فلما طاش الملك الناصر وخف ، وكل كرتباى الأحمر أربعة من الخاصكية يمنعونه من اللعب مع أولاد العوام ، ومن كل تصرف فى شىء ، وصار تانى بك الجمالى نظام الملك ، يبيت عنده كل ليلة بالقلعة ومع ذلك ما ارعوى ، وما حصل من هذا طائل ، وزاد فى الطيشان حتى خرج فى ذلك عن الحد . وكان منه ما سنذكره فى موضعه .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد نفى تانى بك قرا من عجرود ، فلما دخل المحمل طلبه السلطان عنده بالقلعة ليراه ، ولم يكن رآه قط قبل ذلك

وفيه أنعم السلطان بتقدمة تانى بك قرا على قيت الرجبى

وفيه أن من جملة طيشان الملك الناصر أنه خرج لصلاة الجمعة ، وهو بغير كلوته بل بتخفيفة صغيرة ، فشق ذلك على الأمراء ، وعابوا عليه هذه الفعلة .

***

وفى صفر خلع السلطان على قانصوه الشامى ، الذى كان نائب حماه ، وقرره فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن تانى بك قرا لما بقى أمير مجلس ونفى الى الاسكندرية

وفيه قرر فى مشيخة تربة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير كان ، الشيخ أبو النجا الفوى الواعظ ، وكان من أهل الفضل .

وفيه من الحوادث أن الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطى بوظيفة لم يسمع بمثلها قط ، وهو أنه جعله على جميع القضاة قاضيا كبيرا يولى منهم من يشاء ، ويعزل منهم من يشاء ، مطلقا فى سائر ممالك الاسلام وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فى دولة بنى أيوب . فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم ، واستخفوا عقل الخليفة فى ذلك ، وقالوا ليس للخليفة مع وجود السلطان حل ولا ربط ولا ولاية ولا عزل ، ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا فلما قامت الدائرة والألسنة على الخليفة رجع عن ذلك . وقال : « ايش كنت أنا ؟ الشيخ جلال الدين هو الذى حسن لى ذلك ، وقال لى : هذه كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من يختارونه من العلماء » . ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذى كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقعت أمور يطول شرحها ، ثم سكن الحال بعد مدة .

وفيه أشيع أن الأتابكى أزبك قد حضر من مكة فى الخفية ، فاضطربت أحوال المماليك الجلبان ، وكادوا أن ينشئوا فتنة . ولم يكن لتلك الاشاعة صحة

وفيه عزل الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وتولى

القاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ، وكان الساعى فى ذلك جان بلاط الدوادار ، وكان من أخصائه

وفيه ابتدأ الأمراء المقدمون فى لبس التخافيف التى بالقرون الطوال ، وقد خرجوا فى ذلك عن الحد . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

نقول أميرنا لما تبدى
أنا فى الحرب ذو القرنين دعنى
أنا كبش وأعدائى نعاج
اذا برزوا فأنطحها بقرنى

وفيه خلع السلطان على قانصوه الألفى ، وقرره امير آخور كبير ، عوضا عن شاد بك الجوخ ، بحكم انتقاله .

وفيه انعم السلطان على دولات باى الفلاح ، بتقدمة ألف ، وصار من جملة المقدمين

وفيه خلع السلطان على بخشباى ، وقرره فى نيابة قلعة دمشق ، بعد ما كانت بيد غيره . وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كرتباى نائب ابيرة ، وكان قصد الحضور الى مصر فمات ببعلبك .

* * *

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن العيسى ، وقرره فى نظر الجوالى عوضا عن عبد القادر القصروى

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وهذا أول موالده فلما جلس بين الأمراء اعتراه النعاس ، حتى رش الماء على وجهه كى يستفيق .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى تربة والده ، فزار قبره ، ثم توجه من هناك الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل

وفيه خلع السلطان على كرتباى ابن عمة السلطان ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل .

وفيه قرر قانصوه الدوادار يشبك فى امرية ميسرة بحلب ، ثم جرى عليه بعد ذلك أمور شتى

وفيه قرر قصروه فى نيابة الكرك ، كما كان أولا .

وفيه قرر طومان باى الخازندار فى نيابة الاسكندرية ، فأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى القاهرة ... وطومان باى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وتلقب بالعادل .

وفيه حضر الى القاهرة قانى باى الرماح ، وكان أتابكا بحلب وصرف عنها .

* * *

وفى ربيع الآخر سافر سيباى الدوادار الثانى الى جهة غزة بسبب أقبردى الدوادار وقد ثبت أنه عند أقباى نائب غزة ثم جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوادار خرج من غزة هو وأقباى نائب غزة ، وتوجها الى البلاد الشامية ... فتألم الأمراء لذلك ، وضربوا مشورة فى أمره ، فوقع الاتفاق على أن يكتبوا له بأمان من السلطان والأمراء ، فكتبوا له أمانا وأرسلوه له . وكل هذا عين الخداع .

وفيه قرر محمد بن أبى يزيد ، فى نظر البيمارستان المنصورى ، وكان قد عظم أمره فى تلك الأيام جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانصوه نائب قلعة الروم ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الأولى نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى قبة يشبك الدوادار التى فى المطرية وبات بها ، ثم طلع الى القلعة وشق من القاهرة ، وزينت له وكان يوما مشهودا

وفيه تزايدت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، ونقل الناس أمتعتهم من الدور . فلما كثر الكلام فى ذلك أحضر السلطان المصحف العثمانى ، وطلع به الى القلعة ، وحلف عليه الأمراء والجند بأن يكونوا كلمة واحدة ، ويكونوا عباد الله اخوانا ، وأن الأمراء الذين هم من عصبة الأمير أقبردى الدوادار يظهرون ويكونون واياهم شيئا واحدا .. فوافق الأتابكى قانصوه خمسمائة على ذلك ، وكذلك كرتباى الأحمر وبقية الأمراء . فلما جرى ذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن الغياب الذين من عصبه اقبردى يظهرون ، ولهم الأمان من السلطان ... فعند ذلك ظهر شاد بك الخوخ الذى كان أمير آخور كبير ، واينال الخسيف الذى كان حاجب الحجاب ، وقانم قريب السلطان أحد المقدمين بمصر ، وجانم مصبغة . فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم السلطان كوامل بسمور ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشرى الشهر المذكور .

ثم رسم لهم السلطان بأن يتوجهوا الى دار الأتابكى قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ، ويقبلوا يده . فتوجهوا الى هناك ، وقبلوا يد الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ورجعوا الى بيوتهم . فلما كان آخر النهار من ذلك اليوم ، أرسل الأتابكى قانصوه خلفهم وزعم أنه يضيفهم ويمد لهم مدة ، فحضر اليه شاد بك الخوخ ، واينال الخسيف ، وقانم قريب السلطان ، ولم يحضر صحبتهم جانم مصبغة ، وكان صاحب الرأى فى فى عدم حضوره . فلما اجتمعوا عند الأتابكى قانصوه طاولهم بالكلام ، ثم أحضر لهم سفرة الشراب ، فشربوا ولم يجلس معهم شاد بك . ثم فتحوا بينهم باب العتاب ، واستمروا على ذلك حتى تنصف الليل ... فلم يشعروا الا وقد دخل عليهم مصرباى الثور والى القاهرة ، فقبض على الثلاثة ، وتوجه بهم الى نحو الجزيرة الوسطى ، فقيل انه أغرقهم هناك . وكان هذا آخر العهد بهم كما قيل فى المعنى :

لما رأيت الغدر منهم بدا
والبغض من أعينهم لى يلوح

فقلت للقلب ارتجع عنهم
ما قصدهم منك سوى أخذ روح

فلما كان يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء ثامن عشريه ، صلى الأتابكى قانصوه العشاء ، وركب بمن معه من الأمراء والعسكر ، وهجم وملك باب السلسلة — وكان قانصوه الألفى أمير آخور كبير ، فما أحوجه يدق باب السلسلة ، ولا ينتظر الجواب .

فلما كان يوم الأربعاء صبيحة تلك الليلة جلس الأتابكى قانصوه خمسمائة فى الحراقة التى بباب السلسلة ، وأرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة . واجتمع عنده أربعة عشر مقدم ألف ، والعسكر قاطبة ، من الأمراء والجند . فلما تكامل المجلس ، مشوا مع الخليفة فى خلع الملك الناصر وتولية قانصوه خمسمائة ... فخلع الناصر من السلطنة بصورة شرعية ، وكتب بذلك صورة محضر ، وشهد فيه جماعة كثيرة ، وبويع قانصوه خمسمائة بالسلطنة ، وتلقب « بالأشرف أبى النصر » على لقب أستاذه الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته قبل له الأمراء الأرض والعسكر قاطبة ، ونودى له فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وخلع على شخص يسمى جانم أخا قانصوه الألفى ، وجعله والى القاهرة ، وكان قانصوه خمسمائة محبا للناس قاطبة ، بخلاف أقبردى ،

فلما لم يبق سوى أن يفاض عليـه شعار الملك ، ويركب فرس النوبة ، ويحمل على رأسه القبـة والطير ، ويصعد الى القلعة ، ويجلس على سرير الملك ... وقع عند ذلك العجـائب والغرائب كما يقال فى المعنى :

ستقضى لنا الأيام غير الذى قضت
ويحـدث من بعـد الأمور أمور

ثم ان قانصوه خمسمائة بعث بعض الأمراء الى القلعة ، بأن يقبض على الملك الناصر ، ويدخله الى قاعة البحرة . فتعصب له جماعة من مماليك أبيـه الذين كانوا بالطباق وجمـداريته وكتابه ، وكانوا نحوا من ألف مملوك . وكان رأس الجلبان قانصوه خال الملك الناصر ، فمنعوه من دخول قاعة البحرة ومن اعطائه الترس والنمچاه ولم يكن عند الناصر أحد من الأمراء ، فقام قانصوه فى محاربة قانصوه خمسمائة أشد القيام . وقاتل هو والجلبان قتـال الموت ، فملكوا فى ذلك اليوم رأس الصوة وسلم المدرج والطبلخاناه ... وعمد قانصوه خال السلطان الى الزردخانة ففتحها ، وأخـرج منها زرديات ، وخوذا وقسيا ونشـابا ، وفرقها على المماليـك الجلبان . وكان البدرى حسن بن الطولونى نائبا بالقلعـة ، فأحضر النجارين والحجارين ، فعملوا أشياء من الطوارق والمدافع . وكان عنـد الملك الناصر عدة وافـرة من العبيد رماة ، ما بين بندق رصاص ونفطية ، فحاصروا قانصوه خمسمائة وهو بباب السلسلة أشد المحاصرة ثم ان كرتباى الأحمر توجه خلف القلعـة ، ونصب مكحلة على الجبل المقطم تجاه القلعة ، ورمى بها على الحوش السلطانى فلم يفـد ذلك شيئا ... ثم ان قانصوه خمسـمائة نادى فى القـاهرة بأن أولاد النـاس النفطية تطلع الى باب السلسلة ويبيتون بهـا ، فلم يطلع اليـه أحد منهم ، فاستمر قانصـوه فى المحاصرة ، وهو مقيم بباب السلسلة ، والخليفـة والقضاة الأربعة والأمراء عنده واستمر على ذلك يومى الأربعاء والخميس .

* * *

فلما كان يوم الجمعة ، مستهل جمادى الآخرة ، وقع فى ذلك اليوم واقعة مهولة وقت صلاة الجمعة ، وأحرق المماليك الذين بالقلعـة سقيفة الاصطبل السلطانى بحراريق وبارود رموه عليها ، فاحترق الاصطبل ، وصار المقعـد الذى بباب السلسلة مكشوفا ، فخاف قانصوه خمسمائة على نفسه أن يرموا عليه شيئا من فوق . وكانت سقيفة الاصطبل تمنع الرمى عن المقعد الذى بباب السلسلة . فلمـا رأى قانصوه خمسمائة عين الغلب ، ركب ونزل من باب السلسلة ، ووقف عند سبيل المؤمنين ، فحرر عليه بعض الرماة بكفيه وقيل ببندقية ، فجاءت على طرق أذنه جواز ، فسقط عن فرسه الى الأرض ، وقد أغمى عليه وغاب عن الوجود ، فحمله الغلمان على أعناقهم ، وبقى لباسه بتكته بائنا للنـاس ، ورأسه مكشوف وعليه زنط أقرع . فنزلوا به من الصليبة وهو على هذه الهيئة . فلما وصلوا به الى المدرسة الجاولية أركبوه على حمـار .وهو مغمى عليه لا يدرى ما جرى له فلمـا وصلوا به الى درب الشمسى اختفى فى مكان هناك . وكانت هذه الواقعة من أعجب الوقائع كما قيل :

وبين اختلاف الليل والصبح معرك
يكر علينـا جيشـه بالعجـائب

فلما انكسر قانصوه ، وخرج من باب السلسلة على أنحس حال ، نزل المماليك الجلبان من القلعة الى باب السلسلة ، ونهبوا كل ما فيه من سـلاح وقمـاش وغير ذلك ، ونهبـوا طشتخاناة الأمراء والخليفة ، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم ، وما

سلم الخليفة والقضاة من القتل الا السلامة . وقتل فى هذه الحركه جماعة من الجند ، وقتل شحص من الأمراء العشراوات : يقـال له كمشبغا ، وكانت النصرة للملك الناصر على قانصوه خمسمائة على عير الفباس ؛ بعد أن ملك باب السلسلة ، وبايعه الخليفة ، ونلقب بالأشرف ، واجتمع عنده سائر الأمراء المقـــدمين — من الظاهرية الجقمقية ، والفايتباهية وسائر العسكر من كبير وصـغير — وقبلوا له الأرض قاطبة . فأورث الخذلان وانتصر عليه الملك الناصر ... وكان قد استخف به لصغر سنه وفلة عصبته ، فكان كما قيل فى المعنى :

ولا تحقرن صـغيرا رماك
وان كان فى ســاعديه قصر
فان الســيوف تحـز الرقاب
وتعـجز عما تنـــال الابر

وقال آخر :

لا تحقرن كيد الصـــغير فربما
تموت الأفاعى من سموم العقارب

وقال آخر :

لا تحقرن صغيرا فى مخاصمة
ان الذبابة تدمى مقلة الأســد

* * *

فلما كان يوم السبت مستهل جمادى الآخرة طلع الخليفة الى القلعة والقضـاة الأربعة يهنئون السلطان بالشهر ، وبهذه النصرة التى حصلت له . ثم ان الخليفة أعاد الناصر الى السلطنة وبايعه ثانيا ، وكان خلع من السلطنة ، وأقام ثلاثة أيام الى أن عاد اليها . وقيل ان الملك الناصر رشد فى ذلك اليوم وثبت رشده . وأباحوا له التصرف فى المملكة بما يختار . ثم انه خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ، وضربت البشائر بالقلعة ، وتخلق جماعة السلطان بالزعفران ، وفرق على الخاصكية سلاريات حرير أصفر يسنجاب ، وتوشحوا بالبنود الحرير الأصفر .

وفى ذلك اليوم رســم السلطان بالافراج عن الأتابكى تمراز الشمسى ، وتانى بك ، فتوجهوا بالمراسيم الى ثغر الاسكندرية الى مغلباى الشريفى وهو الآن الزردكاش الكبير . وكتب السلطان أيضا مراسيم الى أقبردى الدوادار بالحضور ، وتوجه اليه جانى باى .

وفى ذلك اليــوم خلع السلطان على اينــال السلحدار ، وقرره فى ولاية القــاهرة ، عوضا عن مصرباى الشــور ، بحكم اختفائه . وصرف نظر الجيش عن عبد القادر القصروى ، وأعيــد اليها الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف . وقرر البدرى محمد بن كمال الدين ناظر الجيش فى نظر الجوالى عوضا عن الناصرى محمد بن العينى بحكم صرفه عنها . وقرر شمس الدين الفرنوى فى نظر الأحباس ، عوضا عن محمد بن مزاحم الطرابلسى . وعين الأمير سودون العجمى فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قانى بردى البهلوان ، وأرسل بالقبض عليه . فلما جرى ذلك وقع النهب فى بيوت الأمراء الذين اختفوا لما انكسر قانصوه خمسمائة . وأقامت القــاهرة نحوا من أربع عشرة ليلة لم يدق فيها طبلخانات بموجب اختفائهم . واضطربت الأحوال .

وفى هذه المدة كانت القلعة شاغرة لم يقم بها خدمة ، ولا يصعد اليها أمير ، والاشاعات كل ليلة قائمة بوقوع فتنة . وكثر القال والقيل فى ذلك ، وامتنع الناس من السفر الى الشرقية والغربية ، لتزايد فساد العربان فى الطرقات ، والقاهرة مائجة بأهلها يترقبون فتنة كبيرة .

وفيه من الوقائع أنه لما انكسر قانصوه خمسمائة توجه فى ذلك اليوم قانصوه الشامى ومصرباى ،

والى القاهرة ، فخرجا على جرائد الخيل الى بر الجيزة ، وتوجها من هناك الى ثغر الاسكندرية ، ليقتلا الأتابكى تمراز وتانى بك قرا — وكانا بالسجن كما تقدم — وكان قانى بردى البهلوان ، أخو قانصوه خمسمائة ، يومئذ نائب الاسكندرية ... فلم يشكا بأن نائب الاسكندرية يمكنهما من قتل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا . وكان تدبيرهما فى يد غيرهما ، فبينما هما فى أثناء الطريق ، اذ خرج عليهما جماعة من العربان فى تروجة فتحاربا معهم ، فانكسروا وقبضت عليهما العربان ، فقتل مصرباى الثور ، وحزت رأسه وعلقت على باب الاسكندرية . وأما قانصوه الشامى فقبضوا عليه ، وأحضروه الى الاسكندرية ، فسجن بالبرج الذى كان فيه الأتابكى تمراز ... والمجازاة من جنس العمل . وكانت مدة سجن الأتابكى تمراز بالاسكندرية ستة أشهر وأياما ، وكذلك تانى بك قرا بعده بمدة يسيرة ، وأخرجا من السجن معا . وقد قيل :

وكم من طالب يسعى لشىء
وفيه هلاكه لو كان يدرى

فأقام قانصوه الشامى أياما فى السجن بثغر الاسكندرية .

وفيه بعث السلطان مراسيم على يد قانصوه دوادار الأمير شاد بك الخوخ الذى قتل ، بضرب عنق قانصوه الشامى . فلما وصلت المراسيم الى ثغر الاسكندرية أخرج قانصوه الشامى من برج الاسكندرية ، وتوجه به الى آخر المدينة وضرب عنقه . قيل وكان المشاعلى غائبا والذى ضرب عنقه كان صبى المشاعلى . وقيل انه ضربه ثلاث ضربات حتى أطاح رأسه وعذبه غاية التعذيب . وذلك أن قانصوه دوادار شاد بك الخوخ أخذ بثأر أستاذه منه ، وعلقت رأسه على باب الاسكندرية ، وهى مشهورة ، فكان أول من قتل من الأمراء . وكان شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية وكان لا بأس به

وفى أثنائه وصل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا فخرج الناس الى ملتقاهم ، وطلعا الى القلعة فى موكب حافل ، وعليهما الملاليط الطرح . فلما قابلا السلطان خلع عليهما ، ثم أعاد تمراز الى الأتابكية عوضا عن قانصوه خمسمائة . وخلع على تانى بك قرا وقرره فى امرية مجلس ، عوضا عن أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار ، وأنعم على قانى بك المعروف بنائب الاسكندرية ، وقرره من جملة المقدمى الألوف . وقرر خشكلدى فى استدارية الصحبة وعزل اينال السلحدار عن ولاية القاهرة ، وقرر بها قانصوه الفاجر عوضا عن اينال .

وفيه أنعم السلطان على مصرباى الشرنفى شاد الشرابخاناه بتقدمة ألف ، وخلع على خاله المقر السيفى قانصوه بن قانصوه ، وقرره فى شادية الشرابخاناه وأنعم عليه بامرية طبلخاناه وهذا أول ظهوره بمصر واشتهاره ... وكان من جمله مماليك السلطان الجمدارية ، ولم يكن خاصكيا ، فخدمه السعد جملة واحدة ، واستمر يرتقى الى أن بقى سلطانا ، كما سيأتى ذكره فى موضعه ... فلما بقى شاد الشرابخاناه اجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى لأرباب الوظائف من بابه ، وعولت الناس على أشغالها فى رد جوابه فهذا كله جرى وقانصوه خمسمائة من حين انكسر مختف . والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة . وصار الناس على رءوسهم طيرة .

ثم أشيع بين الناس أن المماليك الذين من عصبة قانصوه خمسمائة ، يقصدون قتل الأتابكى تمراز

وتانى بك قرا : فرسم لهما السلطان بأن يطلعا الى القلعه . ويقيما بها حتى يكون من الأمر ما يكون فطلع الأتابكى تمراز وتانى بك قرا وأقاما فى الجامع الصغير . الذى هو داخل الحوش السلطانى أياما .

فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، ظهر الأشرف قانصوه خمسمائة من مكان فى درب المرسينة ، الذى عند قناطر السباع ، وكان قد أشيع بأنه قد خرج على وجهه من حين انهزم من الرميلة . فلما ظهر تسامع به من كان من عصبته ، وأتوا اليه أفواجا أفواجا . فركب من هناك وتوجه الى الميدان الناصرى الذى عند البركة ، وعلى رأسه صنجق . فلما تسامع به العسكر حضر عنده جماعة من الأمراء ، ممن كان من عصبته واختفى يوم الهزيمة ... فحضر قانصوه الألفى وجان بلاط بن يشبك ، وماماى ، وقرقماس بن ولى الدين ، وقانصوه المحمدى ، وقيت الرجبى ، وكرتباى الأحمر . وكسباى الشريفى . ويشبك قمر ... فهؤلاء مقدمو ألوف . وحضر من الأمراء الطبلخانات والعشراوات جماعة كثيرة . فلما تكاثر هناك العسكر ضاق بهم الميدان ، فحسن ببال قانصوه خمسمائة أن يأخذ العسكر ويتوجه الى الأزبكية ، فتوجه الى هناك ، ونزل بدار الأتابكى أزبك ، فلم يحضر اليه من العسكر الا قليل ، فتلاشى أمره وبان عليه الخذلان ، وهو لا ينتهى عما هو فيه . كما يقال فى الأمثال : « الموت فى طلب الثار ، ولا الحياة فى العار » :

وقال آخر :

فموتى فى الوغى عيشى لأنى
رأيت العيش فى أرب النفوس

فبات تلك الليلة هناك فى الأزبكية ، فلما أصبح يوم الأربعاء انسحب من كان عنده من العسكر ، ولم يبق عنده منهم لا قليل ولا كثير ، وتوجه الأمير كرتباى الأحمر الى المطرية وخليج الزعفران ، لأجل أخذ الخيول ، فانها كانت فى الربيع . وبلغ قانصوه خمسمائة أن المماليك الجلبان نازلة من الطبقات وهم مشاة ، وقد وصلوا الى رأس البندقانيين . فلما تحقق ذلك ، طلب الفرس وركب هو ومن عنده من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، نحو من عشرين أميرا والطواشى فيروز الزمام ، ومنهم قايتباى الأقرع الزردكاش ، وبرسباى الخسيف أمير آخور ثانى ، وقرقماس الشريفى المحتسب ، واسنباى المبشر ، وتمراز الشيخ ، ودولات باى المصارع ، وأزدمر الخازندار ودولات باى جركس ، وتمرباى المحمدى كاشف الشرقية ، وسودون الدوادار ، وطومان باى أخو الأمير جانم ، وآخرون من الأمراء . فخرجوا من الأزبكية بعد طلوع الشمس ، وهم على جرائد الخيل ، وتوجهوا نحو خانقاه سرياقوس بعد أن أخذوا خيول السلطان وغيره من الربيع ، وكان آخر العهد بهم ، وقد قتلوا أجمعين كما سيأتى ذكره . فكانت هذه ثالث كسرة وقعت لقانصوه خمسمائة . وكان أرشل معكوس الحركات فى سائر أفعاله لم يطب طبه ، وكان ذلك خذلانا من الله تعالى له . وقد قيل فى المعنى :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه
وليس عليه أن يساعده الدهر
فان نال بالسعى المنى تم سعده
وان حالت الأقدار كان له العذر

فلما وصل المماليك الجلبان الى الأزبكية ، وجدوا قانصوه قد تسحب منها . وكان الأتابكى تمراز نزل مع جماعة من الجلبان من على باب الخرق ، وأتوا الى الأزبكية ، والجماعة الثانية مع

تانى بك قرا نزلوا وتوجهوا من البندقانيين من على قنطرة الموسكى . وأتوا الى الأزبكيه من هناك فلم يجدوا بها أحدا ... فأحرقوا طبلخانة الأمير أزبك ، ونهبوا داره والربوع التى هناك ، ونهبوا قناديل الجامع والحصر التى به . وكان هناك حواصل للأتابكى فيها خيام ونشاب فنهبوا ذلك جميعه ، ونهبوا دور سكان الأزبكية . فكان كما قال :

عيرى جنى وأنا المعذب فيكم
فكأننى سبابة المتندم

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه خمسمائة لما خرج من الأزبكيه قصد التوجه الى غزة ، ليقتل اقبردى الدوادار ولكن فاته الشنب . وكان مقيما عند اقباى نائب غزة ، وكان السلطان أرسل خلفه ليحضر الى القاهرة ، وكان يظن أن الوقت قد صفا له بكسره قانصوه خمسمائة . فقصد التوجه الى الديار المصريه ، فلما خرج من غزة ووصل الى خان يونس الذى هناك ، فلم يشعر الا وقد دهمته عساكر قانصوه خمسمائة ، ولم يكن عنده علم بذلك فأحاطوا به وكان بينهما واقعة قوية مهولة فانكسر أقبردى الدوادار ودخل الى خان يونس ، وأغلق عليه الباب . فحاصره قانصوه خمسمائة أشد المحاصرة ، وأحرق باب الخان ، وأشرف أن يظفر به . فلما رأى أقبردى عين الغلبة طلب من قانصوه خمسمائة الأمان ، فلم يعطه الأمان . فبينما هو على ذلك وقد دنت الشمس للغروب ، واذا باقباى نائب غزة ، واينال باى نائب طرابلس ، وشيخ العرب ابن نبيعه ، ومعهم جماعة من العربان والعشير أتوا ليتوجهوا مع أقبردى الى القاهرة ، فوجدوه فى المحاصرة وهو فى خان يونس ، فكان كما يقال « فى أضيق الوقت يأتى الله بالفرج » ، فكان بينهما واقعة لم يسمع بمثلها ، فلما حال بينهما الليل انكسر قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء والعسكر ... وهذه رابع كسرة وقعت لقانصوه خمسمائة ، فكان كما يقال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة
حتى تروم التى من دونها العطب

فكان أول من أسر من الأمراء ماماى بن خداد ، فحزت رأسه بين يدى أقبردى ، ثم حزت رأس فيروز الزمام ، وحزت رأس سودون الدوادار . وأما قانصوه خمسمائة ، فمن الناس من يقول انه قتل فى المعركة وحزت رأسه ، وأخذت فرسه ، والهياكل التى كان حاملها ، ومن الناس من يقول انه لما انكسر ، وحال بينهما الليل ركب فرسه ، وكان مجروحا فنجا بنفسه ، ولم يعلم له خبر . والأصح أنه قتل وحزت رأسه ، وأحضرت بين يدى أقبردى ، ودخلت رأسه الى القاهرة وهى على رمح ، وصار الناس بعد ذلك يشكون فى قتله الى الآن ، ويزعمون أنه باق فى قيد الحياة الى الآن ، وهذا من الأمور المستحيلة . وقد قضى الأمر فى قتله . فلما كان صبيحة يوم الواقعة ، صار أقبردى يقبض على الأمراء الذين كانوا صحبة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليهم من الغيطان التى هناك والخانات فأمسك منهم قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة عن عشرين ممن تقدم ذكرهم ، فلما قبض عليهم قيدهم ، وقبض على جماعة من الخاصكية ممن كان صحبة قانصوه خمسمائة . واستمروا فى أسره حتى كان من أمرهم ما سنذكره فى موضعه .

هذا ما كان من أمر قانصوه خمسمائة وأقبردى الدوادار . وأما ما كان من أمر الملك الناصر بعد حركة قانصوه خمسمائة ، فانه صار مع مماليك

أبيه فى الضنك وهو يهدد كل يوم بالقتل ، حتى امتنع من صلاة الجمعة ، وصار الأتابكى تمراز فى غاية المشقة ، وقد وعد بالقتل غير ما مرة

وفيه ، فى يوم السبت تاسع عشريه ، وقعت قلقلة بين المماليك والأمراء بالقلعة ، فقال المماليك للأمراء : « غيروا لقب السلطان ولقبوه بالأشرف على لقب أبيه » ، فطال الكلام فى ذلك . فقالت الأمراء : « كيف يكون هذا الأمر بعد ما خرجت عدة مناشير ومربعات الى البلاد الشامية باسم الملك الناصر . فكيف يغير لقبه بالملك الأشرف ؟ » فقال المماليك : « لا بد من ذلك » وصمموا على قولهم . فعند ذلك غير لقبه ، ونودى فى القاهرة بأن السلطان تغير لقبه وتلقب بالملك الأشرف ... فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطباء منهم من يخطب باسم الملك الناصر ، ومنهم من يخطب باسم الملك الأشرف . وكان سبب تغير لقب السلطان أنه أخرج خرجا من المماليك ، فصاروا يسمون الناصرية ، ومماليك أبيه يسمون الأشرفية ، فصارت المماليك الناصرية أرجح كفة من المماليك الأشرفية ، فما أطاقوا ذلك ، وقالوا «لقبوا السلطان بالأشرف،ونصير كلنا أشرفية» . فما زالوا على ذلك حتى فعلوه . وتقرب هذه الواقعة مما اتفق للملك الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون الألفى ، أنه تسلطن أولا وتلقب بالملك الصالح ، الى أن خلعه الظاهر برقوق من السلطنة وتسلطن عوضه فلما أعيد الى السلطنة ثانيا ، وخلع برقوق من السلطنة فى فتنة يلبغا الناصرى ومنطاش ، غيروا لقبه بعد مضى ثمانية أشهر ، ولقبوه بالملك المنصور . وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه كثر الاضطراب بالديار المصرية ، وامتنع الأمراء من طلوع الخدمة ، وكثر بين الناس القال والقيل بأن المماليك يقصدون الهجوم على السلطان ويقتلونه ... فرسم السلطان بسد باب السلسلة ، وباب الميدان ، وباب الحوش الذى يلى العرب ، فسدوها بالحجر واستمروا على ذلك مدة طويلة . فكان الناس يطلعون الى القلعة من باب المدرج فقط ، ويطلعون الى باب السلسلة من الباب الذى عند الصوة تحت الطبلخانات .

***

وفى رجب خلع السلطان على ابن سيف وقرره فى امرية آل فضل عوضا عن أبيه .

وفيه رسم السلطان بنفى أزبك قشق الظاهرى جقمق .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف على برد بك نائب جدة ، ومصرباى وقرقماش التنمى .. ولكن لم يتم له ذلك فيما بعد ، وقرر فى نيابة غزة عوضا عن أقباى كما سيأتى الكلام عليه .

وفيه أنعم السلطان أيضا على قانى بك نائب الاسكندرية ، وصار من جملة المقدمين ، وقرر مغلباى البجمقدار فى الخازندارية الكبرى .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق ، وأخذوا أموال التجار ، وفتحوا عدة من الدكاكين ، وفعلوا مثل ذلك بسوق تحت الربع ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما فيها .

وفيه قبض الملك الناصر على القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، وأودعه بالطشتخاناه التى بجوار البحرة ، وقرر عليه أموالا لا يقدر عليها ... وهذه أول نكباته ، وقاسى من البهدلة والانكاد ما يطول شرحه ، واستمر بعد ذلك فى النكبات ، وهى تترادف عليه شيئا بعد شىء ، حتى كان فيه هلاكه كما سيأتى دكر ذلك ... وكان سبب ذلك أنه يوم مبايعة قانصوه خمسمائة ، كان هو المذبذب له ، وأظهر البشر والفرح فى ذلك

اليوم ، فصار له ذنب عند الملك الناصر بسبب ذلك . ومن جملة ما قاساه أن الناصر لكمه على عينه فنفرت من مكانها ، وكادت أن تذهب ، وأقام أياما وعينه مرفودة وهو فى التوكل به أياما حتى أورد مالا له صورة مما قرر عليه .

وفيه رسم السلطان للأتابكى تمراز والأمير تانى بك قرا بأن ينزلا الى دورهما ، وكانا بجامع القلعة من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، كما تقدم ذكر ذلك . وخلع عليهما ، ونزلا الى دورهما فى غاية التعظيم

وفيه جاءت الأخبار بنصرة أقبردى الدوادار على قانصوه خمسمائة ، فلما تحقق السلطان ذلك نادى فى القاهرة بالزينة ، ودقت البشائر بالقلعة .

وفيه فى يوم الخميس رابع رجب جاءت رءوس من قتل فى المعركة على خان يونس ، كما تقدم ذكر ذلك . فكان عدة الرءوس التى حضرت الى القاهرة أربعا وثلاثين رأسا ؛ وهى معلقة على رماح ، وينادى عليها : « هذا جزاء من يخامر ويعصى على السلطان » . وكان من جملة تلك الرءوس رأس ماماى بن خداد أحد المقدمين ، وكان رئيسا حشما وافر العقل شجاعا بطلا ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ... توجه قاصدا الى ابن عثمان غير ما مرة ، وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، وهو الذى جدد الدار المعظمة التى بين القصرين ، وصرف عليها جملة مال عظيم . ومن جملة الرءوس رأس فيروز الطواشى الزمام ، فلم يرث له أحد من الناس ، ولا أثنى عليه خيرا ؛ وكان عنده خنفشة وطيش . ومن الأمراء العشراوات : بخشباى ابن عبد الكريم . وتمرباى كاشف الشرقية ، وسودون الدوادار . ومن الخاصكية عدة وافرة ، منهم قايتباى بن قيت الرحبى ، وخاير بك دوادار الأتابكى أزبك ، وأزبك البيرى السيفى جانى جدة وآخرون من الخاصكية المماليك السلطانية .

وكان آخر الرءوس الذى تسلطن — وما كان أغناه عن هذه السلطنة — فصنعوا له عيونا من زجاج حتى يعرف بها من بين الرءوس .

وكان قانصوه خمسمائة أميرا جليلا موصوفا بالشجاعة ، وافر العقل ، كثير الأدب والحشمة . ويقال كان أصله من مماليك الملك الظاهر خشقدم ومن كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباى ، وأعتقه فهو من عتقائه . وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، والأميراخورية الكبرى ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، ثم تسلطن وتلقب بالأشرف ، وأقام فى السلطنة ثلاثة أيام ، وخرب بسببه عدة دور ، وقتلت جماعة كثيرة من الأمراء . وكان قانصوه خمسمائة ليس له سعد فى حركاته ، وقتل وهو فى عشر الخمسين . فلما عرضوا تلك الرءوس شك أكثر الناس بأن هذه ليست برأس قانصوه خمسمائة ، واستمروا على ذلك الى الآن . والأصح أنها رأسه ... فأمر السلطان أن تعلق بباب زويلة وباب النصر ، واستمرت الكئوسات تدق بالقلعة سبعة أيام ، وكذلك بيوت الأمراء المقدمين .

ثم أن أقبردى الدوادار أرسل يشاور السلطان فى أمر هؤلاء الأمراء الذين أسروا بخان يونس ، فبرزت اليه المراسيم الشريفة بقتلهم أجمعين . فلما وصل أقبردى الى الخطارة سلم هؤلاء الأمراء الى شيخ العرب أحمد ابن قاسم بن بقر ، فأتى بهم الى فاقوس وقتلهم أجمعين تحت جميزة كانت هناك . ثم رموهم ببئر كانت هناك ، وانقضت أخبارهم . وقيل ان الذى باشر قتلهم تانى بك أبو شامة ، وقتل تانى بك أبو شامة بعد مدة يسيرة كما سيأتى الكلام عليه ... ومثل ما تعمل شاة الحمى

فى القرظ يعمل القرظ فى جلدها . فكان عدة من قتل هناك من الأمراء نحوا من خمسة عشر أميرا . منهم مقدمو ألوف ثلاثة ، وهم قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر . وكان قانصوه الألفى من خواص الأشرف قايتباى ، وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير آخور . وكسباى الزينى تولى حسبة القاهرة ، والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف . ويشبك قمر تولى ولاية القاهرة ، ثم مقدم ألف ... ومات بقية الأمراء شر ميتة ، حتى قيل ان العرب قطعوا أرجلهم بالخناجر حتى أخذوا منها القيود الحديد ، وألقوهم هناك فى بئر خراب .

وأما من قتل هنـاك من الأمراء الطبلخانات . فالأمير قايتبـاى الأقرع الزردكاش الـكبير ، وبرسباى الخسيف أمير آخور ثانى ، وقرقماش الشريفى المحتسب ، واسنباى المبشر استادار الصحبة ، وتمر باى ، وتمراز الشيخ ، ودولات باى بن جركس ، وأزدمر الخازندار ، ودولات باى المصارع وآخرون من الأمراء العشراوات . وقد تقدم القول على ذلك . وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع وأبشـعها . وكان قانصـوه خمسمائة لما تسحب من الأزبكية وقصد التوجه الى غزة ، أخذ عدة خيول للسلطان وللنـاس ، كانت فى المرابط على البرسيم فى زمن الربيـع فحصل بسـبب ذلك غاية الضرر . وكانت تلك الأيام كلها اضطرابا .

وفيـه أرسل السلطان الملك النـاصر يستحث أقبردى الدوادار على الدخول الى القاهرة، وكان ظن أن الوقت قد صفا له ، ولكن حدث بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليها .

وفيه خلع السلطان على جوهر المعينى ، وقرره فى الزمامية ، عوضا عن فيروز الرومى ، بحـكم قتله كما تقدم . وقرر عبـد اللطيف الرومى فى الخازندارية الكبرى ، عوضا عن فيروز أيضا .

وفيه أنعم السلطان على قانى باى الرماح بتقدمة ألف ، وكان أمير عشرة ، وولى نيابة صهيون قبل ذلك .

وفيه خلع السلطان على أبى يزيد الصغير ، وقرره فى باشية مكة المشرفة ، وكان ذلك باختياره خوفا على نفسه من القتل والفتن .

وفيه من الحوادث أن مماليك الأتابكى تمراز قتلوا شخصا من خواصه يقال له محمد البارنبالى ، وكان من وسائط السوء عند تمراز ، وكان صاحب ديوانه ومباشره . فما أطاق المماليك فعله فقتلوه وهو جالس بباب الأتابكى تمراز . وتعصب لهم بعض مماليك السلطان ، فلم يطلع من يد الأتابكى تمراز فى حقهم شىء ، وراح القتل فى كيس محمد البارنبالى .

وفيه ابتدأ الملك الناصر فى الطيش ومخالطـة الأوباش والأطراف ، وحملت اليه مركب صغـيرة فجعلها فى البحرة ، ووضع بها حلواء وفاكهة وجبنا مقليا ، وصار ينزل فى المركب بنفسه ، ويبيع كما يصنع البياعون فى المتفرجات ... وكان كل ذلك خفـة لصغر سنه . ثم انه عرض المحابيس فأطلق منهم جماعة ، وأمر باتلاف سبعة أنفار من المفسدين كانوا معهم فى السجن ، ثم أدخلهم الى الحـوش الذى قدام باب قاعة البحرة ، فوسطهم بيده وعلمه المشاعلى كيف يوسط ، ثم قطع أيديهم وآذانهم وألسنتهم بيده ، والمشاعلى يعلمه كيف يصنع . وهذا كله من أقبح الفعال التى لا تليق بالملوك ، ولكن قصد أن يمشى على طريقـة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وهى أنحس طريقة .

وفى يوم الأحد رابع عشر رجب ، كان دخول أقبردى الدوادار الى القاهرة ، فزينت له ودخل

فى موكب حافل ، وطلب طلبا عظيما ، وكان له يوم مشهود . ودخل معه من الأمراء آقباى نائب غزة ، واينال باى نائب طرابلس ، وشيخ العرب ابراهيم ابن نبيعة ، وجماعة من الأمراء والخاصكية ممن كان من عصبته وفر معه ، منهم : برد بك المحمدى الخازندار الاينالى ، ودولات باى ، ومغلباى عسل نحل ، وجانم الأجرود ، فهؤلاء من الاينالية . وأما من كان من القايتباهية فهم : اسنباى الأصم ، وبرسباى السلحدار ، وجانى بك الصغير ، وآخرون . وأحضر صحبته جماعة ممن كان فر مع قانصوه خمسمائة من الخاصكية والمماليك السلطانية ممن آسر منهم ، وهم فى جنازير حديد ، فقصد أقبردى أن يدخل بهم قدامه وهم فى جنازير ، وكانوا نحو مائتى انسان ، فتعصب لهم خشداشينهم وقالوا : « متى فعل ذلك قتلناه » فرجع عن ذلك . وكان أحضر معه رأس قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر ، الذين قتلوا فى الخطارة . وقصد أن يشهرهم على الرماح قدامه لما يدخل الى القاهرة ، فلم يجسر يفعل ذلك . ولكن عرضهم على السلطان فيما بعد فى الخفية ، ولم يشعر بهم أحد . فلما شق القاهرة وطلع الى القلعة خلع السلطان عليه وعلى من جاء صحبته من الأمراء ، وعلى شيخ العرب ابن نبيعة ، ونزلوا الى دورهم .

ثم ان الملك الناصر قصد أن نفتك بالمماليك الذين حضروا صحبة أقبردى ، ممن آسر على خان يونس ، فما جسر على ذلك وخشى من وقوع فتنة ، فما وسعه الا أن عفا عنهم ، وأنفق على كل واحد منهم عشرة دنانير وأطلقهم ، وخمدت فتنة قانصوه خمسمائة .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وحضر الأتابكى تمراز ، وتانى بك قرا أمير مجلس ، وأقبردى الدوادار . ثم أحضر المصحف العثمانى الى القلعة فحلف عليه الأتابكى تمراز وتانى بك قرا وأقبردى الدوادار — ولم يكن حلفهم قبل اليوم — بأنهم لا يخامرون ولا يعصون ولا يركبون على السلطان ، فحلفوا على ذلك .

ثم انه خلع على أقبردى الدوادار ، وقرره فى امرية سلاح عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم أنه اختفى ، وقرره أيضا فى الدوادارية الكبرى عوضا عن جان بلاط بن يشبك بحكم اختفائه ، وقرره أيضا فى الوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم اختفائه أيضا . فصار كما كان يشبك بن مهدى ، وكان نهاية سعد أقبردى فأقام على ذلك مدة يسيرة نحوا من شهرين . وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قرر كرتباى أمير آخور كبير ، عوضا عن قانصوه الألفى بحكم قتله .

وفيه خلع السلطان على أقباى نائب غزة وقرره فى رأس نوبة الكبرى عوضا عن قانصوه الشامى بحكم قتله بالاسكندرية . وأنعم على جانم الأجرود كاشف منفلوط بتقدمة ألف ، وأنعم على برد بك المحمدى بتقدمة ألف ، وأنعم على كرتباى أخى أقبردى بتقدمة ألف ، وقرر اينال باى نائب طرابلس على حاله ، فأقام فى القاهرة أياما ورجع الى طرابلس على عادته .

وفيه رسم السلطان لكاتب السر وناظر الجيش ألا يخرجوا مراسيم سلطانية ولا مربعات ولامناشير الا بختم من وراء العلامة السلطانية ، وأن يكتبوا أيضا وراء العلامة ما تضمنه ذلك المرسوم .

وفيه قويت الاشاعات بوقوع فتنة ، وأخذ

السلطان فى تحصين القلعة . ونقل اليها أشياء كثيرة من الدقيق والبقسماط والأحطاب والماء والعليق : وغير ذلك . وكانت الأحوال فى غاية الاضطراب . وظهر غالب من كان اختفى من عصبة قانصوه خمسمائة . وانتموا الى قانصوه خال السلطان ، والتفوا عليه بعضا فى أقبردى الدوادار . وقد تلاشى أمره لما عاد فى هذه المرة وصار مهددا بالقتل فى كل ليلة ، ولم تنفذ له كلمة ، كما قال :

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها
فحينما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت
يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

فكان زوال أقبردى عن قريب .

* * *

وفى شعبان أنعم السلطان بامرية عشرة على مراكز البهلوان ، وهى امرية قايتباى الشرفى الذى قتل بغزة .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة برد بك الطويل نائب صفد . فلم يأذن له السلطان بالاجتماع به ، ومنع من الطلوع الى القلعة عند حضوره . وقاسى من أقبردى الدوادار غاية البهدلة

وفيه أمر السلطان بأن تقطع الحيات التى تصنع فى البيمارستان بحضرته حتى تتفرج عليها ... فأحضروها بين يديه بقاعة البحرة ، فقطعت بحضرته وهو ينظر اليها وخلع على رئيس الطب شمس الدين القوصونى وولده والحاوى الذى أحضر الحيات وآخرين منهم .

وفيه أنعم السلطان على طومان باى الخاصكى بالخازندارية وآمرية عشرة ، وكان قد قدم من البلاد الشامية وطومان باى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وتلقب بالملك العادل ، وكان بين امرية العشرة وسلطنته دون الأربع سنين .

وفيه هجم المنسر على سوق أمير الجيوش ، وأخذوا منه أشياء كثيرة من عدة دكاكين ، وقتلوا الخفير ، وراحت على أصحابها

وفيه خلع السلطان على جانم المصبغة ، وقرره فى حجوبية الحجاب عوضا عن انال الحسيف

وفيه رسم السلطان بشنق عبد القادر صبى القصديرى .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بقتل شمس الدين ابن بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، مات مذبوحا بدمشق ، وهو فى داره ، وكان متولى قضاء الشافعية بدمشق

وفيه جاءت الأخبار بوفاة رستم صاحب العراقين وديار بكر ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة من المماليك الجلبان على السلطان ، وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت له ، فأنفق عليهم بعدما كانت فتنة كبيرة بسبب ذلك ، فبلغت هذه النفقة نحوا من خمسمائة ألف دينار . وصودر فيها جماعة كثيرة من المباشرين وغيرهم .

وفيه صار السلطان يخرج اقطاعات الناس والرزق والأملاك ويفرقها على مماليكه الجلبان . وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك

وفيه قرر السلطان تمراز جوشن أمير آخور ثانى ، وقرر قصروه فى نيابة القلعة

وفيه قبض أقبردى الدوادار على داود بن عمر أمير هوارة ، وقد آل أمره فيما بعد الى أنه شنق على باب شونة منفلوط بالوجه القبلى لأمور حقدها عليه .

وفيه جاءت الأخبار من نواحى هرمز بأن خسف بها مدينة كاملة بأهلها .

وفيه أكمل السلطان النفقة على الجند والأمراء .

وفيه توفى شهاب الدين أحمد بن عامر المغربى المالكى ، شيخ تربة الأشرف قايتباى ، وكان عالما فاضلا صالحا متقشفا لا بأس به

وفيه جاءت الأخبار بأن الطاعون قد وقع بمدينة غزة ، وهو زاحف نحو البلاد المصرية .

وفيه خلع السلطان على وفاء الماوردى وقرره فى امرية دون أميرشكار ، وأمر له بأن يتــزيا بزى الأتراك ويلبس التخفيفة التى بالقرون والسلارى القصير الكم — وكان عاميا يلبس لبس العوام — فعد ذلك من نواقص الملك الناصر .

وفيه تزايد أذى الجلبان فى حق أقبردى وصار مهددا بالقتل فى كل يوم ، حتى سأل السلطان أن يوليه نيابة الشام ، ويخرج اليها خوفا على نفسه من الجلبان ، فلم يسمح له السلطان بذلك .

* * *

وفى رمضان فى أول ليلة منه لم يطلع أحد من الأمراء ، ولا أفطر عنـــــد السلطان على جارى العادة ، وكثرت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة بسبب أقبردى .

فلما كان يوم السبت رابع شهر رمضان ركب الأمير اقبردى ، ووافقه على ذلك تانى بك قرا أمير مجلس ، واقباى نائب غزه رأس نوبه النوب ، وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وجانم الأجرود كاشف منفــلوط أحد المقــدمين ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، والجم الغفير من الجند ، ممن كان من عصبه أقبردى ، فوقع فى ذلك اليوم واقعه مهوله ، فانكسر أقبردى بعد العصر واختفى فلما دخــل الليــل هرب أقبردى هو ومماليكه ، وأخذ صحبته أقباى نائب غزة رأس نوبة كبير فلما هرب توجه نحو الصعيد فأقام به حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه توفى خالص الطواشى التكرورى مقــدم المماليك ، وكان عنده لين جانب وكان لا بأس به .

فلما مات قرر فى تقــدمة المماليك مثقال الحبشى البرهانى ، الذى كان مقــدم المماليك ، ونفى الى القدس وأعيد الى القاهرة .

وفيه اشتد الحر وعز وجود السقائين ، وتكالب الناس على الروايا والجمال حتى تخانقوا بالعصى ، وبلغ سعر راوية الماء ثلاثة أنصاف .

وفيه من الوقائع الغريبة أنه فى اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور ، أمر السلطان بأن تدق الكئوسات بالقلعة ، وقال : « أنا أعمل العيد فى الغــد من هذا الشهر ان رأوا الهلال أو لم يروا » .

فلما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا وطلع الى القلعة ، فاجتمع بالسلطان وعرفه بأن العيد لا يكون الا اذا رؤى الهلال فى تلك الليلة . فشق ذلك على السلطان ، وهم بعزل القاضى فى ذلك اليوم . فلما دخل الليل لم ير الهلال فى تلك الليلة ، وجاء العيد بالجمعة . وكأن الناصر تطير بالعيد أن يجىء يوم الجمعة ، فكان ذلك على رغم أنفه .

* * *

وفى شوال لم يخرج السلطان الى صلاة العيد ، ولا طلع الأتابكى تمراز الى القــلعة ، ولا بقية الأمراء المقــدمين ، فبعث السلطان الخلع اليهم فى بيوتهم . وفى أواخر ذلك اليوم طلع الخليفة ليهنى السلطان بالعيد ، وكان بقاعة البحرة مع الأوباش الذين يعاشرهم ، فلم يخرج اليه السلطان ، وأرسل يتشكر منه ، وأمره بالانصراف ، فعــد ذلك من نواقص الملك الناصر وكان الملك الناصر فى تلك الأيام فى غاية الطيشان .

وفيه أنعم السلطان على قصروه بتقدمة ألف

بعده ، وخلع على عمه قت وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن قصروه ، بحكم انتقـــاله الى التقدمة ، وقرر ولده جانم فى الزردكاشيه عوضا عن أبيه .

وفيه رسم السلطان لشخص من الأمراء يقال له قانصوه الساقى ، بأن يكون آمينا على باب القلعة عند سلم المدرج ، يحيط علما بمن يطلع الى القلعة أو ينزل منها ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه جاءت الأخبار من المدينـــة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والســـلام ، بوفاة الحافظ شمس الدين الســـخاوى ، وهو محمـــد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الحـــديث ، وألف تاريخا فيه أشياء كثيرة من المساوى فى حق النـــاس ، وكان مولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من الصعيد بأنه قد قامت هناك فتنة كبيرة بين حميد بن عمر أمير هوارة ، وهو أخو داود الماضى خبره ، فوقع بين حميد وبين قريبه ابراهيم فتنة مهولة يأتى الكلام عليها .

وفيه كانت الفتن قائمة بين طائفة بنى حرام ، وبنى وائل ، حتى أعيا جان بردى الكاشف أمرهم ، وخرجت اليهم تجريدة ، وبها عدة من الأمراء . ولم تفد ذلك شيئا .

وفيه عين السلطان أبا يزيد الصغير بأن يتوجه الى أقبردى الدوادار للصـــعيد ، وصحبته خلعه وفرس بسرج ذهب وكنبوش ، وعلى يده مراسيم شريفة لأقبردى الدوادار ، بأنه على عادته فى وظائفه حتى يصير له حرمة عند العربان ثم حضر الى القاهرة عن قريب وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل مصرباى أحد المقـــدمين ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن العينى . وكان الحاج فى تلك السنه قليلا .

وفيه صعد سليمان ابن فرطام أحد مشايخ بنى حرام الى القلعة ، وعلى رأسه منديل الأمان من السلطان . فلما مثل بين يديه لكمه قانصوه الفاجر ، والى الشرطة ، وأخذ منه منديل الأمان ، والسلطان ساكت لم يتكلم . وثارت عليه جماعة من المماليك السلطانية ، وقالوا : « هذا قتل خشداشينا الذين قتلوا بالخطارة ، فكيف تعطونه منديل الأمان » . فشق ذلك على السلطان ، وقام من فوق الدكة وهو غضبان من المماليك .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة قانصوه اليحياوى نائب الشام ، وحضر سيفه . وكان أصله من مماليك السيفى جقمق ، وكان لا بأس به تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الاسكندرية ، ونيابة صفد ، ونيابة طرابلس ونيابة حلب ، ونيابة الشام . وجرى عليه شدائد ومحن ، وأسر عند يعقوب بك ابن حسن الطويل فى كائنة يشبك الدوادار مع بابندر ونفى الى القدس ، ثم تولى بعد ذلك نيابة الشام ومات بها وهو على نيابته . وكان من أجل الأمراء وأعظمهم قدرا

وفيه توفى الشيخ الصالح المسلك نور الدين الذاكر ابن عين الغزال ، وكان معروفا بالصـــلاح لا بأس به .

* * *

وفى ذى القعدة توفى قاضى القضـــاة الحنبلى بدر الدين السعدى . وهو محمد بن محمد بن أبى بكر بن خلف بن ابراهيم الحنبلى ، وكان عالما فاضلا عارفا بمذهبه تولى القضاء بمصر وهو فى عنفوان شبوبيته ، وأقام به مدة طويلة حتى مات وهو فى وظيفته ، وكان لا بأس به توفى وهو فى عشر الستين .

فلما مات أرسل السلطان خلف شهاب الدين الشيشي ، وكان بمكة المشرفة ، فلما حضر خلع عليه السلطان ، وأقره فى قضاء الحنابلة بمصر ، عوضا عن بدر الدين السعدى بحكم وفاته . وهو باق على وظيفته الى آن مات بها ، لكن بعد عزل واعادة .

وفيه ظهر قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، أحد الأمراء المقدمين ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر . فلما ظهر أمنه السلطان على نفسه ، وأقام بداره .

وفيه من الحوادث أن القاضى أبا البقاء بن الجيعان ، كان طالعا الى القلعة فصلى صلاة الفجر ، وخرج من داره . فلما وصل الى الحمام الذى هو خارج من زقاقهم ، خرج عليه بعض المماليك بخنجر فضربه فى بطنه ضربة بالغة فمات من وقته ، وما عرف قاتله ، واتهم به جماعة من المماليك . وكان رئيسا حشما فاضلا عالما عارفا بأحوال المملكة ، وكان مقربا عند السلطان الأشرف قايتباى ، ترقى فى أيامه وانتهت اليه الرياسة ، وفاق على من تقدم من أقاربه . وكان أدوبا حلو اللسان سيوسا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان من نوابغ أولاد ابن الجيعان ، وهو أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر ، وله بر ومعروف ، وهو الذى أنشأ عمارة الزاوية الحمراء ، وجعل بها خطبة وحوضا وسبيلا ، وأنشأ هناك القصور والمناظر والغبط ، وصار ذلك المكان من جملة متفرجات القاهرة ، تسعى اليه الناس فى زمن النيل بسبب الفرجة هناك ، وصار عوضا عن التاج والسبعة وجوه التى كانت من المتفرجات القديمة . ومات أبو البقاء ، وقد قارب الستين سنة من العمر ، فلما مات خلع السلطان على أخيه صلاح الدين وقرره فى استيفاء الجيش ، مضافا لما بيده من نيابة كتابة السر .

وفيه تزايد شر المماليك الجلبان ، وضيقوا على السلطان ، وصار معهم فى غاية الضنك . فأرسل يستحث أقبردى الدوادار فى سرعة المجىء .

وفيه ، فى رابع عشرى الشهر المذكور يوم الخميس ، وصل أقبردى الى بر الجيزة ، فلما تسامع به الأمراء خرجوا اليه قاطبة ، وكذلك العسكر ، ولم يخرج اليه قانصوه خال السلطان ، فتلطف به الأتابكى تمراز حتى ركب معه ، وتوجها الى نحو السواقى التى عند الهد بالقرب من درب الخولى ، فقصد خال السلطان أن يعدى من هناك ويتوجه الى أقبردى ليسلم عليه فمنعه المماليك من ذلك ، وقالوا له : « متى عديت ورحت اليه يقبض عليك » فتخيل من ذلك ، ورجع من حيث أتى ... فعند ذلك كثر القال والقيل ، واضطربت الأحوال ، وصار العسكر على ثلاث فرق : فرقة مع أقبردى الدوادار ، وفرقة مع قانصوه خال السلطان — وهى الفرقة التى كانت من عصبة قانصوه خمسمائة فالتفوا على خال السلطان — وفرقة وافرة من المماليك الجلبان مع السلطان . ثم ان طائفة من المماليك لبسوا آلة السلاح ، وتوجهوا الى بيت أقبردى الدوادار عند حدرة البقر ، فأحرقوا مقعده ونهبوا رخامه وأخشابه وأبوابه ، وذلك قبل دخول أقبردى الى القاهرة .

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرى الشهر المذكور عدى أقبردى من الجيزة الى مصر ، فلما وصل مصلاة خولان التى بالقرافة الكبرى ، لاقاه الأتابكى تمراز وتانى بك قرا — وقد ظهر وكان مختفيا من حين كسرة أقبردى فى شهر رمضان ،

كما تقدم — وتوجه الى أقبردى الجم الغفير من العسكر . وكان أقبردى أرسل خلف جماعه من عربان عزالة وبنى وائل . ثم ان العربان كانوا فى طلائع عسكر أقبردى وأتوا معه ووصلوا الى باب الزغلة وقد كان توجه اليهم جماعة من المماليك الذين هم من عرضى قانصوه خمسمائة . فالتقى معهم جاير بك الكاشف وجماعة من المماليك الذين هم من عصبة أقبردى ، فكسروهم وطردوهم هم والعرب الى أن وصلوا المجراة التى عند باب الزغلة وصار العرب يشوشون على الناس الذين يتوجهون من هناك ، ويعرونهم ويأخذون عمائمهم وأثوابهم . وقتل فى ذلك اليوم جماعة من الغلمان واثنان من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم سادس عشرى الشهر المذكور دخل أقبردى الدوادار من مصلاة خولان ، ودخل المدينة على مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ، ولم يشق من الصليبية بل توجه الى بيته من درب الحازن . فلما استقر بداره أتى اليه الأمراء والعسكر أفواجا أفواجا ، ولو حطم فى ذلك اليوم وطلع الى القلعة لملكها من غير مانع . وكان ذلك من عين الصواب لكن أشار عليه الأتابكى تمراز بالمجىء الى داره والتثبت فى ذلك . فكان كما يقال فى المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته
مع التأنى وكان الرأى لو عجلا

فلما بلغ قانصوه خال السلطان أن أقبردى دخل الى القاهرة ، وأحضر صحبته عربان من بنى وائل وعزالة ، اضطربت أحواله . ولم يكن عنده بالقلعة من العسكر الا القليل ، فعند ذلك طلع الى القلعة الأمير كرتباى الأحمر ، وكان مختفيا من عهد واقعة خان يونس . فلما بلغ جماعة قانصوه خمسمائة بأن كرتباى قد طلع الى القلعة بادروا اليه بالطلوع .

وكان قد حضر من الشام مماليك قانصوه اليحياوى وصعدوا الى القلعه استنزلهم السلطان فى الديوان ، فأقاموا بالجامع وصاروا من عصبة الفواقة . وكان أكثرهم رماة بالمدافع والسبقيات والبندق الرصاص وهم الذين كانوا سببا فى كسرة أقبردى فقويت شوكة خال السلطان بهم وبالأمير كرتباى الأحمر . وصار جماعة المماليك طالعين الى القلعة أفواجا أفواجا ، وقويت الفواقة . وأرسل خال السلطان خلف طائفة عربان من بنى حرام . وأحضر قراجا نائب غزة كان ، عربان السواملة ، فصارت العربان يقاتل بعضهم بعضا . فلم يحصل بالطائفتين نفع بل حصل منهم غاية الضرر ، وصاروا يعرون الناس ، ويخطفون العمائم بالمطرية وبولاق ومصر العتيقة والقرافة ، وصاروا ينهبون الترب ومزارات الصالحين ، حتى مزار الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهم ورحمهم . وأظن أن هذا هو الذى كان سببا فى كسرة أقبردى .

ثم ان أقبردى أحضر أشياء كثيرة من الأخشاب وشرع فى عمل طوارق ، وأحضر عدة قناطير نحاس وشرع فى سبك مكحلتين كبار ، وأحضر المعلم دميلكو السباك وشرع فى سبكها . وأظهر أقبردى الدوادار فى هذه الحركه همة عالية . وكان عنده من الأمراء الأتابكى تمراز وتانى بك قرا الاينالى أمير مجلس ، وكرتباى ابن عمة السلطان أمير آخور كبير ، واقباى نائب غزة رأس نوبة النوب ، وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وتانى بك الشريفى نائب الاسكندرية أحد مقدمى الألوف ، وجانم الأجرود أحد المقدمين ، وبرد بك المحمدى الاينالى أحد المقدمين ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة على ثلاثين أميرا ، منهم : مغلباى صصرق الأشرفى برسباى ، وغير ذلك من الأمراء . واجتمع عنده الجم الغفير من العسكر من سائر الطوائف .

فكان أقبردى فى كل يوم يمد للأمراء والخاصكية أسمطة حافلة فى أول النهار ، وفى آخره ، ثم يحضر لهم السكر والحلواء والفاكهة والبطيخ الصيفى واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ، وحاصر أقبردى من بالقلعة أشد المحاصرة ، ومنع الغلمان والعبيد أن يصعدوا الى القلعة بشىء من الأكل ، وقطع آذان جماعة من العبيد وأيديهم بسبب ذلك .

***

وفى ذى الحجة قوى عزم أقبردى على محاصرة القلعة ، وكان يركب كل يوم هو والأتابكى تمراز والأمراء ، وعلى رأسه الصنجق السلطانى يخفق . وقد أرسله اليه الملك الناصر فى الدس ، وكان له به عناية فى الباطن ، فصار أقبردى يظهر أنه لم يكن راكبا على السلطان ، وانما له غرماء من الأمراء ، وقصده القبض عليهم .

هذا ما كان من أمر أقبردى الدوادار ... وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لم يكن عنده من الأمراء سوى قانصوه خاله . ثم صعد فى ذلك اليوم كرتباى الأحمر على الفور ، وكان مختفيا وجلس بالمقعد الذى برأس سلم المدرج . وكان الأمير سودون العجمى ، وجان بلاط الغورى ، وقانى باى الرماح ، وطومان باى الشريفى ، ودولات باى قرموط ، وغيرهم من الأمراء — قد ركبوا المكاحل حول القلعة والسبقيات ، وركبوا المكحلة المسماة بالمجنونة على باب السلسلة . وكان غالب مماليك قانصوه اليحياوى — نائب الشام الذى توفى وحضرت مماليكه فى تلك الأيام — كلها رماة بالسبقيات والبندقيات الرصاص . فأخذ بخاطرهم كرتباى الأحمر ، وخال السلطان قانصوه ، وأنزلوهم فى الديوان السلطانى ، وصرفوا اليهم الجامكية ، حتى انهم صاروا معهم ، وكانوا زيادة عن مائتى انسان .

وصار الحرب ثائرا بين الفريقين . فبقى مع الفرقة التى بالقلعة من باب المدرج ، الى رأس الصوة ، الى باب زويلة ، الى باب النصر ، الى المطرية .

وصار مع الفرقة التى مع أقبردى من باب القرافة الى الصليبة ، الى قناطر السباع ، الى مصر العتيقة ، وبولاق . وصار يقتل فى كل يوم من طوائف العربان مقتلة كبيرة ، من بنى وائل وبنى حرام ، وكانوا يدخلون برءوس القتلى آخر النهار فى شباك التبن . فقتل فى هذه المعركة من العربان نحو من ألف انسان وزيادة على ذلك . فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكانت الأتراك تقاتل مع بعضها ، والعربان تقاتل مع بعضها . فلما قرب عيد الأضحية ، فرق أقبردى على الأمراء والعسكر الذين ركبوا معه عدة أبقار وأغنام كثيرة . ثم أنفق لهم جامكية ذلك الشهر ، والأضحية من ماله دون مال السلطان ، فصرف فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وياليت هذا أفاده شيئا ! ثم ان أقبردى أحضر دميلكو السباك ، واستحثه فى سرعة عمل سبك المكحلة ، فأخذ فى أسباب ذلك ... ثم ان أقبردى وزع الأمراء فى أماكن شتى بسبب حصار القلعة ، فكان كرتباى ابن عمة السلطان أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا أمير مجلس وجماعة من العسكر ، فى مدرسة السلطان حسن ، بسبب حصار القلعة . فكانوا يرمون عليها فلم يفد شىء من ذلك .

ثم انهم رموا بالمكحلة المسماة بالمجنونة على من فى مدرسة السلطان حسن ، فخرق المدفع شباك المدرسة ، ودخل فقتل ثلاثة أنفار من المماليك الذين هناك ، فحصل للعسكر من ذلك زمقة ، وكان لهم يوم عيد النحر واقعة قوية تشيب منها النواصى ، وقتل فى ذلك اليوم شخص

من الأمراء العشراوات يقال له جانم بن قايتباى ، وآخر من الأمراء يقــال له طومان باى نائب البهسنا ، وشخص يسمى قصروه نائب سنجر ، وكان حضر صــحبة الأمير أقبردى الدوادار من البلاد الشامية

وقتل ممن كان بالقلعــة شخص من الأمــراء الطبلخانات يقال له برسباى اليوسفى أبو ذقن ، وكان من مماليك الظاهر جقمق . مات فجأة بالقلعة فى مدة المحاصرة ، وكان لا بأس به فلما طال على العسكر الذين كانوا مع أقبردى أمر الحصار ، وأبطأ عليهم دميلكو بفراغ المكحلة التى شرع فى سبكها ، وصار يقتل كل يوم من جماعة أقبردى جماعة كثيرة ، فبقى ينسحب منهم جماعة ويطلعون الى القلعة شيئا فشــيئا . فبان على أقبردى أمر التلاشى ، فلما حييت الطائفة الفوقانية ، ظهر جان بلاط بن يشبك الذى كان دوادارا كبيرا ، وظهر الأمير قرقماس بن ولى الدين ، وفيت الرجبى ، وقانصوه المحمدى المعروف بابرجى ، وكان ظهر قبل هذا اليوم عند دخول أقبردى القاهرة كرتباى الأحمر ثم ظهر أزبك اليوسفى الظاهرى ، وتانى بك الجمــالى ، وغير ذلك من الأمراء ممن كان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر . فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة . قويت شوكتهم ، وحــدوا فى القتال ولو حطم أقبردى أول يوم دخل فيه الى المــدينة ، وطلع الى القلعة ، لكان ملك القلعة فى ذلك اليــوم من غير مانع ، ولم يكن بها أحد من العسكر ، وكانت قلوب العسكر معمرة منه بالكرب الشديد واستخف أقبردى بمن فى القلعة ، وسمع رأى الأتابكى تمراز ، وتوجه الى بيته حتى كان ذلك سببا لقلة نصرته . ولم يعلم ما وراء ذلك

فاشتد أمر القتال ممن كان بالقلعة ، واستطالوا على التحتانيين الذين من حلف أقبردى بالنشاب والبندق الرصاص والمدافع ، حتى أهلكوا منهم ما لا يحصى . وكان مع أقبردى مدرسة السلطان حسن ، وسبيل المؤمنين ، وسويقة عبد المنعم . وصار أقبردى معه صنجق سلطانى ، ويقــول : « الله ينصر السلطان الملك الناصر » . وكرتباى الأحمر وبقية الأمراء معهم صنجق سلطانى وهم يقولون : « الله ينصر السلطان » . فحار الناس بين الفريقين ، ولم يبق يعلم هذه الركبة على من : هل هى على السلطان ؟ أو على الأمراء فى بعضــهم ؟ واستمر الحال على ذلك حتى كان ما سنذكره فى موضعه

وفيه توفى من الأعيان قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن الأخميمى الحنفى ، وهو محمد بن أحمد ابن الأنصارى القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا يقرأ بالسبع روايات ، وكان ضنينا بنفسه ، وكان امام السلطان الملك الأشرف قايتباى ، ثم قرر فى قضاء القضاة ، واستمر به الى أن مات . وكان موته فجأة فأخرجت جنازته ولم يشعر به أحد من الناس بسبب تلك الفتن القائمة

وفيه توفى القاضى أبو الفتــح المنوفى ، كاتب المماليك ونائب جدة ، وكان من أعيان المباشرين ، ورأى من العز والعظمة ما لا يوصف . وفى آخر عمــره قاسى شدائد ومحنا ، واعتراه جنــون وماليخوليا ، واستمر على ذلك حتى مات

وفيه توفى سيدى ابراهيم بن أبى الفضل بن أبى الوفاء وكان شابا صالحا لا بأس به

وفيه جاءت الأخبــار من دمشق بوفاة تمربغا الترجمان ، وكان لا بأس به .

وفيــه توفى شمس الدين محمد بن الخــادم الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضــل ، وكان لا بأس به .

وفيه توقف النيل عن الزيادة فى ليالى الوفاء ، وكان كل أحد مشغولا بنفسه عن ذلك ، والفتن قائمة .

وفيه فى يوم الاثنين ثانى عشرى الشهر المذكور (الموافق لسابع عشرى مسرى) وفى النيل المبارك وكسر فى الثامن والعشرين من مسرى ، وقد أبطأ عن ميعاده . فلما وفى شاوروا الأمير أقبردى فى فتح السد ، فبعث اليه والى القاهرة ليفتحه ، فوجد الشيخ عبد القادر الدشطوطى رضى الله عنه ، قد فتح جانبا منه قبل مجىء الوالى ، ولم يتوجه أحد ليتفرج على فتح السد على جارى العادة ، لكون القاهرة كانت فى غاية الاضطراب من عدم الأمن ، وفساد الأحوال ، من هذه الشرور والفتن . فكان كما قيل :

أتطلب من زمانك ذا وفاء
وتنكر ذاك جهلا من بنيه
لقد عدم الوفاء به وانى
لأعجب من وفاء النيل فيه

فلم يقم النيل سوى أيام قلائل ، وهبط بسرعة ، وشرق غالب البلاد ، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل .

ولما وقعت بمصر الفتن بين الأتراك ، وقعت الفتن أيضا بين العربان ، وأحرقوا القمح والشعير وهو فى الجرون ، ونهبوا عدة بلاد ، فوقع الغلاء بالديار المصرية ، وانتهى سعر القمح الى ألف درهم كل أردب ، واستمر على ذلك مدة طويلة ... وكانت الأحوال فى تلك الأيام فى غاية الفساد ، واستمر الحرب ثابتا على ما ذكرناه من القتل ، والنهب حاصل ، والحصار ليلا ونهارا حاصل فى القلعة .

وفيه ، فى يوم الجمعة سادس عشرى الشهر المذكور ، تسحب من كان عند أقبردى الدوادار من العسكر جملة ، ولم يبق معه سوى مماليكه وبعض مماليك السلطان والأمراء المقدمين . وكان الأمير جانم الاينالى ، كاشف منفلوط وأحد المقدمين ، قد جرح واختفى ، ومات من ذلك ولم يشعر به أحد . ثم ان الأمير أقبردى اضطربت أحواله ، وتشتت عنه جماعته ، بعد ما أكلوا عيشه ، وأخذوا أضحيته وجامكيته ، وصرف عليهم جامكية شهرين من ماله ، ولم يراعوا له حق ذلك ولا أثمر فيهم ما فعله بهم ... فكان كما قيل فى المعنى :

لقاء أكثر من تلقاك أوزار
فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار
وفعلهم مأثم للسر أو عار
لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وكان أحسن لغالبهم ، وأنفق على بعضهم ، وأرضاهم بكل ما يمكن ، بعد ذلك بعضهم رماه وطلع الى القلعة .

فلما كان وقت المغرب من ليلة السبت ، نزل كرتباى الأحمر من القلعة ، وصحبته جميع من كان بالقلعة . وكان خشكلدى البيسقى قد ظهر وطلع الى القلعة ، فنزل صحبة الأمراء ممن كان بالقلعة ، والمماليك الكبار والصغار الذين كانوا بالطباق ، فزحفوا زحفة واحدة وهجموا على جماعة أقبردى ، فانكسروا وفروا ، فهجموا على من كان بمدرسة السلطان حسن ، وأحرقوا بابها ، ودخلوا على من بالمدرسة من الأمراء ، فأخرجوا كرتباى ابن عمة السلطان وهو مجروح جرحا بليغا ، قتل منه وهو أمير آخور كبير . وهرب تانى بك قرا ، فلم يظفروا

به ؛ وهرب من كان بمدرسة السلطان حسن من الأمراء والمماليك ، فنهب الجلبان جميع ما كان بالمدرسة من طشتخانات الأمراء ، ونهبوا بسط المدرسة ، والقناديل ، وقلعوا شبابيك القبة التى بالمدرسة ؛ وأخذوا رخامها ، وأحرقوا الربع الذى عند سوق الرميلة ، بجوار بيته ، وربع يشبك الدوادار ، وربع خشكلدى البيسقى ، وسبيل المؤمنين ، وبعضا من بيوت الصوة ، وغير ذلك .

فلما دخل الليل ركب أقبردى فى نفر قليل من مماليكه ، وطلع الى الرميلة ، فلم يطب طبه ، واستمر على ذلك طول الليل . فلما أصبح يوم السبت سابع عشرى الشهر المذكور وهو ذو الحجة ، انكسر أقبردى كسرة مهولة ، ورجع الى داره وأخذ بركه ، وزردخانته ، والطشتخاناه ، وخرج من داره وعلى رأسه صنجق ، وقدامه طبلان وزمران ، ومماليكه حوله وهم لابسون آلة السلاح . وخرج صحبته من الأمراء تانى بك قرا أمير مجلس ، وأقباى نائب غزة رأس نوبة كبير ، وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وقانى بك نائب الأسكندرية أحد المقدمين ، وكرتباى أخو أقبردى الدوادار أحد المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات جماعة كثيرة نحو من عشرين آميرا ، فمن جملتهم : اينال السلحدار المعروف بالصغير ، ومن المماليك السلطانية والسيفية نحو من آلف مملوك . فلما خرج من داره دخل من الدرب الذى عند حمام الفارقانى ، وخرج من الدرب الذى تجاه المدرسة الصرغتمشية ، وتوجه من هناك الى بولاق ، وطلع على جزيرة الفيل ، ثم خرج الى الفضاء ، وقصد التوجه الى البلاد الشامية ، فدخل خانقاه سرياقوس ، فلم يقم بها . واستمر يجد السير حتى وصل الى بلبيس ، فلم يتبعه أحد من الأمراء ولا العسكر ، حتى خرج وتوجه الى البلاد الشامية . وجرى منه أمور يطول شرحها ... يأتى الكلام على بعضها فى مواضعه .

والذى وقع لأقبردى الدوادار لم يقع لمنطاش الناصرى فى أيام الظاهر برقوق ، وكانت مدة محاصرته للقلعة أحدا وثلاثين يوما ، ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم ، قال بعض المؤرخين : « لم يقع بمصر من يوم فتحها الى الآن ، مثل واقعة أقبردى الدوادار ، فكانت من غرائب الوقائع . وفى مدة هذه المحاصرة كانت الأسواق معطلة ، والدكاكين مقفلة ، وامتنع البيع والشراء ، ولم تظهر فى تلك الأيام امرأة بالأسواق ، ولا بالطرقات ، وكثر القتل والنهب ، وكان الناس فى أمر عظيم » ... قيل : لما طال آمر هذه الفتنة ، دخل على الأمير أقبردى ، جماعة من الفقراء الرفاعية والقادرية والأحمدية ، وجماعة من الصوفية ، سألوه أن يكف عن هذا القتال ، وأن يقع الصلح بين الطائفتين ، فأبى أقبردى ذلك . ثم نزل اليه مثقال مقدم المماليك رسولا عن لسان السلطان ، بأن يكون الصلح بينه وبين الأمراء على يد السلطان ، فأبى أقبردى ذلك .

وكان دميلكو قد فرغ من المكحلة وركبها ، ورمى بها أول حجر ، فكسر باب السلسلة ، فاضطرب من كان بالقلعة ، وهجموا على المكحلة ، ودقوا بها مسمارا وكانت معيبة ، فلما خرقوا منافضها وشمت النار ، خرج الحجر منها على حين غفلة ، وانكسر أقبردى . وكانت هذه ثالث كسرة وقعت لأقبردى ، وكانت آخر العهد به ، فلم يدخل بعدها الى مصر ، وقاسى شدائد ومحنا يأتى الكلام عليها .

فهذا ماكان من أمر أقبردى الدوادار . وأما ما كان من آمر الأتابكى تمراز فانه كان مقيما

بالبيت الذى بجوار بيت يشبك الدوادار ، الذى كان عند المدرسة البندقدارية ، وكان متوعكا فى جسده ، فلم يشعر بكسرة أقبردى ، فلمـا أراد أقبردى أن يفر أرسل خلف الأتابكى تمراز وأعلمه بما جرى ، وأراد أن يأخذه معه ، فأبطأ عليه وخشى من العسكر أن يهجموا عليه ويقتلوه ، فأسرع فى الخروج من داره وترك الأتابكى تمراز فى داره ومضى ثم ان الأتابكى لبس قماشـه ، وركب وخرج من البيت الذى كان به ، فلما وصل الى بيت تانى بك قرا ، لاقاه جماعة من المماليك الفواقه وقبضوا عليه ، وقصدوا قتله ، وأدخلوه الى بيت تانى بك قرا ، ثم بدا لهم أن يطلعوا به الى القلعة. فلما خرجوا به من بيت تانى بك قرا ومشوا الى رأس الصليبة ، لقيـه طائفـة من المماليك الفواقة غير هؤلاء فقنطروه عن فرسه فوقع الى الأرض ، وطلعـوا به الى دكان هناك ونزعوا ثيابه عنـه ، وحزوا رأسه على الدكان بالسيف ، فلم تنقطع ، فكسروها حتى خلصت عن جثتـه . وكان الذى قتـله من أرذل المماليك السيفية يقال له برد بك الأشقر . ثم أخذ رأسه ، وقبض عليها من ذقنه ، وطلع بها الى القلعة . فلما عرضت على الملك الناصر شق عليه ذلك ، لكونه كان من قرابة أبيـه الملك الأشرف قايتباى رحمه الله . ثم أمر بلفها فى فوطة ، وأرسل معها ثوبين بعلبكيين ، وثلاثين دينارا . ثم ان بعض جماعة الأتابكى تمراز أحضروا له نعشا ، وأخذوا فيه جثته وتوجهوا بها الى مكان بالقرب من بيت تغرى بردى الاستادار ، وخيطوا رأسه على جثته ، وغسلوه ، ثم أحضروا كرتباى ابن عمة السلطان الذى قتل فى مدرسة السـلطان حسن ، فغسلوه مع الأتابكى تمراز ، وأخرجوهما فى يوم واحد ، وصلوا عليهما فى مصلى باب الوزير ، ثم توجهـوا بهما الى تربة الأشرف قايتباى ، فدفن الأتابكى تمراز داخل القبـة ، ودفن كرتباى ابن عمة السلطان على جانم قريب السلطان الذى كان ناظر الجوالى ومقدم ألف . وكان الأتابكى تمراز أميرا جليلا معظما دينا كثير البر والصدقة محسنا للناس ، جميل الهيئة ، وله آثار ومعروف . منها ما فعله فى الجسور التى صـنعها بالغربية ، وهو كاشف التراب بالغربية ... وكان أصل الأتابكى تمراز من مماليك الأشرف برسباى فأعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من الجمدارية . ثم بقى خاصكيا ساقيا فى دولة الأشرف اينـال ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة وصار عنده من المقربين ، ثم نفى الى دمياط فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر الى القـاهرة فى دولة الظاهر تمربغا ، ثم ظهر أنه ابن أخت السلطان الأشرف قايتباى ، فلما تسلطن جعله مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم بقى أتابك العسكر عوضا عن أزبك بن ططخ لما نفى الى مكة المشرفة كما تقدم ... وكان تمـراز أميرا كبيرا ، كان اذا جلس فى أى مكان ودخل اليه الأدنى أو الأعلى يقوم له القيام الكلى ويجلسه ، وكان لا يجلس بمقعده الا وهو مزرر الملوطة ، وهو بالخف والمهماز ، ولم تبن له رجل وهو جالس ، وهذا من النوادر فى زمننا هذا . فلما مات رثيته بهذه الأبيات ، وهى قولى مع التضمين :

أرغمت يا دهر أنوف الورى
بقتـل تمراز ويتم العبـاد
أتابك العســكر ذو رأفة
بالجود قد شاع لأقصى البلاد
أخطـأت يا قاتله كيف قـد
قتلت من يقمع أهل العنـاد
مصـيبة جلت فمن أجلهـا
قد أطلقت فى كل قلب زناد

لـكن له فى قتـله أسوة
الى الحسين بن على الجواد
من آودعوه الرمس ما أنصفوا
بل كان يخبى فى صميم الفؤاد
فالله يأجره على ما جـرى
من قتـله بالعفو يوم المعـاد

ومات الأتابكى تمراز وهو فى عشر الثمانين ، وكان لين الجانب واسطة خير ، وكان يظن كل أحد أنه يتسلطن . وقد ترشح أمره اليها غير ما مرة ، وكان اذا سأله أحد فى حاجة يقول له : « اصبر علينا حتى يجىء وقتهـا » . وكان طامعا فى السلطنة فخابت فيـه الظنون ، وجاء الأمر بخلاف ما أمل أن يكون .

وفيـه جاءت الأخبار بأن أقبردى لمـا مر على الشرقية ، كادت طائفة عربان بنى حرام أن تقتله ، فرجموه حتى جاءته رجمة فى وجهه ، وسبوه سبا قبيحا ، وفعلوا به ذلك فى عدة أماكن ، وما خلص منهم الا بعد جهد كبير ... وسبب ذلك أنه سلط عليهم بنى وائل ، وقتـل منهم فى مدة المعركة ما لا يحصى ، فلما انكسر ومر بهم انتقموا منه ، وجرى عليه منهم ما لا خير فيه . فلما هرب أقبردى وقتل تمراز اضـطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، ونزل المماليك من القلعة ، وعطعطوا فى المدينة ، وصاروا يدخلون الحارات وينهبون البيوت ، حتى نهبوا الربوع التى هى سكن العوام . ثم توجهوا الى حارة زويلة ونهبوها بسبب أنه كان لأقبردى حاصل هناك فيه مال ، فنهبوا ما كان فيه ، حتى قيل كان فيه ما يزيد على مائة ألف دينار غير الخيام والقماش الذى كان به . ونهبوا بيوت اليهود الذين حوله ، ودخل الزعر والعبيد فنهبوا القبة التى فى مدرسة السلطان حسن ، وأخذوا الرخام الذى بها ، والشبابيك النحاس التى بها ، والأبواب ...
ومن يومئذ تلاشى حال المدرسة الى الآن . واستمر النهب والقتل دائرا ثلاثة أيام متوالية . ولم يجدوا من يردهم عن ذلك ، والمدينة مائجة . وقد تعطلت الخطبـة ، واقامة الصلاة من مدرسة السـلطان حسن ، نحوا من ستة أشهر . وكان كل من ظفروا به من جماعة أقبردى يقتلونه شر قتلة . ثم قبض على المعلم دميلكو ، وأحضروه عند الأمير كرتباى الأحمر فقطع رأسه وعلقها على باب السلسلة ، كما قيل فى الأمثال : « وربما عوقب من لا جنى » .

وقد خرجت السنة المذكورة على ما شرح فيها من الفتن والانكاد والفساد وخراب البلاد . ووقع فيها الغلاء ، وتشحطت الغلال ، وقتـل فيها من الأمراء نحو من خمسين أميرا ، ما بين مقدمى ألوف وطبلخانات وعشراوات . وقد تقدم ذكر ذلك عند وقوع كل حادثة ، من أوائل السـنة المذكورة الى آخرها ، حسبما أوردناه من الوقائع . وقتـل من الجند والعرب نحو من ألف انسان ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وما حصل لعسكر مصر بعد وفاة الأشرف قايتباى خير ، وجاءت الأمور بضد ما أملوه من بعده ، فكان كما يقال :

يسعى ابن ادم فى قضا أوطاره
والمـوت يتبعـه على آثاره
يلهـو وكف الموت فى أطواقه
كالكبش يلعب فى يدى جزاره
يمسى وقـد أمن الحوادث ليله
فلربمـا تطـرفه فى أسـحاره
من رام ينظر كيف تصبح داره
من بعـده فليعتبر بجـواره

سنة ثلاث وتسعمائة (١٤٩٧/١٤٩٨ م) :

كان مستهل المحرم يوم الثلاثاء ، ووافق ذلك اليوم يوم النوروز للقبط بموجب تحويل السنة القبطية الى السنة العربية . فصعد القضـاة الى

التهنئة بالشهر والعام الجديد ، وبهـذه النصرة التى وقعت للسلطان . ولم يحضر الخليفة فى ذلك اليوم بسبب أنه كان متوعكا فى جسـده ، وهو مقيم بالقلعة ، فنزل الى داره فى محفة ، وكان ذلك ابتداء ضعف الموت .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على برهان الدين ابن الكركى الامام ، وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن ناصر الدين بن الأخميمى بحكم وفاته ، وهذه أول ولاية ابن الكركى . وخلع على الشيخ سرى الدين عبد البر بن الشحنة ، وقرره فى مشيخة المدرسـة الأشرفية ، عوضا عن البرهان الكركى ، فلم يقم بها عبـد البر غير ثلاثة أشهر ، وأعيد اليهـا ابن الكركى ، مضافا لما بيده من قضاء الحنفية

وفيه تحوف السلطان على نفسـه من الأمراء ، فأحضر لهم المصحف العثمـانى ، وحلف عليـه الأمراء الذين هم من حزب قانصوه خمسـمائة ، بأنهم لا يخونونه قط ولا يغدرون به ولا يركبون عليه ، وهذا رابع يمين حلفه السلطان للأمراء على المصـحف العثمانى ... وكل ايمانهم كانت كاذبة فاجرة .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء منهـم : المقر السيفى قانصـوه خال السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن أقبردى بحكم هروبه . وخلع على كرتباى الاحمر وقرره فى امرية سلاح وخلع على جان بلاط بن يشبك وقرره فى نيابة حلب ، وخرج اليهـا عن قريب .

وفيه دخل مبشر الحاج ، وهو شخص من العرب ، وقد تأخر عن عادته ستة أيام لفساد طريق الحجاج .

وفيه توفى الزينى قاسم بن قاسم المالكى أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا متفننا لا بأس به

وفيه قرر كمشبغا الشريفى فى نيابة الاسكندرية عوضا عن اسنباى .

وفيه عين السلطان خاير بك أخا قانصوه ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم .

وفيه قرر عبد القـادر بن النقيب فى مشيخة خانقاه سعيد السعداء ، وكانت عينت للمسلمى ، ولم يتم له ذلك .

وفيه توفى الشيخ بدر الدين محمـد الوفائى ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على طرباى الشريفى وقرره أمير آخور ثانى ، وهذه أول وظائفه . وخلع على دولات باى الأجرود وقرره فى ولاية الشرطة .

وفيه وقع الاتفاق من الأمراء على عود الأتابكى أزبك ، وحضوره من مكة المشرفة ليلى الأتابكية ، عوضـا عن تمراز . فكتبت له المراسيم بالحضور ، وتوجه بها طراباى الشريفى ، الذى قرر أمير آخور ثانى ، فخرج على الفور بسبب ذلك .

وفيه خلع السـلطان على قانى باى الرماح ، وقرره أمير آخور كبير ، عوضا عن كرتباى بحكم قتله بمدرسة السلطان حسن فى واقعة أقبردى . وخلع على قانصوه المحمـدى المعروف بالبرجى ، وقرره فى امرية مجلس ، عوضـا عن تانى بك قرا الاينـالى بحكم هروبه مع أقبردى . وخلع على قيت الرجبى ، وقرره حاجب الحجاب ، عوضا عن جانم مصبغة بحكم اختفائه وهروبه مع أقبردى وخلع على طومـان باى ، وقـرره فى الدوادارية الثانية ، عوضا عن سيباى سـيس . وخلع على سيباى ، وقرره فى تقـدمة ألف ، وهى تقـدمة جانم الأجرود الاينالى كاشف منفلوط ، بحكم أنه خرج فى واقعة أقبردى ومات عقيب ذلك . وخلع على تمراز الزردكاش الكبير ، وقرره بهـا عوضا عن قيت الأحول أخى الأشرف قايتباى . وقـرر

ببرس فى نيابة القلعة ، عوضاً عن قيت عم الملك الناصر ، فعزل عن الزردكاشية الكبرى ، ونيابة القلعة ، وقد نسب الى ميل مع عصبية أقبردى الدوادار .

وفيه خلع السلطان على أزبك اليوسفى ، المعروف بالخازندار ، وقرره مقدم ألف مشير المملكة . وقرر قانصوه كرت فى الخازندارية الكبرى .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة بعد ما قبض على أمير الحاج مصرباى فى عجرود ، وتوجهوا به من هناك الى السجن بثغر الاسكندرية ، فسجن بها .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوادار لما خرج من مصر بعد فراره استولى على غزة ، وملكها ، فاتفق رأى الأمراء على تجريدة اليه .

وفيه خلع السلطان على جان بلاط الغورى ، وقرره فى رأس نوبة كبير ، عوضا عن اقباى نائب غزة بحكم فراره مع أقبردى . وقرر أزبك قفص فى الرأس نوبة الثانية .

وفيه أشيع بين الناس أن الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز قد اشتد به المرض ، وأشرف على الموت ، وقد عهد بالخلافة الى ولده الشرفى يعقوب ، وحكم بذلك قاضى القضاة المالكى عبد الغنى بن تقى ، ونفذه بقية القضاة ، وعهد أيضا لولده محمد من بعد أبيه يعقوب ... فلما بلغ ذلك ابن عمه خليل ، اضطربت أحواله ، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، وكان منتظرا للخلافة بعد عمه عبد العزيز ، فلم ينله من ذلك شىء ، وفاته المطلوب . فقدح فى الشرفى يعقوب بكلمات قبيحة من نار قلبه ، فلم يفده من ذلك شىء ، ولم يلتفت اليه أحد من القضاة ولا السلطان . وتولى الخلافة يعقوب ، على رغم أنف خليل ، كما سيأتى ذكر ذلك ، وقد قلت مع التضمين فى هذه الواقعة :

قالت العليا لمن حاولها
سبق المولى وقد حل عراها
قدعوا الحاسد فيها انها
حاجة فى نفس يعقوب قضاها

فلما كان يوم الخميس سلخ المحرم من سنة ثلاث وتسعمائة ، كانت وفاة أمير المؤمنين أبى العز عبد العزيز ، وهو عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله . ولم يل والده يعقوب الخلافة ، بل جده محمد المتوكل على الله . وكان الخليفة عبد العزيز رئيسا حشما ذا شهامة ، جميل الهيئة كفؤا للخلافة ، وافر العقل سديد الرأى ، وله اشتغال بالعلم وحفظ جيد مع حسن عبارة ، وكان عنده لين جانب واتضاع ، كثير العشرة للناس . وتوفى وله من العمر نحو من أربع وثمانين سنة . ومولده بعد العام السابع عشر والثمانمائة ، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأياما . وحضر مبايعة الملك الناصر محمد بن قايتباى الأشرف رحمهم الله تعالى ، ومبايعة قانصوه خمسمائة ... وكان من خيار بنى العباس ، وكان له مشهد عظيم . ونزل الملك الناصر وصلى عليه بسبيل المؤمنين ، ودفن بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ورحمهم ، داخل القبة التى بها مشاهد الخلفاء . ثم بعد وفاته تولى بعده ولده يعقوب .

خلافة المستمسك بالله أبى الصبر

هو أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله ، وهو الرابع والخمسون من خلفاء بنى العباس فى العدد ، وهو الخامس عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . وهو من خلاصة بنى العباس لكونه هاشمى الأبوين ... ولم يل الخلافة

من هو هاشمي الأبوين غير أربعة من بني هاشم ، وهم : الامام على كرم الله وجهه وكانت أمه هاشمية وهى فاطمة بنت أسد بن هاشم . ثم ابنه الحسن رضى الله عنه ورحمه ، وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم محمد الأمين ابن زبيدة ، وكانت أمه هاشمية . ثم يعقوب بن عبد العزيز ، وأمه هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفى بالله ، أبى الربيع سليمان ... فهؤلاء الأربعة هاشميو الأبوين ، وغيرهم من الخلفاء كانوا من سرارى مولدات وحبش وغير ذلك .

* * *

وكانت صفة ولاية الشرفى يعقوب : أنه لما كان يوم السبت ثالث صفر بعث الملك الناصر خلف الشرفى يعقوب ، فحضر وحضر ابن عمه خليل ، فعرض العهد المقدم ذكره على السلطان ، فشرع خليل يتكلم فى حق الشرفى يعقوب بكلمات فاحشة ، منها أنه قال : « انه قليل النظر ولا تصح ولايته » ، فلم يلتفت السلطان الى كلام خليل وقال : « أهذا أبوه كان خليفة ؟ » ، فقيل له : « لا » ، فقال : « ما يلى الخلافة الا من كان أبوه خليفة » . وشرع كرتباى الأحمر ، وأزبك اليوسفى مشير المملكة ، وتغرى بردى الاستادار — يساعدون الشرفى يعقوب ، فترشح أمره لأن يلى الخلافة ... وفى الحقيقة لم يكن يومئذ من بنى العباس من يصلح للخلافة غير الشرفى يعقوب ، فى الدين والخير والصلاح ، فاتفق رأى الأمراء على ولايته ، ونزل خليل من القلعة بخفى حنين .

فلما حضر القضاة وتكامل المجلس ، لم يحتج الى مبايعة ثانية ، لأنه استقر فى الخلافة بعهد من أبيه له عند موته ، فاستكفى القاضى الشافعى بذلك . ثم أحضر اليه شعار الخلافة ، فأفيض عليه ، وتلقب « بالمستمسك بالله أبى الصبر » وعد لقبه هذا من النوادر . وقيل ان الشيخ جلال الدين الأسيوطى هو الذى كناه ولقبه بهذا اللقب . ومن الغرائب أنه لم يل الخلافة من بنى العباس ، ولا من بنى أمية ، من اسمه يعقوب سواه . فلما تمت بيعته أحضر اليه التشريف ، وأفيض عليه ، فصار فى غاية الأبهة والوقار . وفى الحقيقة انه من عباد الله الصالحين ، لم يعهد له صبوة منذ نشأ الى الآن رضى الله عنه . وفيه أقول مضمنا :

يا أمير المؤمنين اقبل ولا
ترتجى غير الذى قد شرفك
لو أتى العباس أضحى قائلا
يرحم الله الذى قد خلفك

وكان له من العمر ، لما تولى الخلافة ، نحو من خمسين سنة . وقد وخطه الشيب . فنزل من القلعة فى موكب حافل ، حتى وصل الى داره ، واستمر فى هذه الولاية مدة طويلة ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

* * *

وفى ربيع الأول خلع السلطان على قانصوه خاله ، وقرره فى الاستادارية والوزارة عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم استعفائه من ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة ، بوفاة السيد الشريف الحسيب النسيب محمد بن بركات أمير مكة المشرفة . وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، كفؤا لامرية مكة المشرفة ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة اينال باى الابراهيمى نائب طرابلس ، وكان من حلف أقبردى الدوادار .

وفيه جاءت الأخبار أيضا بوفاة اينال باى ، وبوفاة كرتباى أخى أقبردى الذى كان نائب صفد ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، وفر مع أخيه أقبردى فمات فى أثناء الطريق ودفن هناك .

وفيه خلع السلطان على تغرى بردى القادرى ، وقرره فى الاستادارية نائبا عن قانصوه خال السلطان.

وفيه فى أوائل بابه أمطرت السماء مطرا مهولا حتى وقعت منه عدة أماكن ، وخسف غالب القبور التى بالقرافة والصحراء . وكان من نوادر الوقائع .

وفيه خلع السلطان على كرتباى الأحمر وقرره فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى بحكم وفاته . وكان كرتباى الأحمر هو الساعى فى ذلك خوفا على نفسه من الملك الناصر أن يسلط عليه المماليك الجلبان يقتلونه ، وقد هم بذلك غير ما مرة لأجل أن كرتباى الأحمر كان يحجر على الملك الناصر ويمنعه عن الأفعال الفاحشة الشنيعة ، فكرهه بسبب ذلك ، وقصد قتله ... حتى قيل انه ذبح يوما كبشا بيده وقال : « هكذا أفعل بكرتباى الأحمر عن قريب » . فلما خرج كرتباى الأحمر من القاهرة كان له يوم مشهود ، وطلب طلبا حافلا .

وفيه عين السلطان تجريدة بسبب أقبردى الدوادار ... فانه لما انكسر وخرج من مصر هاربا حاصر الشام ، وقصد أن يملكها فما قدر . فنهب الضياع التى حول دمشق ، وخرب غالبها ، وفعل مثل ذلك بضياع حلب . فوقع الاتفاق من الأمراء على خروج تجريدة له ، فعينوا ذلك . وأنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، وبعث نفقة الأمراء الذين عينوا للخروج الى التجريدة ، وهم قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب ، وقانصوه الغورى أحد المقدمين ، وهو الذى تسلطن فيما بعد ، واصطمر بن ولى الدين أحد المقدمين ، وقصروه أحد المقدمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى بعد أن حاصر الشام نحوا من شهرين لم يقدر عليها ، وحاربه الأمراء الذين بالشام ، ورموا عليه بالمدافع ، وفر الى حلب . فلما توجه الى حماه حاصرها ، وأخذ منها أموالا لها صورة . فلما وصل الى حلب حاصرها نحوا من شهرين ، وكان اينال السلحدار يومئذ نائب حلب ، وكان من عصبة أقبردى فقصد أن يسلمه مدينة حلب ، فرجمه أهل المدينة وطردوه منها ، وحصنوا المدينة بالمدافع على الأسوار ... فعند ذلك فر أقبردى ومن كان معه من الأمراء والعسكر ، وكذلك اينال نائب حلب صحبتهم ، وفروا أجمعين ، وتوجهوا الى على دولات والتجأوا اليه . فلما بلغ الأمراء ذلك اضطربت أحوالهم فوقع الاتفاق على أن يولوا جان بلاط بن يشبك الذى كان دوادارا كبيرا نيابة حلب ، عوضا عن اينال الذى كان بها بحكم فراره مع أقبردى .

وفيه خلع السلطان بعد خروج كرتباى الأحمر الى محل نيابة الشام على محمد بن العظمة ، وأعاده فى نظارة الأوقاف . وكان الساعى له فى ذلك عبد القادر بواب الدهيشة ، فكثر عليه الدعاء من الناس بسببه .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه فى يوم الخميس ثانى عشريه كان دخول الأتابكى أزبك الى القاهرة ، وقد حضرَ من مكة المشرفة . فلما حضر خلع عليه السلطان وأعاده الى الأتابكية عوضا عن تمراز الشمسى بحكم وفاته ، فكانت مدة غيبته بمكة سنتين وثلاثة أشهر .

وفيه خلع السلطان على جان بلاط الموتر ، أحد العشراوات ، وقرره فى الحسبة ، عوضا عن تانى بك بن حديد بحكم وفاته .

وفى تلك الأيام اشتد الغلاء ، وانتهى سعر القمح الى ثلاثة أشرفية كل أردب .

وفيه هجم المنسر على سوق تحت الربع ، وسوق الحاجب ، وفتحوا عدة دكاكين . فلما بلغ

الوالى ذلك ركب وتحارب مع المنسر ، وقتل جماعة من أعوانه ، ولم يبلغ من المنسر آربا ، وراحت على التجار أموالها .

* * *

وفى ربيع الآخر ، يوم الثلاثاء رابعه ، كان خروج الأمراء الذين عينوا للتجريدة ، فكان لهم يوم مشهود ، حتى ارتجت لهم القاهرة . وقد تقدمهم كرتباى الأحمر الذى تقرر فى نيابة الشام ، وجان بلاط بن يشبك الذى تقرر فى نيابة حلب ، واستمرت الأطلاب تنسحب الى قريب الظهر ، والعسكر خارجون أفواجا أفواجا .

وفيه ظهر تانى بك الجمالى ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، فلما ظهر خلع عليه السلطان وأعاده الى امرية سلاح عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم انتقاله الى نيابة الشام .

وفيه أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية الى برهان الدين بن الكركى ، وانفصل عنها عبد البر ابن الشحنة .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، فلما أصبح شق من القاهرة فى موكب حافل ، وصحبته قانصوه خاله وبعض أمراء ، وجعل قدامه طبلين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنفوط قدامه على هيئة الكشاف ، وقد تهتكت حرمة السلطان ، والمملكة ، ولم يقع من أبناء الملوك من السوافط ما وقع للناصر هذا ، كما سيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفيه حضر الشهابى الششينى من مكة المشرفة وقد أرسل اليه السلطان مرسوما بالحضور ليلى قضاء الحنابلة ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره فى قضاء الحنابلة بمصر عوضا عن بدر الدين السعدى .

وفيه نادى والى القاهرة على لسان السلطان بأن أهل الأسواق والحارات يعملون عليهم دروبا ، فامتثلوا ذلك وبنيت بالقاهرة عدة دروب ، منها على سوق تحت الربع ، وسوق أحمد بن طولون ، وسوق أمير الجيوش ، وغير ذلك من الأسواق والحارات . وكانت المناسر قد كثرت فى تلك الأيام جدا ، وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات ويعطعطون بها .

وفيه من الحوادث الشنيعة نادى السلطان فى القاهرة بأن الأمراء المختفين ، الذين هم من عصبة أقبردى ، يظهرون وعليهم أمان الله تعالى . وأشيع أن آقبردى قد ظهر وأنه عند السلطان بالقلعة ، فعند ذلك ظهر برد بك المعروف بنائب جدة الذى كان من جملة المقدمين ، وظهر برد بك المحمدى الاينالى ، وأبو يزيد الصغير ، وبرسباى السلحدار ، وبرقوق المحتسب . وشاد بك ، وبيبرس ، وقانصوه التاجر ، وكرتباى الكاشف ، وخاير بك الكاشف ، وقانصوه الساقى ، ردولات باى بن عينى ، وآخرون من الخاصكية . وكان قبل ذلك رسم السلطان بالافراج عن مصرباى — وكان فى السجن بثغر الاسكندرية — فحضر ، وحضر أيضا قنبك أبو شامة ، وتانى بك المحمدى الاينالى ، وجانى باى ... وكان هؤلاء فى السجن من حين ركب أقبردى الدوادار وانكسر فلما ظهر هؤلاء كثر القال والقيل فى سبب ظهورهم ثم ان السلطان صرح فى قوله وقال : « أنا ما رسمت بالافراج الا لأصلح بينهم وبين الطائفة التى من عصبة قانصوه خمسمائة » . فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة قرى السلطان تلك الليلة ختمة ، ومد أسمطة حافلة ، وباتوا عنده ... فلما صلوا العشاء أحضر عدة خلع ، فخلع على مصرباى وعينه أمير آخور كبير ، وخلع على أبى يزيد الصغير وعينه دوادارا ثانيا ، وخلع على قنبك أبى شامة وعينه نائب القلعة ، وقرر آخرين منهم فى تقادم ألوف ،

وآخرين فى امريات عشرة . وكل هذا خفة وطيش وصبينة من الملك النــاصر . وقد طاش الى الغاية لما خرج كرتباى الأحمر الى الشــام ، وكان يظن أنه ما بقى على يده يد . وكل هذا من عقل الصغار فكان كما قال المعمار :

دى دولة خــواطر   تسويقـــه معـتر
خليــلى وشــامى   والخيـــار مقصر

فلما جرى ذلك تحت الليل ، بلغ الأمراء الذين من عصبة قانصوه ما وقع من السلطان تلك الليلة . فلما طلع النهار لبسوا آلة الحرب ، وصعدوا الى القلعة ، ووثبوا على بعضهم بها ، وكانت فتنـــة مهولة ، فقتلوا الأمير أبا يزيد الصغير ، والأمـــير برسباى الأشقر ، وهرب الأمير مصرباى ، وقتل قنبك أبو شامة ، واتسعت الفتنة ، وقتل فى هذه المعركة جماعة من الخاصكية ، وقد هموا بقتــل السلطان لولا أنه اختفى ، ثم نزلوا بجثة أبى يزيد على حمار ، وتوجهوا بهـا الى داره ليغســلوه ويدفنوه . ثم نزل جماعة من المماليك ونهبوا بعض أماكن الأمراء الذين من حلف أقبردى ، ونهبــوا بيت الناصرى محمــد بن خاص بك لكونه كان صهر أقبردى الدوادار . فلما بلغ الأتابكى أزبك ماجرى طلع الى القلعة ، واجتمع بالسلطان ، ولامه على هذه الأفعال الشنيعة التى تصدر منــه ، فلم يلتفت الى كلامه .

ثم نزل الأتابكى أزبك الى داره ، وقد خمدت هذه الفتنة قليــلا ، وكان ذلك فى يوم الخميس حادى عشرى ربيع الآخر .

* * *

وفى جمادى الأولى وقع من الناصر غاية القبح فى حق الأمراء المقدمين ، بأشياء ماسبقه اليها أحد ، وهو أنه أضاف لكل أمير مقدم ألف ثلاثين مملوكا من المماليك الجلبان ، يأخذون من اقطاعه فى كل سنة ، كل واحد منهم عشرة آلاف درهم . وأضاف الى أمير كبير أربعين مملوكا لكل واحد كما تقدم ، وأضاف الى كل أمير طبلخانات عشرة من المماليك يأخذون من اقطاعه كما تقدم . وأضاف الى كل أمير عشرة خمسة مماليك يأخذون منهم كما تقدم ، فحصل من المماليك فى حق الأمراء ما لا خير فيه . وصاروا يدخلون بيوت الأمراء وهم راكبــون ، ويشوشون على مباشريهم بالضرب والسب ، حتى يأخذوا منهم ما قرر لهم . فأضر ذلك بحال الأمراء وما أطاقوا ذلك ، ولكن لم يطلع من أيديهم شىء بسبب اضطراب الأحوال فى تلك الأيام ، فكان كما يقال :

أخضــع لقرد الســـوء فى زمانه
وداره ما دام فى ســـلطانه

وفيه أمر السلطان بهدم كنيسة اليهود التى فى دموه ، فتوجه الى هناك بنفسه ، وهدمت بحضرته ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه تزوج الأمير طومان باى الدوادار الثانى بنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فكان لها مهم حافل .

وفيه كانت وفاة شيخنا علامــة العصر الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر بن حسن بن عمران ابن نجيب المعروف بالقادرى ، وكان شاعر العصر على الاطلاق بعد الشهاب المنصورى ، وكان مولده بعد الثلاث والثلاثين والثمانمائة ، وكان شــاعرا ماهرا وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى ميقاتى وأجاد :

فى صنعة الميقات بدر نجمــه
بالسعد يخدمه مدى الساعات
حجت عيون الناس كعبة حسنة
وقضت مناسكها من الميقــات

وقوله فى فرس محجل الثلاثة مطلوق اليمين :

وطرف زانه التحجيل يحكيه

لمن يحكيك بالسحر المبين

جواد رام أن يخفى نوالا

فأسبل كمه فوق اليمين

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأنه وقع بين السيد الشريف بركات ، وبين أخيه هزاع ، فتنة كبيرة ، وكادت أن تخرب فيها مكة المشرفة .

وفيه توفى امام الكاملية وابن امامها ، وكان من عباد الله الصالحين ، دينا خيرا لا بأس به .

***

وفى جمادى الآخرة وقعت الوحشة بين السلطان والأمراء ، بل وبين خاله قانصوه ، بسبب ما تقدم من تلك الفتنة التى وقعت من حلف أقبردى . وقد نسب فيها السلطان الى غرض .

وفيه قرر يحيى بن سبع فى امرية الينبع عوضا عن دراج بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار بقتل الطواشى لؤلؤ الرومى ، رأس نوبة السقاة والخازندار ، وكان قد خرج الى الوجه القبلى فى بعض أشغال ليتوجه الى مكة المشرفة . وكان صحبته السجينى المرافع فخرج عليهم جماعة من العربان ، فقتلوا لؤلؤا والسجينى ومن معهم .

وفيه نزل السلطان وبات فى تربة أبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوى لاينبغى شرحها .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الطاعون الى قطيا ، وقد فشا بها وهو زاحف نحو الديار المصرية .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة ومصر بأن تعلق على الحوانيت قناديل وكذلك البيوت المطلة على الشوارع . وصار يركب هو بنفسه فى كل ليلة بعد العشاء وقدامه فانوسان أكره ، وأربعة مشاعل ، ومعه أولادعمه قيت — وهما جانم وأخوه جانى بك — وقدامه عدة عبيد سود معهم بندقيات نفط . وكان اذا طاف بالقاهرة بعد العشاء ورأى أحدا يمشى ، يقطع أذنه مع أنفه ، ومنهم من يضربه بالمقارع ، ومنهم من يوسطه ... فقتل من الناس جماعة فى مدة يسيرة . وكان اذا مر بدكان ولم ير عليها قنديلا يأمر بتسميرها وهو واقف بنفسه عليها حتى يسمروها ، وكل هذا خفة وطيش . وقد بهدل جرمة المملكة فى أيامه ، ولم يتبع طريقة الملوك السالفة فى اقامة حرمة السلطان . وصار على طريقة والى الشرطة .

وفيه قبض بعض الخاصكية والمماليك على عبد من عبيد السلطان يقال له فرج الله ، وكان مقربا عنده الى الغاية ، فضربوه وقتلوه بالرميلة ، فشق ذلك على السلطان ، وتأسف عليه ، ولم يقدر أن يحميه من المماليك ، فانهم كانوا يومئذ طالبين للشر مع السلطان بسبب هذه الأفعال التى تصدر منه .

وفيه قرر شاهين الجمالى فى نظر الحرم الشريف ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، على عادته ، فخرج الى السفر عن قريب ، وأمره السلطان بأن يتوجه الى يحيى بن سبع أمير الينبع ويصلح بينه وبين أمير مكة المشرفة ، وكان قد وقع بينهما فى تلك الأيام وحشة .

***

وفى رجب ظهر الطاعون بالقاهرة ومات بها جماعة .

وفيه تخوفت خوند أصل باى أم الناصر على ولدها من خاله قانصوه ، وكانت المماليك قد التفت عليه ، فأحضرت المصحف العثمانى بين يديها فى قاعة العواميد ، وحلفت عليه أخاها قانصوه ، وابنها الملك الناصر محمد ، بوفاء كل منهما لصاحبه ، ولم تفد تلك الأيمان شيئا .

وفيه خرج خاير بك بن قانصوه البرجى ، قاصدا

الى ابن عثمان . فخرج فى تجمل زائد ، وصرف فى هذه الحركة مالا له صورة .

وفيه توفى الشيخ داود المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكيـــة . من أهـــل العلم والدين ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى شعبان تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، ومات من المماليك والأطفال والعبيد والجــوارى جانب . فلما كثر الموت فى المماليك صنع السلطان ثلاثين نعشا برسم من يموت بالقلعة ، وحصل بذلك النفــع .

وفيه توفى اينال الفقيه الحسنى الظاهرى جقمق أحــد الأمراء الطبلخانات حاجب ثانى ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من المماليك السلطانية مات وغسل وكفن ، ووضع فى نعشه ، وحمل ليدفن ... فبينما هو فى أثنــاء الطريق اضطرب وتحرك فى أكفانه ، فوضــع على الأرض ، وحلوا أكفانه ، فاستوى قائما ، وعاش بعد ذلك مدة .

وفيه توفى العزى عبد العزيز بن البرهان ، وكان من مشاهير الناس لا بأس به ، ومات بالطعن .

وفيه من الحوادث أن الصوفية الذين بالخانقاه البيبرسية ثاروا على شيخهم الشــيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادوا أن يقتلوه ، ثم حملوه بأثوابه ورموه فى الفسقية ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها وكان طومان باى الدوادار محطا عليه ، فلما تسلطن فيما بعد ، اختفى الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، فى مدة سلطنته ، حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه خلع السلطان على ماماى جوشن ، وقرره فى الحجوبية الثانية .

وفيه صارت معاملة الفلوس الجدد بالعــدد ، وبطل أمر وزنها بالميزان .

وفيه تزايد شر المماليك ، وجاروا على الناس بخطف القمــاش من الدكاكين ، والبضــائع من الأسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والأمراء .

قيل ان بعض المماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصادف جنــازة فى وجهه فجفل منهــا فرس ذلك المملوك ووقع على الأرض ، فقــام وهاش وضرب الحمالين الذين كانوا يحملون الميت . فلما عاين ذلك الحمالون ، ألقوا الميت على الأرض ، وهربوا فلما هربوا وقع المملوك فى الميت ، وضربه بالدبوس ، حتى اشتفى . وصار الميت ملقى على الأرض الى آخر النهار . وقد جرت هذه الواقعة فى ســويقة صفية .

وصـــار الطعن عمالا ، والمماليك جائرة فى حق الناس بالأذى حتى قلت فى ذلك هــذه المداعبة ، وهى قولى :

قد قلت للطعن والممــاليك
جاوزتما الحــد فى النكاية
ترفقــا بالورى قليـــلا
فى واحــد منكما كفــاية

وكان الناس على ما ذكرناه من هــذه الأفعال الشنيعة ، والملك الناصر فى طيشانه ولعبه .

وفيــه نزل الناصر الى بولاق ، ليلة ســيدى اسماعيل الأمبابى ، رحمه الله تعالى ورضى عنــه ، وشق البحر فى مركب ومعه جماعة من العوام يغنون على النداء والاجهار ، وكان معه أولاد عمه وهما جانم وأخوه جانى بك ، وأحرق تلك الليلة ببولاق حراقة نفط عظيمة ، وبات فى المركب تلك الليــلة وكانت من الليالى المشهورة . وفعل مثل ذلك عدة مرار .

وفيه مات بالطاعون شاه بضاع بن دلغادر أمير التركمان ، وكان مقيما بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذين توجهوا الى مواجهة أقبردى ، قد تبعوه الى عين تاب ، وتقاتلوا معه هناك ، ووقع بينهم واقعة عظيمة ، فانكسر أقبردى كسرة مهولة ، وقتل من عصبته جماعة كثيرة ، منهم اينال السلحدار نائب حلب الذى كان معه ، وقتل لعلى دولات معه ولدان ، وقتل من الخاصكية والمماليك الذين كانوا معه جماعة كثيرة . وقد حاربه كرتباى الأحمر نائب الشام أشد المحاربة وكان قد توجه اليه صحبة العسكر ، الى عين تاب ، حتى تحارب معه وانكسر وهرب ، وطلع على جبل الصوف ... وقيل انه لما انكسر وصعد على جبل الصوف توجه الى نحو الفرات بمن معه من الأمراء والمماليك .

* * *

وفى رمضان تزايد أمر الطاعون ، وفتك فى المماليك والأطفال والغرباء والعبيد والجوارى فتكا ذريعا ، حتى قيل انه انتهى الى ثمانية آلاف من الأموات ، فكان كما قيل :

ألا ان بحر الوبا قد طغى
وقد أرسل الطعن طوفانه
ولا عاصم اليوم من أمره
سوى رحمة الله سبحانه

ومات من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم . الناصرى محمد ابن الشهابى أحمد بن العينى ، وكان شابا رئيسا حشما أديبا عاقلا ، تولى من الوظائف حسبة القاهرة ، ونظر الجوالى ، ووكالة بيت المال ، وتوجه الى الحجاز أمير أول فى دولة الملك الناصر ، وكان عنده من أخصائه . ومات بيبرس ابن حيدر الأشرفى قايتباى ، نائب القلعة . ومات الأمير جان بلاط الغورى ، رأس نوبة النوب ، وكان قليل الأذى لا بأس به ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى . ومات صنطباى المبشر الأشرفى قايتباى ، أحد الأمراء الطبلخانات . وماتت شاشة أم أقبردى الدوادار الجركسية ، فنزل السلطان وصلى عليها وحمل نعشها قانصوه خال السلطان ، ومشى به خطوات . وماتت أم الجمجمة بن عثمان ، سرية أبيه محمد بن عثمان ، ملك الروم . وكان اسمها ججك ، وكانت لابأس بها . ومات قيت الأشرفى أحد العشراوات ، وشاد الطرانة . ومات عبد القادر الألواحى بواب الدهيشة ، وكان عند الملك الناصر من جملة المقربين ، وكانت الناس تسعى فى الوظائف على يديه .

وفيه من الوقائع أن شخصا من المماليك الجلبان طعن ، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا وأخرج بين أيديهم جملة قماش ، ما بين بشاخين ومقاعد ومخدات وبسط وغير ذلك ، ومبلغا نحوا من ثلاثة آلاف دينار ، وأخبر أنه نهب ذلك من مكان سماه . ثم قال لغلامه : « امض وائتنى بأصحاب ذلك القماش » . فمضى الغلام والشهود جالسون عنده فغاب ساعة ، ثم أحضر أصحاب القماش ، فعرفهم ذلك المملوك فسلمهم تلك الأموال والقماش بحضرة الشهود . وسألهم المحاللة فلما حاللوه ومضوا مات من ليلته ... فعد ذلك من الوقائع . ومات آخر من المماليك الجلبان فوجد عنده خمسة عشر ألف دينار ، فذكر غلامه أنه نهب ذلك من حاصل أقبردى الدوادار ، فى حارة زويلة ، فحمل ذلك المال الى خزائن السلطان . ومات مصرباى بن على باى الذى كان نائب قلعة حلب وعزل عنها .

وفيه رسم السلطان لما كثر الموت بعمارة سبيل المؤمنين ، وهى المصلى التى بالرميلة ، وكان خرابا من حين حاصر أقبردى القلعة .

وفيه جدد الأمير طومان باى الدوادار الثانى ما فسد من مدرسة السلطان حسن ، من حين كانت واقعة أقبردى الدوادار ... فجدد باب المدرسة الذى كان احترق ، وسد شبابيك القبة ، وأصلح ما فسد منها ، وأقيمت الخطبة بها وصلاة التراويح ، وكانت معطلة نحوا من عشرة أشهر بسبب ما تقدم .

وفيه قبض على انسان زعموا أنه ينبش القبور على الموتى ، ويسرق أكفانهم ، فأمر السلطان بسلخ وجهه وهو حى ، فسلخوه من رأسه الى رقبته ، وأرخوه على صدره ، وصار عظم رأسه ظاهرا ، وطافوا به فى القاهرة ، ثم علقوه على باب النصر ، واستمر معلقا الى أن مات . ثم نودى للحفارين بحفظ أكفان الموتى .

وفى أواخره تناقص أمر الطاعون ، وكانت مدته ثلاثة أشهر ، ومات به زيادة على مائتى ألف انسان ، من كبير وصغير ، ومن المماليك السلطانية نحو من ألف ومائتى انسان .

* * *

وفى شوال خلع السلطان على قرقماس بن ولى الدين ، وقرره فى رأس نوبة كبير ، عوضا عن جان بلاط الغورى بحكم وفاته .

وفيه قرر بلباى المؤيدى ، من جملة المقدمى الألوف بمصر .

وفيه فى رابع عشره وصل سودون الدوادارى ، أحد الأمراء العشراوات ، وصحبته عدة رءوس ممن قتل فى المعركة التى وقعت بين أقبردى والعسكر ، الذين خرجوا من مصر ، كما تقدم . فكان عدة تلك الرءوس احدى وثلاثين رأسا . وكان فيها رأس اينال السلحدار ، نائب حلب الذى فر مع أقبردى ، وفيها رأس ابن على دولات الذى قتل فى المعركة . وقيل ان الذين قتلوا اثنان وثلاثون ... فكان لدخولهم فى القاهرة يوم مشهود ودخلت الرءوس وهى مشهورة على رماح ، وشقوا بها من القاهرة والمشاعلى ينادى عليها ... فلما عرضوا على السلطان ، رسم بأن يعلقوا على أبواب المدينة ، فعلقت رأس اينال ، ورأس ابن على دولات ، على باب زويلة . والباقى على باب النصر وغيره ... وكل هذا يشق على الملك الناصر فى الباطن . وكانت له عناية بأقبردى وتعصب . وأخبر سودون الدوادارى أن كرتباى الأحمر نائب الشام رجع الى الشام ، وأن جان بلاط نائب حلب رجع الى حلب ، وأن العسكر واصل عن قريب .

وفيه جاءت الأخبار أن كرتباى الأحمر لما استقر فى نيابة الشام ، استولى على نيابة قلعة الشام أيضا ، مضافا لما بيده من نيابة الشام ، وهذا الأمر عزيز الوقوع جدا

وفيه امر السلطان ببناء جامع الفيوم ، وكان القائم فى ذلك الشيخ عبد القادر الدشطوطى . وأرسل السلطان صحبته جماعة من البنائين والمهندسين .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن كاتب السر بدر الدين بن مزهر لما توجه الى مكة أصلح بين أمير مكة المشرفة وأخيه بمرسوم السلطان . وجاءت الأخبار من مكة المشرفة أيضا بوفاة برد بك نائب جدة ، وكان أحد المقدمين بمصر ، وخرج منفيا الى مكة المشرفة بعد كسرة أقبردى ، فمات بها وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء الوحشة بين السلطان وخاله ، وصار بعض الأمراء يرمى بينهما الفتن ، حتى بلغ بذلك مقاصده ، وخيلوا الملك الناصر من خاله ، وخيلوا خاله منه بأشياء من أنواع الحيل والخداع ، وأخذوا فى أسباب ما تتم به الحيلة

على قتل الملك الناصر ، وقد سعوا فى ذلك سعى الشطار ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه . وقد قيل فى معنى ذلك :

صف بالدهاء الذى يخشى الدهاء فما
ينام خيفة أن تبدو له الحيل
فقد يبيت بقلب ضمه أسد
ولا يبيت بقلب ضمه رجل

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى ، وأمير ركب الأول جان بلاط الموتر المحتسب .

وفيه جدد الأمير قانصوه خال السلطان خطبة فى المدرسة البشيرية التى بدرب الخازن ، ولم يكن بها قبل ذلك خطبة ، فجدد الخطبة بسبب مماليكه ، وكان ساكنا بالقرب منها .

وفيه قبض الوالى على شخص من السراق ، فلما عرضه على السلطان أمر بقطع يده ورجله ، وألزم ذلك السارق أن يقطعهما بيده ، ففعل ذلك بحضرة السلطان .

وفيه دخلت التجريدة التى توجهت الى أقبردى الدوادار ، وقد حضروا من غير اذن السلطان ، فشق عليه ذلك وأخذ حذره من الأمراء لكونهم دخلوا من غير اذن منه .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار لما بلغه أن التجريدة عادت الى مصر ، عاد الى عين تاب ، وصار ينهب البلاد ، ويقطع الطريق على التجار . فلما بلغ الأمراء ذلك أعياهم أمره .

وفيه تزايد أمر العربان بالشرقية ، حتى خرج اليهم قانصوه خال السلطان ، وقرقماس رأس نوبة كبير . فلما خرج قانصوه خال السلطان سرح فى بلاد الشرقية والغربية سرحة عظيمة ، وغاب نحوا من شهر ، ودخل عليه جملة تقادم حافلة من الكشاف ومشايخ العربان وغيرهم .

وفيه قصد السلطان أن يخرج الى مولد سيدى أحمد البدوى رحمه الله ورضى عنه ، فلم يمكنه الأمراء من ذلك .

وفيه توفى الخطيب الوزيرى شمس الدين محمد ابن ابراهيم بن عثمان المالكى ، وكان من أهل العلم والفضل لا بأس به .

* * *

وفى ذى الحجة عاد قانصوه خال السلطان من السرحة ، فنادى له السلطان فى القاهرة بالزينة فزينت له . ثم انه دخل فى موكب حافل ، وطلع الى القلعة ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية . فلما نزل من القلعة ، ووصل الى رأس الصوة ، لاقاه جماعة من المماليك السلطانية الجلبان ، وبأيديهم دبابيس مسحوبة ، فقالوا له : « قل للسلطان ينفق علينا بسبب نصرنه على أقبردى » . واستمروا يحاصرونه من رأس الصوة الى أن دخل بيته الذى عند درب حمام الفارقانى . فلما دخل الى بيته وقفوا له على الباب حتى قلع الخلعة وأكل المدة ، وأركبوه ثانيا وطلعوا به الى القلعة ، وهو مهدد معهم بالقتل . فلما طلع الى السلطان لم يوافقه على ذلك ، فرد الجواب على المماليك بالمنع من السلطان ، فاستمروا صابرين حتى مضى عيد النحر وانقضى أمر تفرقة الأضحية ، فلبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة ، وحاصروا السلطان وهو بالقلعة — وكان قانصوه خاله عنده فوق القلعة — وتوجهوا الى بيت الأتابكى أزبك فأركبوه غصبا وطلعوا به الى القلعة ، فتكلم مع السلطان فى ذلك فامتنع ساعة . ثم انه وقع الاتفاق على أنه ينفق عليهم بعد مضى شهر ، لكل مملوك خمسون دينارا . فلما نزل الأتابكى أزبك من القلعة ، رد عليهم الجواب بذلك فخمدت تلك الفتنة وقلعوا آلة السلاح .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب جمع الأموال ، فورع على المباشرين جانبا ، وعلى قضاة القضاة جانبا ، وعلى أعيان الناس من التجار ، وغير ذلك حتى على اليهود والنصارى قاطبة ، ومشاهير السوقة والمتسببين . وكان القائم فى ذلك قانصوه خال السلطان وأعوانه ، وهم ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وابراهيم المهاجرى امام الأمير قانصوه خال السلطان ، وقانى بك الدوادار . فجلس قانصوه خال السلطان فى داره التى عند درب حمام الفارقانى ، وأحضر المعاصير والكسارات ، وأحمى خود حديد على النار ، وطلب الناس بالرسل الغلاظ الشداد . فأما قاضى القضاة المالكى ابن تقى فانه اختفى فى بيته ، وكذلك قاضى القضاة الحنبلى الشهاب الشيشينى . وطلب القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش فامتنع مما قرر عليه ، فطرح على الأرض ليضرب . وكذلك ناظر الخاص علاء الدين بن الصابونى . وعلى هذا فقس بقية الناس من الأعيان والمشاهير . فجمعت تلك الأموال من الناس بالضرب والحبس والتراسيم ، وحصل لهم غاية المشقة بسبب ذلك ، فكثر الدعاء على الناصر وخاله . وقد تزايد الظلم والجور فى تلك الأيام الى الغاية ، حتى فرج الله تعالى عن قريب ، وكان كما قيل :

وماذا ينفع الترياق يوما
اذا وافى وقد مات اللديغ

فلما تكامل جمع الأموال ابتدأ السلطان بتفرقة النفقة ، فأعطى لطائفة المماليك القايتباهية ، لكل واحد منهم خمسون دينارا ، وما عدا ذلك خمسة وعشرين دينارا .

وفيه أن من أخبار الملك الناصر التى هى فى غاية البشاعة ، أنه دخل الى حارة الروم ، وهجم على دار ابراهيم مستوفى الخاص ليلا ، وقبض على ولده أبى البقاء ورام توسيطه ، فألقى والده نفسه عليه وافتداه بألف دينار . قيل كان سبب ذلك أن الناصر بلغه أن زوجة أبى البقاء جميلة ، فهجم عليه بسببها فأخفوها منه ، فجرى بسبب ذلك ماجرى. وهذا الكلام مستفاض بين الناس والله أعلم .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن المسلمين أخذوا حصن جربة من أيدى الفرنج ، وكانوا قد استولوا عليه نحوا من سنة وأشهر ، فكانت النصرة للمغاربة على الفرنج .

وفيه كثرت الفلوس الجدد بأيدى الناس ، حتى صار النصف الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد . وصار الدينار الذهب يصرف من الفلوس بثلاثين نصفا . وصارت البضائع تباع بسعرين : سعر بالفضة ، وسعر بالفلوس الجدد . وأضر ذلك بحال الناس . وقد وقع فى دولة الأشرف قايتباى أن النصف الفضة وصل صرفه بالفلوس أربعة وعشرين .

وفيه تزوج قايتباى قمر أمير آخور كبير ، بنت يشبك الدوادار التى كانت زوجة كرتباى ابن عمة السلطان الأشرف قايتباى الذى قتل فى واقعة أقبردى بمدرسة السلطان حسن

وفيه خرج نوروز الخوخ أحد الأمراء العشراوات قاصدا الى كرتباى الأحمر نائب الشام ، وعلى يده مراسيم بالعتب عليه لكونه استولى على نيابة قلعة الشام من غير اذن السلطان . فتوجه اليه وعاد بعد مدة بغير طائل .

وفيه توفى أقباى استادار الذخيرة ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة أسنباى الذى كان نائب الاسكندرية ، واتهم بموته كاتب السر لما توجه الى هناك . وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم فى أمر عظيم ، ووقع بها الغلاء والفناء والمصادرات ،

وجور السلطان فى حق الناس ، كما تقدم ، وأذى المماليك فى حق الرعية ، وقد كان الناس فى غاية الاضطراب . وما كفى هذا كله حتى فشا فى الناس داء يقال له الحب الفرنجى[1] — أعاذنا الله تعالى منه والمسلمين أجمعين بمنه وكرمه — وقد أعيا الأطباء أمره ، ولم يظهر هذا بمصر قط الا فى أوائل هذا القرن ، ومات به من الناس ما لا يحصى .

سنة اربع وتسعمائة (١٤٩٨ — ١٤٩٩) :

فى المحرم ، كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبا الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان العصر الملك الناصر أبا السعادات محمد ابن الأشرف قايتباى رحمه الله . وأما القضاة الأربعة : فالقاضى زين الدين زكريا الشافعى ، والقاضى برهان الدين بن الكركى الامام الحنفى ، والقاضى عبد الغنى بن تقى المالكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشى الحنبلى .

وأما الأمراء المقدمون فقد تقلبت أحوالهم بموجب ما جرى من الفتن والقتل ، كما تقدم فى أخبار السنة الخالية . فكان الأتابكى أزبك بن ططخ أمير كبير يومئذ . وتانى بك الجمالى الظاهرى جقمق أمير سلاح . وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أمير مجلس ، وقانى باى الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه خال السلطان دوادار كبير واستادار كبير وكاشف الكشاف ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة كبير ، وقيت الرجبى حاجب كبير . وبقية الأمراء على حكم ما تقدم من أخبارهم . وأما المباشرون فالقاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ونائبه . وصلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين بن الصابونى ناظر الخاص ، ووكيل بيت المال ، وبقية المباشرين على حكم ما تقدم .

وفيه من الوقائع أن النيل أوفى تاسع عشر مسرى الموافق لرابع المحرم . وكان السلطان عول على أن ينزل ويفتح السد بنفسه ، وأخذ فى أسباب ذلك فلم يمكنه الأمراء من ذلك خوفا عليه من القتل ، فشق عليه ذلك . فلما صلى العشاء نزل من القلعة على حين غفلة ، وقدامه عدة فوانيس ومشاعل ، ومعه أولاد عمه وبعض خاصكية نحو من مائة خاصكى . فتوجه الى السد وفتحه تحت الليل ، ثم توجه الى سد قنطرة قديدار ففتحه أيضا ثم عاد الى القلعة ، وكل هذا تحت الليل . فلما طلع النهار وجد الناس الماء فى الخلجان والبرك قد غمرت بالمياه فتعجبوا من ذلك . وما وقع قط فى الجاهلية ولا فى الاسلام أن السد فتح بالليل . وقد قطع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء ، وما كان فيه من القصف والفرجة المعتادة . وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

متذ للسلطان قالوا   للورى بالكسر جبر
كسر السد بليل   فغدا للناس كسر

وفيه توجه السلطان الى قناطر أبى المنجا ، وفتح سدها أيضا ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ضرب السلطان الكرة بالحوش فى غير موكب . وكان معه بعض أمراء الطبلخانات والعشراوات ، منهم الأمير طومان باى الدوادار الثانى ، فاقتحم على أخذ الكرة من السلطان ، فحنق منه السلطان وضربه على ظهره بالصولجان غير ما مرة ، فكان ذلك من جملة ما حقده طومان باى ، حتى كان سببا لقتله عن قريب .

وفيه مر السلطان من بين القصرين بعد العشاء

(1) هو « الزهرى » ، عاد به كولومبس وملاحوه من امريكا ، ولم يكن معروفا فى العالم القديم من قبل .

فرأى شخصا ماشيا فى السوق ، وقد خرج من الحمام . فقيل له هذا الرجل سكران ، فوسطه ولم يفحص عن أمره ، وراح ذلك الرجل ظلما . وكان الناصر قد تزايد شره فى تلك الأيام الى الغاية .

وفيه نادى السلطان لسكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية فامتثلوا ذلك . وصار ينزل فى المراكب ، ويطوف البركة هو وأولاد عمه ، وان رأى امرأة جميلة فى بيتها هجم عليها ، وطلع لها من الطاق ، وأخذها غصبا ، وضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته . فارتاب الناس منه ، وبقى على رءوسهم طيرة .

وفيه من الحوادث أنه أشيع بين الناس أن السلطان عمل له برقا حافلا بتربة أبيه ، وقد عول على أن يسافر فى الدس الى نحو البلاد الشامية بسبب أقبردى الدوادار ليكون له عونا على نصرته ودخوله الى مصر . وكان الناصر له عناية بأقبردى ظاهرا وباطنا . فلما بلغ الأمراء ذلك توجهوا الى المكان الذى فيه السنيح ونهبوه الى آخره ، وضربوا الغلمان الذين تعينوا الى السفر مع السلطان . وكادت أن تكون فتنة مهولة بسبب ذلك ، وقصدوا أن يلبسوا آلة السلاح ، ويثيروا فتنة عظيمة ، ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه وصل الحاج ودخل الى القاهرة بعد أن قاسى مشقة زائدة وعطشا وقلة أمن من فساد العربان . وأشيعت الأخبار بوفاة يوسف بن أبى الفتح ، كاتب المماليك ، مات بمكة المشرفة وكان مجاورا بها ، وكان لا بأس به .

وفيه وقعت نادرة ، وهى أن المحمل لما دخل الى القاهرة صحبة الحجاج شق المدينة ، فلما أن وصل الى جامع الماردانى بركوا جمل المحمل هناك ، وأرادوا أن ينزعوا ما عليه من القماش ، واذا بقاصد من عند السلطان يطلب المحمل ، وكان بقبة يشبك التى بالمطرية . فتوجهوا به اليه ، فشقوا به من القاهرة ثانيا ، حتى رآه السلطان وهو بالقبة ، ثم عادوا به فشق القاهرة ثالث مرة ، فعد ذلك من النوادر التى قط ما وقعت .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار من البحيرة بأن الجويلى ومرعى أثاروا فتنة مهولة بالبحيرة ، ونهبوا البلاد وأسروا النساء وقتلوا الأطفال ، وأشيع أن الجويلى حلف أنه لا يمكن أحدا من أرباب الدولة أن يأخذ خراجا من بلاد الغربية والبحيرة فى السنة المذكورة . فلما تحقق السلطان ذلك عين تجريدة الى البحيرة فلم يوافق أحد من الأمراء ولا العسكر على ذلك ، وكان النيل فى قوة زيادته . ثم ان السلطان نادى للعسكر بالعرض فى الميدان ، فلما حضر العسكر لم ينزل اليهم السلطان ، وقد تخوف على نفسه ، فانفض ذلك الجمع ، وكثر القال والقيل بين الناس . وكانت أيام الناصر كلها فتنا وشرورا .

وفيه ظهر البدرى بن مزهر كاتب السر ، وكان مختفيا ، فأرسل له السلطان بالأمن والأمان .

وفيه قرر السلطان قانصوه جركس ، المعروف بابن اللوقا ، فى حجوبية الحجاب بدمشق .

وفيه قرر ابراهيم بن يحيى المهاجرى فى نظر الديوان المفرد بواسطة قانصوه خال السلطان ، فانه كان أمامه .

وفيه نودى فى القاهرة من قبل السلطان بأن جميع الحوانيت التى بالأسواق والشوارع يبيضون وجوهها ويزخرفونها بالدهان ، فحصل للناس بسبب ذلك غاية المشقة . ثم رسم بتبييض وجوه الربوع المطلة على الشوارع . وكل هذا من وسائط السوء التى حوله وعقل الصغار .

وفيه تزوج السلطان بمصرباى الجركسية ، زوجة كرتباى أخى أقبردى الدوادار ، الذى كان نائب صفد ، ووقع بين السلطان وأمه بسبب زواج مصرباى ما لا خير فيه ، وكانت عليه كعب الشوم ، فأقام معها دون الشهر وقتل .

***

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان المصحف العثمانى بين يديه وحلف العسكر قاطبة عليه ، ثم حلف الأمراء . فلما حلفوا قالوا مثل ما حلفنا للسلطان يحلف لنا هو أيضا أنه لا يمسك منا أحدا بغير سبب ، فتوقف السلطان فى ذلك اليمين ، وكان المتكلم بين السلطان والأمراء تانى بك الجمالى أمير سلاح . فانفض المجلس على مانع ونزل الأمراء من غير رضا .

فلما كان يوم الجمعة لم يطلع من الأمراء أحد الى صلاة الجمعة مع السلطان ، واجتمعوا فى بيت قانصوه خاله ، ولم يمكنوه من الطلوع الى القلعة . واستمر الحال الى يوم الاثنين ثم ان السلطان أرسل نقيب الجيش الى طومان باى الدوادار الثانى وطراباى أمير آخور ثانى ، وأزدمر شاد الشراب خاناه ، وأسنباى . فقال لهم نقيب الجيش عن لسان السلطان : « رسم السلطان لكم بأن تكتبوا وصية وتخرجوا فى عقيب هذا اليوم وتتوجهوا الى مكة المشرفة من البحر » . فلم يلتفتوا الى كلام نقيب الجيش ، وقالوا له : « ما نخرج من مصر لموضع ، ومهما يفعله بنا يفعل » . فعند ذلك أضمروا له السوء ، وتغيرت عليه خواطر الأمراء قاطبة وهو فى غفلة عما يراد به . وقد حقدوا عليه قبل ذلك مما يقع منه من هذه الأفعال الشنيعة ، وصار كل أحد من الناس حاقدا عليه باطنا وظاهرا من سوء تدبيره . كما قيل :

ما تفعل الأعداء فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه

وفيه ظهر مصر باى وآخرون من الأمراء ممن كانوا مختفين من عصبة أقبردى الدوادار . فلما ظهروا طلعوا الى القلعة ، وهم : مصرباى ، وقانبك أبو شامة ، وقانصوه التاجر ، وتمراز جوشن ، وقانصوه الساقى ، وآخرون من الخاصكية . وكان ظهورهم بأمر السلطان وجماعة من الاينالية ، منهم : دولات باى بن عينى ، وبرقوق الساقى . فلما قابلوا السلطان خلع عليهم وعلى خاله ، وأشيع بأن الصلح قد وقع بين حلف أقبردى الدوادار وبين حلف قانصوه خمسمائة . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الملك الناصر ، وأخذ عقيب ذلك بأيام .

وفيه نزل السلطان بقبة يشبك الدوادار التى بالمطرية فأقام بها الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة . وكان هذا آخر ركوبه الى جهة قبة يشبك .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فلم يطلع الى القلعة من الأمراء سوى أزبك أمير كبير ، وتانى بك الجمالى أمير سلاح ، وبعض أمراء عشراوات ، والقضاة الأربعة . ولم يطلع خاله قانصوه ، ولا أحد من الأمراء ، ولا حضروا المولد . ووقع فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان فى حق الأمراء والفقهاء ما لا خير فيه ، ورجموا الأمراء من الأطباق ، وكبوا عليهم الماء المتنجس بالأوساخ ، وخطفوا عمائم الفقهاء ، وكان يوما مهولا . فلما انقضى يوم المولد بعث السلطان يقول لطومان باى دوادار ثانى : « اخرج فى هذه الساعة على جرائد الخيل الى جهة البحيرة بسبب فساد جويلى ومرعى » . فخرج طومان باى من يومه ، وأتى الى بر الجيزة ، ونصب بها خيامه .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر المذكور نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو القناطر العشر ؛ وكان ذلك فى أواخر النيل . فعدى الى بر الجيزة وسبقه الخيام والمطبخ . وكان عنده جانب كبير من بقية احتياج المولد . فلما وصل السلطان الى الوطاق نزل به ، ولم يكن معه سوى أولاد عمه قيت ، وهما جانم وجانى بك أخوه ، وجماعة من الخاصكية . ولم يتوجه معه أحد من الأمراء ، ولا خاله . فأرسل أحضر أبا الخير ومعه خيال الظل ، وجوق مغانى العرب ، وبرابوه رئيس المحبظين . فأقام هناك ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش . وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة والانشراح . ومد هناك أسمطة حافلة وحلوى وفاكهة وغير ذلك ، وأنعم على جماعة من الخاصكية بخيول وقماش ومال ، وانشرح فى تلك الأيام بخلاف العادة ، وتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بأمثاله من المقدمين . فكان كما قيل :

تزود من الدنيا فانك لا تدرى
اذا جن ليلك هل تعيش الى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينا من الدهر
وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر الشهر المذكور أدركت السلطان تفرقة الجامكية ، فأذن للخاصكية الذين كانوا معه أن يتقدموا قبله كى لا يزاحموه وقت التعدية ... فتقدم جماعة منهم وراحوا الى بيوتهم ... فصلى السلطان العصر وركب ولم يبق معه سوى ابنى عمه وبعض سلحداريته . فلما ركب مر على الطالبية ، وكان الأمير طومان باى هناك بقصد التوجه الى البحيرة ، كما تقدم ذكره . فلما مر عليه خرج له طومان باى مسرعا وعزم عليه فلم ينزل عنده ، فخرج اليه بجفنة فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة اللبن ومعلقة ، فمد يده الى الجفنة وأكل من اللبن . فبينما هو يأكل والأمير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم يشعر الا وقد خرج عليه كمين من الخيام التى هناك ، نحو من خمسين مملوكا وهم لابسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به وعاجلوه بالحسام قبل الكلام . فقتلوه شر قتلة ، وحملوا عليه أى حملة . فجاءته ضربة على عاتقه وكتفيه فهدلته ، وطعن فى جوفه فوقع عن فرسه الى الأرض ، وقتلوا ولدى عمه الاثنين جانم وأخيه جانى بك وكانا شابين جميلين ، وقتل معهما شخص من السلحدارية يقال له أزبك الغمرى الخاصكى المعروف بالبواب ، وكان من خواص السلطان . وتقرب هذه الواقعة من واقعة الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاون . وقد قتل مثل هذه القتلة بعينها فى تروجة بمكان يعرف بالحمامات ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة . قتله مماليك أبيه أيضا .

وكانت قتلة الملك الناصر فى يوم الأربعاء بعد العصر خامس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة ، وقتل بأرض الطالبية . وقد نسب قتله الى طومان باى وأزبك وأزدمر وبعض مماليك أبيه . فكان كما قيل فى المعنى :

كنت من كربتى أفر اليهم
فهمو كربتى فأين المفر

أو كما قيل :

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها
فكيف اذا الرعاة هى الذئاب

فلما قتل الملك الناصر صارت جثته مرمية

على الأرض ، ومن قتل معه . فلما دخل الليل حمله جماعة شيخ الطالبية ، وأدخلوه مسجدا هنـاك ، وألقوه على حصير هو ومن معه وهو ملطخ فى دمه ، ورأسه مشتبكة فى جثته ببعض شىء . فبات هناك فى تلك الليلة . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما وقع للناصر من قتله اضطربت أحوال المدينـة وماجت بأهلها . ولبس العسكر آلة الحرب ، وكانوا تلك الليلة فى اضطراب . وكان جماعة من الأمراء قرروا مع الأمير قانصوه ، خال السلطان ، أنه اذا قتل الناصر يكون هو السلطان بعده فتغـافل عن هـذه الواقعة حتى قتل الناصر ، ولولا أنهم استمالوا خاله لما قدروا عليه ولا قتلوه .

فلما كان يوم الخميس صبيحة ذلك الأمر ، بعث خال السلطان ثلاثة نعوش الى الطالبية ، فأحضروا جثة السلطان وأولاد عمه جانم وأخيه جانى بك وأزبك بك الخاصكى . فلما عدوا بهم من الجيزة أتوا بهم الى بيت الأشرف قايتبـاى الذى أنشأه بقرب حمام الفارقانى ، فغسلوا السلطان وأولاد عمه والخاصكى ، وأخرجوا ولم يكن معهم غير الحمالين فقط . فأتوا بهـم الى باب الوزير فلم يجدوا من يصلى عليهم حتى أمسكوا بعض الفقهاء وصلى عليهم . ثم توجهوا بهم الى تربة الأشرف قايتباى فدفنوا الملك الناصر على أبيـه داخـل القبة ، وأولاد عمـه على جانى قريب السلطان ، وأزبك الخاصـكى وحده بعيدا عنهم فى التربة . وقد رثيت الملك الناصر لما مات بهذين البيتين وهما قولى :

يا قبر لا تظلم عليـه فطالما
جلى بطلعته دجى الاظـلام

طوبى لقبر قد حواه وكيف لا
يحكى السماء وفيه بدر تمام

وكان الملك الناصر حسن الشكل ، أبيض اللون ، عربى الوجه ، نحيف الجسد ، معتدل القامة ، وكان ضعيف الخط فى العلامة . قتل وله من العمر نحو من سبع عشرة سنة . وكان مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة . وكان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة لكنه كان جاهلا عسوفا جرىء اليد سفاكا للدماء سيىء التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف الناس . ووقعت منـه أمور شنيعة فى مدة سلطنته لا ينبغى شرحها . وليس له من المحاسن الا القليل . وسار فى المملكة أقبح سير ، ولم يقع من أبنـاء الملوك من السوء قط ما وقع منه فى سائر أفعاله ، حتى جاوز الحد فى ذلك . وفيه أقول :

سلطاننا الناصر المفسـدى
أخبـاره نقلهـا صـحيح

بالجهل أضحى قبيح فعـل
فلم يفـد شـكله المليح

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحـوا من سنتين وثلاثة أشـهر وتسعة عشر يوما . وكانت أيامه كلها فتنا وشرورا وحروبا قائمة ، كما تقدم ذكر ذلك من الوقائع وما كان قصد السلطان الأشرف قايتباى أن يتسلطن ولده خوفا عليه من ذلك .

ولما قتـل الملك الناصر تولى بعده خاله المقر السيفى قانصوه الدوادار الكبير .

الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه

هو الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه ابن قانصوه الأشرفى ، وهو الثالث والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهـو السـابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد . وكان

أصله جركسي الجنس ، اشتراه الأمير قانصوه الألفي مع جملة مماليك وقدمهم للسلطان الأشرف قايتباي في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة . فأنزل بالطبقة مع جملة المماليك الكتابية ، فأقام بها مدة يسيرة . ثم ظهر أنه أخو سرية السلطان أصل باي الجركسية ، أم ولده محمد الذي تسلطن ... فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، فأقام على ذلك حتى توفي الأشرف قايتباي ، وتسلطن ولده الناصر محمد ، فجعله خازندارا كبيرا ، وبقي يسمى خال السلطان . فلما وثب قانصوه خمسمائة على الملك الناصر كما تقدم ، لم يكن عنده بالقلعة الا خاله قانصوه هذا وجماعة كثيرة من المماليك الجلبان . فقام قانصوه بنصرته هو والمماليك الجلبان ، وقاتلوا قتال الموت بعدما أرسل قانصوه خمسمائة بادخال الناصر الى قاعة البحرة وتقييده . فلما انتصر الناصر على قانصوه خمسمائة ، خلع على خاله قانصوه ، وقرره أمير طبلخانات وشاد الشراب خاناه دفعة واحدة ، فعظم أمره وشاع بين الناس ذكره .

ولما ركب أقبردي الدوادار وانكسر ، وتوجه الى البلاد الشامية ، خلع السلطان على خاله وقرره في الدوادارية الكبرى عوضا عن أقبردي . ثم قرره في الوزارة والاستادارية فعظم أمره جدا . فلما قتل الناصر وقع الاضطراب بين الأمراء فيمن يتسلطن بعد الناصر . فاجتمع الأمراء بدار الظاهر تمربغا ، وحضر الأتابكي أزبك ، وبقية الأمراء ، وأشيع في ذلك اليوم أن قانصوه خمسمائة في قيد الحياة ، فنودي له بالأمان وأن يظهر فلم يكن لهذا الكلام تأثير ، وبطلت هذه الاشاعات . ثم قالوا للأتابكي أزبك تتولى السلطنة أنت ، فحلف بالطلاق ثلاثا من بنت الظاهر بأنه ما يتسلطن ، وأن يعود الى مكة المشرفة كما كان . ثم صعدوا الى باب السلسلة

وحضر قانصوه خال السلطان الناصر من بيته المشهور ، وصعدوا الى باب السلسلة ، ووقع الاتفاق على سلطنته . وكان القائم في ذلك طومان باي الدوادار الثاني ، فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة . وهم زين الدين زكريا الشافعي ، والبرهان بن الكركي الحنفي ، وعبد الغني بن تقي المالكي ، والشهاب الششيتي الحنبلي ، فبايعه الخليفة بالسلطنة وشهد عليه القضاة الأربعة بذلك . وتلقب « بالملك الظاهر أبي سعيد » وذلك في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول من سنة أربع وتسعمائة . وذلك في أثناء الساعة الرابعة وهي لزحل ، فأحضر شعار الملك وهو الجبة والعمامة السوداء والسيف البداوي . فأفيض عليه شعار الملك ، وقدمت له فرس النوبة ، وركب من سلم المقعد الذي بباب السلسلة ، ومشت الأمراء بين يديه ، وركب الخليفة معه ، وتقدم الأتابكي أزبك وحمل القبة والطير على رأسه ، وكان هو أولى بالسلطنة من كل أحد ، وقد فاتته عدة مرار كما قيل :

اذا رفع الزمان محل شخص
وكان سواه أولى لو تصاعد
فكم في العرس أبهى من عروس
ولكن للعروس الوقت ساعد

فلما طلع الظاهر الى القصر جلس على سرير الملك فأول من قبل له الأرض الأتابكي أزبك ، ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا . وقيل ان الذي لقبه بالملك الظاهر هو تاني بك الجمالي أمير سلاح .

فلما جلس خلع على الخليفة ونزل الى داره ، وخلع على الأتابكي أزبك بالاستمرار في الأتابكية وخلع على طومان باي الدوادار الثاني وقرره في الدوادارية الكبرى عوضا عن نفسه . ثم دقت البشائر بالقلعة ونودي باسمه في القاهرة ، وارتفعت

الأصوات له بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته ، بغضا فى الملك الناصر مما كان يفعله من الأفعال الشنيعة . فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم ، خطب باسم الملك الظاهر على المنابر . وجاء فى حال سلطنته بأشياء على الوضع وانصلحت الأحوال فى أيامه على قدر ما كان جليا . فتولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة . وكان له عقل وافر وثبات جنان . والذى وقع له لم يقع لأحد من مبتدا دولة الأتراك الى الآن ، فانه كان من دخوله الى مصر واقامته فى الطبقة وحضوره من بلاد جركس وامريته وسلطنته دون الست سنين ، وهذا لم يتفق لأحد من الأتراك قبله . وكان من جملة الجمدارية فى دولة الأشرف قايتباى ، ثم صار فى دولة الناصر كما تقدم ، وكان له سعد خارق من العناية الأزلية فى القدم كما قيل :

اذا خصص الرحمن عبدا بنعمة
فكل حسود بعد ذلك مقمع
فياطالب العلياء مهلا ولا تطل
فليس بسعى المرء ما شاء يصنع

وفى حال سلطنته حضر سيف كرتباى الأحمر نائب الشام لموته ، وقد مات الناصر بحسرة أن يسمع بذكر موته . ويقال ان الناصر رشا على قتل كرتباى الأحمر بألف دينار . قيل ان بعض غلمانه سمه فى زيق الكوفية ، وقيل فى قبة العرقية فلما لبسها وعرق سرى السم فيه فورم وجهه ووصل الورم الى قلبه فمات . وقد تمت حيلة الناصر عليه . وكان كرتباى الأحمر أميرا جليلا ، رئيسا ، وكان يحجر على الناصر وينهاه عن هذه الأفعال الشنيعة ، فكرهه بواسطة ذلك . وكان الناصر يصور أوراقا بقاعة البحرة بهيئة كرتباى الأحمر وهو مسمر على جمل والناس تتشبه . وكان كرتباى يصرخ فى وسط مجلسه فى الشام ، ويقول: « أنا من تحت حكم صبى أو امرأة » يعنى الناصر وأمه . ولما استقر كرتباى فى نيابة الشام ملك قلعتها وطرد نائبها ، ووقع منه أمور شتى فى حق السلطان الناصر يطول شرحها .

وفى ذلك اليوم ثار جماعة من المماليك الجلبان على ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، فضربوه ضربا مبرحا حتى كاد أن يموت .

وفيه عمل السلطان الموكب بالقصر ، وخلع على قصروه بن اينال ، وقرره فى نيابة حلب عوضا عن جان بلاط بن يشبك ، وأرسل الى جان بلاط خلعة ونقله من نيابة حلب الى نيابة الشام عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم وفاته .

وفيه قرر الأمير طومان باى فى الوزارة والاستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى

وفيه ثار جماعة من المماليك الناصرية على الأمير طومان باى ورجموه من الطباق ، وقصدوا قتله غير ما مرة ، وقد أشيع عنه أنه كان سببا لقتل الناصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بسد جميع الطباق والشبابيك والمناور التى تطل على دهاليز القلعة من طباق المماليك .

وفيه خلع السلطان على طراباى الشريفى ، وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن طومان باى المذكور . وقرر تانى بك الجمالى ، أحد الأمراء العشراوات ، فى الخازندارية ، وقرر أقباى الطويل فى نظر الجوالى ، وأنعم على بيبرس الأشقر بامرية عشرة .

وفيه قبض الأمير طومان باى على على بن رحاب المغنى ، وضربه بالمقارع وشهره بالقاهرة ، وهو عريان مكشوف الرأس على حمار . وكان على بن رحاب طالما أدخل نفسه فيما لا يعنيه ، وتعصب

لأتبردى الدوادار ، وصار يسب الأمراء سبا قبيحا فى المجالس جهارا ، ويهجوهم الهجو الفاحش ، ويصرح بذلك فى السماعات وهو على الدكة . وكان كرتباى الأحمر قبض عليه قبل ذلك وأراد ضربه ، ثم وبخه بالكلام وعفا عنه . فلما زاد فى هذا الأمر ضربه طومان باى وشهره فى القاهرة ، والمشاعلى ينادى عليه « هذا جزاء من يكثر كلامه ويدخل نفسه فيما لا يعنيه » .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تحصيل الأموال لأجل النفقة على الجند ، فقرر على الشهابى أحمد ناظر الجيش مبلغا له صورة فاختفى . فلما اختفى خلع السلطان على القاضى عبد القادر القصروى ، وقرره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد بحكم اختفائه .

وفيه اختفى الشهابى أحمد بن العينى بسبب مال فرض عليه ، واختفى جوهر المعينى الزمام بسبب مال فرض عليه . وقبض على محسن الطواشى الخازندار وآخرين من الطواشية وقرر عليهم الأموال ، وتسلم طراباى محسن الخازندار والطواشية وعاقبهم ، واستخلص منهم الأموال ، حتى باعوا جميع ما يملكونه من بيوت وقماش ولم يبق مما قرر عليهم شىء . وكان من جملة الطواشية مسك الساقى وغيره من الطواشية .

* * *

وفى ربيع الآخر خرج قصروه فى نيابة حلب ، وخرج صحبته أقباى الذى قرر فى نيابة قلعة الشام .

وفيه تعين قرقماس بن ولى الدين رأس نوبة كبير فى امرية ركب المحمل ، وتعين أزبك المكحل أحد الأمراء الطبلخانات فى آمرية الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار قد حاصر حلب أشد المحاصرة ، وأحرق ما حولها من الضياع ، وأشرف على أخذ المدينة . وقد التم عليه الجم الغفير من الناس والتركمان ، وحصل منه غاية الضرر . فلما تحقق السلطان ذلك عين تجريدة ثقيلة الى أقبردى . وكان باش العسكر تانى بك الجمالى أمير سلاح ، وبها من الأمراء المقدمين : قانى باى أمير آخور كبير ، وسودون العجمى ، وبلباى المؤيدى ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات وعدة وافرة من العسكر فأنفق عليهم ، واستحثهم على الخروج الى حلب بسرعة .

وفيه توجه جانم طاز الأبراهيمى أحد العشراوات الى على دولات بن دلغادر ، وصحبته خلعة وتقليد الى على دولات باستمراره على امرية التركمان على عادته .

وفيه أمر السلطان بتوسيط شخص من المماليك يقال له ألماس ، وقد قتل قتيلا ، فوسطه السلطان بسبب ذلك .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين عاشره ، خرجت التجريدة المعينة الى اقبردى الدوادار ، وكان لخروجها يوم مشهود

وفيه صنع السلطان مولدا فى غير وقته . وحضر فيه القضاة الأربعة على العادة ، وكان يوما حافلا سلطانيا .

وفيه أنعم السلطان على جان بردى الأشقر الكاشف بامرية عشرة .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة هلال الطواشى الرومى ، وكان صار مقدم المماليك ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء نفقة البيعة على الجند .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصروه الذى قرر نائب حلب ، لما دخل الى الشام

وضع يده على مال كرتباى الأحمر جميعه ، وكان مبلغا ثقيلا نحوا من سبعة وستين ألف دينـار ، وكان هـذا أول عصيان قصروه واستخفافه بالسلطان فلما بلغ السلطان ذلك تنكد لهـذا الخبر ، وعين مشد أحد الدوادارية بالتوجه الى قصروه ، وأن يأمره برد ما أخذه من مال كرتباى الأحمر . فلما توجـه الى قصروه لم يلتفت الى مراسيم السلطان ، ولا رد شيئا من المال الذى أخذه ، واعتذر بأشياء لم تقبل

وفيه قبض السلطان على شخص من الحرامية يقال له ابن الوارث ، فقطع لسانه ، وكحلت عينه بالنار ، ومع هذا لم يرتجع عن الحرام والسرقة . وقد قبض عليه بعـد ذلك وعلى رأسه عملة ... والطبع فى الانسان لا يتغير .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كمشبغا الشريفى نائب الاسكندرية ، وكان لابأس به .

وفيه أخرج السلطان تقدمة أزبك اليوسـفى بحكم أنه كبر سـنه وعجز عن الحركة . فلمـا أخرجت عنه ، أنعم السلطان بها على أزدمر بن على باى الذى كان شاد الشراب خانه .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، عاد الأمير طومان باى الدوادار من السرحة التى سرحهـا نحـو بلاد الصعيد . وأحضر صحبته من الأغنام فوق الأربعة آلاف رأس زعموا أنها من أغنـام عرب عزالة . وجرى فيما بعد أمور غريبـة بسبب ذلك يأتى الكلام عليها .

وفيـه قرر السلطان أزبك المكحل فى نيـابة الاسكندرية عوضا عن كمشبغا الشريفى

وفيه كثرت المصـادرات للمباشرين وأعيـان الناس بسبب النفقة ، وقد عجز السلطان عن سدها .

وفيه عين السلطان البدرى بن مزهر كاتب السر بأن يخرج الى مكة المشرفة فى بعض المهمات الشريفة .

وفيه قبض السلطان على الناصرى بن خاص بك ، آخى خوند زوجـة الأشرف قايتباى ، فأقام فى الترسيم مدة ، وطلب منه مال له صـورة ، وعرض للضرب غير ما مرة ، وقد آل أمره الى أن يخرج أمير حاج بالركب الأول ، وأمره بأن يقوم بما يحتاج اليه من ماله ، ولا يأخـذ من السلطان شيئا . ثم قبض على أخت خوند بنت خاص بك التى كانت زوجة أقبردى الدوادار ، ورسم عليها وطالبها بمال له صورة ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مائة ألف دينار ، وأجرى عليهـا ما لا خير فيه من الأنكاد والضرر .

وفيه غمز بعض التجار على قنبك أبى شـامة أحد الأمراء ، وكان مختفيـا فى مكان فى رأس حارة زويلة ، فكبس عليه والى الشرطة ، ومعه جماعة من المماليك . فلما دخلوا عليه هاش عليهم بالسـيف ، فتكاثروا عليه ، ومسكوه وقتـلوه بالدار التى كان بها . وكان قنبك أبو شامة من الأمراء الطبلخانات ، وكان من أكبر أصـحاب أقبردى الدوادار ، وقد فاته القتل عدة مرار ، وكان غير مشكور السيرة فى أفعاله .

* * *

وفى رجب أنعم السلطان على أنس باى وقرره فى شادية الشراب خانه ، عوضا عن أزدمر بن على باى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيـه خلع السلطان على بخشباى ، وقرره فى نيابة حماه وخرج اليها فيما بعد .

وفيه قرر شخص يقال له محمـد الباسطى فى التكلم على جهات الحسبة ، وجرى من الباسطى هذا أمور يطول شرحها ، وآل أمره الى أن ضرب بالمقارع وشهر على جمل فى دولة العادل طومان باى .

* * *

وفى شعبان غرق محب الدين محمد ابن قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا . قيل انه كان فى مركب فغرق قدام المقياس . وكان غير مشكور السيرة

وفيه جاءت الأخبـار بأن الأمير طومان باى الدوادار لما توجه الى جهة الصعيد ، احتال على حميد بن عمر أمير عربان هوارة ، فلما ظفر به قتله وحز رأسه وأرسلها الى مصر ، فعلقت بباب زويلة ثلاثة أيام .

وفيه ، فى حادى عشر ، وصل خاير بك أخو قانصوه البرجى ، الذى توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان الملك الناصر أرسله قاصدا عن لسانه الى ابن عثمان ، فأكرمه وأظهر الفرح بسلطنة الملك الناصر ، فلما بلغه قتلة الملك الناصر شق عليه ووبخ خاير بك بالكلام

وفيه تغير خاطر السلطان على جان بردى الغزالى ، كاشف الشرقية ، وأمر بتوسيطه حتى شفع فيه

وفيه عاد الطاعون الذى كان فى العام الماضى ، ومات فيه كثير من الناس من الغرباء ممن فر وعاد بعد رفع الطاعون . وفى هذه السنة كان الطاعون خفيفا جدا .

وفيه جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان زحفوا على بلاد السلطان ، وآل الأمر الى أن ابن عثمان أرسل يقول لنائب حلب : « اعزل ابن طرغل » ، فأجابه نائب حلب الى ذلك وعزل ابن طرغل .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على بهاء الدين عبد الرحمن بن قدامة الدمشقى ، وقرره فى قضاء الحنبلية ، وصرف عنها الشهاب أحمد بن الشيشينى فأقام ابن قدامة فى منصب القضاء شهرا واحدا وأربعة أيام ، وعزل عنها ، وأعيـ الشيشينى الى القضاء ثانيا .

وفيه تغير خاطر السلطان على الشيخ سر الدين عبد البر بن الشحنة ، ورسم بنفيه قوص ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفى ، فر له بأن يلزم داره ولا يركب ولا يجتمع على أ من الناس ، وجرت عليه أمور مهولة فى ت الأيام .

وفيه اجتمع السلطان والأمراء فى قاعـ البحرة ، وضربوا مشورة فى أمر أقبرد الدوادار ، فوقع الاتفاق فى ذلك اليوم على أقبردى يستقر فى نيابة طرابلس ، وأن آقـ الذى كان رأس نوبة كبير يستقر فى الأتابكيـ بدمشق ، وأن تانى بك قرا يتوجه الى القـد بطالا ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على جان بلا الأبح نائب القلعة ، وأمر بنفيه نحو البـ الشامية ، حتى شفع فيه بعض الأمراء من النفى

وفيه وقع للناصرى محمد ابن بنت جمـ الدين الاستادار كائنة عظيمة ، وهى أن شخـ تخاصم معه ، فشكاه من بيت طراباى — و يومئذ دوادارا ثانيا — فوقع من ابن بنت جمـ الدين فى المجلس بعض كلام فى حق خصمه فبطحه طراباى بين يديه ، وضربه ضربا مبر حتى كاد أن يهلك

وفيه قرر ابن قدامة فى قضاء الحنابلة بدمشق وتوجه اليها فيما بعد .

وفيه ، فى يوم الأربعاء عشرينه ، كانت و الأتابكى أزبك بن ططخ . وقد زعموا أن و يحيى قد سحره حتى مات . وقبض على شخص يقال له القصديرى وصبيه اتهم أنه الذى سحر حتى مات . وجرى بسبب ذلك أمور يطو

شرحها . وكان أزبك من أجل الأمراء قدرا ، وأعظم ذكرا ، وكان أميرا جليلا فى سعة من المال ، وافر الحرمة نافذ الكلمة وكان أصله من عتقاء الظاهر جقمق ، يقال ان أصله من كتابية الأشرف برسباى ، واشتراه الظاهر جقمق من بيت المال ، وأعتقه فصار من عتقائه ، وصاهره مرتين فى ابنته . وتولى عدة وظائف سنية بمصر ، منها حجوبية الحجاب ، ورأس نوبة كبير ، ثم بقى نائب الشام فى دولة الظاهر بلباى ، ثم عاد الى مصر ، وتولى الأتابكية فى دولة الأشرف قايتباى ، سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، وأقام بها نحو ثلاثين سنة . وكان من مبدأ أمره رئيسا حشما ، قرر فى امرية العشرة فى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ولا زال يترقى حتى كان من أمره ما ذكرناه وقاسى شدائد ومحنا ونفى نحوا من أربع مرات ، وسجن بالاسكندرية مرتين ... وكان كفؤا للمهمات السلطانية والتجاريد ، وقد سافر فى عدة تجاريد . ويطلب الأطلاب الحافلة ، وصرف على التجاريد من ماله ما لا يحصر وكان مسعود الحركات فى سائر أفعاله ، ذا شهامة وعلو همة ، وأظهر العزم الشديد فى قتال عسكر ابن عثمان ، ولم يجيء فى الأتابكية بعده مثله ، ومات وله من العمر نحو من خمس وثمانين سنة ، وخلف من الأولاد ولده الناصرى محمد الذى من بنت الظاهر جقمق ، وولده يحيى ، وصاهره قانصوه خمسمائة فى احدى بناته ، وماتت معه . فلما مات ترافع محمد ويحيى بين يدى السلطان ، فوضع السلطان يده على تركته من صامت وناطق قيل وجد له من الذهب العين سبعمائة ألف دينار ، خارجا عن البرك والخيول والقماش والتحف ، وخارجا عن جهاز ابنته التى ماتت مع قانصوه خمسمائة . وقد قوم ذلك بنحو من مائة ألف دينار ، فحمل ذلك جميعه الى الخزائن الشريفة وقد نال أزبك أمير كبير من الدنيا منالا عظيما فكان كما قيل :

أتلهو من نعيمك فى قصور
وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غره أمل طويل
يؤديه الى أجل قصير
أتفرح والمنية كل يوم
تريك مكان قبرك فى القبور ؟!
هى الدنيا فان سرتك يوما
فان الحزن عاقبة السرور
سنسلب كل ما جمعت منها
كعارية ترد على المعير

ولولا الذى صرفه أزبك أمير كبير على التجاريد ، وعمارة الأزبكية ، ما كان ماله ينحصر . وكانت تركته تعادل موجود سلار نائب السلطنة . وقد تقدم ذكر ذلك ومن أراد أن يعلم علو همة الأتابكى أزبك ، فلينظر ما صنعه من عمارة الأزبكية ، وقد أنشاها فى سنة احدى وثمانين وثمانمائة وقد تقدم ذكر ذلك كما يقال :

ليس الفنا بفناء يستظل به
حتى يكون له فى الأرض آثار[1]

ومما عد من مساوى أزبك أمير كبير ، أنه كان شديد الخلق صعب المراس ، اذا سجن أحدا لايطلقه أبدا ، وكان عنده حدة زائدة ، وشح فى نفسه ، جرىء اللسان مع تكبر وبطش . وقد فاتته السلطنة عدة مرار فكان كما يقال :

اذا منعتك أشجار المعالى
جناها الغض فاقنع بالشميم

فلما علم السلطان بموته نزل وصلى عليه ، وكان له يوم مشهود ، ودفن بتربة أستاذه الملك الظاهر جقمق . فلما نزل السلطان وصلى عليه ، قيل له ان الأمير أزبك اليوسفى أمير مجلس فى

(1) لعل فى الأصل تحريفا .

النزع وسيموت فى هذه الساعة فجلس السلطان على مدورة فى سبيل المؤمنين ، ينتظر أزبك اليوسفى حتى يموت ويصلى عليه ، فلم يمت فى تلك الساعة فقام السلطان وطلع الى القلعة . فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم توفى فيه الأمير أزبك اليوسفى ، فهيىء وصلى عليه السلطان وطلعت جنازته من الصليبة . فلما رجعوا به توجهوا به الى مدرسته التى أنشأها ودفن بها .

وكان أميرا جليلا دينا خيرا لين الجانب . وكان أصله من مماليك الظاهر چقمق ، وكان يعرف بأزبك الخازندار وناظر الخاص ... مات وهو طرخان وقد كبر سنه وشاخ ونافه عن الثمانين سنة من العمر .

وكان قليل الأذى ، كثير البر والصدقات ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الخازندارية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم مشير المملكة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم أخرجت عنه التقدمة الى أزدمر بن على باى ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ومات .

* * *

وفى شوال ، فى يوم عيد الفطر ، جاءت الأخبار بأن عربان عزالة ثاروا على الكاشف بالبحيرة . فحاربهم ففروا منه ، وعدوا من الوراق ، وطلعوا بالقرب من شبرا ، وتوجهوا من خلف الجبل الأحمر ، وطلعوا من بحر بلامه قبالة طرا ، ثم نزلوا بالمعيصرة ، وهى ضيعة هناك . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة ، فخرج اليهم فى الحال قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة النوب ، وقيت الرجبى حاجب الحجاب ، وسنباى نائب سيس أحد المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات منهم طراباى الشريفى دوادار ثانى والجم الغضير من العسكر ، فلبسوا آلة السلاح وخرجوا يوم عيد الفطر ، فتوجهوا الى نحو المعيصرة فوجدوا هناك عزالة نازلين ، فتقاتلوا معهم قتالا عظيما ، فانكسر الأتراك وتشتتوا ، وقتل من الأتراك من المماليك السلطانية نحو من خمسين مملوكا ، ومثل ذلك من الغلمان والعبيد ، وجرح الأمير قرقماس رأس نوبة كبير فى وجهه ، وكذلك قيت الرجبى . وأما طراباى فقيل انه جاءته حربة فى نحره دبحته من وريده لكنه لم يمت من ذلك ، وجرح من العسكر ما لا يحصى ... ثم ان العرب نهبوا بركهم عن آخره ، وتوجهوا الى نحو بلاد الصعيد فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت وماجت ، فنادى السلطان للعسكر قاطبة للخروج الى المعيصرة وهم لابسون آلة السلاح ، فلما وصلوا الى هناك وجدوا العرب قد رحلوا ، والذين قتلوا من العسكر مطروحين على الأرض ، فأرسلوا يطلبون من القاهرة عدة نعوش بسبب من قتل هناك ، فأرسلوا لهم نعوشا فى مراكب من البحر الى طرا ، فأحضروا فيها من قتل . وصار العيد مثل المأتم ، فى كل حارة نعى ، كأيام الفصول ، بسبب من قتل . وموجب ذلك أن الترك استخفوا بالعرب ، فأكمنوا لهم أكمنة ، فخرجت الترك وخرجت العرب من ورائهم ، فانكسروا وقتل منهم من قتل ، وكانت هذه الحادثة من الحوادث المهولة . وقد قلت فى معنى ذلك :

ألا قولوا لأعراب تجروا
على حرب فهل يخشوا عقيبه
سهام مليكنا أضحت نفوذا
ونرجو أن تكون لكم مصيبه

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الأمير دولات باى الفلاح ، أحد المقدمين ، خرج فى يوم الأربعاء

يسير الى نحو الرصد ، فلعب هنــاك بالكرة ، وساق الفرس فى أرض محجرة فقنطرته ، فمات لوقته ، فحملوه على قفص حمــال وأتوا به الى بيتــه حتى غســلوه وكفنوه ، وأخــرجوه يوم الخميس ، ونزل السلطان وصــلى عليه . ثم ان السلطان بعد أن صلى عليه توجه الى بيت طراباى الدوادار الثانى وسلم عليه بسبب ما وقع له من عرب عزالة .

وفيه تغير خاطر السلطان على قراجا نائب غزة فأحضره الى القاهرة وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه . ثم آل أمره الى أن تولى نيــابة طرطوس وقتل .

وفيه دخل الأمير طومان باى الدوادار الكبير الى القاهرة وكان مسافرا فى جهة الصعيد ، فلما بلغه ما فعلت عرب عزالة ، كما تقدم ذكره ، كبس عليهــم فى مكان بالوجــه القبلى ، وقبض على جماعة منهم نحو من ثلثمائة انســـان من رجال ونساء وصغار ، فوصلوا بهم الجيزة ، وعــدوا بهم ، وطلعوا بهم من الصليبة قدام الأمير طومان باى فكان يوما مشهودا ، فوضعوا الرجال فى زناجير ، والنســاء والصغار فى حبال ، وعلقوا رءوس من قتل من الرجال فى رقاب النســاء وكانت واقعه من الوقائع الغريبة ، ولم يتفق مثل ذلك الا فى أيام الظاهر برقوق ، بما وقع لبدر بن سلام كبير عربان البحيرة . وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار الظاهر برقوق . فلما طلع الأمير طومان باى الى القلعــة ، صــادف ذلك اليوم خروج المحمل من القــاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قرقماس رأس نوبة كبير ، وبالأول النــاصرى بن خاص بك ، فلمــا عرضوا عــرب عــزالة على السلطان ، رسم بتسميرهم على جمال فسمروهم وشقوا بهم من القاهرة . وكان يوما مشهودا ، وصــارت الفرجة فرجتين على المحمــل وعلى عربان عزالة . ثم انهــم كلبوهم وعلقوهم على أبواب المدينة ، على كل باب نحو من عشرة أنفار ، حتى على باب القنطرة وباب الشعرية ، وغير ذلك من الأبواب . ثم ان السلطان رسم بأن سائر الناس يرجمون العربان بالأحجار ، حتى يكون من أمرهم ما يكون ... وقد قام الأمير طومان باى بنصرة الأتراك على العرب بعد كسرتهم التى تقدمت . وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى :

نحمد الله ونشــكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العــرب بالدوادار والعصــب

* * *

والعرب أكثروا الفساد من عــزاله وعــزلوا
جــو وعدوا وشرفوا وعلى الحــرب عولوا
وأهلكوا الحرث والنسل فى الضواحى وحملوا

* * *

من عزاله عرب طعوا عمرهم فى الوغا ذهب
جتهم الترك أرخــوا واقعتهم بمــا الذهب

* * *

صار عزيز العرب دليل وبقى فى الوجود عدم
وجميع ما جــرى لهم بالمقــدر وبالحــكم
كان مسطر على الجبين وبهــذا جرى القلم

* * *

نحمــد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العــرب بالدوادار والعصــب

وهذا الزجل يقرب من الزجل الذى قاله الغبارى فى واقعة العرب التى كانت فى سنة احدى وثمانين وسبعمائة ، فى دولة الظاهر برقوق ، وقــد وقع فيها ما يشبه ذلك . وهذا الزجل الذى تقدم من اختصاره .

وفيه قرر شمس الدين بن مزاحم الطرابلسى ، فى نظر الاصطبل ، عوضــا عن يحيى بن البقرى بحكم صرفه عنها . ومات يحيى عقيب ذلك .

وفيــه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار دخل الى حلب طائعا ، وقد تم الصلح

بينه وبين الأمراء الذين توجهوا من مصر . وسبب ذلك أن العسكر الذين توجهوا الى قتال آقبردى وجدوه بالمرعش عند على دولات ، فلما طال الأمر على العسكر — وكان الغلاء موجودا بحلب ، والعليق لم يوجد — أرسل قاصروه نائب حلب يسأل آقبردى فى الصلح ، فتوجه اليه قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، فمشى فى أمر الصلح — وكان السلطان والأمراء مائلين الى ذلك — فلما وثق آقبردى بذلك حضر صحبة قانى باى الرماح ، ودخل الى حلب طائعا مختارا ، فلاقاه قصروه نائب حلب وسائر الأمراء الذين كانوا هناك ، وكان له بحلب يوم مشهود .

وكان الأمير أقبردى متوعكا فى جسده ، فلما استقر بحلب كاتبوا بذلك السلطان ، فعين له خلعة حافلة وفرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وكتب له تقليد نيابة طرابلس ومالها فى كل سنة ، ثم أخذوا فى أسباب التوجه اليه .

وفيه توفى برهان الدين مستوفى الخاص ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان الأمير تمراز الزردكاش ، الى المقر السيفى جان بلاط بن يشبك نائب الشام ، يسأله فى الحضور الى مصر ليلى الأتابكية عوضا عن أزبك بحكم وفاته . فخرج تمراز بسبب ذلك .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة آقبردى بن على باى الدوادار الكبير ، وكان أميرا جليلا ، رئيسا حشما ، بشوشا متواضعا ، كريما سخى النفس فى سعة من المال مثريا جدا . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى ، ثم ظهر أنه قريبه ، ورقى فى أيامه الى منتهى الرياسة ، وتولى عدة وظائف سنية منها امرية السلاح ، والدوادارية الكبرى ، والاستادارية ، والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة ، وصاحب الحل والعقد بالديار المصرية . وكان قريب السلطان وعديله تزوج بأخت خوند الخاصكية ، وكان وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، شديد العزم ، شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، تولى الدوادارية الكبرى بعد يشبك بن مهدى سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وأقام فيها نحوا من ست عشرة سنة . وكان مشهورا بالعطاء الجزيل على الأمراء والعسكر ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونهبت أمواله أربع مرات ، وقاسى من الشدائد والضيق ما يطول شرحه . واستمر يحارب عسكر مصر بمفرده ثلاث سنين ، وكان غالبا للعسكر ، وتوجه الى آخر الصعيد ، ثم توجه الى الشام وحاصرها ، وكذلك حماه وحلب ، ثم توجه الى بلاد التركمان ولم يظفر به أحد ، ولم يسلم نفسه عن عجز ، ولا سجن قط ولا تقيد ... وآخر الأمر مات على فراشه من غير أن يقتل فكان كما قيل :

أنا أسمر والراية البيضاء ى ،
لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل لى عيش العداة لأننى
نوديت يوم الحرب بالمران

قيل ان آقبردى لما دخل الى حلب وأقام بها اعترته آكلة فى فمه ، وقيل فى وجهه ، رعت فيه حتى مات بحلب ، ودفن عند سيدى سعد الأنصارى رحمة الله عليه . ثم نقلت جثته الى القاهرة فى أواخر صفر سنة خمس وتسعمائة ودفن بتربته التى أنشأها له فى الصحراء ، ومات وله من العمر دون الخمسين سنة . وكان أسمر اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، غير عبوس الوجه ، وكان لا يأس به . وكان الأمراء والسلطان يخشون من سطوته ، فلما مات كفى كل أحد شره . وقد قلت فى ذلك مع التضمين والاقتباس هذه الأبيات :

مات آقبردى الأمير وولى
بعد عز وحاز جاها ومالا

فأتاه من بعد ذا ريب دهر
نال منه من العنا ما نالا
وقضى نحبه بغير قتال
وكفى الله المؤمنين القتالا

فلما تحقق السلطان موت أقبردى ، جهز مراسيم للأمراء الذين كانوا صحبة أقبردى . وهم تانى بك قرا الذى كان أمير مجلس ، وأقباى نائب غزة الذى كان رأس نوبة كبير ، وجانم مصبغة الذى كان حاجب الحجاب ، وقنبك نائب الاسكندرية أحد الأمراء المقدمين بمصر . فأما تانى بك قرا وأقباى فرسم السلطان لهما بأن يتوجها الى القدس ويقيما به بطالين وأما جانم مصبغة وقنبك فرسم لهما أن يتوجها الى الشام بطالين . فاستمروا مقيمين بالشام والقدس حتى كان من أمرهم ما سنذكره . وأما اينال الصغير السلحدار الذى كان واليا أحد العشراوات ، قيل انه قتل ، وقيل انه غرق فى بعض الأنهار . وأما بقية العسكر الذين كانوا مع أقبردى فمات منهم جماعة كثيرة ، ودخل الباقون الى مصر ؛ وخمدت فتنة أقبردى كأنها لم تكن ، بعد ما جرت منه أمور مهولة بمصر والشام وغير ذلك ، وهذا ملخص واقعته .

* * *

وفى ذى الحجة فرق السلطان الضحايا على العسكر وكان عيدا حافلا ، وجاء العيد بالجمعة ، فلهج الناس بزوال السلطان عن قريب ، وكان الأمر كذلك . ولم يتم الى العيد الثانى .

وفيه توفى الطواشى مقبل الرومى رأس نوبة السقاة الأشرفى اينال وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على الطواشى محسن الحبشى الأشرفى قايتباى ؛ وقرره رأس نوبة السقاة عوضا عن مقبل الرومى بحكم وفاته . وقد قاسى محسن هذا فيما بعد غاية الشدائد والمحن .

وفيه انتقل قصروه من نيابة حلب الى نيابة الشام ، عوضا عن جان بلاط نائب الشام ، بحكم انتقاله الى الأتابكية بمصر . وانتقل دولات باى ابن أركماس نائب طرابلس ، الى نيابة حلب عوضا عن قصروه . وقرر يلباى المؤيدى فى نيابة طرابلس عوضا عن دولات باى ، وأضيف الى يلباى حجوبية طرابلس مع النيابة .

وفيه دخلت مسرى من الشهور القبطية فكانت زيادة النيل فى ثالث مسرى ثلاثين أصبعا . وفى الرابع منها أربعين أصبعا ، وفى الخامس منها عشرين أصبعا ، فوفى فى خامس مسرى ، وكسر فى اليوم السادس منها الموافق لحادى عشرى ذى الحجة . فرسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار الكبير بأن يتوجه ويفتح السد ، وكانت الأتابكية شاغرة من حين توفى أزبك ، وكانت الأمراء غائبين فى التجريدة بسبب أقبردى ، فلم يكن بمصر أكبر من طومان باى ، فتوجه الى المقياس فى الحراقة وفتح السد ، وكان له يوم مشهود . وكان نيلا عظيما فى تلك السنة ، وثبت فى أواخر بابه . كما قيل :

وفت أصابع نيلنا	وطغت وطافت فى البلاد
وأتت بكل مسرة	ما ذى أصابع ذى أياد

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا توجهوا الى التجريدة بسبب أقبردى ، فحضر صحبتهم من كان مع أقبردى من الأمراء العشراوات ، منهم : اسنباى الأصم ونوروز أخو يشبك الدوادار كان ، وجانم أقچى الابراهيمى ، وآخرون من الخاصكية ، ممن كان من عصبة أقبردى . فأقاموا بالقاهرة مدة يسيرة ، ثم عادوا الى البلاد الشامية .

وفيه توفى شرف الدين بن الأشقر وكان من أعيان المباشرين .

وفيه توفى جلال الدين الصالحى وكان لا بأس به ، وقاسى شدائد ومحنا فى آخر عمره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة داود باشا وزير ابن

عثمان ، ملك الروم ، وكان رئيسا حشما مدبر المملكة الرومية ، سديد الرأى ، وافر العقل ، مشكور السيرة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد الغرب ، بين ملوك الفرنج وملوك الغرب ، وكانت النصرة للمسلمين على الفرنج ولله الحمد .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى بالصحراء ، وحصل للناس منه غاية الضرر بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة بين الشريف محمد أمير مكة المشرفة ، وبين أخيه هزاع ، واستمرت الفتنة قائمة هناك فيما بعد حتى كان ما سنذكره فى موضعه .

سنة خمس وتسعمائة (١٤٩٩/١٥٠٠ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان الخليفة أمير المؤمنين المستمسك بالله ، أبا الصبر يعقوب العباسى ، الهاشمى الأبوين . والسلطان الملك الظاهر أبا سعيد قانصوه خال الناصر . وأما القضاة الأربعة فعلى حكم السنة الماضية ، وكذلك الأمراء المقدمون من أرباب الوظائف غير الأتابكية ، فانها عينت الى جان بلاط المقدم ذكره ، وكتب له بالحضور .

وفيه توفى يحيى بن البقرى الذى كان ناظر الاصطبل وصرف عنه ، وكان لا بأس به

وفيه تغير خاطر السلطان ، على القاضى علاء الدين بن الصابونى ، ناظر الخاص ، فعزله ورسم عليه . ثم خلع على شهاب الدين الرملى ، وقرره فى نظر الخاص ، عوضا عن ابن الصابونى . ولم يكن شهاب الدين هذا تقدم له رياسة بمصر ، ولا ولى قط تلك الوظيفة السنية . وكانت ولايته من غلطات الزمان . وفى ذلك يقول شيخنا عبد الباسط الحنفى :

قد ولى الرملى على منصب الـ
ـخاص برأس العام يا خلى

من عدم الدست ومن جهل من
يطبخ حتى انحط للرملى

وفيه استعفى هلال الرومى من تقدمة المماليك ، وسأل أن يتوجه الى الشام ، ويكون بها على امرية عشرة فأجيب الى ذلك . ثم ان السلطان خلع عليه بذلك ، وخلع على عنبر التكرورى وقرره فى تقدمة المماليك عوضا عن هلال الرومى .

وفيه توفى أزبك قفص الأشرفى قايتباى ، أحد الأمراء الطبلخانات الرأس نوبة الثانى ، ثم بعد موته خلع السلطان على أبى يزيد المحمدى وقرره فى رأس نوبة ثانى عوضا عن المذكور بحكم وفاته

وفيه كانت اقامة الخطبة بالجامع الذى أنشأه بركات بن قريميط بحارة زويلة ، وجاء فى غاية الحسن ولا سيما فى ذلك الخط .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى فى تلك السنة مشقة زائدة ، وخرج طائفة من العربان على الركب الغزاوى بالقرب من الشرفة ، فاستولوا عليه من أوله الى آخره ، وأسروا النساء وقتلوا الرجال . ولولا أنهم أدركهم قرقماس أمير كبير ، بعد أمير ركب المحمل ، لأخذوا جميع من فى الركب الغزاوى . وقد نهبوا أطراف الركب الأول من الناصرى محمد ، وكان أمير الركب الأول الناصرى محمد بن خاص بك أخو خوند .

وفيه توفى الشيخ خالد الوقاد النحوى الأزهرى الشافعى ، وكان فاضلا فى النحو وله فى ذلك عدة تصانيف .

* * *

وفى صفر كان دخول المقر السيفى جان بلاط نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره عوضا عن أزبك فى الأتابكية بحكم وفاته ، وسكن

بالأزبكية . فلما أقام بمصر شرع فى بناء تربته التى بجوار باب النصر ، وصنع بها جامعا بخطبة ، ولم تتم الا بعد موته ودفن بها .

وفى ثالثه توفى الشيخ الصالح الزاهد الورع أبو العباس أحمد بن محمد العمرى ، رحمه الله ورضى عنه ، ودفن بجامعه الذى أنشأه بالقرب من مرجوش وباب القوس .

وفيه حضرت جثة أقبردى الدوادار ، ودفنت فى تربته التى أنشأها بالصحراء ، وقد نقلت من حلب الى مصر بعد دفنه فى تربة سيدى سعد الأنصارى رحمه الله ورضى عنه .

* * *

وفى ربيع الأول عين السلطان ، قانصوه كرد أحد الأمراء الطبلخانات والخازندار الثانى ، بأن يتوجه الى ابن عثمان ، ملك الروم ، قاصدا . فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى من بعد ذلك

وفيه جاءت الأخبار بوفاة آبدكى حمار الأشرف قايتباى نائب قلعة الشام ، وجرى عليه قبل موته شدائد ومحن شتى .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه عين السلطان الأمير قانصوه البرجى المحمدى أمير مجلس ، أمير ركب المحمل ، وعين جان بلاط الموتر المحتسب أمير الركب الأول .

وفيه جاء للسلطان ولد ذكر من زوجته خوند جان كلدى الجركسية ، فسماه أحمد فلما كان يوم سابعه اجتمع سائر الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة ، وكان مهما حافلا ، وحمل الزمام جوهر المعينى ، القبة والطير على رأس خوند جان كلدى . وكان بها يوم مشهود .

وفيه تزوج السلطان بخوند مصرباى زوجة الناصر ، وكانت عليه كعب الشوم ولم يسن معها .

* * *

وفى ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن قصروه الذى تولى نيابة الشام قد عصى ، وخرج عن الطاعة ، واستولى على قلعة دمشق ، كما فعل كرتباى الأحمر ، واستمر العصيان يتزايد من قصروه حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قبض السلطان على خاير بك الكاشف ، فأحضر فى الحديد ، فأمر بنفيه الى قلعة المرقب ، فسجن بها ، ثم أطلق ، وجرى عليه من الأنكاد ما لا خير فيه ، وصودر غير ما مرة .

وفيه قدم البدرى محمود بن أجا وقد انفصل من قضاء الحنفية بحلب ، وأتى الى مصر ، وأقام بها ، وكان من أمره ما سنذكره .

وفيه قرر فارس المنصورى نائب دمياط ، فى كشف الغربية ، عوضا عن خاير بك الماضى ذكره .

وفيه قبض على سليمان بن قرطام وكان من كبار المفسدين بالشرقية ، فلما قبض عليه رسم السلطان بأن يشنكلوه على باب زويلة ، وأقام معلقا ثلاثة أيام بلياليها .

وفيه قبض السلطان على أخت خوند بنت خاص بك زوجة أقبردى فرسم عليها بالقلعة وقرر عليها مالا له صورة ، وقد رافعها أبو المنصور مباشر أقبردى ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مالا ، فأقامت فى الترسيم حتى أوردت ما قرر عليها . وفعل مثل ذلك بأختها خوند الكبرى زوجة قايتباى ، وقرر عليها مالا له صورة ، ووكل بها خمسة من الطواشية ، حتى أوردت ما قرر عليها ، وباعت أشياء كثيرة من قماشها . وقد حصل عليها ما هو أعظم من ذلك ... وهو أنه فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى

توجه طائفة من المماليك الجلبان الى دارها ، وقصدوا أن يهجموا عليها ، ثم قالوا نبعض الطواشية ادخلوا قولوا لخوند تنفق علينا ، لكل مملوك خمسون دينارا ، فلما بلغ خوند ذلك غيبت من البيت . وكان سبب ذلك أنه آشيع عنها أنها تزوجت بقانصوه خمسمائة فى الخفية ، فلما قتل قانصوه تحرشت المماليك على خوند وطلبوا منها النفقة ، كما تقدم . وكان الذى تحرش على خوند ، جماعة من عصبة أقبردى . فلما بلغ ذلك الملك الناصر قام مع خوند قياما تاما ، ونادى فى القاهرة لجميع العسكر حسبما رسم السلطان المقام الشريف ، أن لا يتوجه أحد من العسكر الى بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، ولا يقف لها على باب ، وكل من خالف مرسوم السلطان شنق بلا معاودة . فانكف المماليك عن التوجه الى بيت خوند من حين نادى . وكان تقدم ذكر ذلك فى دولة الملك الناصر ، وقام بنصرتها بعد ما قصدت أن تسافر الى المدينة ، مع أن الملك الناصر صادر خوند فى أيامه بحسن عبارة ، وأخذ منها جملة مال ، وحصل لها عقيب ذلك طلوع فى وجهها واستمر بها ذلك العارض حتى ماتت ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى اليوم الثانى منه ، نزل السلطان الى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وبات بها ، فلما أصبح ركب وشق من القاهرة وزينت له ، ثم طلع من الصليبية — والأمراء والمباشرون قدامه — واستمر فى ذلك الموكب الحافل حتى طلع الى القلعة .

وفيه قرر ابن النيربى فى نظر الجيش بدمشق ، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار يو[illegible]
هلال الرومى الذى كان مقدم المما[illegible]
بدمشق وكان لا بأس به .

وفيه ، فى يوم الجمعة ثامنه ، عقد لـ[illegible]
بلاط على خوند أصل باى الجركسية[illegible]
الناصر ، وأخت الملك الظاهر قانصوه [illegible]
بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة [illegible]
حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس يو[illegible]
الطويل ، الذى كان نائب غزة ، ثم يق[illegible]
كبير ، وفر مع أقبردى الدوادار لما انكـ[illegible]
من مصر وآل أمره الى أن أقام بالقدس[illegible]
مات . وكان أصله من مماليك الأشر[illegible]
وقيل انه مات مسموما . وكان شجاعا[illegible]
عليه شدائد ومحن ، وقاسى ما لا[illegible]
بسبب صحبته لأقبردى الدوادار ، وهـ[illegible]
سببا لنصرته على قانصوه خمسمائة
بخان يونس ، الذى بقرب غزة .

وفيه قرر على بن طرغل فى نيابة [illegible]

وفيه توفى شمس الدين محمد الـ[illegible]
كان امام أقبردى الدوادار ثم بقى ناظر[illegible]
وكان يكتب الخط الجيد المنسوب [illegible]
الشدائد والمحن ما لا يعبر عنه ، و[illegible]
الأحمر بأنواع العذاب .

وفيه توفى الشيخ أحمد المجذو[illegible]
يجلس تحت الكوم الذى عند القنطر[illegible]
وكان من كبار الصالحين .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدو[illegible]
الى الشرقية والغربية ، فسرح فى البا[illegible]
عشرين يوما ، ثم عاد الى القاهرة ، و[illegible]
خيول وجمال وأغنام من العربان .

* * *

وفى رجب تزايدت عظمة الملك الظاهر قانصوه خال الناصر ، فجلس على الدكة التى بالحوش ونصب سحابة جديدة صنعها من المخمل المذهب ، وبها رنوك زركش ، فجاءت غاية فى الحسن . فجلس على الدكة والسحابة على رأسه ، وطلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا حافلا .

وفى حادى عشر منه تغير خاطر السلطان على القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، فقبض عليه وسجنه بالعرقانة ، ثم طلب أخاه كمال الدين محمد ، وقرره فى كتابة السر عوضا عن أخيه بدر الدين .

وفيه قرر سيباى فى نيابة صهيون ، عوضا عن قنبك الشيخ بحكم فراره عند ابن عثمان ، وخوفه على نفسه من القتل .

وفيه كان دخول خوند أصل باى أم الملك الناصر ، على جان بلاط أمير كبير ، فنزل جهازها من القلعة فى يوم السبت خامس عشره ، وشق من القاهرة ، واستمر ينسحب من ضحوة النهار الى وقت الظهر ، وتوجهوا به الى الأزبكية ، فكان عدة الحمالين أربعمائة حمال ، والبغال نحوا من مائتى بغل ... فرجت له القاهرة ، وكان يوما مشهودا . وكان فيه من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه الواصفون .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشره نزلت خوند أخت السلطان فى محفة زركش ، وتوجهت الى الأزبكية ومشى قدامها جماعة من المباشرين منهم كاتب السر كمال الدين بن مزهر ، وناظر الجيش عبد القادر بن القصروى ، وصلاح الدين بن الجيعان نائب كاتب السر ، وآخرون من المباشرين والطواشية ، وبعض أمراء عشراوات ، وهم بالشاش والقماش ، وعدة وافرة من الخاصكية .

فلما وصلت الى باب البيت الكبير الذى بالأزبكية ، فرشت لها الشقق الحرير تحت حوافر بغال المحفة ، ونثرت على رأسها خفائف الذهب والفضة ، وكان يوما مشهودا ، ولكن جرى بعد ذلك أمور شتى وأنكاد مترادفة يأتى الكلام عليها فى موضعها . كما يقال :

أمور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

وفى شعبان فى يوم السبت سادسه جاءت الأخبار من القدس بقتل الأمير تانى بك قرا ، وكان مقيما بالقدس كما تقدم ذكر ذلك . وكان من عصبة أقبردى ، وفر معه ، فلما استقر بالقدس توجهت المراسيم بخنقه فخنق وهو بين أولاده وعياله ، وكانوا توجهوا اليه . وكان قتله يوم الأحد ثانى عشرى رجب ، ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار بوفاته تأسف عليه الكثير من الناس . وكان أميرا جليلا رئيسا حشما لين الجانب قليل الأذى ، كثير الخير ... ومن آثاره السبيل والصهريج الذى أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم ، تجاه الرميلة ، وصرف على ذلك من ماله مالا له صورة . فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السبيل والصهريج للسلطان قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسبيل السلطان . ومن آثاره المسجد اللطيف الذى أنشأه بجوار بيته عند خوخة القردمى . وكان أصله من مماليك الأشرف اينال ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف ، منها تاجر المماليك ، والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس ... ووقع له من الشدائد والمحن ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار ، وفر مع أقبردى الى البيرة ، وعدى الى الفرات ، وكان موصوفا بالفروسية والشجاعة ، ومات وله من

العمر زيادة عن ستين سنة والله أعلم ولما مات رسه بهذه الأبيات :

من طالع التاريخ يوما أو قرا
يروى صروف الدهر عن تنبك فرا
شاع الحديث بحنقه فلأجل ذا
خنقت بعبرتها الورى مستعبرا
قد خانه ريب الزمان بفعله
والدهر ان بصفو يعود مكدرا
قد كنت أحذر من وقوع حمامه
والآن دمعى كالدماء وقد جرى
لهفى عليه من أمير صارم
فى يوم حرب للعداة مدمرا
لم يقتلوه فوق ظهر جواده
لكن قاتله تعدى وافترى
يا لهف قلبى قد تجرع فقده
وتجددت أحزانه بين الورى
يا لهف قلبى كم أمير كان فى
عز وجاه فانطوى تحت الثرى
قد غادر الأمراء جور زمانهم
فالحكم للرحمن فيما قدرا
يا رب فاجعل قبرهم فى روضة
واجعل برحمتك الجنان لهم قرا

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى ، توفى ببلاد ابن عثمان ، وكان لا بأس به . وهو الذى جدد عمارة الجامع الأزهر ، وصرف على ذلك مالا له صورة من ماله . وكان متشكور السيرة

وفيه طلع الأتابكى جان بلاط الى القلعة ، وضمن بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، فان الأتابكى جان بلاط كان زوج أخت بدر الدين بن مزهر . فلما ضمنه تسلمه من السلطان على مال قرره عليه . فلما استقر عنده هرب تلك الليلة فى مكان بالأزبكية فتشوش الأتابكى جان بلاط لذلك . ثم عمزوه على بدر الدين بن مزهر ، فقبض عليه عقيب ذلك ، وآل أمره الى كل سوء .

وفيه توفى ابن السلطان الماضى حديث وضعه ، وكانت مدة حياته أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما ، فأظهروا عليه الحزن والأسف ، ودفن فى تربة أبيه التى أنشأها بالصحراء ، فكان كما يقال فى المعنى :

بدا وفى حاله توارى فيالها طلعة شريفه
جوهرة ما علمت الا دموع عينى لها عقيقه

وفيه توفى القاضى شهاب الدين بن الصيرفى ، وهو أحمد بن صدقة الاسرائيلى الشافعى ، أحد نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان عالما فاضلا مفننا ، من أعيان النواب ، وله تصانيف ونظم جيد ، ومات وقد قارب السبعين سنة

وفيه جاءت الأخبار بقتل قراجا نائب سيس ، وكان تولى نيابة غزة ، وكان موصوفا بالشجاعة

وفيه توفى الناصرى محمد بن أبى يزيد ، وكان رئيسا حشما من أعيان الناس

وفيه عين السلطان نيابة حلب للأمير قرقماس ولى الدين ، فلما قرر فى نيابة حلب ، أخرج عنه وظيفة رأس نوبة الكبرى ، وقرر بها الأمير قانصوه الغورى ، ولم يتم أمر قرقماس فى نيابته بحلب ، وأعيد الى تقدمة ألف ، ووقع بعد ذلك أمور شتى

***

وفى رمضان عرض السلطان المحابيس من الرجال والنساء التى بالحجرة ، وعمل مصالح أرباب الديوان ، وصالح عنهم أرباب الحقوق ، ووزن عن جماعة من ماله ، وأطلق فى ذلك اليوم نحوا من مائتى انسان ، وضاع للناس بعض حقوقها ممن كان له دين على من أطلقه من المحابيس . فكان كما يقال فى المعنى :

رام نفعا فضر من غير قصد
ومن البر ما يكون عقوقا

وفى يوم الاثنين رابع عشره عين السلطان تجريدة الى الكرك ، بسبب عربان بنى لام ، وقد تقدم منهم فى حق الحجاج غاية الضرر ، وكان باش العسكر سنباى نائب سيس أحد المقدمين ، وجماعة من الجند ، فخرجوا فى أثناء ذلك اليوم مسرعين .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصروه نائب الشام خرج عن الطاعه ، وأظهر العصيان جملة واحدة ، وحضر قانصوه بن سلطان چركس ، المعروف بابن اللوقا حاجب دمشق ، وأخبر أن قصروه نائب الشام صرفه عن الحجوبية ، وقصد القبض عليه ففر منه ، وأخبره بأن قصروه نائب الشام قد استولى على قلعة الشام ، وعلى ما فيها من المال فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، واضطربت أحواله ، واظهر أنه يخرج الى الشام بنفسه ، وشرع فى أسباب ذلك . ثم نزل الى الميدان وعرض ما عنده من الهجن ، وأمر صلاح الدين بن الجيعان بأن يحضر قوائم مصروف الأشرف برسباى عند توجهه الى آمد ... وكل هذا هيت وتهييت على الأمراء والعسكر . ثم عين قانى بك أحد الدوادارية أن يتوجه لكشف الأخبار عن الحقيقة .

وفيه أفطر السلطان ليلة العيد بالقصر الكبير ، واجتمع عنده الأمراء وضربوا مشورة فى أمر قصروه ، فعد فطوره فى الايوان من النوادر .

* * *

وفى شوال صادف أن فى يوم عيد الفطر قلع السلطان الصوف فى ذلك اليوم ، ولبس البياض ، وخرج الى صلاة العيد وهو راكب على فرس أبيض قرطاسى بسرج فضة بيضاء من غير طلاء ، وعباءة حرير أبيض ، وخف أبيض ومهاميز بيض ، حتى قلع الكلفتاه ، حتى المشاية التى فى رجله كانت برغالى أبيض فعد ذلك من النوادر . وكان لبس البياض فألا عليه ، فانه خلع من السلطنة عقيب ذلك .

وفيه صلى الأمير طومان باى الدوادار الكبير صلاة الجمعة مع السلطان بالقلعة فلما انقضت الصلاة خلع عليه السلطان ، ونزل متوجها للوجه القبلى ... وكان فى تلك الأيام قويت الاشاعات بأن السلطان يقصد القبض على الأمير طومان باى ، وكان وقع بينهما فى الباطن بسبب قصروه نائب الشام وكان الأمير طومان باى متواطئا مع قصروه على السلطان . وكان طومان باى يقصد التمهيد لنفسه حتى يتسلطن . وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد كما يقال :

بت فى قلوب أسود لا فى قلوب رجال
فالكيد للناس لا للـ ـبهائم الجهال

وفيه أشارت الأمراء على السلطان بأن يبعث الى قصروه قاصدا ، وعلى يده مراسيم بأن يكون على نيابة الشام ، وأن يسلم قلعة الشام الى نائبها ، ولا يؤاخذه بما فعل . فعين له أقباى الطويل ناظر الجوالى فخرج عن قريب .

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد وكان أمير المحمل قانصوه البرجى ، وبالأول جان بلاط الموتر المحتسب . فلما توجه الى بركة الحاج استمر المحمل مقيما بالبركة الى خامس عشرى شوال ، حتى عد ذلك من النوادر . وسبب ذلك أن غلمان أمير الركب الأول هرب أكثرهم ، وتعطلت أحواله بموجب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن قصروه قد استولى على مدينة طرابلس ، وقبض على نائبها بلباى المؤيدى وسجنه بقلعة دمشق .

* * *

وفى ذى القعدة خلع السلطان على قيت الرجبى ، حاجب الحجاب ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن بلباى المؤيدى ؛ ولم يتم له ذلك فيما بعد

وفيه خلع السلطان على شخص من خواصه يقال له نمر بن جانم ، وقرره فى الحسبة عوضا عن جان بلاط الموتر وهو غائب بالحجاز ، فلم يتنج أمره هذا ، وقبض عليه فيما بعد .

وفيه أنعم السلطان على أنس باى شاد الشراب خاناه ، وقرره فى تقدمه ألف .

وفيه فى ثالث عشره حضر أقباى الطويل الذى توجه الى قصروه كما تقدم ، فعاد الجواب على السلطان بأن قصروه مستمر على العصيان ، ولم يدخل تحت الطاعة . فعند ذلك عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى قصروه ، وعين بها من الأمراء المقدمين ثمانية ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات نحوا من ثلاثين أميرا ، ومن المماليك السلطانية ألفى مملوك ، وأظهر السلطان أنه يخرج الى الشام عقيب ذلك بنفسه .

وفيه جاءت الأخبار بقتل قانى بك أحد الدوادارية الذى كان توجه الى قصروه لكشف الأخبار ، وكان قد سافر من البحر الملح لموجب فساد الطرقات .

وفيه قويت الاشاعات أن السلطان أرسل بالقبض على الأمير طومان باى الدوادار ، وهو بالصعيد . وكانت هذه الاشاعات من أكبر الفساد فى زوال ملك الظاهر قانصوه . فلما قويت الاشاعات بذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن أحدا لا يكثر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأمير طومان باى دوادار كبير على عادته . وكان ترك هذه المناداة أصوب ، وقد تأكد الأمر بذلك .

وفيه هجم المنسر على سوق الوراقين ، وسوق الهرامزة ، وكسروا عدة حوانيت ، ونهبوا ما فيها وقتلوا ثلاثة من الغفراء . وكان المنسر نحوا من مائة نفر ما بين مشاة وركاب ، ومعهم قسى ونشاب ، فنهبوا قماشا بنحو عشرة آلاف دينار . وكانت هذه من الوقائع المهولة .

وفيه كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب ، المغنى الناشد المادح ، فريد عصره ووحيد دهره .

وكان من نوادر الزمان ينظم الشعر ويلحن الخفائف بألحان غريبة ، وكان آخر مغانى الدكة فى الدخول والطرب ، ولم يجىء بعده أحد فى الدخول مثله . وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات :

توفى نزهة الأسماع طرا
وصار العيش منا فى ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا
وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى الدف والماصول زعقا
كمن جاء المآتم فى المصاب
وأضحى الناس فى قلق ولم لا
وقد ضاق الوجود بلا رحاب

وفى آخره حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان مسافرا الى جهة الصعيد . فلما حضر الى الجيزة خرج الأمراء والعسكر قاطبة الى ملاقاته ، فأقام بالجيزة ولم يعد ، فتوجه اليه الأمير طراباى أحد المقدمين ، وعلى يده صورة حلف عن لسان السلطان ، أنه لا يشوش عليه اذا قابله ولا يقبض عليه . فلما توجه اليه طراباى ، لم يشق الأمير طومان باى بذلك الحلف وأظهر العصيان . فرجع الأمير طراباى بجواب غير صالح ، وقد تقلب على الظاهر قانصوه ، خال الناصر ، غالب العسكر . فلما رأى أحواله مضطربة تحقق وقوع فتنة ، فأخذ فى أسباب تحصين القلعة ، ونقل اليها أشياء كثيرة من البقسماط والجبن ، وملأ الصهاريج

التى بالقلعة ، وفرق السلاح على مماليكه ، وانتظر ما يكون من الأمير طومان باى . فلما عدت اليه الأمراء قبض على جماعة ، منهم الأمير قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، فلما قبض عليه شكه فى الحديد ، وقبض على القاضى عبد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلى آخرين من الأمراء .

فلما كان يوم الأربعاء ، سادس عشرى ذى القعدة ، عدى الأمير طومان باى من معادى امبابة ، وطلع من بولاق بمن معه من العسكر ، وتوجه الى الأزبكية بعد العصر ، وبات بها . وكان الأتابكى جان بلاط ساكنا هناك . فاجتمع الأمراء عنده ، وضربوا مشورة فى أمر الظاهر قانصوه ، فوقع الاتفاق على خلعه من السلطنة .

فلما كان يوم الخميس ، سابع عشريه ، لبس العسكر آلة الحرب ، وركب الأتابكى جان بلاط ، والأمير طومان باى ، وبقية الأمراء من الأزبكية وتوجهوا الى بيت الظاهر تمربغا ، الذى عند سوق السلاح بالقبو ، فعند ذلك ركبوا وتوجهوا لحصار القلعة ، ولم تكن عند الظاهر من الأمراء سوى جان بلاط الأبح نائب القلعة ، وبعض أمراء عشراوات ، ومن الجند نحو ألف انسان . واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ثلاثة أيام وذلك على قلة من عنده من العسكر بالقلعة . وكان الظاهر قانصوه حصن القلعة وسد باب الاصطبل الذى من جهة باب القرافة .

فلما كان يوم الجمعة بعد العصر ، ملك الأمير طومان باى باب السلسلة .

فلما كان يوم السبت ، تاسع عشريه ، انكسر الظاهر قنصوه ، وتشتت من كان عنده بالقلعة ، فلما رأى عين الغلب دخل الحريم وتزيا بزى النساء ، ونزل من القلعة ، وتوجه الى نحو الترب ، فاختفى فكان كما يقال :

وقائلة : لم دهتك الهموم
وأمرك ممتثل فى الأمم ؟

فقلت : ذرينى على غصتى
فان الهموم بقدر الهمم

فلما انكسر الظاهر قانصوه لم يجسر الأمير طومان باى أن يتسلطن ، وكان قدامه الأتابكى جان بلاط ، فاستمرت القاهرة بلا سلطان يوم السبت ويوم الأحد . وقد أشيع وجود قانصوه خمسمائة الذى تسلطن فنودى فى القاهرة « ان كان قانصوه خمسمائة موجودا فليظهر وله الأمان » فلم يكن لهذه الاشاعة صحة . فعند ذلك وقع الخلف بين الأمراء فيمن يلى السلطنة . فذكر تانى بك الجمالى ، فلم يرض به العسكر .

ثم ذكر الأتابكى جان بلاط ، فلم يرض به العسكر . فتعصب له الأمير طومان باى حتى تسلطن . كما سيأتى ذكره فى موضعه .

وكانت مدة الظاهر قانصوه فى السلطنة سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما . وكان ملكا هينا لين الجانب قليل الأذى ، كثير البر والمعروف ، وكان مسلوب الاختيار مع الأمراء مهما يقولوا له يقل : « بخشى » ، فسمته العامة « بخشى » ، كما سموا الظاهر بلباى « ايش كنت أنا ؟ قل له » .

وكانت أيام الظاهر قنصوه أصلح حالا من أيام الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ... وقد انصلحت أحوال البلاد الشرقية ، وقل الأذى من العربان ، وكذلك البلاد الغربية ، ووقع الرخاء فى أيامه فى سائر البضائع ، وانكفت المماليك عما كانوا يعملون من الأذى فى أيام الملك الناصر . وساس الناس فى أيامه أحسن سياسة ، وخلع والناس عنه راضون ... وكانت صفته أبيض اللون

بميل الى الصفرة ، نحيف الجسد قصير القامة ، أسود الشعر عربى الوجه ، مستدير اللحية جميل الهيئة ، حسن الشكل فى المنظر ، چركسى الجنس ، قليل الكلام بالعربى ، الغالب عليه الجلوبية ... تولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سـنة ، وكان وافر العقل ثابت الجنان ، مع سكون وعدم رهج .

وأما ما عد من مساويه : فقتله الأمير تانى بك قرا من غير ذنب ؛ أرسـل بخنقه وهو بين عياله وأولاده بالقدس . ومنها أنه صادر خوند الخاصبكية زوجة أستاذه الملك الأشرف قايتباى ، ووكل بها طواشيته حتى باعت قماشها مثل التركة وأوردت ما قرر عليها من المال . وصادر أختهـا زوجة أقبردى ، ووكل بها بالقلعة ، وطالبها بمائة ألف دينار ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مالا . وصادر أخاها النـاصرى محمد بن خاص بك ، وعرضه للضرب غير ما مرة ، وألزمه أن يسافر أمير حاج بالركب الأول من ماله ، ولم يعطه شيئًا كعادة أمراء الحـاج من النفقة . ومنهـا أنه ظلم جماعة من أعيان المبـاشرين من رجال ونساء ، وأخذ أملاكهم غصبا ، وهدمها بسبب البيت الذى أنشـأه على بركة الفيل لأجل أخيه قانم . وفعل مثل ذلك بالتربة التى أنشأها بالصحراء ، وضيق بها الطريق على المارين هناك ، وأعمى ترب الناس التى بجواره . ومنها أنه كان متواطئا مع الأمراء على قتل الملك الناصر محمد ابن أختـه ، ولولا تراخيه لما قدروا على قتله . ومنها أنه رسم بشنق بدرالدين بن مزهر ، كاتب السر ، حتى شفع فيه طومان باى الدوادار . ومنهـا أنه كان غير عفيف الذيل على ما قيل والله أعلم .

الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط

هـو الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى . وهو الرابع والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثـامن عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العـدد . وكان أصله جركسى الجنس ، اشـتراه الأمـير يشبك بن مهدى أمير دوادار كبير ، وأقام عنده مدة ، وحفظ القرآن . ثم ان الأمير يشبك قدمه مع جملة مماليك الى الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى . ثم أخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بعد مدة بقى خاصكيا . ثم بقى دوادار سكين ، وسافر أمير حاج بالركب الأول وهو خاصكى غير ما مرة ، ثم أنعم عليـه السـلطان بامرية عشرة فى سنة أربع وتسـعين وثمانمائة ، وسافر الى الحجاز أمير ركب المحمـل وهو أمير عشرة ، وقرر فى نظر الخانقاه ، ثم توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم فى سـنة ست وتسعين وثمانمائة ، وكان يومئـذ أمير طبلخاناه تاجر المماليك . ثم بقى مقدم ألف فى آخر دولة الأشرف قايتباى ، ثم بقى دوادارا كبيرا عوضا عن أقبردى فى دولة الناصرية . ثم قرر فى نيـابة حلب وخرج اليها . فلما تولى السلطنة الظاهر قانصوه نقله الى نيابة الشام عوضا عن كرتبـاى الأحمر بحكم وفاته . ثم أحضر الى القـاهرة وقرر فى الأتابكية عوضا عن الأتابكى أزبك بحكم وفاته . ثم تزوج بخوند أصلباى أم الملك النـاصر ، واسـتمر على ذلك حتى وثب طومان باى على الظاهر قانصوه وخلعـه من السلطنة وانكسر ، فوقع الاتفاق على سلطنتـه على كره من الأمراء والعسكر .

وكانت صفة مبايعته : أنه لما نسحب الظاهر قانصوه من القلعة ، واختفى كما تقدم ، أقامت القاهرة يومين بغير سلطان . فلما كان يوم الاثنين ثانى ذى الحجة ، صعد الأمراء والعسكر الى باب السلسلة ، واشتوروا فيمن يلى السلطنة ، وكانت قصد الأمير طومان باى الذى تسلطن فيما بعد ، ولكن كان قدامه جان بلاط ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، فلم يجسر أن يتسلطن . وكان العسكر غير راض بجان بلاط ، فما وسع طومان باى الا أنه تعصب له وسلطنه ... فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة — وهم زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن نقى المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى — فلما تكامل المجلس عملوا صورة محضر لخلع الظاهر قانصوه ، فخلع من السلطنة فى الحال . ثم ان الخليفة بايع الأتابكى جان بلاط بالسلطنة ، وتلقب بالأشرف ، وكنى بأبى النصر ، على لقب أستاذه الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته ، أحضر اليه شعار الملك ، وهو الجبة والعمامة السوداء ، فأفيض عليه ذلك الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة الذى بباب السلسلة ، ورفعت على رأسه القبة والطير ، وركب الخليفة عن يمينه ، ومشت الأمراء بين يديه ... واستمر فى ذلك الموكب حتى طلع من باب سر القصر ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ثم خلع على الخليفة وألزمه أن ينتقل من يومه ويسكن بالقلعة . ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء . وكان ملء العيون ، كفئا للسلطنة ، وافر العقل سديد الرأى .

وفى حالة سلطنته رسم بالافراج عن الأمير قانى بك الرماح أمير آخور كبير ، وكان مشكوكا فى الحديد عند الأمير طومان باى الدوادار ، وقد قاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وكذلك الأمير طراباى عنده فى الترسيم أيضا . فخلع السلطان على قانى باى الرماح ، وأعاده الى الأميراخورية الكبرى ، وأطلق طراباى وأنس باى شاد الشراب خاناه ، وأبقاهما على وظائفهما . ثم انه عين الأتابكية الى قصروه نائب الشام ، وكان يظن أنه يدخل تحت طاعته ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وقيل انه تسلطن فى ساعة الشمس .

وفى يوم الثلاثاء ثالثه جلس فى شباك الدهيشة ، وعرض مماليك الظاهر قانصوه ، ومسح منهم جماعة .

وفيه ، فى ذلك اليوم ، بعث الأمير طومان باى الدوادار نحوا من ثلثمائة فرس من خيوله الخاصة التى كانت عنده لما حضر من الشام .

وفى يوم الخميس خامسه فرق السلطان الأضحية على الأمراء والجند ومن له عادة . ثم خلع على بدر الدين بن مزهر وأعاده الى كتابة السر ، وعزل أخاه كمال الدين عنها . وأعيد الشهابى بن ناظر الخاص الى نظر الجيش ، وعزل عبد القادر القصروى وأعاده فى الترسيم ، وقرر عليه مالا له صورة . وخلع على جلال الدين بن الصابونى وأعاده الى نظر الخاص . وعزل شهاب الدين بن الرملى عنها وسلمه الى طراباى على مال قرر عليه .

وفيه خلع السلطان على قيت الرحبى ، وأعيد الى حجوبية الحجاب ، وبطل سفره الى طرابلس نائبا . وخلع على أزبك الناشف ، وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن جان بلاط الأبح ، بحكم اختفائه . ثم عين قصروه الصغير بأن يمضى الى قصروه نائب الشام بالبشارة بسلطنته ، وظن أن قصروه يسر بسلطنته ، فما ازداد الا عصيانا . وأرسل اليه

بالحضور ليلى الأتابكية ، فلم يجب قصروه الى ذلك ، وتمادى على ما هو عليه من العصيان .

وفيه قبض السلطان على تمر قريب السلطان الظاهر قانصوه ، الذى كان محتسبا ، ووكل به وقرر عليه مالا . وكذلك قبض على تانى بك الخازندار وقرر عليه مالا .

وفيه عين السلطان لدولات باى تقدمة ألف ، وكذلك برد بك المحمدى ، وكذلك خاير بك أخو قانصوه البرجى .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على الظاهر قانصوه ، وصار والى الشرطة فى كل يوم وليلة يكبس الحارات ويهجم البيوت ، وحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل من الكبس والنهب . فلما طال الأمر قبض السلطان على الطواشى مسك وضربه ، فأقر بأن زوجته خوند جان كلدى تعرف طريقه فبعث اليها السلطان الأمير طراباى فسألها عنه ، فلم تقر بشىء . فأحضر اليها المعاصير وعصرها فى رجليها فلم تقر بشىء فأحضر الوالى وعاقب الجوارى ، وآخرين من جماعتها فلم يقروا بشىء .

ولما اشتد الأمر بسبب ذلك ، حضر شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن اينال — وكان ساكنا فى سويقة صفية عند الزير المعلق — فأسر للأمير أزدمر ، أحد الأمراء المقدمين ، أن الظاهر قانصوه عنده فى بيته فلما تحقق الأمير أزدمر ذلك ، طلع وأعلم السلطان ، فأرسل جماعة من الخاصكية مع والى الشرطة الى ذلك المكان ، فقبضوا عليه ، وأركبوه على بغل — وعلى رأسه زنط ، وعليه كبر أبيض — وأتوا به على بركة الناصرية ، وقاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه وقيل انه وقع من فوق البغل فى أثناء الطريق وتعترس عليهم ، فأركبوه غصبا . وكان القبض عليه فى يوم الأحد ثانى عشرى ذى الحجة وكانت مدة اختفائه أربعة وعشرين يوما ، فجرى عليه هذا كله وهو ساكت لا يتكلم ، فكان كما يقال :

الصبر أولى بوقار الفتى
من قلق يهتك ستر الوقار
من لازم الصبر على حاله
كان على أيامه بالخيار

واستمر على هذه الحالة حتى أتوا به الى بيت أزدمر فلما رآه قام له وأدخله الى البيت فلما كانت ليلة الثلاثاء خامس عشريه رسم السلطان باخراج الظاهر الى ثغر الاسكندرية فسجن بها وقيل ان السلطان جان بلاط أنعم عليه بخمسة آلاف دينار لكونه كان صهره زوج أخته . وكان المتسفر عليه الأمير أزدمر بن على باى ، فأوصله الى ثغر الاسكندرية وسجنه بها ، وعاد وخمدت فتنة الظاهر كأنها لم تكن .

وفيه قامت المماليك على الأشرف جان بلاط بسبب نفقة البيعة ، فلما رأى منهم الجد ، أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأطلق فى الناس نار المصادرة ، وقبض على جماعة من الأعيان ، ووزع على قاضى القضاة مالا له صورة ، فشفع الخليفة فى قاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، فعفى عما قرر عليه لفقره .

وفيه قبض السلطان على الحاج رمضان المهتار ، وسلمه الى طراباى فعاقبه ، وعصره واستخلص منه ثلاثين ألف دينار . وقد صودر غير ما مرة وهذه آخر مصادراته ، فباع جميع ما يملكه حتى بيوته وشوار نسائه ، وانكشف حاله جملة واحدة . وكان رئيسا حشما ، أقام فى مهترته بالطشتخاناه نحوا من ثلاثين سنة ، ونال من العز والعظمة فى دولة الأشرف قايتباى ما لا رآه غيره من المهاترة .

وفيه اشتد الأمر على الناس بسبب المصادرات ، وقاسى أعيان الناس من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وكان المتكلم فى أمر هـذه المصادرات بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، فأظهر النتيجة لصهره الأشرف جان بلاط ، وحصل منه للناس غاية الضرر الشامل . وشوش على الكثير منهم . وقد عقب ذلك عليه حتى كان من أمره ما سنذكره . وعمت هذه المصادرة طائفة اليهود والنصارى وجماعة من أعيان التجار والطواشية ، منهم مسك ومحسن ومختص وغيرهم ، وكانت حادثة مهولة .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على خاير بك العلائى أحد خواصه ، وعلى جانم المحمدى الظاهرى خشقدم ، وعلى على باى دوادار خشكلدى البيسقى ، وآخرين من الخاصكية .

وفى ليلة الجمعة سابع عشريه وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نصف درجة ، وقد شاهدوا بعض النجوم فى السماء تتناثر .

وفيه نزل السلطان وتوجه نحو تربة الأشرف قايتباى ، فزار قبره ثم توجه الى باب النصر ، وكشف عن عمارة مدرسته التى أنشأها هناك . ثم دخل من باب النصر وشق المدينة ثم أتى الى بيت الأشرف قايتباى الذى أنشأه ببركة الفيل ، فكشف عن زوجته خوند أم الملك الناصر ، وكانت مقيمة هناك فزارها ، ثم عاد الى القلعة

وفيه أعيد الطواشى محسن كما كان ، وقد قاسى من الأنكاد ما لا خير فيه

وفيه كانت وفاة صاحبنا تقى الدين بن محمود أحد أعيان الشهود بالمدرسة الصالحية ، وكان رئيسا حشما عشيرا للناس ، فكه المحاضرة ، لكنه كان ملسنا ، كثير التعلق بالناس ، لا يفوته أحد من كبير وصغير ، وكانت أعيان الناس يخشون من كلامه ولسانه ، حتى قضاة القضاة وقد هجاه الأديب زين الدين ابن النحاس بقوله فيه :

قف وقفة وانتظر عند الامام ترى
جيوش أجفانه بالسود قد كسرت
ومن توقد نيران الحشيش غدت
عيناه ترمى جمارا كلما نفرت

وفى هذه السنة انقطع البلسان من مصر وهو البلسم ، وكان من آثار عيسى بن مريم عليهما السلام ، وكانت الفرنج يجيئونه من أقصى البلاد حتى يشتروا من دهن هذا البلسم ويتغالوا فى ثمنه . وقد أحضر حب البلسان البرى من الحجاز وزرعوه بأرض المطريه ، وعالجوه فلم ينبت . وانقطع من مصر بالكلية ، كأنه لم يكن قط بعين شمس . وهو أجل نبات بها وهذا لم يتفق قط . وكان قبل ظهور الاسلام بمدة طويلة ، وكان زكى الرائحة أشبه شىء بورق الملوخية ، وكان دهنه ينفع للأمراض الباردة ، كوجع الظهر والركب وغير ذلك من الأمراض الباطنية . وكان يستخرج دهن هذا البلسم فى رابع عشرى بشنس القبطى ، وكان فى الزمن القديم يحضر يوم استخراج دهنه بعض الأمراء ، وقيل الخازندار الكبير وأجود ما طبخ دهنه فى برمهات ، وكان يزرع حبه فى بؤونة الى هاتور ، وكان معدودا من جملة محاسن مصر ، وكان انقطاعه من مصر فى رأس القرن العاشر .

ومن حوادث هذا القرن أيضا الحب الفرنجى ، أعاذنا الله منه ، فشا فى الناس جدا ، وقد أعيا الأطباء أمره ، واستمر يعرض للناس الى الآن .

سنة ست وتسعمائة (١٥٠٠ — ١٥٠١) :

فيها كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبا الصبر يعقوب الهاشمى الأبوين ، والسلطان الملك الأشرف أبا النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى . والقضاة الأربعة على حكم ما تقدم . وكانت الأتابكية شاغرة . وقد تعينت لقصروه نائب الشام .

وفى يوم الثلاثاء ، مستهل المحرم ، كان صعود خوند أصلباى ، زوجة الأشرف جان بلاط ، وهى أم الناصر وسرية الأشرف قايتباى ، وأخت الظاهر قانصوه ، فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا . فشقت من الصليبة ، وهى فى محفة زركش ، وحولها الخدام من أعيان الطواشية ، وقدامها أعيان المباشرين ، وجماعة من الخاصكية نحو من خمسين انسانا ، وهم بالشاش والقماش ، وجماعة من المماليك نحو من مائة انسان ، وبأيديهم العصى يفسحون الناس . فاستمرت فى هذا الموكب الحافل حتى صعدت الى القلعة ، ومعها نحو من مائتى امرأة على مكارية .

وفيه فرق السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد جمع هذا المال من وجوه الظلم والمصادرات . ففرق على جماعة مخصوصة من العسكر ، وقطع للأكثر من الجند ، وأولاد الناس وغيرهم .

وفى يوم الخميس ثالثه حضر قصروه الصغير ، الذى كان قد توجه الى قصروه نائب الشام ببشارة سلطنة الأشرف جان بلاط . فلما عاد أخبر أن قصروه نائب الشام باق على عصيانه ، ولم يدخل تحت طاعة الأشرف جان بلاط ، ولم يلبس خلعته ، ولا قبل له الأرض . فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وكان يظن أن قصروه يدخل تحت طاعته ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفى يوم الجمعة رابعه صلى السلطان صلاة الجمعة ، وجلس بباب الستارة ، وخلع على الأمير تانى بك الجمالى ، وقرره فى الأتابكية عوضا عن نفسه . وكان السلطان أخر الوظيفة لقصروه ، فلما تمادى على عصيانه قرر بها تانى بك الجمالى ، وخلع على الأمير طومان باى ، وقرره فى امرية السلاح ، مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى . وقرره أيضا فى الوزارة والاستادارية ، وكشوفية الكشاف — كما كان الأمير يشبك بن مهدى — فعظم أمره جدا ، وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام .

وفيه استمر قرقماس بن ولى الدين فى ولاية حلب كما قرره الظاهر قانصوه . وقرر برد بك الطويل فى نيابة طرابلس عوضا عن قيت الرحبى الذى كان تعين اليها وقرر قانصوه بن سلطان چركس المعروف بابن اللوقا فى نيابة حماه ، وكان قرره قبل ذلك فى نيابة غزة . ثم بطل أمر هؤلاء النواب جميعا . وحدثت أمور بعد ذلك يأتى الكلام عليها فى موضعها .

وفى يوم السبت خامس المحرم ، الموافق لثامن مسرى ، وفى النيل المبارك ، وكسر يوم الأحد سادس المحرم . فلما وفى توجه الأمير طومان باى الدوادار ، وفتح السد على العادة ، فأظهر فى ذلك اليوم غاية العظمة ، وفرق على المتفرجين نحوا من مائتى مجمع حلوى ، ومائتى مشنة فاكهة ، حتى فرق البطيخ الصيفى ، ونثر للعوام فضة لما أراد أن يركب عند السد ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان له يوم مشهود وكان هذا آخر فتحة للسد . وعقيب ذلك تسلطن ، وجرت عليه أمور يأتى الكلام عليها . فابتهج الناس بيوم الوفاء لكون النيل كان وفاؤه مسرعا ، وحصل به غاية النفع ، وكان نيلا عاليا مباركا ، فكان كما يقال :

كأن فى يوم الوفا نيلنا
أتقن علم الحرف بالضبط
اذ بالصبا صفحات خلجانه
تجدولت بالكسر والبسط

وفيه تكلم وسائط السوء مع السلطان فى اعادة وظيفة نظر الأوقاف . فلما عرضوا ذلك على الأمير طومان باى ، لم يوافق على اعادة هذه الوظيفة . وكان الملك الناصر أبطلها بواسطة

كرتباى الأحمر . فلما توجه كرتباى الأحمر الى الشام ، وطاش الملك الناصر بعده · سعى محمد ابن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف فى اعادته الى هذه الوظيفة . وكان الساعى له عبد القادر البواب بواب الدهيشة ، فقرره السلطان فى نظر الأوقاف . فأقام بها مدة يسيرة ، وضج منه الناس ، فشكوه للملك الناصر فقبض عليه ، وضربه ضربا مبرحا ، ونفاه الى قوص . وقد تولى هذه الوظيفة غير ما مرة ولم ينتج أمره ، وقد تولاها جماعة كثيرة . منهم شخص يسمى الفار الوكيل فلم ينتج أمره ، وتولى بها أيضا شرف الدين بن البدرى حسن فلم ينتج فيما تقرر عليه من المال . وقد تولاها جماعة كثيرة ، ولم يمكنهم السداد — وهى وظيفة شر وظلم — فشكر الناس فعل الأمير طومان باى الدوادار على ابطال هذه الوظيفة فى تلك الأيام المسيئة .

وفيه قبض السلطان على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاصطبل ، وقرر عليه مالا له صورة يورده للخزائن الشريفة .

وفيه عاد سنباى نائب سيس أحد المقدمين ، وكان توجه الى الكرك لقتال بنى لام ، وعاد من غير طائل .

وفيه اجتمع السلطان بالأمراء وضربوا مشورة فى أمر قاصروه نائب الشام ، فأشاروا على السلطان بأن يرسل اليه قاصدا ، فعين شخصا من الأمراء العشراوات ، وهو أزدمر الفقيه ، وعين معه الأمير أصباى فتوجها اليه عن قريب . وفى أثناء ذلك حضر خاير بك الكاشف الذى كان الظاهر نفاه ، وفر من أثناء الطريق وتوجه الى قصروه ، وأظهر العصيان معه ... فلما بلغه سلطنة الأشرف جان بلاط ، فر من عند قصروه ودخل تحت طاعة الأشرف جان بلاط . فلما حضر خلع عليه ، ووعده بتقدمة ألف .

وفى خامس عشريه كان دخول الحاج الى القاهرة ، وقد حصل لهم مشقة زائدة ، وعوقهم العرب حتى فات ميعاد دخولهم .

وفيه تعين تمرباى خازندار الأمير طومان باى ، وأظهر للسلطان أنه يروم الصلح بينه وبين قصروه ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وانما أرسل تمرباى فى عمل مصلحة نفسه ، وقد ظهر ذلك فيما بعد ، وتلاعب بالأشرف جان بلاط ، وهو بظن أنه له من الناصحين وهو بضد ذلك . كما يقال فى أمثال « الصادح والباغم » :

جهد البلاء صحبة الأضداد
كأنها كى على الفؤاد

ومنها :

كذاك من يستنصح الأعادى
يردونه بالغش والفساد

ومنها :

أعظم ما يلقى الفتى من جهد
أن يبتلى من جنسه بالضد

وفيه جاءت الأخبار بأن قصروه قد استولى على غزة وأعمالها ، والقدس وغير ذلك من النواحى .

* * *

وفى صفر عظم أمر الأمير طومان باى جدا ، وتصرف فى أحوال المملكة كما يختار ، وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه ، لا يقضى أمرا دونه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن دولات باى نائبها أظهر الطاعة للسلطان ، وأنه ليس مع قصروه نائب الشام . وهذا كله حيل وخداع وترتيب من

الأمير طومان باى . حتى كل عزم السلطان عن ارسال تجريده الى قصروه نائب الشام . وكانت أحواله كلها معكوسة ، وصار طومان باى يمهد لنفسه فى الباطن .

وفيه توعك قاضى القضاة زين الدين زكريا وحصل له ضعف فى بصره ، فأغلق عليه بابه ، وأظهر أنه قد عزل نفسه عن القضاء ، فلم يلتفت السلطان اليه .

فلما كان يوم الاثنين عشريه خلع السلطان على محيى الدين عبد القادر بن النقيب وقرره فى قضاء الشافعية ، عوضا عن القاضى زكريا بحكم انفصاله عنها ، فكانت مدة ولاية الشيخ زكريا فى قضاء الشافعية نحوا من عشرين سنة . فانه تولى فى دولة الأشرف قايتباى فى سادس رجب سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعزل فى صفر سنة ست وتسعمائة . وهذه المدة لم تقع لأحد من قضاة الشافعية ، فى ولاية واحدة غيره ، فعد ذلك من النوادر . وسيعود الى القضاء ثانيا عن قريب . فلما تولى عبد القادر بن النقيب ، شق على كل أحد من الناس ولايته ، ولاموا السلطان على ذلك . وكان يومئذ فى الشافعية من هو أولى بالقضاء منه . ولكن سعى بمال له صورة حتى تولى على كره من الناس فكان كما يقال دوبيت :

فى مصر من القضاة قاض وله
فى أكل مواريث اليتامى وله
ان رمت عدالة فقم مجتهدا
من عد له دراهما عدله

وهو أول قضائه بمصر ، وقيل انه سعى بسبعة آلاف دينار حتى تولى ، وسيعزل عن قريب .

وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف للمسلمين ، وقالوا من دخل فى ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه . فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل ثم ثار عليهم المسلمون ثانيا وانتصفوا عليهم بعض شىء واستمر الحرب ثائرا بينهم ... والأمر لله تعالى فى ذلك .

* * *

وفى ربيع الأول نزل السلطان الى بيت الأمير طومان باى ، وترجل ونزل عن فرسه ، ودخل هو واياه الى البيت ، وأقام عنده ساعة يتحدثان فى أمر قصروه ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا وهو أول موالده .

وفيه ، فى يومه ، عين السلطان خاير بك أخا قانصوه البرجى ، ومعه جماعة من العسكر ، وأمرهم أن يقيموا بغزة ، خشية من قصروه أن يطرق غزة على حين غفلة . فخرج خايربك والعسكر مسرعين .

وفيه ماتت خوند حبيبة ابنة الملك المنصور عثمان بن الظاهر چقمق ، وهى زوجة الأمير طومان باى الدوادار ، وكانت جنازتها حافلة .

وفيه عين السلطان الأمير سودون العجمى ، أحد المقدمين ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وعين دولات باى قرموط والى القاهرة بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى قاصروه نائب الشام . وقد تمادى على العصيان والخروج عن الطاعة ، واضطربت أحوال البلاد الشامية ، وامتنع ورود القماش والفاكهة وغير ذلك مما كان يجلب من البلاد الشامية ... فلما عرض العسكر ، عين نحوا من ألفى مملوك ، ومن الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا . وكان الباش على هؤلاء الأمراء المقر السيفى طومان باى دوادارا كبيرا ،

وأمير سلاح ، ووزيرا واستادارا ، وكاشف الكشاف ، ومشير المملكة ، وما مع ذلك من الوظائف .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأنفق عليهم ، وبعث نفقة الأمراء ، ثم استحثهم على الخروج بسرعة ، ورسم لهم أن يخرجوا شيئا بعد شيء .

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشريه ، خرج جماعة من الأمراء الطبلخانات المعينين فى هذه التجريدة فكان جاليش العسكر قيت الرجبى حاجب الحجاب ، واصطمر بن ولى الدين أحد المقدمين ، وسودون الدوادار أحد المقدمين ، وخرج صحبتهم خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية .

وفيه قرر الأمير قاد بردى اليوسفى فى شادية الشرابخاناه مع امرية أربعين ، وكان من خواص الأمير طومان باى الدوادار ، وقرر قلج فى نيابة البيرة ، ثم لم يتم له ذلك وقرر فى نيابة الاسكندرية ، ثم نفى فى دولة العادل طومان باى الى البلاد الشامية .

وفيه قرر الشيخ صنطباى فى نظر المدرسة السنقرية التى بباب النصر وأخرج النظر عن قاضى القضاة الشافعى بأمر السلطان .

وفيه قرر السلطان أنس باى الذى كان شاد الشرابخاناه فى تقدمة ألف ، وكان من خواص الأمير طومان باى .

وفيه قرر طقطباى فى كشف أسيوط ، وصرف عنها يوسف النوام وقرر جانم المحمدى الخشقدمى فى كشف منفلوط ، وصرف عنها حيدر السيفى أزبك اليوسفى .

***

وفى يوم السبت مستهل ربيع الآخر خرج من تعين من النواب المقدم ذكرهم ، وهم قرقماس ابن ولى الدين المعين لنيابة حلب وبرد بك الطويل المعين لنيابة طرابلس ، وقانصوه ابن سلطان جركس ، المعروف بابن اللوقا ، المعين لنيابة حماه ، وقد تعينت لدولات باى نائب حلب نيابة الشام ، عوضا عن قصروه اذا قبض عليه . وكانت هذه التراتيب كلها فى البطال ، وآل الأمر الى خلاف ذلك كما يأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفى يوم الاثنين رابعه خرج المقر السيفى طومان باى أمير سلاح وما مع ذلك فلما خرج طلب طلبا حافلا حتى رجت له القاهرة . فلما طلع الى القلعة ، أفاض عليه السلطان خلعة حافلة ، وهى فوقانى حرير أزرق بوجه أخضر بطرز يلبغاوى عريض ... قيل كان طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ونصف من الذهب الخالص البندقى ، وكان ما دخل فيه ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل قط مثله ولا سمع بمثل ذلك . وكان الأشرف جان بلاط يقاتل على رضا الأمير طومان باى بكل ما يمكن ، ومع هذا كان الأمير طومان باى يضمر له كل سوء فكان لسان حال جان بلاط يقول :

أقاسى المنون لنيل المنى
وياليت هذا بهذا يفى !

وكان الأمير طومان باى باغيا على الأشرف جان بلاط ، فكان كما يقال :

والغدر بالعهد قبيح جدا
شر الورى من ليس يرعى عهدا

فلما خرج كان صحبته من الأمراء المقدمين قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، والأمير قانصوه الغورى رأس نوبة كبير ، والأمير أزدمر بن على باى أحد المقدمين ، وأنس باى أحد المقدمين . فكانوا بمن تقدمهم من الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا ، ومن المماليك السلطانية نحو من ألفى مملوك وزيادة . وكانت هذه التجريدة المعينة الى

قصروه نائب الشام ، تعادل تجريدة ابن عثمان ، وقد تقدم ذكر ذلك فى دولة الملك الأشرف قايتباى .

فلما شق الأمير طومان باى من القاهرة كان له يوم مشهود ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان محبوبا للناس ، ولا سيما العوام ، فلهج الناس بأنه سيعود سلطانا ، وكان الأمر كذلك . واستمر فى ذلك الموكب حتى نزل بالريدانية فى الوطاق فأقام به أياما . وقيل ان السلطان نزل اليه هناك فى الخفية تحت الليل ، وجلس عنده وتحدثا فيما يكون من أمر قصروه ، وأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة ، من مال وقماش وتحف حتى بأحجار حيوانية لمنع الهموم القاتلة ، ثم ودعه وطلع الى القلعة . وكان يظن أن الأمير طومان باى ناصحا له ، وكان الأمر بخلاف ذلك .

وفيه من الحوادث أن السلطان تغير خاطره على القاضى كاتب السر بدر الدين بن مزهر ، فقبض عليه وعلى حاشيته وسجنه بالعرقانة ، وضربه ضربا مبرحا غير ما مرة ، وسبب ذلك أن السلطان لما صادر الناس كما تقدم ، ندب القاضى بدر الدين الى ذلك ، فأظهر من الظلم والعسف والتشويش على الناس ما يطول شرحه ، وأظهر النتيجة فى ذلك للأشرف جان بلاط ، فانه كان صهره ، فكثر الدعاء عليه وأخذه الله من الجانب الذى يأمن اليه ، وكان كما يقال :

فكان كالمتمنى أن يرى فلقا
من الصباح ، فلما أن رآه عمى

ثم انه قرر عليه مالا ، وأقام فى العرقانة حتى يورد ما قرر عليه من المال ، وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

فلما كان يوم الخميس ثانى عشره خلع السلطان على صلاح الدين بن يحيى بن شاكر بن الجيعان ، وقرره فى كتابة السر ، عوضا عن بدر الدين بن مزهر ، بحكم صرفه عنها . وهذه آخر ولايته لكتابة السر ، فلم يعد اليها بدر الدين بعد ذلك .

وفى ليلة الجمعة ثالث عشره خسف جرم القمر خسوفا تاما ، وأقام فى الخسوف الى قريب التسبيح ، وغرب وهو مكسوف .

وفيه توفى القاضى جلال الدين بن الأمانة أحد نواب الشافعية ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، وفاته منصب القضاء غير ما مرة ، وهو آخر من روى صحيح مسلم عن الزيتى الزركشى بالسماع ، وكان قد طعن فى السن وقارب التسعين من العمر .

وفيه نودى من قبل السلطان بابطال ما تجدد من المكوس والمظالم الحادثة من بعد موت الأشرف قايتباى .

وفيه عاد تمر باى خازندار الأمير طومان باى الدوادار الذى كان توجه الى قصروه نائب الشام ، ليمشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فلم يوافق قصروه على ذلك .

وفيه توفى أصباى الأشرفى قايتباى ، وكان أحد الدوادارية ، وكان لا بأس به

***

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين خامسه ، وصل هجان من الشام فى الخفية ، وعلى يده مكاتبات الى تمرباى خازندار طومان باى ، ليفرقها على الأمراء . فكان مضمونها أنه تسلطن بالشام وتلقب بالملك العادل . واستفاض هذا الكلام بين الناس وفشا ... فلما فرق تمرباى المكاتبات على الأمراء خاف على نفسه ، ففر تحت الليل ، وستر الله عليه حتى خرج من القاهرة .

وفيـه جاءت الأخبار مفصلة بصحة ما جرى . وهو أن العسكر لما وصـل الى الشام ، نزل فى مكان يسمى سعسع بالقرب من دمشق ، فركب قصروه نائب الشام فى نفر قليـل من عسكره ، وأظهر أنه طائع ، فاطمأن له العسكر ، وكان غالب الأمراء خشداشينه . فلما حضر اليهم دخـل معهم الى الشام ، واجتمعوا فى القصر الأبلق الذى فى الشام بالميدان . ولما حضر قصروه نائب الشـام ذكروا له أنه يطلع الى القلعـة ويقـرأ مراسيم السلطان ، فطلع وطلع الأمراء الى القلعة . فعنـد ذلك قرأوا عليه مراسيم السلطان ، فلم يلتفت الى ذلك . ثم تفاوض هو والأمراء فى الكلام ، ثم ثارت فتنة كبيرة بالقلعة ، ثم أمر قصروه والأمير طومان باى بالقبض على جماعـة من الأمراء ، وهم : قرقمـاس ابن ولى الدين نائب حلب الذى قـرر بهـا ، وأزدمر بن على باى أحـد الأمراء المقدمين ، وخاير بك أخو قنصوه البرجى ، أحد الأمراء المقدمين ، وسودون بن يشبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه بن سلطان جركس الذى قرر فى نيـابة حمـاه . وقبض على آخرين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلمـا قبض عليهم قيدهم وسجنهم بالقلعة بدمشق .

وفى أثناء ذلك حضر الى دمشق دولات باى بن أركماس نائب حلب الشهير بأخى العـادل ، فلما حضر تعصب للأمـير طومان باى ، وتكـلم فى سلطنته ، فأحضر قضاة الشام ، وكتب صـورة محضر فى خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة ، وبايعوا طومان باى من غير خليفة ، وتلقب بالملك العادل أبى النصر ، وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه ، وقبل له الأمراء الأرض . فأول من قبل له الأرض قصروه نائب الشام ، ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا . فلما تم أمره فى السلطنـة عين الأتابكيـة بمصر لقصروه نائب الشام ، وعين نيابة الشـام لدولات باى نائب حلب ، وعين نيـابة حلب الى اركماس بن ولى الدين ، وعين نيابة طرابلس لبرد بك الطويل ، وعين نيابة صفد لجانم ، وقرر قيت الرحبى فى امرية سلاح عوضا عن نفسـه ، وقرر قانصوه الغورى فى الدوادارية الكبرى والاستادارية والوزارة وكاشف الكشاف عوضـا عن نفسه ، وقـرر قانى بك ، نائب الاسكندرية ، فى الرأس نوبة الكبرى ، وقرر اصـطمر بن ولى الدين فى الحجوبية الكبرى ، وعين عـدة امريات ألوف ، وامريات طبلخانات وعشراوات لجماعة من عصبته .

ثم انه رسم بشنق أحـد مشـايخ العربان من أولاد ابن نبيعة ، وشنق شخصا آخر من مشايخ بنى حرام يقال له نايت . فلما تم أمره فى السلطنة خطب باسمه على منابر دمشق ، ثم أخذ فى أسباب الحضور الى مصر . فلما سمع الأشرف جان بلاط هذه الأخبـار ، اضطربت أحواله ، وضـاقت به الدنيا . ثم أخذ فى أسباب تقرير الوظائف للأمراء الذين بمصر ، عوضا عمن أظهر العصيان بدمشق ، فاستمال قلوبهم حتى يكونوا له عونا ، ويدخلوا طاعته ... فأحضر لهم المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الأمراء من كبـير وصغير بعـد صلاة الجمعة ، بحضرة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ... وكان قاضى القضاة الشافعى عبـد القادر بن النقيب ألف صورة أيمان مغلظة بالله ، وبالمصحف ، وبالحج ، وبالعتـق والطلاق ثلاثا ، وغير ذلك من التأكيد فى الأيمان المغلظة ، وكتب ذلك فى سجل ، ودفعه الى صلاح الدين بن الجيعان كاتب السر ، ليحلف عليه الأمراء . وكان هذا سببا لانتقام العادل من ابن النقيب لما حضر الى مصر ، وتم أمره فى السلطنة ، فجرى على ابن النقيب منه أمور مهولة يأتى الكلام عليها .

فلما تكامل المجلس حلف الأمراء بتلك الأيمان التى تقدمت ، أنهم لا يخونون ، ولا يغدرون ، ولا يميلون مع العادل اذا حضر ، فحلفوا على ذلك . ثم أحضر لهم عدة تشاريف ، فخلع على قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، وقرره فى أمرية السلاح ، عوضا عن طومان باى بحكم سلطنته بدمشق . وقرر خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم فى امرية مجلس ، عوضا عن قانصوه البرجى بحكم انتقاله الى أمرية سلاح . وقرر مصرباى فى الدوادارية الكبرى ، عوضا طومان باى بحكم سلطنته بدمشق . وقرر سنباى نائب سيس فى الأميراخورية الكبرى ، عوضا عن قانى باى الرماح بحكم عصيانه مع طومان باى . وقرر سودون العجمى فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن قانصوه الغورى بحكم عصيانه مع طومان باى . وقرر برد بك المحمدى الاينالى فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن قيت الرجبى بحكم عصيانه . وقرر قانصوه الصغير فى ولاية القاهرة ، وقرر تانى بك الأبح فى شادية الشراب خاناه ، وقرر اقباى الطويل فى تجارة المماليك ، وقرر تمر باى أمير شورى فى استادارية الصحبة ، وقرر جان بردى رأس نوبة ثانى . وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم بيبرس الفهلوان ، وأزبك المكحل ، وخشكلدى الذى كان استادار الصحبة ، ودولات باى قرموط الذى كان والى القاهرة ، وأزبك الناشف ، وتمراز جوشن ، وتمراز الزردكاش ، وقرقماس الشرابى ، وخير بك الكاشف ، وغير ذلك من الأمراء ممن خامر مع طومان باى . ثم فرق عدة أقاطيع على الخاصكية عوضا عمن كان صحبة طومان باى .
ثم أخذ فى أسباب تحصين القلعة ، فركب حولها المكاحل المعمرة بالمدافع ، وأصلح سورها وأبراجها ، وبنى فوق سلم المدرج بابا — وهو موجود الى الآن — ثم بنى برجا محيطا على باب السلسلة ، فبناه بالفص الحجر ، وصنع فيه مرامى وأبوابا صغارا . ثم سد باب الميدان ، وباب حوش العرب ، وباب الأصطبل الذى عند الصوة ، وصار ينزل فى النهار مرتين يكشف على العمارة بنفسه . ثم رسم بهدم مدرسة السلطان حسن فهدم منها بعض شيء من وراء ظهر محراب القبة ، فأقاموا يهدمونها ثلاثة أيام فلم يقدروا على هدم ذلك ، فتكلم الأمير تغرى بردى الاستادار مع السلطان فى عدم ذلك ، فرجع السلطان وترك الهدم . وقد تأسف الناس على هدمها لأنه لم يعمر فى الدنيا مثلها ، ولو هدمها ما كان يفيده من هدمها شيء ، وما كان يقدر على هدمها ، فكان ترك ذلك أوجب ، وقد ظهر عجزه عن ذلك . وفى هذه الواقعة يقول شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى :

هتكت قبة الحسن وانتفى وصفها الحسن
ان فى ذا لعبرة لكن المستفيق من

وقال محمد بن قانصوه بن صادق سامحه الله :

حسن السلطان قد هتكت
— خيفة المحذور — قبته
تعس الراضى بذا ، وغدت
مثلها فى الهتك حرمته

ثم ان السلطان نقل الى القلعة من البقسماط والجبن والغنم والبقر والأوز والدجاج والقمح والشعير وأشياء كثيرة من احتياج المطبخ ما يكفى للمحاصرة نحو الشهرين . ثم نادى فى القاهرة باصلاح الدروب ، واصلاح باب المدينة ... فاضطربت الأحوال ، وتزايدت الأقوال ، وكثر القيل والقال ، ووزعوا قماشهم فى المخابى ، وظن

كل أحد أن هذه فتنة مهولة ما تنجلي الا عن أمور شتى . وصار الناس فى رعب من ذلك ، وقد اشتد الأمر جدا .

وفيه قبض السلطان على اسماعيل زامل وشنقه على باب الميدان . وسبب ذلك أنه هرب تمرباى خازندار طومان باى الذى تسلطن بالشام ، مكنه أن يتوجه الى الشام ، وما أعلم السلطان بذلك ، فشنقه لأجل ذلك ، وصار له ذنب كبير . ثم ان السلطان أراد أن يقبض على الأمير طراباى ، وعوقه بالقلعة ساعة ، ثم بدا له ترك هذا الأمر . ثم ان السلطان رسم بقطع سلالم مدرسة السلطان حسن ، وأمر بنقض أماكن من دار يشبك الدوادار ونقل الى القلعة أخشابا كثيرة صنع منها عدة طوارق ، وسلالم خشب ، وغير ذلك من آلة الحرب . ثم فتح الزردخانة ، وفرق منها على جماعة من الجند عدة سيوف ، وزرديات ، ولبوس وتراكس وقيسى ونشاب وغير ذلك . ثم فرق عليهم عدة خيول خاص من خيول الأمراء الذين خامروا مع طومان باى ... فأخذ خيولهم وفرقها على العسكر ، وفرق عليهم من خيوله الخاص أيضا ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن ، وأنعم على أكثرهم بوظائف واقطاعات ، وفرق مثالات تكتب على بياض على جميع من كان عنده ... ولم يفده من ذلك شىء ، فكان كما قيل :

اذا طبع الزمان على اعوجاج
فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

* * *

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم الأربعاء مستهله ، خلع السلطان على الأمير عبد اللطيف الطواشى وقرره زماما وخازندارا كبيرا ، عوضا عن جوهر المعينى بحكم وفاته كما تقدم .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى عبيد القفاص ، وكان من الصالحين

وفى يوم السبت رابعه جاءت الأخبار بأن العادل طومان باى خرج من الشام ، هو وقصروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وجماعة من النواب ، والتف عليهم الجم الغفير من عسكر الشام ، وعربان جبل نابلس والعشير ، وغير ذلك . وقد وصل الى غزة . فلما تحقق السلطان ذلك ، علق الصنجق السلطانى على باب السلسلة ، ونادى للعسكر بأن يطلع الطائع الى القلعة ، ومعه آلة الحرب وأن سائر الأمراء تطلع الى القلعة صغارهم وكبارهم . ثم رسم لقضاة القضاة بأن يطلعوا الى القلعة فطلعوا الى القلعة ، وكذلك سائر المباشرين من أرباب الوظائف ، يطلعون الى القلعة أجمعين فامتثلوا ذلك ، وطلعوا الى القلعة ، وأقاموا بها ، واحتاط فى الأمور بكل ما يمكن ، ولم يفده من ذلك شىء . فكان كما يقال :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما كان يوم الخميس تاسعه ، وصل العادل بمن معه من العساكر الى خانقاه سرياقوس ، ودخل أوائل عسكره الى القاهرة ، فماجت القاهرة واضطربت ، وقلق الأشرف جان بلاط وضاقت عليه الدنيا بما رحبت . فكان كما يقال فى المعنى :

قد كان يرجف فى ليالى وصله
قلبى ، فكيف الآن عند صدوده

وفيه جاءت الأخبار بوصول عسكر العادل الى المطرية ، فخرج اليه بعض العساكر السلطانية ، وتقاتلوا معهم هناك قتالا هينا . ففر منهم أزبك النصراوى ، ودخل تحت طاعة العادل ، وقبل له الأرض ، فخلع عليه العادل هناك ، وقرره والى

الشرطة بالقاهرة . ثم ان بعض المماليك توجه الى بيت العادل الذى كان ساكنا به ، وهو بيت الظاهر تمربغا الذى عند سوق السلاح بالقبو ، فأحرقوا مقعده ومبيته ، ونهبوا منه بعض أثاث .

وفى يوم السبت حادى عشره ، كان دخول العادل طومان باى الى القاهرة ، فدخل من باب الفتوح ، ورفع على رأسه صنجق خليفتى . وكان معه من الأمراء قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه الغورى رأس نوبة كبير ، وقيت الرجبى حاجب الحجاب . وكان معه من النواب قصروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وبرد بك الطويل نائب طرابلس ، وجانم نائب حماه ، وغير ذلك من الجند والعربان والعشير ... فشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان محببا للناس قاطبة ، فنادى بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وألا يشوش أحد على أحد من الرعية . فتزايدت له الناس بالدعاء وكان الناس يظنون أن العادل طومان باى يخرب مصر عن آخرها بسبب ما يقع من الفتن ، وأن الأمر يطول فى ذلك ، فما حصل الا كل خير ، وانفرج الأمر عن قريب . فاستمر العادل طومان باى فى ذلك الموكب ، وكان له يوم مشهود ، حتى توجه الى بيت قانى بك قرا الذى عند حمام الفارقانى فنزل به ، ونزل قصروه بالأزبكية بدار الأتابكى أزبك ، ونزل دولات باى نائب حلب بجامع شيخو ، ونزل نائب طرابلس بدار أزبك اليوسفى أمير مجلس ، الذى كان بدرب ابن البابا بالقرب من الصليبة . وتوزع الأمراء والنواب الذين حضروا صحبة العادل كل واحد فى مكان بالقرب من الصليبة . ثم ثار الحرب بين الفريقين وعظم الأمر جدا . وكان القائم بنصرة العادل قصروه نائب الشام ، فأمر بحفر خنادق فى الطرقات ، ووراءها سوز من الحجارة فحفروا خندقا برأس الرميلة عند سويقة ابن عبد المنعم ، وخندقا عند حدرة البقر ، وخندقا عند باب الوزير ، وخندقا برأس سوق جامع أحمد بن طولون ، وخندقا عند سوق القبو عند مدرسة السلطان حسن ، فكانت خمسة خنادق .

ثم ان العادل أحضر عدة أخشاب لاطات ، وجزم وصوارى ، وأحضر جماعة نجارين ، فصنعوا منها عدة طوارق وسلالم ، وشرعوا فى عمل مجانيق ، وسدوا عدة أماكن شتى ، وبنوا عليها دروبا ، وصاروا يغلقونها ، وظنوا أن هذه الفتنة يطول أمرها

ففى اليوم الثالث من المحاصرة ، ملك قصروه مدرسة السلطان حسن ، وركبُ المكاحل المعمرة بالمدافع ، ووقف بها ، ورموا على من بالقلعة بالسبقيات ، وبالبندق الرصاص ، فقتل ممن كان بالقلعة جماعة كثيرة ، وجرح آخرون فضعف عزمهم عن القتال ، وبانت الكسرة عليهم . ولم يكن عند الأشرف جان بلاط بالقلعة سوى الأتابكى تانى بك الجمالى ، والأمير طراباى ، والأمير مصرباى ، والأمير قانصوه البرجى ، وخشكلدى البيسقى ، ونائب سنباى ، وآخرين من الأمراء المقدمين ، وغيرهم . وكان الرماة أشاعوا عن السلطان جان بلاط ، لما وصل العادل الى المطرية ، أن يخرج اليه الأتابكى تانى بك الجمالى ، وآخرون من الأمراء ويحاربونه ، وكان هذا عين الصواب لو فعلوه . كما يقال فى الأمثال :

واتنهز الفرصة ان الفرصة
تصير ان لم تنتهزها غصة

واسبق الى الأجود سبق الناقد
فسبقك الحصم من المكايد

ثم ان العادل قصد أن يحضر جماعة من فرسان عربان الشرقية يقاتلون معه ، كما فعل أقبردى الدوادار ، فلم يوافقه الأمراء على ذلك ، وقالوا هذا يحصل منه غاية الفساد .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره اشتد الحرب بين الفريقين ، ووقع بينهما واقعة مهولة بباب الوزير فجرح فيها شخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له تمرباى الطويل استادار الصحبة ، فلما جرح أغمى عليه فسقط عن فرسه ، فأخذوا لبسه وسلاحه ، وحمل الى داره فمات بعد أيام . وفى ذلك اليوم تقنطر الأمير مصرباى الدوادار بالتبانة ، وأخذوا فرسه من تحته ونجا بنفسه ، وهرب . وجرح فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من الفريقين . وقتل فى ذلك اليوم أيضا الأمير قانى بك نائب الاسكندرية ، أحد الأمراء المقدمين ، قتل بكفيه ، وكان من عصبة الأمير أقبردى الدوادار ، وحضر الى القاهرة صحبة قصروه نائب الشام ، وكان مقيما بالشام . وقتل جماعة من الخاصكية فى ذلك اليوم .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره استمر الحرب ثائرا بين الفريقين الى يوم الخميس سادس عشره ، فأنفق العادل طومان باى على العسكر الذين من عصبته جامكية شهر ... وصار الأشرف ينفق الجامكية بالقلعة على من عنده من العساكر ، والعادل طومان باى ينفق الجامكية فى بيت تانى بك قرا على من عنده من العسكر . فلما تلاشى أمر الأشرف جان بلاط ، وترشح أمر العادل طومان باى ، ولاحت عليه لوائح النصر ، صار جماعة من الأمراء والعسكر يتسحبون من القلعة ، وينزلون عند العادل طومان باى ... فنزل اليه قانصوه الفقيه ، وتمر الظاهرى ، وجان بلاط الأبح ، وقانى بك الأبح ، وغير ذلك من الأمراء والخاصكية ثم نزل فى ذلك اليوم القاضى عبد القادر القصروى ، وتوجه الى العادل فخلع عليه ، وأقره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وكان الأشرف جان بلاط وعد العسكر أنه ينفق عليهم مع الجامكية ، فلم ينفق عليهم شيئا ، فانقلبوا عليه وتسحب غالبهم ، وأتوا الى العادل فرحب بهم .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خرج العادل من بيت تانى بك قرا ، وهو راكب ، وعليه سلارى شوح أحمر بفرو سمور ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، والأمراء حوله ، فتوجه الى جامع شيخو ، فصلى به صلاة الجمعة . فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان يوما مشهودا . فلما خطب الشرفى يحيى بن العداس ، خطيب جامع شيخو ، دعا فى آخر الخطبة باسم الملك العادل ، فهى أول خطبة خطبت باسم العادل فى القاهرة قبل أن يخلع جان بلاط من السلطنة . وقد خاطر الشرفى يحيى بن العداس بنفسه فى ذلك ، فعد ذلك من النوادر .

فلما تسلطن العادل وتم أمره فى السلطنة ، كتب للشرفى يحيى بن العداس ، جامكية فى كل شهر ألف درهم ، فى نظير ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشره وقت صلاة الفجر ، نزل من القلعة جماعة من الأمراء العشراوات ، منهم جان بردى الغزالى ، وخايربك الكاشف ، وآخرون من الخاصكية ، فتوجهوا الى العادل . ثم ان جان بلاط رسم بتفرقة الجامكية الثانية فى الاصطبل السلطانى ، وحضر هناك العسكر وهم لابسون

آلة الحرب ... فبينما العسكر الذين بالقلعة مشغولون بنفقة الجامكية ، واذا بالقلعة قد ماجت واضطربت ، وثار الجم الغفير بالرميلة من المماليك الذين من عصبة العادل ، فنهبت الجامكية عن آخرها التى أنفقت بالاصطبل . وكان سبب ذلك ما استفاض بين الناس أن الملك الأشرف جان بلاط كان مقيما فى مدة حصاره بالقلعة بالقصر الكبير ، وعنده جماعة من المشايخ الصوفية ، ومن يعرف بالصلاح . فلما ضاق الأمر على الأشرف جان بلاط قام ودخل الى دور الحريم ، فأبطأ فيه ساعة طويلة ، فعمد الأمير طراباى الى النمجاة والترس فأخذهما ونزل بهما من القلعة ، وتوجه الى العادل طومان باى ، وأشاع أن الأشرف جان بلاط قد هرب من القلعة . فلما سمع بذلك الأتابكى قصروه — وكان مقيما بمدرسة السلطان حسن — حطم بمن معه من الجند فملك باب السلسلة ، وسلم المدرج ، من غير مانع ، ولم يفد تحصين الأشرف جان بلاط شيئا ، ولا بناية تلك الأبراج ، ولا تركيب المكحلة الكبيرة التى يقال لها المجنونة . وكان هذا خذلانا من الله تعالى له . وقد قلت فى المعنى مع التضمين :

تحصن خوفا جان بلاط بقلعة
فلم تدافع الأعداء عنه المدافع
وكانت مدافعه كفارغ بندق
خلىّ من المعنى ولكن بفرقع

فلما كانت الكسرة على الأشرف جان بلاط ، وقع النهب بالقلعة فى الحواصل السلطانية ، فنهبوا أشياء كثيرة من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، مما نقله الأشرف جان بلاط الى القلعة ، من أغنام وأبقار وبقسماط وسكر واحتياج المطبخ وغير ذلك .

ثم انه فى ذلك اليوم رسم العادل بالافراج عن القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، وكان الأشرف جان بلاط سجنه بالعرقانة وقرر عليه مالا له صورة ، وأقام بالعرقانة مدة طويلة فأفرج عنه ونزل الى داره فى ذلك اليوم فلما حصلت هذه النصرة من غير قتال مهول ، ركب العادل طومان باى من بيت تانى بك قرا ، وعلى رأسه الصنجق السلطانى ، وصعد الى باب السلسلة من غير مانع وملكه ، وكان من أمر سلطنته ما سيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفى أثناء ذلك اليوم قبض على الأشرف جان بلاط ، قيل وجد فى مكان مهجور بدور الحريم ، فأمسك من هناك . فلما قبضوا عليه أدخلوه الى قاعة البحرة ، وقيدوه بقيد ثقيل ، ووكلوا به جماعة من الخاصكية ، وفيهم شخص من مماليك أقبردى الدوادار ، فحصل للأشرف جان بلاط منه غاية الضرر والبهدلة وما لا خير فيه . فكان كما يقال فى أمثال « الصادح والباغم » :

عند تمام المرء يبدو نقصه
وربما ضر الحريص حرصه

ومنها :

كم عشت فى لذة عيش وهنا
فاصبر الآن لهذى المحنا

ثم نقل الأشرف جان بلاط من البحرة الى المبيت الذى بجوار المقعد الذى بالحوش ، فأقام نحوا من ثمانية عشر يوما . وقيل كان تأخير الأشرف جان بلاط هذه المدة لأجل أن يورد ما قرره عليه العادل من المال .

فلما كان يوم الاثنين خامس رجب توجهوا بالأشرف جان بلاط الى السجن بثغر الاسكندرية ، فنزلوا به من باب الدرفيل وقت الظهر ، وهو مقيد ، وخلفه أوجاقى بخنجر ، فتوجهوا به من

جهة المجراة الى البحر ، فنزلوا به فى الحراقة وساروا الى الاسكندرية . وكان المتسفر عليه الأمير أنس باى أحد المقدمين ، والأمير قان بردى أحد الأمراء العشراوات ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجهوا به الى الاسكندرية ورجعوا .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ستة أشهر وثمانية عشر يوما . وكان فى هذه المدة فى غاية الضنك مع الأمير طومان باى . وآخر الأمر وثب عليه وخلعه من السلطنة ، وحاصره وهو بالقلعة نحوا من سبعة أيام ... فانه دخل الى القاهرة يوم السبت حادى عشر هذا الشهر ، وهو جمادى الآخرة ، وملك القلعة يوم السبت ثامن عشره . وتعب فى تحصين القلعة ، ونقل اليها أشياء كثيرة من كل صنف كما تقدم ، وظن أن حصار القلعة يطول فما أفاده ذلك شيئا .

وكان الأشرف جان بلاط أرشل غليظ القلب ، قليل الحظ ، عسوفا ظالما ، حصل منه فى مدة سلطنته للناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال . ولو أقام فى السلطنة لحصل للناس منه غاية المشقة من الظلم والأذى ... فعجل الله تعالى به . ومن مساويه ما وقع له مع أقبردى الدوادار ، فانه كان من أعز أصحابه ، وقيل ضبط ما وهبه له أقبردى ، فكان ينيف عن خمسين ألف دينار ، ثم بعد هذا الاحسان انقلب عليه كأنه لم يعرفه . وكانت صفته أبيض اللون ، طويل القامة ، مستدير الوجه ، أسود اللحية ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى الملك وله من العمر نحو من أربعين سنة . وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى تسلطن ، وأقام هذه المدة اليسيرة ، وآل أمره الى أن خنق وهو مسجون بالبرج ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

الملك العادل

هو الملك العادل طومان باى ابن قانصوه ، أبو النصر الأشرفى قايتباى . وهو الخامس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد ، وهو التاسع عشر من ملوك الچراكسة وأولادهم بالديار المصرية ، وكان أصله چركسى الجنس ، اشتراه قانصوه اليحياوى نائب الشام ، وقدمه مع جملة المماليك الى الأشرف قايتباى ، فأقام بالطبقة مدة طويلة ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية جمدارا ، ثم بقى خاصكيا خازندار كيس فى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم قرره فى نيابة الاسكندرية فى سنة اثنتين وتسعمائة ، وتوجه اليها وأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر ، ثم بقى مقدم ألف دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر قانصوه ، ثم بقى أمير سلاح ، ودوادارا كبيرا ، واستادارا ، ووزيرا ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة فى دولة الأشرف جان بلاط .

ثم سافر لما عصى قصروه نائب الشام فتسلطن هناك ، وعاد سلطانا كما تقدم . فلما دخل الى القاهرة وصحبته قصروه وبقية النواب ، قام قصروه بنصرته قياما حافلا ، وصار ينفق على حفر الخنادق ، ويشيل التراب بالقفة على رأسه وكتفه ، هو ومماليكه مع الفعلاء ، ونصب المكاحل على مدرسة السلطان حسن ، ووقف الرماة بالبندق الرصاص ، واستمر يحاصر القلعة سبعة أيام .

فلما كان يوم السبت عشر هذا الشهر انكسر الأشرف جان بلاط ، فحطم العادل وملك باب

السلسلة من غير مانع . فلما استقر بباب السلسلة قبض على قاضى القضاة الشافعى محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، ووكل به جماعة من الأوجاقية ، وقرر عليه مالا له صورة ، فنزلوا به وهو ماش على أقدامه ، وحوله أوجاقية ورسل قابضون عليه من أكمامه ، فشقوا به من الصليبة ، وهو على هذه الهيئة ، فسبه العوام وكادوا أن يرجموه ، حتى حماه بعض الأتراك . واستمر على ذلك حتى أتوا به الى بيت على بن أبى الجود البزدار — وكان ساكنا فى ربع الأشرف برسباى الذى بالصليبة — فأقام هناك فى الترسيم حتى يورد المال الذى قرر عليه ، وكان قد بلغ العادل ما رتبه من الأقسام المغلظة التى حلفها الأشرف جان بلاط للعسكر ، لما بلغ ابن النقيب سلطنة العادل بدمشق ، فانتقم منه العادل بسبب ذلك ، وعزله عن القضاء ، فكانت مدته فى هذه الولاية ثلاثة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وسيعود الى القضاء ثانيا عن قريب . وقد قلت فى ذلك :

ولوك أشرف منصب يا قاضيا
لكن ان عدل الزمان ستنسخ
طبخوا بنار العزل قلبك بعد ذا
وكذا القلوب على المناصب تطبخ

ثم ان الملك العادل طلب قاضى القضاة زين الدين زكريا ، فلما توجهوا اليه امتنع من الحضور واعتذر بأنه متوعك فى جسده ، فلا زالوا به حتى أركبوه وطلعوا به الى القلعة ، فخلع عليه العادل وأعادة الى القضاء عوضا عن ابن النقيب بحكم عزله كما تقدم . ثم حضر قاضى قضاة الحنفية ابن الكركى ، وقاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، وقاضى قضاة الحنابلة الشهاب الشيشينى . ثم حضر أمير المؤمنين أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب . فلما تكامل المجلس عملوا صورة شرعية فى خلع الأشرف جان بلاط ، وولاية العادل طومان باى . فخلع جان بلاط من السلطنة . وبايع الخليفة طومان باى بالسلطنة ، وجدد له مبايعة ثانية ، زيادة على ما بيده من مبايعته بالشام . واستمر على لقبه بالعادل الذى تلقب به بالشام . وكان أولا تلقب بالملك المؤيد وهو بالشام ، ثم تحول لقبه الى الملك العادل . فلما انكسر الأشرف جان بلاط ، كما تقدم ، وطلع العادل الى القلعة ، لم يجلس بالمقعد الذى بباب السلسلة ، بل طلع الى القصر الكبير وجلس به ، وحضر الخليفة العباسى والقضاة الأربعة ووقعت مبايعته هناك ، وأفيض عليه شعار الملك . واجتمع عليه هناك الأمراء والعسكر وأرباب الدولة قاطبة ، واستمر على ذلك حتى جلس على سرير الملك ورفع الزردكاش القبة والطير على رأسه ، وكان قانى بك الجمالى أمير كبير مختفيا . وقبل له الأمراء الأرض قاطبة ، ثم خلع على الخليفة العباسى — وكان ساكنا بالقلعة — ثم قرر قصروه فى الأتابكية عوضا عن قانى بك الجمالى بحكم اختفائه ، فخلع عليه فى ذلك اليوم الفوقانى الذى كان الأشرف جان بلاط صنعه له عند توجهه الى دمشق ، وكان فوقانى حرير أزرق ، بوجه مخمل أخضر ، بطرز يلبغاوى عريض ، طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ونصف ، قيل فيه من الذهب ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل مثله قط . ثم قام العادل لقصروه وقبل رأسه ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، فتوجه الى الأزبكية بدار الأتابكى أزبك . وكان هذا كله عين الخداع من العادل فى حق قصروه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . فكان كما يقال فى المعنى :

اذا رأيت ثنايا الليث كاشرة
فلا تظن بأن الليث يبتسم

ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى

القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء . وكان محببا للناس ، ولا سيما العوام ، فزينت له القاهرة سبعة أيام متوالية . وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وصار كل أحد فى فرح بسلطنته ، وانفرجت تلك الفتنة عن الناس عن قريب ، وكان يظن كل أحد أن أمر الفتنة يطول ويتسع ، فآل الأمر الى خير بخمود الفتنة عن قريب . فكان كما يقال :

ملك نداه المبتدا
للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه
حكم القضاء والقدر

فلما تم أمره فى السلطنة كان أول شىء صدر منه من الأفعال الشنيعة ، أنه قبض على خوند أصل باى أم الناصر ، وزوجة الأشرف جان بلاط ، وأخت الظاهر قانصوه ، فوكل بها عشرة من الخدام ، وقرر عليها نحوا من خمسين ألف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ، فباعت أشياء كثيرة من قماشها وأخذت فى أسباب وزن ما قرر عليها من المال . ثم انه عزل برهان الدين ابن الكركى عن قضاء الحنفية ، وقرر بها الشيخ سرى الدين عبد البر ابن الشحنة ، وهذه أول ولايته لقضاء الحنفية .

وفيه قرر قرقماس المقرى فى الحسبة ، فلما قرر بها قبض على محمد الباسطى الذى كان متكلما فى الحسبة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى . فلما قبض عليه ضربه بالمقارع فى يوم شديد البرد ، وأشهره فى القاهرة على جمل ، فما أطاق ذلك ومات عن قريب . وكان من الظلمة الكبار .

وفيه خلع على أسنباى الأصم وقرره فى الحجوبية الثانية ، وقرر نوروز أخا يشبك الدوادار فى رأس النوبة الثانية ، وقرر طومان الأشرفى فى الأميراخورية الثانية ، وقرر القاضى عبد القادر القصروى فى نظر الجيش ، وصرف عنها الشهابى أحمد ابن ناظر الخاص .

وفيه رسم السلطان برم ما فسد من حيطان مدرسة السلطان حسن فى مدة محاصرة القلعة ، فرمّ ذلك جميعه .

وفيه توفى الشرفى يونس بن محمد أينبك أحد الزردكاشية ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ليلة الخميس مستهل رجب ، جرى من الحوادث الغريبة أن الأتابكى قصروه طلع الى القلعة ليبيت عند السلطان ... وكان يبيت بالقلعة ليلة الاثنين وليلة الخميس فى تلك الأيام . فلما طلع على جارى العادة وأكل السماط ، وجلسوا ساعة يتحدثون ، قال له السلطان : « قلبى خائف منك يا أمير كبير » . فلما صلى العشاء مع السلطان أمر بعض الخاصكية بالقبض عليه ، فأقاموه من مجلس السلطان ، وتوجهوا به الى المكان الذى أنشأه الظاهر قانصوه بجوار الدهيشة ، فأقام هناك أياما ثم أمر بخنقه فخنق تحت الليل ، وغسل وكفن ، وأنزلوه من باب الدرفيل ، فدفن فى تربة الصاحب خشقدم الزمام التى بالقرب من حوش العرب .

وكان قصروه أميرا جليلا رئيسا حشما مهيبا مبجلا ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية منها نيابة حلب ، ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر . وكان فى أيام العادل له الأمر والنهى فى الموكب . واذا نزل من القلعة يتوجه معه الأمراء الى الأزبكية ، وجميع قراء البلد والوعاظ . وعزم على سائر الأمراء فى ليلة ، وعمل أسمطة حافلة جدا ، وحضر عنده جميع الأمراء أكابرهم وأصاغرهم وباتوا عنده ، وأنعم فى تلك الليلة على جماعة من الأمراء بخيول ومال ، حتى استمال

قلوبهم . وكان يوصف بالكرم الزائد مع الشجاعة ، فوعد العسكر بكل جميل ، فمالوا اليه ، وعولوا فى السلطنة عليه ... فلما بلغ العادل ذلك المجلس استغنم الفرصة ، وبادر بالقبض عليه ، وخنقه تحت الليل ودفنه ، فكان كما قيل فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة
تصير ان لم تنتهزها غصة

وقد قلت فى واقعة قصروه عدة مقاطيع منها :

اعجبوا من أمر قصروه الذى
ملكه بالشام جهلا قد ترك
وأتى مصرا فما نال المنى
ورماه الدهر فى وسط الشرك

وقولى فيه :

كان قصروه قصيرا عمره
خانه الدهر فولى مسرعا
طلبوا التسليم منه فأبى
ثم ما سلم حتى ودعا

وقولى فيه أيضا مضمنا :

لم ينل قصروه ما أمله
من علو فاته فى دهره
رام كيدا لمليك عادل
فرماه كيده فى نحره

ولكن كان العادل باغيا على قصروه ، ووشت بينهما الأعادى بالكلام حتى وقع بينهما وجرى ما جرى من القتل . وكان قصروه سببا لنصرته بالشام وبمصر ، وكان فى الحصار بمصر معه بكل ما يمكن كما تقدم ، وكان يشيل التراب مع الفعلاء على كتفه عند حفر الخنادق وقت محاصرة القلعة عند حضوره من الشام ، وما أبقى ممكنا فى نصرة العادل على جان بلاط ، وآخر الأمر قتله ظلما ، فلم يعش الملك العادل بعده الا أياما قلائل وقتل . قال على كرم الله وجهه : « من سل سيف البغى قتل به » .

وفى الأمثال :

البغى داء ما له دواء
ليس للملك بعده بقاء

وكان بين العادل طومان باى وبين قصروه أيمان غليظة ، وعهود ومواثيق ، وما كان قصروه يظن أن العادل يخون تلك الأيمان والعهود كما قيل :

وحلفت أنك لا تميل مع الهوى
أين اليمين وأين ما عاهدتنى

وكان قصروه عفيفا عن المنكرات ، شجاعا بطلا سخى النفس ، غير أنه كان عنده طيش ، وخفة وسلامة باطن ، ومات وقد قارب الخمسين سنة من العمر ، ووكزه الشيب . فلما مات تأسف عليه الكثير من الناس ، وزال حب طومان باى من قلوب الناس كأنه لم يكن . ولم يستحسن أحد منهم قتله لقصروه الذى كان سببا لنصرته ... فنفرت عنه قلوب الرعية ، وكان هذا على غير القياس . كما يقال :

لا تشكرن امرأ حتى تجربه
ولا تذمنه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تختبره خطا
وذمه بعد شكر محض تكذيب

ويقرب من واقعة قصروه مع العادل طومان باى ، ما وقع لطشتمر حمص أخضر وقطلوبغا الفخرى مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ... فان طشتمر وقطلوبغا الفخرى كانا سببا لنصرته لما حضر من الكرك . فلما تسلطن قبض عليهما ، وقيد طشتمر وقطلوبغا ولم يرع لهما ودا ، ثم أمر بتوسيطهما عند عوده من الكرك ، ولم يكن لهما من الذنب ما أوجب ذلك . وهذه الأفعال ما تصدر الا من جاهل أحمق يعد من جملة

المجانين . وكانت هذه الواقعة فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . وفعل العادل هذه الفعلة مع قصروه بعد ما خدعه وألبسه الأتابكية ، وخلع عليه وعلى الأمراء الذين كانوا معه بالوظائف السنية ، منهم : قيت الرجبى خلع عليه وقرره فى امرية سلاح ، وقانصوه المحمدى البرجى خلع عليه وقرره فى امرية مجلس ، وقانصوه الغورى خلع عليه وقرره فى الدوادارية الكبرى ، وخلع على قانى باى الرماح وقرره فى الأميراخوريه الكبرى ، وخلع على طراباى الشريفى وقرره فى الرأس نوبة الكبرى ، وخلع على طشتمر وقرره حاجب الحجاب وأنعم على جماعة بأمريات تقادم ألوف ، منهم : خضر بك أخو قانصوه البرجى ، أنعم عليه بتقدمة ألف ، وطبلخانات ، وعشراوات ، ووظائف ممن كان فى عصبته .

وفيه قبض السلطان العادل على تخشباى ، الذى كان نائب حماه ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط . وقبض على تمراز جوشن أمير آخور ثانى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء فقرره بحجوبية الحجاب بدمشق ، وخرج من يومه . ثم قبض على جان بردى الغزالى كاشف الشرقية ، وعلى جماعة أخر من الأمراء العشراوات والخاصكية ممن كان من عصبة قصروه .

وفى يوم الخميس ثامن رجب قبض السلطان على الأمير قانصوه البرجى المحمدى أمير مجلس ، وأمر بنفيه الى مكة المشرفة بطالا ، فتوجه من البحر الملح . ثم قبض على قلج نائب الاسكندرية وبعثه الى الشام بطالا . وقبض على جان بلاط الموتر الذى كان محتسبا ونفاه .

وفيه خرج الأشرف جان بلاط منفيا الى ثغر الاسكندرية وهو مقيد كما تقدم .

وفى يوم الجمعة عاشره عقد السلطان طومان باى على خوند فاطمة ابنة العلائى على بن خاص بك زوجة الأشرف قايتباى ، فعقد لها عليه بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة العقد ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على قان بردى اليوسفى بتقدمة ألف ، وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن طراباى الشريفى بحكم انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى .

وفيه عمل الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء ، فخلع على دولات باى المشهور بأخى العادل وقرره فى نيابة الشام ، وقرر أرقماس بن ولى الدين فى نيابة حلب عوضا عن دولات باى ، وخلع على جانم بن قجماس وأقره فى نيابة طرابلس عوضا عن برد بك الطويل ، وخلع على الأمير سنباى نائب سيس وقرره فى نيابة حماه ، وخلع على قانصوه الفاجر وقرره فى نيابة صفد ، وخلع على ملاج الأشرف قايتباى وقرره فى نيابة القدس ، وخلع على قصروه الصغير وقرره فى نيابة البيرة ، وخلع على جانم وقرره فى نيابة طرسوس . فلما خلع عليهم استحثهم فى الخروج بسرعة الى محل ولايتهم ، فخرجوا بغير أطلاب .

وفيه أمر بنفى جماعة من الأمراء العشراوات الى نحو قوص ، منهم جان بردى الغزالى ، وقرقماس قرا ، وقايتباى ، وآخرون من الخاصكية . وقيل انه فقد منهم جماعة .

وفيه ، فى يوم السبت سادس عشريه ، خلع السلطان على جانى بك السيفى أقبردى الدوادار وقرره فى شادية الشراب خاناه ، وقرر طوخ المحمدى فى نيابة القلعة ، وقرر تمرباى أحد خواطه فى الخازندارية الكبرى .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم : طقطباى وماماى جوشن .

وفيه حضر خاير بك أخو قانصوه البرجى ، وكان ممن سجن بقلعة دمشق مع الأمراء المقدم ذكرهم ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف . واستمرت الأتابكية شاغرة من حين قتل قصروه ، فرسم السلطان للأمير طراباى أن يتكلم فى جهات الأتابكية حتى يقرر فيها من يختار .

وفيه عزل السلطان القاضى عبد البر الحنفى ، وأعاد البرهان بن الكركى ، فكانت مدة القاضى عبد البر فى القضاء أياما وعزل عنها . وقد قلت فى ذلك :

ولوك قاضى القضاة لكن
جاءوك بالعزل عن قريب
فمدة الحكم منك كانت
أقصر من جلسة الخطيب

ولما أعيد قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى الى القضاء ، قلت فى ذلك :

بقاضى القضاة استبشرت مصر فرحة
بعودته فى منصب للشرائع
فمذ قيل من أولى بمرتبة القضا
على مذهب النعمان من كل بارع
أشار اليه بالأيادى مليكها
وأوما اليه نيلها بالأصابع

وقد سعى ابن الكركى فى عوده الى القضاء بمال له صورة .

وفيه اختفى شيخنا جلال الدين السيوطى ، وقد طلبه ليفتك به ، وكان بينهما حظ نفس من حين كان السلطان العادل فى الدوادارية الكبرى ، وجرى بينهما أمور شتى يطول شرحها . فلما اختفى قرر السلطان الشيخ يس البلبيسى فى مشيخة الخانقاه البيبرسية عوضا عن الجلال السيوطى بحكم صرفه عنها .

وقد جاءت الأخبار بالقبض على مغلباى زجاج حاجب دمشق ، ونائب قلعتها أيضا . ثم ان السلطان قرر فى حجوبية دمشق برد بك تفاح ، وقرر تمر بن جانم الظاهر فى حجوبية حلب عوضا عن تمراز جوشن ، وكانت حيلة عليه ، فلما خرج أرسل بالقبض عليه ، ومضوا به الى القدس بطالا .

* * *

وفى شعبان المبارك كانت تفرقة السلطان لنفقة البيعة .

وفيه حضر قاصد على دولات وعلى يده مكاتبات للسلطان تتضمن أنه أرسل يشفع فى الأمير أرقماس نائب البيرة ، وكان فر الى ابن عثمان وعاد ، فأقام عند على دولات حتى شفع فيه عند السلطان .

وفيه عول السلطان بالقبض على الأمير خشكلدى البيسقى ، فلما بلغه ذلك فر من داره ، واستمر مختفيا حتى جرى للعادل ما جرى .

وفيه طلع جهاز خوند الخاصكية الى القلعة ، فشق من الصليبة وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين رابع الشهر المذكور جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بقتل الأشرف جان بلاط مخنوقا ، وهو بالبرج بالاسكندرية ، قاتل الله من فعل به ذلك . وكان قد أرسل العادل مرسومه على يد مصرباى الصغير الى نائب الاسكندرية بخنقه وهو فى قيده . وقيل لما أرادوا خنقه أحدث فى ثيابه وصار شخيره كالثور العظيم . فلما مات غسل وكفن وصلى عليه ودفن بمقابر الاسكندرية . ثم نقل بعد موته كما سيأتى الكلام عليه فى موضعه . وكان الأشرف جان بلاط ملكا جليلا وافر العقل ، جميل الهيئة ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها تجارة المماليك ، وتقدمة ألف والدوادارية الكبرى ونيابة حلب ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر ، ثم تولى السلطنة ، وأقام بها ستة أشهر وثمانية عشر

يوما ، وآل أمره الى أن مات مخنوقا بالسجن ، وقاسى شدائد ومحنا ، كما يقال فى الأمثال :

والمرء لا يدرى متى يمتحن
فانه فى دهره مرتهن

ولما مات الأشرف جان بلاط كان له من العمر زيادة على الأربعين سنة . ولما مات على تلك الحالة رثيته بهذه الأبيات :

جان بلاط بدا له ... طالع النحس طرده
نجمه لاح مخبرا ... بعكوس مؤبده
عند ما ظن أنه ... نال بالملك مقصده
جاءه الموت عاجلا ... فى بروج مشيده

وفى يوم الخميس سابعه صعدت خوند الخاصكية زوجة الملك العادل طومان باى الى القلعة . فخرجت من بيتها الذى بقنطرة سنقر ، وهى فى محفة زركش ، ومشى قدامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية ، وهم بالشاش والقماش ، ومشى أيضا قدامها الوالى ، ونقيب الجيش ، وعبد اللطيف الزمام ، وأعيان الأكابر والمباشرين ، منهم : كاتب السر صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلاء الدين ابن الصابونى ، وناظر الخاص ، وبقية المباشرين قاطبة ، وأعيان الطواشية ، منهم : عنبر مقدم المماليك ، وآخرون من الخدام ، وكان معها من نساء الأمراء والأعيان نحو مائتى امرأة .

فلما وصلت الى باب الستارة فرشت لها الشقق الحرير تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام القبة والطير على رأسها حتى جلست بقاعة العواميد ، والنوبة السلطانية عمالة ، وكان يوما بالقلعة مشهودا . واستمر المهم بالقلعة عمالا ثلاثة أيام ، وكان لها موكب حافل لما شقت من الصليبية ، وكان قدامها المجمع السلطانى ، والبقج وطشت وابريق بلور ، ومدورة زركش ... ولم يتفق لاحدى الخوندات قبلها أنها نزلت من القلعة ، وعادت اليها على هذا الوجه ، سوى هذه وخوند أصل باى ، أم الملك الناصر ، ولكن هذه أعظم وأحكم موكبا ، وقلت فى هذه الواقعة أبياتا لطيفة المعنى :

عادت خوند الى سرور تان
مذ زوجت بالعادل السلطان
فى وجهها الاقبال والبشر الذى
يتقاولون به بكل لسان
طلعت كشمس الأفق ضمن محفة
تجلى كحور العين وسط جنان
فى موكب يحكى مواكب قيصر
فاقت على كسرى أنو شروان
لما أتت عند الصعود لقلعة
نثرت عليها الدر كالعقيان
عادت الى الأوطان فى بشر وفى
عز واقبال وصفو زمان
نالت مراتب عزها مذ أقبلت
عاد السرور بمقدم السكان
واستبشرت دار بها سكنت وقد
رقصت بها طربا على العيدان
وتبسمت أزهار أغصان الربا
فرحا بها فى روضة البستان
بحر السماح غدا يراحة كفها
يروى العطاش بمنهل الاحسان
وتجود من فيض الندى بمكارم
فيكون منه شفاء للظمآن
فالله يكفيها مئونة حاسد
ويطيل أياما لها بأمان
ما ماس غصن فى الرياض وكللت
أيدى الغمام شقائق النعمان

وقد عرضت هذه القصيدة على خوند واستحسنتها .

وفيه خلع السلطان على طوخ المحمدى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم اختفائه .

وفيه قرر شمس الدين أبو النصر فى كتابة الخزانة مشاركا لصلاح الدين بن الجيعان .

وفيه قبض السلطان على القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى ووكل به . وخلع على القاضى شهاب الدين أحمد وأعاده الى نظر الجيش عوضا عن القصروى .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير اصطمر بن ولى الدين ، وقصد الاخراق به لكونه صهر البيسقى ، وصار ممقوتا عنده .

***

وفى مستهل رمضان رسم السلطان للخليفة أن ينزل ويسكن بداره ، وكان الملك الأشرف جان بلاط رسم له أن يسكن بالقلعة .

وفى يوم الاثنين خلع السلطان على المقر البدرى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى الحنفى ، وقرره فى كتابة السر بالديار المصرية ، عوضا عن صلاح الدين بن الجيعان بحكم استعفائه منها . وقد تقدم للبدرى محمود أنه ولى قضاء الحنفية بحلب غير ما مرة ، وكان والده القاضى شمس الدين محمد بن أجا الحلبى رئيسا حشما من الأعيان ، وتولى قضاء العسكر فى أيام الأشرف قايتباى . وكان من خواص الأمير يشبك الدوادار ورأى الأوقات الحميدة

وفيه توفى العلائى على بن الصابونى ، ناظر الخاص ، وهو على بن أحمد بن محمد بن سليم البكرى الدمشقى الشافعى . وكان رئيسا حشما وتولى عدة وظائف سنية ، منها قضاء الشافعية بدمشق ، ووكالة بيت المال ، ونظر الخاص بمصر ، ومات وله من العمر خمس وثمانون سنة . فلما مات خلع السلطان على علاء الدين على بن حسن الامام ، وكان من جملة مباشرى الخاص ، وتولى نظارة الطور . وكانت نظارة الخاص تعينت الى ناصر الدين الصفدى ، ثم تحولت الى علاء الدين ابن الامام .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر على العادة .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى قانصوه قرا الذى كان كاشف الشرقية ثم بقى نائب غزة ، وقرره فى نيابة حلب . فاستعظم الناس عليه ذلك ، ولاموا السلطان على هذه الفعلة . فخرج اليه بالتقليد شخص من بعض الدوادارية يقال له أيدكى .

وفيه قرر السلطان فى نيابة غزة على باى السيفى ابن يشبك ، عوضا عن قانصوه الشهير بفرا رجله ، بحكم انتقاله الى نيابة حلب . وقرر بلباى المؤيدى فى دوادارية السلطان بدمشق ، وفى نظارة الجيش بها أيضا ، حتى عد ذلك من النوادر . وقرر قانصوه الجمل فى الأتابكية بدمشق ، عوضا عن قرقماس التنمى بحكم صرفه عنها

وفيه مات فجأة كسباى المغربى الاينالى ، أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه تزايد شر العادل ، وصار يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا منه ، وهم مصر باى ، وطقطباى باى ، وتمر باى ، وكرتباى ، وخشكلدى ، وجماعة آخرون . وصار طراباى ، وأنس باى ، وبيبرس البهلوان ، وقان بردى الغورى ، وأزبك النصراوى ، ووالى الشرطة يطوفون بعد العشاء ومعهم جماعة وافرة من مماليك السلطان ، فيشوشون على الناس ، ويكبسون عليهم البيوت تحت الليل ، ويسبون حريمهم ... فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فما كان عن قريب حتى هرب العادل واختفى ، وصاروا يكبسون عليه البيوت

والحارات ، ويطلبونه أشد الطلب ، وكما يدين الفتى يدان .

وفيه حضرت الى القاهرة زليخا خاتون ابنة خليل بن حسن الطويل ، ملك العراقين ، حضرت تروم الحج ، فأكرمها السلطان ، ورسم لها بعمل برك .

وفيه كان ختم البخاري بالقلعة ، واجتمع القضاة الأربعة ، وأرسل السلطان خلف قانصوه الغوري أمير دوادار كبير ، وقيت الرحبي أمير سلاح — وكان يوما حافلا — فلم يحضر قانصوه الغوري ، ولا قيت الرحبي ، وقد أحسا بما عول عليه السلطان من مسكهما .

وفيه دارت عدة طواشية على الخيل ، وأشيع بالعرض للعسكر ، وأن السلطان يريد القبض على جماعة من الجند والمماليك . فتخيلوا من ذلك ، ولم يطلع أحد منهم الى القلعة ، وقد تغيرت عليه خواطر العسكر قاطبة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من مماليكه وسماهم العادلية

وقد استمر الحال في اضطراب الى يوم الأحد سلخ شهر رمضان ، فلبس العسكر آلة السلاح ، ووثبوا على العادل . وكان القائم بهذه الفتنة قيت الرحبي ومصرباي ... فلما اتسعت الفتنة ظهر جماعة من الأمراء المختفين منهم خشكلدى البيسقي ، وجان بردى الغزالي ، وآخرون من الأمراء ممن كان مختفيا . فلما تحقق العادل أن الركبة عليه ، نزل الى باب السلسلة وعلق الصنجق السلطاني ، ونادى للعسكر أن تطلع الى القلعة ، فلم يطلع اليه أحد من الأمراء ولا من العسكر ، ولم يكن عنده أحد من الأمراء سوى الأمير قان بردى الدوادار الثاني أحد المقدمين — وكان من عصبته ومن خواصه ، وقد أشيع بين الناس أنه سيوليه الأتابكية عوضا عن قصروه — وكان عنده قرقماش المقري المحتسب ، وطراباي رأس نوبة كبير ، وأنس باي وآخرون من الأمراء وبعض مماليك سلطانية ... فجلس في المقعد المطل على الرميلة فلم يطلع اليه أحد من العسكر .

وفي ذلك اليوم وقع قتال هين وجرح الأمير أقبردي في وجهه . فلما كان وقت الغروب من سلخ شهر رمضان نزل الأمير قاني باي الرماح من باب السلسلة ، ومعه ماماي جوشن ، ونزل طراباي وأنس باي . فلما رأى ذلك من كان عند العادل من المماليك السلطانية ، تسحبوا جميعا ، وتمت الكسرة على العادل . فلما دخل الليل قام ونزل من القلعة ، واختفى ، وكانت ليلة عيد الفطر ، فاضطربت الأحوال ، ولا سيما في تلك الليلة ، وقد قلت في المعنى :

في ليلة العيد أتى	سلطاننا كل الضرر
فلم تكن كسرته	الا كلمح بالبصر

وكان سبب هذه الفتنة ، أنه قد أشيع بين الناس في ليلة العيد ، أن السلطان قد عول على مسك جماعة من الأمراء يوم العيد وهم في الجامع . فلما بلغهم ذلك وثبوا عليه تلك الليلة . فلما نزل من القلعة واختفى ، وقع النهب في الاسطبل السلطاني والزردخاناه ، فنهب منها أشياء كثيرة بنحو من ستين ألف دينار على ما قيل . فلما كان يوم العيد لم يصل أحد من الأمراء صلاة العيد ، واشتغل كل أحد بما هو فيه ، ووقع الخلف بين الأمراء فيمن يلي السلطنة ، وكان من الأمر ما سنذكره . فكانت مدة السلطان الملك العادل طومان باي بالديار المصرية ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، خارجا عن سلطنته بدمشق .

وكان ملكا جليلا ، مهيبا مبجلا ، تولى الملك وقد جاوز الأربعين سنة . وكانت صفته :

طويل القامة ، أبيض اللون ، مشربا بحمرة ، مدور الوجه ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، الغالب عليه الشقرة . وكان ممتلىء الجسد جميل الهيئة ، وافر العقل سديد الرأى ... غير أنه كان سفاكا للدماء عسوفا ظالما : قتل الأتابكى قصروه ظلما ، وأرسل بخنق الأشرف جان بلاط وهو بالبرج ، وعول على خنق الظاهر قانصوه أيضا وهو بالبرج ولكن كان فى أجله تأخير ، ونفى جماعة كثيرة من الأمراء والخاصكية والمماليك فى هذه المدة اليسيرة . ولو دام فى السلطنة لوقع منه أمور شتى ، ولكان يقتل غالب الأمراء وثلث العسكر .

وكانت مدة سلطنته كلها شرور وفتن مع قصرها ، وآخر الأمر هرب واختفى ، واستمر مختفيا حتى ظهر وقبض عليه ، وقطعت رأسه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وآل الأمر الى أن خلع من السلطنة ، وتسلطن بعده قانصوه الغورى كما سنذكره فى محله .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى الأشرفى . وهو السادس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد . وقد قلت فى ذلك ابتداء :

أصفى التاريخ حكى بسجعه الشحرورى
فاق التواريخ بما أوردته للغورى

وكان أصله جركسى الجنس من مماليك الأشرف قايتباى وأعتقه فهو من معاتيقه ، ثم أخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى خاصكيا ، ثم قرر فى كشف الوجه القبلى سنة ست وثمانين وثمانمائة بواسطة الأمير قانصوه خمسمائة ، ثم أنعم عليه الأشرف قايتباى بامرة عشرة فى سنة تسع وثمانين وثمانمائة ، وخرج فى بعض التجاريد الى البلاد الحلبية ، ثم قرر فى نيابة طرسوس . ثم انه عاد الى حلب وقرر فى حجوبيتها عوضا عن باكير بن صالح الكردى وذلك فى سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى نائب ملطية بعد حجوبية الحجاب بحلب ... وكل ذلك فى دولة الأشرف الملك الناصر محمد بن قايتباى ، وأنعم عليه بتقدمة ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب فى دولة الملك الظاهر قانصوه خال الملك الناصر ، وذلك فى ثالث ذى القعدة سنة خمس وتسعمائة ، وسافر الى الشام صحبة الأمير طومان باى لما خرج الى محاربة قصروه نائب الشام لما أظهر العصيان على الأشرف جان بلاط . فلما تسلطن طومان باى بالشام ورجع الى القاهرة وهو سلطان ، خلع عليه وقرره فى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية عوضا عن نفسه ، فاستمر على ذلك حتى وثب العسكر على العادل فى سلخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة ، واختفى فى ليلة عيد الفطر بعد العشاء .

فلما أصبح ذلك اليوم ، وأشيع هروب العادل ركب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح ، وقانصوه الغورى أمير دوادار كبير ، وطراباى ، وقانى باى قرا أمير آخور كبير ، ومصر باى ، وأصطمر ، وأنس باى ، وبيبردى الفهلوان ، وطقطباى ، وماماى جوشن ، وخاير بك — أخو قانصوه البرجى — وآخرون من الأمراء المقدمين . ثم ظهر خشكلدى البيسقى ، وكان مختفيا من العادل لما أراد القبض عليه . فلما تكاملوا اجتمعوا ببيت قانصوه خمسمائة الذى بقناطر السباع ، فحضر اليهم الأتابكى تانى بك الجمالى — وكان مختفيا من حين كسر الأشرف جان بلاط وتسلطن العادل — فلما حضر وقع الاتفاق

على سلطنته أولا ، فركب من هناك وعلى رأسه الصنجق السلطانى وقد ترشح أمره الى السلطنة . فلما طلع الى باب السلسلة ليلى السلطنة ، أشيع فى ذلك اليوم أن الأشرف قانصوه خمسمائة باق فى قيد الحياة ، فأشهروا النداء فى القاهرة بأن قانصوه خمسمائة ان كان موجودا فليظهر وله الأمان ، وان لم يظهر بعد ستة أيام فلا أمان له . فلما طال المجلس انفض العسكر من الرميلة ونزل غالب الأمراء الذين كانوا قد اجتمعوا فى الحراقة بباب السلسلة .

وكان يوم عيد الفطر يوم الاثنين ، فاختار كل أحد عوده الى داره حتى يقع اختيار الأمراء على من يولونه السلطنة ، فأعرض غالب العسكر عن الأتابكى تانى بك الجمالى ولم يرض به أحد منهم . وكان الأتابكى تانى بك الجمالى أرشل معكوس الحركات فى أفعاله ، وطاش لما ذكر للسلطنة ، ثم آل أمره بعد ذلك الى كل سوء ، فلم تقم له السلطنة ، وكانت من نصيب قانصوه الغورى كما سيأتى الكلام على ذلك ، فكان كما يقال :

تنافس الناس فى الدنيا وقد عظمت
فصفوها لك ممزوج بتكدير
لم يرزقوها بسعى عند ما قسمت
لكنما رزقوها بالمقادير
لو كان عن طلب بالسعى ندركها
طار البزاة بأرزاق العصافير

فلما رأوا المجلس مانع ، تعصب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح والأمير مصرباى الى قانصوه الغورى وقالوا : « ما نسلطن الا هذا » ، فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى ، وربما كلمه مصرباى ومزق طوق ملوطته وهو يمتنع غاية الامتناع ، فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب وقاضى القضاة عبد الغنى بن تقى المالكى والشهاب الشيشينى الحنبلى ، وتأخر قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا والبرهان الدين بن الكركى الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولونه السلطنة . فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر فى خلع العادل من السلطنة ، وشهد فيه جماعة كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء . ثم حضر القاضى الشافعى والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى وبايعه الخليفة ، وكانت سلطنته فى يوم الاثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، ثم أحضر اليه شعار السلطنة وهى الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك ، كل هذا وهو يمتنع ويبكى ... فلقبوه بالملك الأشرف ، وسما فى علوه وأشرف ، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى ، وبه صارت مصر مشرفة بالنورى ، وقيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ثم قدمت اليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، فتقدم قيت الرجبى وحمل القبة والطير على رأسه وقد ترشح أمره الى الأتابكية ، فركب الخليفة عن يمين السلطان ، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، والباقى للزوال نحو من خمس وعشرين درجة ، وكان الطالع بالسرطان ، فأول من قبل له الأرض قيت الرجبى ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا ، ثم خلع على الخليفة ونزل الى داره ، وخلع على مصرباى وقرره فى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية — عوضا عن نفسه — فنزل الى داره فى موكب حافل .

ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالأدعية الفاخرة ، وزال ما كان من الشكوك والظنون ، وأقرت من

الناس بسلطنته العيون ؛ فكانت سلطنته على غير القياس ، وأشيع بأن بنيانه على غير أساس ، فصار منه بعد ذلك الهزل جدا ، ومكث فى السلطنة مكثا جاوز الحد ، فزال عنه الأضرار والباس ، وامتلأت منه أعين الناس ، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ، ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده .

ومن العجائب أن أرباب الملاحم قالت للعادل طومان باى : « ما يأخذ الملك منك الا حرف القاف » ... فظن أنه « قصروه » ، فقتله ظلما ولم يكن يحسب لقانصوه الغورى حسابا ، فكان كما قال :

الرزق لم يزل للمرء ملتزم
ما المن سمى الا لمن قسم

ومن الحوادث فى يوم سلطنته أن طائفة من المماليك الجلبان توجهوا الى بيت فخر الدين كاتب المماليك الذى فى الأزبكية فاحرقوه ونهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت شمس الدين أبى المنصور مباشر العادل فنهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت قرقماس المقرى المحتسب وبيت آزبك النصرانى والى القاهرة فنهبوا ما فيهما ، ثم توجهوا الى بيت عبد العظيم الصيرفى فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس نقيب الجيش ، وحصل فى ذلك اليوم غاية الاضطراب ولا سيما فى مثل يوم العيد .

ثم ان السلطان خلع على شخص من الأتراك يسمى طومان باى الجلب وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن آزبك النصرانى ، فركب ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمان وأن المماليك تكف عن النهب ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفى ذلك اليوم اختفى جماعة من الأمراء ممن كان من عصبة العادل ، وجانى بك شاد الشراب خاناه ، ومسايد ناظر الجسوالى ، ومصر باى الصغير ، وأزبك النصرانى وآخرين من الأمراء ممن كان من حلفه .

وفى ذلك اليوم ظهر الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكان مختفيا من العادل فى مدة سلطنته ، وكان يقصد الاخراق به فكفاه الله مؤنته ، وذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وبشره بزوال العادل عن قريب .

وفيه كتبت المراسيم السلطانية بحضور الأمير قانصوه المحمدى البرجى ؛ وكتبت المراسيم أيضا بالافراج عن سجنه العادل بقلعة دمشق وهم قرقماس وأزدمر وقانصوه بن اللوقا وسودون الدواداری وآخرون من الأمراء ممن كان سجنهم العادل بقلعة دمشق وقد تقدم ذكرهم

وفى يوم الخميس رابعه عمل السلطان الموكب بالحوش ، وهو أول مواكبه ، فخلع على جماعة من الأمراء خلع العيد ونزلوا من القلعة فى موكب حافل ، وكذلك أرباب الوظائف من المباشرين .

وفى يوم السبت ، السادس من شوال ، خلع السلطان على جان بردى الغزالى وقرره فى الحسبة عوضا عن قرقماس المقرى ، وقرر تانى بك أخو ماماى فى الخازندارية الكبرى عوضا عن تمر باى خازندار العادل ، وخلع على أقباى الطويل وقرره فى شادية الشراب خاناه عوضا عن جانى بك المتسد ، وقرر تمرباى أمير مسوى فى نظر الجوالى ، وقرر مغلباى الشريفى فى الزردكاشية الكبرى عوضا عن تمر الحسنى بحكم انتقاله الى التقدمة .

ثم ان السلطان قبض على الأتابكى تانى بك الجمالى ووكل به بالقلعة وأمره بالخروج الى مكة صحبة الحاج .

وفيه أنعم السلطان على قانصوه الفاجر بتقدمة

ألف ، وكذلك قرقماس التتمى ، وأنعم أيضا على دولات باى قرموط بتقدمة ألف ، وكذلك طقطباى ابن ولى الدين .

وفيه هجم الوالى على بيت قاضى القضاة الحنفى برهان الدين بن الكركى بسبب التفتيش على العادل فلم يجدوه عنده ، فنهبوا بيته وأخذوا منه علبة كان فيها مال الأوقاف الذى كان تحت يده .

وفيه ، فى ثامن عشره ، خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل سودون العجمى أحد المقدمين ، وبالركب الأول دولات باى قرموط ، وخرج صحبته الأتابكى تانى بك الجمالى فرسم له بالاقامة فى مكة فخرج وهو فى التوكيل به ، ورسم السلطان لخاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين بعمل برك ، وحجت فى تلك السنة .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه خلع السلطان على الشيخ سرى الدين عبد البر بن الشحنة وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن برهان الدين بن الكركى بحكم صرفه عن القضاء ، وقد قاسى غاية المشقة بما جرى عليه بسبب اختفاء العادل .

وفيه كثر شر المماليك على السلطان بسبب طلب الأقاطيع والوظائف ، حتى أنه تبرأ من السلطنة وهم بأن يختفى بنفسه حتى يولوا من يختارونه من الأمراء .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بفرار دولات باى نائب الشام ، وقد بلغه ما جرى على العادل وكان من أقاربه ، فخاف على نفسه ، فأخذ بركه وحريمه وخرج من الشام وتوجه الى نحو بلاد ابن عثمان ملك الروم .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء — وكان العادل نفاهم الى دمياط — منهم برد بك المحمدى الاينالى الذى كان الأشرف جان بلاط قرره فى حجوبية الحجاب ، وأرزمك الناشف الذى كان مقدم ألف ، ومامش الرجبى ، وتمر باى الشيخ ، وآخرون من الخاصكية ، وكان عدتهم نحوا من ثمانية عشر نفرا .

وفيه زاد أمر التفتيش على العادل وصار والى القاهرة يركب ومعه حاجب الحجاب والأمير طراباى رأس نوبة النوب ، ومعهم الجم الغفير من المماليك وهم بآلات السلاح ، فيهجمون البيوت والحارات تحت الليل بسبب العادل . وكان العادل يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا منه ، فما عن قريب حتى صاروا يكبسون البيوت والحارات بسببه ... والمجازاة من جنس العمل .

وفيه عرض السلطان مماليك العادل ، وأمر باخراجهم الى جهة الصعيد ، وكان العادل أخرج خرجا من المماليك وسماهم العادلية .

وفيه توفى على باى الظاهرى تمربغا وكان من الأمراء العشرات ، ومات وهو طرخان وكان لا بأس به .

وفى الثانى والعشرين من شوال أحضرت جثة الأشرف جان بلاط من ثغر الاسكندرية ، وقد تقدم أن العادل بعث بخنقه وهو فى البرج فخنق ودفن بالاسكندرية ، ثم وقف مماليك جان بلاط الى السلطان وسألوه فى نقله الى القاهرة فرسم لهم بذلك ، فنقل وهو فى سحلية ، فلما حضرت جثته دفن أولا بتربة الأشرف قايتباى وأقام بها أياما ، ثم تعصبت له مماليكه وقالوا : « ما ندفن أستاذنا الا فى تربته التى بباب النصر » ، فرسم لهم السلطان بذلك ، فنقلوه ودفنوه فى تربته التى بباب النصر . وهذه ثالث نقلة وقعت له ، وكان نقله الى تربته فى ليلة الجمعة سادس عشرين هذا الشهر .

وفيه ، فى تاسع عشرينه ، خلع السلطان على قيت الرجبى وقرره فى الأتابكية عوضا عن قصروه

نائب الشام بحكم موته . وكانت الأتابكية شاغرة من يومئذ حتى قرر بها فيب ، وكان المتكلم فى جهات الأتابكية فى هذه المدة الأمير طرابای رأس نوبة النوب .

وفيه فرر شمس الدين أبو المنصور القبطى فى نظر البيمارستان المنصورى .

وفى أوائل هذا الشهر نوفيت عزيزة بنت السطحى ، وكانت من أعيان مغانى مصر ، فريدة عصرها فى النشيد مع حسن الصوت وفصاحة باعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعدها أحد من النساء المغانى ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية العز والعظمة ما لا رآه غيرها من أرباب هذا الفن ، وماتت وهى فى عشر الثمانين ، وكان لها بمصر شهرة زائدة . ومما قاله فيها الشهاب المنصورى :

وفتاة نزهت طرفى فيها
شنفت مسمعى بجوهر فيها
منذ زارت محبها وتغنت
كاد يرمى بنفسه من أبيها

* * *

وفى ذى القعدة ثار طائفة من المماليك ولبسوا آلة السلاح ، وطلبوا من السلطان نفقة البيعة ، فوعدهم حتى يجمع المال ، فسكن الأمر قليلا .

وفيه اجتمع القضاة الأربعة والخليفة وقرىء عهد السلطان بحضرتهم وكان موكبا حفلا .

وفيه قبض على قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى الحنفى ، ثم توجهوا به الى دار الأتابكى قيت فوكلوا به بالمدرسة الباسطية ، وقد تكلم بعض الناس فى حقه بأن العادل قد أودع عنده مالا فأقام فى الترسيم يوما وليلة ، ثم تكلم بعض الأمراء مع السلطان فى أمره فرسم بالافراج عنه فعاد الى داره ، وكان معه فى التوكيل بدر الدين السعودى نقيبه المعروف بابن الوقاد ، فآل أمره أن طلب منه مال وأخذ منه فيما بعد .

وفى يوم الثلاثاء سابعه خلع على الأمير خشكلدى البيسقى وقرره فى امرية مجلس ، وكان مختفيا من العادل لما أراد القبض عليه .

وفيه تزايد أمر التفتيش على العادل فهجموا بسببه دار سيدى على بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينال فلم يجدوا بها أحدا ، وهجموا زاوية الشيخ أبو شامة التى بالناصرية ، وصاروا يهجمون عليه عدة بيوت وأماكن . وكان العادل فى مدة اختفائه يكتب أوراقا ويرسل يعلقها عند سوق السلاح بالقبو وغير ذلك من الأماكن التى يجتمع بها الأتراك ، ويكتب فيها انه اذا عاد الى السلطنة ينفق على العسكر مائتى دينار لكل واحد منهم وفرس ، وأن الذى وقع منه فى الماضى لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، حضر قانصوه الخازندار ، وكان الظاهر قانصوه خال الناصر أرسله قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة سنة وثلاثة أشهر ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه .

وفيه قبضوا على العادل طومان باى من مكان بالقرب من بيت الأتابكى جرباش كرد الذى عند زاوية الشيخ خلف ، وكان من ملخص أمره أنه لما طال اختفاؤه ، وصارت الأمراء على رءوسهم الطيرة منه ، ولا ينامون فى بيوتهم الا ومماليكهم لابسون آلة السلاح ليلا ونهارا ، فلما تزايد الأمر أخذوا فى أسباب عمل الحيلة على العادل ، فاستمالوا جانى بك الذى كان شاد الشراب خاناه وجانى بك الشامى وكان من أخصاء العادل ، فوعدوا كلا منهما بتقدمة ألف ، وكانا يجتمعان

على العادل فى مدة اختفائه ، فحسنوا للعادل بأن يجيء الى بيت جانى بك الشامى الذى بجوار بيت الأتابكى جرباش كرد ، وكان الأمير مصر باى الدوادار ساكنا فى بيت الظاهر تمر بغا الذى عند سوق القبو خلف بيت الأتابكى جرباش ، فقرروا مع العادل أنه اذا حضر الى بيت جانى بك الشامى يهجمون على مصر باى بعد العشاء وهو جالس فى مقعده ، فيدخلون عليه من باب سر الأتابكى جرباش الذى خلف بيت تمر بغا فيقتلونه تحت الليل على حين غفلة ، فاذا قتل مصر باى يركب العادل من هناك ويحطم باب السلسلة فيملكه ، فانصاع العادل الى هذا الكلام وحضر الى بيت جانى بك الشامى ... وكان هذا عين الخداع ، وصار من تدبيره ، ما عاد فى تدميره . فلما صار عنده فى البيت مد له أسمطة حافلة وبات عنده ، فأرسل جانى بك الشامى أعلم مصر باى بذلك ، فبينما العادل فى أرغد عيش فما شعر الا وقد هجموا عليه وأحاطوا بالمكان الذى به وقد تمت الحيلة عليه ، كما يقال :

لا تركنن الى الخريف فماؤه
مستوخم وهواؤه خطاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها
ومن الصديق على الصديق يخاف

قيل لما هجموا عليه قام وهرب فتسلق من على حائط ورمى بنفسه من أعلى الحائط فوقع على فخذه فانكسر نصفين ، فأدركه شخص من مماليك الأشرف جان بلاط يقال له أرزمك فقطع رأسه ، وصار كل من مماليك جان بلاط وقصروه ، يشتفى منه ويضربه بالسيف حتى هروه ، فلما قطعوا رأسه أحضروها بين يدى مصر باى الدوادار ، فوضعها فى طبق من النحاس ، وأخرجها من بيته والمشاعلية تنادى عليه : « هذا جزاء من يسفك الدمآء ويقتل الأمراء بغير حق » ، فعز ذلك على بعض الأمراء .

فلما عرضت رأسه على السلطان رسم بدفنه وأرسل معه ثوبا بعلبكيا وعشرين دينارا ، فأعادوا رأسه الى جثته ، وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ، ثم توجهوا به الى تربته التى أنشأها بالقرب من المطعم السلطانى فدفن بها ، ولما أرادوا التوجه به أدخلوه من باب زويلة ومعه والى القاهرة وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية وهم لابسون آلة السلاح ، وكان هذا خوفا على العادل من مماليك الأشرف جان بلاط ومماليك قصروه أن يحرقوه وهو فى التابوت ... وكان قصدهم ذلك حقيقة فما قدروا على ذلك . وواقعة العادل طومان باى تقرب من واقعة الأتابكى تمراز الشمسى وقد تقدم ذكر ذلك .

وكان العادل طومان باى ملكا جليلا مهابا ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكان من مبتداه الى منتهاه وهو فى عز وضخامة ، لكنه لما ولى السلطنة ظهر منه أمور فاحشة وأخرق فى سفك الدماء وقتل الأمراء ، ولو دام فى السلطنة كان يظهر منه أمور شنيعة ويقتل غالب الأمراء ، وكان عنده مكر وخداع ... لكنه كان يظهر العدل فى بعض الأمور ، وكان محببا للناس ، ولا سيما طائفة العوام ، وقد تقدم ما أوردناه من أخباره ، وما ولى من الوظائف السنية ، وما وقع منه من الأمور فى تغيير الدول ، وما فعل بالملك الناصر والظاهر قانصوه والأشرف جان بلاط وغير ذلك من الأمراء ، وقد قلت فى ذلك :

العادل السلطان لا تعجب له
فيما جرى منه بتغيير الدول
أعماله ردت عليه بما جنى
والدهر قد جازاه من جنس العمل

وكانت مدة اختفائه من حين تسحب من القلعة ليلة عيد الفطر الى حين قبض عليه اثنين وأربعين يوما ، فلما قبضوا عليه وجدوا شعر رأسه قد طال حتى صار كفروة الغنم ، وكانت الناس فى مدة اختفائه فى جمرة نار من هجم البيوت وكبس الحارات ، وقاسوا غاية المشقة بسبب ذلك حتى ظهر . وكانت واقعته من النوادر الغريبة ، فكانت تقرب واقعته من واقعة الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباى لما اختفى وحصل للناس الضرر بسببه .

قيل لما قتل العادل تخلق بدمه عيال خوند أم الناصر وأظهروا الفرح والسرور فى ذلك اليوم . وكانت معذورة فيما فعلت ، فانه قتل ابنها الناصر ، وسجن أخاها الظاهر قانصوه ، وقتل زوجها الأشرف جان بلاط . وعد قتل العادل من جملة سعد الغورى .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له قرقماس البيسقى تنم نائب الشام وقرره فى نيابة القدس ، وكان أحد الأمراء العشراوات .

* * *

وفى ذى الحجة حضر من كان سجنه العادل من الأمراء بدمشق وهم قرقماس بن ولى الدين ، وأزدمر بن على باى ، وقانصوه بن سلطان جركس الذى كان نائب حماة ، وسودون الدواداری . فلما مثلوا بين يدى السلطان خلع عليهم ووعدهم بكل جميل .

وفيه ظهر تمر باى خازندار العادل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر قرر عليه مال وأقام فى الترسيم حتى يورد ما قرر عليه من المال .

وفى يوم الخميس ثامن ذى الحجة عزل قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى عن القضاء ، وهذا كان آخر عزله وولايته للقضاء ، وقد كف بصره عقيب ذلك . فلما عزل زكريا سعى محيى الدين عبد القادر بن النقيب فى عوده الى القضاء ، وقد أورد مالا له صورة ، فخلع عليه وأعيد الى القضاء عوضا عن زكريا بحكم انفصاله عنها ، وهذه ثانى ولاية وقعت لابن النقيب .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر وقطع أضحية لبعض جماعة من الفقهاء والخدام .

وفيه أنعم السلطان بعدة تقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم قرقماس بن ولى الدين قرره فى امرية السلاح عوضا عن قيت الرجبى بحكم انتقاله الى الأتابكية ، وقرر أصطمر بن ولى الدين فى امرة مجلس عوضا عن خشكلدى البيسقى ، وبقى خشكلدى البيسقى مقدم ألف بغير وظيفة وكان يجلس فوق أصطمر ، وقرر أزدمر بن على باى فى حجوبية الحجاب عوضا عن أصطمر بن ولى الدين بحكم انتقاله الى امرة مجلس ، وأنعم على أرزمك الناشف الذى كان نائب القلعة بتقدمة ألف ، وكذلك قانصوه الخازندار الذى كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكذلك قانصوه الفاجر ، وخشكلدى الذى كان أستادار الصحبة ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم عليه بتقدمة ولم يتم له ذلك من بعده وصار أمير طبلخاناه ، وغير هؤلاء جماعة آخرون .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء العشراوات وكان العادل نفاهم الى دمياط فحضروا جملة واحدة ، وكانوا نحوا من ثمانية أنفار .

ومن الحوادث الشنيعة أن طائفة المماليك وقفوا وقت طلوع الفجر الى القاضى شمس الدين

أبى المنصور مباشر العادل فقتلوه وهو خارج من بيته الذى بالمقس طالع الى القلعة ، فقتله بعض المماليك بخنجر فى بطنه فمات من يومه ولم تنتطح فى ذاك شاتان ، كما وقع لأبى البقا بن الجيعان فى البندقانيين وهو طالع من بيته الى القلعة ، وكان أبو المنصور من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة أيام أقبردى الدوادار ، وباشر عدة جهات سنية فى أيامه ، ثم من بعد أقبردى التجأ الى العادل طومان باى من حين كان دوادارا كبيرا وخرج معه الى الشام فى تجريدة « قصروه » ، فلما عاد وهو سلطان تزايدت عظمة أبى المنصور عنده وجعله متكلما فى الخزائن الشريفة مع صلاح الدين ابن الجيعان ، وكان أصله من بنى الأقباط وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرينه [1] تغير خاطر السلطان على قاضى قضاة الشافعية محيى الدين عبد القادر بن النقيب فعزله عن القضاء ورسم بنفيه الى قوص ، فتوجه اليه نقيب الجيش وأركبه على حمار وتوجه به الى البحر ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفى وقرر عليه مال ، فكانت مدته فى هذه الولاية الثانية ثلاثة عشر يوما لا غير ، فانه أعيد الى القضاء بعد عزل قاضى القضاة زكريا فى يوم الخميس ثامن ذى الحجة ، وعزل عن القضاء فى يوم الثلاثاء حادى عشرين ذى الحجة فهى ثلاثة عشر يوما سوى .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه [1] طلب السلطان الشيخ برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى ، فخلع عليه وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضا عن عبد القادر بن النقيب ، فكان له يوم مشهود لما شق من القاهرة وهو لابس التشريف ، وكان كفؤا للمنصب .

وفيه اضطربت الأحوال وارتج الأمر على السلطان من قبل المماليك بسبب نفقة البيعة ، فشكا السلطان بأن الخزائن خالية من المال ، فان المماليك ثائرة بسبب النفقة وقد كثر العسكر من سائر الطوائف ما بين ظاهرية وأشرفية واينالية وخشقدمية وقايتبايهية وناصرية ومماليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جان بلاط ومماليك العادل طومان باى ومماليك النواب والأمراء الذين قتلوا ممن تقدم ذكرهم ، وقد صار كل أحد منهم يروم له رزقا ، وأن الملك الناصر بن الأشرف قايتباى فرق الأقاطيع التى كانت فى الذخيرة جميعا فمن أين آسد هؤلاء المماليك ؟

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرين ذى الحجة اجتمع الأمراء عند السلطان فى الدهيشة وضربوا مشورة فى ذلك اليوم ، وأقاموا فى القلعة الى بعد العصر ، فلما نزلوا أشيع بين الناس أن السلطان يقصد يخرج أوقاف الجوامع والمدارس ويبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ، وأنه يفرق بلاد الأوقاف بمثالات على الأمراء والمماليك ، فلما بلغ الناس ذلك اضطربت الأحوال وكثرت فى ذلك الأقوال .

سنة سبع وتسعمائة (١٥٠١/١٥٠٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، صعد الخليفة المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب والقضاة الثلاثة — وهم برهان الدين بن أبى شريف الشافعى ، وعبد الغنى بن تقى المالكى ، والشهاب أحمد الشيشينى الحنبلى — وتأخر قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، ولكن طلع فيما بعد ، فلما طلعوا الى القلعة ليهنوا

(١) تامل .

السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى بالعام الجديد تكلم مع القضاة فيما تقدم ذكره فى أمر الأوقاف ، فلم يوافق القاضى الشافعى على ذلك ولا القاضى المالكى ولا الحنبلى ، ثم ان القاضى الحنبلى أغلظ على السلطان فى القول فانحرف منه وقال له : « اذا ركبوا المماليك وطلبوا منى نفقة أنا أبعثهم لك فى بيتك كلمهم مثل ما تعرف » . فانفض المجلس مانعا ونزل القضاة الى دورهم على غير رضا من السلطان ، ثم طلع القاضى الحنفى عبد البر الى السلطان فى أواخر النهار فتكلم معه فى ذلك ، فمشى عبد البر فى غرض السلطان بما يريد ، ثم اجتمع الأمراء عند السلطان فى مجلس ثان وضربوا مشورة فى معنى ذلك . فوقع الاتفاق على أن الأوقاف تبقى على حالها ويؤخذ من ريعها سنة كاملة ، ومن أجرة أملاك القاهرة من بيوت وربوع وحوانيت وحمامات وغيطان ومراكب وغير ذلك يؤخذ منهم أجرة عشرة أشهر كاملة ، حتى من وقف البيمارستان المنصورى وسائر الأوقاف من عال الى دون ، وكتبت المراسيم بمعنى ذلك الى ثغر الاسكندرية ودمياط حتى الى دمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية والحلبية . وكان القائم فى هذه المظلمة الأتابكى قيت الرجبى . وصار الأتابكى قيت الرجبى يرسم على أعيان الناس بسبب ذلك بالمدرسة الباسطية حتى يردوا الأموال ، لا جزاه الله خيرا !

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن كل من كان ناظرا على وقف ، وكل من كان له اقطاع من أجناد الحلقة أو غيرها ، يتوجه الى بيت الأتابكى قيت الرجبى ، وأن أرباب الرزق من النساء والخوندات والستات يتوجهن الى بيت القاضى ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وأن أرباب الأملاك والحوانيت يتوجهون الى بيت الأمير مصرباى الدوادار .

ثم ان السلطان رسم لثمانية من الأمراء المقدمين بأن يتكلم كل واحد منهم على فرع من أبواب هذه المظالم ، فتكلم الأتابكى قيت فى جهات الأوقاف قاطبة واقطاعات الحلقة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وتكلم مصرباى فى جهات الأملاك قاطبة ، فكتبت القوائم بأسماء الأقاطيع والرزق من بيت أولاد الجيعان وطلبت أعيان الناس بالرسل الغلاظ الشداد ، وطلب مصرباى أرباب الأملاك التى هى من الصليبية الى مصر العتيقة الى دير الطين ، وتكلم الأمير قرقماس أمير سلاح على جهات البيوت التى هى داخل بابى زويلة قاطبة ، وتكلم الأمير أزبك المكحل أحد المقدمين فى جهات البيوت التى هى خارج باب الشعرية من جزيرة النيل الى المطرية ، وتكلم قانى باى قرا أمير آخور كبير فى جهات المراكب والسواقى قاطبة ، وتكلم الأمير طقطباى أحد المقدمين على جهات الغيطان قاطبة ، وتكلم طراباى رأس نوبة النوب على جهات مصادرات التجار ومساتير الناس ، وتكلم أنص باى أحد المقدمين هو وأزدمر بن على باى على مصادرات طائفة اليهود والنصارى وقد قرر عليهم نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وتكلم ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال على جهات رزق النساء من الخوندات والأعيان من الستات . ثم قرر السلطان مالا على جماعة من الخدام منهم محسن ومختص وغير ذلك من الخدام ، وأطلق فى الناس جمر نار المصادرات ، وصار كل منهم فى أليم الغمرات .

ان يوم الاثنين رابع المحرم وثب جماعة
ك على السلطان ولبسوا آلة السلاح ،
لك أن السلطان قد أبطأ عليهم بتفرقة
ئة أشهر فوثبوا عليه وطالبوه بالنفقة ،
م : حتى تجبى الأموال ... فلم يرضوا
نادى لهم أن النفقة تكون بعد مجىء
سكن الحال قليلا ، وآل الأمر الى الحث
ه المصادرات فى سرعة استخراج الأموال ،
بيهم نيران الأهوال ، وعملوا فيهم بالباع
، ولم يجدوا لهم من حميم ولا شفيع
ان أصحاب الأملاك ضيقوا على السكان
بأن يعجلوا لهم من أجرة الدكاكين
عشرة أشهر معجلا لأجل هذه الغرامة ،
م بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتعطلت
من البيع والشراء ، وغلقت غالب دكاكين
ووقع الاضطراب للغنى والفقير ، وصار
جمرتين ، ويطلبون فى اليوم الواحد من
ساعة كثيرة من الحكام مرتين ، حتى
ذلك ، وقلت فى المعنى :

ا أملاك مصر والقرى
فى عام سبع مضّنى الاهلاك
ير يا له من حادث
قد ضج منه الأرض والأملاك

ن يوم الجمعة ثامن المحرم تزايد الأمر ،
ض الجوامع ، ومنعوا منها الخطبة فى ذلك
ها جامع الجنيد الذى هو داخل الدرب
رب من قناطر السباع ، وجامع آخر
وق ، وغير ذلك عدة جوامع . فلما
كى قيت الرجبى الى القلعة وصلى
السلطان ونزل ، وقفت له جماعة كثيرة
وشكوا له أن أصحاب الأملاك ضيقوا
ليوهم بعشرة أشهر معجلا بسبب هذه
الغرامة وما لهم قدرة على ذلك ، فلم يلتفت الى
كلامهم ، فلما وصل الى الجامع الصالح الذى تجاه
بابى زويلة فكبروا عليه العوام ورجموه فجاءته
رجمة فى كلوته ، وكان الى جانبه الأمير طراباى
رأس نوبة النوب فجاءته رجمة فى جبهته حتى سال
منه الدم ، فلما عاينوا المماليك ذلك سلوا
أسيافهم ووقعوا فى العوام وجرح منهم جماعة
وقتل فى ذلك اليوم نحو من ثلاثة أنفار ثم ان
الزعر والعبيد نهبوا عدة دكاكين من البسطيين الى
داخل باب زويلة ، واستمر النهب والقتل عمالا
الى قريب المغرب ، ونهب للناس مال له صورة
وبضائع كثيرة ، حتى قيل نهب لشخص حريرى
خمسمائة دينار ذهب عين ، وغير ذلك من شمع
وفاكهة وسكر . فلما تزايد الأمر ركب والى
القاهرة وقبض على جماعة من الزعر والعبيد
ووسط منهم نحوا من أربعة عشر انسانا ، وكادت
القاهرة أن تخرب عن آخرها مما جرى فى هذا
الحادث العظيم .

فلما كان يوم السبت صبيحة ذلك اليوم وقف
جماعة من السوقة من أهل الصليبة الى الأمير
أزدمر بن على باى أحد المقدمين وشكوا له حالهم
وكلموه بلطافة وحشمة عن أمر أجرة العشرة
أشهر ، فلما طلع الى القلعة اجتمع بالسلطان وتكلم
معه فى ذلك ، فاتفق الحال على أن يحط من
العشرة أشهر ثلاثة أشهر وتصير سبعة كما فعل
الأشرف قايتباى . ثم ان السلطان نادى فى القاهرة
للناس بالأمان والاطمان والبيع والشراء وأن
السلطان حط من أجرة البيوت والدكاكين ثلاثة
أشهر وصارت سبعة ، فسكن الحال قليلاً .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشره قبض السلطان على
الأمير مصرباى الدوادار وهو بالقلعة ، وقد وقع
اختيار الأمراء على ذلك . فلما قبضوا عليه أدخلوه

البحرة وقيدوه . وقبضوا فى ذلك اليوم على آخرين من الأمراء العشراوات من غير سبب .

وفى يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير أزدمر بن على باى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن مصرباى بحكم القبض عليه ، وأخلع على الأمير خاير بك أخى قانصوه البرجى ، وقرر فى حجوبية الحجاب، عوضا عن أزدمر بحكم انتقاله الى الدوادارية الكبرى ، وخلع على الأمير طقطباى بن ولى الدين وقرر فى التقدمة والوزارة والأستادارية عوضا عن مصرباى .

وفى أثناء هذا الشهر توفى الأمير قان بردى الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وكان من خواص العادل وترشح أمره بأن يلى وظيفة الأتابكية بعد قصروه ، وما تم ذلك وجرح لما وثبوا على العادل فى رمضان واستمر من ذلك الجرح عليلا حتى مات .

وفيه تقرر جان بلاط الموتر فى الحسبة عوضا عن جان بردى الغزالى بحكم انفصاله عنها .

وفى يوم السبت سادس عشر المحرم أشيعت الأخبار بأن جانى بك الشامى الذى كان من أخصاء العادل وخاير بك كاشف الغربية الشهير باللامى قد تسحبا من البرج الذى بالقلعة وقت الظهر وقتلوا السجان ، وتسحب معهم عدة مماليك كانوا بالبرج ، فلما تسحبوا اختفوا بالقاهرة فاضطربت الأحوال وكثر القيل والقال ، فلما بلغ السلطان ذلك أحضر المصحف العثمانى وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة الخليفة والقضاة الأربعة ، فحلفوا بأنهم لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يركبون عليه .

وفى يوم الاثنين ثامن عشر المحرم الموافق لتاسع مسرى أوفى النيل المبارك ، فلما أوفى لم يجسر الأتابكى قيت بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فتوجه لفتحه مغلباى الشريفى الزردكاش

وكان فى ذلك اليوم تفرقة الجامكية فلم يطلع الى القلعة أحد من العسكر . ثم فى ذلك اليوم لبسوا آلة السلاح وثارت الفتنة مهولة واستمر الأمر على ذلك الى قريب المغرب ، وكان القائم فى هذه الفتنة مماليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جان بلاط ومماليك العادل طومان باى ، فلما ركبوا طلعوا الى الرملة فلم يفد من ركوبهم شيئا ، ونزل اليهم الأمير طراباى رأس نوبة النوب ومعه جماعة من الأمراء ، فلما عاينوهم هربوا من وجوههم وتمت الكسرة على طائفة المماليك الذين وثبوا .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه نادى السلطان فى القاهرة بأن مماليك الظاهر قانصوه والأشرف جانبلاط والعادل طومان باى يخرجون الى جهة الصعيد ويقيمون بها ، وكل من تأخر من بعد المناداة شنق بلا معاودة . وصاروا يكررون هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية ، فصاروا يخرجون الى جهة الصعيد شيئا فشيئا وهم فى غاية الذل .

وفيه خلع السلطان على الأمير بيبردى الفهلوان وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن قان بردى بحكم وفاته .

* * *

وفى صفر — فى أول يوم منه — نزلوا بالأمير مصرباى من القلعة وهو مقيد ، فتوجهوا به الى السجن بثغر الاسكندرية فسجن بها .

وفى يوم الاثنين ثانيه أنفق السلطان على العسكر نفقة البيعة ، وقد صبرهم نحوا من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات ، فأنفق على طبقتين لا غير وصبر الباقين حتى تجمع الأموال ،

ولم يعط لأحد من المماليك مائة دينار كاملة سوى المماليك القايتبايهية فقط .

وفيه قبض السلطان على الأمير عبد اللطيف الزمام وقرر عليه مالا له صورة ، فسلمه الى الأمير طراباى وأقام عنده فى التوكل به حتى يرد ما قرر عليه من المال ، فباع أملاكه وقماشه حتى سد ذلك ، وصودر عنبر مقدم المماليك ونائبه وشاد الحوش وجماعة آخرون من الخدام . وقد عمت هذه المصادرة حتى غلمان الاسطبل السلطانى والأوجاقية والسر آخورية ونقباء القصر والمعاملين والطباخين ، حتى الفراشين والبابية والشربدارية ، وغير ذلك من غلمان السلطان قاطبة ممن له جامكية فى باب السلطان — وكل هذا لأجل النفقة على المماليك — وكانت حادثة عامة على غالب الناس من الأعيان وغيرهم ، وقد وقع الاضطراب فى أوائل سلطنته الى الغاية .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر توفى الأمير بيبردى الفهلوان الذى قرر فى الدوادارية الثانية ، فأقام بها مدة يسيرة ومات . فلما مات خلع السلطان على جانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن بيبردى الفهلوان بحكم وفاته .

وفى سلخ هذا الشهر خلع السلطان على طقطباى العلاى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طوخ المحمدى .

وفيه هجم المنسر تحت الليل على سوق الجملون وسوق الخشبية والوراقين ، ونهبوا منها نحوا من عشرين دكانا ... ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وراحت على التجار أموالهم .

وفيه ضيق بعض الأمراء الذين تولوا جباية الأملاك عن السبعة أشهر ، فأرسلوا الى أصحاب الأملاك مهندسين صحبة خاصكى من قبل السلطان ، فطافوا الحارات وهجموا البيوت وقطعوا أجرة الأملاك ثانيا ولم يرضوا بما أخذه الأشرف قايتباى بمقتضى وصولات معهم عما أوردوه فى مغرم السبعة أشهر كما تقدم ، فكانت النكسة أمر من الضعف ، وأخذوا منهم مظلمة ثانية وشددوا عليهم واستوفوا أجرة ثانية .

وفيه أرسل السلطان قبض على خوند أصل باى أم الملك الناصر ، وطلع بها الى القلعة ، ووكل بها عدة من الطواشية ، وأقامت فى الترسيم مدة أيام وقاست غاية البهدلة ، وقرر عليها مال له صورة فلم تورد منه شيئا وأظهرت العجز ، فرسم السلطان بنفيها الى مكة ، فشفع فيها الأمير قرقماس أمير سلاح والأمير طراباى من النفى ، وأوردت من المال الذى قرر عليها بعض شىء .

وفى هذا الشهر أنفق السلطان على العسكر نفقة البيعة ، فأنفق على طبقتين كالحكم الأول ، فكان مجموع ما أنفقه فى هذه المدة على أربعة طباق لا غير .

وفيه تعطلت الأسواق من البيع والشراء بسبب فلوس جدد ضربها السلطان تخسر فى المعاملة الثلث .

وفيه جاءت الأخبار بقتل كاشف الشرقية ، قتله العرب . فلما قتل خلع السلطان على أقباى وقرره فى كشف الشرقية عوضا عن الذى قتله العرب .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالحوش ، واجتمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، وكان يوما مشهودا ، وهذا كان أول موالد السلطان .

وفيه انتهت زيادة النيل المبارك الى سبعة عشر

أصبعا من عشرين ذراعا واستمر ثابتا الى تصقف بابه .

وفى يوم السبت سابع عشرينه خلع السلطان على موفق الدين بن القمص القبطى وقرره فى التحدث على أوقاف الزمامية نيابة عن عبد اللطيف الزمام .

وفى سلخ هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة المالكى عبد الغنى بن تقى ، وكان عالما فاضلا من ذوى البيوت ، مات وهو فى عشر السبعين ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأمير مصرباى الدوادار قد كسر قيده وهرب من البرج ، وقد قيل ان شخصا من مماليكه يقال له اياس صنع له مبردا من فولاذ وجعله ضمن موكبة شمع وأدخلها لأستاذه وهو فى البرج فبرد به قيده ونزل من أعلى السور ، وأحضر اليه مركبا صغيرا فنزل به وقد ستر الله عليه وتمت حيلته فحضر الى القاهرة فى الخفية ، فلما أشيع هذا الخبر اضطربت أحوال الأمراء وبقى على رءوسهم منه طيرة ، وصار الوالى فى كل يوم وليلة يكبس بسببه البيوت والحارات ، وحصل للناس غاية الضرر .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الخميس ثامنه ، خلع السلطان على العلامة برهان الدين ابراهيم الدميرى ، وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن ابن تقى بحكم وفاته . وقد اشتبه على ولاية قاضى القضاة برهان الدين الدميرى هل كانت فى شهر ربيع الآخر أو فى جمادى الأولى .

وفيه قبض السلطان على جماعة من الأمراء ، منهم قانصوه الفاجر أحد الأمراء الطبلخانات ، وتانى بك الأبح ، واسنباى الأصم ، وآخرون من الأمراء . فأرسل قانصوه الفاجر الى السجن بثغر الاسكندرية ، ثم ان الأتابكى قيت شفع فى تانى بك الأبح وأسنباى الأصم .

وفيه خلع السلطان على الأمير علان بن قراجا ، وقرره فى ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن طومان باى الجلب ، وخلع على تانى بك الخازندار وقرر فى الحسبة على شخص يسمى محمد بن يوسف ، وكان جابى أوقاف الجامع المؤيدى ، فقرره فى نظر الأوقاف كما كان محمد بن العظمة ، فحصل للناس منه غاية الضرر ، وصار يشوش على أعيان الناس ويبهدلهم ، وصار يعضده شخص من الأمراء العشراوات حتى لا يحتمى عليه أحد من الناس ، فوقع منه أمور مهولة فى حق الناس ، فكان كما يقال :

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا
من قبله فتمنى فسحة الأجل

وفيه وثب العسكر وليس آلة السلاح ، ولم يكن لهذه الركبة سبب ، فأسفرت القضية على أن هذه حيلة على الأمير مصرباى حتى يظهر ان كان هو مختفيا بمصر فيظهر . فلما علم أنها حيلة عليه لم يظهر ، فخمدت تلك الفتنة فى أواخر النهار عن غير طائل .

وفيه طلع مجد الدين بن كراوية ناظر الدولة ، وشكا الى السلطان انشحات الديوان وعدم وجود اللحم ، فوكل السلطان به بالقلعة ، وأقام نحوا من اثنى عشر يوما وطباق المماليك معطلة من اللحوم ، فضج العسكر . من ذلك ثم ان السلطان رسم بقطع لحوم أولاد الناس والمباشرين والفقهاء وغير

ذلك من الناس قاطبة حتى رواتب الخوندات ، وألا يصرف سوى للمماليك فقط ... فما عن قريب حتى وصل الأمير طقطباى بن ولى الدين وزير الديار المصرية — وكان مسافرا الى جهة الصعيد — فأحضر صحبته اثنى عشر ألف رأس من الغنم ، فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفيه خلع السلطان على ناصر الدين الصفدى ، وقرره فى نظارة الخاص ، عوضا عن علاء الدين ابن الامام بحكم صرفه عنها ، فجمع الصفدى بين وكالة بيت المال ونظارة الخاص كما كان ابن الصابونى .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن الأمير مصرباى وبقية الأمراء المختفيين يظهرون وعليهم أمان الله تعالى ، فلم يظهر سوى جان بردى الغزالى . فلما ظهر خلع عليه السلطان وقرره فى حجوبية الحجاب بحلب فخرج عن قريب .

* * *

وفى جمادى الآخرة دخل الأتابكى قبت الى القاهرة — وكان توجه الى نحو العباسة على سبيل التنزه — فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه أفرج السلطان عن القاضى فخر الدين بن العفيفه كاتب المماليك — وكان له مدة وهو فى الترسيم — فقرر عليه مالا وأطلقه ، وكذلك الصيارفه .

وفيه قبض السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له ألماس ، فضربه ضربا مبرحا ، وضرب معه شخصا آخر يسمى جانى بك الأشرفى جان بلاط ، فمات تحت الضرب فوق الخمسمائة عصاة ، ورماه فى البرج . وكان سبب ذلك قد أشيع عنه أنه يرمى الفتن بين الأمراء فصار يضربه غير ما مرة .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل الشام قد رجموا النائب وأخرجوه من البلد . وكان سبب ذلك أن السلطان لما جبى أملاك مصر والقاهرة بسبب السبعة أشهر التى رسم بها فأرسل مراسيم الى نائب الشام يأخذ أجرة سبعة أشهر من أملاك أهل الشام ، فجار على أهل الشام بسبب ذلك ، فما طاقوا هذا الحال فرجموه حتى أخرجوه من البلد ، وكادت دمشق أن تخرب عن آخرها فى هذه الحركة .

* * *

وفى رجب كانت وفاة الأمير أقباى الطويل شاد الشراب خاناه ، فنزل السلطان وصلى عليه وكانت له جنازة حافلة .

وفيه طلع الى السلطان شخص يقال له صلاح الدين بن الجنيد ، وكان أصله رسولا عند ناظر الخاص علاء الدين بن الصابونى ، فلما طلع الى السلطان اجتمع به وعرض عليه قوائم فيها أسماء جماعة من أعيان التجار ومساتير الناس ، حتى من أعيان النساء المساتير من الخوندات والستات ، وقرر أنه يأخذ على كل رأس من عبد وجارية دينارا ، ثم قال للسلطان : « ألبسنى خلعة وأنا أضمن لك مائتى ألف دينار من غير ضرر ولا أشلة » . فانصاع السلطان الى كلامه ، وأراد أن يلبسه خلعة . فلما بلغ الأمراء ذلك شق عليهم ، وكادت أن تثور فتنة بسبب ذلك ، فاستدرك السلطان فارطه وأحضر ذلك الرجل المرافع وضربه بالمقارع وأمر بقطع لسانه وأشهره فى القاهرة على جمل وهو عريان . فلما شق المدينة كادت العوام أن ترجمه أو تحرقه ، ثم توجهوا به الى المقشرة فسجن بها ، وعد ذلك من النوادر . وكان ضربه

بالحوش بين يدى الأمراء حتى أرضاهم بذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على ولده المقر الناصرى محمد وقرره فى شادية الشراب خاناه عوضا عن أقباى الطويل بحكم وفاته ، وكان ابن السلطان حديث السن وقد قامت الأمراء على السلطان حتى قرره فى شادية الشراب خاناه ، وكان القائم فى ذلك الأتابكى قيت الرجبى والسلطان يمتنع .

ومن الحوادث أن السلطان عين شخصا من الخاصكية يقال له نانق الخازن بأن يتوجه الى جهة البلاد الشرقية والغربية ليستوفى على المقطعين ما كانوا أوردوه من الخراج عن السنة التى أفردها السلطان على المقطعين . فلما توجه نانق المذكور الى هناك ضيق على الفلاحين وفحص عن أصل خراج كل حصة وما تعمل فى كل سنة من الخراج ، فصارت المقطعون فى وجل بسبب ذلك ، ورحل غالب الفلاحين وقد طالبهم ببقية الخراج زيادة عما أورده المقطعون فى بيت الأتابكى قيت الرجبى ، فأرسل الفلاحون يطلبون من المقطعين الرجعات بما أوردوه ببيت الأتابكى قيت ، فغرم الفلاحون لنانق المذكور جملة من المال حتى حل عنهم . وقد ضاع خراج تلك السنة أيضا على المقطعين بين الفلاحين وبين نانق المذكور ، ثم آل أمر هذه الحركة الى السكون . وقد تقدم ما وقع لأصحاب الأملاك ما يقرب من ذلك وغرموا مغرما ثانيا كما تقدم ، وقد ضاق الأمر على الناس جدا .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وقد نقش عليها هيئة شباك ، فوقف أمر الفلوس التى كانت قبل ذلك وصارت السوقة لا تأخذ الا الفلوس التى منقوش عليها الشباك ، فوقف حال الناس وصارت البضائع تباع بسعرين : بسعر من الفلوس الجدد ، وسعر بالفلوس العتق . وفوق هذا كله ما قرره المحتسب على السوقة من مال يردونه فى كل شهر . وقد أحال السلطان بما تقرر على الحسبة لبعض الأمراء المقدمين وبعض أمراء عشراوات عوضا عن الأقاطيع ، وكان ما قرر على الحسبة فى كل شهر فوق الألفى دينار وقيل أكثر من ذلك ، وصارت مقررة على سائر السوقة والطحانين وغير ذلك ، ومن يومئذ تحسنت البضائع فى الأثمان بموجب المشاهرة التى تقررت على السوقة .



وفى يوم الخميس تاسع شعبان عرض السلطان أولاد الناس أصحاب الجوامك والأيتام من نساء ورجال ، فلما عرضهم قطع عدة جوامك ممن له أشرفى أو مائتان فأضر ذلك بحال الأيتام من نساء وصغار ، ثم قطع عدة جوامك لجماعة كثيرة من أعيان أولاد الناس والمباشرين ووبخهم بالكلام ، وقطع جوامك جماعة من الأوجاقية ونقباء القصر والسرآخورية وغلمان الاسطبل السلطانى ، وسائر من له جامكية فى باب السلطان من الفقهاء والمتعممين حتى جماعة من الخوندات والستات ، فجماعة أبقى لهم النصف من جوامكهم وشىء قطع أهم الجوامك كلها وصار بالقسم والنصيب ، وكان القائم فى هذه المظلمة أيضا الأتابكى قيت الرجبى لا جزاه الله خيرا ، فحصل للناس فى ذلك اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة بغير طائل ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا طالب الرزق مهلا ، فلا بسعيك تطمع
وثق برب كريم فالله يعطى ويمنع

وفيه عين السلطان الأمير قانصوه بن سلطان جركس بأن يتوجه الى الشرقية كاشفا ، فلما توجه الى هناك لم يقابله من العربان أحد وازدادوا عصيانا فوق عصيانهم ، وسموه « هات لبن » ،

فأقام بالشرقية نحوا من أربعين يوما ورجع من غير طائل .

وفيه أكمل السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد طاول العسكر هذه المدة الطويلة واعتذر عن ذلك حتى جمع الأموال ثم أكمل لهم النفقة بعد ذلك .

وفى أواخر هذا الشهر توفى القاضى زين الدين سالم صاحب ديوان الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة فى أيام الأتابكى أزبك ، وكان فى سعة من المال وله ثروة زائدة وكان لا بأس به ، ومات وقد جاوز السبعين سنة من العمر .

وفيه توجه الأمير طقطباى وزير الديار المصرية الى جهة الصعيد لجمع المغل ، فصلى الجمعة مع السلطان ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأمراء المقدمون ، وكان له يوم مشهود .

* * *

وفى رمضان ، فى يوم مستهله ، نادى السلطان فى القاهرة بأن أولاد الناس والأيتام من النساء والصغار يطلعون الى القلعة ، وأشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يرد جوامك الأيتام التى قطعت — وكان قصده ذلك حقيقا — فلما طلعوا الى القلعة لم يمكنه الأتابكى قيت من ذلك ، فرد فى ذلك اليوم لبعض جماعة من المماليك ، ونزل البقية خايبين من غير طائل ، كما قيل :

سل الله ربك من فضله
اذا عرضت حاجة مقلقه
ولا تسأل الترك فى حاجة
فأعينهم أعين ضيقه

ومن الحوادث أن فى ليلة الاثنين ثانى عشر شهر رمضان طلع الأمراء الى القلعة ليفطروا مع السلطان على العادة ، فلما فطروا ونزلوا من القلعة ووصلوا الى رأس الصوة واذا بطائفة من المماليك نحو من اثنى عشر مملوكا قد أحاطوا بهم ، فأسفرت هذه الواقعة بأن الأمير مصرباى الدوادار ظهر والتفت عليه طائفة من أخمل المماليك فقصد أن يقطع الطريق على الأمراء وهم نازلون من القلعة ، فوقفوا لهم عند باب السلسلة . فلما نزلوا من القلعة خرج عليهم مصر باى بمن معه من تلك المماليك اليسيرة ، فرموا على الأمراء بالنشاب ، فجرح الأمير طراباى والأمير تمر الزردكاش ، لكنه جرح خفيف فما تأثروا له ، ولكن قتل فى تلك الليلة شخص بالرملة من المماليك يقال له جانى بك ، قيل انه قرابة الأمير طراباى . وكان قصد مصرباى قتل أزدمر الدوادار وقيت الرجبى وبقية الأمراء فما قدر على ذلك وانكشف رخه وافتضح ، وكانت هذه غاية الخفة من مصرباى ، فلما جرى ذلك اضطربت الأحوال تلك الليلة ولبس العسكر آلة السلاح وباتوا على وجل ، فوقف مصرباى بالرملة ساعة فلم يحضر عنده أحد من العسكر ، فنزل من الرملة بغير طائل ، ثم رجع الأمير أزدمر الى القلعة وبات بها عند السلطان تلك الليلة ونزل الأتابكى قيت الى داره ، وقد أشيع أن السلطان كان مع مصرباى فى الباطن ، ولم يكن لهذا الكلام صحة . فلما رجع مصرباى من الرملة دار على الأمراء تحت الليل فلم يطاوعه أحد على الركوب معه ، فعند ذلك توجه الى الأزبكية وبات بها وانتظر أحدا يأتيه من المماليك السلطانية فلم يجىء أحد له . فلما طلع النهار اجتمع عنده بالأزبكية نحو من عشرين مملوكا أو دون ذلك ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليه طائفة من المماليك صحبة الأمير علان والى القاهرة فحاربوه هناك ، فلم يكن الا

ساعة يسيرة وقد كسر الأمير مصرباى وقتل بالأزبكية شر قتلة ، فحمله بعض المماليك قدامه على الفرس وهو ميت وطلع به الى القلعة . فلما عاينه السلطان أمر بدفنه ، فغسل وكفن وصلى عليه ودفن ، وكانت واقعته من أبشع الوقائع وأنحسها ، وقد خطر بباله أنه يقتل الأمراء ويملك القلعة بهذه الطائفة اليسيرة التى معه من المماليك وهى دون عشرين مملوكا ، وكان هذا غاية الخفة منه ، مع أنه كان من ذوى العقول وعنده ثبات جنان ، وكان دينا خيرا . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى ولى الدوادارية الكبرى بمصر فى دولة الغورى ، ثم قبض عليه وسجن بثغر الاسكندرية ، ثم تسحب من البرج الذى كان به مسجونا وجرى بسببه على الناس ما لا خير فيه من كبس بيوت وحارات وغير ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك بالرملة كما تقدم فلم يطب طبه ، وكانت الأمراء على رءوسهم طيرة منه ، فلما توجه الى الأزبكية وبات بها وأصبح فجمع صغار باب اللوق ، ودق له هناك طبلخاناه ، وكانت طبلخانة فشار ، وآخر الأمر كسر وقتل فى يومه ، كما تقدم ذكر ذلك ، فكان كما يقال :

ما تبلغ الأعداء من جاهل
ما يبلغ الجاهل من نفسه

وكان الأمير مصرباى سببا لقتل الملك العادل طومان باى ، وقد عمل عليه حيلة حتى ركن اليه ثم غدره حتى قتل ، ووضع رأسه فى طبق وأشهره بالرملة والمشاعلية تنادى عليه ، وأفحش فى حقه الى الغاية ... فما عن قريب حتى أخذ مصرباى وجرى عليه شدائد ومحن ، وافتضح وهو طالع الى القلعة ميت على فرس وخلفه من يحضنه والناس ينظرون اليه ، وهذا غا[ية] والمجازاة من جنس العمل ، كما يقال :

اذا ما الدهر جر على أناس
كلاكله أناخ بآخرين
فقل للشامتين بنا مهيلا
ستلقوا عن قريب ما لقين[ا] (1)

وكان فى هذه الواقعة عبرة لمن اعتبر[،] قتل مصرباى خمدت تلك الفتنة ، و[من] جملة سعد السلطان .

ثم فى يوم السبت سابع عشر رمض[ان] السلطان مماليك أقبردى الدوادار و[...] جماعة منهم الى البلاد الشامية ، فنفى ثمانين مملوكا فأخرجهم وهم فى زناجير وقد أشيع عنهم بالركوب مع مصرباى ذنب كبير .

* * *

وفى شوال لم تثبت رؤية الهلال [...] العشاء ، وكان العيد بالجمعة ، فحصـ[ل] تلك الليلة توعك فى جسده فلم يصل [...] واحتجب عن الناس وكثر القيل والقال فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خرج [...] القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ر[كب] أصطمر بن ولى الدين أمير مجلس الأول الناصرى محمد بن العلاء على بك . فلما خرج المحمل رسم السلطـ[ـان] قانم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج بمكة بطالا ، وكان صحبته قانصوه الـ[...]

وفيه خلع السلطان على أقباى [...]

---

(1) الرواية الصحيحة :
فقل للشامتين بنا أفيقوا
سيلقى الشامتون كما لقـ[ينا]

وقرره فى كشف الشرقية عوضا عن قانصوه بن سلطان جركس .

وفى هذا الشهر تحول الأتابكى قيت من بيت الأشرف جان بلاط الذى بحارة عبد الباسط وسكن بالأزبكية فى بيت الأتابكى أزبك .

* * *

وفى ذى القعدة كان ختان ابن على بن أبى الجود برددار السلطان .

وأما بردداریة السلطان فهى وظيفة حادثة لم تعهد فى الدول الماضية وانما حدثت فى دولة الأشرف قايتباى . وأول من تولى بها محمد بن الحمامية ، فلما مات تولاها من بعده جماعة كثيرة ، واستمرت الى الآن حتى تولاها على بن أبى الجود ، ففتك بها فتكا ذريعا . فلما كانت زفة ولده رجت لها القاهرة وزينت الدكاكين ، وأوقدوا له الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية الى الصليبة ، ومشى بها أعيان الناس من المباشرين والتجار حتى تغرى بردى الأستادار وبعض أمراء عشراوات منهم تغرى برمش وجماعة من الطواشية وغير ذلك من الأعيان ، وكان لها يوم مشهود مثل دوران المحمل حتى عد ذلك من النوادر ، ثم اشتهر أمر على بن أبى الجود من بعد ذلك حتى كان ما سنذكره فى موضعه

وفيه كانت الأسواق معطلة والبضائع مشحوتة بسبب الفلوس الجدد حتى يعمل لهم معدل .

* * *

وفى ذى الحجة — فى يوم الخميس رابعه — كانت وفاة ناصر الدين بن الصفدى ناظر الخاص ووكيل بيت المال ، مات فجأة . قيل طلب منه السلطان مالا فلم يقدر على ذلك ، فيقال انه ابتلع فصا من الماس فمات من ليلته ، وكان لا بأس به ، وعد من أعيان مصر .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العادة ، ولكن قطع لجماعة من الفقهاء والطواشية والنساء .

وفيه حضر الأمير طقطباى الوزير وكان مسافرا نحو بلاد الصعيد ، فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه رسم السلطان لعلى بن أبى الجود بأن يتكلم فى جهات الخاص الى أن يتولى من يختاره السلطان عوضا عن الصفدى .

وفيه ختم السلطان ضرب الكرة ، وعزم على الأمراء فى الدهيشة ومد لهم أسمطة حافلة .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين بن البرقى ، وكان من أعيان نواب الحنفية وله شهرة بين الناس وكان لا بأس به .

وفى أواخر هذه السنة صار يحترق فى كل ليلة عدة أماكن بالقاهرة بسبب الدريس ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وقد خرجت هذه السنة من الناس وهم فى أمر مريب بسبب ما وقع فيها من الفتن والمصادرات ، وكانت سنة كثرت فيها الحوادث والوقائع صعبة شديدة ، فانقضت على خير .

سنة ثمان وتسعمائة (١٥٠٢/١٥٠٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، والقاضى سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبى الحنفى ، والقاضى البرهان ابراهيم الدميرى المالكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطـان فى السلطنه ، وتبتت فواعد دولته ، قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميرا مقدم ألف منهم أرباب الوظائف وهم الأتابكى قيت الرجبى أمير كبير ، وقرقماس ابن ولى الدين أمير سلاح ، وأصطمر بن ولى الدين أمـير مجلس ، وقانى باى قرا بن ولى الدين أمير آخور كبير ، وطرباى الشريفى رأس نوبة النوب ، وأزدمر بن على باى دوادار كبير ، وخاير بك بن ملباى حاجب الحجاب — وهو أخو قانصـــوه البرجى نائب الشام — فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف فهم : خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وقانصوه ابن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير ســودون العجمى ، وماماى المحمــدى المعروف بجوشن ، وأنصباى بن مصطفى ، وتمر الحسنى ، وطقطباى العلائى نائب القلعة ، وطقطباى بن ولى الدين وهــو الوزير والأســتادار ، ودولات باى قرموط ، وقانصوه بن طراباى المعروف بكرت ، وأرزمك الشريفى الناشف ، وأزبك بن طراباى المكحل ، ونوروز بن أزبك أخو يشبك الدوادار ، وأبو يزيد المحمدى ، وعلى باى السيفى يشبك الذى كان نائب غزة ، وخاير بك السيفى اينال ابن اينال كاشف الغربية ، وجانبلاط المحــمدى أخو قانصوه البرجى

ثم قرر من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين أميرا ، منهم أرباب الوظـائف عشرة وهم : عبد اللطيف الزمام والخازندار الكبير ، والمقر الناصرى محـمد بن السلطان شاد الشراب خاناه ، وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثانى ، ومغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، وتمـراز جـوشن رأس نوبة ثانى ، وجان بردى تاجـر المماليك ، وطومان باى قرا حاجب ثانى ، وقلج ابن ولى الدين أمير آخور ثانى ، وتانى بك بن يشبك محتسب القـاهرة وخازندار ثانى ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان بن قراجا ، وقانصوه ابن دولات بردى أستادار الصـحبة ... فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف فهم : قرقماس الشريفى — وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلدى بن ولى الدين بتقدمة ألف وعلى قرقماس الشريفى فلم يتم لهما ذلك من بعده وآل أمرهما الى أمرة طبلخاناه — وأزدمر بن يشبك ، وخشكلدى بن ولى الدين ، وقانصوه بن بردبك ، وجانى بك بن آزدمر ، وبرسباى العلائى ، وطوخ المحمدى الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه الابراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبح ، وتانى بك النجمى ، وقيت الأحول ، ويشبك بن تبوك ، وبرقوق بن خجا بردى ، وشاد بك النـاصرى ، وجانبـاى المحمـدى ، وجانبلاط بن ولى الدين أيضا ، وقرقماس بن يشبك ، وتمر باى بن سيباى ، وبكبلاط بن أقبـاى ، وقانى باى بن يشـبك ، وجانم الابراهيمى ، وأزبك الشريفى ، ومصرباى الشريفى ، وطـومان باى بن طـويزه ، ونوروز الشريفى ، وبلاط بن حيـدر ، ومامش الرجبى ، وكرتباى بن حيدر ، ومغلباى بن بختجا ، وجان بلاط بن قانصوه ، وأصطمر بن بشمان ، وقانى باى بن آزدمر ، وسودون بن مصطفى ، وألماس ابن برد بك ، وقنبك بن شـاد بك ، وجانم بن خضر ، وجان بردى بن قانم ، وبرسباى الدمرداشى وتمر الابراهيمى ، وجانى بك الشريفى ، وتنم بن شاد بك ، وماماى بن قيت ، وقانصوه بن يشبك ، وقان بردى بن قانصوه ، وأرزمك بن برد بك ، وتمر باى السيفى قجماس خازندار العادل طومان

باى ، وجانم بن قانصوه ، ومسايد بن حيدر ، وبرش بن عبد الكريم ، ومسايد أيضا بن قانصوه، وجانى بك قرا الشريفى ، وطـراباى الشريفى ، وقايتباى بن جانى بك المعروف بالأشقر ، وشادى بك اليحياوى ، وقانصوه بن يشبك ، وتانى بك السـيفى أقبردى ، ودولات باى بن مصطفى ، وقانى بن سودون الابراهيمى ، وجانم بن قجماس ، وطراباى بن جانم ، ومغلباى بن جانم ، ومصرباى الأبو بكرى ، وجانى بك بن حيدر .

ثم قرر الأمراء العشراوات مائة وخمسة وثمانين أميرا وهم : عنبر مقـدم المماليك ، وخشكلدى الشريفى ، وتبك الناصرى ، وأسنباى ابن برسباى ، وقراكز الشريفى ، وجانى باى بن يشبك ، وبكتمر بن ولى الدين ، وسنقر العلائى ، وقلج السيفى قانصوه خمسمائة ، وجانم السيفى قايتباى ، وأسنباى بن قروس ، وطقطمش السيفى اينال ، وسيباى الأبو بكرى ، واينال بن جانم ، وقانصوه الابراهيمى ، وسـودون بن حيـدر ، ويوسـف بن مصطفى ، وعلان بن ولى الدين ، وأقبردى الحسنى ، وتنبك الشريفى ، وبهادر بن قرقماس ، وأزدمر بن عبد الرحيم ، وبيبردى بن جانبلاط ، وبرد بك الشريفى ، وبيبردى بن كسباى وأركماس السيفى قانصوه ، وبكباى بن قراجا ، وطوماى باى بن مصطفى ، وأقبردى الشريفى ، واينال باى بن مصطفى ، وخاير بك بن قجماس ، وجانى بك بن مهدى ، وأقباى السيفى يشبك ، وطوبى الناصرى ، وبرسباى بن بردبك ، وبكبلاط المحـمدى ، وأزدمر بن تمر باى ، ونانق بن يخشباى ، ونوروز بن يلباى ، وشاهين الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وجانم السيفى قايتباى ، ونوروز السيفى قانى باى ، وقنبك السيفى يونس

ودولات باى الابراهيمى ، وجانى باى الحسنى ، وسنطباى المحمدى ، وتغرى بردى الشرف ، ودولات باى السيفى يشبك ، وجانى بك بن جانبلاط ، وأزدمر السيفى اينال ، وقانم بن نانق ، وقنبك بن قانى باى أمير جندار ، وقصروه بن قانصوه ، وتغـرى بردى الترجمـان ، وقرقماس المحمدى ، وجان بردى بن ولى الدين ، وتغرى بردى الحسـنى ، وأزدمر المهمنـدار ، وأزبك النصرانى أمير شكار ، وقانصوه بن أبى يزيد ، وقانصوه الناصرى ، وأبرك السيفى لاجين ، ويلباى بن على باى ، وأبو يزيد بن قانصوه ، ومغلباى بن اياس ، ودولات باى المحـمدى ، وقانصوه بن جانم ، ونانق بن أنت ، وتبك بن أزرم ، وقطلو باى بن عبد الرحيم ، وقانى باى ابن أزرم ، وسودون بن ولى الدين ، وسيباى بن جانى باى ، واينـال بن بيبردى ، وقرقمـاس الابراهيمى ، ومغلباى بن حيدر ، وعلى باى بن شبتان ، وأسنباى اليوسفى ، ودولات باى الابراهيمى ، وأزبك بن قانصـوه ، وماماى بن قبيد ، وجانم بن قجماس ، وقانصوه العـلائى ، وقلج الشريفى ، وعلى باى بن صدقة ، وبكبلاط ابن قانصوه ، واياس المحـمدى ، وقانصوه بن يشبك ، وبرسباى بن جانى بك ، وقانصوه بن عبد الرحيم ، وطراباى السيفى أزبك ، ونوروز العلائى ، وملاج بن برد بك ، وبرسباى السيفى يشبك ، وجانى باى الحسنى ، وكزيم بردى بن قروس ، وأزبك بن مصطفى ، وقانصوه بن جان بلاط ، وقرقماس الشريفى ، وتمر بن ولى الدين ، ودولات باى بن أزبك ، وأزبك الشريفى ، وجان بلاط بن مغلباى ، وبكباى السيفى أزبك ، وتغرى بردى المحمدى ، ونبك المحمدى ، وبرد بك

السيفي قاني باي ، وبيبرس بن قرقماس ، وأركماس الابراهيمي ، وأركماس السيفي آزبك ، ويوسف البدري كاشف البحيرة — وهو الوزير الآن — وبيبرس بن يشبك ، وخاير بك العلائي وأقباي بن يشبك ، وتبك بن اياس ، وجانم بن يشبك ، وقانصوه بن جانم ، ومصرباي بن لاجين، وخاير بك الشريفي ، وجانم المحمدي ، وعلى باي السيفي خشكلدي ، وجاني بك الناصري كاشف منفلوط ، وجان بلاط الشريفي ، وقان بردي الشريفي ، وأزبك الابراهيمي ، وقانم بن كرتباي ، وتغري برمش السيفي كسباي ، وأبرك الشريفي ، وجانم بن مصطفى ، وأزبردي بن قلج ، وأقطوه ابن قانصوه ، ويوسف بن مصطفى ، وقانصوه بن عبد الرحيم ، وتمرباي بن چكم ، وبيبسق اليوسفي ، وأقطوه بن يشبك ، وبرسباي بن قراجا ، وجان بردي بن مصطفى ، وتنم بن قاني باي ، وأقبردي المحمدي ، وقاني باي بن حمزة ، وأقبردي المحمدي أيضا ، وبرمش بن بيبردي ، وبرد بك بن أيدكي ، وأسنباي بن برد بك ، وقطلوباي بن تمر ، وقايتباي بن طوبرزه ، وكرتباي السيفي يشبك ، وقان بردي بن قجماس ، وأركماس السيفي قانصوه ، وتنم السيفي أرغون شاه ، وقراكز بن يشبك ، وجاني بك السيفي برسباي ، وقراكز السيفي چكم ، وبكبلاط الأبو بكري ، ونوروز بن ألماس ، وبرد بك السيفي يشبك ، واينال السيفي آزبك ، وقانصوه بن درويش ، وتمراز بن اينال باي ، وخشكلدي بن أركماس ، وقيت بن حيدر ، وقاني باي الرمضاني، وجاني بك بن ولي الدين ، وألماس بن قردمش ، وتمرباي السيفي أزبك ، وجان بلاط بن جانم ، ومغلباي بن قيت ، وتمراز بن آقباي ، وقرقماس السيفي برد بك ، ومامش المحمدي ، وعلى باي السيفي اينال ، وبرد بك الابراهيمي ، وسودون ابن درويش ، ومغلباي البوسفي ، وأيدكي الشريفي ، وشاد بك بن قانصوه ، وسيباي بن جاني بك ، وجاني باي المحمدي ، وقانصوه بن قاني باي ، وقانصوه بن ولي الدين ، وقانصوه ابن ولي الدين أيضا ، وطراباي بن قانصوه ، وبيبرس بن قانصوه ، وخدا بردي الشريفي ، وشاهين معلم الدبوس .

واجتمع في هذه السنة من الخاصكية ثمانمائة خاصكي على ما قيل ، ثم تزايد عدد الخاصكية فيما بعد حتى صاروا ألفا ومائتي خاصكي .

وأما النواب بالبلاد الشامية فكان ممن قرر بها من أوائل هذه السنة وهم . قانصوه المحمدي المعروف باليرجي نائب الشام ، وسيباي المعروف بنائب سيس قرر في نيابة حلب ، وقرر جانم في نيابة حماة . وقرر دولات باي قرابة العادل في نيابة طرابلس ، وكان قبل ذلك نائب الشام وفر ، ثم عاد وقرر في نيابة طرابلس ، وقرر سودون الدواداري في نيابة صفد ، وقرر في نيابة غزة قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجمل ، وكان العادل قرره في نيابة حلب وما تم ذلك وهو الآن مقدم ألف بمصر ، وقرر ملاج في نيابة القدس ، وقرر أيدكي في نيابة قطية ، ونائب الاسكندرية قانصوه خمسمائة السيفي يشبك الدوادار ، ونائب دمياط شخص من الأتراك يسمى فارس المنصوري عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية في أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد ذلك ، وانتقلت النيابات الى آخرين من الأمراء يأتي الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين وهم :

القاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى صلاح الدين بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن الشريفة ، والقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش كان ، وهو الآن ناظر الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد ابن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين محمد بن مزاحم ناظر الاسطبل الشريف ، ومجد الدين بن كراوية ناظر الدولة والصحبة الشريفة ، وكان على بن أبى الجود متحدثا فى جهات الخاص يومئذ من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم فى عقيب ذلك تولى نظارة الخاص علاء الدين بن الامام وهذه ثانى ولاية . وقد راج أمره فى هذه المرة الى الغاية ، وكان يومئذ القاضى فخر الدين ابن العفيف كاتب المماليك السلطانية ، وموفق الدين بن القمص الأسلمى ناظر الذخيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، والشرفى يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العبسى ، وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين ابن الانبابى وشريكه يوسف بن السيرجى .

وأما الوظائف التى غير هؤلاء فكان نقيب الجيش يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين يومئذ البدرى حسن بن الطولونى ... فهذا كان ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة ثم انتقلت من بعد ذلك الأمريات والوظائف الى جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين يأتى الكلام عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ولا حضر المبشر ، فكثر القيل والقال بسبب ذلك ، فلما كان يوم الأحد تاسع عشره حضر هجان وأخبر أن أحوال الحاج مضطربة الى الغاية ، وأن الجازانى ابن أمير مكة قد أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتف عليه يحيى ابن سبع أمير الينبع ، ومالك ابن رومى أمير خليص ، وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بنى ابراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج الشامى فى رابغ قبل أن يدخلوا الى مكة فنهبوا الركب عن آخره ، وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ، وفعلوا بهم ما لا فعله تمرلنك لما دخل الى الشام . فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة ، اضطربت أحوال الناس لهذه الأخبار ، ثم انقطعت أخبار الحاج مدة طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه — الموافق لرابع مسرى — زاد الله فى النيل المبارك أربعين أصبعا فى يوم واحد .

وفى يوم الجمعة خامس مسرى زاد الله فى النيل المبارك عشرين أصبعا .

ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى وزاد عن الوفاء احدى عشرة اصبعا ، فكان فتح السد فى يوم الاثنين تاسع مسرى — الموافق لسابع عشرين المحرم — وهو سابق النيل الماضى بيوم واحد والفضل بينهما سبع عشرة أصبعا عن النيل الماضى ، فكان كما قيل :

النيل قال وقوله ... اذ قال ملء مسامعى
فى غيض من طلب الغلا ... عم البلاد منافعى
وعيونهم بعد الوفا ... قلعتها بأصابعى

فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجبى وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

* * *

وفى صفر فى مستهله نزل الحاج الى البركة على حين عملة . ثم فى يوم السبت ثانيه ، دخل المحمل الى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطمر بن ولى الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن خاص بك ، ودخل الحاج وهو فى غاية النكد بسبب ما جرى على الناس فى طريق الحجاز .

وكان من ملحص واقعة الحجاج — وهو ما استفاض بين الناس — أن أصطمر أمير الحاج لما وصل الى بطن مرو قبل أن يدخل الى مكة ، لاقاه الجازانى من هناك ، فأحضر اليه أصطمر خلعة وقال له « ان كنت تستقر أمير مكة احمل للسلطان خمسين ألف دينار » . فقال الجازانى : « نعم أنا أحمل للسلطان هذا القدر » ، فألبسه الخلعة حتى طمنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك وجرى منه أمور شتى .

ثم ان أصطمر أرسل فى الدس مكاتبة للشريف بركات أخى الجازانى بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازانى ، فلما أحس الجازانى بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو . وكان أصطمر أرشل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازانى لاقى الركب الشامى فى رابغ وجرى منهم ما تقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء .

فلما دخل الحاج الى مكة وبلغه ذلك ، اضطربت الأحوال الى الغاية ، ووقف الحاج بالجبل ، وهم على وجل من الجازانى وعرب بنى ابراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال أصطمر للشريف بركات : « اخرج معنا ولاق الجازانى » .

فلما خرج الشريف بركات صحبة الحاج ووصل الى مكان يسمى الدهنة ، لاقاه أخوه الجازانى فى جمع كثير من عرب بنى ابراهيم ، فأرسل الجازانى يقول لأصطمر : « لا تدخل بينى وبين أخى بركات ودعنا نقتتل فى بعضنا وخذ أنت الحاج وامض » ، فلم يسمع أصطمر منه ذلك .

ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع وصار عونة مع الجازانى ، فاتقعوا مع الشريف بركات ، ودخل أصطمر بينهم ونادى فى الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عونة على قتال الجازانى ، فاجتمع الجم الغفير من الجمالة والعكام والضوية ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى . وآل الأمر الى كسرة أصطمر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحو من مائة مملوك ، غير الغلمان والطفش ، وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل فى ذلك اليوم ونهب كل ما فيه حتى عروا النساء من أثوابهن وأخذوا عصايبهن من على رءوسهن ، وقاسين من الشدة ما لا خير منه .

وتخلف غالب الحاج بالينبع وصاروا ينزلون فى مراكب من البحر الملح ويدخلون الى القاهرة بعد مدة طويلة وهم فى أنحس حال ، وقاسوا فى هذه السنة غاية المشقة وجرى عليهم كل سوء ... وقيل ان الجازانى لم يفحش فى حق من بالركب الأول كما فعل بمن فى ركب المحمل . وقد راعى الناصرى محمد بن خاص بك دون أصطمر وكان متأثرا من أصطمر ، فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات الى مكة وهو مهزوم من أخيه الجازانى ، فلما رجع من بقى من الحجاج الى الأزلم ، وجدوا الآبار قد ردمت بالحجارة فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش .

فلما وصل الحجاج الى العقبة لاقاهم جماعة من عربان بنى لام فعوقوهم عن طلوع العقبة ، وأفردوا عليهم ثلاثة آلاف دينار ، فجبى أمير الحاج ذلك من الحجاج ، ودفعها للعرب حتى مكنوهم من طلوع العقبة ، ودخلوا الى بركة الحاج وهم فى أسوأ حال .

فلما طلع الأمير أصطمر والناصرى محمد بن خاص بك الى القلعة ووقفوا بين يدى السلطان ، وبخهما بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازانى وابن سبع . ثم رسم بادخال أصطمر الى قاعة البحرة ورسم أيضا على الناصرى محمد بن خاص بك ووكل به ، ثم أرسل بالقبض على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ووكل به ، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع ، وأيقظه بأن السلطان يقصد القبض عليه ، فأوسع خياله حتى عصاه على ما قيل .

وكذلك قبض السلطان على أزدمر المهمندار ، قيل ان يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار لكل واحد منهم ذنب واستمر الحال على ذلك .

وفى الثلاثاء خامس صفر توفى جانبلاط المحمدى أحد مقدمى الألوف ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن فى تربة أخيه خاير بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته فى التقدمة يسيرة ومات عقيب ذلك .

وفى تاسع صفر رسم السلطان باخراج أصطمر منفيا الى ثغر دمياط فنزل من القلعة بعد العشاء ، وتوجهوا به الى البحر ، وسار فى مركب الى دمياط وهو مقيد بقيد ثقيل . وأما قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، فرسم السلطان بنفيه الى قوص ، وكان ببيت نقيب الجيش هو وأزدمر المهمندار ، فشفع فيهما الأتابكى قيت الرجبى . ثم بعد أيام خلع السلطان على القاضى عبد البر وأعاده الى القضاء على عادته ، وشفع فى أزدمر المهمندار أيضا .

وأما الناصرى محمد بن خاص بك فانه أقام فى التوكيل مدة أيام وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار ، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير قرقماس أمير سلاح وتسلمه من السلطان ، وشفع فيه حتى حط عنه خمسة آلاف دينار ، واستمر عند قرقماس فى الترسيم نحوا من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال ، وأتى الى بيته وحصل له غاية الضرر .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب ان خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه اسماعيل الصوفى . فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة فى أمر الصوفى ، وعين السلطان تجريدة . ثم انه قبض على جماعة من المباشرين ووزع عليهم مالا له صورة بسبب أمر التجريدة . فقبض على الشهابى أحمد ناظر الجيش وسلمه الى الأمير طراباى رأس نوبة النوب فعرضه للضرب غير ما مرة حتى أورد ما قرر عليه من المال . وقبض على صلاح الدين بن الجيعان ووكل به بالقلعة ، وقبض على فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك ، وقبض على موفق الدين بن القمص القبطى ووكل به بالقلعة ، وقبض على عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه وقرر عليه مالا له صورة فلم يثر به [1] فضربه بالحوش ضربا مبرحا ، وضرب أيضا موفق الدين بن القمص وفخر الدين كاتب المماليك ، وقبض أيضا على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاسطبل ، فأقام هؤلاء فى الترسيم والضرب حتى غلقوا ما قرر عليهم من المال .

ثم فى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر الصوفى رجع الى بلاده وخمدت فتنته وبطل أمر التجريدة . ولكن استمرت المصادرات عمالة فى المباشرين وغير ذلك .

ومن الحوادث أن فى ليلة السبت ثالث عشرين هذا الشهر ، هجم المنسر على سكان المسطاحى

(1) اى : فلم يستطع الوفاء به .

التى بجوار قنطرة الحاجب ، فقتلوا من الخفراء واحدا ونهبوا عدة بيوت ، ثم دخلوا الى الجسر الذى بجوار بركة الرطلى ، وكان النيل فى قوة الزيادة والجسر عامرا بالسكان ، فخطفوا عدة عمائم وشدود ، وكانوا نحوا من ستين رجلا ومعهم قسى ونشاب ، فعطعطوا تلك الليلة فى الجسر والمسطاحى وقام العياط من الطيقان وكانت ليلة مهولة .

فلما بلغ علان والى القاهرة ما جرى بالجسر تلك الليلة ، أخذ جماعة من المماليك وساق خلف المنسر بطول الليل ، فظفر منهم بثمانية أنفس فقبض عليهم من ناى وطنان وهرب الباقون . فلما طلع النهار وصل بهم الى باب القلعة ، ثم عرضهم على السلطان فرسم بشنقهم على قنطرة الحاجب فسمروهم على جمال ، وطافوا بهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود ، فأتوا بهم الى قنطرة الحاجب ، فشنق منهم جماعة ، ووسط منهم جماعة ، وانطلقت لهم الزغاريت من النساء . ولبس علان الوالى خلعة حافلة فى ذلك اليوم لكونه بيض وجهه وقبض على المنسر فى ليلته ، وعد ذلك من النوادر ، كما يقال :

كأن فجاج الأرض يمناك ان يسر
بها خائف تجمع عليه الأنامل
فأين يفر المرء منك بجرمه
اذا كان تطوى فى يديك المراحل

وفى يوم الاثنين ، خامس عشرين هذا الشهر ، كانت وفاة القاضى بدر الدين محمد النويرى الحنفى أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما لا بأس به .

***

وفى ربيع الأول فى مستهله أفرج السلطان عن صلاح الدين بن الجيعان ونزل الى داره ، وكان فى الترسيم بسبب ما قرر عليه من المال ، وقد أشرف على تغليق ذلك .

وفى يوم الخميس خامسه ، خلع السلطان على الأمير سودون العجمى وقرره فى أمرة مجلس عوضا عن أصطمر بن ولى الدين بحكم توجهه الى دمياط .

وفيما بعد توفى الجمالى يوسف بن الزرازيرى — كاشف الوجه القبلى ، وتولى الوزارة أيضا — بالمقشرة مغضوبا عليه وقاسى شدائد ومحنا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالحوش واجتمع به القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة .

ومن الحوادث أن فى ليلة تفرقة الجامكية ، طلع حمل المال من حارة زويلة وقت صلاة الفجر ، فلما وصلوا به الى رأس البندقانيين فى أثناء الزقاق المظلم خرج عليهم جماعة من الأتراك فى زى العرب ، فحاشوا البغل الذى عليه المال برسم الجامكية واقتلعوه من الموكل به ، وربما أشيع قتله ، فأخذوا البغل بماعليه من المال ومضوا ، ولم تنتطح فى ذاك شاتان . وكان قدر المبلغ اثنى عشر ألف دينار مما جمعه على بن أبى الجود من وجوه المصادرات بالضرب والحبس لأعيان التجار ومشاهير الناس وغير ذلك ، فذهب ذلك المال ولم ينتفعوا به ، فكان كما يقال :

« لست أعطى فى حرام أبدا الا حراما »

وفى أواخر هذا الشهر أكمل السلطان نفقة البيعة على الجند ، وقد طاولهم نحوا من سنة ونصف سنة وهو يحتج بجمع المال ، حتى راج أمره فى السلطنة وتمت قواعد دولته ، وكان هذا بتدبير الأتابكى قيت الرجبى حتى خمدت تلك الفتن القائمة .

ومن الحوادث أن فى يوم السبت سلخ هـذا الشهر طلع الأمير أزدمر الدوادار الى القلعة وقت صلاة الصبح ، فلما وصل الى باب القـلة التى بالقلعة ، لم يشعر الا وقد جاء سهم نشاب من بعض طباق المماليك ، فجاء السهم من تحت ابطه فأخرق الملوطة التى عليـه . فلما جرى ذلك أخذ السهم النشاب ، ودخل به الى السلطان وقال له : « ان كنت تقصد قتلى فلا تخلى المماليك الجلبان يقتلونى» فحلف السلطان على المصحف الشريف أن لم يكن له عـلم بذلك ولا جـرة . ثم بعث خلف أغوات الطباق ، وضرب منهم جماعة ، وقررهم عمن فعل ذلك ، فأسـفرت القضـية على أن شـخصا من المماليك ، قيـل هو أخو الأتابكى قيت الرجبى ، الذى فعل ذلك . فأمر السلطان بنفيـه الى الشام فخـرج من يومه ، وكان هـذا المملوك من شرار المماليك وقيل له عدة قتلى .

* * *

وفى ربيع الآخر — فى يوم مستهله — طلع ابن أبى الرداد ، وثبت النيل المبارك على خمس أصابع من عشرين ذراعا ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك .

وفيه كسفت الشمس عند طلوعها وقت الاشراق وأقامت على ذلك ساعة حتى انجلت .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة نائبها قانصوه خمسمائة ، وكان أصله من مماليك يشبك الدوادار ، وكان لا بأس به .

وفى ليلة الأحـد رابع عشره خسف جرم القمر أيضا ، فكان بين كسوف الشمس وخسوف القمر أيام قلائل ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من أهل حلب انكسر عليه مال ، فشنقه على باب زويلة وهذا أول ما نفذه من أمر القتل فى أيام دولته .

وفيه أفرج السلطان عن فخر الدين كاتب المماليك وكان له مدة فى الترسيم حتى غلق ما قرر عليه من المال ، واستمر على وظيفته .

وفيه خلع السلطان على تانى بك النجمى أحد الأمراء الطبلخانات ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه خمسمائة بحكم وفاته .

وفيـه رسم السلطان بشنق التاجر ابن الملقى وشخص آخر من الأتراك قيـل انه كان خازندارا لجانى بك الشامى ، وكان جانى بك الشامى مختفيا فلم يفر بسكانه فسمره السلطان على جمل هو وابن الملقى ونزلوا بهما من القلعة ، فأرسـل الأتابكى قيت شفع فيهما فتوجهوا بهما الى المقشرة فسجنوا بها .

وفيه قبض السلطان على محمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وسجنه بالعرقانه بسبب مال قد انكسر عليه ولم يقم به .

وفيه غمز على جانى بك الشامى وخاير بك اللامى فى مكان عند المدرسه القجماسية ، فتوجه اليهما علان والى القاهرة وهجم ذلك المكان وكانا فى ربع هناك ، فقبض على جانى بك الشامى وخاير بك اللامى وعلى صاحب البيت الذى كانا فيه ، وكان صاحب البيت يبيع البطيخ ، فلما قبضوا عليهما وطلعوا بهما الى القلعة ، رسم السلطان بتوسيطهما عنـد سلم المدرج ، فوسطوا خاير بك اللامى وجانى بك الشامى هنـاك ، ثم رسم السلطان بشنق صـاحب البيت الذى وجدوا فيه ، فشنق على دكانه وراح ظلما ، فكان كما يقال :

من لا تجانسه احـذر تجالسه
فالشمع آفته من صحبة الفتـل

وكان أصـل جانى بك الشـامى ، وخاير بك اللامى ، من ممـاليك الأمير أقبردى الدوادار ، وكانا يعرفان بالشجاعـة والاقدام فى الحـروب ،

لا يفزعان من الموت . فلما تسلطن الغورى قبض عليهما وقيدهما وسجنهما فى البرج الذى بالقلعة . فلما كان ليلة وفاء النيل فى عام سنة سبع وتسعمائة تسحبا من البرج ، وكسرا قيودهما وقتلا السجان ونزلا من القلعة وقت الظهر والناس مقيلة ، واستمرا فى اختفاء وهما بالقاهرة ، فكان السلطان والأمراء على رءوسهم الطيرة منهما ولا سيما الأمير طراباى. وصار الوالى يكبس البيوت والحارات لأجلهما ، واستمروا على ذلك مدة طويلة حتى ظفروا بهما ، وجرى منهما أمور غريبة فى مدة اختفائهما ، حتى قيل انهما اللذان قطعا الطريق على حمل الجامكية وهو خارج من حارة زويلة وقد تقدم ذكر ذلك ، وكانت الأمراء فى وجل منهما .

ومن الحوادث أن الأمير طقطباى الأستادار ، حسن للسلطان أن يبطل المعتـدات التى كانت فى الديوان المفرد ، فأضر ذلك بحال المقطعين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد ناظـر الجيش ، وألبسه خلعة ونزل الى داره ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى التوكل به فى بيت الأمير طراباى بسبب المصادرة كما تقدم ، فباع أملاكه وغيطه الذى أنشأه بفم الخور ، وباع أشياء كثيرة من وقف والده حتى سد ذلك القدر الذى قرر عليه .

وفيه أفرج أيضا عن الناصرى محمد بن خاص بك ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى الترسيم ببيت الأمير قرقماس أمير سلاح ، حتى أورد ما قرر عليه من المال وهو خمسة عشر ألف دينار ، وكان فى هذا الأمر مظلوما .

***

وفى جمادى الأولى — فى يوم مستهله — خلع السـلطان على على ابن أبى الجود وقرره فى نظر الأوقاف عوضا عن محمد بن يوسف ، فتزايدت عظمة على ابن أبى الجود ، ولبس الطوق وركب الخيول بالأخفاف والمهاميز وصار يعد من جملة رؤسـاء مصر ، فاجتمع فيه وكالة بيت المـال ، ونظر الأوقاف ، وبرددارية السلطان ، وتكلم فى ديوان الوزارة والأستادارية وديوان الخاص ، وغير ذلك من الوظائف ... فاجتمعت فيه الكلمة ، وتصرف فى أمر المملكة بما يختـار ، وقمع سائر المباشرين ، وصار فى خدمته الناس قاطبـة ، ولا يحتمى عليـه أحد من التجـار ولا المباشرين ... فأظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية ، حتى فاق على هناد الذى أحدث المظالم . فكان الناس على رءوسهم طيرة منـه ، ودخـل فى قلوبهم الرعب الشديد بسببه ، فكان العبد يرافع سيده ويشكوه من باب على بن أبى الجود ، فينتصف العبـد على سيده . وكذلك المرأة اذا تخاصمت مع زوجها تشكوه من باب على بن أبى الجود . وكان من له عدو يشكوه من بابه ويكذب عليـه ، ويقول : « هـذا لقى مال » ، فيسلب نعمة ذلك الرجل ، ويأخذ منه ما لا يقدر عليه . فأطلق فى الناس النار ، وصار على بابه نحو من مائة رسول . فكانت أرباب الصنائع تترك أشغالها ويعملون رسـلا على باب ابن أبى الجود ، وصار غالب النـاس لا يشكون خصماءهم الا من باب على بن أبى الجود ، حتى صـار بابه أعظـم من أبواب أرباب الوظائف من الأمراء المقدمين . وكان هذا أكبر أسباب الفسـاد فى حق على بن أبى الجود ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى هذه الأيام تزايد ظلم على بن أبى الجود ، حتى شاع ذكره فى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وفى بلاد الشرق من ديار بكر وغير ذلك من البلاد ، بسبب مصـادرات تجار الأروام وجوره عليهم ، وكان السلطان قرر على على بن أبى الجود فى كل شهر اثنى عشر ألف دينار يردها على الجوامك ليس تحتها جهة من الجهات ، وانما هى من أبواب المظالم

فطاش ابن أبى الجود فى تلك الأيام الى الغاية ، وعادى أرباب الدولة قاطبة ، من أمير ومباشر وغير ذلك حتى ملوك الشرق لأجل تجار الأروام مما يشكون منه من كثرة المصادرات لهم ، وكان هذا كله دمارا فى حقه ، كما قد قيل :

أقـــول له اذ طيشته رياسة
رويدك لا تعجل فقد غلط الدهر
ترفق يراجـع فيك دهرك رأيه
فما سدت الا والزمان به سكر

وقد قلت فيه أيضا :-

بالذى أركبك البغلة بعـد المشى حافى
وكسا جسمك بعد العرى خزا ونصافى
لا يكن خلقك يوما يا علاء الدين جافى

وكان أصله سوقيا من الصليبية ، قيل فى الأمثال :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجـده حـديث

وكان أبوه أصله نجارا ، يقال له المعلم حسن ، ثم تعلق على صنعة الحلوى ، وسمى نفسه « ابو الجود » ، وأقام مدة طويلة يبيع الحلوى على باب حمام شـيخو ، واسـتمر على ذلك حتى مات ، فاستقر ابنه على فى دكانه ، وكان يقلى المشبك بيده فى رمضان ، واستمر على ذلك مدة طويلة ، ثم انه تكلم فى بعض جهات الوزر ، وأبطل بيع الحلوى ، ثم بقى برددارا عند تغرى بردى الأستادار ، ثم سعى فى برددارية الأمير طومان باى لما كان دوادارا كبيرا ، فلما تسلطن وقرر فى الدوادارية الكبرى الأمير قانصوه الغورى سعى عنده فى البرددارية ، فلما تسلطن الغورى حظى عنده وطاش وجرى منه ما تقدم ذكره ، وجار على الناس بالظـلم ، حتى أخرب ثغر الاسكندرية ، ودمياط ، وبندر جدة ، وغير ذلك من الثغور ، بسبب مصادرات التجار ، فتلاشى أمر الثغور والبنادر من يومئذ ، وتضاعف أمر المكوس جـدا حتى جاوزت الحد فى ذلك ، فهابت الناس على بن أبى الجود قاطبة وصارت له حرمة وافرة بمصر ، فكان كما يقال فى المعنى :

اذا مـا اللئيم رقا رتبـة
تملق له وانتظر وضـعها
وقبـــل يديه اذا مدهـا
اذا كنت لم تستطع قطعها

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصـد ابن عثمـان ملك الروم ، وصحبته تقـدمة حافلة الى السلطان ، فأوكب السلطان فى ذلك اليوم موكبا عظيما بالحوش ، وكان يوما مشهودا .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، عزم السلطان على قاصد ابن عثمان فى الميدان الذى تحت القلعة ، وأحضر فى ذلك اليوم عدة مماليك يرمون بالنشـاب على الخيل ونصب لهم هناك القبق يرمون عليه ، وأحرق النفط بالنهار قدام القاصد ، وكان يوما مشهودا .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من مشايخ عربان بنى وائل يقال له شرف الدين بن موسى ، فشنقه على باب زويلة .

وفى سابع عشرينه كانت وفاة الشيخ العارف بالله برهان الدين ابراهيم المواهبى الشاذلى ، تلميذ الشيخ العارف بالله أبى الصفا محمد بن أحمد بن محمد التونسى الشـاذلى الوفائى ، المعروف بأبى المواهب ، قدس الله روحه . وكان الشيخ ابراهيم عالمـا فاضـلا ، ورعا زاهدا ، من أعيان مشايخ الصوفية ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى رجب فى خامسه توفى الأمير طقطباى بن ولى الدين أحد المقـدمين الألوف ، ووزير الديار المصرية وأستادار العالية ، وكان ظالما غاشما كثير

الأذى جاهلا لا يعرف الحلال من الحرام ، وهو الذى كان سببا لقطع المعتدات التى كانت تخرج من الديوان المفرد ، وكانت الملوك تسامح بذلك فى الدولة الماضية ، فقطع ذلك فى هذه الدولة ، وحصل للمقطعين بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه — فى يوم السبت خامس عشره — توفى الأمير خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وكان أميرا جليلا دينا خيرا من ذوى العقول ، تولى من الوظائف رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم صرف عن أمرة مجلس وبقى مقدم ألف ، ومات عقيب ذلك ، وقاسى فى أثناء عمره شدائد ومحنا ونفى الى الشام ، وأقام بها مدة طويلة ، ثم عاد الى مصر وبقى أمير مجلس ، ومات فى عشر السبعين من العمر ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره توجه الأمير أزدمر الدوادار الى نحو قناطر العشرة ، وكان فى زمن الربيع ، فعزم على قاصد ابن عثمان هناك ومد له أسمطة حافلة ، وأظهر العظمة من الفتك هناك الى الغاية ، وأقام من يوم الثلاثاء الى يوم السبت وهو فى أرغد عيش ثم عاد الى داره .

وفيه عزم السلطان على قاصد ابن عثمان فى الميدان ، وأضافه وألبسه خلعة السفر .

وفيه ، فى يوم الأحد ثالث عشرينه ، توفى الأمير شاد بك الفهلوان ، أحد الأمراء العشراوات ، مات فجأة ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى شعبان خلع السلطان على الأمير أزدمر الدوادار ، وقرره كاشف الكشاف مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره توفى والدى المرحوم الشهابى أحمد ابن المرحوم اياس الفخرى بن جنيد ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وقرر دوادارا ثانيا فى دولة الناصر فرج بن برقوق . وأما والدى فانه عاش من العمر نحوا من أربع وثمانين سنة ، وجاءته من الأولاد خمسة وعشرون ولدا ما بين ذكور واناث ، غير المسقوط ، وعاش له من ذلك ثلاثة أولاد صبيان وبنت ، وكان كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير أبناء الناس .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى برمش ، وقرره فى الوزارة عوضا عن طقطباى بحكم وفاته ، وقرر الأمير تغرى بردى فى الأستادارية عوضا عن طقطباى أيضا . وكان على بن أبى الجود هو المشار اليه فى الديوانين وتزايدت عظمته جدا .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الجازانى ابن أمير مكة تحارب مع أخيه الشريف بركات فكسره ، ثم ان الجازانى جمع عربان بنى ابراهيم وهجم على مكة ولعب فى أهلها بالسيف ، ونهب أموال التجار والسرحات التى بمكة ، فكان الشخص الواحد من بنى ابراهيم اذا غرس رمحه على باب بيت من بيوت مكة ، أو سرحة ، فيملك جميع ما فيها من قماش أو بضائع أو بهار ، ويخرج صاحب البيت بمفرده لا مال ولا قماش وربما يقتلونه .

ثم ان الجازانى هجم على تانى بك الجمالى الذى كان أتابك العسكر بمصر ونفى الى مكة ، فلما هجم عليه طلب منه مالا فاعتذر عن ذلك ، فربط خصيته بوتر واستمر يعاقبه الى أن مات ، وأخذ ماله .

وهجم على الناصرى محمد بن جانم نائب الشام ، فأخذ ما فى داره من أثاث وقماش وغير ذلك ، فمات الناصرى محمد بن جانم من الرجفة

عقيب ذلك ، هو وأمه خوند الجركسية زوجة الظاهر جقمق

وهجم على الشهابى أحمد ابن العينى ، وكان مجاورا بمكة ، فنهب جميع ما فى داره ، وهرب ابن العينى هو وعياله الى نحو المدينة الشريفة .

وهجم على دولات باى السيفى قنبك باش المجاورين ونهب جميع ما فى داره ، وقتل جماعة كثيرة من المجاورين ، ومن أهل مكة نحوا من سبعمائة انسان ، حتى هرب غالب أهل مكة ، وحضر الى القاهرة من البحر الملح ، والذين تخلفوا بمكة اشتروا أنفسهم منه بمال جزيل ، وكانت واقعة الجازانى من أبشع الوقائع وأنحسها ، وقد قلت فى المعنى :

تقول مكة واحرباه
مما جرى من جازانى
سيأخذو ربى وأقول
هذا جزاء من جازانى

وقد كادت مكة أن تخرب فى هذه الواقعة عن آخرها ، وتقرب واقعة الجازانى من واقعة أبى ظاهر القرمطى ، وما فعله بمكة من النهب وقتل الناس ، وكان ذلك فى زمن الخليفة المقتدر بالله خليفة بغداد ، سنة ثمان عشرة وثلثمائة ، وقد انقطع الحج من بغداد وغيرها من البلاد نحوا من تسع عشرة سنة لم يحج فيها أحد الى مكة ، وانقطع بسبب ذلك هذه المدة ، وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب الكبار ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى الجزء الثانى من تاريخ الخلفاء .

فلما بلغ السلطان هذه الأخبار اضطربت أحواله الى الغاية ، وعين الأتابكى قيت الرحبى أمير ركب المحمل ، وعين أنص باى أحد المقدمين بالركب الأول ، وعين صحبتهم نحوا من ستمائة مملوك من المماليك السلطانية ، ثم بعد أيام أنفق على المماليك المعينة الى مكة ، لكل مملوك مائة دينار . وأخذوا فى أسباب عمل بركهم الى السفر ، ثم ان السلطان رسم لأقباى كاشف الشرقية ، بأن يرمى على بلاد المقطعين جمالا بسبب التجريدة المعينة الى مكة ، فشرع يرمى على كل بلد جملين أو ثمن ذلك خمسين دينارا ، فأضر ذلك بحال المقطعين ، وقطع هذا القدر من خراجهم ، وخربت عدة بلاد بسبب ذلك .

❊ ❊ ❊

وفى رمضان عرض السلطان المحابيس من الرجال والنساء وأطلق منهم جماعة ، وأبقى أصحاب الجرائم على حالهم .

وفى يوم السبت ، سابع عشرين رمضان ، عرض السلطان كسوة الكعبة الشريفة والمحمل وخلع العيد ، وكان يوما مشهودا .

وفى سلخ هذا الشهر تغير خاطر السلطان على العلاء على بن أبى الجود ، ووكل به بطبقة الخازندار ، ثم قبض على حاشيته وغلمانه ، وختم على حواصله وبيوته ، ورسم على نسائه ، وأحاط به البلاء من كل جانب . وكان هذا آخر سعده وأول عكسه ، فكان كما يقال :

اذا كنت فى نعمة فارعها
فان المعاصى تزيل النعم
واذا تم أمر بدا نقصه
توقع زوالا اذا قيل تم

واستمر على بن أبى الجود فى التوكل به مدة أيام ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

❊ ❊ ❊

وفى شوال أشيع أمر الركوب على السلطان ، ووزع الناس قماشهم فى الحواصل ، فلما بلغ

السلطان ذلك أحضر المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة قاضى القضاة المالكى برهان الدين الدميرى ، فلما حلفوا حلف هو لهم أيضا أنه لا يمسك منهم أحدا بغير ذنب ، وحلف بعد ذلك المماليك الذين فى الطباق طبقة بعد طبقة على المصحف العثمانى ، فسكن الأمر قليلا وخمدت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفيه خلع على قانصوه اليحياوى الذى كان أتابك العساكر بغزة ، وقرره فى نيابة حماة عوضا عن جانم الذى كان بها .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره خلع على علاء الدين ابن الامام ، وقرر فى نظر الأوقاف مضافا لما بيده من نظارة الخاص ، وكانت نظارة الأوقاف بيد على ابن أبى الجود .

وفيه خلع على معين الدين بن شمس وقرر فى وكالة بيت المال عوضا عن على بن أبى الجود ، فاجتمع مع معين بن شمس وكالة بيت المال ونظر البيمارستان المنصورى فعظم أمره جدا .

وفيه خلع على الحاج بركات بن موسى وكان أبوه موسى من العرب وأمه تسمى عنقا ، ثم بقى ركاب الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، فاستقر برددار السلطان ومتحدثا على جهات البهار ، وغير ذلك من أمور المملكة ، عوضا عن على بن أبى الجود . وهذا أول ظهور بركات بن موسى ، واشتهاره فى الرياسة ، فعظم أمره جدا وصار معدودا من أعيان رؤساء مصر ، وتزايدت عظمته من بعد ذلك حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه ، فكان كما يقال فى المعنى :

هذا الزمان على ما فيه من كدر
من انقلاب لياليه بأهليه
غدير ماء تراءى فى أسافله
أشخاص قوم قياما فى أعاليه

وكان بركات بن موسى من جملة صبيان البزادرة الذين يحملون الطير على أيديهم .

ثم ان السلطان سلم على بن أبى الجود الى الحاج بركات بن موسى ليعاقبه ، ويستخلص منه الأموال ، فنزلوا بابن أبى الجود من القلعة وهو فى الحديد ، وتوجهوا به الى دار بركات بن موسى .

وفى يوم الاثنين فى العشرين منه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأتابكى قيت الرحبى ، وبالركب الأول أنص باى أحد المقدمين ، ثم نادى السلطان فى القاهرة بأن امرأة لا تحج فى هذه السنة خوفا على الحجاج من فساد العربان ، وقد تقدم ما فعله الجازانى بمكة .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرينه عرض السلطان على بن أبى الجود بالحوش ، وضربه بالمقارع عشرين شيبيا حتى خرق جنبه ، وأشرف على الموت ، فلم يرث له أحد من الناس ، بموجب ما كان يفعله من أنواع المظالم بالناس ، وقد أخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه خرج الأمير أزدمر الدوادار الى نحو جبل نابلس بسبب جمع الأموال من مشايخ عربان نابلس ، كما كان يصنع الأمير أقبردى الدوادار ، فتوجه الأمير أزدمر وصحبته جماعة من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية .

وفيه خرج الأمير قرقماس أمير سلاح ، وتوجه الى نحو المنزلة بسبب حفر فم البحر الصغير ، الذى تروى منه جهات المنزلة وما حولها .

ومن الحوادث ، أن فى أواخر هذا الشهر هجم المنسر على سوق جامع أحمد بن طولون ، وكسر فى تلك الليلة نحوا من أربعة وعشرين دكانا ، ونهبوا ما فيها من قماش وغير ذلك ، فلما جرى ذلك وقف جماعة من التجار ممن أصيب فى ماله الى السلطان ، وشكوا له مما أصابهم من أمر نهب

الدكاكين وذهاب أموالهم . فلما وقفوا الى السلطان ، رسم للوالى بتحصيل غرمائهم ، فلا زال يفحص عمن فعل دلك ، حتى قبض على جماعة منهم نحوا من عشرين نفرا من المنسر ، فوسطهم الوالي فى وسط سوق جامع ابن طولون ، ولبس علان الوالى خلعة بسبب ذلك .

***

وفى ذى القعدة رسم السلطان بنقل على بن أبى الجود الى بيت الوالى ليعاقبه ، فلما تسلمه الوالى عصره فى رجليه ويديه ، حتى أورد بعض شيء من المال الذى قرر عليه .

وفى هذا الشهر تزايد الفساد من العربان والعشير فى جهة الشرقية والغربية ، وجهة الصعيد ، حتى كادت أن تملك العربان البلاد من أيدى المقطعين ، فعند ذلك جمع السلطان الأمراء فى الدهيشة ، وضربوا مشورة بسبب فساد أحوال البلاد الشرقية والغربية ، فعين فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء بأن يخرجوا لمحاربة العربان وطردهم عن البلاد ، فعين طراباى رأس نوبة النوب الى جهة الغربية ومعه جماعة من المماليك السلطانية ، وعين الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير الى جهة الشرقية ، وعين خاير بك حاجب الحجاب ، وقانصوه ابن اللوقا أحد الأمراء المقدمين ، الى جهة الصعيد ، وعين أزبك المكحل أحد المقدمين ، ودولات باى قرموط أيضا ، بأن يتوجها الى جهة البحيرة ، فخرج هؤلاء الأمراء وصحبتهم الجم الغفير من العسكر ، ثم بعد أيام جاءت الأخبار بأن عربان الشرقية قد كسروا الأمير قانى باى أمير آخور كبير ، وقطعوا طبوله وجرح فى وجهه ، فعند ذلك أرسل له السلطان نجدة ، فعين الأمير تمر الزردكاش أحد الأمراء المقدمين ومعه جماعة من المماليك السلطانية فتوجهوا اليه .

وفى سابع عشره — الموافق لثامن عشر بشنس القبطى — فيه خلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وابتدأ بضرب الكرة . وكان غائبا من الأمراء المقدمين ثلاثة عشر أميرا ، فجماعة منهم الى جهة الحجاز ، وجماعة مفرقة فى البلاد الشرقية والغربية والصعيد وغير ذلك من البلاد . ثم ان الأمراء الذين توجهوا الى محاربة العربان ، صاروا يقطعون رءوس شبان العرب ، ويرسلونها الى القاهرة فى شلف التبن على الجمال . وأشيع عن الأمير طراباى أنه كان ينشر جماعة من العربان بالمنشار من رءوسهم الى أقدامهم ، وسلخ منهم جماعة كثيرة وراح الصالح مع الطالح حتى مهدوا البلاد ، وقتل من العربان زيادة على ألفى انسان . فمن يومئذ سكن الاضطراب الذى كان بالشرقية والغربية قليلا ، وخف أمر العشير الذى كان طافشا فى البلاد .

***

وفى ذى الحجة حضر الى الأبواب الشريفة جانم الذى كان نائب حماة وانفصل عنها ، فأكرمه السلطان وأمره بالاقامة فى القاهرة .

وفى ليلة عيد النحر من هذا الشهر ، انتهى العمل من بناء مدرسة السلطان التى أنشأها فى الشرابشيين ، فعمل هناك فى تلك الليلة وليمة حافلة ، وحضر فيها الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، واعيان الناس من المباشرين والأمراء . وحضر فى تلك الليلة قراء البلد والوعاظ ، ومد أسمطة حافلة ، وعمل هناك وقدة حافلة ، وزينت الدكاكين التى هناك من باب زويلة الى الشوايين ، وعلقت تنانير بها قناديل موقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة .

وكان أصل من بنى أساس هذه المدرسة الطواشى « مختص » الذى كان رأس نوبة السقاة فى دولة الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر محمد . فلما تسلطن قانصوه الغورى ، تغير خاطره على مختص ، فقبض عليه وصادره ، وقرر عليه مالا له صورة ، فأعطاه هذه المدرسة من جملة ما قرر عليه من المال ، وكان بنى منها بعض شىء . فلما ملكها الغورى ، هدم ما بناه مختص ، ثم أوسع فى بنائها ، وأخذ سوق الجملون وما حوله من الأسواق ، وتناهى فى زخرفها ورخامها وبنائها ، فجاءت فى غاية الحسن والظرف والرونق ، بحيث لم يعمر فى عصرنا مثلها . ولكن شنعت عليه الناس ، أن مصروف عمارة هذه المدرسة ، كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس ، وأخذ غالب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان ، وخرب قاعة شموال اليهودى الصيرفى ، وأخذ رخامها وأبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات . وقد سمى بعض اللطفاء هذه المدرسة « المسجد الحرام » لما وقع فيها من غصوبة الأرض ، ومصروف العمارة من مال فيه شبهات . وقد شنع الناس قبله على المؤيد شيخ ، لما بنى جامعه الذى بجوار باب زويلة ، أكثر ما شنعوا على الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم اذا أطلقوها فى حق الناس ، فكان كما قيل :

ومن سوء حظ المرء فى الدهر أنه
يلام على أفعاله وهو محسن

ثم ان السلطان رسم باستبدال قيسارية الأمير على التى تجاه جامعه ، وكانت جارية فى أوقاف المدرسة الناصرية التى بين القصرين ، فلما استبدلها من الجكندار شخص يقال له « بره » هدمها وبنى مكانها القبة والمدفن والصهريج والسبيل وغير ذلك من الأماكن التى استجدها ، وقد قلت فى معنى ذلك :

بنى الأشرف الغورى للناس جامعا
فضاع ثواب الله فيه لطالبه
كمثل حمام جمعت فى شباكها
متى ألق عنها طار كل لصاحبه

وفيه حضر الناصرى محمد بن قانصوه البرجى نائب الشام ، وكان السلطان وقع بينه وبين أبيه ، فحضر وعلى يده تقدمة حافلة ، وشرع يستعطف خاطر السلطان ، وكان السلطان منع المكاتبة اليه من المراسيم وغيرها ، فلما حضر ابن نائب الشام ، خلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل بدار عمه خاير بك حاجب الحجاب .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرينه ، حضر مبشر الحجاج وأخبر أن الأتابكى قيت طرد عربان بنى ابراهيم عن مكة ، وهرب الجازانى من وجهه ولم يقابله ، وأنه مهد مكة وقبض على بركات وأخيه قايتباى ، وجماعة من اخوته ، ووضعهم فى الحديد وهو واصل بهم . فلما تحقق السلطان ذلك ، أمر بدق الكوسات بالقلعة ، وعلى أبواب الأمراء ، ونادى فى القاهرة بالزينة سبعة أيام ، فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق ، وأقامت مزينة سبعة أيام ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفيه توفى الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع المؤيدى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا من كبار علماء الحنفية ، ومات وهو فى عشر السبعين من العمر ، وكان الأشرف قايتباى أخرج مشيخة الجامع المؤيدى عن أولاد الديرى ، وقرر بها الشيخ سيف الدين الحنفى ، فلما مات قرر بها شمس الدين بن الدهانة . وكان المؤيد شيخ قرر

بها شمس الدين الديرى ، وجعل مشيخة هذا الجامع بيد أولاد الديرى ، واستمروا على ذلك الى دولة الأشرف قايتباى فلما توفى قاضى القضاة برهان الدين بن الديرى ، أخرجت مشيخة الجامع عن أولاد الديرى الى جماعة كثيرة من الحنفية ، واستمروا على ذلك الى أن تسلطن الغورى فأعاد المشيخة الى الشيخ بدر الدين بن الديرى كما كان أولا ، فعد ذلك من محاسن الغورى ، واستمر بها الشيخ بدر الدين الى أن مات ، فخلع السلطان على شخص من أبناء العجم يقال له الشيخ حسين الشريف الحنفى ، فقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن الشيخ بدر الدين بحكم وفاته ، واستمر بها الى الآن .

سنة تسع وتسعمائة (١٥٠٣ - ١٥٠٤ م) :

فيها — فى المحرم — جاءت الأخبار من مكة بأن الأتابكى قيت قد قبض على الجازانى ، ففرح السلطان لهذا الخبر ، ونادى فى القاهرة باعادة الزينة ثم ظهر بأن هذا الخبر ليس له صحة ، وهو باطل ، ولم يقبض على الجازانى ، فشق على الناس اعادة الزينة حين راحت فى البطال .

وفيه خرج الأمير تانى بك الخازندار الذى تعين قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فخرج وصحبته هدية حافلة الى ابن عثمان .

وفيه قبض شيخ العرب نجم ، على شخص من العرب العصاة من مشايخ بنى حرام ، يقال له علاء الدين بن قرطام ، فلما قبض عليه قطع رأسه وأرسلها الى القاهرة ، ، وقد قبض عليه من جبل الطور ، وحز رأسه هناك وبعث بها الى القاهرة ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة ، ثم نقلت الى خانقة سرياقوس فعلقت بها أياما . وقد عد قتل ابن قرطام من النوادر ، فانه كان فى تحصيله فرصه .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه رسم السلطان بشنق على بن أبى الجود ، فشنق على باب زويلة ، واستمر معلقا ثلاثة أيام ، لم يدفن حتى نتن وجاف ، ثم نزلوا به ودفن ، ولم يرث له أحد من الناس ، ولا ترحم عليه ، مما سبق منه فى حق الناس من الأفعال الشنيعة كما تقدم ذكر ذلك . وكان السلطان استصفى أمواله ، وعاقبه وعصره ، ودق القصب فى أصابعه ، وأحرقها بالنار ، وقاسى شدائد ومحنا ، وكان قد طاش وركب فى غير سرجه ، وكثر فى الناس هرجه ، فأغواه الشيطان ، حتى أطاع أمر السلطان . ثم انه انقلب عليه ، وأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه . فكان كما يقال فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله
رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

* * *

وفى صفر — فى يوم الثلاثاء ثامنه — كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى تاسع مسرى ، فتوجه الأمير سودون العجمى أمير مجلس ، وفتح السد على العادة ، وكان الأتابكى قيت غائبا فى مكة كما تقدم .

وفى الخميس عاشره ، دخل الأمراء الذين قد توجهوا الى الشرقية والغربية بسبب فساد العربان كما تقدم .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة الميدان الذى تحت القلعة ، فعلى حيطان سوره ، ورمى فى أرضه الطين الكثير قدر أربع أذرع ، وجعل ذلك فى

الجهة الغربية من الميدان ، ثم ساوى أرضه وفرش بها النقارة . ثم شرع فى بناء مقعد وبيت بالميدان برسم المحاكمات ، وأنشأ فى الجهة الغربيــة من الميدان قصرا حافلا ، ومنظرة ، وبحرة ، وغير ذلك من البنــاء الفاخر . ثم شرع فى نقل أشجار من ســائر الفواكه وأصناف الأزهار والرياحين وغير ذلك ، فغرست بالميدان فى الجهــة الغربيــة ، ثم أجرى اليه المياه من السواقى التى بباب القرافة ، وأجرى اليه المياه أيضا من السواقى التى بحدرة البقر . ثم أنشــأ قصرا على باب الميدان مطلا على الرملة ، وصنع ممشاة من القلعة الى الميدان بسلالم متصــلة الى ذلك القصر المطل على الرمــلة ، وجعــل للميــدان بابا كبيرا ، وعليــه سلســلة حديد ، والى جانبــه باب صغير أيضا ، وعليــه سلسلة من الحديد مثل الباب الكبــير . ثم أمر بعمارة ســبيل المؤمنين ، وعقــد سقفه بالحجر النحيت ، وأنشأ الى جانبه حوضا وساقية ، وصنع هناك مغسلا برسم الأموات ، وميضة وغير ذلك مما ينتفع به . وقيل ان السلطان صرف على بناء هــذا الميــدان من مبتدئه الى منتهاه نحوا من ثمانين ألف دينار ، ولكن وقع له فى بناء هــذا الميدان امور غريبة لم تقع لأحد قبله من الملوك ، وكان غالب مواكبــه به ، ووقع له به محــاكمات غريبة ، وأوقات عجيبــة ، يأتى الكلام عليها فى مواضعه .

* * *

وفى ربيع الأول — فى يوم الخميس ثانيه — دخــل الأتابكى قيت الرحبى وصحبته الحجــاج الذين حجوا معه تلك الســنة ، فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان صحبته أولاد أمــير مكة ، وهــم الشريف بركات ، وأخــوه قايتباى ، وبقية اخوته ، والوزير عنقا ، وأخوه ، وهم الجميع فى زناجير حديد . فما شكر الأتابكى قيت على تلك الفعــلة ، فلم يقدر على تحصــيل الجازانى ، فقبض على اخوته هؤلاء ، وأحضرهم فى الحديد وعمل حكمه فيهم . وأظهــر بمكة غاية الجور والمظالم ، وما حصل بتوجهه الى مكة خير ، بل تزايد أمر الفتنة التى كانت بين أولاد أمير مكة ، ووقع من بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليهــا فى مواضعه ، فكان كما يقال :

حججت البيت ليتــك لا تحج
فظلمك قد فشا فى الناس ضج
حججت وكان فوقك حمل ذنب
رجعت وفوق ذاك الحمل خرج

فلما طلع الأتابكى قيت الى القلعــة ، وعرض الشريف بركات واخوته على الســلطان ، رسم بفكهم من الحديد ، ونزلوا مع الأتابكى قيت الى داره ، وأقاموا بها حتى كان من أمرهم ما سنذكره فى مواضعه .

ولما دخل الحاج الى القاهرة أشيع بين النــاس وفاة الشــهابى أحمد بن العينى ، توفى بالمدينة الشريفة ، وكان لما توفى ولده الناصرى محمــد توجه الى مكة وأقام بها نحوا من ست سنين . فلما جرى من الجازانى ما تقدم ذكره ، فر منه الشهابى أحمد بن العينى الى المدينة الشريفة فأدركته المنية هناك ، فمات بها ودفن بالبقيع . وكان رئيسا حشما . وهو أحمد بن عبد الرحيم بن قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى رحمة الله عليه . وكانت والدته ربيبة الملك الظاهر خشقدم ، فلما تسلطن رقى الشــهابى أحمــد بن العينى فى أيامه الى الغاية ، وصــار صــاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، حتى صار فى زمرة أولاد السلاطين . وأنعم عليه الظاهر خشقدم بتقدمة ألف ، وهى تقدمة قانم التاجر لما قرر فى الأتابكية ، ثم بقى أمير آخور كبير

ى المؤيدى لما قرر فى الأتابكية بعد موت
ن قانم التاجر . ثم بقى أمير مجلس فى دولة
ربى بلباى ، لما قرر تمربغا فى الأتابكية ،
. على ذلك حتى تسلطن الأشرف قايتباى ،
عليه وضربه كما تقدم ، واستصفى أمواله ،
منه فوق المائتى ألف دينار . وقاسى بعد
لظاهر خشقدم شدائد ومحنا ، وآخر الأمر
طن الغورى أرسل يطلبه فى الحديد ، فلما
الأتابكى قيت الى المدينة الشريفة وجده قد
وكان السلطان رسم للأتابكى قيت الرحبى
بقبض على ابن العينى ويحضر به فى الحديد
خل المدينة وجده قد مات ودفن بالبقيع وكفاه
الغورى . وقد تقدم من أخباره ما يغنى عن
. .

كان السلطان رسم للأتابكى قيت عند عوده
مكة أن ينقل قانصوه الفاجر ، وقانم أخا
ر قانصوه ، من مكة الى القدس ، وكان
طان نفاهما الى مكة ، ثم بدا له نقلهما الى
ى ، فلما حضرا صحبة قيت شق ذلك على
طان وبعث بهما الى القدس ، ولم يقبل فيهما
ة . وكان من آمر قانصوه الفاجر ما سنذكره
وضعه .

فيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا
العادة ، وخلع السلطان على الأمير أنص باى
المقدمين ، وقرره أمير ركب المحمل ، وقرر
كب الأول تانى بك الأبح .

* * *

فى ربيع الآخر — فى يوم الجمعة مستهله —
ب فى جامع السلطان الذى أنشأه فى الشرابشيين
. تم بناؤه وجاء غاية فى الحسن والتزخرف ،
نى به مئذنة لها أربعة رءوس ، وهو أول من
نذ ذلك ، وانتهى العمل من المدرسة التى تجاه
الجامع ، وعقد هناك قبة كبيرة على المدفن ، وغلفها بقاشانى أزرق ، فلم ينطل ذلك على الناس . فكان أول من خطب بهذا الجامع قاضى قضاة دمشق الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى الشافعى ، فلبس السواد وخطب ، وكان المرقى قدامه القاضى عبد القادر القصروى . وحضر فى ذلك اليوم الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، وهم : برهان الدين بن أبى شريف الشافعى ، وعبد البر ابن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى . وحضر غالب الأمراء المقدمين ، وولد السلطان المقر الناصرى وأعيان المباشرين قاطبة ، والجم الغفير من الأمراء العشراوات والخاصكية وأعيان الناس ، وزينت الشرابشيين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .
وخلع السلطان فى ذلك اليوم ، على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، لكونه حكم بصحة الخطبة فى هذا الجامع ، وخلع على اينال شاد العمارة خلعة حافلة ، وأنعم عليه بأمرة عشرة ، وخلع فى ذلك اليوم على عدة وافرة من المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين وغير ذلك من أرباب الصناعات ممن كان بالجامع ، وأنعم على الفعلاء لكل واحد بألف درهم .

ثم فى الجمعة الثانية رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بن الشحنة بأن يخطب بهذا الجامع ، فخطب تلك الجمعة خطبة بليغة ، ولكن ميزوا خطبة قاضى القضاة عبد البر عن خطبة ابن فرفور .

وفى ربيع الآخر ثبت النيل المبارك على احدى عشرة أصبعا ، من تسع عشرة ذراعا ، وكان نيلا شحيحا وشرق غالب البلاد ، ولكن ثبت الى العشرين من توت .

وفيه حضر الأمير أزدمر الدوادار وكان مسافرا الى جهة نابلس ، وكان صحبته ماماى جوشن ،

وقانصوه كرت ، فلما صعدا الى القلعة خلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه خلع السلطان على الأمير جانم وأعاده الى نيابة حماة كما كان ، وصرف عنها قانصوه اليحياوى الذى كان أتابك العسكر بغزة .

❊ ❊ ❊

وفى جمادى الأولى ، نادى السلطان فى القاهرة بأن أصحاب الدكاكين قاطبة يقطعون الطرقات من الشوارع قدر الذراع بالعمل ، وكانت الطرقات قد عليت جدا ، فلما رسم السلطان بذلك ، حصل للناس الضرر الشامل بسبب الكلفة على ذلك ، وقد استحثوا الناس فى سرعة العمل ، وعز وجود التراية وصار الطلب فى ذلك حثيثا ، وقد قلت :

من دولة الغورى ومن جوره
لقد حملنا فوق ما لا نطيق
وقد كفى من فعله ما جرى
من قلة الأمن وقطع الطريق

وفى خامس عشره خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له « قنبك » فقرر فى نيابة غزة وخرج عن قريب .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يدور المحمل فى رجب ، وتلعب الرماحة على العادة القديمة ، وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، من دولة الظاهر خشقدم ، ونسى هذا الفن من يومئذ ، فأراد السلطان أن يجدد هذا الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا الفن ، فعين الأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش بأن يكون معلم الرماحة ، وعين معه من الباشات أربعة وهم : أبو يزيد أحد الأمراء المقدمين ، وجانم الدوادار الثانى ، وهو قرابة قانصوه خمسمائة ، وعلان والى القاهرة ، وقرقماس المقرى . وعين من الخاصكية أربعين مملوكا على جارى العادة القديمة .

❊ ❊ ❊

وفى جمادى الآخرة ، خرجت الرماحة المعينون للعب الرمح ، فلعبوا عند زاوية الشيخ أبو العباس الحرار رحمة الله عليه .

وفيه خلع السلطان على شرف الدين الصغير وقرره فى نظر الدولة ، عوضا عن مجد الدين بن كراوية بحكم صرفه عنها .

وفيه كان انتهاء عمارة المقعد والمبيت التى أنشأها بالميدان ، فجلس السلطان فى المقعد ، ورسم للرماحة بأن يسوقوا قدامه فى الميدان ، فساقوا وهو جالس وحوله الأمراء . فلما ساقوا عيبت عليهم المماليك القرانصة ، وخطأهم فى طريقة لعب الرمح عما كان يفعله الأقدمون من البنود التى كانت تقع فى لعب الرمح على العادة القديمة .

وفى يوم الخميس ثالثه كانت وفاة الشيخ الصالح المعتقد سيدى أبو الخير الكليباتى المجذوب رحمة الله عليه ، وكان من أعيان الأولياء ، فلما توفى دفن بجوار جامع الحاكم وبنى له السلطان هناك زاوية .

❊ ❊ ❊

وفى رجب حضر الأتابكى قيت ، وكان توجه الى العباسة على سبيل التنزه ، فأرسل له السلطان خلعة بسبب دوران المحمل .

وفيه ثار ريح أسود حتى أظلم منه الجو ، ووقع فى ذلك اليوم بيوت وعدة أماكن ونخيل ، ثم فى عقيب ذلك جاءت الأخبار من ثغر دمياط ، بأن فى ذلك اليوم هاج الريح هناك جدا ، حتى فاض ماء البحر الملح ، وأغرق عدة بساتين من دمياط ، وكذلك بفارسكور وحصل هناك للناس الضرر

الشامل ، وغرق فى ذلك اليوم عدة مراكب بناسها من المسافرين وكان أمرا مهولا .

وفى يوم الخميس ثامنه ، نادى السلطان فى القاهرة بالزينة بسبب دوران المحمل .

ثم فى يوم السبت عاشره لبس الرماحة الأحمر على العادة القديمة ، وطافت المسايرات بالقاهرة .

ثم فى ليلة الاثنين ثانى عشره بات السلطان بالقصر ، وأحرق تلك الليلة احراقة نفط بالرملة ، وكانت ليلة مشهودة ، ورأت الناس أشياء كانت قد نسيت . فلما كان يوم الاثنين جلس السلطان فى الخرجاة المطلة على الرملة ، وساق الرماحة قدامه بالرملة ، ثم طافوا بالكسوة الشريفة والمحمل على العادة مرتين ، باكر النهار ، وبعد الظهر ، كما كان يفعل فيما قبل . فخرجت البنت من خدرها تتفرج على المحمل بعد ما كان قد نسى أمره ، فجاءت الناس أفواجا من الخانكاه ، ومن بلبيس ، وغير ذلك من أماكن شتى بسبب الفرجة على الرماحة ودوران المحمل ، حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحافى ذى المخمل حتى أرى شكل المحمل

وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد فلما انقضى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير تمر معلم الرماحة أطلسين ، وخلع على الباشات الأربعة كوامل بسمور ، ونزلوا الى دورهم ، وانقضى أمر المحمل ، فعد ذلك من محاسن الغورى حيث فرج الناس على أشياء كانت قد نسيت فجددها ، حتى يصير له بذلك التذكار بين الملوك بعد ما نسى هذا الأمر .

وفى يوم دوران المحمل توفى الأمير مغلباى صصرق ، وكان من أعيان اشرفية برسباى ، وكان أميرا جليلا حشما رئيسا لا بأس به ، ولكن قاسى شدائد ومحنا ، ونهب بيته فى وقعة أقبردى الدوادار ، وقاسى ما لا خير فيه .

* * *

وفى شعبان قبض قاضى القضاة الشافعى برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، على محمد بن يوسف ، الذى كان ناظر الأوقاف ، فضربه ضربا مبرحا ، وأشهره فى القاهرة على حمار وهو عريان مكشوف الرأس ، لأمر أوجب ذلك . وكان منفصلا عن نظر الأوقاف ، والمتحدث بها يومئذ ناظر الخاص علاء الدين بن الامام .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن بك باى دوادار الأتابكى أزبك قد احتال على الجازانى ابن أمير مكة الذى جرى منه ما تقدم ذكره ، فقتلته المماليك المجاورون بمكة حين دخل الى الحرم ، فلما تحقق ذلك سر الناس لهذا الخبر . وكان الجازانى هذا جاهلا عسوفا سفاكا للدماء ، وجرى منه أمور شتى ، والتف عليه عربان قبيلة بنى ابراهيم ، وحصل منه غاية الضرر كما تقدم .

* * *

وفى رمضان خسف جرم القمر عند آخر الليل ، واستمر فى الخسوف نحوا من عشرين درجة .

ومن الحوادث أنه فى سابع عشر هذا الشهر قبض الوالى على أربعة أنفار من العوام وجدهم فى بستان ومعهم امرأة ، وهم يأكلون ملوحة بالنهار ، وربما قيل كانوا سكارى . فلما قبض عليهم هربت تلك الامرأة فقبض على الرجال ، وضربهم بالمقارع ، وأشهرهم فى القاهرة ، ثم سجنهم بالمقشرة فأقاموا مدة طويلة .

* * *

وفى شوال وقعت حادثة ، وهى أن الشريف بركات أمير مكة ، الذى كان مقيما ببيت الأتابكى

قيت ، هرب هو واخوته من بيت الأتابكى قيت الذى بالأزبكية . وكان السلطان قرر على الشريف بركات واخوته مالا له صورة ، فما وافقــوا على ذلك ، وهربوا على حين غفــلة . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد ولام الأتابكى قيت على ذلك ، ووقــع فى المجلس بعض تنافس بين الأمير قرقماس أمير سلاح والأتابكى قيت ، وقال قرقماس لقيت : « هذا كله شغلك أنت الذى هربته من بيتك » ، فاتسع بينهما الـــكلام حتى دخل بينهما السلطان بالصــلح ، فاصطلحوا صلحا على فساد ، وكان من أمرهمـــا ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير آنص باى أحد المقدمين ، وبالركب الأول تانى بك الأبح أحد الأمراء الطبلخانات ، ولم يحج فى تلك السنة امرأة لفســاد العربان بطريق مكة .

* * *

وفى ذى القعدة حضر تانى بك الخازندار ، وهو المحتسب أيضـــا ، الذى كان قد توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فكانت مدة غيبته فى هذه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه فيما بعد بتقدمة ألف .

وفيه أرسل أقباى الكاشف برأس شخص من عربان الشرقية ، وكان من العصاة ، يقال له ابن بيسار وله حكايات غريبة يطول شرحها ، وكان من شرار العــربان . فلما أحضرت رأســه بين يدى السلطان ، رسم بتعليقها على باب زويلة .

وفى عقيب ذلك قبض أقباى الكاشف أيضا على شخص من العربان المفسدين يقــال له ابن بهيج ، فلما قبض عليــه بعث به للسلطان فرسم بشنقه فشنق على باب النصر .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره توفى الأمير أبو يزيد الصغير أحد المقدمين ، فنزل السلطان وصلى عليه

وفى أثنـــاء هذا الشـــهر ظهر الطاعون بالديار المصرية وفشا ، لكنه كان خفيفا بالنسبة للطاعون الذى كان فى السنة التى تليها ، وهى سنة عشر وتسعمائة كما سنذكره .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض وابتدأ بضرب الكرة .

وفيه رسم السلطان بأن يقطعوا الخلجان على قدر ثلاثة أذرع ونصف ، فشق ذلك على أصحاب الأملاك ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك وعز وجود الترابة لأجل شيل التراب ، فلما عظم الأمر ، باع غالب الناس أملاكهم التى على الخلجان بأبخس الأثمان ، فى نظير شيل التراب .

* * *

وفى ذى الحجة أشيع بين الناس بأن عنبر مقدم المماليك ، قد هرب وتوجه الى نحو بلاد التكرور . وسبب ذلك أن السلطان طلب منه مالا لم يقدر عليه ، فهرب وظن أنه يختفى أمره . ثم بعد مضى أربعة أيام قبضوا عليه وأحضروه بين يدى السلطان فرسم بسجنه فى العرقانة . قيــل لما قبض عليه ، ووقف بين يدى السلطان ، وبخه بالكلام وقال له : « من ايش هربت وانت بقيت مقدم المماليك أمير عشرة » ، فقـــال له عنبر : « من عادة العبيـــد السودان الهروب » . فاستحسن السلطان منه ذلك الجواب .

وفى أواخر هذا الشـــهر قوى أمر الطاعون بالقاهرة ، وفشا أمره بعد مضى أيام فطر النصارى ،

وهى التى يسمونها الخماسين . وقد ظهرت الثريا ، واستمر الطعن عمالا حتى دخل شهر بؤونة القبطى ونزلت النقطة ، وهذا بخلاف العادة حتى عد من النوادر . لكنه كان خفيفا بالنسبة لما جاء بعده فى سنة عشر وتسعمائة . وقد وقع الطاعون فى سنتين متواليتين حتى عد من النوادر .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه ، كانت وفاة خوند فاطمة ابنة العلاء على بن خاص بك ، وهى زوجة الملك الأشرف قايتباى ، ثم تزوجت بعده بالعادل طومان باى ، وقيل تزوجت بالأشرف قانصوه خمسمائة فى الخفية على ما يقال ، وكانت من مشاهير الخوندات فى سعة من المال وقد ظهر لها فيما بعد تركة حافلة ، وأقامت فى الخوندانية وهى صاحبة القاعة نحوا من ثلاثين سنة ، وأظهرت من الفتك والعظمة ما لا أظهره غيرها من الخواندات ، وماتت وهى فى عشر الستين سنة من العمر . ولما ماتت أخرجت فى بشخانة زركش ، ومشت قدامها القضاة الأربعة والأمراء المقدمون . ونزل السلطان وصلى عليها فى سبيل المؤمنين ، ونهب العوام الكفارة من قدامها ، حين وصلت الى رأس الصليبة ، وكان لها جنازة حافلة .

وجرت عليها فى أواخر عمرها شدائد ومحن ، منها أن المماليك الجلبان ، هجموا عليها وهى فى دارها التى بجوار قنطرة سنقر ، وطلبوا منها نفقة ، وأغلظوا عليها فى القول ، وقصدوا الاخراق بها . وكان القائم فى ذلك طائفة من المماليك ، من حلف الأمير أقبردى الدوادار . فلما بلغ الملك الناصر ذلك تعصب لها ، ونادى فى القاهرة بأن طائفة المماليك قاطبة لا يتوجهون الى بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، ولا يقفون لها على باب ، وكل من فعل ذلك شنق بلا معاودة ، فانكفوا عنها من يومئذ . وسبب ذلك أنه قد بلغ المماليك بأن خوند قد تزوجت بقانصوه خمسمائة فى الدس ، فلما قتل تحرشوا بها وطلبوا منها نفقة ، واستمرت مختفية عن بيتها مدة من بعد ذلك .

ومنها أن الظاهر قانصوه صادرها ، وأخذ منها مالا له صورة ، ووكل بها جماعة من الخدام حتى أوردت ما قرر عليها . وكذلك الملك الناصر أخذ منها جملة مال . ثم انهـا تزوجت من بعد ذلك بالعادل طومان باى فأقامت معه نحوا من شهرين ، وجرى له ما جرى . واستمرت من بعد ذلك مريضة وقد طلع لها فى خدها أكلة ، وأقامت بها مدة طويلة ، فلما ثقلت فى المرض توجهت الى بولاق ، ثم ماتت هناك ، وحملت وهى ميتة الى دارها التى بجوار قنطرة سنقر ، فأخرجت جنازتها من هناك .

وفى أثناء هذه السنة كانت وفاة العلامة الحافظ فخر الدين عثمان الديمى شيخ الحـديث ، وكان عالما فاضلا محدثا دينا خيرا ، ومات وهو فى عشر الثمانين ، وكان لا بأس به .

وفيها توفى أيضا القـاضى ولى الدين محمد النحريرى المالكى أحد نواب المالكية ، وكان رئيسا حشما فاضلا فى مذهبه من أعيان المالكية ، وكان لا بأس به .

سنة عشر وتسعمائة (١٥٠٤ — ١٥٠٥ م) :

فيها — فى المحرم — خلع السلطان على عنبر الطواشى وأعاده الى تقدمة المماليك كما كان أولا ، وقد قاسى شدائد ومحنا وسجن فى العرقانة مدة ، ثم رضى عليه السلطان وأعاده الى وظيفته ، وقد استحسن منه السلطان جوابه أن من عادة السودان الهروب فعفا عنه فيما بعد .

وفيه أخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع على حكم السنة الماضية .

وفيه ، فى الثالث والعشرين ، دخل الحاج الى القاهرة مع السلامة .

وفيه أشيع بين الناس بوقوع فتنة كبيرة فوزع الناس فماشهم فى الحواصل : فلما بلغ السلطان ذلك جمع الأمراء ، وأحضر لهم المصحف العثمانى ، وحلفهم عليه ، فخمدت تلك الاشاعات الفاسدة .

* * *

وفى صفر عرض السلطان جماعة من أولاد الناس ، ومن المماليك السيفية ، ممن كان قطع جوامكهم ، وقرر لجماعة منهم جوامكهم وجماعة بحكم النصف .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ستة أيام ، فقلقت الناس لذلك ، وتشحطت الغلال ، وتكالب الناس على مشترى الغلال ، ثم ترادفت الزيادة من بعد ذلك حتى أوفى عن قريب .

* * *

وفى ربيع الأول ، خلع السلطان على الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى قاضى القضاة بدمشق ، وقرره فى قضاء الشافعية بمصر ، عوضا عن القاضى برهان الدين بن أبى شريف المقدسى بحكم صرفه عنها . وقد جمع الشهاب بن فرفور بين قضاء الشافعية بمصر والشام فى وقت واحد ، فعد ذلك من النوادر .

وفى سابعه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى خامس عشرين مسرى ، فتأخر عن النيل الماضى سبعة عشر يوما ، فزاد عن الوفاء فى ذلك اليوم خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة ، فكان كما قيل فى المعنى :

يانيل مصر كم بد لك بالوفا
أوليتنا بالكسر جبرا دائما
قد زدت قبل الكسرخمس أصابع
كرما فكانت للوفاء خواتما

فلما أوفى توجه الأتابكى قيت وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا . وهذا كان آخر فتح الأتابكى قيت للسد وقد أخذ عقيب ذلك وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه حضر سيف قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى نائب الشام ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وولى عدة وظائف سنية وآل أمره الى أن بقى نائب الشام ومات بها .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه خلع السلطان على قانى باى قرا أمير آخور كبير وقرر فى أمرة ركب المحمل ، وقرر بالركب الأول جان بردى تاجر المماليك .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شيخ العرب بيبرس بن أحمد بن بقر ، وأعاده الى مشيخته كما كان أولا .

وفيه خسف جرم القمر عند طلوعه واستمر فى الخسوف نحوا من خمسين درجة .

وفيه خلع السلطان على قنبك بن شاد بك ، وقرر فى رأس نوبة الثانية ، عوضا عن تمراز جوشن بحكم وفاته بدمشق ، وكان قد توجه فى بعض مهمات السلطان فمات هناك .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره قبض السلطان على القاضى بدر الدين محمد بن مزهر ، الذى كان متوليا لكتابة السر وعزل عنها . فأرسل اليه السلطان بعض البابية ، فتوجه الى بيته الذى ببركة الرطلى ، فقال له : « قم كلم السلطان » فقام وطلع

معه الى القلعة ، فلما وقف بين يدى السلطان وبخه بالكلام ، ثم شكه فى الحديد ، وسجنه بالعرقانة . وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان بأن بدر الدين بن مزهر اجتمع بالأتابكى قيت الرجبى ، وقال له : « قم وتسلطن وضمان نفقة البيعة على » ، وقيل انه كتب قوائم بأسماء جماعه من حاشيه السلطان ، ووزع عليهم مالا له صورة ، وذكر فى القوائم جماعة من المباشرين وغير ذلك ، حتى أسمى فيهم ابن السلطان ، وخاير بك الخازندار ، وبركات ابن موسى ، وآخرين من جماعة السلطان ، فتكلم الأعداء فى حق بدر الدين بن مزهر بسبب ذلك ، وغيروا خاطر السلطان عليه ، وآل أمره من بعد ذلك الى كل سوء ، حتى كان ما سنذكره فى موضعه .

* * *

وفى ربيع الآخر ، عمل السلطان الموكب بالحوش ، وخلع على الأمير سودون العجمى ، وقرره فى نيابة الشام عوضا عن قانصوه البرجى بحكم وفاته . وخلع على الأمير خاير بك ، أخى قانصوه البرجى الذى كان نائب الشام ، وقرره فى نيابة حلب عوضا عن سيباى الذى كان بها ، ورسم لسيباى بأن يحضر الى القاهرة ليلى أمرة مجلس عوضا عن سودون العجمى بحكم انتقاله الى نيابة الشام ، فلم يتم هذا الأمر وكان ما سنذكره فى موضعه .

وفى هذا الشهر ثبت النيل المبارك على ثلاث عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى ثامن عشرين توت .

وفيه خلع السلطان على الأمير أنص باى بن مصطفى ، وقرر فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن خاير بك بن يلباى ، أخى قانصوه البرجى الذى كان نائب الشام ، بحكم انتقاله الى نيابة حلب كما تقدم .

وفى هذا الشهر اهتم السلطان بعمارة قاعة البيسرية وقاعة العواميد ، وغير ذلك من الأماكن التى بالقلعة ، فجدد ما فيها من العمارة ، وزخرفها الى الغاية . لكن حصل منه غاية الضرر ، منها أنه رسم للقاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بأن يفك رخام قاعة والده ناظر الخاص يوسف ، التى سماها نصف الدنيا ، وكان فيها الرخام المثمن الذى لايوجد . وقد أفنى ناظر الخاص يوسف عمره على بناء هذه القاعة ، فلا زال به السلطان حتى فك رخام نصف الدنيا ، ونقله الى قاعة البيسرية ، وقاعة الأعمدة ، وغير ذلك مما أنشأه بالقلعة ، فحصل على أولاد ناظر الخاص ، بسبب ذلك ، ما لا خير فيه . وكانت هذه الواقعة من أقبح الوقائع . ولو أن السلطان نقل هذا الرخام الى مدرسته لكان أولى من وضعه فى قاعة البيسرية . كما يقال : « فأفقرنى فيمن أحب ولا أستغنى » . وقد قلت فى هذه الواقعة مطلع زجل فى معنى ذلك :

سلطاننا الغورى قد جار — والصبر منا قد أعيا
وصار فى ذا الجور عمال — حتى خرب نصف الدنيا

وفيه جاءت الأخبار من غزة بوفاة الشيخ الصالح المعتقد المسلك ، سيدى محمد الغزاوى ، رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية .

* * *

وفى جمادى الأولى كملت عمارة مدرسة السلطان التى أنشأها تجاه جامعه الذى بالشرابشيين ، وأنشأ هناك مدفنا له ، وعقد فوقه قبة ، وأنشأ صهريجا ومكتبا ، وقرر بهذه المدرسة حضورين وصوفية ، يحضروا بكرة والعصر ، وجعل قاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف شيخ

الحضور باكر النهار ، ومحب الدين الحلبى الامام تسيخ الحضور العصر ، كما أمر بدلك . فجاءت هده المدرسة من محاسن الزمان ، ولا سيما فى هذا الخط الذى لم يتفق لأحد من الملوك البناء فيه ، فعد ذلك من جملة سعد قانصوه الغورى . وكان أصل هذا المكان قيسارية تسمى قيسارية الأمير على ، فاستبدلت من وقف الناصر محمد بن قلاوون .

ووقع للغورى أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك ، منها : أنه نقل الأثر الشريف النبوى من مكانه الذى كان به المطل على بحر النيل ، فجعله فى مدرسته ، حتى عد ذلك من النوادر . وقد تعب الصاحب بهاء الدين بن حنا فى نقل هذا الأثر الشريف . وكان عند جماعة من بنى ابراهيم بالينبع ، فلا زال يتلطف بهم حتى اشتراه منهم بستين ألف درهم بالدراهم القديمة ، ثم نقله الى الديار المصرية وبنى له مسجدا مطلا على بحر النيل . وكان الناس يقصدون الزيارة اليه فى كل يوم أربعاء . فلما تلاشى أمر ذلك المكان الذى كان به الأثر الشريف استفتى السلطان العلماء ، فأفتوه بنقله الى مدفنه بالقبة ، وهذا بخلاف شرط الواقف .

ثم ان السلطان نقل المصحف العثمانى الى مدرسته أيضا ، وعد ذلك من النوادر . ثم نقل الى المدرسة أيضا الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب التى كانت بالخانقاه البكتمرية التى بالقرافة . قيل ان مشتراها على الواقف ألف دينار ، ولم يكتب نظير هذه الربعة ، سوى ربعة أخرى بخانقة سرياقوس ، اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار أيضا . وأخرى بالمدينة الشريفة ، وأودعها بهذه الخانقة .

وقد وقع للأشرف قانصوه الغورى فى مدرسته من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك ، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود . ولما نقل الأثر الشريف والمصحف العثمانى الى مدرسة السلطان ، كان له يوم مشهود ، ونزل قدامه القضاة الأربعة ، والأتابكى قيت ، وجماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا بالأعلام وهم يذكرون .

وفى ذلك اليوم ، خلع على الشيخ برهان الدين ابن أبى شريف ، وقرره فى مشيخة هذه المدرسة . وقد صرف عن قضاية القضاة ، وانفرد بمشيخة مدرسة السلطان ، واستمر بها الى الآن . وقد قلت من قصيدة مدحت بها السلطان ، وقد عرضت عليه واستحسنها ، فمن أبياتها قولى فى جامعه الذى أنشأه ، وهو قولى :

بنى بمصر لله بيتا	رخامه قائم ونائم
فجاء فى حسنه فريد	من كل عيب يقال سالم
فليس يبنى له نظير	فى سائر المدن والأقالم

وفيه — فى يوم الخميس — ثانى عشرينه — عرض السلطان القاضى بدر الدين بن مزهر بالحوش بين العسكر ، وهو فى الحديد فوبخه بالكلام ، ثم بطحه وضربه ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك وهذا أول عقابه .

وفيه أحضرت جثة قانصوه المحمدى البرجى الذى كان نائب الشام ، فلما حضرت دفنت بتربة أخيه الأمير خاير بك التى أنشأها بباب الوزير .

* * *

وفى جماى الآخرة رسم السلطان للرماحة بأن يسوقوا على العادة ، ويدور المحمل فى رجب كما فعل فى العام الماضى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سيباى نائبها ، امتنع عن الحضور الى القاهرة ، ولم يوافق بأن يلى أمير مجلس ، وقد أظهر العصيان . فلما تحقق السلطان ذلك ، بطل أمر سودون العجمى من نيابة

الشام ، وأعيد الى أمرة مجلس كما كان ، وأرسل السلطان خلعة وتقليدا الى أركماس نائب طرابلس ، بأن يكون نائب الشام عوضا عن سودون العجمى الذى كان قد قرر بها .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، توفى الحافظ تقى الدين بن الأوجاقى ، وكان من أعيان مشايخ الحديث ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، ومات وقد جاوز المائة سنة من العمر .

وفى يوم الأحد تاسع عشره توفى ابن المحرقى ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه خرج الأمير خاير بك الذى قرر فى نيابة حلب ، فكان له يوم مشهود ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه الأمراء قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار بأن دولات باى ، قرابة العادل طومان باى ، الذى كان نائب الشام ، وولى أيضا نيابة طرابلس ، وقد أظهر العصيان ، والتف على سيباى نائب حلب ، وقد توجهوا الى دمشق ، وحاصروا المدينة ، وقد أشرفوا على أخذها . فلما تحقق السلطان ذلك ، اضطربت أحواله ، وأراد أن يبطل دوران المحمل فى رجب ، فمنعه الأمراء من ذلك . ثم انه جمع الأمراء فى قاعة البحرة ، وضربوا هناك مشورة فى أمر سيباى نائب حلب ، ودولات باى ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب العصر .

وفيه عاقب السلطان بدر الدين بن مزهر ، وعصره فى آكعابه وركبه ، ودق القصب فى أصابعه ، وأحرقها بالنار حتى وفعت عقد أصابعه ، ثم نوعوا له أنواع العذاب ، فأخذوا له كماشة حديد ، وأحموها بالنار واختطفوا بها أبزازه وأطعموها له ، ثم أخذوا له حبل قنب ولووه على أصداغه حتى نفرت عيناه من وجهه وسالت على خديه ، وقاسى ما لا خير فيه ، وعذب بأنواع العذاب الشديد . وكان المتولى عقابه الحاج بركات ابن موسى ، ومعين الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وابراهيم دوادار الوالى ، والريس كمال الدين المزين ، فما أبقوا ممكنا فى عذابه . وكان هذا من مقت الله تعالى فى حق بدر الدين بن مزهر ، وقد روى فى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول « اذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » .

***

وفى رجب — فى يوم الأربعاء رابعه — توفى القاضى بدر الدين بن مزهر بالقلعة ، وقد مات تحت العقوبة ، فغسل بالقلعة وكفن وصلى عليه ، ونزلوا به من القلعة وتوجهوا به الى تربة أبيه فدفن عليه . وكان رئيسا حشما تولى عدة وظائف سنية منها نظارة الخاص ، والحسبة ، وكتابة السر تولاها عن أبيه ، وكان جميل الهيئة مليح الشكل ، وتوفى عن ثلاث وخمسين سنة من العمر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر أنصارى الأصل ، وهو محمد بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان ، الشهير بمزهر الدمشقى الأنصارى الشافعى ، وكان له اشتغال بالعلم لكنه كان يتقرب الى خواطر الملوك بايذاء الناس ، فأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وقد رثيه بقولى مع التضمين :

خسف البدر المفدا ... وبسحب الترب غابا
يا ترابا ضم بدرى ... ليتنى كنت ترابا

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار بأن دولات باى أخا العادل توجه الى حماة ونهب غالب ضياعها ، وفر منها النائب الذى كان بها ، وقبض على أعيان أهلها . فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة الى البلاد الشامية ، وعين الأتابكى قيت باش العسكر وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم بطل ذلك

فيما بعد وعين الأمير أزدمر الدوادار باش العسكر ، وصحبته جماعة من الأمراء عير تلك الطائفة التى تعينت صحبة قيت ، ولم يتم ذلك أيضا وكان من الأمر ما سنذكره

وفيه ترافع الشيخ أبو شامة مع خليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، فرسم السلطان بايداع خليفة سيدى أحمد البدوى فى الترسيم ، ثم ان السلطان خلع على ولد خليفة سيدى أحمد البدوى ، وقرره فى المشيخة ، عوضا عن أبيه ، وأشرك معه شخصا من الأتراك يقال له لاجين رأس نوبة الجمدارية ، وقرره أيضا ناظرا على مقام سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه .

وفى يوم تاسعه نودى فى القاهرة بالزينة ، بسبب دوران المحمل ، ولبس الرماحة الأحمر على العادة ، وكان معلم الرماحة تمر الحسنى الزردكاش أحد المقدمين والباشات الأربعة على حكم السنة الماضية غير أنه لما توفى الأمير أبو يزيد ، وكان أحد الباشات ، قرر عوضه شخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له مصرباى ، فساقوا فى هذه السنة أحسن مما ساقوا فى العام الماضى ، وبات السلطان بالقصر وأحرقوا قدامه احراقة نفط حافلة ، ودارت المسايرات فى القاهرة على العادة القديمة ، ثم ساقوا الرماحة بالرملة مرتين على العادة ، ونزلوا عن خيولهم وباسوا الأرض للسلطان فى الرملة عند انتهاء اللعب ، كما كان يفعل للملك الظاهر خشقدم ، فأول من أحدث ذلك السلطان قايتباى لما كان يسوق فى المحمل ، ثم دار المحمل وكسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، فلما انقضى أمر المحمل خلع السلطان على المعلم والأربعة باشات ونزلوا الى دورهم .

وفى هذا الشهر خلع السلطان على شيخ العرب بيبرس بن بقر وقرره فى شياخة العرب على عادته ، وقرر أقباى فى كشوفية الشرقية على عادته ، وكانت الشرقية يومئذ فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان .

ومن الحوادث أنه فى يوم الاثنين سادس عشر رجب ، قبض السلطان على الأتابكى قيت الرحبى ، وهو واقف بالحوش بين الأمراء فأدخلوه قاعة البحرة ، وقبضوا معه على الأمير أزبك المكحل ، فكثر القيل والقال فى ذلك اليوم ، ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بالأمان والاطمان ، والبيع والشراء ، فسكن ذلك الاضطراب قليلا . وكان الأتابكى قيت ظالما غاشما عسوفا ، واسطة سوء قليل الخير كثير الأذى ، وهو الذى كان سببا لأخذ أجرة الأملاك سبعة أشهر ، وكذلك خراج الاقطاعات والرزق عن سنة كاملة ، ثم تسبب فى قطع جوامك أولاد الناس والأيتام والنساء ، وحصل منه غاية الضرر للناس قاطبة ، وكان اذا استعمل صانعا يقطع أجرته ، وقد اجتمع فيه أشياء كثيرة من المساوىء . وقد اسود وجهه من كثرة المظالم ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا مشبها فى فعله لونه
لم تخط ما أوجبت القسمه
فعلك من لونك مستخرج
والظلم مشتق من الظلمه

ولما قبض السلطان على قيت ووبخه بالكلام أنكر ما نقل عنه ، فأحضر له السلطان عدة مراسيم مما كان يكاتب بها النواب مما نقل عنه ، فعند ذلك تبين صحة ما نقل عنه ، وافتضح بين الأمراء . وكان سبب تغير خاطر السلطان على الأتابكى قيت الرحبى ، أنه كان له الغرض التام بأن يتسلطن ، فكاتب سيباى نائب حلب بأن يظهر العصيان ، حتى

يخرج اليه قيت فى التجريدة ، فاذا توجه الى البلاد الشامية ، التف عليه دولات باى الذى كان نائب طرابلس ، وسيباى نائب حلب ، وغير ذلك من النواب ، ويتسلطن هناك كما فعل العادل طومان باى . فلما تحقق السلطان ذلك ، أبطله من باشية العسكر ، بعد أن عينه صحبة التجريدة التى تعينت الى سيباى نائب حلب . ثم لما انقضى أمر المحمل ، قبض عليه عقيب ذلك ، وأدخله الى قاعة البحرة ثم قيده وزنجره ، وقبض معه على الأمير أزبك المكحل . ثم ان السلطان احتاط على موجود الأتابكى قيت من صامت وناطق ولم يترك له شيئا ، فوجد عنده أشياء كثيرة من آلة السلاح ، ووجد له من الذهب العين ستين ألف دينار ، ومن البرك والخيول والقماش أشياء كثيرة ، فاحتاط السلطان على ذلك جميعه ، واستمر قيت فى التوكيل به فى قاعة البحرة .

وفى سلخ هذا الشهر ، بات السلطان بالقصر ، وعمل الموكب بالشاش والقماش ، فلما أصبح يوم الاثنين ، خلع على المقر السيفى قرقماش بن ولى الدين أمير سلاح ، وقرره أتابك العساكر بمصر — عوضا عن قيت الرحبى — بحكم القبض عليه ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه سائر الأمراء وغالب العسكر .

* * *

وفى شعبان — فى يوم السبت حادى عشره — رسم السلطان باخراج قيت الرحبى الى ثغر الاسكندرية ، فنزلوا به من القلعة وهو مقيد مزنجر وخلفه أوجاقى بخنجر ، وقدامه أزبك المكحل أحد الأمراء المقدمين .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بنفى شخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له يلباى ، قيل انه قرابة سيباى نائب حلب .

فنزلوا بالأتابكى قيت ومن معه من الأمراء بعد العصر من باب الدرفيل وتوجهوا به من خلف القلعة الى البحر فأنزلوه فى مركب وأقلعوا به فى يوم هوا مريسى ، وكان المتسفر عليه الأمير جانم الدوادار الثانى ، وعلان والى القاهرة ، ونحو من خمسين مملوكا من المماليك السلطانية ، فسجنوا قيت بثغر الاسكندرية . وكان يومئذ خدابردى مملوك السلطان متوليا نيابة الاسكندرية ، فسب قيت الرحبى عند ما سجن بالبرج ، وما قاسى منه خيرا ، وكان خدابردى تقرر فى نيابتها — عوضا عن تانى بك النجمى — بحكم انتقاله الى التقدمة من نيابة الاسكندرية . وتوجهوا بأزبك المكحل الى نحو دمياط فسجن بها ، فعد نفى الأتابكى قيت من جملة سعد السلطان ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وقد قلت فى ذلك :

قد كان قيت باغيا   ولكل شر يسرع
فجنى عليه بغيه   ولكل باغ مصرع

وفيه خلع على الأتابكى قرقماس بن ولى الدين خلعة الأنظار ، فنزل من القلعة ، وتوجه الى البيمارستان المنصورى ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع على الزينى بركات بن موسى وقرر فى حسبة القاهرة ، وقد عد من جملة أعيان الرؤساء بمصر ، وقد عظم أمره جدا ، وقد قيل فى المعنى :

من ولى الحسبة يصير على
تعرض الواقف والعابر
فليس يحظى بالمنى والغنى
فيهم سوى المحتسب الصابر

وفيه رجع الأمراء الذين توجهوا صحبة الأتابكى قيت فسجنوه بالاسكندرية ورجعوا .

وفيه عرض السلطان المحابيس من الرجال

والنساء ، فأفرج عن جماعة منهم ، وصالح عنهم أرباب الديون وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على الناصرى محمد ابن القمارى ، وقرره أمير شكار ، عوضا عن محمد ابن أحمد بن أسنبغا الطيارى بحكم صرفه عنها .

وفيه تسحب من سجن العرقانة التى بالحوش السلطانى ، شخص من الأتراك يقال له أرزمك ، وكان له مدة طويلة وهو فى السجن ، وقيل انه هو الذى قتل العادل طومان باى فلما تسحب خنق السجان حتى مات ، وأخذ ثيابه ولبسها ونزل من باب السبع حدرات ، فاضطربت القلعة فى تلك الليلة ، وهرب بعض الطواشية ، ثم بعد ثلاثة أيام أرسل يطلب من السلطان الأمان وقد شفع فيه الأتابكى قرقماس ، فعفا عنه السلطان من القتل ورسم بنفيه .

وفى أثناء هذا الشهر افشا الطاعون بالديار المصرية ، وقد وقع فى أواخر السنة التى قبلها ، وكان تارة يقوى ، وتارة يخفه ، ثم قوى أمره فى هذه السنة ، وهجم فى هذا الشهر جملة واحدة ، فلما تزايد الأمر فتح السلطان مغسلا للأموات بجوار سبيل المؤمنين فحصل به للناس غاية النفع .

وفى يوم السبت تاسع عشره توفى القاضى كمال الدين بن مزهر أخو القاضى بدر الدين كاتب السر كان ، وكان شابا رئيسا حشما وولى كتابة السر بعد أخيه بدر الدين فى دولة الظاهر قانصوه .

ومن العجائب أن أولاد القاضى أبو بكر بن مزهر كاتب السر ماتوا الثلاثة فى سنة واحدة ، فبدر الدين مات تحت العقوبة كما تقدم ، وأخوه يوسف شنق نفسه من خوفه من السلطان ، وأخوه كمال الدين مات مطعونا ، فكانت آجالهم متقاربة من بعضهم ، وكانوا أشكالا حسنة ولا بأس بهم .

* * *

وفى شوال كان العيد بالجمعة ، وخطب فى ذلك اليوم خطبتان ولهج الناس بزوال السلطان عن قريب ولم يكن ذلك .

وفيه حضر قاصد على دولات وقد أرسل يشفع عند السلطان فى سيباى نائب حلب ، ودولات باى نائب طرابلس ، وكان قد أشيع عنهما العصيان ، وأنهما من عصبة قيت الرحبى ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفيه تزايد أمر الطاعون ، وفتك فى الأطفال والمماليك والعبيد والجوار والغرباء ووصل الى أربعة آلاف جنازة كل يوم ، وعز وجود السكر النبات حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف ، وعز وجود البطيخ الصيفى والرمان .

وفيه توفى القاضى ابراهيم اللادنى مستوفى الزردخاناه ، ومات ابنه محمد عقيب موته رحمهما الله تعالى ، وكان رئيسا حشما من أعيان المباشرين .

وفيه نودى فى القاهرة من قبل السلطان بأن لا يعمل عزاء بطارات ولا نائحة تنوح على ميت ، ثم غمز على نائحة عملت عزاء بطارات ، فجرسها بركات بن موسى على حمار ، والطارات معلقة فى عنقها ، ووجهها ملطخ بالسواد ، فلما جرى ذلك رجع النساء عن تلك الأفعال الشنيعة . ثم نادى الوالى أن النساء لا يخرجن فى نعى بالليل .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل ، قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وبالركب الأول جان بردى تاجر المماليك ، فلما تزايد أمر الطاعون نادى السلطان بأن أرباب الوظائف من

الأمراء ، يمنعون النقباء من جلوسهم على أبوابهم قاطبة ، وألا يشتكى أحـد خصمه الا من الشرع الشريف ، ثم رسـم السلطان لحاجب الحجاب ، ووالى القاهرة ، بأن يكبسوا بيوت النصـارى ويكسروا ما عندهم من جرار الخمر ، ويحرقوا أماكن الحشيش والبـوزة ، ولا يبقـوا فى ذلك ممكنـا ، وقـد وقع فى دولة الأشرف شـعبان ابن حسين ما يقرب من هـذه الواقعة حتى قال فى ذلك الأديب ابراهيم المعمار مواليا فى المعنى :

يا من على الخمر أنكر غاية النكران
لاتمنع القس يملأ الدن والمطـران

وأمر ببلع الحشيشة تكتسب أجران
وتغتنم دعوة المصطول والسكران

وكان ذلك فى سنة تسع وستين وسبعمائة .

وفى خامس عشرينه خلع السلطان على قاصد على دولات ، وأذن له بالعـود الى بلاده ، وكتب له الجواب عن أمر سيباى نائب حلب ودولات باى نائب طرابلس .

وفى ثامن عشرينه توفيت للسلطان ابنة وكانت مستحقة للزواج ، فأخرجت فى بشـخانة زركش وقدامها كفارة ، وصلى عليها فى الجامع الأزهر ، ودفنت فى مدرسة أبيها داخل القبة ، وكان لهـا جنازة مشهودة .

* * *

وفى ذى القعـدة — فى يوم مستهله — توفى الأمـير جانم الدوادار الثانى ، وكان يقرب الى الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان شابا جميـل الهيئة ، شجاعا بطلا مشهورا بالفروسـية ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى جمـاعة كثيرة من الأمراء العشراوات ومن الخاصكية .

وفيه توفى للأمير طراباى ابن صغير عمره دون العشر سنين ، وتوفى له عبـد حبشى كان جمقدارا له ، فوجد عنده من الذهب العين ثمانيـة آلاف دينار غير القماش ، وتوفى له بواب الواحى فوجد له من الذهب العين ألف دينار خارجا عن مساطير على الناس .

وفى هذا الشهر أظهر السلطان العدل فى الرعية ونادى فى القاهرة بأن المشاهرة التى كانت مقررة على الحسبة قد أبطلها السـلطان ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح الناس بذلك ، فلما مضى أمر الطاعون أعيدت كما كانت وزيادة .

وفى يوم الجمعة سادسه كانت وفاة المقر الناصرى محمد ولد السلطان ، وكان متولى شادية الشراب خاناه ، وكان شابا جميل الصورة ، مليح الشكل ، بهى المنظـر ، توفى وله من العمر نحو من ثلاث عشرة سنة ، وكان وافر العقل ، قليل الأذى ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، وكانت وفاته بالقلعة وصلى عليه بعد صلاة الجمعة عند باب الستارة ، ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدامه الأمراء فتوجهوا الى الدرب الأحمر وأدخلوه من خوخة أيدغمش ، وكانت له جنازة مشـهودة ، ونهب العـوام الكفارة من قدامه عنـد باب الوزير ، واستمر الأمراء ماشين حتى أتوا به الى مدرسـة أبيه فدفن بها داخل القبة ، وقد رثيته بقولى :

لهفى عـلى من كـان ظنى أننى
أفنى المـدائح فى الثناء قوافيا

فمضى وأثكلنى فها أنا ناظـم
تلك المعـانى الغر فيـه مراثيا

ثم فى عقيب ذلك توفيت للسلطان سرية جركسية وهى أم ولده الصغير فدفنت داخل القبة أيضا .

وفى يوم الثلاثاء عاشره توفى جان قلج الخازندار

أحد الأمراء العشراوات ، وكان من خواص السلطان وكان شابا جميل الهيئة مليح الصورة ، وقد أقبلت له الدنيا ، وكان تعين للدوادارية الثانية قبل موته .

وفى يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان على علان بن قراجا والى القاهرة ، وقرره فى الدوادارية الثانية — عوضا عن جانم قريب قانصوه خمسمائة — بحكم وفاته . وخلع على قانصوه المعروف بأبى سنة ، وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن علان بحكم انتقاله الى الدوادارية الثانية ، وخلع على الأمير طومان باى قريب السلطان وقرر فى شادية الشراب خاناه عوضا عن ابن السلطان بحكم وفاته .

وفى يوم الأربعاء خامس عشرينه ، توفى الناصرى محمد بن الأمير تانى بك قرا أمير مجلس كان ، وكان من أعيان أولاد الأمراء رئيسا حشما لابأس به .

وفى سادس عشرينه توفى أزبك النصرانى أحد الأمراء العشراوات أمير شكار ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه توفى الشهابى أحمد خليفة سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله عنه وكان من أعيان مشايخ الصوفية ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

* * *

وفى ذى الحجة خلع السلطان على القاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ، وقرر فى نظر الجيش عوضا عن الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص .

وفيه رسم السلطان باحضار أربعة من الأمراء العشراوات الذين كانوا نفوا الى ثغر دمياط ، فلما حضروا ألبسهم سلاريات بسنجاب ونزلوا الى دورهم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة القاضى بهاء الدين بن قدامة الحنبلى ، وكان تولى قضاء مصر ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ثم قرر فى قضاء الحنابلة بدمشق فخرج اليه ومات فى أثناء الطريق .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وذلك فى حادى عشرين بشنس القبطى ، ثم ابتدأ بضرب الكرة .

وفيه دخلت خماسين النصارى والطعن عمال ، وقد فتك فى الناس فتكا ذريعا وأفنى من المماليك والعبيد والجوار والأطفال والغرباء ما لا يحصى ، وفى هذه الواقعة يقول شيخنا جلال الدين الأسيوطى من أبيات :

يا رب بالهادى النبى المجتبى
أغمد عن الاسلام أسياف الوبا
يارب لا نشكو أليم عذابه
الا اليك فقد أخاف وأرعبا
كم حل فى دار فبدد شمل من
فيها فلا يجدون منه مهربا
يا رب لطفا بالعباد، فما لهم
رب سواك يقيهم المستصعبا
انا اعترفنا بالذنوب فكلنا
عاص مسىء للعذاب استوجبا
لكن اذا قرنت عظيم ذنوبنا
بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
ان كان لا يرجوك الا محسن
فى العالمين فمن يجير المذنبا

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب بما وقع فيها من الفناء والغلاء وفساد العربان بالشرقية والغربية حتى بأرض الحجاز ، والأمر الى الله تعالى .

سنة احدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥ — ١٥٠٦) :

فيها ، فى المحرم ، اهتم السلطان باصلاح بناء

الدهيشة ، وسد البحرة التى كانت بها ، وفرش أرضها بالرخام الملون ، وصارت مدهشه للناظرين ، ولكن حصل منه الضرر الشامل ، وذلك آنه رسم بفك رخام قاعات كاتب السر أبو بكر بن مزهر ونقله الى الدهيشة ، وجددها من سقوفها وأبوابها وما بها من المعالم قاطبة .

وفيه فى ثامنه ، حضر هجان من الحجاز وأخبر أن المبشر معوق عند العرب ، وأخبر بوفاة مختص الطواشى ، وكان من أعيان الخدام رئيسا حشما جميل الهيئة ، وهو الذى بنى أساس جامع السلطان الذى بالشرابشيين ، وكان عمره أولا لنفسه ، ثم أخذه منه السلطان ، وزاد فى اتساعه كما تقدم ذكر ذلك .

ومن الحوادث أنه فى يوم عاشوراء سقط ربع من داخل المشهد الحسينى ، فمات فى ذلك اليوم تحت الردم نحو من عشرين انسانا من رجال ونساء .

وفيه أنعم السلطان على تانى بك النجمى بتقدمة ألف وبقى من جملة الامراء المقدمين .

وفيه خلع السلطان على تمرباى خازندار العادل طومان باى ، وقرر فى الأستادارية الكبرى ، عوضا عن تغرى بردى بن يلباى بحكم صرفه عنها

وفيه أخذ قاع النيل وجاءت القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزيادة فى أول يوم من المناداة خمس أصابع

وفى الرابع والعشرين منه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة من موت الجمال والعطش وفساد العربان .

* * *

وفى صفر تغير خاطر السلطان على الأمير محسن الخازن الطواشى الحبشى ، فرسم بنفيه الى سواكن ، ورسم بنفى جوهر الشمسى شاد الحوش فنفاه الى مكة ، وكان سبب ذلك أنه غفل عن آرزمك الذى تسحب من العرقانة .

وفيه خلع السلطان على سرور الزينى ، وقرره فى شادية الحوش — عوضا عن جوهر الشمسى بحكم نفيه الى مكة .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له أزبك الصوفى ، وقرره فى نيابة القدس — عوضا عن ملاج — بحكم صرفه عنها .

وفيه أذن السلطان لحريمه أن يصعدن الى القلعة ، وكان فى هذه المدة لم تصعد خوند زوجة السلطان الى القلعة ، وكانت مقيمة ببيت الأمير ماماى الذى بين القصرين . فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا ، فصعدت الى القلعة فى محفة زركش وكان لها موكب حافل . فلما صعدت الى القلعة حملت على رأسها القبة والطير ، ونثرت عليها خفائف الذهب والفضة ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى قاعة العواميد ، ومشت قدامها الخوندات حتى جلست على المرتبة ، وكان السلطان فى هذه المدة جدد عمارة قاعة العواميد وزخرفها بخلاف ما كانت عليه أولا .

* * *

وفى ربيع الأول — فى يوم السبت ثانيه — كان وفاء النيل المبارك ، وقد وافق ذلك تاسع مسرى ، فتوجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وقد أوفى وزاد عن الوفاء ثلاث أصابع ، وكان نيلا عظيما كما يقال :

ذا النيل ما يبرح فى سعده
وحاله الماشى حالا
يجرى لنا ماض ومستقبلا
لا أوقف الله له حالا

وكان من مبتدأ زيادته الى هبوطه لم يتوقف يوما واحدا .

وفى يوم الاثنين رابعه حضر الى الأبواب الشريفة ، سيباى نائب حلب ، الذى كان قد أظهر العصيان بسبب واقعة قيت الرجبى ، فلما جرى له ما جرى ونفى أرسل سيباى يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل له منديل الأمان ، ورسم له بالحضور الى القاهرة ، فلما طلع بين يدى السلطان ، حمل تحت ابطه ثوبا بعلبكيا ، وفكك أزراره كما فعل قانصوه خمسمائة لما قابل الأشرف قايتباى ، فلما قابل السلطان ، خلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه خسف جرم القمر خسوفا فاحشا واستمر فى الخسوف الى آخر الليل .

وفى حادى عشرينه عمل السلطان الموكب ، وخلع على سيباى نائب حلب ، وقرره فى امرة السلاح ، عوضا عن قرقماس بن ولى الدين بحكم انتقاله الى الأتابكية .

وفيه خلع السلطان على أيدكى والى قطيا ، وقرره فى نيابة القدس عوضا عن أزبك الصوفى ، ونقل أزبك الصوفى الى نيابة غزة عوضا عن ملاج الذى كان نائب القدس ، وسجن ملاج .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرينه توفى الأمير تغرى بردى بن يلباى المعروف بالقادرى أمير أستادار العالية ، فلما مات دفن بجوار الامام الشافعى رضى الله عنه بتربته التى أنشأها هناك ، وكان أميرا جليلا دينا خيرا رئيسا حشما ، وكان من جملة الأمراء العشراوات ، وولى الأستادارية الكبرى غير ما مرة ، وأقام بها مدة طويلة ، وكان ينتج بالسداد والناس عنه راضية ، وكان أقل ظلما من غيره من الأستادارية وكان لا بأس به .

***

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قايتباى من طوبرزه ، وقرره فى نيابة الكرك فخرج اليها عن قريب .

وفيه عرض السلطان العسكر وعين ثلاث تجاريد ، واحدة الى مكة بسبب يحيى ابن سبع أمير الينبع ، وواحدة الى الكرك بسبب فساد عربان بنى لام ، وواحدة الى الهند بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند ، فعين فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العسكر وأخذوا فى أسباب عمل اليرق .

وفيه خلع السلطان على القاضى ابراهيم الشرابيشى ، المعروف بابن البابا ، مباشر الأتابكى قيت الرجبى ، وقرره متحدثا على أوقاف الزمامية وناظر الذخيرة ، وغير ذلك من الجهات السلطانية ، عوضا عن شهاب الدين المرقبى بحكم صرفه عنها .

وفيه استعفى الأمير تمر باى خازندار العادل من الأستادارية ، فأعفاه السلطان منها ولم ينتج بالسداد فيها .

***

وفى جمادى الأولى — فى يوم مستهله — خلع السلطان على القاضى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد وقرره فى الأستادارية الكبرى عوضا عن الأمير تمرباى بحكم انفصاله عنها ، وهذه الوظيفة لم يلها متعمم من بعد القاضى تاج الدين بن المقسى ، لما جمع بين نظارة الخاص والأستادارية فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتباى ، سوى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد .

وفيه ثبت النيل المبارك على احدى عشرة أصبعا

من عشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى آخر بابه وكان نيلا مباركا .

وفى يوم الخميس تاسع هذا الشهر كانت وفاة شيخنا الحافظ العلامة جلال الدين الأسيوطى . وهو عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق ابن أبى بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الهمام الحيضرى الأسيوطى الشافعى . وكان عالما فاضلا ، بارعا فى الحديث الشريف ، وغير ذلك من العلوم . وكان كثير الاطلاع ، نادرة فى عصره ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، وبلغت عدة مصنفاته نحوا من ستمائة تأليف ، وكان فى درجة المجتهدين فى العلم والعمل ، وكانت مدة حياته نحوا من اثنتين وستين سنة وأشهر ، وكان مولده فى جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، ولما مات دفن بجوار خانقة قوصون ، التى هى خارج باب القرافة ، قيل لما غسل أخذ الغاسل قميصه ، وقبعه ، فاشترى بعض الناس قميصه من الغاسل بخمسة دنانير للتبرك به ، وابتاع قبعه الذى كان على رأسه بثلاثة دنانير للتبرك به ، ولما مات رثاه شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى بهذه الأبيات وهو قوله :

مات جلال الدين غوث الورى
مجتهد العصر امام الوجود
وحافظ السنة مهدى الهدى
ومرشد الضال لنفع يعود
فيا عيون انهملى بعده
ويا قلوب انفطرى بالوفود
واظلمى دنياى اذ حق ذا
بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للضوء بأن ينطفى
وحق للقائم فيك القعود
وحق للنور بأن يختفى
ولليالى البيض أن تبق سود
وحق للناس بأن يحزنوا
بل حق أن كلا بنفس يجود
وحق للأجيال خرا وأن
تطوى السماء طيا كيوم الوعود
وأن يغور الماء والأرض أن
تميد اذ عم المصاب الوجود
مصيبة جلت فحلت بنا
وأورثت نار اشتعال الكبود
صبرنا الله عليها وأو
لاه نعيما حل دار الخلود
وعمه منه بوبل الرضا
والغيث بالرحمة بين اللحود

وفيه مالت مئذنة جامع السلطان الذى أنشأه بالشرابشيين . فلما تشققت وآلت الى السقوط رسم بهدمها ، وقد ثقلت من علوها كون أنها بأربعة رءوس ، فلما هدمت أعيدت على الصحة ، وقد بنى علوها بالطوب وصنعوا عليه قاشانى أزرق . وقد تقدم مثل هذه الواقعة للمؤيد شيخ ، فلما بنى جامعه الذى هو داخل باب زويلة مالت مئذنته الشرقية عند انتهاء العمل منها فأمر بهدمها ، فهدمت وأعيدت على ما كانت عليه وذلك فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة .

* * *

وفى جمادى الآخرة — فى يوم مستهله — أنفق السلطان على من تعين من العسكر صحبة التجريدة المعينة الى بلاد الهند ، فأعطى لكل مملوك عشرين دينارا وصرف لهم جامكية أربعة أشهر معجلا وكذلك العليق ، فكان جملة ما صرف لهم نحوا

من خمسين دينـــارا لكل شخص ، وكان العسكر الذى خرج فى هذه التجريدة ملفقا ما بين أولاد ناس ، وبعض مماليك سلطانية ، والغـــالب فيهم مغـــاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجـــارين والفعلاء ، بسبب تلك الأبراج التى أنشأها السلطان فى جدة وانشاء السور .

وفى يوم الخميس ثانيـــه ، كانت وفاة قاضى القضاة الشافعى شهاب الدين أحمد المعروف بابن فرفور الدمشقى ، وكان عالما فاضلا ، رئيسا حشما ، فى سعة من المال ، ذا شهامة وعظمة ، وقد جمع بين قضاء الشافعية بمصر والشام وهذا لم يتفق لأحد قبله من القضاة ، ولما توفى الشهاب بن فرفور رسم السلطان لقاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن الشحنة ، بأن يخطب به ويصلى صلاة الجمعة بالقلعة الى أن يلى قاض شافعى .

فلما كان يوم الجمعة خرج عبد البر وخطب بالسلطان وهو لابس السواد ، فصعد المنبر وخطب خطبة مختصرة .

وفى يوم الاثنين سادسه ، خرجت تلك التجريدة المعينة الى بلاد الهنـــد ، وكان لها يوم مشهود ، فكان باش المماليك الذين توجهوا فى المراكب الى جـــدة ، والتركمان والعبيد الذين بهـــا ، حسين المشرف ، وباش المغاربة الذين بها ، الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى ، فلما خرجوا توجهوا الى نحو السويس ونزلوا من هناك فى مراكب الى جدة ، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك .

وفيه كانت وفاة الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير الأولياء .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الشيخ ولى الدين محمد ولد قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور وقرره فى قضاء الشافعية بدمشق عوضا عن أبيـــه بحكم وفاته ، وكان شـــابا لم يلتح بعد .

وفى يوم الجمعة رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بن الشحنة بأن يخطب به ويصلى الجمعة كما فعل فى الجمعة الماضية .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على الشيخ جمـــال الدين القلقشندى وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضا عن شهاب الدين بن فرفور بحكم وفاته .

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن شخصا من الأمراء العشراوات ، يقال له مغلباى المقترع ، قتله عبده تحت الليل ، فلما بلغ السلطان ذلك ، شنق العبد على باب سيده فى مكان قتله به .

وفى سلخ هذا الشهر خلع السلطان على أقباى كاشف الشرقية ، وقرره فى نيابة غزة ، عوضا عن أزبك الصوفى الذى كان بها وصرف عنها .

* * *

وفى رجب — فى يوم مستهله — كانت وفاة الناصرى محمد بن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان شابا رئيسا حشـــما ، أصيلا عريقا ، سبط الملك الظاهر جقمق ، وأمه خوند بنت البارزى ، ابنة الظاهر جقمق ، وكان من جملة الأمراء العشراوات . وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس رابعه خلع الســـلطان على شخص يقال له أقطوه ، وقرره فى كشف الشرقية ، عوضا عن أقباى بحكم انتقاله الى نيابة غزة .

وفى يوم الأحد سابعه جلس السلطان بالميدان عرضوا عليه أبقار الجراريف وأبقار الدواليب ، ما عرضوا على السلطان ، ورجعوا ، نهب صبيان خولة عدد دكاكين من باب النصر الى باب زويلة . كادت القاهرة أن تخرب فى ذلك اليوم عن آخرها سج أصحاب البضائع واستغاثوا وطلعوا الى سلطان وقد نهب لهم بضائع وقماش ، نحو من مسمائة دينار ، فلما بلغ السلطان ذلك تشوش ى الغاية ، ووبخ الجمالى يوسف بن أبى أصبع — وكان هو المتحدث على تلك الجهات — وألزمه حضار من فعل ذلك من صبيان المرابعين ، فنزل ترينى بركات بن موسى ويوسف بن أبى أصبع يحررا ما نهب للناس ، ويرضياهم فى بضائعهم حسبما رسم السلطان بذلك ، فلما نزل ابن موسى يوسف بن أبى أصبع قبضا على جماعة ممن عل ذلك ، فرسم السلطان بشنق أربعة أنفس منهم ضرب جماعة منهم بالمقارع ، وكانت هذه الواقعة ن أشنع الوقائع .

وفيه خرج الأمير قايتباى الرمضانى ، الذى لى نيابة الكرك ، الى محل ولايته وخرج صحبته العسكر المعين الى الكرك بسبب فساد عربان بنى لام .

* * *

وفى شعبان جاءت الأخبار بوفاة نائب صفد لأمير قانصوه قرا ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض السلطان المحابيس فأطلق منهم جماعة ، وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفيه خرج الأمير أقباى كاشف الشرقية الذى قرر فى نيابة غزة الى محل ولاته بها .

وفيه خلع السلطان على الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وقرر قنبك رأس نوبة ثانى بالركب الأول ، ولم يتم ذلك وبطل .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له قانى باى العثمانى ، وقرره فى نيابة صفد — عوضا عن قانصوه قرا — بحكم وفاته .

وفيه حضر شخص من فقراء الصعيد يقال له مهدى ، فلما مثل بين يدى السلطان قامت عليه البينة بأنه زنديق ساحر يتوضأ باللبن ويستنجى به ، وذكروا عنه أشياء كثيرة من هذا النمط تخالف الشريعة ، فأرسله السلطان الى قاضى القضاة المالكى ، فحكم بكفره ، بموجب ما قامت به عليه البينة ، وضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية ، بعد أن أشهروه على جمل وهو عريان .

وفيه كان دخول الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، على أخت خوند الخاصبكية وهى زوجة الأمير أقبردى الدوادار ، فكان لهما مهم حافل .

وفيه خرج قانى باى العثمانى الذى قرر فى نيابة صفد الى محل ولايته بها .

وفيه وقعت نادرة لطيفة وهى أن الشيخ جمال الدين السلمونى الشاعر ، هجا القاضى معين الدين ابن شمس ، وكيل بيت المال هجوا فاحشا ، فمن جملة ذلك هذا البيت :

وحرفته فاقت على كل حرفة
يركب ياقوتا على فص خاتمه

فلما بلغ معين الدين ذلك ، شكا السلمونى الى السلطان ، فقال له ان وجب عليه شيء بالشرع أدبه ، فنزل ووضع السلمونى فى الحديد ، وأتى به الى بيت قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وادعى عليه ، فضربه عبد البر وعزره وأشهره على حمار وهو مكشوف الرأس . وقد

ورد فى بعض الأخبـار أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من عاقب على الهجاء ، وقد قال بعض شعراء العصر فى واقعة السلمونى بيتين هما :

وشاعر قد هجا شخصاً فحل به
من حاكم الشرع توبيخ وتعزير
فأشـهروه وجازوه بفعلتـــه
تبـا له شـاعر بالهجو مشهور

فلما بلغ السلطان ما فعله معين الدين بن شمس بالسلمونى ، شق ذلك عليه ووكل به وأمر بقطع لسانه ، فانه قال السـلطان رسم لى بأن أشـهر السلمونى ، ولم يكن السـلطان رسم بشىء من ذلك ، واستمر ابن شمس فى الترسيم مدة طويلة حتى تراضى السلطان بمال له صورة ، حتى رضى عليه وألبسه خلعة .

***

وفى رمضان تغير خاطر السلطان على شخص من الأتراك ، يقـال له الشـيخ سنطباى ، وكان يدعى التصوف ، وكان مقيما بالمدرسة السنقرية التى تجاه خانقة سعيد السعداء ، فوشى به عند السـلطان أنه يضرب الدراهم والدنانير الزغل ، فأرسل قبض عليه ، فوجد عنده عدة ضرب الزغل ، وكان عنده جماعة يفعلون ذلك ، فأمر السلطان بقطع أيديهم ، وأما الشـيخ سنطباى فشفع فيه الأتابكى قرقماس من قطع اليد ، فرسم له السلطان بأن يتوجه الى القـدس ويقيم به بطالا . وكان الشـيخ سنطباى أصـله من مماليك الأشرف قايتبـاى ، وكان يدعى الصلاح فانكشف رخه وظهر للناس أمره ، وقد قال فيه القائل :

يا من بضرب الفلس صار مشتغل
وما رأينــاه قط يضرب ذهب
الا بطـول الدهر ضراب فلوس
ولحـد ضرب الفلس عقله ذهب

وفيه جاء شخص من بلاد جركس وهو صبى صـغير زعموا أنه أخو السلطان ، وكذلك حضر آخر زعمـوا أنه أخو الأمـير أزدمر الدوادار فأنزلوهما بالطبقة .

وفيه كان ختم قراءة صحيح البخارى ، وكان الختم بالحـوش السلطانى ، وقد نصبت هنـاك خيمة كبيرة ، وكانت العادة القديمة بأن البخارى يقرأ بالقصر ، ويختم بالقصر الكبير ، ويكون له يوم مشهود ، وتفرق هناك الخلع على القضـاة ومشايخ العلم وكذلك الصرر ، فبطل ذلك وصار البخارى يقرأ بجامع القلعة ، ويختم بالحوش ، فتكون ساعة يسيرة ، ثم ينفض ذلك المجلس عن أمر هين .

***

وفى شوال كان موكب العيـد حافلا وفرقت الخلع على الأمراء ونزلوا الى دورهم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق ، بأن أهل المدينة ثاروا على نائبهـا أركماس بن طراباى ، ورجموه وأخرجوه من المدينة ، فلمـا بلغ السلطان ذلك أرسل بالحضور الى أركماس نائب الشام ، وعين نيابة الشام الى سيباى أمير سلاح . ثم ان السلطان قبل أن يخلع عليه ، رسم له بأن يتوجه الى بيت الأمـير أزدمر الدوادار ، وأن يحضر الخليفـة المستمسك بالله يعقوب ، والقضـاة الأربعـة ، ويحلفوه بحضرتهم . فلما تكامل المجلس أحضروا سيباى وحلفوه على مصحف شريف ، وكتبوا عليه صورة حلف بأنه لا يعصى على السـلطان ، ولا يخامر ولا يخون الأيمان ، وشـهد عليه الخليفة والقضاة الأربعة بذلك .

ثم فى يوم الخميس سابع عشره خلع السلطان على سيباى وقرره فى نيـابة الشـام عوضا عن أركماس الذى كان بها ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبـار من مكة بأن الأحـوال فاسـدة ، وأن عربان بنى ابراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ، ومالك بن رومى أمير خليص ، وقد اشتد الأمر فى ذلك جدا ، فلما تحقق السلطان ذلك أمر بابطال التوجه الى الحجـاز فى هذه السنة من مصر والشام وسائر الأعمال قاطبة وكانت هذه الواقعـة من أعظم المصـائب والثلم فى الدين . وقد حضر الركب التكرورى والركب المغربى ولم يحج منهم أحد فى تلك السنة . ثم ان السـلطان أرسل كسوة الكعبة الشريفة ، وصرر الحرمين ، والزيت ، من البحر المالح فى مراكب من الطور ، ويتوجهون من هناك الى جدة .

ثم ان السـلطان عزل يحيى بن سبع عن أمرة الينبع وولى بها شـخصا من أولاد دراج الذى كان أمير الينبع قبل ذلك ، ولم يسمع من مبتدأ دولة الأتراك والى الآن ، بأن الحجاج امتنع خروجهم الى مكة سوى هذه السنة ، وهى سـنة احدى عشرة وتسعمائة ، وقد تقدم ما وقع من الجازانى فى حق الحجـاج بالركب الشـامى والعـراقى والمصرى ، وما صنع بالمجـاورين بمكة فى سنة ثمان وتسعمائة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وقد جرى على الناس من الحوادث القـديمة ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن فى سنة ثمانى عشرة وثلثمائة ، فى دولة الخليفة القاهر بالله أبى منصور محمد بن الخليفة المعتضد بالله العباسى ، خليفـة بغداد ، لما تغلبت على الخلفاء طائفـة من العربان يقال لهم القرامطة ، وكان أميرهم شخصا يسمى أبو ظاهر القرمطى ، وكان يدعى أنه علوى . من أولاد الامام على رضى الله عنه ، وكان يقول نحن أفضل من بنى العباس ، وكانت هذه القبيلة دون الألف انسان ، وكان أبو ظاهر القرمطى خارجيا سفاكا للدماء جاهلا ، وكانت قبيلة هذه القرامطة يسكنون بهجر ، فلما خـرج ركب الحـاج من بغداد ، وكان أمير الركب يسمى منصور الديلمى ، فلما وصل بالحاج الى مكة ، وأقام بها الى يوم الصعود ، هجم عليهم أبو ظاهر القرمطى بمن معه من العـربان ، فقتل محارب أمير مـكة ، وقتل منصور الديلمى أمير الركب ، ونهب جميع الأموال التى بمكة ، وقتل الحجاج عن آخـرهم ، وأسر النساء والصبيان الصغار ، فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحوا من خمسة وثلاثين ألف انسان ، وطرح غالب القتـلاء ببئر زمزم حتى امتـلأت بالقتلاء ثم دخل الى البيت الشريف وأخذ ماكان فيه من القناديل الذهب والفضة ، وقلع باب الكعبة الشريفة ، وقلع الحجـر الأسـود وعرى الكعبة ونزع الكسوة عنها ، وكانت هذه الحادثة من أجل المصائب وأعظمها .

ثم ان أبا ظاهر القرمطى نقل ما نهبه من الأموال وغيرها الى هجـر ، واستمر الحج منقطعـا من بغداد وغيرها من البلاد نحوا من عشرين سـنة لم يحج فيها الى البيت أحد .

فلما كانت خلافة الراضى بالله أحمد بن المقتدر ، مشى أبو على بن يحيى العلوى بين طائفـة هـذه القـرامطة وبين الخليفـة بالصلح ، حتى أذنوا للناس بالحج ، وجعلوا على الحجاج فى كل سنة نحوا من خمسين ألف دينار تعطى حتى يمكنوهم من الدخول الى مكة ، وهذا أول مكس أخذ على الحجاج من يومئذ ، وكان ذلك فى سنة احـدى وثلاثين وثلثمائة . وقيـل ان أبا على بن يحيى العـلوى تلطف بالقـرامطة حتى ردوا الحجـر

الأسود وباب الكعبة الى مكانهما بعد جهد كبير . أورد ذلك ابن الجـوزى ، انتهى ما أوردناه من هذه الواقعة ، ومن هنا نرجع الى أخبـار دولة الغورى .

***

وفى ذى القعـدة ، ركب القـاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وطلع الى القلعة ، وكان له مدة طويلة وهو منقطع فى داره بسبب توعك جسده حتى شفى ، فلمـا طلع الى القلعـة ، خلع عليـه السلطان ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين قاطبة .

وفيـه جاءت الأخبار بوصـول الأمـير جانم المصبغـة ، الذى كان حاجب الحجـاب بمصر ، وخرج مع الأمير أقبردى الدوادار لما انكسر ، فلما مات أقبردى أقام جانم هذا بدمشق ، وقد نسى أمره مدة طويلة ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم السلطان باحضاره الى القاهرة ، فلما وصـل الى غزة مرض واستمر عليـلا حتى دخـل خانقـة سرياقوس ، فمات بها ولم يدخل الى القـاهرة ، فلما مات هناك حملت جثتـه ودفن بالصحراء . وكان أميرا جليلا ، رئيسـا حشما ، وولى عـدة نيابات سنية ثم بقى حاجب الحجاب بمصر ، وكان من حلف أقبردى الدوادار ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وفاته القتل مرارا عديدة ، وكان من خيار مماليك الأشرف قايتباى .

وفيه سافر تغرى بردى الترجمان الى نحو بلاد الفرنج ، وأخذ معه كتاب البترك ، وكان قد تزايد تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه ، خلع السلطان على قاضى القضـاة الشـافعى ، محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وأعاده الى قضاء الشافعية — عوضا عن جمال الدين القلقشندى — بحكم صرفه عنها ، فكانت مدة جمال الدين القلقشندى فى القضاء نحوا من ستة أشهر ، وقد سعى فيهـا بثلاثة آلاف دينار ، ثم سعى عليـه ابن النقيب بخمسة آلاف دينار ، وغرم نحوا من ألفى دينار للذى سعى له من الأمراء وغيرهم ، وكان الساعى له الأمـير أزدمر الدوادار وغـيره من خـواص السلطان ، وهذه ثالث ولاية وقعت لابن النقيب بمصر ، وقد نفد منه مال له صـورة على ولاية القضاء ، ولم يقم بها فى الثـلاث مرات الا مددا يسيرة ويعزل عنها ، فكان كما يقال فى المعنى :

يفنى البخيـل بجمع المال مدته
وللحـوادث والأيام ما يدع

كدودة القـز ما تبنيه تهدمه
وغـيرها بالذى تبنيـه ينتفـع

وكان غير مشكور السيرة ، رث الهيئة ، يجافى النفس ، يزدريه كل من يراه ، وقد قال فيه بعض شعراء العصر مداعبة لطيفة ، وهو قوله :

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما
الى جدال بحـكم غـير منفصل

يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها
جهرا ويقبل سرا بعرة الجمـل

وقال آخر وقد أفحش فى حقه جدا ، فلا حول ولا قوة الا بالله وأنا استغفر الله تعالى من ذلك :

ياأيها الناس قفـوا واسمعـوا
صفـات قاضينـا التى تطرب

يلوط . يزنى . ينتشى . يرتشى
ينم . يقضى بالهـوى . يكذب

وفى هذا الشهر كثر الحريق بالقـاهرة ، وصار فى كل ليلة يحترق عدة أماكن ، بسبب الدريس ، الذى يكون ببيوت الأتراك ، وكانت المـماليك

أكثرت من خزن الدريس فى هذه السنة ، وصارت المماليك يمسكون النـاس من الطرقات غصبا ، ويحبسونهم عندهم أياما بسبب نقـل الدريس ، وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك ، حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

اهرب يا تعيس ... والا يحملوك الدريس

* * *

وفى ذى الحجة — فى يوم الخميس سابعه — خرج سيباى الذى قرر فى نيابة الشام ، فكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى ثامنه ، حضر المقر السيفى أركماس الذى كان نائب الشام وانفصل عنها ، فلما حضر وقابل السلطان أكرمه ، وخلع عليه ورسم له بأن ينزل فى الأزبكية ، ويسكن فى بيت الأتابكى أزبك .

وفيه بلغ السلطان أن طائفة من المماليك الذين توجهوا الى الكرك ، صحبة التجريدة ، قد دخل منهم جماعة فى الخفية الى القـاهرة من غير اذن السلطان ، فصار يكبس عليهم ، وحصـل لهـم الضرر الشـامل من السلطان ، ونادى لهـم بأن يعودوا الى الكرك ، والا تقطع جوامكهم ويحصل عليهم ما لا خير فيـه ، فخرجوا من يومهم على وجوههم .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وذلك فى ثالث عشر بشنس القبطى ، ثم ابتـدأ بضرب الكرة ، وكانت الأمراء المقدمون جميعهم ، حاضرة بمصر لم يكن منهم أحد غائبا فى السفر ، فكانت للسلطان فى هذه السنة مواكب مشهودة حافلة ، كما يقال فى المعنى فى ضرب الكرة :

يا حسنها كرة كالنجم سائرة
قد طال تردادها بين الجواكين
تفـرق الهم اذ كانت مؤلفة
بين القلوب بآراء السلاطين
لجبرهم لقلوب الجند اذ لعبوا
مع الملوك وهم بعض المساكين

وفيها أنعم السلطان على قرابته الأمير طومان باى ابن أخيه بتقدمة ألف ، مضافا لما بيده من شادية الشراب خاناه .

وفيه جاءت الأخبار من الشرقية بأنه وقعت هناك معركة مهولة بين شيخ العرب بيبرس بن بقر ، وبين نجم شيخ العـايد ، فقتل فى هذه المعـركة جماعة كثيرة من العربان ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ، ودخل أقطوه الكاشف الى القاهرة وهو مشحوت من العرب .

وفيـه حضر شخص من أولاد على دولات ، أخى سوار ، أمير التركمان وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه ، ثم قرره فى تقدمة ألف بحلب فيما بعد .

وقد وقع فى هـذه السنة الخصب والرخاء فى سائر الغلال والبضائع ... وكانت سنة هادئة من الفتن بين الأتراك ، ولكن كان معظم الأمر فيهـا بطلان الحاج بسبب عصيان يحيى بن سبع أمير الينبع ، ومالك بن رومى أمير خليص ، ولم يبطل الحاج فى هذه السنة كبير أمر أوجب ذلك ، وانما السلطان أهمل الأمور فى أول الأمر حتى تزايدت الفتن بين قبيلة بنى ابراهيم والتفوا على الجازانى ، وجرى منهم ما تقدم ذكره ، وغلب القضاء والقدر فى هذا الأمر . والحكم لله فيما يريد .

سنة اثنتى عشرة وتسعمائة (١٥٠٦ - ١٥٠٧) م

فيها — فى المحرم — جاءت الأخبار من الكرك بأن أهل الكرك قد وثبوا على النائب الذى توجه اليها ، فخرج منها هاربا وأتى الى غزة ، وسبب ذلك أن نائب الكرك لما تولى عليها أراد أن يظهر

له حرمة ، فشنق حاجب المدينة وأخاه وأولاده ، فما طاق ذلك أهل الكرك ووثبوا عليه ، فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على نائب الكرك ، ورسم بنفيه الى القدس بطالا .

وفيه كبا الفرس بالأمير طراباى رأس نوبة النوب وهو يضرب الكرة مع السلطان فانزعجت يده ، ومات الفرس الذى كان تحته ، فأنعم السلطان عليه بفرس غيرها .

وفيه ، فى يوم عاشوراء ، أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج ، فاجتمع هناك الجم الغفير من الفقراء والحرافيش ، ونزل السلطان بنفسه ، ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج ، وصار يعطى لكل انسان من الفقراء من رجل وامرأة ، وكبير وصغير ، أشرفيا ذهبا ، فوقع الازدحام بين الفقراء ، حتى قتل منهم فى ذلك اليوم ثلاثة أنفار ، من شدة ازدحامهم ، فكان كما يقال فى المعنى :

فيا له من عمل صالح
يرفعه الله الى أسفل

وقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحوا من ثلاثة آلاف دينار ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فلما رأى ازدحام الفقراء ، لم ينزل مرة أخرى ، ولم نفرق شيئا ، وكان قصده يفرق على الفقراء مرة أخرى .

وفيه خلع السلطان على ملاج وأعاده الى نيابة القدس ، كما كان أولا ، وأضاف اليه نيابة الكرك والتحدث على مدينة لد والرملة ، وكان ملاج غير مشكور السيرة سيىء التدبير فى أفعاله ..

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر أن طائفة بنى ابراهيم قد دخلوا تحت طاعة أمير مكة ، وتلاشى أمر يحيى بن سبع ، فلم يثق السلطان بذلك .

وفى ثامن عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع وعشر أصابع أرجح من النيل الماضى بعشر أصابع .

وفى يوم سلخه خرج ملاج الى محل نيابته بالقدس ، وخرج صحبته المماليك الذين كانوا حضروا من الكرك بغير اذن كما تقدم .

***

وفى صفر كان ختام ضرب الكرة ، فجمع السلطان الأمراء ، ومد لهم مدة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه أخرج السلطان له خرجا من المماليك ، نحوا من أربعمائة مملوك ، وأخرج لهم خيلا وقماشا ، ولم يخرج من بعد انفصل خرجا سوى هذا ، وصاروا يسمون الأشرفية الغورية .

وفيه حضر القضاة الأربعة ببيت الأمير أزدمر الدوادار بسبب عقد مجلس ، فوقع فى ذلك المجلس بعض تشاجر بين قاضى القضاة الشافعى محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وبين قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، فتفاوضا فى الكلام حتى خرجا فى ذلك عن الحد ، فدخل بينهما الأمير أزدمر الدوادار حتى سكن الأمر بينهما قليلا ، وسبب ذلك لأجل خزانة الكتب التى بالمدرسة المحمودية ، وأمر هذه الواقعة قد اشتهر بين الناس .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن حضر الى مكة بسبب الحج جماعة كثيرة من اليمن والعراق ، وغير ذلك من البلاد ووقفوا بالجبل ، فتنكد السلطان بسبب ذلك لعدم خروج المحمل من القاهرة ، ورأى ذلك فى حقه نقصا بين ملوك اليمن وغيرها .

وفيه جاءت الأخبار من الينبع بأن التجريدة

التى خرجت الى الهند ، بسبب تعبث الفرنج ، لما وصلوا الى الينبع اتقعوا مع يحيى بن سبع أمير الينبع فهرب من وجههم ، وكانت الكسرة عليه وقتل من عربانه لجماعة كثيرة ، وأحرقوا الدور التى على ساحل البحر الملح التى ببندر الينبع ، وخربوا غالب دكاكينه ، وشتتوا العربان التى به . ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل الى جدة ، شرع حسين باش العسكر وسنقر أحد الزردكاشية ، وعلى المسلاتى المغربى ، فى بناء أبراج على ساحل بندر جدة ، وكان هذا عين الصواب ، ومن أحسن المبانى .

ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل الى سواكن ملكوها بالأمان واحتاطوا على ما فيها من بهار وغيره وشتتوا أهلها عنها ، فانشرح السلطان لهذه الأخبار .

وفيه خلع السلطان على ابن على دولات وأذن له بالسفر الى أبيه ، وعين معه شاد بك نائب المهمندار ، وأرسل صحبته تقدمة حافلة الى على دولات .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين الزعر فى الرملة تحت القلعة ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب ومعه جماعة من المماليك وهم لابسون آلة السلاح ، فاتقعوا معهم فى وسط الرملة فقتل من الزعر فى ذلك اليوم سبعة أنفار وانهزم الباقون .

ومن الحوادث أن جارية سوداء قتلت ستها وابن ستها وأخا ستها ، فلما عرضت على السلطان رسم بقطع يدها وشهرت فى القاهرة ، ثم كلبت وعلقت عند خوخة المغازليين فى مكان قتلت فيه ستها .

وفيه خلع السلطان على قانصوه روح لو ، وأعيد الى كشوفية الشرقية كما كان أولا ، وقد اضطربت أحوال الجهات الشرقية الى الغاية فخرج قانصوه المذكور ، وصحبته جماعة كثيرة من العسكر ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا من جملة الأمراء المقدمين فعظم أمره جدا .

* * *

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة الى القلعة لأجل التهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس أصلح السلطان بين القاضى الشافعى عبد القادر بن النقيب ، وبين القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وكان بينهما وحشة كما تقدم ، فلما اصطلحا خلع السلطان عليهما ونزلا الى دورهما .

وفيه جاءت الأخبار من الشرقية بأن العرب العصاة قطعوا جسر سنيت والحلفاية على الجرون حتى غرقت ، وكان النيل قد أشرف على الوفاء ، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتوقف النيل عن الزيادة لأجل المقاطع التى قطعت عليه .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفى العشرين منه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى العشرين من مسرى وكبر فى الحادى والعشرين منها ، فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن الأتابكى قرقماس ، لما أراد أن يطلع من الحراقة ، عند المقياس نثر خازنداره على رأسه خفائف الذهب والفضة ، فتكاثرت عليه الناس ، فجفل الفرس به فقلبه فى البحر ، فلاقته النواتية وطلعوا به فى المركب ، وقد ابتل شاشه وقماشه حتى غيرهما ، وتوجه الى نحو المقياس وهو ماش ، وقيل ان الفرس غرق ، وطلعوا به وهو يعرج . وحصل للأتابكى قرقماس فى ذلك اليوم مشقة زائدة بسبب ذلك .

ومن الحوادث فى هذا الشهر كان انتهاء العمل من الجامع الذى أنشأه الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، بجوار بركة الرطلى ، على أرض الطبالة ، وبركة القرع ، فلما كمل خطب به الشيخ علاء الدين الاخميمى النقيب ، واجتمع به فى ذلك اليوم قضاة القضاة وأعيان الناس ، وكان يوما مشهودا . ثم ان الشيخ عبد القادر أشار بفتح فم بركة القرع ، حتى تدخلها المراكب مثل بركة الرطلى ، ففتح لها مسرب من الخليج الحاكمى ، من عند ديل التمساح ، فلما كان يوم الجمعة دخل فيها المراكب وانطلقت لها ألسن النساء بالزغاريت ، وكان يوما مشهودا ، وعد ذلك من النوادر ، وصارت المراكب تدخلها فى كل سنة من يومئذ .

* * *

وفى ربيع الآخر تغير خاطر السلطان على أربعة من الأمراء الطبلخانات ، فقبض عليهم ، وهم جان بردى تاجر المماليك ، وقلج أمير آخور ثانى ، ويبيردى أخو جان بلاط الذى تسلطن ، وتنم المقرى . فلما قبض عليهم قيدهم . وسبب ذلك أنه بلغ السلطان أن هؤلاء الأمراء كانوا قد اتفقوا على قتله لما ينزل الى الميدان وقت الظهر ، وقد أقر بعضهم على نفسه بصحة ما نقل عنهم ، فلما تحقق السلطان ذلك قبض عليهم ورسم بنفيهم .

وفيه توفى القاضى شمس الدين محمد بن مزاحم الطرابلسى ناظر الاسطبل ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، لكنه كان غير مشكور السيرة ، وعنده ظلم وعسف .

وفيه خلع السلطان على الأمير ماماى جوشن ، وقرره كاشف الغربية ، عوضا عن الأمير خاير بك ابن اينال الذى كان بها ، وقد نعين باش التجريدة الى الحجاز .

وفيه وقع أن شخصا من الأتراك ، يسمى ماماى الداودى ، أبا الأمير أبى يزيد أحد المقدمين ، ضرب شخصا من تجار الأروام بسبب مشترى بغل ، فلما ضربه سال دمه ، فطلع التاجر شكاه الى السلطان ، فرسم لنقيب الجيش بالقبض عليه ، وأن ينفيه الى الواح . فلما قبض عليه نقيب الجيش هرب من عنده تلك الليلة ، فحصل على نقيب الجيش ما لا خير فيه بسببه ... فلما هرب ماماى المذكور ، اختفى الأمير أبو يزيد بسبب ذلك ، ثم ان ماماى توجه الى الأتابكى قرقماس ليشفع فيه عند السلطان ، فطلع به وقابل السلطان ، فحط عليه وقصد ضربه ثم رسم بنفيه الى الواح . وكان ماماى هذا من شرار المماليك ، وكان مشدا على جهات المكوس بقطيا

وفى هذا الشهر وقع الاضطراب بين الأمراء ، وأشيع أمر الوثوب على السلطان بسبب الأمراء الذين رسم بنفيهم كما تقدم ، وقد صمم على نفيهم لأمر أوجب ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على الزينى فرج الحاجب ، ورسم بتسليمه الى بركات بن موسى ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، ثم آل أمره الى أن حط عنه خمسة آلاف دينار ، ويرد خمسة آلاف ، فباع جميع قماشة ورزقه وما بملكه ، وأقام مدة طويلة وهو فى التنكيل به ، وقاسى شدائد ومحنا عظيمة . وسبب ذلك أن أنصباى حاجب الحجاب أمره أن يحرس بعض الجسور فى أيام النيل ، فامتنع من ذلك ، فطلع أنصباى وشكاه الى السلطان ، فجرى عليه ما جرى ، وموجب هذا كله خسة نفسه وشحه أوجب ذلك ، كما يقال :

ورب جار لنا شحيح ... ليس له بالجميل عاده
أعظم شيء تراه منه ... مساكم الله بالسعاده

وفيه جلس السلطان بالحوش ، وأحضر المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الامراء من الأكابر والأصاغر ، وموجب ذلك كثرة الاشاعات بأمر الوثوب على السلطان .

وفى ذلك اليوم خلع على الأمير توروز أغات أزدمر الدوادار وقرره تاجر المماليك عوضا عن الأمير جان بردى المغضوب عليه .

وفيه خلع على بيبرس قريب السلطان ، وقرر أمير آخور ثانى ، عوضا عن قلج المغضوب عليه .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد ابن فخر الدين ، كاتب المماليك ، وقرره فى نظر الاسطبل عوضا عن ابن مزاحم بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان باخراج هؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم ، فنفى بيبردى أخا الأشرف جان بلاط وتنم المقرى الى البلاد الشامية ، فتسلمهما الوالى وهما فى قيود ، وتوجه بهما الى الخانكاه ، فرسم لأحدهما بالتوجه الى طرابلس ، والآخر الى حلب . وأما جان بردى وقلج فاستمرا فى البرج ، وهما فى قيود وزناجير حتى يكون من أمرهما ما يكون .

وفيه جاءت الأخبار من الكرك بأن عربان بنى لام كسروا ملاج نائب القدس ، وقتلوا من المماليك السلطانية الذين خرجوا معه فى التجريدة جانبا كبيرا ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وكتب عدة مراسيم الى نائب الشام ، ونائب طرابلس ، ونائب صفد ، بأن يجمعوا العساكر ويزحفوا على العربان من بنى لام .

وفى هذا الشهر تزايد فساد العربان بالشرقية والغربية ، حتى أعيا الكشاف أمرهم ، واضطربت الأحوال جدا .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن جكم ، وكان من أعيان أولاد الناس وكان لا بأس به .

وفيه كانت الأسعار مشتطة فى سائر البضائع والغلال .

* * *

وفى جمادى الأولى تغير خاطر السلطان على القاضى فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك ، ورسم عليه أربعة من الخاصكية ، وأقام مدة وهو فى الترسيم ، وقرر عليه مالا حتى يرده لما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمره .

وفى يوم الاثنين عاشره أنفق السلطان على العسكر المعين الى تجريدة الحجاز ، فأنفق لكل مملوك مائة دينار وسبعة أشرفية ثمن جمل ، وقرر معهم بأن يكون السفر أول رجب ، فشرعوا فى عمل اليرق .

وفيه خلع السلطان على القاضى فخر الدين كاتب المماليك ، وأعاده الى وظيفته ، بعد أن أورد نحوا من ألفى دينار وكسور .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعا وأصبعين من عشرين ذراعا ، وهبط قبل دخول بابه وكان نيلا متوسطا .

وفيه عقد للأمير طومان باى قريب السلطان ، على ابنة الأمير أقبردى الدوادار ، وكان العقد بالقلعة وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، وكان الأمير طومان باى يومئذ فى غاية العظمة ، وقد جمع بين شادية الشرابخاناه وتقدمة ألف .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص يسمى عمر — وكان مباشرا بالواح — فشنق على باب زويله ، وشنق معه شخص آخر يسمى الشيخ حسن ، من مباشرى الواح أيضا .

وفى أواخر هذا الشهر رسم السلطان بعقد مجلس فى الميدان ، فاجتمع هناك القضاة الأربعة ،

وذلك بسبب شخص يسمى شمس الدين بن أبى عبيد ، وقصته مشهورة بين الناس ، فوقع فى ذلك المجلس بسببه بين القضاة ما لا خير فيه ، وآل أمره بأن السلطان رسم بعزله عزلا مؤبدا ، وانفصل المجلس على ذلك .

* * *

وفى جمادى الآخره قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد خالف العادة فلبس الصوف فى سادس عشرين بابه قبل دخول هاتور بأربعة أيام ، ولم يكن الحال يقتضى ذلك ولا أفرط البرد فى تلك الأيام ، فعد ذلك من النوادر ، ولم يعلم ما سبب ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من أبناء التجار ، يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته فى بتية خشب ، وأحرقها بالنار لأمر وقع منها ... وكانت هذه الواقعة برشيد . فلما بلغ السلطان ذلك ، أحضره فى الحديد ، فلما حضر عاقبه على ذلك أشد العقوبة فلم يقر بشىء ، فاحتاط على موجوده جميعا وسلب نعمته ، وكان فى سعة من المال ، ثم سجنه وأقام به مدة طويلة ، نحوا من أربع سنين ، وقاسى شدائد ومحنا وأمره مشهور .

وفيه أنعم السلطان على آركماس بن طراباى الذى كان نائب الشام ، وحضر الى القاهرة بتقدمة ألف ، وجعل له مرتبا على الذخيرة من غير اقطاع ، ورتب فى كل شهر له ألف دينار ، وفى كل سنة ألف أردب قمح ، ورسم له بأن يقف فى المواكب فوق الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وأحضر له تخفيفة من تخافيفه التى بالقرون الطوال فألبسها له ، وقلع من عليه سلارى وشق وألبسه له ، فحصل له فى ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان ، واستمر ساكنا بالأزبكية .

وفيه توفى الركنى عمر بن تغرى بردى السيفى ، سودون بقجة ، الذى كان دوادار الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، وكان رئيسا حشما كثير العشرة للناس ، وكان لا بأس به فى أولاد الناس .

وفيه سافر ناظر الخاص علاء الدين بن الامام الى جهة الطور ، بسبب تجهيز العليق لأجل العسكر المعين الى مكة ، فخرج ومعه جماعة من المماليك السلطانية .

* * *

وفى رجب خلع السلطان على شرف الدين النابلسى الأستادار ، باستمراره فى الأستادارية ، وكان أشيع عزله .

وفى يوم الاثنين سابعه حضر دولات باى ، قرابة العادل طومان باى الذى كان نائب الشام ، وولى نيابة طرابلس أيضا ، وكان أظهر العصيان والتف على سيباى نائب حلب . فلما حضر سيباى وقابل السلطان ، فر دولات باى والتجأ الى على دولات وأقام عنده . فأرسل على دولات ولده الى السلطان ليشفع فى دولات باى ، فأجابه السلطان الى ذلك ، وأرسل له أمانا على يد شاد بك نائب المهمندار . فلما وثق من ذلك حضر الى القاهرة ، وقد حدثت من دولات باى هذا أمور شتى ، وتوجه الى بلاد ابن عثمان ، على أن يثير فتنة كبيرة ، فما طلع من يده شىء ، وآل أمره الى أن حضر بالأمان ، فلما قابل السلطان حمل تحت ابطه ثوبا بعلبكيا أى كفنه ، كما فعل قانصوه خمسمائة فعفا عنه السلطان ، وخلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفى هذا الشهر خرج العسكر المعين الى مكة ، وكان باش العسكر خاير بك بن اينال كاشف الغربية ، أحد المقدمين ، وصحبته قنبك بن شاد بك رأس نوبة ثانى ، وخرج صحبتهم جماعة من الأمراء العشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، وخرج صحبتهم هجار بن دراج الذى قرر فى امرة الينبع ، عوضا عن يحيى بن سبع ، وخرج صحبتهم المحمل الشريف ، فكان لهم يوم مشهود ... لكن رسم السلطان بأن امرأة لا تخرج صحبة العسكر ، ومنعوا من ذلك ، وخرج صحبة الأمير خاير بك نحو من مائة قواس ، فأقام المحمل لما خرج بالريدانية الى يوم الأربعاء تاسعه ، ثم رحل من هناك صحبة العسكر . ولما خرج الأمير خاير بك رسم السلطان لجان بردى ، تاجر المماليك الذى كان غضب عليه وسجنه بالبرج ، بأن يخرج صحبة العسكر منفيا الى مكة ويقيم بها .

وفى ذلك اليوم رسم باخراج قلج أمير آخور ثانى الى حلب منفيا ، وقد تقدم أنه غضب عليه .

وفى يوم الجمعة حادى عشره صلى السلطان بالجامع ، وجلس على باب الستارة ، وخلع على الأمير دولات باى المقدم ذكره ، وقرره فى امرة السلاح عوضا عن سيباى بحكم انتقاله الى نيابة الشام .

* * *

وفى شعبان عرض السلطان المحابيس والنساء التى بالحجرة ، وأطلق منهم جماعة وصالح عنهم من أرباب الديون من ماله .

وفيه وصل الى السلطان من البلاد الشامية صناديق خشب وفيها أشجار بطينها ما بين تفاح شامى وكمثرى وسفرجل وقراصية وكروم عنب ، وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض ، وسبوسان ، وزنبق ، وغير ذلك من الأزهار الشامية ، حتى أحضر اليه شجرة جوز هند بطينها ... فغرس ذلك جميعه بالميدان الذى تحت القلعة ، فكانوا نحوا من مائة وخمسين حملا ، فعد ذلك من النوادر اللطيفة .

وقد تقدم أنه أنشأ به مناظر ومقاعد وأماكن للمحاكمات ، ورمى بأرضه الأحمال الطين . وكان السلطان مولعا بغرس الأشجار ، وحب رؤية الأزهار ، والرياضات . وهذه الأخبار تقرب من أخبار خمارويه بن أحمد بن طولون ، حيث أنشأ بستانا بالقرب من جامع أبيه الذى أنشأه بأعلى الكبش ، وقد تقدم ذكر ذلك . ولما كملت عمارة هذا الميدان صار من جملة متنزهات الديار المصرية ، وصار السلطان ينزل اليه فى كل يوم ، ويعمل به المواكب فى غالب الأيام ، وكان أكثر اقامته به لأجل التنزه . وقد صار هذا الميدان مثل غوطة دمشق ، ما بين أشجار ومياه جارية حتى عد ذلك من النوادر ، وقد قلت فى المعنى :

عاينت بالميدان بستانا زها
أشجار أومت لنا بسلام
والزهر مختلف به ألوانه
ولقد يجل ثراه عن نمام

ولقد وقع للأشرف قانصوه الغورى أشياء كثيرة من الغرائب لم تقع لغيره من الملوك السالفة ، وربما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من الطور ، بأنه قد غرقت مراكب مسمارى كبار ، فيها قمح للدشيشة التى رتبها الأشرف قايتباى الى المدينة الشريفة ، وكان فى تلك المراكب أصناف بضائع بنحو عشرة آلاف دينار للأتابكى قرقماس ، فغرق جميعه ، وغرق فيها ما لا يحصى من رجال ونساء

وصغار عند بركة غرندل ، فشق ذلك على الناس ، ولا سيما أهل المدينة الشريفة فقد كان بها الغلاء الشديد .

* * *

وفى رمضان فى مستهله عرض القاضى شرف الدين الصغير ، ناظر الدولة ، اللحم والخبز والدقيق والسكر على السلطان وهو بالميدان ، وطلع به مزفوفا على رءوس الحمالين على جارى العادة ، فخلع عليه وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب ، وخلع فى ذلك اليوم على شيخ العرب نجم ، شيخ العايد ، باستمراره على عادته ، وطلع القضاة الأربعة والخليفة على الدكة بالحوش جلوسا عاما ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان توجه الى الطور بسبب ارسال عليق العسكر الى المتوجه الى التجريدة ، فأرسله فى مراكب من البحر الملح الى جدة .

وفى يوم الاثنين خامسه طلع الأمراء الى الخدمة ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان المصحف العثمانى بين العسكر ، وحلف عليه الأمير دولات باى الذى فرر فى امرة السلاح ، وحلف أيضا أركماس الذى كان نائب الشام ، فحلفا للسلطان بأن يكونا تحت طاعته ، فلما حلفا ألبس كلا منهما سلارى صوف بسمور ، وانفض الموكب على ذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره ، خلع السلطان على قاضى القضاة جمال الدين القلقشندى وأعاده الى قضاء الشافعية ، وهذه الولاية الثانية ، وعزل عبد القادر بن النقيب ، فكانت مدته فى هذه الولاية تسعة أشهر ، وعشرين يوما وهى الولاية الثالثة ، وكان فى هذه الولايات فى غاية الضنك وكان غير محبب للناس .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره توفى الأمير طقطباى قرابة آقبردى الدوادار ، وكان أحد الامراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفى ثامن عشره حضر هجان من مكة ، وأخبر بأن العسكر الذى توجه الى مكة قد انتصر على عربان بنى ابراهيم ، وهرب يحيى بن سبع ، وقتل من العربان ما لا يحصى ... فلما تحقق السلطان ذلك أمر بدق الكوسات ثلاثة أيام ، وسر الناس قاطبة لهذا الخبر .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، وشقوا بها من القاهرة ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة ، فألبسه السلطان خلعة حافلة ، لكونه سار فى هذه السنة بالسداد .

* * *

وفى شوال فى يوم عيد الفطر خلع السلطان على من له عادة ، وكانت الخلع فى غاية الوحاشة من القماش القطنى الملون ، تساوى الخلعة من ذلك نحو ثلاثة دنانير ، وكانت الخلع من قديم الزمان من المنسوجات الحرير الملون بفرو وسنجاب .

ومن جملة ما بطل من شعائر المملكة ، موكب الوزير فى يوم العيد ... فكان ينزل من القلعة وهو راكب بغلة بزنارى ، وعلى رأسه طرحه بيضاء ، وتحت عمامته عرقيه بذهب — وهى التى يسمونها الطاسة — ويتقلد بسبحة بأكر من عنبر ، وتركب قدامه الأوجاقية وهى بالتتريات الحرير الأصفر قائدة الجنائب ، وقدامه مبخرة السلطان بالبخور ، ويستمر فى هذا الموكب الحافل حتى يصل الى داره . وآخر من أدركناه يفعل

ذلك الصاحب علاء الدين على بن الأهناسى ، فصار الآن تغرى برمش الوزير ، اذا نزل من القلعة فى يوم العيد ، لم يشعر به أحد من الناس اذا شق من القاهرة .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة للمقطعين بأن كل من كان له حصة خراب ينزل يعمرها ، ويجرف جسورها ، ويرد فلاحيها المتسحبين حيث كانوا .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان بالشرقية قد قطعوا الطريق على القفل الذى جاء من المحلة ونهبوا كل ما فيه ، وكان فيه حمل مال للسلطان فأخذ مع جملة ما أخذ .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ، قيل انهم من سياس الأمير آزدمر الدوادار ، وسبب ذلك أنهم قتلوا قتيلا فى بولاق فشنقوا هناك .

وفيه حضر أقباى نائب غزة ، وقد حصل بينه وبين ملاج نائب القدس تشاجر فشكاه أقباى الى السلطان ، فأرسل باحضار ملاج فلم يحضر ، وأظهر العصيان ، فتغير خاطر السلطان عليه .

وفيه تغير خاطر السلطان على تغرى برمش الوزير ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وقد رافعهما بعض العمال على أنهما يأخذان الغلال من البلاد بالكيل الكبير ، ويصرفانه من الشون بالكيل المصرى ، فقرر السلطان عليهما فى نظير ذلك عشرة آلاف دينار يردانها للخزائن الشريفة .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشرة ، فأمر فى هذا الشهر نحوا من أربعين أميرا ، زياة على ما ذكرناه فى أخبار سنة ثمان وتسعمائة .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه ، حضر شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له خاير بك المعمار ، وصحبته نحو من خمسين رأسا ممن قتل فى الواقعة من العربان من بنى ابراهيم ، وهى الواقعة الأولى . فلما حضر خاير بك المعمار الى القاهرة أنعم عليه السلطان بامرة طبلخاناه بمصر ، فلما حضروا زينت لهم القاهرة ، ودقت الكئوسات ، ودخلت تلك الرءوس وهى مشهورة على رماح ، والمشاعلية تنادى عليهم : « هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج ، وينهب أموالهم » . فلما عرضوا على السلطان خلع على خاير بك المعمار ، ورسم بتعليق تلك الرءوس على أبواب القاهرة . وقد قامت حرمة المملكة بعد ما كانت قد انتهكت ، وتبهدلت الأتراك ، وكاد الحاج أن ينقطع عن التوجه الى مكة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه ، توفى الشهابى أحمد بن الأمير تمرباى رأس نوبة النوب ، وكان قد كبر وشاخ وقارب التسعين سنة من العمر . وكان لا بأس به رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس .

وفى يوم الاثنين سلخ هذا الشهر رسم السلطان للأمير أزدمر الدوادار ، بأن يخرج على حين غفلة ، ويسافر الى جهة الكرك ونابلس بسبب فساد العربان من بنى لام ، فخرج عن قريب ، وعين معه نحوا من خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية .

* * *

وفى ذى القعدة ، فى يوم مستهله ، خلع السلطان على أقباى نائب غزة ، وسافر اليها على عادته . وقد تقدم سبب حضوره الى القاهرة .

وفى ذلك اليوم حضر عدة هجانة من مكة ، وأخبروا بأن العسكر المتوجه الى يحيى بن سبع ، قد انتصر عليه نصرة ثانية ، وكان من ملخص أخبار هذه النصرة ، أن العسكر لما اتقع مع يحيى ابن سبع ، وانكسر أولا ، توجه الى طائفة من العربان

يقال لهم العنزة ، وهم من بنى لام ، فالتجأ اليهم واستمر مقيما فى مكان بالقرب من الينبع .

فلما مضى شهر رمضان ، ودخل شوال حضر الشريف بركات أمير مكة ، وحضر أخوه الشريف قايتباى ، وحضر معهما من العربان نحو من ألف انسان .. فركب الأمير خاير بك باش العسكر ، ووزع تلك العربان ، وأكمنهم فى مواضع متفرقة ، فلما وصل العسكر الى مكان يسمى السويق ، بالقرب من الينبع ، أتى اليهم بن سبع ، وقد التف عليه مالك بن الرومى . أمير خليص ، وأمير المدينة ، وحميضة أخو الجازانى ، فاتقعوا هناك وقعة مهولة ، فقتل بها من العربان ما لا يحصى ، ومن الأتراك أيضا ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر يحيى بن سبع ومن كان صحبته من العربان . فلما انهزموا خرج عليهم الأكمنة التى أكمنها الأمير خاير بك فاحتاطوا بهم ولم ينج منهم الا القليل ، بعد ما قتل منهم نحو من ثمانمائة انسان ، وأسر منهم قدر ذلك . وجرح فى هذه الواقعة الشريف بركات أمير مكة فى وجهه ... فلما هرب يحيى بن سبع وقع النهب فى نجع العرب فغنم منهم الأتراك أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش ، مما نهبوه من ركب الحاج الشامى والعراقى كما تقدم . وقد تمت الكسرة على يحيى ابن سبع ، وأمير المدنية ، وحميضة أخى الجازانى ، فهربوا ولم يعلم لهم خبر .

فلما صحت هذه الأخبار زينت القاهرة سبعة أيام ، واستمرت الكوسات عمالة ، وصارت الأمراء تخلع على الهجانة الذين أتوا بهذه البشارة ، كوامل وسلاريات ، وكانت هذه النصرة على غير القياس . ثم فى عقيب ذلك جاءت الأخبار بأن الشريف بركات وأخاه قايتباى ، لما رجعوا من الينبع ، وأتوا الى خليص ، اتقعوا مع مالك بن الرومى أمير خليص واقعة مهولة ، فانكسر ابن الرومى وهرب ، فلما هرب غنم منه عربان الشريف بركات أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش وسلاح ، مما كان نهبه من الحجاج .

وفى هذا الشهر كان دخول الأمير طومان باى قريب السلطان على ابنة الأمير أقبردى الدوادار فكان لها مهم حافل ، وزف لها الجهاز الحافل ، حتى رجت له القاهرة . فلما كان ليلة الدخول مشى فى زفة الأمير طومان باى الأتابكى قرقماس وسائر الأمراء قاطبة ، وبأيديهم الموكبيات الشمع الموقدة . وكانت هذه الزفة تعادل زفة الأمير جانم قرابة الأشرف قايتباى لما تزوج بأخت خوند ابنة خاص بك .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان وأحسن اليه .

وفى أثناء هذه السنة توفى الشيخ بدر الدين محمد الماردينى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكانت له يد طائلة فى علم الميقات ، وغير ذلك من العلوم .

وفى هذه السنة توفى أيضا خشكلدى المعروف بنصف وجه ، وكان أحد الحجاب بالديار المصرية ، وكان مفردا فى فتنه ، بعثوا عليه الناس حتى السلطان وكان قد كبر وشاخ .

ومن الحوادث ، أن شخصا من المماليك القرانصة فى سن الشيخوخة ، طلع الى القلعة وقت صلاة الصبح ، وكان يوم الجامكية ، فبينما هو طالع برأس الصوة واذا بثلاثة أنفار من المماليك الجلبان خرجوا عليه هناك ، فقتلوه بخنجر فى بطنه فمات لوقته ، وقتلوا عبده أيضا وكان ماشيا معه حاملا قماشه التى يلبسها عند طلوعه الى القلعة ،

فآل أمره بأن ذلك الجندى كان له اقطاع فمرض ، فلما ثقل فى المرض طلع هؤلاء المماليك يطلبون اقطاعه ، فقال لهم السلطان : « حتى يموت خذوه » . ثم ان الجندى عوفى من ذلك المرض ، فلما طاب وطلع الى القلعة ، قتله هؤلاء المماليك من قهرهم منه . وأعجب من ذلك أن السلطان أخرج الاقطاع الى غير هؤلاء المماليك الذين قتلوا الجندى ، بسبب اقطاعه ، فكان كما يقال :

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، كان له حاصل فى درب الخازن ، وفيه دريس فحرق بالنهار وقت الظهر ، فذكر بعض الجيران أنه رأى شخصا فى صفة فلاح ، كان هناك فى عمارة مع جملة الفعلاء ، فرمى فى ذلك الدريس نارا ، وربما كان هذا الكلام كذبا عليه ، فأرسل من قبض عليه وضربه بالمقارع ، ثم قطع يده اليمين ، وأشهره فى القاهرة ، ثم أراد حرقه بالنار فشفع فيه بعض الأمراء .

وفى سادس عشره ، توفى القاضى بدر الدين محمد ابن القاضى شمس الدين بن محمد القرافى المالكى ، وكان من أعيان نواب المالكية ، وكان ينتسب الى الشيخ عبد الله بن أبى جمرة رحمة الله عليه .

وفيه توفى شخص حريرى ، كان له دكان على رأس عطفة الماطيين ، تجاه سوق اليوسفية ، فوجد عنده فى دكانه أربعة آلاف دينار ما بين ذهب وفضة وهى موزعة فى برانى فى سقف الدكان ، وكان رث الهيئة يدعى الفقر .

ويقرب من ذلك أن امرأة كانت تستعطى عند جامع ابن طولون ، فلما ماتت وجد عندها سبعمائة دينار ، ما بين ذهب وفضة ، ووجد عندها أمطار فيها فلوس جدد ، ووجد عندها ربع غزل ، نحو من ثمانمائة ربعة ، فتعجب الناس من ذلك .

* * *

وفى ذى الحجة ، فى يوم سابعه ، خرج الأمير أزدمر الدوادار مسافرا الى جهة الكرك ، ونابلس ، بسبب فساد بنى لام ، وخرج صحبته الأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تانى بك النجمى ، وجماعة كثيرة من الأمراء العشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، فكان له يوم مشهود .

وفيه خلع السلطان على قانصوه كاشف الشرقية ، وعلى ماماى جوشن كاشف الغربية ، بأن يكونا على عادتهما ، وكان أشيع عزلهما .

وفيه ركب القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وكان عليلا منقطعا عن الركوب . فلما طلع الى القلعة ، خلع عليه السلطان كاملية ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك خامس بشنس القبطى ، ثم ابتدأ يضرب الكرة ، ففى أول يوم من ذلك تقنطر أمير كبير قرقماس ، ووقع الى الأرض ثم قام وركب .

وفيه هجم المنسر على شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له خشكلدى الهوارى ، وكان دوادار الأتابكى قيت الرجبى ، وكان ساكنا بالقرب من حدرة الكماجيين ، فلما هجم عليه المنسر تحت الليل ، ذبحوه وهو راقد فى فراشه ، وأخذوا كل ما فى البيت ولا يعلم من فعل ذلك . وقد أشيع بين الناس أن زوجة خشكلدى المذكور كانت هى السبب فى قتله ، فأقامت مدة وهى فى الترسيم ببيت بركات بن موسى .

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحيى بن سبع ، توجه الى مكة ووقف بالجبل ، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة ، وأن مكة مغلية [1] ، وأخبر أيضا أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند ، وأن حسين باش العسكر المتوجه الى هناك يشرع فى بناء أبراج على ساحل جدة وصور ، وقد جهزوا المراكب الى الخروج الى عدن ، فسر السلطان لهذا الخبر ... لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز ، حتى بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ، ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد .

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذى صنعه الاسكندر بن فلبس الرومى . وكان هذا نقبا فى جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلا زال الفرنج يعبثون فى ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب الى بحر الحجاز ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد (!) .

وفى أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد ، ولم يقع بها فى سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة

وفى هذه السنة طلع الى السلطان شخص يسمى أبو الخير المرافع ، وقال له : « أنا ألتزم لك بمائتين وخمسين ألف دينار ، أستخلصها لك ممن أعرفه ، ولا تنتطح فى ذاك شاتان » ! فمال السلطان الى كلامه ، وقصد أن يخلع عليه ويشرع فى ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك فرجع ولله الحمد .

وفى هذه السنة تزايد ظلم الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وشرع يأخذ أوقاف الناس ، من بلاد وبيوت وغير ذلك ، فيحلها فى ساعة واحدة ، ويرسم عليهم ، ويأخذ أماكنهم بأبخس الأثمان ، وكل من امتنع من ذلك يضربه ضربا مبرحا ويدعه فى الترسيم حتى يعذر له ، ولا سيما ما وقع ليونس ابن جانم الزردكاش ، أخذ منه بيت أبيه الذى أنشأه بزقاق حلب ، فامتنع يونس من ذلك ، فضربه ضربا مؤلما حتى أعذر له ، وهو تحت العقوبة ، وفعل مثل هذه الواقعة بجماعة كثيرة يطول الشرح فى ذكرهم

ومن الحوادث اللطيفة ما وقع فى أواخر هذه السنة ، أن السلطان أبطل المجراة القديمة التى كانت عند درب الحولى بمصر العتيقة ، وشرع فى بناء مجراة جديدة ، فجمع المهندسين فاختاروا أن يكون مبتدأها من عند موردة الخلفاء ، بالقرب من الجامع الجديد ، فأنشأ هناك بئرا ، وجعل لها مسربا من بحر النيل ، وصنع على هذه البئر عدة سواقى نقالة ، وأنشأ من هناك مجراة على قناطر معقودة على دعائم متصلة الى باب الزغلة ، ومن هناك تتصل الى الميدان والقلعة ، فجاءت هذه المجراة من العجائب والغرائب ، لكن صرف على بنائها ما لا يحصر من الأموال ، وغالبه من وجوه الظلم والمصادرات .

وقد وقع فى زمن الشيخ زين الدين بن الوردى رحمة الله عليه ما يشبه ذلك ، وهو أن بعض الملوك أجرى قناة بدمشق الى بعض الجوامع ، وكان ذلك المصروف من مال فيه شبهة ، فأنشأ الشيخ زين الدين فى هذه الواقعة وهو يقول :

كرهت وضوءا من قناة تساق من
دماء الرعايا أو بمال محرم

(1) مغلية : أى بها غلاء

سيشرق فى يوم الحســـاب ندامة
كما شرقت صـــدر القناة من الدم

وفى هذه السنة طلعت جزيره ببولاق تجاه ربع قانم التاجر ، فصارت هذه الجزيرة فى كل ســنة تزرع أمقتة ورياحين ، فتوجهت اليهــا النــاس ، وخرجوا فى القصف والفرجة هنــاك عن الحد ، وضربوا الخيام الكثيرة ، وتعمل هناك أخصاص للمتفرجين بها ، وصاروا يبيتون هناك ليلا ونهارا ، وصار الناس يخوضون فى البحر الى نصف الليل ، وقد قال القائل فى المعنى :

فى جزيرة بولاق رأينــا عجب
أسد ســاروا معهم ظبا شاردين
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح
أذهلونا خضــنا مع الخايضــين

وقال آخر وأجاد :

امض لبــولاق ترى بجزيرة
حـــور وولدان لهـــا تأنيق
لى من تحابى وردها نشر زها
ولهـــا بقلبى هزة وعلــوق

وقد خرجت هذه السنة على الناس وهم فى آمن وسلامة ، وكانت سنة مباركة على الناس ، أخصب فيهـــا الزرع ، ووقع بها الرخاء فى سائر البضائع والغلال ، وكانت سنة هادئة من الفتن بين الأتراك ، وقد حصلت بها هذه النصرة العظيمة على عربان الحجاز ، بعد ما كاد الحاج آن ينقطع من فساد الطرقات الى مكة من عرب بنى ابراهيم فلله الحمد .

سنة ثلاث عشرة وتسعمائة (١٥٠٧/١٥٠٨ م) :

فيها ــ فى المحرم ــ كان خليفة الوقت : الامام المستمسك بالله أبو النصر يعقــوب ، الهاشمى الأبوين ، ابن المتــوكل على الله عبــد العــزيز .

والسلطان يومئذ : الملك الأشرف ، أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى عز نصره .

والقضـــاة الأربعـــة : جمـــال الدين ابراهيـــم القلقشندى الشافعى ، وسرى الدين عبد البر بن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين ابراهيم الدميرى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الشيشينى الحنبلى .

وأما الأمراء أرباب الوظائف من المقدمين فهم : الأتابكى قرقماس بن أركماس بن ولى الدين أمير كبير ، ودولات باى قرابة العادل أمير السلاح ، وسودون العجمى أمير مجلس ، وقانى باى قرا الرماح أمير آخور كبير ، وطراباى الشريفى رأس نوبة النوب ، وأزدمر بن على باى دوادار كبير ، وأنصباى بن مصطفى حاجب الحجاب .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين : فالقاضى محب الدين محمــود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشـــاء بالديار المصرية ، والقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين بن الامـــام ناظـــر الخاص ، والأمير تغرى برمش متحدث مع القاضى شرف الدين الصــغير فى الوزارة ، وشرف الدين يونس النابلسى متحدث على وظيفة الأستادارية الكبرى ، وبقية المباشرين من أرباب الوظائف على حكم ما شرح فى السنة الخالية .

وفى هذا الشهر وقع لقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة واقعـــة غريبـــة ، وهى آن جمال الدين السلمونى الشاعر هجا القاضى عبد البر بن الشحنة هجوا فاحشا . بقصيدة مطولة يأتى الكلام عليها . وسبب ذلك أن السلمونى كان قد هجا معين الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فشكاه معين الدين الى القاضى عبد البر ، فأحضر السلمونى بين يديه ، وضربه وعزره وأشهره فى القاهرة ، وهو عريان مكشوف الرأس . فلما بلغ السلطان ذلك ، أرسل من خلصه من القاضى

عبد البر . فلما خلص هجا عبد البر بهذه القصيدة الفاحشة ، وقد دارت بين الناس ، فلما بلغ القاضى عبد البر ذلك ، شكا السلمونى الى السلطان لما طلع الى القلعة فى يوم التهنئة بالشهر ، وعرض عليه تلك القصيدة التى هجاه بها ... فأحضر السلطان السلمونى بين يديه ، ووبخه بالكلام وقال له : « أتهجو شيخ الاسلام بهذا الكلام الفاحش ؟ » ، فأنكر السلمونى ذلك وقال : « أنا ما قلت فيه هذا كله » ، فقامت عليه البينة بأن هذا نظمه ، فرسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بأن يتوجه بالسلمونى الى المدرسة الصالحية ، ويعمل معه ما يقتضيه الشرع الشريف ، فنزل بالسلمونى وهو فى الحديد . وكان السلطان له عناية بالسلمونى فى الباطن . فلما أتوا به الى الصالحية ، تعصب عليه القضاة قاطبة وقصدوا ضربه بالسياط ، واشهاره فى القاهرة ... وهذه ثانى واقعة وقعت للسلمونى بسبب الهجاء .

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أول من عاقب على الهجاء ... فلما أرادوا ضرب السلمونى وتعزيره ، تعصب له جماعة كثيرة من العوام ، وقصدوا يرجمون قاضى القضاة عبد البر وهو فى وسط ايوان المدرسة الصالحية ، وجمعوا له الحجارة فى أكمامهم ، فما وسع القاضى عبد البر الا أنه عفا عن السلمونى من التعزير والاشهار فى القاهرة . ثم ان القضاة أمروا بسجن السلمونى ، فسجن وأقام مدة طويلة فى السجن ، يأتى الكلام عليها . وأما القصيدة الموعود بذكرها فهى قصيدة مطولة فيها ألفاظ فاحشة الى الغاية ، واساءة مفرطة لا ينبغى أن تذكر ، ولكن نورد منها بعض أبيات مما نظمه جمال الدين السلمونى ، وهو قوله من أبيات :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها
ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
أينكر فى الأحكام زور وباطل
وأحكامه فيها بمختلفاتها
اذا جاءه الدينار من وجه رشوة
يرى أنه حل على شبهاتها
فاسلام عبد البر ليس يرى سوى
بعمته والكفر فى سمناتها
أجاز أمورا لا تحل بملة
يحل ويبرم مظهرا منكراتها
ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت
وكانت على تقديرها وثباتها
وقد وثبت فيها فضاياه بالأذى
وبالبيع شبه الأسد فى وثباتها
فان كان فى الأوقاف تم بقية
تكذبنى فيما أقول فهاتها
ولا بد من بيع الجوامع تارك
الجماعات منها مبطل جمعاتها
ولا بد أن يستبدل الناس أعبدا
بأحرارها بيعا لنفس ذواتها
ولو أمكنته كعبة الله باعها
وأبطل منها الحج مع عمراتها
ومصداق قولى أنه كان مغريا
ليحيى بن سبع فى خراب جهاتها
وقد كان ذئبا لابن سبع وقومه
يطالع بالأخبار قبل رواتها
ولو يعط دينارا وطاوعه الورى
لأسقط عنها صومها وصلاتها
شكت ملة الاسلام مما ينالها
بأفعاله ، يا هل تزيل شكاتها ؟
فيبكى على الدين القويم وشرعه
وأحكامه فيها بمنعوجاتها

نعى مذهب النعمان من قبح فعله
على فتوات الزور لا عن ثقاتها
تعقب يعقـــوبا وخـــالف رأيه
فكم حل من وقف وأبدى شتاتها
وعن زفر قد زفر النقـــل كاذبا
بتزويج أرحام لحين براتهـــا
وقد خان قاضى خان فى فتواته
بتغييرها عن مقتضى موجباتهـــا
فلا تخشن اثما أن تخوض بعرضه
فغيبته للنـــاس خير لغاتهـــا
فماذا على الاسلام حل من الردى
بأيام عبـــد البر مع ســـنواتها

انتهى ذلك على سبيل الاختصار ، وأنا أستغفر الله العظيم وأتوب اليه .

وفى رابع هذا الشهر ، خرج الأتابكى قرقماس الى نحو الشرقية والغربية ، وقد سرح فى البلاد وغاب فيها .

وفى حادى عشره كان ببولاق ليلة حافلة بسبب وقت مولد ســيدى اسماعيل الانبابى رحمة الله عليه ، فضربت فى تلك الجـــزيرة التى تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة ، صنعوا ســـوقا بدكاكين ، وخرج الناس فى الفتك والفرجة عن الحد ، وأقاموا هناك ليالى متوالية ، وموجب ذلك أن كان الرخاء والأمن موجودين .

وفى عقيب ذلك عمل مولد الشيخ ســـويدان المجذوب ، فى مدرسة ابن الزمن التى ببولاق عند الرصيف ، فكان له مولد حافل ، وضربت هناك الخيام الكثيرة عند المدرسة ، لكن حدث تلك الليلة حادثة مهولة ، وهو أن امرأة طبخت على شاطىء البحر ، فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب هناك كان فيها كتان فعملت فيه النار ، وكان تلك الليلة الريح عاصفا ، فمشت النار الى شونة تبن فى معصرة هناك فعملت فيها النار فاحترقت المعصرة ، ونهب ما فيها من قصب وسكر وعسل ، وحصل للناس تلك الليلة غاية النكد ، ولولا لطف الله تعالى ، ثم بركة الشيخ سويدان ، لاحترقت تلك الأماكن التى هناك عن آخرها .

وفيه تغير خاطر السلطان على أبى الخير المرافع ، بعد أن قربه ، وكان قد أخذ فى أسباب مصادرات الناس ، ولو دام لحصـــل للناس منه كل سوء ، فتســـلمه الزينى بركات بن موسى ، فنزل به من القلعـــة وهو فى الحديد ، فلما شق من القـــاهرة كادت العوام أن ترجمه ، وارتفعت الأصوات لابن موسى بالدعاء لأنه كان سببا لذلك . فلما أتى الى داره ضرب أبا الخير المرافع بالمقـــارع ، وبعث به منفيا الى الواح .

ومن الحوادث أن مملوكا من المماليك الجلبان نزل الى سوق الرقيق ليشترى عبدا أو يرد عبدا ، فوقع بينه وبين الدلال تشاجر . فلما تزايد الأمر بينهما ضربه المملوك بقبقاب على رأسه فى السوق بين الناس ، فحمل الى داره ، فأقام نحو شهر ثم مات ، فلم تنتطح فى ذاك شاتان .

وفى عقيب ذلك ، ضرب الأمير أرزمك الناشف ، أحد الأمراء المقدمين ، شخصا من النواتية فمات تحت الضرب . وسبب ذلك أن هذا النوتى حمل للأمير أرزمك مغلا فنقص ، فضربه بسبب ذلك . فلما مات النوتى وقف أولاده للسلطان ، فلما علم بهذه الواقعة تغافل عن ذلك وقال للأمير أرزمك : « ارض أولاد هذا المقتول » ، وانفض المجلس على ذلك وراحت على من راح .

* * *

وفى صــفر كان ختام ضرب الكـرة ، ثم ان السلطان أضاف الأمراء بالبحرة ، ومد لهم أسمطة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزيادة فى أول يوم من المناداة خمس أصابع .

ومن الحوادث أنه فى يوم الخميس ثالث عشره تسحب من سجن القلعة ، وقت الظهر ، نحو سبعين انســانا من المحابيس ، ما بين مشــايخ عـربان وفلاحين وغير ذلك فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، فمضوا ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيه جاءت الأخبــار أن عربان الشرقية هاجوا ونهبوا الضياع ، فعين لهم السلطان فى ذلك اليوم تجريدة ، وعين بها من الأمراء ســودون العجمى أمير مجلس ، وأنصباى حاجب الحجـاب ، وتمر الزردكاش أحد المقدمين ، ودولات باى قرموط ، ومن المماليـك الســلطانية نحوا من خمســمائة مملوك ، فخرجوا من يومهم ... وقد تقـدم القول بأن الأتابكى قرقماس خرج قبل ذلك الى نحـو الشرقية والغربيــة ، فلما سمع بمجيء العســكر لاقاهم من هناك .

***

وفى ربيــع الأول رســم السلطان للقــاضى علاء الدين ناظر الخاص بأن يتوجــه الى جدة . وقد بلغ السلطان أنه وقع تشاجر بين حسين باش العسكر الذى هناك ، وبين على المسلاتى المغربى ، فخرج ناظر الخاص ليكشف عن حقيقــة ذلك ، وعين معه السلطان نحوا من خمسين مملوكا تقوية للعسكر الذى هناك .

وفيــه كان رجوع الأمــراء والعسكر الذين توجهوا للشرقية ، بسبب فساد العربان ، فرجعوا بغير طائل من ذلك .

وفيه رسم السلطان بشنق أحمد بن مهنا شيخ بنى وائل ، فســمروه هو وأقاربه ، وطافوا بهــم القاهرة ، ثم شنقوا أحمد بن مهنا على باب النصر . وكان ذنبه أنه هرب من السجن ، وقتل الســجان وكسر القيد ، وكان من شرار العربان ، فلما ظفر به شنقه .

وفى يوم الثلاثاء عاشره ، كان دخول العسكر المتوجه الى الحجاز بسبب محاربة يحيى بن سبع ، فدخل الأمير خاير بك باش العسكر ، وقنبك رأس نوبة ثانى المتوجــه صــحبته ، وبقيــة الأمــراء والعسكر ، فكان لهم يوم مشهود . ودخل المحمل صــحبتهم ، فزينت لهم القاهــرة ، ودقت لهــم الكوسات بالقلعة ، ودخل صحبتهم ثمانمائة رأس من رءوس العربان ، من بنى ابراهيم الذين قتلوا فى المعركة ، فأشهروهم على رماح ، والمشــاعلية تنــادى عليهم .. فلما طلع الأمراء الى القلعة خلع عليهم السلطان ، ونزلوا الى دورهم . فكانت مدة غيبتهم فى هذه التجريدة ثمانية أشهر وأياما . وقد بيضوا وجههم بهذه النــصرة التى وقعت لهــم ، وفتحوا درب الحجاز فتحا ثانيا فى الاسلام ، بعد أن كاد الحج ينقطع ، فلله الحمــد على ذلك ...

وقد شق على السلطان مجيء العسكر ، وكان قصده أن يتبعوا يحيى بن سبع حيث توجه حتى يقطعوا جادرة بنى ابراهيــم عن آخراهم . وكان العليق هناك ما يوجــد ، والموت فى الجمال كثيرا فتقلق العسكر ، وطلب المجيء .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع القضاة الأربعــة والأمراء المقدمون على العادة ، ونصب الخيمــة الــكبيرة المدورة التى صنعهــا الأشرف قايتبــاى وصرف عليها نحوا من ثلاثين ألف دينــار ، وكان مولدا حافلا .

وفى رابع عشره جاءت الأخبار من عند الأمير أزدمر الدوادار أنه لما توجه الى الكرك ونابلس ، قاتل عربان بنى لام الذين كانوا من عصبة يحيى بن سبع ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسر من كبارهم نحو عشرة أنفار ، وملك منهم مدينة الكرك . فلما تحقق السلطان ذلك أمر بدق الكوسات بالقلعة ، وكانت القاهرة مزينة من حين دخل العسكر ، فصارت الفرحة فرحتين .

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، خلع السلطان على الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقرره فى امرة ركب المحمل ، وقرر قانصوه أبا سنة والى القاهرة بالركب الأول .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن الناس تحج فى هذه السنة مطلقا من رجال ونساء على العادة ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان من أعظم فرحات الاسلام .

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضى فخر الدين ابن العفيف كاتب المماليك ، فعزله ورسم عليه ، وقرر عليه ألفى دينار يوردها للخزائن الشريفة ، وكان هذا آخر عزل القاضى فخر الدين وولاياته .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك عاشر مسرى ، وفتح السد فى اليوم الحادى عشر من مسرى ، ووقع فى زيادة هذا النيل أمور غريبة ، وهو أنه سلسل فى أول الزيادة ، فلما كان سادس مسرى زاده الله ثلاثين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى اليوم السابع منها زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم فى اليوم الثامن منها زاد الله فيه أيضا عشرين أصبعا ، وكانت زيادته سبعين أصبعا فى ثلاثة أيام ... واستمرت الزيادة عمالة مترادفة حتى أوفى الله ، فتوجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود ، كما يقال فى المعنى :

سد الخليج بكسره جبر الورى
طرا فكل قد غدا مسرورا

البحر سلطان فكيف تواترت
عنه الأشائر اذ غدا مكسورا

وفيه توفى شرف الدين بن أبى الخير كاتب الجرافة مباشر الأمير طراباى ، وكان من وسائط السوء عنده .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على القاضى شرف الدين الصغير وقرر فى كتابة المماليك عوضا عن فخر الدين بن العفيف بحكم صرفه عنها ، فتضاعفت عظمة شرف الدين الصغير ، وصار ناظر الدولة كاتب المماليك مستوفيا على الدواوين وغير ذلك من الوظائف .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن اسماعيل شاه بن حيدر الصوفى ، المقدم ذكره ، قد تحرك على بلاد السلطان ، ووصل أوائل عسكره الى ملطية ، وحكوا عنه أمورا شنيعة فى أفعاله .. فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وجمع الأمراء وضربوا مشورة فى أمر الصوفى ، فأشار الأمراء على السلطان بأن يرسل اليه تجريدة ، فنادى للعسكر بالعرض ، فطلع العسكر قاطبة الى القلعة فعرضهم — وكان قاصد ابن عثمان حاضرا ، وخليل بيك بن رمضان أمير التركمان — فكتب من العسكر نحوا من ألف وخمسمائة مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين فى ذلك اليوم خمسة ، وهم : قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وجعله باشا على العسكر ، وصحبته أرزمك الناشف أحد المقدمين ، ودولات باى قرموط ، وقانصوه كرت ، وتانى بيك الخازندار . وعين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات نحوا من عشرين أميرا . ثم عين بيبرس أمير آخور ثانى قرابته

بأن يتوجه الى حلب ، ويعلم النواب بمجيء العسكر ، وليجتهدوا في عمل اليرق ، وأن نائب حلب يجمع عساكر حلب ، ويخرج ليحرس أطراف البلاد ويكشف الأخبار ، ثم بطل ذلك جميعه فيما بعد ، كما يأتي الكلام على ذلك في موضعه .

* * *

وفي جمادى الأولى — في ثامنه — حضر أبرك نائب قلعة حلب ، وقد انفصل عنها ووقع بينه وبين نائب حلب تشاجر ، وأصله من مماليك السلطان . فطاش وفتك بحلب ، ولم يستشن لنائب حلب بشأن .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر الصوفي عدت من الفرات ، ووصل جاليشهم الى أطراف بلاد السلطان ، وأن على دولات جمع التركمان ، وخرج اليهم وتحارب معهم .

فلما جاءت هذه الأخبار ، اضطربت القاهرة وماجت ، ونادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الاثنين . وكان قد أشيع بين الناس بأن التجريدة بطالة ، فأهمل العسكر ذلك حتى طرقتهم هذه الأخبار ، فعند ذلك شرع المماليك يكبسون على الطواحين والاسطبلات بسبب البغال والأكاديش ، وكان السلطان أخر أمر النفقة الى أن يحضر الأمير أزدمر الدوادار ، وكان توجه الى الكرك ونابلس بسبب عربان بني لام . فلما جاءت هذه الأخبار أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة أشهر معجلا ، وثمن جمل سبعة أشرفية ... فكان ما خص كل مملوك نفقة وجامكية وثمن جمل مائة دينار وثلاثين دينارا . ثم شرعوا في عمل اليرق .

وفي يوم الأربعاء ، رابع عشره ، عزم السلطان على قاصد ابن عثمان في قاعة البحرة ، فأظهر في ذلك اليوم غاية العظمة في الفرش وفي الأسمطة والفواكه والحلوى ، وملأ صحن فرعون الذي تحت شباك قاعة البحرة سكرا بماء الليمون ، برسم جماعة القاصد ، وعند الانصراف خلع على القاصد كاملية مخملا أحمر بسمور فاخر ، وكان يوما حافلا جدا .

وفي تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة ، شخص يقال له كمال ، من خواص جماعة ابن عثمان ، وقد ترجموا كمال هذا بتراجم عظيمة ، بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلا ونهارا ، حتى أعيا الفرنج أمره ، وأنه رأس المجاهدين المرابطين في الاسلام . فلما حضر أكرمه السلطان وبالغ في اكرامه وخلع عليه ، فأقام بمصر مدة يسيرة ورجع الى بلاده .

وفي العشرين من هذا الشهر جاءت الأخبار من غزة ، صحبة هجان ، بوفاة الأمير أزدمر بن على باى الأشرفي أمير دوادار كبير ، توفي بغزة يوم الخميس خامس عشر هذا الشهر ، وقد مرض مدة ثلاثة أيام ومات . فلما جاء هذا الخبر تأسف عليه الكثير من الأمراء ممن كان من عصبته ، وكان موته بغتة على حين غفلة ، وأشيع بين الناس أنه مات مشغولا ، وكان أميرا جليلا رئيسا حشما ، لين الجانب قليل الأذى ، وكان في عنفوان شبوبيته ، وكان مرموقا بالشجاعة والفروسية .. وهو من مشتريات الأشرف قايتباى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشراب خاناه ثم بقي مقدم ألف ، ثم ولى الدوادارية الكبرى بعد الأمير مصرباى في سنة سبع وتسعمائة ، فكانت مدته في الدوادارية الكبرى نحوا من ست سنين وخمسة أشهر الا أياما . فلما تحقق السلطان موته ، ضرب الحوطة على

موجوده ، ورسم على جماعته وغلمانه ومباشريه وقرر عليهم مالا له صورة .

وفيه حضر تغرى بردى الترجمان ، وكان توجه الى بلاد الفرنج ، وأقام بها نحوا من سنتين ، فلما حضر خلع عليه السلطان وأقره على وظيفته .

وفيه ثبت النيل المبارك على ثماني عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك بثمانى أصابع .

وفيه توفى القاضى جمال الدين الأتميدى أحد نواب الحكم الشافعى ، وكان لا بأس به

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن شخصا يقال له عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى ، وكان خطيبا ببعض الجوامع ، فقيل عنه انه وقع فى حق سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام بكلام فاحش لا ينبغى أن يذكر ، فضبطوا عليه ذلك ... ثم ان بعض القضاة استتوبه ، وحكم شمس الدين الحلبيى بحقن دمه . فلما بلغ السلطان ذلك تعصب لابراهيم الخليل عليه السلام ، وقال : « ما أرجع حتى أضرب عنق هذا القائل لهذا الكلام » . فأمر بعقد مجلس بحضرته وجلس فى الدهيشة وأرسل خلف القضاة الأربعة ، فحضر جمال الدين القلقشندى الشافعى ، وسرى الدين عبد البر بن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى المالكى ، والشهاب أحمد بن الشيشينى الحنبلى ، ثم أمر السلطان باحضار القضاة المنفصلين ، فحضر شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعى ، وحضر برهان الدين ابن أبى شريف الشافعى ، وبرهان الدين بن الكركى الحنفى ، وجماعة من مشايخ العلم ، منهم الشيخ نور الدين المحلى ، والشيخ عبد الحق السنباطى الشافعى وغير ذلك من المشايخ والعلماء . فلما تكامل المجلس تباحثوا فى هذه المسألة ، فقال الشيخ زكريا : « مذهبنا أن هذا القائل اذا تاب الى الله تعالى واستغفر تقبل توبته » . ووافقه على ذلك ابن أبى شريف ، فحصل فى ذلك المجلس بعض تشاجر بين قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة وبين الشيخ نور الدين المحلى ، وأحضر كل من العلماء النقول فى هذه المسألة ... وانفصل المجلس مانعا على أن هذا القائل يسجن مدة طويلة حتى يتوب ، ثم انفض المجلس على ذلك ، والسلطان قد صمم على ضرب عنق هذا القائل ، فتوجهوا به الى السجن فسجن ، وهذا ما كان من ملخص هذه الواقعة .

وفيه حضر الأمراء الذين كانوا توجهوا صحبة الأمير أزدمر الدوادار الى نابلس ، وأحضروا صحبتهم جثة الأمير أزدمر وهى فى سحلية ، فدفن فى تربته التى أنشأها بالقرب من باب الزغلة ، وانطوى أمره ، وخلا منه المكان ، ودخل فى خبر كان .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم السبت ثانيه ، رسم السلطان بتوسيط شخص من العربان المفسدين ، يسمى عبيد بن أبى الشوارب ، فوسطه عند قنطرة الحاجب ، ووسط معه أيضا شخصا يسمى قاسم الغريب ، وكانا من كبار المفسدين بالشرقية .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع السلطان على الأمير طومان باى ابن أخيه وقرر فى الدوادارية الكبرى عوضا عن الأمير أزدمر بن على باى بحكم وفاته ، فنزل من القلعة فى موكب حفل ، وسكن فى دار الأمير أزدمر فيما بعد ، ورسم السلطان للأمير يشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا عند الأمير أزدمر ، أن يستمر دوادارا عند الأمير طومان باى على عادته ، فامتثل ذلك .

وفيـه خلع السـلطان على شيخ العرب عبد الدايم بن أبى الشوارب ، وقرر فى مشيخة العرب بالقليوبية .

وفيه خلع السـلطان على مملوكه أبرك الذى كان نائب قلعة حلب وحضر الى مصر ، فقرره فى شادية الشراب خاناه عوضا عن الأمير طومان باى بحكم انتقاله الى الدوادارية الكبرى .

وفى يوم الثـلاثاء سادسه حضر قاصد من عند على دولات ، وأخبر أنه لما توجـه الى عسـكر الصـوفى ، تحارب معهم فكسرهم كسرة قوية ، فانهزموا نحو بلادهم مكسورين ، وقتل منهم جماعة كثيرة . وأرسل على دولات عدة رءوس ممن قتل من عسكر الصوفى ، وفيهم شخص من أمرائه بالحياة وعلى رأسه طرطور أحمر ... فلما عرضـوا على السلطان سر بهذه الواقعة ، وأمر بأن تعلق تلك الرءوس على باب زويلة . فلما تحقق صحة هذه الواقعة بطل أمر تلك التجـريدة التى كان عينها الى الصوفى ، ورسم باعادة النفقة التى كان أنفقها على العسـكر بسبب التجريدة ، فتوجهت اليهم الطواشية واستعادوا منهم النفقة ، فشق ذلك على المماليك ، وكانوا قد تصرفوا فى غالبها . فلما بلغ السـلطان ذلك رسم بأن يترك لهم ثمن الجمـل الذى كان أعطاه لهم ، وقدره سبعة دنانير ويعيدوا الباقى ، فامتثلوا ذلك وأعادوا ما أخذوه ، والذى تأخر عليه من ذلك شىء قطع من جامكيته .

وفى يوم الاثنين حادى عشره ، خلع السـلطان على قاصد أبى يزيد بن عثمان خلعة سنية ، وألبس جماعته سلاريات وشقا وسمورا وأذن لهم بالعود الى بلادهم ، فمضوا وهم شاكرون من السلطان .

وفى يوم الخميس رابع عشره ، خلع السلطان على الأمير طومان باى الدوادار خلعة الأنظار ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ، ووافق ذلك عاشر هاتور .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات أمير مكة ، توجه الى مالك بن الرومى أمير خليص ، وكبس عليه على حين غفلة ، فظفر به وحز رأسه وحز رءوس جماعة من أقاربه ، وأن ناظر الخاص علاء الدين واصل بذلك عن قريب ... فسر السلطان لهذا الخبر .

ومن الحوادث فى أواخر هذا الشـهر ، وقعت فتنة مهولة ببولاق حتى كادت تخرب عن آخرها . وسبب ذلك أن جماعة من الجوابر الذين ببولاق وقع بينهم وبين جمـاعة من النفر ، بسبب ضائع ضاع لهم ، فتعصب الجوابر على النفر وضربوهم وجرحوا منهم جماعة ، واستخلصوا منهم الضائع . فلما بلغ ذلك طائفـة النفر اجتمع منهم السـواد الأعظم ، وتوجهـوا الى بولاق ، ووثبـوا على الجوابر ، ونهبوا ما فى مراكبهم من الغلال ، ونهبوا دكاكين بولاق ، وخطفوا عمائم النـاس ... فلما تزايد الأمر من النفر ثار عليهم الجوابر والنواتية الذين ببـولاق ، وأتوا اليهم بالسيوف والمقاليع فسقط بينهم سـاقط ، فاتسعت الفتنة واستمرت على ما ذكرناه ثلاثة أيام متوالية . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد ، وكانت الجوابر فى حمـاية الأتابكى قرقماس ، والنفر فى حمـاية قانى باى قرا ، أمير آخور كبير ، فتعصب كل منهما لجماعته فتحـير بينهما السلطان ، وراح على الناس ما نهب لهم فى هذه الحركة .



وفى رجب كان انتهاء العمل مما جدده السلطان

من العمارة بالقصر الكبير ، فلما تم ذلك صنع به وليمة حافلة ، وعزم على القضاة الأربعة ، والأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ ، ومد به أسمطة حافلة ، وبات تلك الليلة هناك .

وفيه نزل السلطان الى خلف القلعة عند قبة الهوا ، وجربوا قدامه مكاحل نحاسية كان سبكها ، فأقام هناك ساعة يسيرة ثم عاد الى القلعة .

وفيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى فضربه ، ووكل به ثلاثة من المماليك الخاصكية ، وسبب ذلك أن المعسكر تضرر من كثرة الفضة النحاس التى يجدونها فى الجامكية فشكوه الى السلطان ، فقبض عليه وقرر عليه مالا له صورة بسبب ذلك .

* * *

وفى شعبان ، حضر قاصد من عند اسمعيل شاه الصوفى ، وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذى وقع من عسكره فى دخولهم الى أطراف بلاد السلطان ، لم يكن ذلك عن اذنه ولا علم بذلك ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأوكب له بالحوش موكبا حافلا ، وكان هذا القاصد هو وجماعته فى غاية الغلاسة ، وعلى رءوسهم طراطير حمر ليس عليهم رونق بخلاف قصاد ابن عثمان .

وفيه وقعت فتنة مهولة بين مماليك السلطان وبين مماليك الأمير خاير بك الخازندار بسبب حمير النقارة ، فقتل من مماليك السلطان مملوك ، فتعصب له خشداشينه ، ونزلوا من الطباق مشاة وتوجهوا الى بيت خاير بك ونهبوا ما فيه وأحرقوا بابه ، فهرب منهم واختفى وطلع الى السلطان . وقد اتسعت هذه الفتنة . فلما جرى ذلك أرسل السلطان قبض على مملوك خاير بك الذى فعل هذه الفعلة ، فوسطه فى الرملة ، حتى خمدت هذه الفتنة قليلا .

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، دخل القاضى علاء الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم أنه توجه الى جدة ، بسبب تجهيز المراكب صحبة العسكر الذى توجه الى عدن ، بسبب تعبث الفرنج هناك . فلما تم أمره من جدة ، وقصد الرجوع الى مصر ، أرسل صحبته الشريف بركات أمير مكة رأس مالك ابن الرومى أمير خليص ، وعدة رءوس ممن قتل معه من العربان فى المعركة كما تقدم ، فكان عدتهم نحوا من تسعة وعشرين رأسا ، فارتجت لهم القاهرة ، وأشهروا على رماح ، فلما عرضوا على السلطان وهو بالميدان ، خلع على ناظر الخاص كاملية مخملا أحمر بسمور ، وأركبه فرسا بسرج مغرق وكنبوش ، وتوجه الى داره فى موكب حافل وصحبته قضاة السلطان ، ورسم بأن تعلق تلك الرؤوس على أبواب القاهرة .

وفى يوم السبت سابع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعزم على قاصد الصوفى هناك ، وأحضر قدامه مماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، وهم بآلة السلاح ، فأظهروا فى فنون النشاب أشياء غريبة ، وأحرق قدام القاصد احراقة نفط بالنهار ، ثم مد له أسمطة حافلة وخلع عليه وعلى جماعته ، وأذن لهم بالعودة الى بلادهم فسافروا فيما بعد .

وفيه كانت واقعة الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين الأستادار ، مع الناصرى محمد بن قجق نديم السلطان . وملخص هذه الواقعة أن محمد ابن بنت جمال الدين ، كان له عبد حبشى ، فأفسد جارية لمحمد بن قجق ، فشكاه للسلطان ، فطلب ابن بنت جمال الدين ، وقصد الصلح بينه وبين

ابن قجق ، وأن يرضيه فى جاريته ، فتواحش ابن بنت جمال الدين فى حق ابن قجق ، وسبه فى مجلس السلطان ، وكان ابن بنت جمال الدين أهوج أحمق رهاجا . فلما جرى ذلك تغير خاطر السلطان عليه ، ورسم بتسليمه الى نقيب الجيش ، فاتسعت هذه الواقعة على ابن بنت جمال الدين ، وقرر عليه السلطان عشرة آلاف دينار ، فاستمر فى الترسيم وضرب فى بيت الوالى ، وباع جميع موجوده ولم يف بهذا القدر ، وآخر الأمر رسم السلطان بنفيه الى الواح ، فنفى وجرى عليه شدائد ومحن . وكان قليل الدربة ، فلو سد هذه القضية بدون الخمسين دينارا كانت تستد ، ولا كان يجرى عليه هذا كله ... وهذه الواقعة تقرب من واقعة الزينى فرج الحاجب ، وقد تقدم ذكر ذلك فيما جرى عليه . ويقرب من هذه الكائنة ، ما وقع لشخص من أبناء الناس ، يقال له محمد بن سودون السودونى ، وقد تغير خاطر السلطان عليه ، وحصل له منه ما لا خير فيه ، وسجنه وقاسى شدائد ومحنا وأمره مشهور .

وفى سلخ هذا الشهر حضر الأتابكى قرقماس وكان مسافرا فى اقطاعه بالمنزلة ، ودخل صحبته بعدة رءوس من العربان العصاة ، فعرضوا على السلطان بالميدان ، فخلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل .

* * *

وفى رمضان — فى يوم مستهله — عرض القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، والزينى بركات ابن موسى المحتسب ، اللحم والغنم والدقيق والسكر ، على السلطان وهو بالميدان ، فطلعا به مزفوفا على العادة فخلع عليهما .

وفى يوم الخميس ثالثه عرض السلطان المحابيس بالميدان فأطلق منهم جماعة من رجال ونساء ، وأبقى منهم أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفيه وقف شخص من الغلمان للسلطان وهو مقطوع اليد ، وأنهى فى قصته أن الأمير طراباى قطع يده لأجل بغلة ماتت منه فى الربيع فلم ينصفه السلطان من طراباى .

وفى يوم الجمعة خامسه ، أفرج عن عبد العظيم الصيرفى ، وقد أورد نحوا من عشرة آلاف دينار ، وقرر عليه باقى المال .

وفيه توفى أحمد بن اسمعيل رأس نوبة الأمير طراباى ، وكان على عوج فيه خيرا من غيره من الظلمة .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن جمال الدين السلمونى الشاعر ، وكان فى السجن من حين وقع له مع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ما تقدم ذكره ، وكان السلطان له عناية بالسلمونى فى الباطن .

وفيه خلع السلطان على مملوكه الأمير أبرك ، وأعاده الى نيابة قلعة حلب ، كما كان أولا ، مع استمراره على شادية الشراب خاناه بمصر ، وصار يحمل اليه معلومها وخراج الاقطاع وهو بحلب ، فعد ذلك من النوادر . ثم خرج فى أثناء هذا الشهر الى حلب متكلما على نيابة القلعة بها ، ومتوليا شادية الشراب خاناه بمصر . وأعجب من هذا أن السلطان أنعم عليه فيما بعد بتقدمة ألف بمصر ، وصار يحمل اليه خراج اقطاع التقدمة وهو بحلب .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن جماعة من السراق نقبوا قاعة الذهب ، وذبحوا البواب ، وأخذوا من القاعة سبائك ذهب وفضة بنحو

عشرة آلاف دينار ، فراحت ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفى هذه الليلة نقبوا من سوق مرجوش أربعة دكاكين .

وفى ليلة الثلاثاء ثانى عشرينه هجم ذلك المنسر على شخص أعجمى تاجر ، وكان فى سعة من المال ، وكان ساكنا عند باب سر المدرسة الصالحية ، فذبحوه وذبحوا عبده معه ، وأخذوا كل ما فى داره من مال وقماش ، فتتبع الوالى أمر هؤلاء السراق ، حتى ظفر بجماعة منهم فشنقوا على باب ذلك التاجر الذى قتل .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه ، كانت وفاة قاضى القضاة المالكى برهان الدين ابراهيم الدميرى ، وكان عالما فاضلا ، دينا خيرا ، رئيسا حشما ، لين الجانب كثير التواضع ، وانتهت اليه رياسة المالكية فى عصره ، ولم يكن يومئذ فى المالكية أعلى طبقة منه على الاطلاق ، ومات وهو فى عشر الثمانين ، وكانت مدته فى منصب القضاء ، الى حين توفى رحمة الله عليه ، ست سنين وستة أشهر الا أياما ، وكان نادرة عصره فى الخط الجيد ، والعبارة الحسنة ، وكن عارفا بالأحكام الشرعية . فلما بلغ السلطان وفاته ، نزل من القلعة ليصلى عليه فتبين أنهم توجهوا به الى الجامع الأزهر فصلوا عليه هناك .

فلما تحقق السلطان ذلك توجه الى نحو القرافة وزار الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، فنزل عن فرسه ودخل فزارهما بتواضع . وتصدق فى ذلك اليوم بمبلغ له صورة ، وكان ذلك أول نزوله فى حال السلطنة .

وفيه توفى ابن سلطان العلايا الذى كان مقيما بمصر .

وفى سلخ هذا الشهر ، نزل السلطان على حين غفلة ، وتوجه الى المجراة التى أنشأها فكشف عن بنائها ، وكان معه الأمير طومان باى الدوادار وبعض أمراء عشراوات ، ومن مماليكه نحو من خمسمائة مملوك ، وأول ما نزل من القلعة خرج من باب القرافة ، وتوجه الى تربة الأمير أزدمر الدوادار ، ونزل عن فرسه وزار قبره . ثم ركب من هناك ، وتوجه الى نحو كوم الجارح ، وزار الشيخ أبا السعود الذى كان هناك مقيما . ثم توجه من هناك الى المجراة وكشف عليها وغسل وجهه من ماء النيل .

فلما رجع الى القلعة ، رجع من على مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وزار وهو راكب على فرسه ، ورسم لخدام السيدة بعشرة دنانير ، ثم خرج من باب القرافة ، وطلع الى القلعة وتصدق فى ذلك اليوم بمال له صورة ، وأنعم على البنائين والمهندسين فى ذلك اليوم بمائة دينار .

* * *

وفى شوال عمل السلطان موكب العيد ، وكان حافلا وفرق الخلع على العادة .

وفى يوم الخميس ثامنه ، عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، ومقام ابراهيم عليه السلام ، وقد شقوا من القاهرة ، وهى على رءوس الحمالين مزفوفة ، فلبس القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى فى ذلك اليوم خلعة كونه كان ناظر الكسوة أيضا .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن المماليك الجلبان ، وثبوا على السلطان بالقلعة ، ونزلوا من الطباق بكباشيات مقلوبة ، فعطعطوا بالقلعة ، وأظهروا العصيان ، وحصل منهم فى ذلك اليوم غاية الفساد ، وقصدوا أن يهجموا على السلطان

وهو جالس فى الدهيشة ، فخرج اليهم جماعة من الأمراء العشراوات وتكلموا معهم فلم يسمعوا لهم ، وقالوا ما نرجع حتى ينفق علينا لكل واحد مائة دينار ، فباتوا وأصبحوا على ذلك ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، فلم يخرج السلطان فى ذلك اليوم ، ولا قعد على السماط ، وقصد أن ينزل من القلعة ويختفى من قهره من المماليك ، فلم يمكنه الأمير طومان باى الدوادار من ذلك ، فاستمرت هذه الفتنة قائمة ثلاثة أيام والقلعة مائجة ، ثم سكن الحال قليلا عن غير رضا من المماليك .

وفى يوم السبت سابع عشره خلع السلطان على الشيخ محيى الدين يحيى ابن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى المالكى وقرر قاضى قضاة المالكية عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وقد ولى منصب القضاء وهو شاب ، وكان حسن السيرة وله اشتغال بالعلم ، فما استكثر عليه أحد ذلك ، وخضعت له المالكية قاطبة .

ومما وقع لوالده قاضي القضاة برهان الدين الدميرى ، أن السلطان رسم لقضاة القضاة بأن يخطب به كل واحد منهم جمعة ، وكان قاضى القضاة الشافعى جمال الدين القلقشندى غير ماهر فى الخطبة ، فرسم له السلطان ألا يخطب به ، فخطب به قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن الشحنة عدة مرار ، فلما جاءت نوبة قاضى القضاة برهان الدين الدميرى المالكى صعد المنبر بجامع القلعة فأرتج عليه أمر الخطبة ، وأنجبه من ذلك وتعفش ووقع عند نزوله من المنبر ، فلما صلى ونزل من القلعة مرض ولزم الفراش واستمر عليلا الى أن مات عقيب ذلك بمدة يسيرة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، ولا سيما قد أذن السلطان للناس فى الحج بالتوجه الى الحجاز على العادة ويكون ذلك مطلقا من نساء ورجال ، فحج فى هذه السنة من الناس ما لا يحصى ، وكان أمير ركب المحمل طراباى رأس نوبة النوب ، وبالركب الأول قانصوه أبو سنة والى القاهرة ، فكان لهما يوم مشهود . وحج فى هذه السنة من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شمس الدين التتاى المالكى ، وكان قاضى المحمل . وحج جماعة من الأمراء العشراوات ، وحجت خوند أصل باى أم الملك الناصر ، سرية الأشرف قايتباى ، وحجت خوند جان كلدى زوجة الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر ، وحجت زوجة الأمير تانى بك قرا وهى ابنة الأمير برد بيك صهر الأشرف اينال ، وحج غير ذلك من الأعيان جماعة كثيرة .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه توفى الركنى عمر ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ، أخو أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وكان شابا رئيسا حشما ، أسمر اللون جدا ، أمه جارية حبشية ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه توفى الشيخ أبو الفضل بن المحرقى ، وكان من خيار الناس لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه ، حضر الأمير بيبرس قريب السلطان ، وكان مسافرا نحو البلاد الشامية بسبب الكشف على القلاع .

وفى ذلك اليوم حضر الأمير علان الدوادار الثانى ، وكان توجه الى نحو عجرود بسبب اصلاح السواقى التى فى مناهل الحاج . فعمر ما فسد منها ورجع .

وفى هذا الشهر لم ينزل السلطان الى الميدان ولا جلس به ، وسبب ذلك أنه قد تخيل من المماليك

الجلبان ، وقد تقدم ما وقع له معهم ، وطلبوا منه نفقة فلم يعط لهم شيئا ، واستمر مصمما على عدم ذلك ، فلم ينزل الى الميـدان حتى يرى ما يكون من أمر المماليك .

* * *

وفى ذى القعدة عين السلطان تجريدة الى بلاد الفرنج ، وقد تزايد منهم الأذى والتعبث بالناس فى البحر الملح ، وكان الباش على هذه التجريدة الأمير محمد بيك قريب السلطان ، وصحبته جماعة من المماليك السلطانية ، وأولاد النـاس وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثالث بشنس القبطى .

وفى يوم الاثنـين حادى عشره ، توفى الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرى ، وكان علامة فى عصره شيخا عارفا بطريقة القراءة ، وكان رئيسا حشما عشير الناس ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على الأمير بيبرس قرابته بتقدمة ألف ، وخلـع على أقباى الطويل وقـرره أمير آخور ثانى ، عوضا عن بيبرس ، بحكم انتقاله الى التقدمة .

ومن الحوادث أن جماعة من عبيد السلطان تحاسدوا فى بعضهم فقتلوا منهم واحـدا كان مقربا عنـد السلطان من بينهم ، فلما قتلوه رموه فى سراب من أسزبة القلعة ، فلما فحص السلطان عن أمره طلع به من ذلك السراب ، ثم قبض على من فعل ذلك من العبيد ، فوسط منهم أربعـة فى الرملة وهرب منهم جماعة .

وفيه وجدت امرأة موسـطة نصفين كل نصف منهما مرمى فى حارة فلا يعلم من فعل ذلك بها .

وفيه غمز على فران قتل صبيا كان عنده ، ورماه فى جورة الفرن فاحترق وهرب الفران ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيه قتل بعض الغلمان بياع لبن لأجل شقفة لبن لم يبعها له اللبان فقتله ، فلما بلغ السلطان ذلك وسط الغلام الذى قتل اللبان ، فراح هذان الرجلان لأجل شقفة لبن ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وفى أثناء هذه السنة توفى الأستاذ على بن غانم وكان علامة فى ضرب الطنبورة ومعرفة الأنغام ، وهو الذى أظهر الخفائف النجدية بمصر ، ولحنها فى التلاحين الغريبة ، حتى أبطل بها فن الموسيقى .

* * *

وفى ذى الحجة فرق السـلطان الأضحية على العسكر ، وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء وغير ذلك .

وفيه توفيت امرأة يقال لها خديجة الكليباتية ، وكانت تدعى الصلاح ، وتدخل بيوت الأكابر ، فوجـد لها ذهب عين ثلاثة آلاف دينار ، وأثاث البيت بنحو من خمسمائة دينار ، فعـد ذلك من النوادر ، ومع ذلك كانت تأخذ من الناس الصدقة .

وفى يوم الخميس تاسع عشره توجه ناظر الخاص علاء الدين ، الى نحـو الاسكندرية ورشيد ، بسبب تجهيز المراكب التى عينها السلطان للتجريدة صحبة محمد بيك .

وفى رابع عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر عن الحجاج بالأمن والسلامة والرخاء .

سنة اربع عشرة وتسعمائة (١٥٠٨ - ١٥٠٩) :

فيها ، فى المحرم ، ابتدأ السلطان بضرب الكرة وكان أكثر ضربه للكرة فى الميدان ويعمل به المواكب الحافلة .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ممن كان

سرق السبائك الذهب من قاعة الذهب ، وكان منهم شخص يسمى يوسف المصارع ، وكان مقربا عند السلطان ، فظهر أنه كان موالسا مع السراق ، فمات تحت العقوبة بالمقشرة ولم يشنق معهم .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة ، ابن يحيى ابن سبع الذى جرى من أبيه على الحجاج ما جرى ، فحضر بالأمان من السلطان ، فلما قابله خلع عليه وقال له : « على أبيك يحضر وعليه منى أمان الله تعالى » .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن قد ظهر بساحل البحر الملح سمكة عظيمة الخلقة ، قيل أن طولها سبع وعشرون ذراعا ، وعرضها عشرة أذرع ، فأرسل السلطان يقول لنائب غزة ان كان ممكن احضارها الى القاهرة فيحضرها ، فتعذر ذلك عليه . ثم أرسل نائب غزة فيما بعد عظمتين من أضلاعها حتى شاهدها السلطان ، وقد وضعهما عند باب القلعة تجاه السبيل الذى هناك ، وهما باقيتان الى الآن ، وهما عظمتان من أضلاعها على ما قيل .

وفيه تزايدت عظمة الأمير طومان باى الدوادار ، واجتمعت فيه الكلمة ، ومما عد من محاسنه أنه حجر على النقباء والرسل الذين على بابه ، ورسم لهم بألا يأخذوا من الغرماء الذين يطلبون من بابه أكثر من نصفين فضة ، ومن يأخذ أكثر من ذلك لا يقف له على باب ، وضيق عليهم أياما بسبب ذلك ... وبالجملة فعنده لين جانب ، وقلة أذى ، بخلاف من تقدمه من الدوادارية .

وفى يوم السبت عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة مع السلامة ، فطلع الأمير طرباى أمير ركب المحمل ، وقانصوه أبو سنة أمير ركب الأول ، فخلع عليهما السلطان ونزلا فى موكب حافل . ثم شاعت الأخبار بأن السلطان رد خوند أصل باى أم الملك الناصر من الينبع ، ورسم لها بأن تقيم بمكة ، وقد تغير خاطره عليها ، فرجعت من الينبع الى مكة واستمرت هناك حتى كان من أمرها ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى ثانيا ، بعد ما أفرج عنه ، فتسلمه الزينى بركات بن موسى ، فعاقبه وقرر عليه مالا له صورة .

وفى يوم الأربعاء ، خامس عشرينه ، توفى نور الدين على المسلاتى المغربى ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وكان توجه صحبة العسكر الذى خرج الى التجريدة ، نحو بلاد الهند ، ورجع مع ناظر الخاص وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .

وفى تاسع عشرينه ، جاءت الأخبار بوفاة جان بلاط نائب غزة ، وكان من نواب طقطباى نائب القلعة ، فأقام فى نيابة غزة مدة يسيرة ومات .

وفى سلخه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نحوا من ربع درجة والأرض تضطرب .

* * *

وفى صفر كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبابى ، ونصبت الخيام فى الجزيرة التى تجاه بولاق ، وخرجت الناس فى تلك الليلة عن الحد فى القصف والفرجة ، وكانت ليلة حافلة .

وفيه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع وعشر أصابع ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك .

وفى يوم السبت خامس عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء بقاعة البحرة ، ومد لهم أسمطة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفى يوم الخميس سلخه ، عزل السلطان قاضى

القضاة الشافعي جمال الدين القلقشندي ، وخلع على الشيخ كمال الدين محمد الطويل ، المعروف بالقادري ، وقرره في قضاء الشافعية بمصر ، عوضا عن جمال الدين القلقشندي بحكم صرفه عنها . وقد اجتمع مع الشيخ كمال الدين مشيخة الخانقاه البيبرسية ، وقضاية القضاة الشافعية ، ولم يتفق مثل ذلك سوى للعلامة شهاب الدين بن حجر ، وشمس الدين القاياتي . وكان أصل قاضي القضاة كمال الدين هذا من أبناء الأتراك ، وهو كمال الدين أبو الفضل محمد بن نور الدين علي بن الناصري محمد بن السيفي بهادر العمري القادري .

* * *

وفي ربيع الأول كان مستهله بالجمعة ، فطلع قاضي القضاة كمال الدين في ذلك اليوم ، وخطب بالسلطان خطبة بليغة فأعجب السلطان والأمراء ، وقد جاء في القضاء على الوضع .

وفي سادسه توفي الأمير علي باي السيفي يشبك أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به .

وفيه أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك في أبيب من الشهور القبطية ، وكان النيل في قوة الزيادة فلم يتأثر البحر لذلك حتى عد من النوادر .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي على العادة وكان حافلا ، واجتمع القضاة الأربعة والأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المجراة وكشف على عمارتها ، ثم عاد الى القلعة !

* * *

وفي ربيع الآخر جاءت الأخبار بأنه وقع خسف بجزيرة تجاه مدينة اقريطش ، فهلك به من الناس والبهائم ما لا يحصى .

وفيه غرق شخص من الخاصكية يقال له أقباي ، وكان دوادارا سكيرا ، توجه الى نحو الجزيرة الوسطى ، ونزل وعام في البحر وهو سكران ، فغرق تحت الساقية التي بالجزيرة ، وكان غير محمود السيرة في أفعاله .

وفيه نزل السلطان ، وتوجه الى القرافة وزار الامام الشافعي والامام الليث رضي الله عنهما ، ثم توجه الى نحو المجراة فكشف عليها وعاد الى القلعة .

وفيه أمطرت السماء أيضا بعد العشاء مطرا غزيرا ، ووافق ذلك ثالث مسرى ، والنيل في قوة الزيادة ، فلم يتأثر البحر لذلك . وقد وقع أمر هذا المطر في هذه السنة مرتين والنيل في الزيادة فتعجب الناس من ذلك .

وفيه خلع على ماماي جوشن وقرر أمير الحاج بركب المحمل ، وقرر قانصوه أستادار الصحبة بالركب الأول .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لخاير بك المعمار بأن يتوجه الى عقبة أيلة ، ويأخذ معه جماعة من البنائين والمهندسين . وقد شرع السلطان في بناء خان بالعقبة ، والبروج وفساقي ، برسم ملاقاة الحجاج ، وعمر رصيفا على البحر عند العقبة ، ورسم باصلاح العراقيب التي بالعقبة ، وكانت تتضرر منها الحجاج ، فقيل أصلح ذلك وجاء من أحسن المباني في ذلك المكان .

وفيه أنعم السلطان على جان بردي تاجر المماليك بتقدمة ألف ، وهي تقدمة علي باي المقدم ذكر وفاته .

وفيه ، في حادي عشر مسرى ، زاد الله في النيل المبارك خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان قبل ذلك توقف أياما ، فرسم السلطان لقضاة القضاة بأن يتوجهوا الى المقياس ويبيتوا به ، فتوجهوا الى هناك ، واجتمع قراء البلد ، ومد السلطان بالمقياس أسمطة فاخرة وكانت ليلة حافلة . ثم

فى اليوم الثانى ، وهو ثانى عشر مسرى ، زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم فى ثالث عشر مسرى زاد الله فيه عشرين أصبعا ، فكانت زيادته فى ثلاثة أيام تسعين أصبعا ، ولم تقع مثل هذه الزيادة من مبتدأ الاسـلام سوى مرتين . مرة فى دولة الظاهر برقوق سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فانه زاد فى أول يوم من مسرى اثنتين وستين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى ثالث يوم من مسرى زاد خمسين أصبعا ، فكانت زيادته فى أربعة أيام سبع أذرع ونصف وأصبعين ... ولم يسمع بمثل ذلك من مبتدأ الاسلام حتى الآن . والمرة الثانية فى دولة الأشرف برسباى ، سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، فانه زاد فى يوم واحد خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان الوفاء فى تاسع عشرين أبيب . ثم فى هذه السنة فى دولة قانصوه الغورى زاد تسعين أصبعا فى ثلاثة أيام كما تقدم ، وكان الوفاء فى رابع عشر مسرى . فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، كما قال :

لله در الخليـج ان له تفضلا لا نطيق لشكره
حسبك منه بأن عادته يجبر من لايزال يكسره

وفيه رسم السلطان بنقل عبد العظيم الصيرفى من بيت الزينى بركات بن موسى الى بيت الوالى ليعاقبه ، فتسلمه الوالى وعاقبه أشد العقوبة وعصره فى رأسه وأكعابه ، واستمر فى العقوبة مدة أيام ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن أحدا من الناس لا يرافع فى أحد ، ولا يأخذ منه شيئا بغير حق ، وأن من ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ... فارتفعت الأصوات له بالدعاء . فكان سبب ذلك أن بعض التجار وقف للسلطان وشكا فى بركات ابن موسى بحضرة الأمراء ، وكان ذلك التاجر مظلوما ، فاستحى السلطان من الأمراء ، ونادى فى القاهرة بما ذكرناه ، ولم يتم ذلك ، وعاد كل شىء على حاله .

وفيه رسم السلطان بنفى ابراهيم ، والى مصر العتيقة ، فنفى الى الواح ، وكان مستحقا لذلك ، وهو الذى كان متوليا عقاب بدر الدين بن مزهر الذى كان كاتب السر ، فعذبه بأنواع العذاب .

وفيه تغير خاطر السلطان على مغلباى الزردكاش ، ومباشرى الزردخاناه ، وقرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فرسم على عبد الباسط بن تقى الدين ووضعه فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .



وفى جمادى الأولى ، فى يوم مستهله ، كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية .

وفى يوم الأربعاء ثانيه توفى الامام العالم العامل ، الورع التقى ، الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع المؤيدى ، وكان عالما فاضلا ، رئيسا حشما ، من أعيان علماء الحنفية ، ومات فى عشر السبعين ، وكان لا بأس به ، رحمة الله عليه . فلما مات خلع السلطان على شخص من أبناء العجم يقال له الشريف حسين ، وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى ، عوضا عن الشيخ بدر الدين الديرى بحكم وفاته ، وخلع على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وقرره فى مشيخة المدرسة الصرغتمشية ، عوضا عن القاضى نور الدين على الدمياطى الحنفى بحكم انفصاله عنها .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن بعض الفلاحين كان معه جملان محملان كتانا ، فدخل بهما وقت العشاء ، وشق بهما من السويقة التى عند بيت الخليفة ، فتعلق فى ذلك الكتان الذى على ظهريهما نار من مسارج البياعين الذين هناك ...

فلما أحس الجملان بالنار طفشا فى الناس ، فمات بعض صغار ، وداسا الناس ، فتعطب جماعة كثيرة ، ودهكت بضائع الناس ... وكانت ساعة مهولة ، فلم يقدر أحد من الناس على مسك الجملين ، واستمرا طافشين حتى وصلا الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فوقع هناك أحد الجملين فمات .

❋ ❋ ❋

وفى جمادى الآخرة — فى يوم الخميس ثانيه — توفى الشيخ بدر الدين محمد بن جمعة الحنفى ، ودفن فى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وكان من أهل العلم والفضل وله شعر جيد ونظم رقيق ، ومن مخترعاته وهو قوله :

ورب غزال بالقرافة شمته
مجاور قبر الليث بارقة الغيث

فلم أر قبل اليوم خشعا من الظبى
تأنس حتى فى مجاورة الليث

ومات وهو عن ستين سنة ، وكان يقول فيه الشهاب المنصورى :

بدر تم مذ قر طرفى منه
بطلوع شاهدت أحسن طلعه

عجبا كيف فاق أهل المعانى
فى فنون العلوم وهو ابن جمعه

وفيه يقول الشهاب بن صالح :

لا يشبه بالبدر بدرى سناء
وسنا فهو منه أكمل طلعه

ذاك تم ابن جمعتين سناء
وحبيبى أتم وهو ابن جمعه

ومن الحوادث الشنيعة فى هذا الشهر ، أن السلطان شرع يخرج اقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وغير ذلك من النساء اللاتى لهن الرزق وربما تعرض للرزق الأحباسية والأوقاف ، فأخرج نحوا من ثلثمائة اقطاع ورزقة من غير جنحة ولاسبب ، وصار ينعم بها على المماليك بمكاتبات ، وهذا الأمر ما سبقه به أحد من الملوك السالفة . . فحصل للناس الضرر الشامل ، ولا سيما أولاد الناس صارت المماليك يهجمون عليهم ، ويأخذون منهم مناشيرهم غصبا عنهم ، ويبهدلونهم بالضرب ، وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلها ، وأنا من جملة من وقع له ذلك ، وخرج اقطاعى لأربعة من المماليك ، ولكن أعان الله تعالى ورجع الى اقطاعى ولله الحمد ، وقد قلت هذين البيتين المواليا فى المعنى :

يا مالك الملك يامن بالعباد ألطف
دبر عبيدك وأصلح دولة الأشرف

كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف
وأطغى المماليك ذا يهجم وذا يخطف

وفى ذلك يقول محمد بن قانصوه بن صادق :

أيا بنى الأتراك أرزاقكم
ما قطعت الا لأمر عجيب

لا تضجروا من قطعها واصبروا
ستكشف الغمة عنكم قريب

لا تضجروا ترجع فادعوا بنا
فى السر والجهر السميع المجيب

واحتسبوا من رموا سهام الدعا
فكل سهم حيث يرمى مصيب

ومن الحوادث أن عبد العظيم الصيرفى ، رافع صلاح الدين بن الجيعان ، وقال : « أنا أثبت فى جهته أربعمائة ألف دينار أخذها من الخزانة أيام الملك الناصر محمد بن قايتباى » ، فمال السلطان الى هذا الكلام ، ورسم على صلاح الدين بن الجيعان ، وعلى علم الدين كاتب الخزانة ،

وبانوب النصرانى ، وقرر عليهم مائة ألف دينار .
ثم قبض علـى تاج الدين ابن كاتب الدواليب ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، واستمروا علـى ذلك وهم فى الترسيم حتى يكـون من أمرهم ما يكون .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعاً ، وثبت الى العشرين من بابه ، ثم هبط . وكان نيلا عظيما قوى العزم مباركا ، وحصل به غاية النفع ، فكان كما يقال فى المعنى لبعضهم :

كأن النيـل ذو فهم ولب
لمـا يبدو لعين الناس منه

فيـأتى عنـد حاجتهم اليه
ويمضى حين يستغنون عنـه

وفى النيل يقول محمد بن قانصوه :

اضمر على النيـل فانظر ما تسر به
اذا ضمرت فما فى الفال اشـكال

لفـالك المـاء رمـل والنسيم به
مبدى ضميرك والتجعيد أشـكال

ومن الحوادث : أن فى هـذا الشهر وقع غالب البيوت التى بالروضة من قوة عزم الماء ، وقد هرى البحر الجانب الغربى ، فرمى البيوت المحكمة البناء ، وهذا قط ما اتفق سوى فى هذه السنة .

وفيه كان انتهاء العمل من المجراة ، التى أنشأها السلطان كما تقدم ، فدارت هنـاك الدواليب ، وجرى الماء فى المجراة ، حتى وصل الى الميـدان الذى تحت القلعة ، ثم ان السلطان صنع هنـاك سـواقى نقالة ، وبنى ثلاثة صهاريج تمتلىء من ماء النيل ، برسم المماليك الذين يلعبون الرمح فى الميـدان ، وشرع فى بنـاء بحرة فى وسط ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان ، فكان طول تلك البحرة نحوا من أربعـين ذراعا ، وقيل أكثر من ذلك ، وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على ذلك البستان ، وفك رخام قاعات الأتابكى أزبك التى أنشاها بالأزبكية ، ونقل ذلك الى الأماكن التى أنشأها بالميدان ، وصارت هذه البحرة تمتلىء كل يوم بماء النيل ، وفائضـها يسقى البستان فجاءت كما يقال فى المعنى :

تهنأ بهـا يا أيهـا البحـر بحرة
حـكتك فمـا تنفـك باسطة بدا

لهـا فى هبوب الريح تجعيد مبرد
فمن أجل ذا تجلو عن المهج الصدا

وقال آخر :

عجبت منها بحرة بيضت
بخافقى كسـنا البـارق

كيف غدا الماء بهـا ساكنا
يرهو وقلب المـاء خافق

* * *

وفى رجب حضر يحيى بن سـبع ، الذى كان أمير الينبع ، وجرى منه فى حق الحجاج ما تقدم ذكره ، فأرسل اليه السلطان منديل الأمان ، فحضر وقابل وكان قد أظهر العصيان مدة طويلة . فطلع وعلى رأسه منديل الأمان ، فخلع عليه السلطان فلما نزل من القلعـة ، كادت العوام أن ترجمه وسبوه سـبا فاحشـا ، ولولا كان صحبة الأمير الدوادار لرجموه لا محـالة ، فلما بلغ السلطان ذلك نادى فى القـاهرة بأن لا أحـد من الناس يتعرض لابن سـبع ، ولا يسبه ، ومن فعل ذلك شـنق من غير معـاودة ، فتكلم النـاس فى حق السلطان ، بأنه أخذ من ابن سبع مالا له صورة وضيع حقوق الحجاج فيما فعل بهم .

وفى يوم الجمعة الموافق لثامن هاتور القبطى قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وكان أشد

بين الناس أن السلطان ينزل الى المطعم ، ويلبس الأمراء الصوف هناك ويوكب ويشق القاهرة ، فلم يتم ذلك وبطل هذا الأمر ، فلبس الصوف يوم الجمعة وخرج الى الجامع .

وفى هذه السنة كبرت الأمراء تخافيفهم ، وطولوا قرونهم ، حتى خرجوا فى ذلك عن الحد ، وقد قال القائل فى المعنى :

قد لبس الصوف كل كبش
قرونه يا لها قرون
فرحت من ذاك مستريحا
لا صوف عندى ولا قرون

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن عوض ، واستقر به مستوفى الدواوين .

وفيه تغير خاطر السلطان على شرف الدين يونس النابلسى الأستادار ، فرسم عليه ووضعه فى الحديد ، وسجنه بالعرقانة هو وأخاه زين الدين .

وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان مسافرا نحو الرشيد بسبب أمر المراكب التى عمرها السلطان لأجل التجريدة ، فلما قابل السلطان خلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى ذلك اليوم حضر الأمير محمد بيك ، وكان توجه بسبب عرض المراكب المعينة للتجريدة .

وفى هذا الشهر وقعت تشحيطة بالقاهرة ، وعز وجود الخبز من الأسواق ، وبلغ سعر القمح كل أردب خمسمائة درهم ، وعز وجود التبن أيضا وتناهى سعره كل حمل بدينار .

***

وفى شعبان طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وطلع الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، فوقع بينه وبين ابن عم أبيه خليل تشاجر فاحش بمجلس السلطان ، فقال خليل للخليفة يعقوب . « أنت ولايتك ما تصح فاتك أعمى » ، وكان الخليفة يعقوب بعينيه ضعف ، فقام اليه الناصرى محمد بن الخليفة ، وقال له « وأنت ما تصح خلفك صلاة لأنك ما تحسن قراءة الفاتحة » ، وكان خليل ألثغ لا ينطق بحرف الراء ، ثم ألزمه السلطان بأن يقرأ بحضرة القضاة فلما قرأ تعفش فى القراءة بين الناس ، ثم سكت ولم يكمل قراءة الفاتحة ، وانفض المجلس مانعا وكان مجلسا مهولا ، فقال السلطان : « يوم الاثنين نعقد مجلسا فى أمر من يصلح للخلافة » . فقام الخليفة يعقوب والقضاة على أن الميعاد يوم الاثنين ، وقد ترشح أمر الناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب ليلى الخلافة عوضا عن أبيه ، وكان السلطان محطا على الخليفة يعقوب ، رائما منه مالا ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى يوم السبت ثانيه توفى الأمير أزبك اليوسفى المعروف بفستق ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وقرر فى تقدمة ألف فى دولة الناصر محمد ابن الأشرف قايتباى ، وكان شاخ وكبر ومات وهو فى عشر الثمانين ، ومات وهو طرخان ، وكان له مرتب على الذخيرة حتى مات ، وكان لا بأس به .

فى يوم الاثنين رابعه حضر القضاة الأربعة والخليفة يعقوب وولده محمد وابن عمهم خليل ، وكان الخليفة يعقوب عهد لولده محمد بالخلافة عندما حصل له ذلك فى المجلس المقدم ذكره ، فعرض ذلك العهد على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وكان الخليفة عبد العزيز عهد بالخلافة من بعده لولده يعقوب ، ثم من بعده لولد ولده محمد ، فلما وقف قاضى القضاة على هذين

العهدين قال : « الحق للناصرى محمد بن الخليفة يعقوب » .

ثم ان الخليفة قال للسلطان : « أنا قد شخت وكبر سنى ، وقد عزلت نفسى من الخلافة ، وعهدت الى ولدى بالخلافة ، فان شاء السلطان يوليه أو لا » ، فقال السلطان : « قد وليت ولدك » . وساعدته الأمراء على ذلك ، فتقدم كاتب السر محمود بن أجا ، واسترعى الشهادة على السلطان بولاية الناصرى محمد بن يعقوب ، ثم خطب خطبة بليغة وقال : « يا مولانا السلطان ، نشهد عليك أنك وليت الخلافة للناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب فقال : « نعم » . فشهد القضاة عليه بذلك .

فقام الخليفة يعقوب وودع السلطان ، فأكرمه وعظمه ، ونزل الى داره ، وهو فى غاية العز والعظمة ، وألبسه السلطان سلارى صوف أبيض بسمور من ملابيسه ، وألبس سيدى خليل أيضا سلارى من ملابيسه ، وألبس ولديه أيضا سلارين بسنجاب ، ثم أحضروا للناصرى محمد شعار الخلافة ، فأفيض عليه ، وتلقب بأبى عبد الله المتوكل على الله ، فولاه السلطان الخلافة على أتم وجه جميل ، ولم يراع من الأنام خليل ... فكان السادس عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . فلما لبس الشعار جلس بين يدى السلطان ، ثم ان القضاة شهدوا عليه بأنه فوض للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ، ما فوضه اليه والده المستمسك بالله يعقوب ، فقال : « نعم » ، ثم قام وقد ارتفعت الأصوات للسلطان بالدعاء ، كون أنه لم يخرج الخلافة عنهما ، وكان ابن عمهم خليل سعى على الخلافة بمال جزيل ، فلم ينل من ذلك مناه ، فما كان عن ذلك السعى أغناه ، فولى خليل بوجه طويل ، ونزل من القلعة وقد اشتعل قلبه بنار الخليل ، فكان كما يقال فى المعنى :

ألا قل لمن كان لى حاسدا
أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى فعله
لأنك لم ترض لى ما وهب

فجازاك عنه بأن زادنى
وسد عليك وجوه الطلب

ثم ان المجلس انفض ، وقام الخليفة المتوكل على الله ، وقد تلقب بلقب جده عبد العزيز ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته القضاة الأربعة وأعيان الناس وزينوا له حارته ، وأوقدوا له الشموع بالصليبة ، وكان له يوم مشهود ، وولى الخلافة وهو شاب ، وكان مولده سنة سبعين وثمانمائة ، ولم يتفق لأحد من خلفاء مصر بأنه ولى الخلافة ووالده فى قيد الحياة ، مقيما معه فى بيت واحد ، سواه .

وكانت مدة خلافة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب اثنتى عشرة سنة الا ثلاثة أشهر ، فانه ولى الخلافة يوم السبت ثالث صفر سنة ثلاث وتسعمائة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، وخلع نفسه من الخلافة رابع شعبان سنة أربع عشرة وتسعمائة ، وقيل انه تكلف فى هذه الحركة الى اثنى عشر ألف دينار ، ولولا فعل ذلك كان انفى الى دمياط أو الى القدس ، فكان ما فعله عين الصواب كما يقال :

يعوض الله مالا أنت متلفه
وما عن النفس ان أتلفتها عوض

وهذا ما كان من ملخص أخبار الخليفة يعقوب وولاية ولده الناصرى محمد .

وفى يوم الجمعة ثامنه ، نزل السلطان الى الميدان ، ورسم بجمع الحرافيش ، فاجتمع هناك السواد الأعظم من رجال ونساء ، ففرق على

كل واحد منهم نصفين فضة ، فقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحوا من أربعمائة دينار .

وفيه نزل السلطان من الدهيشة ، وتمشى ودخل الى الزردخاناه ، وعرض الأسلحة التى كانت فى الزردخاناه من قديم الزمان ، فرأى أشياء كثيرة منها تلفت من الصدأ ، فطلب عبد الباسط ناظر الزردخاناه ووبخه بالكلام ، ثم قصد شنقه فى ذلك اليوم على باب الزردخاناه ، فألزم باصلاح ما فسد من الأسلحة ، واستمر فى الترسيم بعد ذلك مدة طويلة وهو فى الحديد .

وفى يوم الاثنين حادى عشره عزل السلطان شرف الدين النابلسى الأستادار ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار ، وقرره فى الأستادارية ، عوضا عن شرف الدين النابلسى ، فصار الأمير طومان باى أمير دوادار كبير وأستادار العالية ، وكاشف الكشاف كما كان الأمير أقبردى . وخلع على شمس الدين بن عوض وقرره ناظر ديوان المفرد.

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه الى نحو بلاد الهند صحبة الأمير حسين قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يتعيثون فى البحر ، وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة ، فسر السلطان لهذا الخبر ، وأمر بدق الكوسات ، فدقت ثلاثة أيام متوالية ، ثم ان حسين أرسل يطلب عسكرا ثانيا حتى يتقوى به على من بقى من الفرنج .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض المحابيس ، فأطلق منهم جماعة من رجال ونساء ، وأبقى الفلاحين وأصحاب الجرائم .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه حضر مراكب أغربة عدتها ست ، وهى التى كان ناظر الخاص توجه الى رشيد بسبب عمارتها ، فلما وصلت أرسى بها عند رأس الجزيرة الوسطى ، فخرج الناس يتفرجون عليها ، وقد زينت بالصناجق والشطفات ، ودقت فيها الطبول ، وزعقت الزمور ، واجتمع هناك الناس أفواجا أفواجا .

فلما كان يوم الثلاثاء ، سادس عشرينه ، نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء قاطبة والمباشرون ، وتوجه الى نحو طرا ، وضربت له هناك الخيام . ثم أحضر بين يديه تلك المراكب الأغربة ، فلعبوا قدامه فى البحر ذهابا وايابا والطبول والنفوط عمالة ، ورموا قدامه فى البحر عدة مدافع ، وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس . وأقام السلطان هناك الى بعد العصر ، ومد له هناك ناظر الخاص أسمطة حافلة ، ولم يقع للسلطان من حين تسلطن يوم مثل ذلك اليوم فى القصف والفرجة . فلما ركب من هناك خلع على ناظر الخاص كاملية بسمور ، وخلع على رئيس المراكب وجماعته الخلع السنية ، ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى رمضان — فى يوم مستهله — نزل السلطان الى الميدان ، وطلع اليه الخليفة محمد المتوكل على الله بن يعقوب وهنأ بالشهر ، وهو لابس العمامة البغدادية ، وهذا أول مواكبه فى الخلافة ، فقام اليه السلطان وعظمه الى الغاية ، فلما قام دخل بعده قضاة القضاة .

وفى ذلك اليوم طلع شرف الدين الصغير ، ناظر الدولة ، والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وعرضوا عليه اللحم والغنم والخبز والدقيق والسكر وهو فوق على رءوس الحمالين ، فخلع عليهما السلطان ، وخلع على تغرى برمش الوزير ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأحد تاسع شهر رمضان ، حضر الى الأبواب الشريفة قاصد صاحب بغداد ، وهو شخص يسمى بيرك . فلما بلغ السلطان حضوره

أنزله بدار الأشرف جان بلاط التى بحارة عبد الباسط ، ورتب له ما يكفيه .

فلما كان يوم الخميس ، ثالث عشر رمضان ، أوكب السلطان بالحوش بغير شاش ولا قماش ، واجتمع بالحوش سائر الأمراء ، ورسم بأن يزينوا باب الزردخاناه الذى عند الجامع ، فزينوه باللبوس وآلة السلاح والصناجق السلطانية ... ثم طلب السلطان القاصد ، فطلع صحبة المهمندار وقابل السلطان ، وقرأ كتابه الذى حضر على يده .

وكان سبب حضور هذا القاصد أن متملك بغداد مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل ، كان متوليا على بغداد ، فزحف عليه شاه اسمعيل ابن حيدر الصوفى فتغلب عليه عسكره ومال الى الصوفى ، فلما رأى ذلك هرب ودخل الى بلاد السلطان وأرسل قاصده الى السلطان بأن يمده بعسكر حتى تحارب الصوفى ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأحسن اليه ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة القان أحمد ابن أويس ، متملك بغداد ، وقد زحف عليه تمرلنك ، فهرب منه والتجأ الى الملك الظاهر برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك فى موضعه .

وفيه ترافع شمس الدين ابن عوض والمعلم يعقوب اليهودى ، فقال ابن عوض أنا أثبت فى جهة يعقوب ستين ألف دينار بطريق شرعى ، فمال السلطان الى كلام ابن عوض واعتدل على يعقوب اليهودى ، وأودعه فى الترسيم على مال يرده .

وفيه أرسل خاير بيك المعمار ، الذى توجه الى عقبة أيلة ، بسبب عمارة الأبراج التى أنشأها هناك ، والخان والحواصل واصلاح طريق العقبة ، فأرسل للسلطان حجارة زعم أن داخلها معدن النحاس الأصفر ، وأنه وجد تلك الأحجار فى واد بالقرب من العقبة ، فرسم السلطان بسبك تلك الأحجار ، فظهر منها بعض شىء من النحاس لا يساوى تعبه ، فرجع عن ذلك .

وفى سابع عشره ، خلع السلطان على الجمالى يوسف البدرى ، وقرره فى الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى ، بحكم انفصاله عنها ، وخلع على أحمد بن العكام وقرر فى برددارية السلطان عوضا عن بركات بن موسى ، وكان السلطان تغير خاطره على بركات بن موسى ، وأخذ فى أسباب الهبوط حتى أخرج عنه التحدث على خانقاه سرياقوس ، والتحدث على جهات البرلس وجعلها لناظر الخاص ، وغير ذلك من الجهات التى كان يتحدث عليها ، فانه كان متحدثا على ست عشرة جهة .

وفيه خلع السلطان على معين الدين بن شمس ، وقرره نائب كاتب السر عوضا عن الشهابى أحمد ابن الجيعان بحكم انفصاله عنها ، وقد اجتمع مع معين الدين هذا وكالة بيت المال ونيابة كتابة السر وغير ذلك من الوظائف ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد فى حقه كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وقد سعى معين الدين بن شمس بمال له صورة حتى استقر فى نيابة كتابة السر ، وكان معين هذا شنيع المنظر ، بشع الوجه ، فكان اذا وقف وقرأ القصص بين يدى السلطان يقول السلطان : « والله تعالى انى لأستحي من العسكر لما يقف ابن شمس يقرأ على القصص قدامهم » .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر فجلس بالميدان وكان يوما ماطرا .

وفيه قويت الاشاعات بأن الصوفى زاحف على بلاد السلطان ثم خمدت تلك الاشاعات عن قريب .

وفى ثامن عشرينه ، جاءت الأخبار من دمياط بوفاة الأمير أصطمر بن ولى الدين الذى كان أمير مجلس ، ونفى الى دمياط بسبب واقعة الحجاج ،

وقد تقـدم ذكر ذلك . وكان أصله من مماليـك الأشرف قايتباى ، وكان أميرا جليلا رئيسا حشما وكان عنده لين جانب ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض على السـلطان خلع العيـد وهو بالميدان ، وكان يوما مشهودا .

وفى سلخه حضر كاشف الشرقية وصحبته شيخ العرب عبد الدايم بن الأمير أحمـد بن بقر ، وقد قبض عليه بحيلة عملها حتى مسكه ، وكان له مدة طويلة وهو عاص يفسـد فى البـلاد ، فلما قابل السلطان رسم بتقييده وايداعه فى البرج .

* * *

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، وكان بيرك قاصد صاحب بغداد حاضرا فألبسه السلطان سلارى صوف بسمور من ملابيسه ونزل صحبة الأمراء .

وفى يوم الخميس ، رابعـه ، نزل السلطان الى الميدان ، وجلس بالمقعـد الذى به ، واجتمع حوله الأمراء ، ثم حضر قاصد صاحب بغداد . وفى ذلك اليوم ساق الرماحة بالميدان قدام السلطان ، ودخل المحمل وكسوة الكعبـة ، وطافوا بها فى الميدان ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان يوما مشهودا ، ولا سيما كان ذلك بحضور قاصد صاحب بغداد .

ثم بعد أيام عزم السلطان على القاصد بالميدان وأحضر قدامه جماعة من المماليك ، وهم لابسون آلة السلاح ، فرموا فى ذلك اليـوم رماية نشاب على الخيول ، وأظهروا أنواعا غريبة فى فن النشاب ، أدهشوا ذلك القاصـد ، وأحرق السلطان فى ذلك اليوم احراقة نفط بالنهار فى الميدان ، وقد فعل مثل ذلك مرتين بحضرة القاصد وهو بالميدان .

وفيـه جاءت الأخبـار من مكة بوفاة قرقماس الشريفى باش المجاورين ، فلمـا تحقق السلطان موته ، عين باشـية مكة الى شـخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جان بردى بن قانم .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة فى تجميل زائد ، وكان أمير ركب المحمـل ماماى جوشن ، وبالركب الأول قانصوه بن دولات بردى أستادار الصحبة أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان يوما مشهودا .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من الطينة بأن الأمير تمر باى الهندى لما توجه الى هنـاك بسبب عمارة الأبراج التى أنشـأها السلطان هناك على ساحل البحـر المالح ... فبينما هو هنـاك جاءت اليهم مركب فيها فرنج فتعبثوا بالسواحل ، فجمع الأمير تمرباى جماعة من الخفراء الذين هنـاك ، وممن كان معه من المماليك ، وتحـارب مع تلك الفرنج ، فانتصر عليهم وأسر منهم نحوا من سبعة وعشرين نفرا وملك مركبهم وما كان فيها ، وأرسل الفرنج الأسرى ومركبهم الى السلطان فسره ذلك

وفيه حضر قاصد من عند صاحب قبرس وعلى يده تقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه .

وفيـه خلع السلطان ، على الزينى بركات بن موسى وأعاده الى الحسبة ، وعزل يوسف البدرى عنها . وكان قد وقع فى تلك الأيام تشحيطة فى القمح وارتفع الخبز من الأسواق ، وكادت العوام أن ترجم يوسف البدرى . فلما خلع على ابن موسى وأعاده الى الحسبة ، فرح به الناس قاطبة ، وسكن ذلك الاضطراب .

وفيه خلع السلطان على قاصد صاحب بغـداد وأذن له بالسـفر . وكان يروم أن السلطان يمد صاحب بغـداد بعساكر من مصر حتى يحـارب الصوفى ، فما طاوع السلطان على ذلك .

وفيه جلس السلطان فى الدهيشة ، وعرض الأستادار شرف الدين النابلسى ، وكان له مدة وهو مسجون بالعرقانة فى قيد وزنجير ، وقاسى ما لا خير فيه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأفرج عنه ، وقد ضمنه الزينى بركات فيما بقى عليه من المال ، وفيه يقول محمد بن قانصوه :

يارب نج الخلق من ذى حسبة
فى كعبه التعسير لا التيسير

ان سعر الأشيا غلت من كعبه
وغلت وزاد بكعبه التسعير

وفى ذلك اليوم عرض السلطان عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، وكان له مدة طويلة وهو فى الترسيم بجامع القلعة وهو فى الحديد . وكان السلطان أوعده بالشنق ، فأفرج عنه فى ذلك اليوم ، وأورد بعض ما قرره عليه من المال ، وضمنه فى الباقى الأمير مغلباى الزردكاش ، وكان السلطان قد قرر على مغلباى الزردكاش ، وعبد الباسط الناظر ، وعبد الكريم بن اللاذنى المستوفى ، ويحيى بن يونس أحد الزردكاشية ... فقرر عليهم السلطان عشرة آلاف دينار ، فأوردوا منها شيئا ، وتأخر عليهم باقى ذلك حتى يغلقوه . وكان قد رافعهم أحمد بن قراكز أحد الزردكاشية ، ومحمود وعلى باى وغير ذلك من الزردكاشية ، فخلع السلطان على مغلباى الزردكاش ، وعلى عبد الباسط ، وعلى عبد الكريم اللاذنى ، ونزلوا الى دورهم بعد ما قاسوا شدائد ومحنا .

وفيه قبض السلطان على يوسف ابن أبى أصبع الحلبى ـــ وكان من خواصه ـــ فقاسى غاية الضرر والأنكاد ، وأمره قد شهر بين الناس بما جرى عليه من الضرر البالغ .

واستمر المعلم يعقوب اليهودى فى الترسيم ، وعلم الدين المتحدث فى الخزانة ، وبانوب النصرانى ، حتى يعلقوا ما قرر عليهم من الأموال الجزيلة . وكذلك صلاح الدين بن الجيعان ، وقد تقدم القول على ذلك بما قرر عليهم من المال .

وفيه أفرج السلطان عن عبد العظيم الصيرفى ، وكان له مدة طويلة وهو فى الحديد موكل به فى جامع القلعة ، فأورد مما قرر عليه من المال شيئا ، وبقى عليه من ذلك المال بعض شىء ، فضمنه بعض الأمراء ، وتكلم له مع السلطان بأن يطلقه حتى يسعى فى بقية المال . وقد قاسى عبد العظيم من الشدة ما لا خير فيه ، وضرب وعصر غير ما مرة فى أكعابه وأصداغه وأضلاعه ، وغير ذلك من أنواع العذاب .

* * *

وفى ذى الحجة ، خرج الأمير طومان باى الدوادار ، وسافر الى جهة الصعيد ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ومن له عادة .

ومن النوادر أن شخصا من الناس ، قيل هو بواب جامع الحاكم ، طلع الى السلطان وذكر له أنه رأى فى المنام قائلا يقول له . قل للسلطان ان فى جامع الحاكم فى بعض دعائمه دعامة تحتها دنانير ذهب لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك مال لكلامه ، وظن أنه حق ، فأرسل الأمير خاير بيك الخازندار ، وبركات بن موسى ، وجماعة آخرين من أخصائه ، وأخذوا معهم جماعة من المهندسين والبنائين ، وأحضروا ذلك الرجل القائل وقالوا له : « أرنا الدعامة التى تحتها الذهب » . فقال : « لا أعلم أيها الدعامة التى تحتها الذهب » .

نال المهندسون : « ما يظهر حتى نهدم جميع الدعائم
تى هنا » .

فاجتمع فى ذلك اليوم الجم الغفير من الناس
لجامع ، وكثر القال والقيل فى ذلك ، وكذبوا
لك الرجل . ثم شاوروا السلطان على هدم دعائم
جامع ، فلم يوافق على ذلك ، ورجع عن هذا
لأمر من قريب ... وقد وقع مثل ذلك فى دولة
لملك الأشرف برسباى ، وفى أيام الظاهر جقمق
الظاهر خشقدم ، ونزل الأمير خاير بيك
خازندار الى هناك .. ثم وقع مثل ذلك فى دولة
لأشرف قايتباى ، ولم يظهر من هذه القضية
نيجة قط ، ولم يفد من هذا الكلام شىء .

وفى ثالث عشرينه حضر مبشر الحاج ، وأخبر
الأمن والسلامة ، وقد جد فى السير حتى وصل
، هذه المدة اليسيرة .

وفيه وقع تشاجر بين أنصباى حاجب الحجاب ،
بين الأمير نوروز أحد الأمراء المقدمين ، فوصل
مرهما الى السلطان ، فأنصف السلطان أنصباى
لى نوروز . وكان سبب ذلك أن ربعا بجوار
نطرة الموسكى ، وهو بالقرب من بيت نوروز ،
كان يسكن به بنات الخطأ يعملن الفاحشة ،
قصد أنصباى حاجب الحجاب كبس ذلك الربع ،
كان الربع للأتابكى أزبك ، فتوجه اليه دوادار
نصباى وجماعة من النقباء ، فلما وصلوا الى
نـاك ، ثارت عليهم غلمان نوروز وعبيده ،
ضربوا جماعة حاجب الحجاب ، ومنعوهم من
بس ذلك الربع . فلما بلغ أنصباى ذلك ركب
فسه ، وكبس ذلك الربع ، وضرب النساء اللاتى
ن به ، وأشهرهن فى القاهرة على حمير . فطلع
روز ، وشكا أنصباى الى السلطان ، فحط
لسلطان على نوروز وقصد الاخراق به وانتصف
ليه أنصباى .

وفيه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ولم يشعر
بها أحد من الناس الا القليل .

وفى هذه السنة صار السلطان يعمل غالب
المواكب بالميدان ، وأبطل لبس الشاش والقماش
فى المواكب ، وصار لا يلبس الا فى يوم الجمعة فقط
عند صلاة الجمعة وفى الأعياد وعند خروج الحاج ،
أو عند حضور قاصد ... وقد أبطل أشياء
كثيرة كانت من شعار المملكة ، مما كان يعمل
من النظام القديم .

وفى هذه السنة كثر الموت فى الدجاج حتى
شح جماعة من الفلاحين من ذلك ، وصار يموت
منهم فى كل يوم ما لا يحصى عدده .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه ، حصل للسلطان
توعك فى جسده واسهال مفرط ، وامتنع عن
الخروج الى الأمراء أياما ، ثم عوفى من ذلك
وخلع على الحكماء .

ومن النوادر أن البلسان ، وهو الذى يسميه
الناس البلسم ، كان قد انقطع زريعته من أرض
المطرية من أوائل سنة تسعمائة من القرن التاسع ،
وكانت مصر تفخر بذلك على سائر البلاد ، وكانت
ملوك الفرنج تتغالى فى دهن هذا البلسم ويشترونه
بثقله ذهبا ، ولا يتم عندهم التنصر حتى يضعوا
من دهنه شيئا فى ماء المعمودية وينغمسوا فيه .
وكان يستخرج دهنه شيئا فى فصل الربيع فى
برمهات ... فلما انقطعت زريعته من أرض المطرية
تنكد السلطان لذلك ، ولا زال يفحص عن أمره
حتى أحضر اليه بلسان برى من بعض أماكن
بالحجاز ، وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فى مكانه
المشهور به ، فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البئر
التى هناك ، فنتج فى هذه السنه وطلع ما كان قد

بطل أمره من مصر ، فعد ذلك من محاسن الملك الأشرف قانصوه الغوري .

وقد خرجت هــذه السنة عن الناس على خير ، وكانت سنة كثيرة الحوادث ، وقد وقع فيهــا عزل وولاية ومصــادرات ... فمن ذلك عزل الخليفــة المستمسك بالله يعقوب وولاية ولده محمد المتوكل على الله .

ومنها عزل قاضى القضاة الشافعى برهان الدين القلقشندى وولاية الشــيخ كمال الدين الطويل .

ومنهــا عــزل شرف الدين يونس النابلسى الأســتادار وولاية الأمير طومان باى الدوادار واســتقراره فى الأســتادارية مع ما بيــده من الدوادارية الكبرى .

ومنها عزل الشهابى أحمد بن الجيعان عن نيابة كتابة السر وولاية معين الدين بن شمس .

ومنها عزل الزينى بركات بن موسى عن الحسبة وولاية الجمالى يوسف البدرى .

وكانت سنة شديدة البرد حتى عدم أشــياء كثيرة من الفواكه والقثاء وغير ذلك ، ووقع فيها أيضــا تشحيطة فى القمح حتى بلغ ســعره الى أشرفيين كل أردب ، وعز وجود التبن والدريس .

ومنها عزل فخر الدين بن العفيف عن كتــابة المماليك وولاية شرف الدين الصغير لها .

ومنها مرافعة عبدالعظيم الصيرفى لصلاح الدين ابن الجيعــان ، وعلم الدين المتحدث فى الخزانة الشريفــة ، وبانوب النصرانى . وقد صودروا ، وأخذ منهم مال له صورة بسبب مرافعة عبد العظيم الصيرفى لهم .

ومنها مصــادرة مغلباى الزردكاش ، ومباشرى الزردخاناه ، وجماعة من الزردكاشية .

ومنها مصادرة يوسف بن أبى أصبع الحلبى وكان من أخصاء السلطان .

ومنها مصادرة المعلم يعقوب اليهودى . وصودر تاج الدين بن كاتب الدواليب ، وقرر عليه نحــو عشرة آلاف دينار . وصودر فى هذه السنة جماعة كثيرة من أعيان الناس .

ومنها ما وقع لأولاد الناس من أجنــاد الحلقة وغيرها ، فى خروج اقطاعاتهم من غير سبب ولا موجب لذلك ، فأخرج السلطان فى هــذه السنة نحوا من أربعمائة اقطاع ورزقة ، حتى الرزق التى كانت بيد النساء ، وربما تعدلوا الى الجهات التى هى موقوفة على جهــات بر وصــدقة ورواج الصالح . وقاست أولاد الناس من المماليك ما لا خير فيــه ، وصاروا يهجمون عليهم فى بيوتهم ، ويضربونهم ويبهدلونهم أشد البهدلة والأمر لله . وجرى فى هذه السنة من الحوادث ما لا يحصى .

سنة خمس عشرة وتسعمائة (١٥٠٩ – ١٥١٠ م)

فيهــا ، فى المحــرم فى رابعــه ، الموافق لأول يوم من بشنس القبطى ، أظلم الجــو وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ، واستمرت تمطر يومين متواليين ، حتى عد ذلك من النوادر ، حيث أمطرت فى بشنس .

وفى حادى عشره خرج علاء الدين ناظر الخاص ، وتوجه الى نحو الطور لأجــل عمارة المراكب التى أنشأها السلطان هناك بسبب تجريدة الهند

ومن الوقائع اللطيفة ، أنه فى يوم الخميس ليلة الجمعة ، خامس عشره ، نزل السلطان الى الميدان ونصب به خيمة كبيرة مدورة ، وملأ البحرة التى أنشأها هناك من ماء النيل من المجراة التى أنشأها ، ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك

البحرة ، وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ . وعلق أحمالا بها قناديل ، وفرش حـول البحرة الفرش الفاخرة ، وعزم على القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ، وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأعيان الناس قاطبة ، وبات السلطان تلك الليلة بالميدان ، وبات عنده الأتابكى قرقماس وجماعة من الأمراء . ومد تلك الليلة أسمطة حافلة ، أعظم من سماط المولد ، فمد فى السـماط أربعمائة صحن صينى . ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية ، وكل قطعة نصف رطل ، وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لا ينحصر ، ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا ، ومن الرمسان الرضع أربعون رميسا ، حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ، وكانت ليلة مشهودة .

وفيه قلع السلطان الصوف ولبس البيـاض ، ووافق ذلك تاسع بشنس القبطى ، ثم فى عقيب ذلك ابتدأ يضرب الكرة .

وفيه نزل السلطان الى الميدان ، وأحضر جماعة من المماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، وهم بآلة السـلاح ، وأحرق فى ذلك اليـوم احراقة نفط بالنهار ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى ثانى عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة مع الأمن والسلامة ، وكانت سنة رخية مباركة . ولما رجع الحجاج ، أخبروا بما فعله السلطان من وجوه الخير من العمارة بالعقبة ، وقد أنشأ هناك خانا وفيه عدة حواصل ، برسم الودائع ، وأبراجا ، وجعل بها جماعة من الأتراك قاطنين هناك ، يقيمون بها سنة ثم يعودون الى مصر ، ويتوجه جماعة غيرهم الى هناك ، وأصلح طريق العقبـة وقطع الأماكن الصعبة التى كانت بهـا العراقيب ، وأنشـأ برجا بعجرود ، وبرجا بنخل ، وأصلح عدة مناهل بطريق مكة ، وبنى هناك أشياء كثيرة من هـذا النمط ، وحصل بها غاية النفع ، وأنشأ بالأزلم برجا أيضا ، وجعل به جماعة من المماليك يقيمون به وكلما مضت سنة يحضرون ، ثم يتوجه غيرهم[1] .

وفيه عين السلطان الأمير علان الدوادار الثانى ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان قد أشيع فى تلك الأيام بأن ابن عثمان قد مات ، وربما صلوا عليه صلاة الغيبة فى جامع الأزهر ، ثم ظهر بأن هذا الكلام كذب ، وأسفرت هذه الاشاعة عن أنه كان مريضا وشفى ، فعين السلطان علان بأن يتوجه اليه ويهنئه بالعافية .

وفيه حصل للسلطان بعض قولنج ، فامتنع أياما عن ضرب الكرة ، ثم شفى من هذا العارض وضرب الكرة فى الميدان ، وهذا بخلاف العادة القديمة أن الكرة تضرب فى الميدان .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار من دمياط بأن شخصا من أولاد ابن عثمان يقال له قرقد بيك ، قد وصل الى دمياط . فلما تحقق السلطان ذلك عين الى ملاقاته الأمير أقباى أمير آخور ثانى ، وأزدمر المهمندار ، ونانق الخازن . وأرسل صحبتهم ملاقاة حافلة من كل نوع فاخر . وجهز المراكب حتى الحراقة الكبيرة التى يكسر فيها السد ، برسم ابن عثمان ، ليجىء فيها فى البحر . وجهز له احراقة نفط تحرق قدامه فى البحر لما أن يقلع ، وما بقى من اكرامه ممكن . فتوجهوا الى دمياط بسبب الملاقاة .

وفى يوم السبت سابعه ، قبض السـلطان على الشهابى أحمد بن الجيعـان ووكل به وقرر عليه خمسة آلاف دينار ، وكان فى هذه المصادرة مظلوما .

---

(1) لعله يعنى : « يتوجهون » ثم « يحضى » غيرهم ها

وفيه أفرج السلطان عن شرف الدين يونس النابلسى الأستادار ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار وقد قاسى شدائد ومحنا ، وأقام فى السجن بالعرقانة نحوا من عشرة أشهر وهو فى زنجير وقيد مخشب اليدين .

وفى يوم الأربعاء ، حادى عشره ، كانت ليلة سيدى اسمعيل الانبابى ، وكانت ليلة حافلة . وضرب فى الجزيرة التى تجاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفيه ، فى ليلة الأحد ، خامس عشره ، خسف جرم القمر وأقام فى الخسوف نحو احدى وأربعين درجة

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، تسحب جمال الدين الزغلى من المقشرة وهرب ، وكان التزم بدار الضرب وقرر عليه للسلطان فى كل شهر مال له صورة ، فأتلف سائر المعاملة من الذهب والفضة ، وظهر بها الزغل كالشمس ، حتى ضج من ذلك سائر الناس والأمراء ، وصارت معاملة السلطان لا تمشى فى غالب البلاد ، وامتنع الذهب البرسبية والجقمقى والأينالى والخشقدمى والقايتبية ، وصار الذهب الغورى والفضة هى التى عليها العمل مع ما بها من الغش الفاحش . فلما تزايد الأمر فى ذلك شكا بعض الأمراء هذا الحال الى السلطان فقبض على جمال الدين الزغلى وضربه ضربا مبرحا وسجنه بالمقشرة ، فأقام بها أياما وهرب . فلما هرب مقت السلطان قانصوه أبا سنة الوالى بسبب ذلك ، وقصد الاخراق به ، ثم قرر عليه خمسة عشر ألف دينار . وهرب معلمو المقشرة واختفوا ، وضرب بسبب ذلك يحيى بن نوكار دوادار الوالى ، وحصل على جماعة من الناس بسبب جمال الدين الزغلى ما لا خير فيه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشر صفر وصل قرقد بيك بن عثمان الى شبرا ، وهو قرقد بن أبى يزيد ابن محمد بن مراد بيك المتصل النسب الى جدهم عثمان . فلما وصل الى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرابخية التى ببولاق ، ورسم لناظر الخاص بأن يحضر اليه جميع ما يحتاج له من فرش وأوان وصينى وغير ذلك من الاحتياج ، فخرج جماعة من الأمراء الى ملاقاته . وكان السلطان رسم للكشاف ومشايخ العربان ، بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويصنعوا له الأسمطة والمدات الحافلة ، فرموا على بلاد المقطعين أشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك ، فاستمر على ذلك حتى وصل الى قاعات البرابخية وهو فى الحراقة التى يكسر فيها السد . فلما دخل البرابخية مد له السلطان هناك مدة حافلة .

ثم توجه اليه الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمون قاطبة فسلموا عليه . ثم توجه اليه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف فشرع يقوم لكل من يجئ اليه من الناس ...

واستمر على ذلك الى يوم الاثنين ثالث عشرين صفر ، فأرسل السلطان عشرين فرسا له ولمن معه ... منهم أربع جنائب بالسروج الذهب والكنابيش الزركش والغواشى الحرير الأصفر .

ثم ان السلطان رسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء قاطبة ، ويعلمهم بأن الموكب فى الحوش بالشاش والقماش . ثم ان السلطان نصب السحابة الزركش على الدكة وغشى الدكة بالأطلس الأصفر ، ورسم بأن تزين القلعة عند باب الزردخاناه بالصناجق السلطانية وآلة السلاح ، وأن تصف المكاحل الكبار ، على باب الزردخاناه ... ثم

رسم للمهندار ورءوس النوب ، بأن يتوجهوا الى ابن عثمان وهم بالشاش والقماش ويطلعوا قدامه الى القلعة ، فتوجهوا الى بولاق وأركبوه من البرابخية على فرس بسرج ذهب وكنبوش ، وقدامه الجنائب السلطانية ، فطلعوا به من على المقس وأتوا به من على سوق مرجوش ، وشقوا به القاهرة ، فكان له يوم مشهود . وخرج الناس أفواجا أفواجا لرؤيته .

واستمر فى ذلك الموكب الحافل حتى وصل الى القلعة ، فطلع وهو راكب الى عند الحوش السلطانى ونزل على مصطبة باب الدهيشة ، ففرشوا له هناك مقعدا حريرا ، فاستراح ساعة نحو درجة ثم دخل الحوش . فلما وصل الى أوائل البساط نزل السلطان من على الدكة واستمر واقفا حتى وصل اليه ابن عثمان فتعانقا ، وقيل ان ابن عثمان باس يد السلطان ووضعها على عينيه . ثم تحدث معه السلطان ساعة وهو واقف على أقدامه ، فلما خلع عليه السلطان وخرج من الحوش ركب من على مصطبة شاد الحوش .

وكان سبب مجىء قرقد بن عثمان الى مصر ، قيل حصل بينه وبين أبيه حظ نفس ، فأتى الى السلطان ليصلح بينهما .

وكانت صفة قرقد بيك بن عثمان رجلا شابا فى عشر الأربعين : معتدل القامة ، عربى الوجه ، يميل الى الصفرة ، نحيف الجسد ، أسود اللحية ، جميل الهيئة ، وعلى رأسه عمامة تركمانى ، وهى صغيرة دون عمائم جماعته . وقيل انه كان أكبر أولاد أبى يزيد بن عثمان .

ثم ان السلطان طلب خلعة فأحضر اليه خلعة جر ذهب منسوجة شغل القاعة تلمع كالبرق ، فأفيضت على قرقد بيك بن عثمان ، وكان عليه لما طلع الى القلعة دلامة حرير أصفر وفوقها جندة صوف أخضر مفتوحة ، فنزع ذلك من عليه ولبس خلعة السلطان . وقد بالغ السلطان فى اكرامه جدا ، بخلاف ما وقع لجمجمة بن عثمان مع الأشرف قايتباى ، فانه لما دخل عليه لم يقم له ، ولا وصل الى الحوش وهو راكب ، ولا أنعم عليه بأشياء حافلة كما فعل الغورى مع قرقد هذا .

وفى ذلك نكتة لطيفة وهى أن الجمجمة لعلها لقب لقب بها بعض أولاد آل عثمان وليس علما لواحد منهم ، ومع ذلك ما اشتهر بها رجل منهم فى بلاد الروم وغيرها اللهم الا فى مصر ، ثم أخى يعتقد أن المراد به هو السلطان جم ابن السلطان أبى الفتح محمد خان ، هرب الى مصر لما تسلطن أخوه السلطان بايزيد خوفا منه على نفسه . وقضيته مشهورة لم يل ملك الروم ، وقرقد ولى على اسطنبول كرسى مملكة الروم مدة يسيرة لما مرض أبوه وأشرف على الموت ، فولى على الروم عوضه حتى شفى ، وكان أكبر أولاده .

ثم ان السلطان رسم للأمراء بأن ينزلوا صحبة قرقد بن عثمان ، فنزلوا معه الى الصليبة ، فحلف عليهم بالرجوع الى دورهم ، وتوجهوا به الى بولاق من على الجزيرة الوسطى ، وصحبته الرءوس النوب بالشاش والقماش حتى وصل الى البرابخية ، ثم انفض ذلك الموكب . ومد له السلطان هنا مدة حافلة . ثم فى أثناء ذلك أرسل اليه السلطان تقدمة حافلة . قيل بعث اليه بعشرين ألف دينار ، عشرة فضة وعشرة ذهب وعدة بقج فيها قماش مفتخر ، ما بين سكندرى ومنزلاوى ، وغير ذلك . ثم قدم ابن عثمان للسلطان فيما بعد تقدمة حافلة ما يحضرنى قدرها .

وفى هذا الشهر توفى الأمير مغلباى دجاج أحد الأمراء الطبلخانات .

وتوفى أيدكى دوادار علان الدوادار الثانى ، وكان غير مشكور السيرة فى أفعاله .

ومن الحوادث أن فى يوم الخميس ، سادس عشرينه ، توفى أحمد بن العكام برداد السلطان ، وقد مات قتيلا . وسبب ذلك أن بعض أعدائه سلط عليه من قتله بخنجر فى البندقانيين وهو طالع الى القلعة بعد صلاة الصبح ، كما جرى لأبى البقا ابن الجيعان ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توجهت طائفة من المماليك الى بيت شخص من الأمراء الرءوس النوب يقال له اينال باى ، فأحرقوا بيته ونهبوا ما فيه . وكان سبب ذلك أن صبيا أمرد كان بجمقدارا عند بعض المماليك ، فهرب من عنده واحتمى بهذا الأمير ، فدخل اليه المملوك يطلب الصبى من عنده ، وادعى أنه سرق من عنده شيئا ، فأغلظ المملوك على ذلك الأمير فى القول ، فأدبه وضربه . فتعصبت له خشداشينه وأتوا الى بيت اينال باى المذكور ونهبوا ما فى مراكبهم أجمعين ، فتنكد السلطان يلتفت الى كلامه وراح النهب فى كيسه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه الى الهند صحبة حسين المشرف قد كسرهم الفرنج كسرة فاحشة ، وقتلوا العسكر عن آخره ، ونهبوا ما فى مراكبهم أجمعين ، فتنكد السلطان لهذا الخبر .

وفيه سافر ناظر الخاص ، والأمير محمد بيك قريب السلطان الى ثغر الاسكندرية ، بسبب تجهيز المراكب التى يتوجه فيها الأمير علان الى بلاد ابن عثمان .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكان له مدة وهو فى الترسيم حتى غلق ما قرر عليه من المال .

* * *

وفى ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ست أذرع وثمانى عشرة أصبعا ، وكانت أزيد من العام الماضى بثمانى أصابع .

ومن النوادر اللطيفة أن بركة الرطلى زرعت فى هذه السنة حشيشا ، وهذا لم يتفق قط . وكان الذى زرع الحشيش كمال الدين بن قوسان ، وقد استأجر أرض بركة الرطلى ، فكان كل من دخل اليها يبتهج بذلك ، ولا سيما أصحاب الكتبة[1] من الحشاشين ، فجاءت اليها الناس أفواجا يتفرجون على ذلك الحشيش ، وقد وضع من أهله فى محله ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وفيه يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلى حسنا
وصارت جنة فيها عروش
ومذ زرعوا الشرانق فى ثراها
يبدو نسيمها طلع الحشيش

وفى يوم الثلاثاء ، ثامنه ، عزم السلطان على قرقد بيك بن عثمان فى الميدان ، ولعب السلطان والأمراء قدامه بالكرة ، ومد له أسمطة حافلة بالبحرة التى بالميدان ، ولم يحضر فى ذلك المجلس سوى عثمان وجماعته . ثم ان ابن عثمان تكلم مع السلطان فى أمر الأمير أزبك المكحل الذى نفى الى دمياط بسبب الأتابكى قيت الرحبى ، كما تقدم ، فلما قدم ابن عثمان الى دمياط ترامى عليه أزبك المكحل بأن يشفع فيه عند السلطان أن يعود الى مصر ، ويقيم بها بطالا ، فشفع فيه ابن عثمان فى ذلك المجلس وباس يد السلطان ، فرسم باحضاره الى مصر ، فلما أراد ابن عثمان الانصراف ، خلع

(1) اسم «الحشيش» باللاتينية « Cannabis indica »

عليه السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، وأركبه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش .

وفى يوم الجمعة ، حادى عشره ، عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة على العادة ، وحضر قرقد بيك بن عثمان ، فلما طلع قام له السلطان وأجلسه عن ميمنته فوق المرتبة التى هو جالس عليها ، فوق القاضى الشافعى . وفى ذلك اليوم لبس السلطان الشاش والقماش ، ولم يكن عادة أن السلطان يلبس الشاش والقماش فى المولد . وانما فعل ذلك لأجل ابن عثمان ، وأظهر السلطان فى ذلك اليوم غاية العظمة بخلاف كل سنة .

وفى يوم الخميس ، سابع عشره ، خلع السلطان على الأمير طقطباى نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وقرر مغلباى الزردكاش بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان جماعة من المماليك وأولاد الناس ، وعين منهم جماعة الى الطينة يقيمون بها سنة فى الأبراج التى أنشأها هناك ، ويصيرون بالنوبة ، كلما مضت سنة يأتى تلك الجماعة ويتوجه خلافهم الى هناك ، ويقيمون بها سنة كاملة .

وفى يوم السبت ، تاسع عشره ، حضر أزبك المكحل من دمياط ، وكان منفيا بها ، فشفع فيه قرقد بيك بن عثمان كما تقدم ذكر ذلك . فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل الى داره ، ورتب له ما يكفيه من الذخيرة بغير اقطاع ، واستمر طرخانا .

وفيه خلع السلطان على على البرماوى وقرره فى برددارية السلطان ، عوضا عن أحمد بن العكام بحكم موته ، وصار البرماوى من تحت يد الزينى بركات بن موسى .

وفيه كان ختم ضرب الكرة ، وحضر ابن عثمان عند السلطان ، ومد فى ذلك اليوم أسمطة حافلة ، ووقع خصمانية فى لعب الرمح فى ذلك اليوم قدام السلطان والأمراء ، وكان يوما مشهودا .

***

وفى ربيع الآخر قبض على جمال الدين الزغلى الذى تسحب من المقشرة ، فرسم السلطان بشنقه ، فأشهروه وهو عريان على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه حتى أتوا به الى بيت شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمرباى ، وكان ساكنا فى مصر العتيقة على البحر ، فشنق هناك على بابه ، وشنق معه خمسة أنفار كانوا يعملون الزغل معه . وسبب ذلك أن تمرباى المذكور كان هو الذى عرف بين السلطان وبين جمال الدين وقال للسلطان ان جمال الدين يعرف صنعة الكيمياء ، فظهر أن ذلك كذب .

وفيه فى ليالى وفاء النيل وقع ببركة الرطلى حريق فى بعض بيوت الجسر التى بها ، فاحترق نحو سبعة أماكن ، ولا يعلم من فعل ذلك . وكان الجسر خاليا بغير سكان .

وفيه تغير خاطر السلطان على علاء الدين ناظر الخاص بسبب العجمى الذى كان عند السلطان الشنقشى ، وهذه الواقعة مشهورة بين الناس بما كان سببها ، فكادت ديار ناظر الخاص أن تخرب فى هذه الحركة ، وألزمه السلطان بأن يعتق عبيده وجواريه قاطبة .

وفيه وقع تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى وبين كاتب السر البدوى محمود بن أجا بسبب وقف كان بينهما بحلب ، فرسم السلطان بعقد مجلس بينهما بالمدرسة الصالحية ، فلما توجها الى هناك انتصف كاتب السر على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة واستخلص منه الوقف الذى

بحلب ، وكان السلطان قائما مع كاتب السر ، ومحطا على عبد البر بن الشحنة .

وفيه تغير خاطر السلطان على سودون نائب دمياط بسبب ما وقع منه فى حق ابن عثمان لما دخل الى دمياط ، فلما حضر سودون المذكور ضربه بين يديه وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه حضر تمرباى الهندى أحد الأمراء العشراوات الذى كان توجه الى الطينة بسبب عمارة الأبراج التى أنشأها السلطان هناك ، فلما انتهى منها العمل وحضر خلع عليه بسبب ذلك .

وفيه انقطع جسر أم دينار الذى بالجيزة ، وكان ليالى وفاء النيل فاضطربت الأحوال لذلك ، وخرج قانى باى قرا أمير آخور كبير على جرائد الخيل ، وعدى الى الجيزة فأعياه سده ، فأرسل يطلب من السلطان عونة على ذلك ، فرسم السلطان لجماعة من الأمراء المقدمين بأن يتوجهوا الى هناك ويتعاونوا على سده ، فتوجه الأمير دولات باى أمير سلاح ، والأمير طرا باى رأس نوبة النوب ، والأمير تمر الحسنى أحد المقدمين ، والأمير ماماى جوشن وجماعة آخرون من الأمراء العشراوات . فلما توجهوا الى هناك أعياهم سد ذلك الجسر ، وحصل للناس بسببه الضرر الشامل ، وصاروا يمسكون الناس من الطرقات ويرمونهم فى الحديد ويتوجهون بهم الى جسر أم دينار ، وحولوا اليه بأخشاب كثيرة وسلب ، ومع هذا أعياهم سده ، حتى عد ذلك من الوقائع الغريبة .

وفيه يقول محمد بن قانصوه :

مذ نقص النيل ليالى الوفا
وأمتع البحر من البر
رأى لقلبى البر فى كسره
فخصه بالجبر فى الكسر

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة خوند أصل باى أم الملك الناصر ، وسرية الملك الأشرف قايتباى ، وأخت الملك الظاهر قانصوه ، وزوجة الملك الأشرف جان بلاط ، توفيت بمكة ودفنت هناك . وقد تقدم القول بأن خاطر السلطان قد تغير عليها ، فلما حجت وقصدت العود الى مصر أرسل السلطان مراسيم بعودها الى مكة ، فعادت اليها من أثناء الطريق ، واستمرت مقيمة بمكة الى أن ماتت بها بعد مضى سنين .

وفيه كان وفاء النيل المبارك الموافق ذلك لرابع عشر مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه شرع السلطان يقبض على جماعة خوند أم الناصر ، وقد ظهر لها أشياء كثيرة من أموال وتحف فى عدة حواصل ، وقد حصل على جماعة من النساء بسببها ما لا خير فيه ، وضربوا وعصروا غير ما مرة ، وما قاسوا خيرا فى جرتها ، واستمروا فى التراسيم مدة طويلة وهم الى الآن على ذلك .

وفيه كان انتهاء العمل من الجامع الذى أنشأه السلطان خلف الميدان عند حوش العرب وخطب به ، وقد جاء فى غاية الحسن .

***

وفى جمادى الأولى ، حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان قد سافر الى جهة بلاد الصعيد ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى يوم الخميس ، سادسه ، توجه الأمير علان الدوادار الثانى الى السفر ، وقد تقدم أن السلطان عينه قاصدا الى ابن عثمان ، وكان تقرر الحال أولا على أنه يسافر من البحر الملح فما تم له ذلك وسافر من البلاد الشامية ، فخرج فى ذلك اليوم فى موكب حافل .

وفيه طلع الأمير طومان باى الدوادار الكبير بتقدمة حافلة الى السلطان ، كون أنه جاء من الصعيد ، فكان من جملة التقدمة : عشرة آلاف دينار ، ومائة فرس ، ومائة بقرة ، وخمسمائة رأس غنم ، وثلاثون رأس رقيق ، وغير ذلك أشياء كثيرة.

وفيه رسم السلطان بشنق شخص زغلى ، فشنق على باب زويلة .

ومن الحوادث أن شخصا شابا يقال له سكيكر أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشىء ، فرسم بتسليمه الى الوالى ، فعاقبه فلم يقر بشىء ، فسجن بالمقشرة حتى يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان توجه الى ثغر الاسكندرية بسبب تجهيز المراكب المعينة صحبة الأمير محمد قريب السلطان .

وفى هذا الشهر وقعت زلزلة خفيفة بعد العصر فلم يشعر بها الا القليل من الناس .

* * *

وفى جمادى الاخره ، فى يوم تاسعه ، نزل السلطان الى الميدان وحضر عنده ابن عثمان . ووقع فى ذلك اليوم خصمانية فى لعب الرمح ، وأحرق السلطان قدامه احراقة نفط بالنهار فى الميدان ، وكان يوما مشهودا .

وفيه ثبت النيل المبارك على اثنتين وعشرين أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى أواخر بابه .

وفيه ظهرت امرأة غريقة عند قناطر الأوز ، ووجد عليها ثياب فاخرة ، وفى آذانها حلق بلخش ، وفى يدها سوار ذهب ، فطلع بها والى القاهرة ووضعها فى تابوت عند جامع الظاهر ، فأقامت يوما وليلة ولم يظهر لها معرفة فدفنت بعد ذلك .

وفيه وقع ربع فى الكداشين ، وكان مطلا على الخليج ، فقتل تحت الردم شخص يقال له شمس الدين البهواشى ، أحد نواب الحكم من الشافعية ، وكان لا بأس به ، وقتل شخص معلم صاجاتى ، وقتل جماعة آخرون ممن كانوا ساكنين فى ذلك الربع ، وكانت حادثة مهولة .

* * *

وفى رجب نادى السلطان بأن لا يتجاهر الناس بالمعاصى ، ولا يمشى بسلاح من بعد المغرب ، وأن الناس يواظبون على الصلوات الخمس فى الجوامع ، فسمعوا من أذن وخرج من أخرى .

وفيه قبض السلطان على الشمسى محمد ابن فخر الدين كاتب المماليك ، الذى قرر فى نظر الاسطبل السلطانى ، كما تقدم ، فلما قبض عليه قرر عليه مال ووكل به ، وكان مظلوما فى هذه الواقعة .

وفيه قبض السلطان على جلال الطنبدى ، أحد نواب الحنابلة ، وقد كذب عليه بعض أعدائه وأوحى للسلطان بأن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد أودع عنده مالا ، فطلبه السلطان ورسم عليه ، وقاسى شدائد ومحنا ، وصودر غير ما مرة بسبب قانصوه خمسمائة فانه كان من جملة أصحابه .

وفيه توفى والد معين الدين بن شمس وكيل السلطان ، مات بغتة ، قيل طلب منه السلطان مالا فابتلع فصا من الماس فمات فى ليلته ، فكانت الواقعة تقرب من واقعة ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه قبض الوالى على امرأة تسمى أنس ، وكانت قبيحة السيرة تجمع عندها بنات الخطاء ، وكانت ساكنة بالأزبكية ، فلما تولى الأتابكى قرقماس توجهت الى قليوب ، فأرسل السلطان بالقبض عليها ، فلما قبضوا عليها رسم السلطان

بتغريقها ، ويقال انها فدت نفسها بخمسمائة دينار ورسم بنفيها .

وفيه خلع السلطان على آقباى وأعاده الى كشف الشرقية ، كما كان قبل ذلك ، وصرف عن كشف الشرقية كرتباى مملوك السلطان .

وفى هذه السنة أرسل السلطان تقليدا الى يوسف الناصرى وقرره فى نيابة حماة عوضا عن جانم الذى كان بها ، وقرر جان بردى الغزالى فى نيابة صفد عوضا عن سودون الدواداری ، وقرر سودون الدواداری فى نيابة طرابلس ، وقرر فى نيابة الكرك يوسف دوادار ملاج نائب القدس .

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن قرقماس المقرى ، أحد الأمراء العشراوات كان ساكنا فى زقاق الكحل فسرق من بيته عملة بألف دينار ، فقبض على جيران الحارة أجمعين ، وسلمهم الى الوالى فعاقبهم أشد العقوبة ، وغرمهم أضعاف ما سرق له ، وكانوا فى هذه الواقعة ليس لهم ذنب ، وقد ظهرت هذه العملة فيما بعد عند جماعة قرقماس المقرى ، بعد ما عاقب جماعة من مشاهير الناس ، منهم أولاد ابن البقرى ، وغير ذلك من جيران الحارة من أعيان الناس .

وفى يوم الخميس حادى عشره جاءت الأخبار بأن سيباى نائب الشام قد وصل الى خانقة سرياقوس ، وقد حضر ليزور السلطان ، وكان قد وقع بينه وبين حاجب دمشق حظ نفس ، فحضر الى السلطان يشكو له من ذلك . فلما حضر دخل الى القاهرة ليلة الجمعة ، ونزل فى مدرسة السلطان التى أنشأها فى الشرابشيين فبات بها ، فلما أصبح يوم الجمعة ، ودخل وقت صلاة الجمعة ، أرسل السلطان خلفه فطلع الى القلعة وهو بالشاش والقماش ، وأرسل اليه السلطان جنائب بسروج ذهب وكنابيش ، فركب من المدرسة وطلع الى القلعة وصلى مع السلطان صلاة الجمعة وجلس معه فى المقصورة ، فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه السلطان ونزل من القلعة ، وصحبته الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، وقدامه تلك الجنائب . واستمر فى هذا الموكب الحافل حتى أنزله فى بيت قرقماس الجلب الذى بالتبانة ، وقد خلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وكان له يوم مشهود ، وقيل وصل من الشام الى القاهرة فى سبعة أيام وقد جاء على جرائد الخيل ، وكان قد بلغه أن أركماس يسعى عليه فى نيابة الشام فاضطربت أحواله ، وجد فى السير حتى أتى الى مصر فى سبعة أيام .

وفيه قبض السلطان على أصيل بردداد الأتابكى قيت الرجبى وسلمه الى الوالى ، فعاقبه وضربه كسارات حتى مات تحت العقوبة . وكان سبب ذلك أن قد وشى به عند السلطان أنه يعانى صنعة الزغل ، وقد اشتهر بذلك بين الناس ، وكان أصيل هذا من وسائط السوء ظالما غاشما يستحق كل أذى .

وفيه عزم السلطان على سيباى نائب الشام فى الميدان ، وجلس هو واياه على البحرة التى به ، ومد له أسمطة حافلة ، وأقام عنده الى أواخر النهار ، ثم ألبسه كاملية بسمور ، وتوجه الى المكان الذى نزل به ... ولما حضر سيباى نائب الشام لم يحضر مواكب السلطان بالقلعة .وسبب ذلك أن الأمير دولات باى أمير سلاح لم يوافق على أن سيباى نائب الشام يجلس فوقا منه . وقد تقدم أن الأمير دولات باى ولى نيابة حلب ونيابة الشام قبل سيباى ، فبموجب ذلك لم يوافق الأمير دولات باى على أن سيباى يجلس فوقا منه .

لع السلطان على أبي البقا ابن ابراهيم
الخاص ، وقرره فى نظر الاسطبل
عوضا عن محمد بن فخر الدين كاتب
حكم صرفه عنها . وقد جمع أبو البقا
ء الخاص ونظر الاسطبل .

م الجمعة لبس السلطان الصوف وقلع
ووافق ذلك سادس هاتور القبطى .

عاد خاير بيك المعمار من بناء الخان
لتى أنشأها السلطان فى العقبة ، فلما
دة يسيرة ورسم له السلطان بأن يتوجه
ن البحر الملح ، ويأخذ صحبته جماعة
ن والنجارين والمهندسين ، وقد أمر
، ببناء مارستان ورباط فى مكة ، وأن
م ويجرى عين ماء بازان الى مكة ، فخرج
ذا الشهر وتوجه الى الطور .

وقعت فتنة بين العبيد وصاروا يقتلون
ضا حتى أعيا الوالى أمرهم .

، جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن
حمد بيك لما توجه الى الجون بسبب
الأخشاب صادف مراكب فيها فرنج
، البحر على التجار فتحارب معهم
ليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسر
، منهم ، وغنم ما كان معهم فى المراكب ،
ء كثيرة تقدر بنحو من مائة ألف دينار ،
لطان لهذا الخبر .

، نزل السلطان الى الميدان ، وحضر
د بيك بن عثمان . ورسم للرماحة الذين
فى أيام المحمل بأن يسوقوا فى الميدان
، عثمان حتى يتفرج عليهم ، فساقوا وهم
آلة السلاح ، وكان يوما مشهودا .
أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين

وثلاثين ألف دينار . وكان سبب ذلك أن تغرى
بردى الترجمان لما توجه الى بلاد الفرنج اشترى
من ملوك الافرنج عدة أسرى من المغاربة بنحو من
خمسين ألف دينار ، فلما خلصوا أراد السلطان
أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التى
بمصر وبالاسكندرية فى نظير ما غرمه .

وفيه ظهر فى السماء ، من جهة القبلة ، نور ساطع
مثل قلع المركب ، يظهر وقت طلوع الفجر ثم
يختفى ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى ولم يعلم
ما سبب ذلك .

وفيه لما قوى البرد ، رسم السلطان لابن عثمان
بأن يتحول من بولاق ، ويسكن فى بيت الأشرف
جان بلاط الذى فى حارة القاضى عبد الباسط ،
فأقام به مدة يسيرة ثم عاد الى بولاق كما كان .

***

وفى شعبان ، خلع السلطان على سيباى نائب
الشام وأذن له بالعودة الى محل نيابته ، فسافر
فى أثناء ذلك .

وفى رابع عشره توفى الطواشى عنبر التكرورى
مقدم المماليك ، وكان دينا خيرا لين الجانب ، وكان
أصله من طواشية الأمير جانى بيك المرتد .

وفى يوم الخميس ، سادس عشره ، حضر الأمير
محمد بيك الذى كان قد توجه الى الجون بسبب
احضار الأخشاب ، وحضر صحبته تلك الفرنج
الذين أسرهم كما تقدم ، فكانوا نحوا من خمسين
نفرا ، فشق بهم من القاهرة وهم فى زناجير ، وكان
لهم يوم مشهود . فلما عرضوا على السلطان ،
وهو بالميدان ، خلع على الأمير محمد بيك ورسم
بسجن الفرنج فسجنوا بالمقشرة ، وقيل أسلم منهم
خمسة أنفار .

وفى ذلك اليوم كان قدام السلطان رماية
نشاب على الخيل ، وأحرق قدامه فى ذلك اليوم

احراقة نقط بالميدان بالنهار ، وكانت نوبة آنياب الأمير بهادر الغورى ، وكان ابن عثمان حاضرا والأمراء المقدمون ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث أن الأمير طومان باى الدوادار خرج يسير نحو المطرية وصحبته الأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد المقدمين ، فساقوا فى الرمل فتقنطر الفرس بالأمير خاير بيك فانكسر بعض أعضائه ، ورد وهو محمول وقد أشرف على الموت ، وأقام أياما وهو فى الفراش منقطعا حتى شفى بعد مدة طويلة .

* * *

وفى رمضان ، كان مستهله يوم الخميس ، فنزل السلطان الى الميدان ، وعرضوا عليه اللحم والخبز والدقيق والسكر والغنم وهو مزفوف على رءوس الحمالين على جارى العادة ، وخلع فى ذلك اليوم على تغرى برمش الوزير ، وعلى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب .

وفيه كان انتهاء العمل من المقعد الذى أنشأه السلطان خلف جنينة البحرة ، المطل على الحوش السلطانى ، وقد جعل طوله ستين ذراعا وعرضه نحو عشرين ذراعا ، وجعل له شبابيك على الحوش ، وشبابيك على جنينة البحرة ، وجعله مقعدا قبطيا بغير أعمدة ، ورخمه وزرة عالية . فلما كان أول ليلة من شهر رمضان أفطر فيه واجتمع عنده الأمراء ومد السماط به ، وأظهر غاية العظمة فى تلك الليلة .

وفيه خلع السلطان على الأمير شاهين الجمالى وقرره فى مشيخة الحرم النبوى كما كان أولا .

وفيه ظهرت بقليوب ، وقيل بقلمة ، ابنة صغيرة دون البلوغ ، قيل انها رأت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام مرارا متعددة ، وظهر لها كرامات خارقة ، فتوجه اليها الناس أفواجا أفواجا ، واشتهر عنها أنها تقيم المقعد وترد بصر الأعمى ... وحكى عنها من هذا النمط أشياء غريبة ليس لها صحة ، فبلغ كرى كل حمار من القاهرة الى قليوب أشرفيا ، وتوجه اليها جماعة من الخاصكية والأمراء العشراوات وأعيان الناس ، ووقع لها سمعة زائدة بالقاهرة .

وفى هذا الشهر ، أو فى الذى قبله ، توفى الشرفى يونس بن الأمير طوخ بونى بازق ، وكان أبوه أمير مجلس فى دولة الأشرف اينال ، وكان الشرفى يونس من أعيان أولاد الناس ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس خامس عشره ، خلع السلطان على الطواشى سنبل العثمانى الهندى وقرره فى تقدمة المماليك عوضا عن عنبر التكرورى ، بحكم وفاته ، وخلع على الطواشى جوهر الزومى وقرره نائب مقدم المماليك عوضا عن سنبل ، بحكم انتقاله الى تقدمة المماليك ، وخلع على الطواشى بشير وقرره رأس نوبة السقاة عوضا عن خشقدم الرومى بحكم وفاته .

وفيه نزل السلطان الى الميدان فوقف اليه جماعة من المغاربة ، نحو من سبعين انسانا ما بين رجال ونساء ، وقد قصدوا الحج فى هذه السنة ، فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط .

وفيه ، فى يوم الجمعة ثالث عشرينه ، طلع قرقد بن عثمان الى القلعة ، وأفطر عند السلطان تلك الليلة وبات ، فلما أصبح ألبسه السلطان سلارى صوف أبيض بسمور من ملابيسه .

ومن الحوادث أن فى ليلة الأحد خامس عشرينه وجد اثنان من مماليك السلطان من طبقة الصندلية قتلى عند بركة باب اللوق ، بالقرب من شاطىء الخليج ، ولا يعلم من قتلهما ، فلما طلع النهار نزل من القلعة الجم الغفير من المماليك من خشداشين أولئك المماليك الذين قتلوا ، فنهبوا عدة دكاكين

من باب اللوق ، وكادوا أن يحرقوا البيوت التى هناك حتى أدركهم الوالى ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد وألزم الوالى بتحصيل من فعل ذلك ، فنزل الوالى وقبض على جماعة كثيرة من أرباب الأدراك الذين هناك ، ومن الغيطانية والمرابعين ، وغير ذلك ممن لا ذنب له فى ذلك ، وربما عوقب من لا جنى . فلما عرضوا على السلطان أمر بسجنهم فى المقشرة .

وفى أثناء هذا الشهر ظهر محمد بن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف ، فترامى على بعض الخاصكية بأن يسعى له عند السلطان فى عوده الى نظر الأوقاف ، فلما ذكر للسلطان مال اليه ، فلما بلغ محمد بن العظمة ذلك طاش وشرع يطلب أعيان الناس بالرسل الغلاظ الشداد . وكان علاء الدين ناظر الخاص متحدثا فى نظر الأوقاف ، فلما بلغه ما فعله ابن العظمة طلع الى السلطان وشكا له من ابن العظمة ، فقال له السلطان : « أنت تشتكى عندى من هذه الوظيفة وتقول باخسر فيها » ! فقال ناظر الخاص : « أسد فيها بسعادة السلطان » . فألبسه كاملية ونزل الى داره ، فلما نزل قبض على محمد بن العظمة وضربه وسجنه بالمقشرة واستمر بها مدة طويلة .

وفى خامس عشرينه كان ختم البخارى بالقلعة ، ونصب السلطان خيمه بالحوش واجتمع القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، وفرقت الخلع والصرر على العادة ، وكان ختما حافلا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، فخلع عليه السلطان .

وفيه وصل الى السلطان تقدمة حافلة من عند نائب الشام ، وهى ما بين خيول ومماليك وقماش ومال وغير ذلك .

وفيه توفى الشيخ ناصر الدين محمد بن جرباش ، وكان من أعيان علماء الحنفية ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

* * *

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، وحضر قرقد بيك بن عثمان وصلى مع السلطان صلاة العيد ودخل فى المقصورة وهو بغير كلفتاه . وكان الجمجمه ابن عثمان لما حضر مع الأشرف قايتباى صلاة العيد ألبسه الكلفتاة وصلى بها معه ، فلما خرج السلطان من الجامع مشى قدامه قرقد بيك ابن عثمان مع الأمراء من الجامع الى الحوش ، فلما خلع على الأمراء خلع على ابن عثمان أيضا كاملية تماسيح على أحمر بفرو سمور ، ورسم له بأن يركب من الحوش ، فركب ونزل مع الأمراء فى موكب حافل ، حتى وصل الى بولاق ونزل بالبرابخية . ومن جملة ما بالغه السلطان فى اكرام قرقد بيك بن عثمان أنه أرسل اليه بكتاب على يد كاتب السر بأن يرتب له فى كل شهر ألفى دينار برسم نفقته ما دام بمصر ، فكانت تصرف له من الذخيرة فى مدة اقامته بمصر .

وفى يوم الاثنين عاشره نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام ، وطافوا بهم فى القاهرة مع المحمل ، وكان لهم يوم مشهود .

وفيه حضر القاضى محب الدين كاتب سر دمشق فأكرمه السلطان الى الغاية ، وحضر صحبته تقدمة حافلة للسلطان .

وفيه توفى للأمير طومان باى الدوادار ولد صغير من سرية ، وعمره نحو من ثلاث سنين ، فتأسف عليه ودفن وقت صلاة الفجر على الفوانيس ، فرسم السلطان بأن يدفن فى مدرسته التى بالشرابشيين فدفن بها .

وفى يوم الاثنين سابع عشره خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، وبالركب الأول مغلباى الزردكاش أحد الأمراء الطبلخانات ، فكان لهما يوم مشهود ، وحضر أمير من أمراء ابن عثمان الكبير يروم الحج وصحبته نحو من أربعين ألف دينار أرسلها ابن عثمان على يده ليفرقها على فقراء مكة والمدينة ، فسافر صحبة الحجاج .

ومن الحوادث أن شخصا يسمى بركات من فراشى الأمير طومان باى الدوادار قتل صبيا من صبيانه وكان شابا صغيرا جميل الصورة ، فلما عرض بركات المذكور وغرماؤه على السلطان دفعهم الى قاضى القضاء المالكى ، فحل فى أمر بركات لما علم أنه من فراشى الدوادار ، فسجنوه حتى تقام عليه البينة بأنه قتل . وفى عقيب ذلك قتل ساعى الدوادار أيضا قتيلا وهو شخص يعرف بالشقيفاتى ، وكان شيخا مسنا . فلما عرض الساعى على السلطان وعلم أنه من جماعة الدوادار دفعه للشرع أيضا ، فحلوا عنه ولم يجىء أحد يشهد عليه بأنه قتل ، وكان قتله بالنهار بعد العصر فى وكالة الأشرف برسباى التى بالصليبة ، وراح أمر القتيلين على أقاربهما وأولادهما ، والأمر الى الله تعالى .

* * *

وفى ذى القعدة الشريفة ، فى يوم الخميس خامسه ، حضر سودون الدوادارى الذى كان نائب طرابلس ، وقد حصل بينه وبين أهل طرابلس تشاجر ، فأرسل السلطان خلفه بأن يقيم بمصر .

وفيه نزل السلطان وسير نحو المجراة ، ولما عاد الى القلعة طلع من الصليبة فى موكب حافل .

ثم فى يوم الأحد ، ثامنه ، نزل وسير نحو بركة الحبش ووصل الى طرا ، ثم عاد من يومه وشق من على ساحل البحر .

ثم فى يوم الأربعاء ، حادى عشره ، نزل من القلعة وتوجه الى نحو الصحراء وزار سيدى عبد الله المنوفى رحمة الله عليه ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه ضيق السلطان على جماعة من المباشرين وأفرد عليهم نحوا من ستمائة ألف دينار . وسبب ذلك أن كل من كان عليه مال منكسر فى الديوان من قديم وحديث يرده ، فجلس بنفسه فى الدهيشة وعمل حسابهم بحضرته فاضطربت أحوال المباشرين قاطبة ، وضيق عليهم فى سرعة استخراج تلك الأموال على تفرقة الأضحية . وكان غالب هذه الأموال بقايا مصادرات قديمة على صلاح الدين بن الجيعان وعلم الدين المتحدث فى الخزانة وبانوب النصرانى وشمس الدين بن عوض وشرف الدين الصغير ناظر الدولة وشرف الدين النابلسى الأستادار ويوسف بن أبى أصبع الحلبى وفخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك . ومنهم ناظر الجيش عبد القادر القصروى وبركات بن موسى وغير ذلك جماعة آخرون ، فنزلوا من القلعة وهم سكارى بغير مدام .

وفى يوم السبت ، رابع عشره ، نزل السلطان وسير وتوجه الى نحو تربة الأشرف قايتباى ، فنزل عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ على قبره وقرأ له الفاتحة ، ثم رسم للبوابين وللصوفة بمائة دينار ، وركب من هناك وتوجه الى تربة العادل طومان باى ، فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له الفاتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم ركب من هناك ورجع الى تربة الأمير يشبك الدوادار فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له الفاتحة ، ثم ركب من هناك ونزل من على سوق

الدريس وأتى الى تربة الأشرف جان بلاط التى بباب النصر فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له الفاتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم ركب من هناك وعاد من الصحراء وطلع الى القلعة وكان فى نفر قليل من العسكر .

وفيه توفى جانم كاشف الوجه القبلى ، وكان من الأمراء العشراوات .

وفيه توفى القاضى صالح بن طه أحد نواب الشافعية ، وكان من قضاة الجاه .

وفيه توفى الخواجا عطية ، وكان فى سعة من المال ، وكان أغلس خلق الله على الاطلاق ، وهو من البخل على جانب عظيم ، كما قيل :

لبست ثياب لؤم عنك شقت
ومن يكسى ثياب العار عارى
فلو لبس الحمار ثياب خز
لقال الناس : يالك من حمار !

وفيه توفى الشيخ عبد القادر الدماصى ، وكان فاضلا ناظما ناثرا فكه المحاضرة ، بقية السلف ، عشير الناس . وكان له شعر جيد . ومن نظمه ما ألغزه فى غزال وبعث به الى الشهاب المنصورى :

مولاى ما اسم لوحش نافر أنس
فى مأربى منه أشيا جمعت فيه
حروفه أربع لكنها عجب
ان زال أول حرف زال باقيه

فأجابه الشهاب المنصورى عن ذلك :

مولاى ألغزت فيما ناب عن قمرى
جيدا وحاكى سوادا فى أماقيه
فالبعض لام حكت لامات سالفه
وبعضه قد غزا فى الله باقيه

* * *

وفى ذى الحجة قبض السلطان على المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، فلما قبض عليه قرر عليه ستين ألف دينار وأستمر فى التوكيل به ، وكان المعلم على هذا من خيار الناس ، ناتجا بالسداد ، وله شهرة طائلة وبر ومعروف . وكان كثير الحشمة فى حق الناس .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء كانت على الذخيرة ، حتى قطع السكاكين التى كانت تفرق على الناس فى عيد النحر من الزردخاناه وكانت من العادات القديمة ، فأبطلها فى هذه السنة بواسطة شخص من الزردكاشية يقال له أحمد بن قراكز .

وفيه كان الأتابكى قرقماس مسافرا فى بعض جهاته ، وقد فر لأجل تفرقة الأضحية .

وفيه توفى الأمير قانصوه جوشن أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان لا بأس به .

وفيه كان موكب العيد حافلا وأوكب السلطان على العادة ، فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان فى اليوم الثانى من العيد وتوجه الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية وأقام هناك الى بعد العصر . ووافق ذلك اليوم عيد النصارى وأول الخماسين فانشرح هناك ومد أسمطة حافلة . وحضر عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، ورسم لبعض الأمراء العشراوات بأن يرقص فقام ورقص بين يدى السلطان فرسم له بمائة دينار . ولما صار العصر وركب من هناك أخذ فى جيبه كيسا فيه ذهب وصار يفرق منه بطول الطريق على الفقراء ومن يقف له من الناس ، فشرع يعطيهم من يده بغير واسطة بحسب ما يقسم لهم ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة وكان يوما بالسلطانى .

ولما مضى العيد وأيام التشريف عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وخلع على الشيخ بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة

صلاح الدين المكينى وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضا عن كمال الدين الطويل بحكم صرفه عنها ، وقد جمع بدر الدين المكينى بين قضاء الشافعية ومشيخة الخشابية والشريفية ، وقد سعى فى ولاية القضاء بثلاثة آلاف دينار ، ويااليته ما سعى فكان سعيه غير مشكور ، فكان كما يقال فى المعنى :

الحمد لله كم أسعى بعزمى فى
نيل القضا وقضاء الله ينكسه

وكان غالب الأمراء والعسكر مائلا الى قاضى القضاة كمال الدين وسيعود الى القضاء عن قريب .

وفيه توفيت الست آمنة والدة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وهى ابنة أمير المؤمنين أبى الربيع المستكفى بالله سليمان ، وكانت دينة خيرة صالحة ، وقد كف بصرها فى أواخر عمرها . وكانت لا بأس بها .

وفيه وصل مبشر الحاج فى ثلاثة عشر يوما ، وأخبر بالأمن والسلامة لجميع الحجاج .

وفيه توفى الرئيس بركات السكندرى رئيس الطب ، وكان عارفا بأمر الطب لطيف الذات عشير الناس ، وكان لا بأس به .

وتوفى القاضى شمس الدين محمد بن بدر الدين ابن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث أحد نواب الحكم المالكى ، وكان عالما فاضلا شابا رئيسا حشما لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة على الناس على خير ، وكانت سنة مباركة رخية خصبة ، وكان نيلها نيلا مباركا عاليا ، وثبت الى نصف هاتور القبطى ، وزاد فى هاتور ثمانى أصابع حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، ولكن حصل منه للناس بعض ضرر وغرق البذار الذى كانوا بذروه فى أراضى الجيزة عند هبوط النيل ، ثم زاد بعد ذلك هذه الثمانى أصابع ، فرسم السلطان للقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى المقياس ويدعوا الى الله تعالى فى هبوطه ، فتوجهوا الى هناك وباتوا بالمقياس ، وقرأ السلطان تلك الليلة ختمة شريفة ومد أسمطة حافلة ، فانهبط فى تلك الليلة نحوا من نصف دراع . فعد ذلك من الوقائع الغريبة .

وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان ، وأخرجت ماشتله به من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان ، وغير ذلك من الأزهار العربية . ولقد عاينت به وردا أبيض ذكى الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام ، وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة ، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر . فكان السلطان يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعدا مخملا بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه ، ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، وتارة يجلس على البحرة التى طولها أربعون ذراعا وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقى نقالة من المجراة تجرى ليلا ونهارا ، فيجلس على سرير هناك فى غالب أيام الجمعة ولا يدخل عليه من الأمراء أحد الا من يختاره . وقد وقع له من المحاسن أشياء غريبة لم تقع لغيره من السلاطين ، وقد صار هذا الميدان جنة على وجه الأرض ، كما يقال فى المعنى :

وشدت على العيدان ورق أطربت
بغنائها من غاب عنه المطرب

فالورق تشدو والنسيم مشبب
والماء يسقى والجداول تشرب
واذا تكسر ماؤه أبصرته
فى الحال بين رياضه يتشعب

ومما وقع لى أن السلطان كان قد أخرج اقطاعى فى حركة المماليك لما أخرج اليهم أقاطيع أولاد الناس كما تقدم ذكر ذلك ، فوقفت اليه بقصة فى الميدان ، فرد الى اقطاعى وحصل لى منه غاية الجبر ونصرنى على المماليك الدين كانوا أخذوا اقطاعى ، فعند ذلك امتدحته بهذه القصيدة ، وذكرت فيها أشياء كثيرة مما وقع له من المحاسن ، وقدمتها اليه على يد شخص من خواصه . وهى هذه القصيدة :

بالأشرف الغورى المفدا
أصبح ثغر الزمان باسم
يا قانصوه العلى قدرا
فقت على من مضى وقادم
فكل يوم تراه عيدا
به فأوقاتنا مواسم
تشرف الغور باسمه مذ
رفرف طير السرور حائم
اختاره الله من امام
لقمع أهل الفساد صارم
فالشكر لله مذ تولى
على جميع الأنام لازم
هذا الذى عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم
يصير الشاة فى حماه
تمشى مع الذئب والضراغم
قد جاءه السعد عبد رق
والنصر أضحى لديه خادم
له بقلب الملوك رعب
أغنى عن السمر والصوارم
وسيفه فى الوغى طويل
له نفوس العدى غنائم
جيوشه كالأسود أضحت
تقتحم الحرب بالهزائم
تاريخه فى الملوك أضحى
يحير العرب والأعاجم
فاكتبه بالتبر لا بحبر
واصغ لأخباره العظائم
ليس له فى الملوك ند
فى البأس والجود والمكارم
مظفر ظاهر عزيز
مؤيد عادل الأقالم
بنى بمصر لله بيتا
رخامه قائم ونائم
فجاء فى حسنه فريدا
من كل عيب نقال سالم
فليس يبنى له نظير
فى سائر المدن والأقالم
وقلعة السعد مذ حواها
جدد بها سائر المعالم
بعزمه الماء جاء يجرى
بمجرة تحتها دعائم
دارت دواليها فهامت
لحسن أصواتها البهائم
فاقت بناء الملوك طرا
فالمدح فى وصفها يلائم
تسقى بميدانه رياض
ناحت بأغصانه الحمائم

أشـــجاره بالنسـيم مالت
وزهـــرها فاح فى الكمائم
وأنشـــأ به بحرة تحـاكى
كالنيل أمـــواجها مـلاطم
وغـردت حـولها القمارى
سـماعهـا هيج العـزائم
فعش هنيئـــا بملك مصر
فى نصرة دائم الـــدوائم
ما رقص الريح غصن روض
ونقطت لؤلؤ الغــمائم
ابن اياس محمـد قـد
أتى بدر المـديح ناظـم
عرائسـا بالعقـود تجلى
تأليفها حـير النـواظم
ختمتها بالصــلاة منى
على نبى للرسـل خاتم
محمـد أشرف البـرايا
فى الخلق والخلق والعزائم
صـلى وسلم عليـه ربى
ما دام هـذا الوجود قائم
والآل والصـحب ما تغـنى
حاد بواد العقيـق هائم

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة خمس عشرة وتسعمائة ، وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتونى فى معنى ما قلته هذه الأبيـــات ، وهو قوله من قصيدة مطولة :

يا حبذا الميــدان من جنة
مســاكن الولدان والحـور
أغصانه هب عليها الهـوى
من كل ممدود ومقصـــور
أطياره فى دوحهـا غردت
من كل مسموع وعصفور
وكل سن ضـاحك مطرب
وكل حســون وزرزور
وبلبـــل هيـــج بلبالنا
ومن هـزار حول شحرور
وبحرة مذهب فيهـا الهـوى
جعـدها تنقيش تصـوير
فى جمع تصـحيح ترى ماءها
وبالهـوى فى جمع تكسـير
ومجرة الميـــدان انشاءه
عقـــودها دور على دور
وعمر الروضة صـارت به
أماكنـــا عامـــرة الدور
وجـدد المقيـاس حتى غدت
تزهـو بمنـظوم ومنثور
وفى طـريق الحج كم منهل
عمـره فى غاية الحـير
وعين بازان جـــرى ماؤها
تجـديدها آمنا من الغـور
وأنشـأ بمصر جامعا لم يزل
بيتا بذكر الله معـــمور
والقبــة الزرقـاء وصهريجها
والمـــاء والكيزان والزير
كأن برد الشـلج فى مائه
لكل عطشـان ومحـرور
وكم له قنطرة جـــددت
بأمره من غـير مأمــور
على الخليج الحاكمى وضعها
قد شاع فى طول وتقصـــير

كم ناصب أعــرب فى رفعها
لمــركب فى الكسر مجــرور
أكرم به من ملك أشرف
مؤيد بالعـــز منصــور
ينصره الله ويجعـــل لنا
أيامه أمنا بلا جـــــور
ما أقبــل الصبح بأنواره
وأدبر الليـــل بديجــور
انتهى ذلك ، ثم قال فى استشهاده منها :
وصـــل يا رب على المصطفى
منقـــذنا من كل محـــذور
صـــلاة عـوفى برى نشرها
أطيب من مســـك وكافور
والآل والأنصـــار مع صحبه
أهل الثنا والفضــل والخير
ما ماس من غصن بروض زها
وغردت فى دوحـــه الطير

* * *

سنة ست عشرة وتسعمائة (١٥١٠ - ١٥١١ م):

فيها ، فى المحرم ، نزل السلطان الى الميدان ، وطلع اليه القضاة الأربعة يهنئونه بالعــام الجديد ، وحضر قاضى القضـــاة الشافعى بدر الدين المكينى وهـــذا أول تهنئته بالشهر ، فلما انفض المجلس قام السلطان ودخل الى البحرة التى أنشأها بالميـــدان وعزم على الأمراء وحضر الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمون ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان فوطة فيها ورد من بستان الميدان ، فأخذ من ذلك الورد وردة وشمها ثم دفعها الى الأتابكى قرقماس فأخذها وقام وقبل الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم دفعها الى دولات باى أمير سلاح فأخذها وقام وقبل الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم دفعها الى سودون العجمى أمير مجلس ، فأخذها وقام وقبل الأرض . ثم فرق على جميع الأمراء المقدمين لكل واحد وردة فيأخذها ويقوم ويقبل الأرض ، فقبل له الأرض الأمراء المقدمون جميعهم فى ذلك اليوم لأجل الورد ، حتى عد ذلك من النوادر ، ثم مد لهم فى ذلك اليـــوم أسمطة حافلة وأقاموا عنده الى بعد الظهر ، وأبطل المحاكمات فى ذلك اليوم .

وفيه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وعاد الى القلعة ، ثم نزل بعد ذلك وسير الى نحو طرا وعاد الى القـــلعة ، وفى مدة سلطنته لم يشق من القاهرة قط .

وفى يوم السبت ، حادى عشره ، ثار جماعة من المماليـــك الجلبان ورجموا النـــاس من الطباق ، فأسفرت هذه الواقعة على أن المماليك يرومون من السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار . وكان فى تلك الأيام اللحم معطل بسبب المعلم على الصـــغير فانه كان فى الترسيم ... فلما جرت هذه الحركة أراد السلطان أن يوسط المعلم على الصغير فشفع فيه بعض الأمراء . ثم ان المماليك نزلوا من الطباق وهم مشاة وتوجهوا الى بيت الأتابكى قرقماس فأركبوه غصبا وقالوا له : « اطلع الى السلطان وقل له ينفق علينـــا » ، ثم توجهوا الى سودون العجمى أمير مجلس وأركبوه غصـــبا ، ثم توجهوا الى الأمير طراباى رأس نوبة النوب وأركبوه غصبا ،ثم توجهوا الى الأمير طومان باى الدوادار وأركبوه غصبا ، فلما طلعوا بهم الى القلعة تكلموا مع السلطان فى أمر النفقة فامتنع من ذلك غاية الامتناع وكاد أن يخلع نفسه من السلطنة ، فلما ردوا الجواب على المماليك بأن السلطان امتنع من اعطاء النفقة فاتسعت الفتنة ونزل المماليـــك من الطباق أفواجا أفواجا وهم بزموط وكباشـــيات ومطارق فى أيديهـــم ، فتوجهوا الى سوق جامع أحمد بن طولون فنهبوا

منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين الصليبية ، ثم توجهوا الى سوق تحت الربع فنهبوا منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين البسطيين وغير ذلك من الأسـواق حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها فى ذلك اليوم . وأغلقت الأمراء أبوابها خوفا من المماليك ، فاستمروا ذلك اليـوم على هذا الحال والأمر مضطرب ، وقد نهب للناس أشـياء كثيرة بنحو عشرين ألف دينار . والتف على المماليك الجم الغفير من الغلمان والعبيـد ... وبات النـاس تلك الليلة على وجل ولم يجدوا من يرد المماليك عن ذلك ، وكانت ليلة مهولة وكل مفعول فيها جائز ، وقد قلت فى ذلك :

يارب ان المـماليك جاروا علينـا بعسف
واستفتحوا العام فينا بوقع نهـب وخطف

ثم أصبحوا يوم الأحد على ما هم فيه من النهب والخطف ، وتزايد الأمر جـدا ومنعوا الأمراء من الركوب والمرور فى الطرقات ، وغلقت الأسواق ، ثم ان السلطان نادى للمماليك بالعرض فى الحوش ، فلم يطلع منهم أحد ، واستمروا على ذلك الى يوم الاثنين فلبسوا آلة السلاح وتوجهوا الى الأزبكية وهجموا على الأمير دولات باى أمير سلاح وأرادوا أن يسلطنوه ، ففر منهم وطلع الى عند السلطان . ثم ان المماليك بلغهم أن الأمراء يقصدون الوثوب عليهم ويقبضون منهم على جماعة فعند ذلك قلعوا آلة السـلاح وطلعوا الى الطباق ، ثم ان الوالى نادى فى القاهرة بأن لا مملوك ولا عبد ولا غلام يمشى فى الأسواق من بعد المغرب ، وصار كل من رآه يمشى من بعد المغرب يوسطه . فوسط فى ذلك اليوم من العبيد والغلمان جمـاعة كثيرة ، فسكن الحـال قليلا . ثم ان الأمير طومان باى الدوادار صار يركب فى عدة مماليك ويطوف الأسـواق والحارات ويكبس على المماليك فى اسطبلاتهم فمن وجد عنده شيئا من النهب أخذه ورده الى أصحابه . وصار الناس يغمزون على كل من كان عنده نهب فيكبسون عليه ويأخذون ما عنـده من النهب ، فردوا منه لأصحابه بعض شىء . ثم ان تجار جامع ابن طولون وتجار تحت الربع وقفوا الى السلطان بقصة وشكوا له ما أصابهم من المماليك ، فرسم السلطان الى بركات بن موسى بأن ينزل ويحرر عن أمر النهب ، فوجد ما نهب للناس خمسمائة وسبعون دكانا ، وراحت على النـاس أموالها . وقد قدروا ما نهب للناس فى هـذه الحركة أشياء بنحو من عشرين ألف دينار . فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !

وفيه غيب شرف الدين الصـغير ناظر الدولة بسبب تعطل اللحم فى تلك الأيام ، وهذا كان سببا لاقامة الفتنة المقدم ذكرها .

وفى يوم الأربعاء ، خامس عشره ، توفى القاضى صلاح الدين بن الجيعان وهو محمد بن يحيى بن شاكر ، وكان رئيسـا حشما وله اشتغال بالعـلم واجتمعت فيه الرياسة دون بنى الجيعان ، وولى من الوظائف استيفاء الجيش والتكلم على الخـزائن الشريفة ونيابة كتابة السر ، ثم ولى كتابة السر فى دولة الأشرف جان بلاط ، وجرى عليه شـدائد ومحن ، وصـودر فى دولة الغـورى غير ما مرة ، ومات وهو فى عشر السبعين .

وفى يوم الجمعة ، سابع عشره ، توفى الأمير جان بردى أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به .

وتوفى أسنباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس ، ثالث عشرينه ، دخل المحمل الى القاهرة ، وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

وفيه ظهر شرف الدين الصغير ، وكان مختفيا من حين ركب المماليك بسبب تعطل اللحم ، فلما قابل السلطان خلع عليه وأقره فى نظر الدولة كما كان .

وفى يوم الخميس ، ثالث عشرينه أيضا ، توفى الشيخ أبو السعود بن الشيخ الصالح المسلك سيدى مدين رحمة الله عليه ، وكان دينا خيرا رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع أن طومان باى قرا الحاجب الثانى قد قتل دواداره وخنقه بوتر ودفنه فى الاسطبل ، وقد فعل ذلك وهو سكران ، فلما بلغ السلطان ذلك تغافل عن هذه الواقعة .

وفيه رسم السلطان بتسليم يوسف بن أبى أصبع الى الوالى يعاقبه ، وكان له مدة طويلة وهو فى السجن بالعرقانة ، وقرر عليه نحوا من أربعين ألف دينار فتراقد عن وزن المال فسلمه الى الوالى ، وكان يوسف بن أبى أصبع من خواص السلطان .

وفى يوم الأحد سادس عشرينه أخرج السلطان خرجا من المماليك نحوا من خمسمائة مملوك وفرق عليهم زرديات وسيوف وتراكيش .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه خرج الأمير طومان باى الدوادار وسافر الى جهة الصعيد ، وقد بلغه أن قد وقعت هناك فتنة مهولة بين قبيلة بنى عدى وبين بنى كلب ، وكادت جهات الصعيد أن تخرب عن آخرها . فتوجه بسبب ذلك وكان أوان ضم المغل .

وفيه جلس السلطان على الدكة وأحضر المصحف العثمانى وحلف عليه المماليك الجلبان كل طبقة على انفرادها ، وحلف أغواتهم أيضا ، فحلفوا على العثمانى أنهم لا يثيرون فتنة ولا يركبون ولا يرمون فتنا فى بعضهم ، ثم فرق عليهم الرماح ورسم بأن يلعبوا الرمح فى الميدان ، ورسم لكل مملوك بثلاثة أشرفية ثمن البعلبكى ، وانفض المجلس على ذلك وخمدت تلك الفتنة .

وفى يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك سابع عشر بشنس ، وكان الوقت فى تلك الأيام رطبا والبرد موجودا .

ومن الوقائع أن الأمير قرقماس المقرى كان قد سرق له من داره عملة بنحو ألف دينار فاتهم بها الجيران أضعاف ما سرق له ، وقد تقدم القول على ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك أن الذى سرق العملة مملوكه وهرب وسافر الى الحجاز من البحر المالح ، فلما توجه الحجاج الى مكة قبض أمير الحاج على مملوك قرقماس المقرى ووضعه فى الحديد وأحضره صحبته الى القاهرة ، فسلمه الى أستاذه فضربه وقرره ، فاعترف أنه هو الذى سرق الذهب ، وقد تصرف فى غالبه وهو بمكة وفتك هناك وقد بقى معه البعض من المال . فلما بلغ الجيران ذلك طلعوا الى السلطان وشكوه بقصة فيما فعل بهم ، فطلبه ، فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام وسبه وألزمه بأن يرضى الجيران فيما تكلفوه من الغرامة بسبب ذلك ، فلما نزل أرضاهم فى جميع ما تكلفوا من الغرامة فعد ذلك من النوادر ، واستمر قرقماس المقرى ممقوتا عند السلطان ، وكان غير محمود السيرة .

ومن الحوادث أن شخصا يقال له تقى الدين بن الرومى أحد نواب الحنفية ، قيل عنه انه وقع فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بكلمات غير مشكورة ، فضبط عليه ذلك جماعة كثيرة ممن كان حاضرا فبلغ السلطان ذلك .



وفى صفر طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما اجتمعوا بين يدى السلطان قال لهم : احصوا عن أمر ابن الرومى فيما قيل عنه

ثم راجعونى فيما يثبت عليـــه ، وكان ابن الرومى قـــد اختفى بســـبب ذلك ، فانفض المجلس من قدام السلطان على احضار ابن الرومى ، واستمر فى طلب من السلطان حثيث وأمره فى ذلك الى الله .

وفيه خلع الســـلطان على الشـــهابى أحمد بن الجيعان وقرره فى اســـــتيفاء الجيش والتكلم فى الخزانة الشريفة عوضا عن عمه صلاح الدين بحكم وفاته ، وأشركوا معه أولاد عمه صـــلاح الدين فى الوظيفة ، فتضاعفت عظمة الشهابى أحمد وصـــار بيده هذه الوظائف مضافا لما بيده من نيابة كتـــابة السر ، وكان كاتب السر البدرى محمود بن أجا حصـــل له عارض فى جســـده وانقطع فى داره عن الركوب نحوا من عشرة أشهر ، وصار التكلم فى هذه المدة للشهابى أحمد وصـــار هو كاتب السر لا محالة واجتمعت فيه الكلمة وكان أهلا لذلك .

وفى يوم الاثنين خامســـه خلع الســـلطان على الجمالى يوسف البدرى وقرره فى الوزارة عوضـــا عن تغرى برمش بحكم انفصاله عنها ، واســـتمر شرف الدين الصغير على حاله فى نظر الدولة .

وفى ذلك اليـــوم خلع الســـلطان على مملوكه كرتباى الذى كان كاشف الشرقية وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن قانصوه أبى سنة بحكم انفصاله عنها ، وصار قانصوه أبو ســـنة من جملة الأمراء المقدمين وجلس معهم وبقى مقدم ألف ، ورتب له فى نظر الاقطاع شيئا من الذخيرة .

وفى ذلك اليوم قبض على شخص من غلمـــان الأمير أقبردى الدوادار ، وكان مطلوبا بما يقال عنه انه عنده سروج مغرق وكنابيش للأمير أقبردى ، فقبضوا عليه من المحلة وأحضروه فى الحديد ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشىء فرسم بتوسيطه فوسطوه .

وفى يوم السبت تاسعه ابتدأ السلطان بضرب الكرة فى الميـــدان ، ففى ذلك اليوم تقنطر من على الفرس الأمير نوروز أخو يشبك الدوادار أحـــد المقدمين ، فأغمى عليه وتشوش لذلك ونزل الى داره وهو محمول .

وفى حادى عشره كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبابى وكانت ليـــلة حافلة ، ونصب فى الجزيرة التى تجاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق السلطان على جماعة مخصوصة من الخاصكية الأعيان ، ممن كان يرمى بالنشاب على الخيل فى الميدان ويلعب الرمح ، لكل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، وأعطى لجماعة منهم ستة آلاف درهم ، ولم ينفق لبقية المماليك شيئا ، فبلغت هذه النفقة اليسيرة نحوا من أربعين ألف دينار ، وقد تأثرت بقية المماليك لذلك ولكن لم يلتفت السلطان اليهم .

وفيه تغير خاطر السلطان على مهتار الطشتخاناه محمد ومنعه من الطلوع الى القلعة وأقام بداره أياما وهو مختف ، فتكلم له مع السلطان الأمير طومان باى وباس رجله بسبب ذلك حتى رضى عليه ، ولكن قيل انه أورد للخزائن الشريفة خمسة آلاف دينار حتى رضى عليه وأعاده كما كان وخلع عليه ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على المهتار محمد أن شخصا شابا يقال له محمد بن سعيدة كان قد تحشر فى السلطان وصار يتقرب اليه بمرافعة الناس ، فرافع فى محمد المهتار وجماعة آخرين من خواص السلطان فوزع عليهم مالا له صورة بسبب ذلك .

وفيه عين السلطان معين الدين ابن شمس نائب كاتب السر بأن يتوجه قاصدا الى ملك الهند ، ثم بطل سفره الى بلاد الهند ، وكان غير مقبول الشكل يشبه وجه المصاصة العتيقة ، وقبض عليه السلطان

عقيب ذلك وسجنه بالعرقانة وقد وشى به عند السلطان بأنه يدعو عليه ويقصد زواله .

وفيه حضر قاصد الملك محمود شاه صاحب كنباية ، وآخرين من ملوك الهند ، وعلى أيديهم مثالات للسلطان تتضمن سرعة تجهيز تجريدة الى جهات الهند بسبب تعبث الفرنج هناك ، وقد تزايد أمرهم وطمعوا فى أخذ البلاد ؛ من حين كسروا حسين الذى أرسله السلطان باش التجريدة التى أرسلها الى هناك .

وفيه فى سلخه خلع السلطان على الشيخ حسام الدين محمود بن قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى عوضا عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر السلطان عليه ، وقد تقدم للبدرى محمود هذا أنه ولى قضاء الحنفية بحلب فيما بعد وأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* * *

وفى ربيع الأول — فى يوم مستهله — خلع السلطان على قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر ابن النقيب ، وقرره فى قضاء الشافعية عوضا عن بدر الدين المكينى بحكم صرفه عنها فكانت مدة ولاية بدر الدين المكينى فى وظيفة قضاء الشافعية شهرين وأربعة عشر يوما ، وقد سعى فيها بثلاثة آلاف دينار وأقام فيها هذه المدة اليسيرة وعزل عنها والناس غير راضية عنه ، كما يقال :

تولاها وليس له عدو   وفارقها وليس له صديق

وكان فى هذه الولاية فى غاية العكس ومنعه السلطان ألا يخطب به فى مدة ولايته ، وقد سعى عليه ابن النقيب بمال حتى عزله وتولى ، وهذه رابع ولاية وقعت لابن النقيب فى قضاء الشافعية بمصر ، وقد نفد منه فى هذه الأربع ولايات نحو من سبعة وعشرين ألف دينار وهو غير مشكور ، وكان عزله عن قريب فى هذه الولاية .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الشهابى أحمد بن الجيعان وأعاده الى نيابة كتابة السر عوضا عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر السلطان عليه ، ومما قلته فيه من المديح :

وكم حاز الأكابر من ثناء   به حمدوا ولكن أنت أحمد

ففقت على بنى الجيعان قدرا   وسعدك فى الورى قد صار أسعد

وتعينت وكالة بيت المال الى شمس الدين بن عوض .

وفيه عين السلطان تجريدة الى الجون وكتب بها نحوا من مائتى مملوك وأنفق عليهم ، وعين الأمير محمد بيك قريبه باشا على ذلك العسكر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن جماعة من عسكر الصوفى طرقوا أطراف ضياع البيرة ونهبوا أغنام جماعة من الأكراد ، فلما بلغ نائب البيرة ذلك ركب واتقع معهم ثم خمدت هذه الاشاعة .

وفى يوم الاثنين عاشره وصل الأمير علان الدوادار الثانى الذى كان السلطان أرسله قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل فى موكب حافل ، وقيل ان ابن عثمان بالغ فى اكرامه وأحسن اليه ، ثم ان السلطان فى عقيب ذلك أنعم على الأمير علان بن قراجا بتقدمة ألف مضافا لما بيده من الدوادارية الثانية .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى وسجنه بالعرقانة ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفى حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان مولدا حافلا ، وحضر ذلك قرقد

بيك بن عثمان وأجلسه السلطان معه على المرتبة وبالغ فى اكرامه ، وحضر القضـاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين .

وفى يوم الخميس ، ثالث عشره ، طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع زيادة عن العام الماضى بعشر أصابع ، وكانت الزيادة فى أول يوم من المناداة خمس أصابع .

وفى هذا الشـهر ارتفع سعر البصل حتى بلغ سعر كل قنطار اثنين وعشرين نصفا ولا يوجد ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ، سابع عشره ، خـرج الأمير تمرباى الهندى أحد الأمراء العشراوات ، وقد عينه السلطان قاصدا الى اسماعيل شاه الصوفى متملك العراق ، فخرج مسـافرا فى ذلك اليوم وكان له موكب حافل .

وفيه خلع السـلطان على قانصوه بن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وعينه أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير نوروز تاجر المماليك وعينه أمير حاج بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان معـين الدين بن شمس الذى تغير خاطره عليه كما تقدم ، فضربه بالمقارع بين يديه نحـوا من مائة شيبب حتى أشرف على الموت ، وقد أخذ بخطيئة كاتب السر بدر الدين بن مزهر فانه كان متوليا عقابه فعذبه بأنواع العذاب ولم يرث له فيما جرى عليه ، فما عن قريب حتى أذاقه الله تعالى طعم العذاب ، فكان كما يقال :

جرع كأسا كان يسقى بها
والمـرء مجـزى بأعماله
ظن بأن الدهر يصفى له
فخيبت من ذاك آمالـه

وفى رابع عشره خرج الأمير محمد بيك الذى تعين الى نحو الجون بسبب قطع الأخشاب لأجل عمارة المراكب المعينة الى تجريدة الهند ، فخرج فى موكب حافل ، وكان ذلك آخر سعده .

وفيه خرج الطواشى بشير رأس نوبة السقاة وقد عينه السلطان بأن يتوجه الى بلاد الهند ، وقد كاتب السلطان جماعة من ملوك الهند بأن يكونوا مع السلطان عونة على قتال الفرنج الذين صاروا يتعبثون بسواحل بلاد الهند وقد كثر منهم الفساد هناك ، وبلغت عدة المراكب التى يعبثون بها فى السواحل نحوا من خمسين مركبا ، والأمر الى الله فى ذلك .

وفيه تغير خاطر السـلطان على شرف الدين النابلسى الأستادار بسبب انشـحات الجامكية ، فبطحه بين يديه وضربه نحوا من مائة عصا .

وفيه تغير خاطر السلطان على محمد بن سعيدة المقدم ذكره الذى كان عوانيا عند السلطان وينقل له أخبار الناس ، وكان حظى عنده بحيث أنه كان يجلس معه على المرتبة ويلعب معه الشـطرنج ، واشتهر بين النـاس بالمرافعة ، وهو الذى سعى لقاضى القضاة محيى الدين ابن النقيب فى عوده الى القضاء ، ثم وقع بينه وبين محمد بن سعيدة فطلع ابن النقيب وشكاه الى السلطان بأنه سبه وشتمه ، فحنق السلطان من محمد بن سعيدة وكان قد طاش فى تلك الأيام الى الغاية ، وعادى الناس بسبب مرافعته لهم ، وكثر الكلام فى حق السلطان بسببه ــ فانه كان جميل الصورة ــ فلما تغير خاطر السلطان عليه طلبه وبطحه بين يديه وضربه ضربا مبرحا ورسم بنفيه الى الواح فنفى ، فكان كما يقال فى المعنى :

اياك أن تفرط فى حق من
يعرف بالجود فقـد يحنق
ولا تقـل ذا حلمه واسع
فالمـاء ان أسخنته يحرق

وفيه تسحب من البرج الذى بالقلعة أربعة أنفار منهم شيخ العرب ابن مهنا وآخرون من العربان ، فلما تسحبوا قبض شيخ العرب ابن بغداد على ابن مهنا الذى تسحب من البرج ، فقطع رأسه ورأس آخرين ممن تسحب معه وأرسل بهم الى السلطان .

***

وفى ربيع الآخر كان ختم ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء ومد لهم أسمطة حافلة وجلس فى المقعد الذى أنشأه بالميدان عن قريب .

وفى يوم الخميس رابعه طلع قرقد بيك بن عثمان الى القلعة واستأذن السلطان فى عوده الى بلاده فأذن له فى ذلك ، وخلع عليه خلعة سنية وهى منسوجة بالذهب شغل القاعة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأتابكى قرقماس وبقية الأمراء المقدمين وجماعة من الرءوس النوب ، فاستمروا معه الى بولاق فقدموا له الحراقة التى يكسر فيها السلطان السد ، وجهز معه عدة مراكب فيها زوادة برسم الاقامات ، وأرسل معه السلطان أزدمر المهمندار ونانق الخازن وغير ذلك من غلمان السلطان يستمرون فى خدمته حتى يصل الى رشيد . وقدبالغ السلطان فى اكرام قرقد بن عثمان هذا ووقع له معه أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك السالفة فيما تقدم ، ولا وقع قبل ذلك للقان أحمد ابن أويس صاحب بغداد لما حضر الى مصر فى دولة الظاهر برقوق لما حضر بسبب تمرلنك فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، فما فعل الظاهر برقوق معه كما فعل الأشرف قانصوه الغورى مع قرقد بيك ابن عثمان ، ولا بالغ فى اكرامه مثله ، فانه رتب له فى كل شهر ألفى دينار بسبب نفقته ، وكان كلما طلع اليه يلبسه سلارى بسمور من ملابسه قيمته مائتا دينار ، ويركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وذلك غير ما يرسل اليه من الانعامات وغير ذلك ، وكان يقوم له كلما طلع اليه ويجلسه فوق أمير كبير معه على المرتبة ، وقد بالغ فى اكرامه جدا ، وكذلك الأمراء المقدمون أرسلوا اليه تقادم حافلة له ولجماعته ، فما خرج من مصر الا شاكرا ناشرا ، كما يقال فى المعنى :

طوقتنى نعما فها أنا ساجع
شكرا ولا عجب لسجع مطوق

وفيه خرج الأتابكى قرقماس الى السرحة نحو الشرقية والغربية .

وفيه حضر أمير عربان الوجه القبلى عمر من أولاد ابن عمر أمير هوارة ، فأقام فى الترسيم ببيت الأمير الدوادار الكبير ، وقد قرر عليه السلطان مالا له صورة .

وفيه غيب المعلم خضر أحد معاملى اللحم ، وقد قرر عليه السلطان مالا فما أقام به وفر خوفا من السلطان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة جان بردى الغزالى نائب صفد ، وقد حضر بطلب من السلطان ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان وأقام بمصر أياما .

وفيه توفى الشرفى يحيى الرشيدى خطيب جامع الأزبكية ، وكان من أهل الفضل ماهرا فى الخطب .

وفيه حضر الى السلطان فيل من بلاد الزنج ، وكان صغيرا قدر الجاموسة ، عمره نحو من سنة ، فلما طلع الى السلطان رجت له القاهرة ، وكانت الأفيال قد انقطعت من مصر نحوا من أربعين سنة حتى نسى بين الناس هيئته فصاروا يعجبون منه ، ثم بعد مدة حضر فيل آخر وقد أشيع بين الناس وصوله عن قريب ، ومما وقع لابن المعتز فى تشبيه الفيل وأجاد بقوله :

كأنما الفيل الذى يبـدو تعجبنا به

ليل قد افترس النهار فبان فى أنيابه

وفيه وقعت نادرة غريبـة ، وهى أن ثلاثة من المماليك قد خطفوا نسوة من طريق المقس كانوا مع مودنات كعادة النساء فى الأعراس ، فلما قبضوا عليهن خلصت منهن واحدة وتوجهوا بالبقية الى اسطبلاتهم ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب وهجم على أولئك المماليك وقبض عليهم أجمعين ، فلما عرضوا على السـلطان ضرب المـماليك ضربا مبرحا حتى كادوا يهلكون ورسم بسجنهم فى المقشرة ، وكان عرضهم يوم الجامكية فرسم السـلطان لـكاتب المماليك أن يدفع جامكية المماليك الى تلك النسوة فى نظير ما شوش عليهن المـماليك ، فدفعوا لكل امرأة ألفى درهم ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى يوم الثلاثاء سلخه وقعت طبقة الحوش ، فقتل تحت الردم خمسة من المماليك وتعطب آخرون منهم ، وكانت حادثة مهولة .

* * *

وفى جمادى الأولى فى ثانيه قرأ السلطان ختمة فى المقياس ، ومد هناك أسـمطة حافلة ، وحضر القضاة وأعيـان الناس ، وسبب ذلك أن البحـر سلسل فى الزيادة وقد مضى من مسرى ستة عشر يوما ولم يف ، فلما توجه القضـاة الى هناك زاد النيل تلك الليلة ثمانى أصابع ، ثم فى الليلة الثانية زاد خمس عشرة أصبعا ، واستمرت الزيادة عمالة حتى أوفى فى العشرين من مسرى ، وفتح السد فى الحادى والعشرين من مسرى الموافق لثامن جمادى الأولى ، وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى سبعة أيام ، فلما أوفى توجـه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وكان هذا آخر فتح الأتابكى قرقماس للسـد ، وقد مات فى أواخر هذه السنة كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأحد ثانى عشره توفى قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المكينى ، وكان عالما فاضلا رئيسـا حشما تولى مشـيخة الخشـابية والشريفية ، ثم سعى فى قضاية القضاة بثلاثة آلاف دينار فأقام بها شهرين وأربعـة عشر يوما وسعى عليه محيى الدين بن النقيب فعزل ، فلمـا عزل حصل له غاية القهر فاعتل ومات ، فكان بين عزله وموته شهران واثنا عشر يوما فمات قهرا لا محالة ، وكان له من العمر نحـو من ستين سنة ، فجاءه القضاء الأكبر وفاته القضاء الأصغر ، كما قيل :

حضيت عزمى شوقا اليكم ... فـلم أطـق مكثة بأرض

وجئت لـم أحـظ بالتلاقى ... فغـايتى أن ألـوم حضى

وفى يوم الجمعة ، سابع عشره ، طلب السلطان قاضى القضـاة كمال الدين الطويل وخلع عليـه وأعاده الى قضاء الشافعية كما كان ، وعزل عنها محيى الدين بن النقيب فـكانت مدته فى هـذه الولاية شهرين وستة عشر يوما ، ونفد منه مال له صورة على هذه المدة اليسيرة ، فكان كما يقال :

لم أستتم عنـاقه لقدومه ... حتى ابتدأت عناقه لوداعه

ثم وكل به السلطان وبعثه الى بيت ناظر الخاص وقد بقى عليه ألف دينار من بقية ما سعى به فلم يتركها له السلطان ، فلم يرث له أحد من الناس فيما جرى عليه ، ولم ينطل على أحد منهم ، وقد تعصبت الأمراء قاطبة لقاضى القضاة كمال الدين حتى أن بعض الأمراء لم يصل بالقلعة فى مدة ولاية ابن النقيب ولم ينطل على أحد منهم . فلما كان يوم الجمعة المذكور طلب السلطان قاضى القضاة كمال الدين وهو بالميدان فخلع عليه هنـاك ،

وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وزينت له الدكاكين بالشموع والأمتعة الفاخرة ولاقته المغانى والطبل والزمر وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، واستمر فى هذا الموكب الحافل حتى وصل الى الخانقاه البيبرسية . فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم طلع وخطب بالسلطان خطبة بليغة فى معنى عوده الى القضاء ، وقرأ فى المحراب « هذه بضاعتنا ردت الينا » . فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه ثانيا وأشيع أنه قرر فى مشيخة الخشابية والشريفية عوضا عن بدر الدين المكينى ، وقد صار بيده مشيخة الخانقاه البيبرسية ومشيخة الخشابية والشريفية مع قضاية القضاة وهذا لم يتفق لغيره من القضاة ، بل وقع لابن حجر والقاياتى أنهما جمعا بين قضاية القضاة وبين مشيخة الخانقاه البيبرسية وهذا عزيز الوقوع جدا ، وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين سعى فى قضاية القضاة ومشيخة الخشابية والشريفية بخمسة آلاف دينار ، وكانت مشيخة الخانقاه البيبرسية بيده من قبل ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشره رسم السلطان للزينى بركات بن موسى بأن يتسلم جماعة كانوا فى الترسيم بسبب ما قرر عليهم من المال فتراقدوا عن ايراد ذلك ، فرسم لابن موسى بأن يتسلمهم ويعاقبهم على استخراج الأموال ، فتسلم بهاء الدين مباشر قانصوه خمسمائة وكان له نحو من ست سنين وهو فى الترسيم ، وتسلم معين الدين ابن شمس الذى كان وكيل السلطان ، وتسلم علم الدين الذى كان يتحدث فى الحزانة ، ومحمد ابن فخر الدين كاتب المماليك وقاضيا حنفيا من قضاة الشام ، فلما تسلمهم ابن موسى أقاموا عنده أياما ولم يردوا شيئا من المال فشاور عليهم السلطان فرسم للوالى بأن يتسلم بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين وقاضى الشام وشفع فى محمد بن فخر الدين كاتب المماليك ، فلما تسلمهم الوالى عاقب بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين أشد العقوبة وبعث بهم الى المقشرة ، وكان من أمرهم ما سنذكره فى موضعه

وفى هذا الشهر كثرت مصادرات السلطان للمباشرين ، حتى انه صادر عرب اليسار الذين يسكنون تحت القلعة وقرر عليهم مالا له صورة ، وقال لهم : « انتو عملتو كيمان تراب تحت القلعة من عفشكم ما يشتال ولا بعشرة آلاف دينار » ، وجعل ذلك حجة عليهم .

وفيه توفى تغرى بردى السيفى يونس الدوادار ، وكان أمير آخور ثالث وأحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الفرنج قد ملكوا مدينة طرابلس الغرب ، وهذه المدينة من أجل مداين الغرب وهى مدينة عاصية ولولا أن الفرنج تحايلوا على أخذها لما قدروا على ذلك ، وقد أحاطوا بها برا وبحرا فوقع بين الفريقين واقعة عظيمة وقتل من المسلمين نحو من أربعين ألف انسان ، وكانت هذه الحادثة من معظم الحوادث المهولة ، وقد جاءها الفرنج من البحر فى مائة مركب ، ومن المراكب طلعوا الى البر ووقع بينهما القتال حتى ملكوها ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية وكذلك الناس قاطبة

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات أمير مكة قبض على ثلاثة أنفار من الفرنج دخلوا الى مكة وهم فى زى الأروام ، فلما قبض عليهم وجدهم بغير ختان فتحقق أنهم فرنج وأنهم دواسيس من عند بعض ملوك الفرنج ، فقبض عليهم ووضعهم فى الحديد ، وبعث بهم الى السلطان .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب البيرة بأنه

قبض على جماعة من عند اسمعيل الصوفى وعلى أيديهم كتب من عند الصوفى الى بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونة على سلطان مصر ، وأنهم يجوا إلى مصر من البحر ويجى هو من البر ، فقبض نائب البيرة عليهم وبعث بهم الى السلطان .

وفيه جاءت الأخبار بأن صاحب تلمسان من بلاد الغرب قد انتصر على الفرنج الذين كانوا قد أخذوا مدينة طرابلس الغرب وطردهم عنها ، وكانت النصرة للمسلمين عليهم ، فسر السلطان والناس قاطبة لهذا الخبر .

* * *

وفى جمادى الآخرة حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان مسافرا الى جهة الصعيد وصحبته خاير بيك كاشف الوجه الغربى أحد المقدمين ، وكان طومان باى الدوادار له نحو من خمسة أشهر وهو مسافر فى الصعيد ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان وعلى الأمير خاير بيك ونزلا فى موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بيك بن رمضان أمير التركمان ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفى يوم الأربعاء سادسه انتهى العمل من مكاحل سبكها السلطان ، فرسم بنقلها الى نحو تربة العادل التى بالريدانية ، فسحبوها على العجل وكانوا نحوا من خمس عشرة مكحلة فقاسوا فى نقلها ما لا خير فيه ، وقتل فى ذلك اليوم شخص من العتالين يقال له المقدم خطاب وتعطب منهم جماعة آخرون من النجارين ، وكان يوما مهولا .

وفى يوم الأحد عاشره جاءت الأخبار من عند نائب طرابلس بأن الفرنج خرجوا على الأمير محمد بيك قريب السلطان الذى كان قد توجه إلى الجون بسبب احضار الأخشاب ، فخرج عليه طائفة من الفرنج بالقرب من ساحل قلعة اياس ، فتحارب معهم الأمير محمد بنفسه وقد فر عنه من كان معه من العسكر ، فقتل ، وقتل من كان معه من الجند ، وأخذوا ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب وكانت نحوا من ثمانية عشر مركبا ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية وامتنع عن الأكل يومين ، وقد تزايد شر الفرنج فى هذه السنة وكثر تعبثهم بالناس فى البحر الرومى والبحر الهندى والأمر الى الله تعالى ، وقد ارتج الأمر على السلطان فى هذا الشهر من جهات عديدة واضطربت أحواله جدا ، فكان كما يقال فى المعنى :

لا تجزعن فبعد العسر تيسير
وكل شيء لـه وقت وتدبير
وللمهيمن فى أحوالنا نظر
وفوق تدبيرنا لله تدبير

وفى يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان الى نحو تربة العادل التى بالريدانية وجربوا قدامه تلك المكاحل التى سبكها كما تقدم ، فلما أطلقوا فيهم البارود تفرقعوا أجمعين وبقى نحاسهم طاير مع الهوا ولم تصح منهم واحدة ، وكانوا نحوا من خمس عشرة مكحلة ، فتزايد نكد السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية ورجع الى القلعة سريعا ، وكان عول على أن يمد هناك أسمطة للأمراء وينشرح فى ذلك اليوم فلم يتم ذلك .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على الرهبان الذين بالقيامة التى بالقدس ، وكذلك قبض على سائر الفرنج الذين بالاسكندرية ودمياط وغير ذلك من السواحل ، وهذا بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد وأخذوا مراكب السلطان .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على جان بردى الغزالى ، وأقره فى نيابة صفد على عادته وأضاف اليه نيابة الكرك أيضا ، فخرج اليها من يومه وتوجه نحوها ، وخلع على « قانصوه روح

لو » أحد الأمراء المقدمين ورسم له بأن يتوجه الى قطيا ويقيم بها دائما خوفا من الفرنج أن يهجموا على من بالطينة ، وجعل « قانصوه روح لو » باشا على العسكر الذى بالقلعة التى أنشأها السلطان بالطينة ، وأنعم عليه بخراج قطيا ما دام هناك وعين معه جماعة من المماليك السلطانية .

ومن العجائب أن « قانصوه روح لو » الذى ولى نيابة قطية كان قبـل ذلك نائب غزة ، فلما تسلطن العادل قرره فى نيابة حلب وأرسـل اليها متسلمه فلم يتم له ذلك ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم آل أمره الى أن بقى نائب قطية وهذه سفلى درجة الى الغاية ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفيه خلع السلطان على عمر من أولاد ابن عمر أمير عربان هوارة وأقره على عادته فى امرة هوارة . وخلع على شخص من أولاد ابن رمضان وأقره أميرا للتركمان عوضا عن خليل بيك المقدم ذكر وفاته ، وخلع على الشيخ أبى بكر الجيوسى وقرره فى مشيخة جبل نابلس .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يتوجه الى ثغر الاسكندرية ليتفقد الأبراج التى هناك خوفا من طروق الافـرنج لثغر الاسكندرية ، فنـزل الى الميدان وعرض مماليكه وفرق عليهم عدة خيول وبغال وسلاح من سيوف وزرديات وغير ذلك ، وأخذ فى أسباب عمل يرق ثقيل وأشيع سفره بين الناس حقيقا .

وفيه جاءت الأخبار بأن وقع باسطنبول زلزلة مهولة حتى رمت المآذن وخربت عدة أماكن وهلك بسببها من الناس ما لا يحصى ، وهذه كرسى مملكة ابن عثمان ، وكانت حادثة عظيمة .

وفيه ثارت رياح عاصفة وأمطرت السماء مطرا غزيرا وقام الرعد والبرق ، وكان ذلك فى أواخر توت والنيل فى قوة الزيادة ، حتى عـد ذلك من النوادر .

وفيه قام الأتابكى قرقماس على السلطان ومنعه من السفر الى ثغر الاسكندرية وقبل له الأرض عدة مرار ، وقال له ان الطرقات وحل من ماء النيل وسلوك البر صعب فى هذه الأيام ، وكان يقصد السفر من البر فبطل ذلك .

وفيه نُت النيل المبارك على احـدى وعشرين أصبعا من ثمانى عشرة ذراعا وانهبط فى أواخر توت ولم يثبت ، وكان نيلا شحيحا فشرق غالب البلاد ولولا لطف الله تعالى لوقع غلاء عظيم ، وكان عند جماعة الأقباط عادة أن فى ليلة عيد ميكائيل صبحة نزول النقطة يزنون الطينة وعـددوها على ستة عشرة قيراطا فمهما زادت عن القـراريط يكون بقدرها أذرع فى زيادة النيل ، فوزنوها فى هذه السنة وجاءت قريب عشرين قيراطا ، فتفاءل الناس بأن النيل يبلغ فى هـذه السنة عشرين ذراعا فلم يكن ذلك ، وهذه القاعدة قط ما أخرمت عنـد القبط سوى هذه السنة ، فعد ذلك من النوادر . وكذلك البئر التى فى منيل أبى شـعرة بنواحى البهنسـا ، قيل ان فى ليلة الخامس والعشرين من بشنس يطف ماء تلك البئر فى الليل ، فمهما تغطى من الدرج التى فى تلك البئر يكون فألا للنيل ، فطف ماؤها وغطى نحوا من عشرين درجة من درج البئر ، فتفاءل الناس بأن النيل يبلغ فى هذه السنة نحـوا من عشرين ذراعا فلم يكن ذلك وأخرمت هذه القاعدة أيضا . وقيل ان امرأة صالحة رأت فى المنام أن ملكين نزلا من السماء وتوجهـا الى البحر فرفسه أحدهما برجله فانهبط سريعا ، ثم قال أحدهما الى الآخر : « ان الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد الى عشرين ذراعا فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو فى ثمانى عشرة ذراعا »

فلما انتبهت من المنام انهبط النيل فى تلك الليلة دفعة واحدة .

وفيــه توفى جانم الابراهيمى أحــد الأمــراء الطبلخانات وكان مسرفا على نفسه ، مات قتيلا . وقد وقع من مكان عال وهو سكران فمات لوقته .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من العربان المفسدين يقال له عمر بن موسى النفعى من عربان ثعلبة ، وكان من شجعان العرب .

وفيه نزل السلطان الى عنــد قبة الهــوى التى تحت القلعة وجربوا قدامه مكاحل ، وأقام هناك الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة .

* * *

وفى رجب خرج الأتابكى قرقماس وتوجه الى ثغر الاسكندرية وصحبته الأمير علان الدوادار الثانى ، وكان سبب ذلك أن السلطان لما قصد أن يسافر الى الاسكندرية ليكشف على الأبراج التى هنــاك ويصلح ما فسد منها فقــال له الأتابكى قرقماس أنا أســافر وأكشف عن ذلك عوضا عن السلطان ، فسافر بسبب ذلك .

وفيه توفى بهاء الدين مباشر قانصوه خمسمائة ، مات وهو بالمقشرة وقاسى شــدائد ومحنا ، وأقام فى الترسيم نحوا من ست ســنين ، وآخر الأمر سلمه السلطان للوالى فعاقبه الى أن مات .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن الأمير برد بيك صهر الملك الأشرف اينال ، وكان لا بأس به .

وفيه طلع الى السلطان شخص من أبناء الناس يقال له يونس بن سودون الفقيه ، وكان ساكنا بالقرب من زقاق حلب على بركة الفيل ، فأنشأ عنده جنينة وزرع فيها شجرة جوز شامى فنتجت وطلع فيها الجوز بعد ثلاثين ســنة حتى طرحت ، فجمع من ذلك الجوز ستين جوزة وطلع بها الى السلطان فابتهج بها ولم يصدق بأن هذا الجوز يطرح بمصر ، فكشف عن حقيقة ذلك حتى ظهر له مصداق ذلك ، فأنعم على يونس المذكور بعشرة دنانير وبالغ فى اكرامه .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة رهبان القيامة التى بالقدس ، كان السلطان أرسل خلفهم بسبب الفرنج الذين قتــلوا الأمير محمــد بيك قريب السلطان ونهبوا ما فى المراكب التى جهزها السلطان صحبته ، فلما وقفوا بين يدى الســلطان وبخهم بالكلام على لسان تغرى بردى الترجمان ، وقال لهم : « كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذه الفرنج من المراكب والسلاح وان لم يردوا ذلك هدمت القيامة وأشنق الرهبان » ، فتسلمهم ناظر الخاص على ما يحرر من أمرهم ، وكانوا نحوا من عشرين راهبــا . وفى عقيب ذلك قبــض نائب الاسكندرية على جماعة من تجار الفرنج الذين كانوا بثغر الاسكندرية وبعث بهم الى السلطان ، وكانوا نحوا من خمسين انسانا .

وفيه توفى القاضى تقى الدين محمــد بن بدر الدين محمد الزجاجى أحد نواب الحنفية ، وكان فاضلا رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأسواق وحصل للناس وقوف حال بسبب ذلك وتعطلت الأسباب عن البيع والشراء ، واستمرت تمطر ثلاثة أيام متوالية حتى انخسف غالب القبور التى بالصحراء ، وكان ذلك فى أوائل هاتور .

وفيه توفيت زوجة الأتابكى قانم التــاجر ، وكانت جركســية ، وكانت فى ســعة من المال ، فاحتاط السلطان على موجودها قاطبة .

وفيــه خلع السلطان على مهتاره محمد مهتار الطشتخاناه وأعاده على ما كان عليه ، وكان تغير خاطره عليه وصادره كما تقدم ذكر ذلك ، فشفع

فيـه الأمـير طومان باى الدوادار وباس رجل السلطان بسبب ذلك حتى رضي عليه .

وفيه عين السلطان الأمير آقباى الطويل أمير آخور ثانى بأن يتوجه الى القدس ويحتاط على مال الفرنج الذى فى القيامة ، فخرج وسافر من يومه .

وفيه حضر يونس العادلى وكان السلطان أرسله الى بلاد ابن عثمان ليشترى له أخشابا وحديدا وبارودا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذى كان مع يونس العادلى وقال : « أنا أجهـز من عندى زردخاناه للسلطان » ، فحضرت فيما بعد .

وفيه خلع السلطان على آقبارى كاشف الشرقية وأعاده الى كشف الشرقية عوضا عن كرتباى الذى كان بها ، وخلع على يخشـباى قرا أخى الوالى وقرره فى شادية الشون عوضا عن تانى بيك الأبح بحكم صرفه عنها ، وأشرك معه فى الشادية شخصا من الأمراء العشراوات يقال له خشقدم .

وفيـه حضر الأتابكى قرقماس والأمير علان الدوادار الثـانى وكانا قـد توجهـا الى ثغـر الاسـكندرية ، بسبب الكشف على الأبراج التى هناك ، فخلع عليهما السلطان ونزلا من القلعة فى موكب حافل .

* * *

وفى شـعبان قلع السـلطان البيـاض ولبس الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .

وفى ليلة الجمعة ثانى عشره كان دخول الأمير أنصباى حاجب الحجاب على إبنة الأشرف قانصوه خمسمائة ، فكانت له زفة حافلة مشى فيها الأتابكى قرقماس وبقيـة الأمراء المقدمين وهم بالشـاش والقماش وبأيديهم الشموع الموقدة ، وشق من الصليبة فى هذا الموكب الحافل حتى دخل الى قاعة الفرح ببيت يشبك الدوادار الذى بخدرة البقر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره نزل السـلطان وتوجه الى نحو المطرية عند تربة العادل ، وكان المعلم حسن بن الصياد المهندس خط له بالجبس فى الأرض صـفة مدينة ثغـر الاسكندرية وعدد أبراجها وأبوابها وهيئة سورها والمنار التى كان بها وقدر عرضها وطولها ، فنزل السلطان بسبب ذلك حتى تأملها وتفرج عليها ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى هذا الشهر كثرت الأمراض بالناس وحدث لهم السعال وذات صدر حتى صاروا يتساقطون على بعضهم ، ولكن كان الغالب فيه السلامة .

وفيه توفى القاضى نور الدين على الدمياطى أحـد نواب الحنفية ، وكان لا بأس به ، وقاسى شدائد ومحنا ، وصودر وأخذ منه مال له صورة .

* * *

وفى رمضـان فى يوم مسـتهله عرض الوزير الجمالى يوسف البـدرى اللحم والخبز والسكر والدقيق والغنم ، فطلع بذلك وهو مزفوف على رءوس الحمالين ، وكان السلطان فى الميدان فخلع عليه وعلى الزينى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة .

وفى يوم الأربعاء عاشره توفى القاضى ابراهيم بن البـابا المعروف بالشرابيشى ناظـر الذخـيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وكان رئيسـا حشما لين الجـانب ، ومات وهو فى عشر الثمانين وزيادة ، وكان لا بأس به ، فلمـا توفى خـلع السلطان على ولده الشمسى شمس الدين محمد وقرره فى تلك الجهات كما كان والده .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره توفى القاضى كمال الدين محمد بن القاضى خير الدين الشنشى أحد نواب الحنفية ، وكان رئيسـا حشما لا بأس به .

وفى ليلة الثلاثاء ثالث عشرينه كانت وفاة الأتابكى قرقماس بن ولى الدين أتابك العساكر بالديار المصرية ، فرجت لموته القاهرة ، وكانت جنازته مشهودة ومشى فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ، وكذلك أعيان المباشرين ومشاهير الناس بحيث لم يتأخر منهم أحد ، وكانت جنازته حافلة وأخرجوا قدامه كفارة ما بين خبز وتمر وغنم ، فلما وصلوا به الى مدرسة السلطان حسن نهب العوام تلك الكفارة عن آخرها ، ثم نثروا على نعشه الفضة فى عدة أماكن ، وكثر عليه الحزن والبكاء من الناس فانه كان لين الجانب وعنده تواضع ، فلما وصل الى سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وهو راكب وأتى الى سبيل المؤمنين فنزل عن فرسه ودخل المصلاة ، فلما وضعوا نعشه بين يديه قبله وهو فى النعش وبكى عليه بكاء كثيرا ، فلما صلوا عليه حمل نعشه ومشى به خطوات حتى أخذه منه الأمراء وتوجهوا به وهم قدامه مشاة الى تربته التى أنشأها بالصحراء ، بجوار تربة الأشرف اينال ، فدفن بها داخل القبة رحمة الله عليه ، وقد رثيته وهو قولى :

يا عين جودى بفيض دمع
وأكثرى فى البكا انتحابيك
على قرقماس قد رزينا
واستوحشت مصر للأتابيك

وكان الأتابكى قرقماس أميرا جليلا مبجلا معظما ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى وأعتقه فهو من معاتيقه ، وولى من الوظائف امرة آخورية الثانية ثم بقى مقدم ألف ثم بقى رأس نوبة النوب وقرر فى نيابة حلب فى دولة الأشرف جان بلاط ولم يتم ذلك ، ثم سجن بقلعة الشام لما توجه مع الأمير طومان باى الدوادار ، فلما تسلطن هناك سجنه مع جملة من سجن من الأمراء بقلعة دمشق ، فلما تسلطن قانصوه الغورى أفرج عنه من سجن قلعة دمشق ، فلما حضر قرره فى امرة السلاح ثم بقى أتابك العساكر بمصر عوضا عن قيت الرجبى لما نفى الى ثغر الاسكندرية سنة عشر وتسعمائة . فأقام فى الأتابكية ست سنين وشهرين الا سبعة أيام ومات وهو فى عشر الستين وزيادة ، وكانت مدة توعكه أربعة أيام ، وخلف أولادا صغارا ما بين ذكور واناث عدتهم أربعة ، وظهر له من الموجود نحو من سبعين ألف دينار خارجا عن بركه ، وأعتق جميع من عنده من مماليك وعبيد وجوار . فلما مات استمرت الأتابكية بعده شاغرة لم يلها أحد من الأمراء ، ورسم السلطان للزينى بركات بن موسى أن يتحدث فى جهات الأتابكية الى أن يليها من يختاره السلطان .

وفيه ، فى ثامن عشرينه ، كان ختم البخارى بالقلعة على العادة وحضر القضاة الأربعة ، ونصب السلطان خيمة كبيرة بالحوش وحضر بين القضاة فى ذلك اليوم ، وخلع على من له عادة من الفقهاء وفرقت الصرر ، وكان ختما حافلا .

وفى تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وطلع بها الى القلعة وهى مزفوفة على رءوس الحمالين .

وفى ليالى العيد اشتد البرد وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ، وجاءت الأخبار من الشرقية والمنوفية بأن قد وقع فى تلك الأيام برد كل واحدة قدر أحد عشر رطلا فقتلت عدة بهائم وتعطب منها أولاد الفلاحين ، وأفسدت بعض الزروع ، وكانت حادثة مهولة .



وفى شوال — فى يوم سابعه — حضر الأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى الذى كان قد توجه الى القدس بسبب القيامة ، وأشيع بين الناس أنه احتاط على ما فى القيامة من مال الفرنج ، وربما يحصل من هذه الحادثة مفسدة كبيرة من قبل الفرنج .

وفى يوم الخميس تاسعه حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى خاير بيك بن ملباى نائب حلب ، وقد حضر ليرى وجه السلطان ويزوره ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان متمر وفوقه فوقانى بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية . ونزل من القلعة فى موكب حافل وتوجه الى بيت الأمير قرقماس الجلب الذى بالتبانة فنزل به . وقد عظمه السلطان الى الغاية وأوكب بالقصر ولبس الأمراء الشاش والقماش بسببه .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه ابن سلطان جركس ، وبالركب الأول نوروز تاجر المماليك أحد الأمراء الطبلخانات وكان لهما بالقاهرة يوم مشهود .

وفيه تغير خاطر السلطان على جماعة من الزردكاشية فقبض على شخص يسمى أحمد بن قراكز ، وعلى شخص يسمى محمود الأعور ، وغيب عبد الكريم بن اللاذنى مستوفى الزردخاناه ، ورسم على عبد الباسط بن تقى الدين الناظر ، فسلمهم السلطان الى الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش ، ووضع أحمد بن قراكز فى الحديد ثم ضربه فيما بعد هو وابنه ، وقد قرر عليهم السلطان عشرة آلاف دينار ، وكان أحمد بن قراكز هذا سببا لمصادرة مغلباى الزردكاش وعبد الباسط الناظر ، وغرموا مالا له صورة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وكان أحمد بن قراكز ما أبقى ممكنا فى مرافعة مغلباى الزردكاش وعبد الباسط الناظر ومباشرى الزردخاناه ويحيى بن يونس أحد الزردكاشية ، وكان حظى عند السلطان بسبب المرافعه وداخله فى أمور شتى ، فما عن قريب حتى تغير خاطر السلطان عليه ورافعه جماعة وأثخنوا جراحاته عند السلطان ، فغضب عليه وسلمه الى الأمير مغلباى الزردكاش فظفر به واشتفى منه ، فكان كما يقال فى المعنى :

قل للعذول يرعوى
وينتهى عن عتبه
ولا يكون فى الهوى
يشمت بى أشمت به

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا من المماليك السلطانية يقال له شاهين ، وهو فى سن الشيخوخة ، قصد الحج فى هذه السنة ، فخرج هو وزوجته الى بركة الحاج ، ثم عرضت له حاجة فى بيته فرجع تحت الليل ، فخرج عليه جماعة من العربان فقتلوه عند سبيل علان ، فحملوه وأتوا به الى داره حتى غسلوه وكفنوه ودفنوه ، فرجعت زوجته من بركة الحاج ولم يقسم لهما الحج فى هذه السنة ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه طلعت الى السلطان تقدمة حافلة من عند نائب حلب وهى أطباق فيها ذهب عين ومماليك جراكسة نحو من ثلاثة وأربعين مملوكا ، ومن الخيول خمسين فرسا منها فرس بسرج بلور وكنبوش ذهب وأنعاله من الذهب ، قيل ان مشتراه

ألف دينار ، وعدة حمالين عليها زردبات وصوق، وسمور ووشق وسنجاب وغير ذلك من الأصناف الفاخرة .

وفيه أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وجعل للمماليك الذين استجدهم طبقة جامكية خامسة فى أواخر الجوامك تصرف لهم على انفرادهم .

وفيه غيب المعلم على الصغير ، وكان السلطان قرر عليه مالا لم يقدر عليه فهرب ، وقرر عوضه المعلم خضر ، وقد تعطل اللحم فى هذه الأيام الى الغاية .

وفيه توعك جسد السلطان وأفصد واحتجب عن الناس ولم يخرج الى صلاة الجمعة ، فكثر القيل والقال بسبب ذلك . واستمر منحجبا أياما فطلع اليه الخليفة المتوكل على الله وعاده ، ثم طلع اليه القضاة الأربعة وعادوه ، ثم بعد أيام شفى وخرج الى صلاة الجمعة وهو راكب ، فخطب قاضى القضاة الشافعى خطبة بليغة مختصرة ، ثم انقضى أمر الصلاة وعاد السلطان الى القبة التى أنشأها الأشرف جان بلاط بجوار الدهيشة فأقام بها .

وفيه توفى قاضى قضاة غزة شمس الدين محمد ابن النحاس الشافعى ، وكان من خواص السلطان ، وكان لطيف الذات عشير الناس رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم فيها زردخاناه للسلطان ، فوصلت الى بولاق عند الرصيف وشرعوا يحولون ما فيها الى القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة ثلاثمائة ، ونشاب ثلاثين ألف سهم ، وبارود مطيب أربعون قنطارا ، ومقاذيف خشب ، العدة ألفا مقذاف ، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ، ومراسى حديد ، وغير ذلك مما تحتاج اليه المراكب ، فشكره السلطان على ذلك ، وكان السلطان أرسل مالا على يد يونس العادلى الى بلاد ابن عثمان ليشترى له بها أخشابا ونحاسا وحديدا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهز ما ذكرناه من عنده تقدمة للسلطان .



وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب تلمسان تحارب مع الفرنج وقتل منهم نحوا من عشرين ألف انسان ، واستخلص منهم ما كانوا قد استولوا عليه من جهات الأندلس وغيرها ، فسر الناس قاطبة لهذا الخبر .

وفيه ، فى يوم الاثنين حادى عشره ، نزل السلطان الى الميدان وعزم على خاير بيك نائب حلب ، واجتمع الأمراء المقدمون ، وساق قدامهم فى ذلك اليوم الرماحة وهم لابسون الأحمر وآلة السلاح ، كما يفعلون فى أيام دوران المحمل . وكان معلم الرماحة الأمير تمر الحسينى أحد المقدمين المعروف بالزردكاش ومعه أربعة باشات ، فساقوا أحسن سوق ونزلوا عن خيولهم وباسوا الأرض للسلطان على جارى العادة ، فخلع على المعلم وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وخلع على الأربعة باشات ، ثم خلع فى ذلك اليوم على الأمراء المقدمين كوامل الشتاء ، ثم تحول ودخل الى البحرة التى بالميدان ومد الى نائب حلب هناك أسمطة حافلة

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بشنق ثلاث جوار وغلام قد قتلوا سيدتهم ، وهى أم كسباى

الذى كان دوادارا ثانيا وقتـل فى معركة قانصوه خمسمائة كما تقدم ذكر ذلك ، فشنقوا على باب سيدتهم فى مكان قتلوها فيه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء المقدمون قاطبة وعليهم كوامل الشتاء التى ألبسها لهم السلطان ، وصحبته أيضـا أعيان المباشرين ، فشق من الصليبة وتوجه من على قنـاطر السباع الى الجزيرة الوسطى ، ثم أتى الى بولاق ومر من على الرصيف ووقف عند مدرسة ابن الزمن ، وزار سيدى سويدان الذى هناك مقيما بالمدرسة ، ثم عرج من على جزيرة الفيل وأتى الى شبرا ، واستمر على ذلك حتى وصـل الى قناطر أبى المنجا حتى كشف على الأخشـاب التى أرسلها ابن عثمـان وكانت هناك فى حاصل ، ثم رجع من على المنية وطلع من على قنطرة الحـاجب ودخـل من باب الشعرية ، فزينوا له الخشابين وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان . ثم خرج من باب القنطرة وعرج من بين الصورين وطلع من باب الخرق وشق من سوق تحت الربع . ثم طلع من على البسطيين واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود . ومن حين سلطنته الى ذلك اليوم لم يقع له موكب مثـل ذلك .

وفى هـذه السنة تعطبت سائر الفواكه ، حتى البطيخ والثوم والبصـل وغير ذلك من الفواكه والخضر ، حتى الرياحين والأزهار والغلال ، وكانت غالب الأراضى مجدبة .

وفيه قبض السلطان على شرف الدين الصغير كاتب الممـاليك وعـلى شرف الدين النـابلسى الأستادار ، وقرر عليهما مالا له صورة ، ووضعهما فى الحـديد وسجنهما بالعرقانة ، واستمرا على ذلك حتى يكون من آمرهما ما يكون .

وفى يوم السبت سادس عشره حضر قاصد من عنـد ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبـة للسلطان ، فلما ناولها له قبلهـا السلطان ووضعها على عينيه ، ثم ناولها الى كاتب السر فقرآها بحضرة السلطان والأمراء ، وكانت ألفـاظ هذه المكاتبة مرجزة ، صنعة البديع ، وقد نعت فيهـا السلطان نعتا عظيما . وكان من مضـمونها ، أنه أرسـل للسلطان عدة مراكب فيها زردخاناه فما يدرى هل وصلت الى السلطان أم لا ، وأخبر فيها أن الرئيس كمال المجـاهد قد غرق ولا يعلم له خبر ، فأقام القـاصد بمصر أياما قلائل وكتب له الجواب عن مكاتبته وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى هذا الشهر أنعم السلطان على الأمير خاير بيك الخازندار بتقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء المقدمين .

وفيه توفى شمس الدين محمد الصالحى وكيل الشرع الشريف ، وكان علامة فى صنعة التوكيل عارفا بأمور الشرع ، وكان لا بأس به .

ومن النوادر اللطيفة ما وقع فى هذا الشهر وهو أن السلطان رسم بشيل الدكة التى كانت بالحوش يجلس فوقها السلاطين للمحـاكمات ، وقد جلس فوق هذه الدكة جماعة كثيرة من الملوك ونفذوا عليها الأحكام السلطانية ، وكانت عوضا عن كرسى المملكة ، فعز على النـاس تغييرها ولم يتفـاءلوا بذلك ، ثم انه بنى مكان هذه الدكة مصطبة بالحجر الفص وزخـرفها بالرخام السـماقى والزرزورى والمرسينى وغير ذلك من أصـناف الرخام الملون الفاخر ، ونقش بروزها وألبسها بالذهب وجعـل

لها افريزا من الرخام الأبيض وله رمانتسا رخام ، وكسا هذا الافريز بالذهب ونقش عليه اسمه ، وصنع فوق هذه المصطبة وزرة من الرخام الملون طولها أربع أزرع ، فجاءت هذه المصطبة غاية فى الحسن بحيث لم يعمل مثلها قط ولا سبقه أحد من الملوك الى ذلك ، وقد قلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات وهو قولى :

قد جدد الأشرف سلطاننا
مصطبة أوصافها تحكه
رخامها شبهت ألوانه
جواهر فى عقد مشتبكه
ألبسها الحسن لباس البها
حتى غدت تزهو على الدكه
يجلس للموكب من فوقها
يظهر فى أحكامه فتكه
فاق ملوك الترك فيما مضى
ولم يضاه ملكهم ملكه
يخدمة البيت وما حوله
وفارس البيداء فى العركه
قد خصه الرحمن بالملك فى
مصر ، ومن عاداه فى هلكه
أيده الله بطول البقا
ما طافت الحجاج فى مكه

وقولى أيضا :

بنى الأشرف الغورى فى الحوش بسطة
ليغنى بها عن دكة الحكم بالأمس
فجاءت من الآيات كرسى ملكه
وطلعته فاقت على البدر والشمس
فحصنته لما استوى بجلوسه
عليها برب الناس مع آية الكرسى

وفيه جاء الى السلطان شخص شريف وأخبره أنه وجد معدن البارود فى بلد خراب بالقرب من الكرك ، وترابها كله من ذلك البارود ، فطبخوه فوجدوه بارودا جيدا ، ففرح السلطان بذلك وأنعم على ذلك الرجل الذى أحضره بعشرة دنانير وأرسل يحضر منه أشياء كثيرة . وقبل ذلك بمدة ظهر معدن الرخام السماقى والزرزورى فى جبل بالقرب من البدرشين ، فأرسل السلطان وقطع منه فوجده رخاما جيدا ففرح بذلك وعد من النوادر .

ومن الوقائع أن الأمير أركماس الذى كان نائب الشام طلع الى السلطان بقطعة فولاذ هيئة الكرة وزعم أنها صاعقة نزلت ببعض الجبال وأن أعرابيا أهداها اليه ، ففرح السلطان بذلك وجمع السباكين فقالوا انها صاعقة لا محالة ، فنظر اليها بعض الزردكاشية فأنكر ذلك وقال : هذه حجر مرقشيتة وهو حجر صلب ، فلما سمع السلطان ذلك شق عليه ونزل الى الميدان وجمع السباكين وحضر الأمير أركماس ، ووضعوا ذلك الحجر الذى على هيئة الفولاذ فى النار ، فمجرد ما وضعوه فى النار صار مثل الخرنفش وتفتت ، فخجل الأمير أركماس من ذلك ، وانتصف عليه ذلك الزردكاش ، وهو الجمالى يوسف أخو مؤلفه ، وعد ذلك من النوادر .

ومما حكى عن أمر الصاعقة الحقيقية : أن سنة ست وتسعين وثلاثمائة وقعت صاعقة عظيمة بجرجان ، فرجت لها الأرض وسقطت من هولها الحوامل ، فخرج الناس الى مكان سقطت فيه ، فوجدوها قد ساخت فى الأرض على قدر قامة ، فنبشوا عليها فوجدوها قد بقيت قطعة حديد قدر مائة وخمسين منا ، وهى أجزاء جاروشية صغار مستديرة قد التصق بعضها ببعض ، فسمع بذلك السلطان محمود بن سبكتكين صاحب خراسان ، وهو أول من تلقب بالسلطان ، فكتب الى عامل

جرجان بنقل هـذه القطعة الحديد فتعذر عليهم نقلها ، فحاولوا كسر قطعه منهـا فلم تعمل فيهـا الآلات ، فعولج كسر قطعة منها بعـد جهد كبير فحملت اليه ، فرام أن يصنع منها سيفا له فتعذر عليه ذلك ولم يتم له ما أراد .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه قناصلة الفرنج ، منهم القنصل الذى بثغر الاسكندرية ، والقنصل الذى بدمشق ، والقنصل الذى بطرابلس . فلمـا وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام ووعدهم بالشنق . وسبب ذلك أن نائب البيرة قبض على دواسيس من عنـد اسمعيل الصفوى[1] ، وعلى أيديهم مكاتبات الى القناصل بأن يكاتبوا ملوك الفـرنج بأن يأتوا فى مـراكب من البحر ، وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم ، فانكشف رخهم وافتضحوا فى هذه الواقعة ، فرسم السلطان بتسليمهم الى ناظر الخاص ليقررهم عن حقيقـة ذلك ، وان لم يقروا يسلمهم الى الوالى ، فانفضوا على ذلك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الدنوشرى مباشر الأتابكى قرقماس ، وقد غمز عليه بأن عنـده مالا لأمير كبير ، فلما عرضه لم يقر بشىء فرسم بتسليمه الى نقيب الجيش فقبض عليـه وعلى الخازندار أيضـا ، واستمرا فى الترسيم لما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمرهما .

وفى ذلك اليوم توفيت خوند جان كلدى زوجة الملك الظاهر قانصوه المسجون بثغر الاسكندرية ، فأخرجت وعلى نعشها بشـخانة زركش ، وكانت ذات عقل ودين لا بأس بها ، ولكن قاست شدائد ومحنا ، وعصرت فى أكعابها وأكتافها حتى أشرفت على الموت . وسبب ذلك أن زوجها الظاهر قانصوه لما وثبوا عليه وانكسر نزل من القلعة واختفى أياما فلم تقر بمكانه ، فعوقبت بسبب ذلك .

وفى أواخر هذا الشهر أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى اسـتجدها بسبب المماليك الذين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامسـة تصرف لهم على انفرادهم دون جوامك العسكر . وقد تزايد أمر هذه المماليك الأراذل الذين صـار يستكثر منهم فى الديوان ، ففيهم من لا يعرف يجذب القوس ولا يمسـك الرمح وهـذا أمر عجيب ! يشح فيمن يستحق الجـامكية ، ويعطيها لغير مستحقيها ... كما قيل :

انى أشـح بدرهم متصـدقا
وأجود فى قدح بما ملكت يدى

وفيه وصل الى السلطان فيل صـغير غير ذلك الفيل المقدم خبره لما وصل .

وفيه توفى تانى بيـك النجمى المعروف بالأبح الذى كان شاد الشون وصرف عنهـا ، وكان من الأمراء الطبلخانات ، وكان لا بأس به .

وفى عقيب ذلك توفى أيضا شـخص من الأمراء العشراوات يسمى تمراز الشهابى .

* * *

وفى ذى الحجة كان مستهل الشهر يوم السبت ، فعمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس

---

(١) هو اسماعيل شاه بن حيدر الصفوى . وقد ورد اسمه « الصوفى » خطأ بين الصفحات ٧٥٧ و ٨٠٠ من الكتاب . وهو مؤسس الأسرة الصفوية التى حكمت فارس من سنة ١٤٩٩ الى سنة ١٧٣٦ .
وقد نبهنا الى ذلك الدكتور جمال مرسى بدر جزاه الله خيرا .

على المصطبة التى أنشأها بالحوش مكان الدكة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وكان سبب هذا الموكب أن السلطان خلع على خاير بيك نائب حلب وأذن له بالسفر الى محل ولايته بحلب على عادته ، وخلع فى ذلك اليوم على الأمير طومان باى الدوادار وخرج الى السفر نحو الشرقية والغربية ، وقد غيب لأجل أمر الأضحية ولعله يغيب فى هذه السفرة نحوا من شهرين .

وفى ذلك اليوم طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا حافلا ، ولا سيما كان أول جلوس السلطان على هذه المصطبة فكان لها موقع عظيم .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأسواق والشوارع ، وكان ذلك ليلة الأحد ثانيه ، ولم يقع فى هذه السنة من الأمطار أعظم من هده المطرة .

وفيه عين السلطان شادية الشراب خاناه الى ولده الصغير ، عوضا عن أخيه المقدم ذكر وفاته .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء رابعه ، فرق السلطان الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفيه كانت الأضحية غالية ومشحوتة بسبب تشويش المماليك على المتسببين ، وقد صاروا يخرجون الى المطرية ويقطعون الطريق على ضيافات الأمراء حتى صارت الأمراء يرسلون مماليكهم يلاقون ضيافاتهم . وقد خرج المماليك عن الحد فى الأذى للناس فى هذه السنة الى الغاية ، وحصل منهم غاية الضرر والفساد فى حق الناس ، والأمر لله .

وفيه — فى يوم الجمعة سابعه — وقعت زلزلة خفيفة بعد العصر وارتجت منها الأرض ، ولم يشعر بها من الناس الا القليل .

وفيه كان موكب العيد حافلا ، وجلس السلطان بالحوش على المصطبة التى أنشأها وضحى بالايوان الكبير على العادة .

وفيه ، فى يوم عيد النحر ، وقعت حادثة مهولة ، وهو أن شخصا من أبناء الأتراك صغير السن دخل الى اسطبل أبيه فرفسه بغل على قلبه فمات فى ذلك اليوم ، فحصل على أهله من الأنكاد ما لا خير فيه بسبب فقد ولدهم ولا سيما فى يوم العيد .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات نقال له أزدمر ، وهو أنى[1] الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وقرره فى نيابة عينتاب .

وفيه جلس السلطان على المصطبة التى أنشأها مكان الدكة وأنفق الجامكية على العسكر ، فقام له الأمراء المقدمون ، وقبلوا له الأرض وهنوه بجلوسه على تلك المصطبة حيث كملت ، ومن العسكر من لم ينظل عليه ذلك وقال : « الدكة كانت أعظم حرمة من هذه المصطبة » .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الصفوى قد انتصر على أزبك خان ملك التتر وقتله وقطع رأسه ، فتنكد السلطان لهذا الخبر وأقام عنده الأمراء الى قريب الظهر وهم فى ضرب مشورة بسبب ذلك . وكان أزبك خان ضد الصفوى وكان مشغولا بمحاربته عن ابن عثمان وسلطان مصر ، فلما أشيع قتل أزبك خان خشى السلطان من أمر الصفوى أن يزحف على البلاد .

وفى أواخر هذه السنة توفى الشيخ أبو النجا

(١) يريد ان يقول ان امير العشرة ازدمر كان مملوكا «يقتنيه» الامير قانى باى قرا ..

القمنى ، وكان شاعرا لطيف الذات عشير الناس ، وقد ناف عن السبعين

وفيه توفى رضى الدين حسن بن عبد القادر ابن حسين المقرىء ، وكان لا بأس به .

وفى عقيب موت رضى الدين توفى أيضا الناصرى محمد بن عبد العزيز المقرىء ، وكان علامة فى فن القراءات حسن الصوت عارفا بطريقة القراءات ، وكان لا بأس به .

وفيه نادى السلطان بألا يمشى أحد من الناس من بعد العشاء فى الطرقات ، ومن وجدوه يمشى ومعه سلاح بشنق من غير معاودة فسكن الأمر قليلا وكان قد فسدت الأحوال فى تلك الأيام الى الغاية .

سنة سبع عشرة وتسعمائة (١٥١١ م) :

فيها — فى المحرم — كان مستهل الشهر بالأحد . ففيه ، فى يوم الجمعة سادسه ، كانت وفاة الأمير طراباى الشريفى رأس نوبة النوب . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى فهو من معاتيقه ، وولى من الوظائف السنية الدوادارية الثانية ، ثم بقى رأس نوبة النوب فى دولة الأشرف جان بلاط عوضا عن قرقماس بن ولى الدين الذى ولى الأتابكية فيما بعد وكانت وفاة الأمير طراباى فى ليلة الجمعة ، ودفن صبيحة يوم الجمعة ، وكانت جنازته مشهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه فى سبيل المؤمنين ، وأخرجت قدامه كفارة ونهبت من على بابه ، ودقت عليه زوجته بالطارات فى العزاء ، وكانت مدة انقطاعه بهذا العارض نحو شهر ، وقد اعتراه ورم فى رجله وركبته ، وكان له بمصر حرمة وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة لم تقع لأحد من الأمراء فى عصرنا غيره . فرجت لموته القاهرة وفرح بذلك غالب الناس ، فانه كان صارما عسوفا شديد البأس زائد القسوة ، وقع منه أشياء كثيرة من أنواع المظالم بالديار المصرية لم تقع من غيره من الأمراء فيما تقدم ، وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده . وقد قلت فيه هذه الأبيات :

بموت طراباى أفرج الله كربة
عن الناس من خلق السموات والأرض

فهذا فتوح عاد فى مصر ثانيا
وعمت به الأقطار فى الطول والعرض

وقد كان جبارا عنيدا معاندا
فكم جار فى الأحكام بالبرم والنقض

ويبطل حق الناس من كل واجب
ويقضى خلاف الشرع فى الندب والفرض

ولما طغى ظلما وزاد تجبرا
فعجل عزرائيل للروح بالقبض

وأسكنه ضيق اللحود معذبا
وأخلى منازله فى طرفة الغمض

وقد جاء يسعى للجحيم برجله
وأجزم بعد الرفع بالنصب والخفض

ومذ شاع بين الناس أخبار موته
فصار يهنى بعض من سر للبعض

فيا رب قابله بما يستحقه
وأودعه فى الأغلال للبعث والعرض

كان الأمير طراباى من مبتدأ أمره وهو فى عز وشهامة لم ينتكب ولم ينف قط ، واستمر فى سعده الى أن مات ، ومات وهو فى عشر السبعين . فلما كان يوم السبت صبيحة موته عرض على السلطان مماليكه فوزعهم فى الطباق ، وأشيع بين الناس بأن ظهر له من الموجود ما لا ينحصر من أموال وخيول

وجمال وسلاح وبرك وغير ذلك ، فكان موجوده أعظم من موجود الأتابكى قرقماس بأشياء كثيرة ، وكان بين موت الأتابكى قرقماس وبين موت الأمير طراباى ثلاثة أشهر واثنا عشر يوما ، حتى عد ذلك من جملة سعد السلطان قانصوه الغورى الذى ورث هذين الأميرين فى هذه المدة اليسيرة واحتاط على موجودهما من صامت وناطق .

وفى يوم الاثنين تاسعه حضر الطواشى بشير الذى كان توجه الى بلاد اليمن قاصدا الى بعض ملوكها ، فلما حضر خلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم بعد أيام أهدى الى السلطان هدية حافلة .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره قبض السلطان على تغرى بردى الترجمان ، ووضعه فى الحديد ووكل به ، وأرسل ختم على بيته واحتاط على موجوده ورسم على عياله ، وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان أن تغرى بردى كاتب ملوك الفرنج بأحوال مملكة مصر ، وأن السلطان ليس له همة الى ارسال تجريدة ، وأن السواحل خالية ليس بها مانع . وقد أحضروا الى السلطان مكاتبات بخط تغرى بردى بمعنى ذلك ، فأحضر السلطان تغرى بردى وأوقفه على تلك المطالعات ، فأنكر ذلك ، فغضب عليه وشكه فى الحديد ووكل به وأحضر خيوله وقماشه ، واستمر فى الترسيم الى الآن .

وفى يوم الاثنين سادس عشرينه خلع السلطان على شخص من الخاصكية يسمى طومان باى ، وهو خازندار كيس ، ورسم له بأن يتوجه الى الشام ليصلح بين سيباى نائب الشام وبين جان بردى الغزالى نائب صفد . وكان قد بلغ السلطان بأن قد حصل بينهما تشاجر مفرط حتى خرجا فيه عن الحد ، فرسم السلطان لطومان باى بأن يتوجه ويصلح بينهما ، ورسم له بخمسة آلاف دينار تسفيرا عليهما .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره توفيت الست زينب ابنة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز ، وهى أخت أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وعمة ولده المتوكل على الله محمد خليفة الوقت الآن ، وكانت لا بأس بها

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه حضر الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وكان مسافرا نحو الشرقية والغربية ، فأهلك الحرث والنسل وأفرد على سائر البلاد التى بالشرقية والغربية الأموال الجزيلة ، حتى أفرد على بلاد الأوقاف التى على الجوامع والمدارس ، فضج من ذلك المقطعون ، وما حصل على الناس بنزوله الى البلاد خير .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه دخل الحاج الى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه بن سلطان جركس ، وبالركب الأول توروز تاجر المماليك . وقد قاست الحجاج فى هذه السنة مشقة زائدة من الوخم وموت الجمال ، وقد ضبط من مات من الحجاج فى هذه السنة فكان جملة ذلك ألفا وثمانمائة انسان . وكانت سنة شديدة صعبة على الحجاج والذين سلموا ردوا ضعافا ، حتى قانصوه أمير ركب المحمل رد وهو عليل

وفيه نادى السلطان بأن أصحاب الأملاك التى على الخلجان يقطعون أراضى الخلجان قدر ثلاث أذرع ونصف ، فامتثلوا ذلك ولكن حصل للناس غاية الضرر من الغرامة والبهدلة من جماعة حاجب الحجاب بسبب شيل التراب ، وكان السلطان نادى بأن الذى يعجز عن القطع يكون بيته للسلطان ، فقاست أصحاب الأملاك التى بالجزيرة الوسطى ما لا خير فيه بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار صحبة الحجاج بوفاة هجار أمير الينبع الذى كان السلطان ولاه امرة الينبع عوضا عن يحيى بن سبع ، وحصر جماعة من أقاربه يسعون فى امرة الينبع ، فتم الأمر

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه توفى شاهين معلم الدبوس ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان علامة فى فن الدبوس .

وفيه توفى معين الدين بن شمس الذى كان وكيل بيت المال ونائب كاتب السر ، مات بالمقشرة وقد قاسى شدائد ومحنا ، وضرب بالمقارع غير ما مرة وعصر فى أكعابه وأخذ منه جملة مال . وكان غير مشكور ، فما رثى له أحد من الناس فيما جرى عليه

وفى يوم الاثنين سلخ المحرم حضر الى الأبواب الشريفة الأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماة وعزل عنها ، فنقل السلطان نائب طرابلس الى حماة عوضا عن يوسف الناصرى ، وقرر فى نيابة طرابلس أبرك ، مملوك السلطان الذى كان نائب قلعة حلب ، وقرر فى نيابة قلعة حلب شخص من مماليك السلطان . ولما حضر يوسف الناصرى خلع عليه السلطان ، ونزل الى داره واستمر طرخانا .

* * *

وفى صفر صعد الخليفة الى القلعة ليهنىء بالشهر، وكذلك القضاة الأربعة ، فحصل فى ذلك اليوم للقاضى شمس الدين الحلبى غاية المقت من السلطان وكاد يبطش به . وسبب ذلك أنه حكم فى بعض الوقائع بما اعترض عليه فى ذلك فتغير خاطر السلطان عليه ولم يقبل له فى ذلك عذرا ، وحط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا .

وفى يوم الخميس ثالثه نزل السلطان وشق من الصليبة ، وتوجه الى المنشية فكشف عن مراكب عمرها هناك ، ثم توجه الى الجزيرة الوسطى وكشف عن قطع الخليج ، ودخل من تحت قنطرة قديدار ، وشق من بطن الخليج وكشف على القطع واستحث الناس على ذلك ، فبينما هو شاقق من بطن الخليج كبا به الفرس فى جورة من القطع التى هناك ، فلم يتأثر الى ذلك واستمر شاققا من بطن الخليج حتى وصل الى قناطر الأوز ، فطلع من هناك وشق من الحسينية ، ثم دخل من باب النصر أو باب الفتوح وشق من القاهرة على حين غفلة ، فوقدت له الشموع على الدكاكين ، وانطلقت له الزغاريت من النساء فى الطيقان ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام ، وكان له موكب حافل وقدامه جماعة من الأمراء والمباشرين . ولكن شق من القاهرة وهو لابس تخفيفة صغيرة مملسة . وسبب ذلك أنه كان قد طلع له دمل فى رأسه فلم يستطع لبس التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال .

واستمر فى هذا الموكب حتى خرج من باب زويلة وقد زينت له ، ثم طلع من البسطيين ، وشق من على بيت الظاهر تمر بغا وطلع من هناك الى الرملة ودخل الميدان . ولم يشق من القاهرة منذ تسلطن سوى فى ذلك اليوم فقط ... ومما أحدثه عند دخوله من القاهرة فى ذلك اليوم أنه أمر المشاعلية تنادى قدامه بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يشوش على أحد ، وكان ذلك غاية الخفة منه ، وترك هذا كان أوجب .

وفى يوم الثلاثاء ثامنه نزل السلطان من القلعة أيضا ، وسير من على ساحل البحر حتى وصل الى البهطلة ، فقدمت له الحراقة التى يكسر فيها السد ، فنزل بها وعدى الى المقياس ، فطلع من

السلم التى تجاه بر الجيزة ، وتمشى ودخل الى المقياس ونزل الى الفسقية التى يقاس بهـا النيل فتوضأ منها ، وطلع وصلى هنـاك ركعتين ... ثم تحول ودخل الى قاعة المقيـاس ، فمد له هنـاك عـلاء الدين ناظـر الخـاص وبركات بن موسى المحتسب اسمطه حافلة ولم يبقوا فى ذلك ممكنا ، وكان مع السلطان من الأمراء المقدمين الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، والأمير خاير بك كاشـف الغربية أحد المقدمين . والأمير خاير بك الخازندار أحد المقدمين ، وجمـاعة من الأمراء العشراوات ، والجم الغفـير من الخاصـكية . وكان معه من المباشرين القـاضى عبـد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلاء الدين ناظر الخـاص ، والشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر وغير ذلك من الأعيان .

فلما فرغ من الأكل ، أمر باصلاح ما فسـد من عمـارة المقياس ، وأمر ببناء جامع بجوار المقياس تجاه دير النحاس فأخذوا فى أسباب ذلك . ثم نزل فى الحـرافة ونصب له سحابه حـرير أصـفر ، وأحضرت حوله مراكب كثيرة برسم العسـكر ، وفيهم غراب قد زين بالصناجق والشطفات ، ثم شـق من على بر الروضـة فانطلقت له النسـاء بالزغاريت ، واستمر على ذلك حتى طلع من عند قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، ثم شق من بطن الخليج ، وطلع من الناصرية من على بيت قانصوه خمسمائة ، وطلع من على قناطر السباع ، وشق من الصليبـة وقـدامه المشاعلية تنـادى بالأمان والاطمان كما فعل لما شق من القاهرة .

وفى يوم الخميس عاشره عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير وأمر الأمراء والعسكر بلبس الشاش والقماش ، فلمـا تكامل الموكب خلع على المقر السيفى دولات باى بن أركماس المعروف بالساقى أمير سلاح . فقرره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن الأتابكى قرقماس بن ولى الدين بحكم وفاته . وكانت الأتابكية شاغرة نحو أربعة أشهر ونصف شهر من حين توفى الأتابكى قرقماس فى ثالث عشرين شـهر رمضـان سـنة ست عشرة وتسعمائة

وخلع فى ذلك اليوم على المقر السيفى سودون العجمى ، وقرره فى امرة السلاح عوضا عن دولات باى بحكم انتقاله الى الأتابكية

وخلع على المقر السيفى أركماس بن طراباى ، وهو الذى ولى نيابة الشام قبل ذلك ، فقرره فى امرة مجلس عوضـا عن سودون العجمى بحكم انتقاله الى امرة السلاح .

وخلع على المقر السـيفى سـودون الدواداری الذى كان نائب طرابلس وقرره راس نوبة النوب عوضـا عن طراباى الشريفى بحكم وفاته ، فلبس هؤلاء الأربعة أمراء هذه الوظائف السنية فى يوم واحد ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل .

وفى ذلك اليـوم توفى شـخص من الأمراء العشراوات يقـال له بيسق اليوسفى ، وأصله من مماليـك الأشرف اينـال فيمـا يقـال ، وكان لا بأس به

وفى يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك سابع بشنس القبطى

وفى يوم الجمعة حادى عشره كانت ليلة سيدى اسمعيل الانبـابى ببولاق ، وكانت من الليـالى المشهودة فى القصف والفرجة وخرج الناس فيها عن الحد ، وصربت نحو من خمسمائة خيمـة فى الجزيرة التى طلعت تجاه بولاق . وصنعوا هناك سوقا بدكاكين مبنية ونقلوا اليه من سائر البضائع الفاخرة ، وكانت ليلة هادئة من الفتن والشرور .

وفى يوم السبت ثانى عشره ابتدأ السلطان بضرب الكرة فى الميدان ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وهم بالشاش والقماش ، والأوزان عمال والمغانى على جارى العادة

وفى يوم الأحد ثالث عشره جاءت الأخبار من الغربية بقتل شيخ العرب عيسى بن يوسف المعروف بابن جميل ، وكان من أعيان مشايخ الغربية وكان فى سعة من المال ، فقتلوه شر قتلة وقتلوا ولده معه وجماعة من حاشيته ونهبوا أمواله وأغنامه ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وكانت فى تلك الأيام الفتن قائمة بالشرقية والغربية واقليم الصعيد ، والأمر لله .

وفى يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على شخص يقال له أجود بن مسفار — وهو ابن عم هجار — فقرره فى امرة الينبع عوضا عن هجار بحكم وفاته ، وقد سعى يحيى بن سبع بأن يعاد الى امرة الينبع كما كان ، فلم يوافق السلطان على ذلك .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره جاءت الأخبار من الغربية بأن الجويلى قبض على جماعة من العربان الذين قتلوا عيسى بن جميل ، فحاشهم فى مكان مضيق وأرسل يعلم السلطان بذلك ، فرسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار بأن يخرج من يومه على جرائد الخيل ويتوجه الى الغربية ، فخرج تحت الليل . وصحبته خاير بك الكاشف أحد المقدمين وآخرين من الأمراء والعسكر

وفى يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر وشرع كل من أخذ جامكيته يقول له : « عبىء بركك للسفر » . وأشيع بين الناس أنه يعين أربع تجاريد ، وانفض الموكب على ذلك .

وفى هذا الشهر رسم السلطان بعمارة قنطرة الخروبى وعلاها مقدار ثلاث أذرع ، وكذلك قناطر السباع ، فانه كان حصل لهما تشعث وآل أمرها الى السقوط .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه ضرب السلطان الكرة بالميدان ، ففى ذلك اليوم تقنطر من على الفرس بهادر الغورى أحد الأمراء الطبلخانات وكان من خواص السلطان ، فلما تقنطر أغمى عليه فنزل الى داره وهو محمول على بغل وقد انقطع نخاعه ، فلما وصل الى داره مات من وقته ، وكان من المتكبرين وعنده الشمم الزائد فعد موته من الغرائب ، فكان كما يقال فى المعنى :

فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينا من الدهر

وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه نزل السلطان من القلعة وتوجه إلى نحو طرا ونصب له هناك وطاقا عظيما ، وكان معه بعض أمراء مقدمين ، فان الأتابكى دولات باى كان مريضا على خطة ، وكذلك سودون العجمى أمير سلاح ، وكان الأمير طومان باى الدوادار مسافرا نحو الغربية بسبب فساد العربان مما تقدم ذكره من قتل عيسى ابن جميل ، وكان سبب نزول السلطان الى هناك قيل انه عرض المركب الكبير الغليون الذى عمره فى بولاق عند الرصيف ، فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل وتوجهوا به الى طرا وعرضوه على السلطان فى البحر ، ورموا قدامه بالمدافع ذهابا وايابا كما فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغربة ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فمد هناك أسمطة حافلة وابتهج فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا ، وأقام هناك الى بعد العصر ، فلما رجع من طرا رجع من البحر فأحضروا له الحراقة التى بكسر فيها السد فنزل بها ، ونزل الأمراء والعسكر فى عدة

مراكب ، واستمر حادرا فى البحر حتى طلع من رأس الجزيرة الوسطى من تحت قصر ابن العينى ، ثم طلع من هناك الى القلعة وشق من سوق جامع ابن طولون ، وكان يوما بالسلطانى .

وفى يوم الجمعة خامس عشرينه كانت وفاة الأتابكى دولات باى بن آركماس المعروف بالساقى ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وقد ساعدته الأيام حتى ولى عدة وظائف سنية منها نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة طرابلس ، ثم حضر الى مصر ، وولى امرة السلاح فى دولة الأشرف قانصوه الغورى وأقام بها مدة طويلة ، ثم بقى أتابك العساكر بالديار المصرية بعد وفاة الأتابكى قرقماس بن ولى الدين ، فأقام فى الأتابكية خمسة عشر يوما ومات ، فانه ولى يوم الخميس عاشر صفر ومات ليلة الجمعة خامس عشرينه ، فكانت مدته فى الأتابكية خمسة عشر يوما لا غير وقد قلت فى معنى ذلك :

ان دولات باى لما أن رقى امرة الكبراء ولى مسرعا
جاء للمنصب يحكى زائرا ثم ما سلم حتى ودعا

وكانت جنازته حافلة ونزل السلطان وصلى عليه ، ثم توجهوا به الى تربة العادل طومان باى فدفن بها فانه كان قرابته . وكان الأتابكى دولات باى أميرا جليلا جميل الصورة مليح الهيئة طويل القامة أبيض اللون مستدير اللحية أسود الشعر شابا فى عنفوان شبابه ، مات وله من العمر نحو من أربعين سنة ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس فانه كان لين الجانب قليل الأذى لا ينسب اليه خير ولا شر ، وكان مشغولا بملاذ نفسه ، وكانت مدة توعكه خمسة أيام حتى أشيع بين الناس أنه مات مشغولا ، وكان موته فجأة ، وخلف من الأولاد صبيين ، قيل وبنات أيضا ، وظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وقماش وبرك وغير ذلك مما لا ينحصر ، فكان بينه وبين موت الأمير طراباى دون الشهرين .

وقد توفى فى مدة يسيرة من الأمراء المقدمين ثلاثة كانوا نوابغ الأمراء وهم : الأتابكى قرقماس ابن ولى الدين ، وطراباى رأس نوبة النوب ، والأتابكى دولات باى ، هذا غير ماتوفى من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

وفى يوم السبت سادس عشرينه ظهر المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، وكان له مدة وهو مختف ، فقابل السلطان فى ذلك اليوم وقيل خلع عليه كاملية بسمور .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان توجه الى نحو الغربية بسبب فساد العربان ، وقد خرج اليهم على جرائد الخيل ثانيا ، فلما وصل الى هناك هربت العرب من وجهة فتبعهم الى قريب السباخ ، فلم يظفر بأحد منهم وقاسى من المشقة ما لا خير فيه ، فلما رجع وطلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة حافلة ونزل الى داره فى موكب عظيم .

وفى أثناء هذا الشهر وقع حريق مهول عند قنطرة الأمير حسين ، وكانت ليلة شعث قام فيها ريح عاصف ، فاحترق تلك الليلة نحو من أربعين دارا ، وكان ذلك وقت المغرب ، فلعبت النار فى البيوت وأعيا الناس طفيها ، واستمرت على ذلك أياما ، وذهب للناس جملة أموال وقماش وبضائع وغير ذلك .

وفى أواخر هذا الشهر تشحط القمح وارتفع سعره الى أشرفى كل أردب بعد ما كان كل أردبين بأشرفى ، وسبب ذلك أن النيل كان فى العام الماضى خسيسا وشرق غالب البلاد ، ثم حدث أمر الفأر تسلط علي الجرون وصار يقرض القمح والشعير

وهو فى سنبله . وهذا الفأر أمر من الله تعالى لا يقدر أحد على رده ولا يطاق لكثرته .

ووقع فى هذا الشهر من الحوادث أشياء كثيرة .

* * *

وفى ربيع الأول فى يوم الاثنين سادسه خلع السلطان على جانى بك دوادار الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقرره فى نظر الديوان الشريف المفرد لمشاركة الأمير طومان باى الدوادار الكبير فى الأستادارية ، وهذه مصادرة لجانى بيك فى أخذ ماله بحسن عبارة وأقرب طريقة .

وفى يوم السبت حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، واجتمع به القضاة الأربعة والأمراء ، ولم يكن تقرر أحد فى الأتابكية من بعد الأمير دولات باى الى يوم تاريخه .

وفى ذلك اليوم توفى القاضى تاج الدين ابن القاضى شمس الدين نصر الله المعروف بابن النجار ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت ، تولى والده القاضى شمس الدين الوزارة فى دولة الأشرف اينال سنة تسع وخمسين وثمانمائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ومات القاضى تاج الدين وهو فى عشر السبعين ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنج نصرة عظيمة ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وقتل منهم نحوا من سبعة آلاف انسان ، وأسر منهم جماعة كثيرة ، ثم بعثوا للسلطان مكحلة نحاس كبيرة وأشياء كثيرة من أنواع الهدية وشخصين من أسرى الفرنج وعليهم آلة السلاح ، فشكر لهم السلطان ذلك ، وسر بهذه النصرة التى وقعت لهم .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره توفى الشهاب أحمد المحلاوى مؤذن السلطان ، وكان حسن الصوت مطبوعا فى فنه مقاتلا على الدخول ، وكان لا بأس به ، ومات وقد ناف عن الأربعين سنة من العمر ، وقيل جاوز الخمسين .

وفى يوم الجمعة سابع عشره فى ليله توفى الرئيس شمس الدين محمد القوصونى ، وكان علامة فى فن الطب ، فريد عصره فى ذلك ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفى يوم السبت ثامن عشره دخل قاصد اسماعيل شاه الصفوى فأنزلوه فى بيت قانى باى سلق الذى فى رأس الرملة عند سوق الجلاق ، فاستقر هناك الى أن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان للأمراء والعسكر بأن يخرجوا الى المطرية ويلاقوا القاصد ففعلوا ذلك ، وخرج الجم الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء ، ولكن وقع من السلطان فى ذلك اليوم غاية الخفة وهو أنه نزل وسير الى نحو المطرية فوقف عند تربة الملك العادل طومان باى ليرى القاصد والعسكر عن بعد ، فانعقد هناك الغبار فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد والعسكر فرجع الى القلعة ، فعد هذا من النوادر الغريبة ، فلما طلع الى القلعة دخل الى القصر الكبير ليرى القاصد من الرماة وهو داخل الى بيت قانى باى سلق ، وكان ذلك غاية الخفة من السلطان .

وفى يوم الاثنين عشرينه عمل السلطان الموكب بالحوش بغير شاش ولا قماش ، وجلس على المصطبة الجديدة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم بتزيين باب الزردخاناه فزينوه بالصناجق السلطانية والشطفات وآلة السلاح من بركستوانات وزرديات وأطبار وسيوف وغير ذلك ، فلما تكامل الموكب واجتمعت

الأمراء أذن الى قاصد اسماعيل شاه الصفوى بالطلوع الى القلعة فطلع من بيت قانى باى سلق الذى بالرملة ، وطلع صحبته المهمندار ووالى القاهرة ، فلما مثل بين يدى السلطان ، قبل الأرض وباس رجل السلطان ، ثم قرئت مكاتبته بين يدى السلطان ، ثم ان القاصد قدم للسلطان مصحفا شريفا وسجادة برسم الصلاة ، فقبل السلطان ذلك المصحف وأخذه ، ثم أحضر القاصد صندوقا لطيفا ففتح بين يدى السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى أزبك خان وهو الذى قتله الصفوى وأخذ بلاده ، فرسم السلطان بدفن تلك الرأس ، ثم أحضر القاصد صحبته قوسا عريضا عرضه نحو شبر ، فندب السلطان شخصا من الزردكاشية ، وهو الزردكاش الثانى ، يقال له الأمير يوسف ، فجذب القوس بحضرة السلطان فكسره وذلك بعد نزول القاصد ، وكان ذلك الموكب حافلا من المواكب المشهودة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على المقر السيفى طوماى باى الدوادار الكبير وقرر أمير الحاج بركب المحمل ، وخلع على شخص من الأمراء العشراوات يقال له بك باى وقرر أمير الحاج بالركب الأول ، وكان بك باى هذا أصله من مماليك الأتابكى أزبك وولى نيابة القدس وصار من الأمراء العشراوات .

وفى يوم الجمعة رابع عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وجاءت القاعدة ست أذرع سوى ، وكانت فى العام الماضى أرجح من ذلك

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه عمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وخلع على المقر السيفى سودون العجمى واستقر به أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن دولات باى بن أركماس بحكم وفاته كما تقدم ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وكان له يوم مشهود ، وكانت الأتابكية شاغرة من حين توفى دولات باى . ولما قرر سودون العجمى فى الأتابكية قلت فى ذلك :

أميرنا الأكبر المشهور بالعجمى
وجوده فى الورى قد آل للعدم
تقول مصر لأن ولوه سلطنة
ياضيعة الناس بين العرب والعجم

وفى ذلك اليوم حضر الرئيس حامد المغربى وصحبته جماعة من الفرنج نحو من مائتى انسان وجدهم يتعبثون بسواحل البرلس فقبض عليهم وشكهم فى زناجير ، وشق بهم من القاهرة وطلع بهم الى القلعة ، فلما عرضو[2] على السلطان أمر بسجنهم حتى يحرر أمرهم فيما تكون .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه عزم السلطان على قاصد الصفوى فى الميدان وضرب الكرة هو والأمراء المقدمين قدامه ، فلما انتهى ضرب الكرة دخل السلطان الى البحرة التى أنشأها بالميدان ، فلما جلس عليها طلب قاصد الصفوى وأضافه هناك ضيافة حافلة وألبسه سلارى صوف فستقى بسمور من ملابيسه ، ثم عاد الى المكان الذى أنزلوه به .

وكان السلطان وكل به جماعة من الخاصكية يمنعون من يدخل اليه من الناس قاطبة ، ولا يمكنون أحدا من جماعة القاصد يخرج الى الأسواق ولا يجتمع بأحد من الناس ، ثم انه فى هذه المدة ركب مرة وصحبته أزدمر المهمندار فزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ثم عاد الى المكان الذى أعد له .

ومن النكت اللطيفة ما أشيع بين الناس أن القاصد لما قابل السلطان أول مرة وصحبته رأس

أزبك خان ملك التتار والقوس العريض المقدم ذكر ذلك ، فلما قرئت مطالعة الصفوى بين يدى السلطان وجدوها مكتوبة باللغات الأعجمية ، فأحضروا من قرأها وهو شحص شريف يقال له الشيخ حسين من أبناء العجم ، ثم وجدوا ضمن تلك المطالعة هذين البيتين ، الحمد لله ، ولما أرسل الصفوى فى كتابه بهذين البيتين الى السلطان أرسل الى سليم شاه بن عثمان أيضا بهذين البيتين وهو يقول :

نحن أناس قد غدا شأننا
حب على بن أبى طالب
يعيبنا الناس على حبه
فلعنة الله على العائب

فأجابه ابن عثمان عن ذلك :

ما عيبكم هذا ولكنه
بغض الذى لقب بالصاحب
كذبتمو عنه وعن ابنته
فلعنة الله على الكاذب

وأرسل يهدد أهل مصر لما قتل أزبك خان ملك التتار بهذين البيتين وهما :

السيف والخنجر ريحاننا
أف، على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنا
وكأسنا جمجمة الراس

وكان لما حز رأس أزبك خان ملك التتار جعل جمجمة رأسه كأسا يشرب فيها الخمر فى المقامات كما قيل عنه .

وقد أشيع فى بلاد الصفوى بأن السلطان قد اشتغل بما أنشأه فى الميدان من غرس الأشجار وشتول أنواع الأزهار والرياحين ، فقصدوا ينكتون عليه بذلك ، وهذا من نوع التهكم على السلطان ، فأجبت عن ذلك بقولى :

بالسيف والخنجر تفنى العدا
وكم لنا فى الحرب من باس
نسلب بالرعب عقول الورى
وعقلنا وافر فى الراس

وقد عمل فى ذلك جماعة كثيرة من الشعراء عدة مقاطيع على أنواع مختلفة ، وقد قلت أيضا :

ندفع بالصديق كيد العدا
ونرفض الباغى الذى ياسى
ومن نراه زاغ عن شرعنا
جوابه بالسيف فى الراس

وقيل ان السلطان لم يعجبه شىء من هذه الأجوبة التى أجابت بها الشعراء ، وانما أعجبه قول صفى الدين الحلى فكتبه عن جواب الصفوى ، وهو قوله :

ولى فرس للخير بالخير ملجم
ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقويمى فانى مقوم
ومن رام تعويجى فانى معوج

وقلت أيضا بخلاف ما تقدم من المعنى من زيادة فيها :

بالسيف والخنجر تفنى العدا
وكم لنا فى الحرب من باس
وليس شرب الدم فى شرعنا
بجائز والذم للآسى
من يبغض الصديق أو صحبه
فذاك أشقى الخلق فى الناس
ان كان قد ضلت عقول لكم
فعقلنا الوافر فى الراس

ومن مختر عاتى قولى فى أشكال الشطرنج ملتزما القافية على المعنى بما تقدم :

عساكر الصفوى ان فرزنت
فرخهم مكشوف للناس

ونفسهم قد أوجست خيفة
من عزمنا مع شدة الباس

وفيلهم قد صار ناموسة
مذ قابل الأسد بأفراس

ودستهم نصبا على رقعة
ان ديدبوا مرمادهم خاسى

فان مشى من جيشنا بيدق
يسوت شاه طايح الراس

وقولى أيضا فى مديح السلطان :

سلطان مصر لم يزل شأنه
على ملوك الأرض ذا باس

أعيذه من شر أعدائه
بسورة الفتح وبالناس

عسكره يوم الوغى طعنهم
فاق على طاعون عمواس

وان أتاه الخارج المعتدى
يجعله جسما بلا راس

ينسى الورى طاعون عمواس

وقال الأشمونى :

يراعنا الرمح وقرطاسنا
صدر عدو منكر الباس

مدادنا من دمه خطنا
تاريخ طعن مذكر الناس

وقال ابن الحجار :

يا قائلا أف على نرجس
أف على الباغى على الناس

فان خير الناس من لا يرى
شرب دم المسلم فى الكاس

وللناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

والعدل والحلم لنا حلة
حيكت مع القوة والباس

وسنة المختار طرز لها
وذكرنا تاج على الراس

وقوله أيضا :

نحن نجوم والسما ملكنا
يهدى بنا من ضل فى الناس

كم من مريد صار من شهبنا
شبه مريد وهو ذو باس

وقال الشربينى :

مغارس السنة بستاننا
نقطع منه هامة الراس

والدم لا يشرب فى شرعنا
لكن فينا قوة الباس

والعلم ثم الحلم من شأننا
كذا الحجا كالجبل الراسى

وفى ميادين الوغى عزمنا
يعجب منه سائر الناس

وقوله أيضا :

السب لا ينسب من شأننا
لكل سنى من الناس

وجيشنا كالرمل تعداده
ولم يرعنا بعشة الراس

وقال على الغزى :

نحن أسود الحرب غاباتها
رماحنا للطعن والباس

وخيلنا تسرع فى سوقها
شدت لحرب المعتدى القاسى
وسيفنا الهندى رقا للوغى
يمسح للكف مسح الراس
فدأبنا يوم لقتل العدا
ويوم للنرجس والآس
والمجد لا ينسب الا لنا
مقامنا الأشرف عباسى
من خالف السنة فى شرعنا
رد على أعقابه خاسى

ولابن العاقل :

تلاوة القرآن ريحاننا
ننشق منه خير أنفاس
شرابنا الذكر به يرتوى
سناء قلب غافل قاسى
والعدل والانصاف من دأبنا
من أجل ذا سدنا على الناس
ثناؤنا بين الورى نشره
أذكى من النرجس والآس
والحمد لله على أننا
أهل العلا والأيد والباس
من أظهر الغدر لنا فالجفا
منا له والسيف للراس
ومن أتانا مخلصا وده
له لدينا كل اينـاس

وقال آخر :

صحابة المختار ساداتنا
وما على المحسن من باس
نزهتنا وصل طراد العدا
وسيفنا يقطع للراس

ومن أسا ييأس من عفونا
أف على الأيس والآسى

وقال الشريف العباسى :

وسنة المختار خير الورى
جنتنا من كل وسواس
العدل والانصاف ريحاننا
خل شذى النرجس والآس
وشربنا من صفو توحيدنا
ليس من الجرة والكاس
وشأننا الحلم على من جنى
وديننا صون دم الناس

وقال شهاب الدين البحيرى المالكى :

السيف والخنجر ريحان من
يخشى من الضراء والباس
والعادل المنصف ياذا الحجا
ريحانه الاحسان للناس
شرابنا الذكر بكاس الهنا
أف على جمجمة الراس

وقال الشيخ ناصر الدين بن الطحان :

أسد الوغى فرساننا كم سقت
كأس المنايا باغيا آسى
ومن يزغ عن أمرنا طاغيا
نذقه مر الباس والكاس

وقوله أيضا :

شجعان مصر هم أسود الوغى
بقوة السطوة والباس
وفخرهم بالسيف والرمح قد
خص بهم عن سائر الناس

وقوله أيضا :

شم الرياحين يزيد القـــوى
وشـدة البطشـه والبـاس

والفتك فى الحـرب هو الفخر لا
لعـق الدما كالكلبُ فى الراس

وقال الفقيه موسى بن بقسماطة :

ان كان جبـد السيف ريحانكم
وكاســـكم جمجمة الراس

وشربكم من دم أعـدائكم
أف عليكم أرذل النـــاس

نحن تشرفنا عـــلى غـيرنا
بخـــدمة البيت فلا باس

أعـداؤنا من تحت أقدامنـا
وليس نخشى قط من خاسى

وقال الشيخ جمال الدين السلمولى :

آف عـــلى أفك يا خارجا
حجـاك محتـاج الى الآس

ما أنت الا جعلى عـــلى
رفضـك شم الورد والآس

ولنور الدين بن حشيش :

ان كان ضرب السيف ريحانكيم
وكأســـكم جمجمة الراس

وشربكم من دم أعـدائكم
آف عليـكم أرذل النـاس

وللناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

السمر والبيض غراس لنـــا
فى وســـط النمام والآس

وحلمنـا ستر لمن قد جنى
ان لم يكن فى النـاس ذا باس

وقال محمود الحلبى :

العـــز والسطوة ريحاننـا
لا من شـذى النرجس والآس

شرابنا التـــوحيد لا من دم
يشرب من جمجمـــة الراس

وقال اسماعيل :

خـدمة بيت الله والمصطفى
كلاهمـــا لى نوره كاسى

وملء ذاك الكاس توحيـد من
شرفنـا بالملك فى النـــاس

وصرت فى مصر عـزيزا بهـا
لا أختشى من كيد خنـاس

كنانة الله فمـن شـــانها
أهلـكه ذو الأيد والبـاس

وقد نظم فى هذا المعنى جماعة كثيرة من فضلاء العصر فوق المائتى انسان ، وقد جمعوا بين الغث والسمين ، وهذا ما وقع عليه اختيارى من هـذا المعنى بحسب ما تيسر لى من المقاطيع الرقيقة من هذه الأجوبة والخنجر المقـدم ذكر ذلك فى أول المقاطيع من هذا المعنى ، فمن ذلك قولى :

من عاب للنـــرجس والآس
أف عليـه فى الورى آسى

ومن يكون السـيف ريحانه
لا رأفة فى قلبـــه القـاسى

من كان شرب الدم من شأنه
وكأســـه جمجمـــة الراس

فذاك كالكلب العقـور الذى
لا يختشى فى النـاس من باس

انتهى ما أوردناه من هـذا المعنى . ويقرب من واقعة هـذين البيتين اللذين أرسلهما الصفوى فى معنى : السيف والخنجر ريحاننا ، فقد تقدم أن هلاكو ملك التتار لما استولى على بغداد وخربها وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل سائر أمرائه . فلما فعل ذلك ببغداد طمع فى أخـذ مصر فأرسل كتابا الى سلطان مصر والى أمرائه ، وذكر فيه ألفاظا فى ذيل كتابه هذين البيتين وهما :

أين المفـر ولا مفر لهـارب
ولنا البسيطان الثرى والمـاء
ذلت لهيبتنا الأسـود وأصبحت
فى يدنا الأمراء والخلفـاء

وقال بعد ذلك :

سـتعلم ليلى أى دين تداينت
وأى غريم بالتقاضى غريمهـا

وكان سلطان مصر يومئذ المظفر قطز المعـزى ، فلما سمع ذلك جمع العساكر ، وخرج الى هلاكو بعد أن وصل الى أطراف البلاد الشامية فتحارب معه ، فانكسر هلاكو كسرة مهولة وغنم منه عسكر مصر أشياء كثيرة من سـلاح ودواب وغير ذلك . وقد أوضحنا ذلك فى أوائل ابتداء الدولة التركية فى الجزء الرابع من التـاريخ ، فالصفوى بالنسبة الى هلاكو لا شىء ، وقد قال القائل :

لو كل من قال نارا أحرقت فمه
لمـا تفـوه باسم النار مخلوق

* * *

وفى ربيع الآخر أمر السلطان بحفر الخليج ثانى مرة ، ورسم للأمير أنص باى حاجب الحجـاب بأن يتوجه الى قناطر الأوز ويباشر حفر هـذا الخليج بنفسه ، فتوجه الى هنـاك وأقام به وضرب له الخيام ، واهتم بحفر الخليج من القنطرة الجديدة الى قناطر الأوز الى سد الخشب الذى عند ناى وطنان ، فاحتفل بحفره الى أن كاد أن ينبع المـاء من أرضه وأحضر الجراريف والأبقـار ... ولكن حصل من هذه الحركة غاية الضرر وهو أن السلطان رسم بأخذ خراج الحصص والرزق قاطبـة التى تروى من هذا الخليج ، فأخذوا منهم خراج سنة كاملة وتحصل من هذه الجهة نحو من خمسين ألف دينار على ما قيل ، فصرف منها البعض عـلى حفر الخليج وحمل الباقى الى الخزائن الشريفة وحصل للمقطعين الضرر الشامل .

وفيه أمر السلطان بعمل جسر فى خليج الزربية ، فوضعوه عنـد قنطرة موردة الجبس ، فامتنعت المراكب من الدخول الى الزربية ، وحصل لسكان الجـزيرة الوسطى غاية الضرر ، ولم سكن من بيوتها فى هذه السنة الا القليل وبارت من الكرى الذى جرت به العادة ، وكانت تتزاحم الناس على كراها ولا تلحق ، وكان القائم فى عمل هذا الجسر ابن فرو شيخ جهات المطرية ، وقد حسن للسلطان بأن بسد خليج الزربيـة من جهة بولاق ، ويصير الماء يدخل بعزم من تحت قصر ابن العينى الذى بالمنشية ويدخل الى الخليج الناصرى لبمكث الماء فى الخليج حتى تروى منه أراضى المطرية والبلاد التى تحتها .

وفى يوم الثلاثاء خامسه كان ختام ضرب الكرة بالميدان . فلما انتهى ذلك أحضر السـلطان ثيرانا وكباشا يتنـاطحون قدامه ، ووقع فى ذلك اليوم خصمانية بين المماليك فى لعب الرمح وكان قاصد الصـفوى حاضرا ، فلمـا انقضى أمر الكرة طلع السلطان من الميدان الى الحوش وجلس بالمقعـد الذى أنشأه هناك ومد به أسمطة حافلة ، وكانت

الأمـراء حاضرين ، وانشرح السـلطان فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأربعـاء ثالث عشره نزل السـلطان وتوجه الى نحو خليج الزعفران وكشف على حفر الخليج الذى رسم به ، وكان معـه جماعة من الأمراء المقدمين وبعض خاصكية . فلمـا نظر الى ما حفروه من الخليـج لم يعجبـه ، ومقت الأمير أنص باى حاجب الحجاب فيما صنعه ، ثم توجه من هناك الى تربة العادل التى بالريدانية فأقام بها الى بعد العصر ، وجرب هناك مكاحل ، ومد له بركات ابن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ، ثم ركب بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس رابع عشره قبض نائب الغيبة بالشرقية على شخص من العربان العصاة يقال له أحمد بن شكر ، وكان من شرار المفسدين ، فلمـا قبض عليه سلخ جلده وحشـاه تبنا وأرسله الى السلطان ، فسر الناس لذلك فانه كان من كبـار المؤذين وكان بشوش على المسافرين ففرح به كل أحد من الناس ، فكان كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفى يوم الأحد سابع عشره نزل السلطان أيضا وتوجه الى تربة العادل ، وجربوا قدامه مكاحل غير تلك المقدم ذكرها .

وفى ذلك اليوم توفى أيدكى دوادار سكين ، وقد بقى من الأمراء العشراوات ، وكان لين الجانب قليل الأذى ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره جلس السلطان فى المقعد الذى بالميدان وساقت الرماحة قدامه وهم لابسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحمل فى رجب ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام متوالية ، وكان المعلم نمر الحسنى أحـد المقدمين الألوف فساقوا أحسن سوق ، وكان قاصد الصفوى فتعجب من ذلك غاية العجب .

وفى هذا الشهر أمر السلطان بهدم خان ا وقد ملكه بطريق شرعى ، فلما هدمه أنشأه جديدا وجعل به الحواصل والدكاكين ، و تزخرفه جدا .

وفى أواخر هذا الشهر توفيت الريسة ا ريسة خوند الخاصبكية ، وكانت من أعياذ البلد ، وكانت لا بأس بها .

***

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين ثانيه ختام سوق الرماحة ، وخلع السلطان على والأربعة باشات على جارى العـادة ، وكاذ مشهودا .

وفى يوم الجمعة سـادسه خلع السـلطا قاصد الصفوى وأذن له بالعود الى بلاده ، فى باكر النهار ، ولم يعلم ما أجابه به السلطا جـواب البيتين اللذين تقـدم ذكرهما فى م السيف والخنجر ريحاننا ، ولم يكتب له شئ أجاب به الشعراء ، وفى مدة اقامته بمصر و السـلطان جمـاعة من الخـاصكية ومنعو الاجتماع بالناس قاطبة .

وفيه قبض السلطان على المعلم على الصـ وأخيه المعلم أحمد والمعلم خضر المعاملين فى ال فلما قبض عليهم وضعوهم فى الحديد وسـ بالعرقانة . وسـبب ذلك أن ديوان الدولة ك غاية الانشحات واللحوم معطلة ، وانكسر للع نحو من ثلاثة أشهر لم يصرف فيهـا لهم لحو وقد جرى بسبب ذلك ما لا خير فيـه ، وسـ الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره تسلسل النيل الزيادة بعد ما كان قد أشرف على الوفاء ، فر

السلطان لحاجب الحجاب والوالى بأن يتوجهـا ويكبسا على المتفرجين الذين فى الخيام بالروضة ، فتوجه الى الروضـة أنص باى حاجب الحجـاب ووالى القـاهرة ، فلم يشـوشا على أحـد من المتفرجين ، ونـاديا بالأمان والاطمئنان ، وأن أحدا لا يتجاهر بالمعاصى ، وخرقا بعض خيـام ، وكان يوما مهولا .

وسـبب ذلك أن النيـل كان قد أشرف على الوفاء ، وبقى عليه من الوفاء خمس أصابع ، فزاد فى تلك الليلة أصـبعين وتأخر عن الوفاء ثلاث أصابع ، ثم زاد من بعد ذلك أصبعين وتأخر عن الوفاء يومئذ أصبعا واحدة فصبح الناس من ذلك ، وأشيع بين الناس أن الروضه كثر فيها الفسق والمعاصى ... فعند ذلك رسم السلطان لحـاجب الحجاب والوالى بكبس الروضـة ، فتوجها الى هناك ، وكبسا على النـاس الذين بالخيـام ولم يفحشـا كل الافحاش فى ذلك . وكان السـلطان قبل ذلك توجه الى المقياس وصلى هناك ودعا الى الله تعالى بالوفاء ، ثم انه رسم للقصاة الأربعة بأن يتوجهوا الى المقياس ويبيتوا به ، وقرأوا هنـاك ختمة ، ومد أسمطة حافلة ، واجتمع هنـاك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغير ذلك من مشاهير الناس

ثم فى يوم الخميس ثانى عشره نزل السلطان الى المقياس ، فقدموا له الحراقة المعـدة لكسر السد ، فنزل بها وتوجه الى المقياس ، فطلع من على القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، فأقام هناك الى بعد الظهر ، ومد هنـاك مدة حافلة ، ثم نزل من المقياس فى الحراقة وشق من بر الروضة . فارتفعت الأصـوات له بالدعاء ، وانطلقت له النسـاء من الطيقان بالزغاريت ، ولا سيما كانت ليـلة وفاء النيل وكانت الروضة فى غاية البهجة وهى محتبكة بالخيام ، فكان له يوم مشهود ، فاستمر شاقفا فى البحـر حتى طلع من عنـد قصر ابن العينى . فلما طلع الى القلعـة أوفى النيل فى تلك الليلة ، وكسر فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى الموافق لخامس عشر مسرى ، فاسـتبشر النـاس بنزول السلطان الى المقياس وكونه أوفى النيل تلك الليلة بقدومه الى المقياس .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو قناطر الأوز وكشف على الحفر الذى حفره أنص باى حاجب الحجاب ، وشق من بطن الخليج فلم يعجبه القطع فأمر باعادته ثانيا ففعلوا ذلك . فكان كما قيل فى المعنى :

مولاى ان النيـل لمـا زرته
حياك وهو أبو الوفا بالأصبع
أرخى عليـه الستر لما جئته
خجـلا ومد تضرعا بالأذرع

وكان النيل قد توقف عن الوفاء على أصـبع واحدة فأوفى تلك الليلة وزاد عن الوفاء أصبعين . وكان مع السلطان لما نزل الى المقياس الأتابكى سودون العجمى والأمير أركمـاس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والعشراوات . فلما وفى النيل علقوا الستر فى شباك القصر الذى أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، ثم رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السـد على العـادة ، فنزل فى الحراقة وأتى للمقياس وخلق العمود ، ثم توجه الى فتح السد ، وكان له يوم مشهود ، وهذا أول فتحه للسد وهو فى الأتابكية فأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة ولكن لم يصل فى ذلك الى من تقـدمه من الأتابكية . فلمـا فتح السد قدموا له فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم طلع الى القلعـة وخلع عليه السلطان خلعة حافلة على العـادة . وقد سر الناس بوفاء النيـل قاطبة

بعد ما كان قد تسلسل فى الانكسار وتشحطت الغلال فجاء الفرج من عند الله تعالى ، فكان كما قيل فى المعنى :

ان بحر النيل قد وفى لنا
ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين الا أنه
حين وفى ما عليه انكسرا

ومما وقع فى يوم فتح السد من الوقائع المهولة أن الناصرى محمد بن العلاء على بن خاص بك توجه الى دار عند قنطرة سنقر ليتفرج هناك على قتال الزعر ، فلما قعد فى تلك الدار اجتمع فوق سطحها نحو من مائتى انسان بسبب الفرجة ، فهجم عليهم طائفة من المماليك ، وطلعوا فوق السطح فوقع بهم على من فى الدار فقتل من المماليك سبعة أنفس وقتلت امرأة صاحبة الدار وجاريتها ومن كان عندها من العيال ، ثم وقع سقف الدار على الناصرى محمد بن خاص بك فتصلب عليه الخشب هو وولده فلم يضره ذلك لكن حصل له تشويش فى بعض أعضائه وانزعاج وكانت سلامته على غير القياس هو وولده ، ومات من جماعته شخص يسمى أحمد كنينوا وكان من أولاد الناس وهو حواليه يتقاضى أشغاله وكان لا بأس به ، فرجع ابن خاص بك الى بيته وهو محمول ودفن أحمد كنينوا فى ذلك اليوم ، وكان عدة من قتل فى ذلك اليوم تحت الردم سبعة عشر انسانا ما بين رجال ونساء ، وكانت حادثة مهولة لم تكن لأحد فى اكتلاء والمقدر كائن ، كما يقال فى أمثال الصادح والباغم حيث يقول :

والمرء لا يدرى متى يمتحن
فانه فى دهره مرتهن

وقوله أيضا :

وليس فى العالم ظلم جارى
اذ كان ما يجرى بحكم البارى

وفيه أفرج السلطان عن أبى البقا ناظر الاسطبل بعد ما قاسى شدائد ومحنا وضرب بين يدى السلطان وصودر ، فطلع علاء الدين ناظر الخاص وتسلمه من قدام السلطان وضمنه فى ثمانية آلاف دينار ، فخلع عليه السلطان ونزل الى داره واستمر يورد ما قرر عليه من المال .

ومن الوقائع أن السلطان قبل وفاء النيل أمر يعمل جسر على خليج الزربية من عند قنطرة موردة الجبس ، حتى يحوش الماء ويدخل الى الخليج الناصرى وتروى منه جهات المطرية . فلما صنع هذا الجسر حصل لسكان الزربية غاية الضرر ، وامتنعت عنها المراكب من نحو بولاق ، وصار ماء الخليج راكدا ، فلم يسكن بالزربية بيت فى هذه السنة ولا عمل بها مقصف ولا فتح بها دكان وآل أمرها الى الخراب . وكان القائم فى عمل هذا الجسر ابن فرو شيخ جهات المطرية حتى يحوش الماء من الخليج الناصرى ، وكان النيل فى هذه السنة عاليا فلم يحتج الى عمل هذا الجسر .

وفى هذا الشهر منع السلطان جماعة من المباشرين ألا يسكنوا فى بركة الرطلى ، وضيق عليهم فى ذلك ، وقال لهم : « أنتم تضيعون مالى فى بركة الرطلى فلا يسكن أحد منكم بها » ، فلم يسكن بها أحد من المباشرين فى هذه السنة حتى ولا القضاة فكانت بركة الرطلى فى هذه السنة فى غاية الانهمال وقلة البهجة ، حتى ولا بيوت الجسر لم يسكن بها الا القليل .

وقد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد سد فم البركة ويمنع المراكب من الدخول اليها ، فحصل للناس غاية المشقة بسبب هذه الاشاعات ، فلم يكن

لهذا الكلام صحة ، ولكن لم يسكن بها أحد من المباشرين فى هذه النيلية . وقد تقدم ما أشيع من أن الملك الظاهر جقمق أمر بسد خوخة باب الجسر ومنع الناس من سكنته ، فسدت خوخة باب الجسر وأقامت وهى مسدودة أياما حتى تكلم ناظر الخاص يوسف مع السلطان فى أمرها فرسم بفتحها على العادة .

وفى يوم الخميس تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الكرج ، فأكرمه السلطان وقرأ مطالعتــه ، وأوكب له فى الحوش ، وجلس على المصطبة التى أنشأها عوضا عن الدكة بالحوش .

وفى يوم الأحد رابع عشرين مسرى زاد الله فى النيل المبارك بعد الوفاء ثمانى أصابع دفعة واحدة فعد ذلك من النوادر ، وقد بلغ الى ثمانى عشرة ذراعا قبل مضى مسرى .

وفى ليلة الثلاثاء رابع عشرينه أشيع بين الناس أن المعلم على الصغير معامل اللحم قد تسحب من السجن المسمى بالعرقانة التى هى من داخل الحوش السلطانى ، قيل انهم نقبوا حائط السجن ونزلوا فى حبال الى تحت القلعه ، وكان بالعرقانة جماعه من المعاملين وهم المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد والمعلم خضر وأخوه المعلم محمد ، فأما المعلم على الصغير لما تدلى فى الحبل انقطع به فنزل على ضلعه فانكسر فأغمى عليــه ، واستمر باركا مكانه حتى قبضوا عليه . ثم فى صبيحة ذلك قبضوا على المعلم خضر والمعلم أحمد أخى على الصغير وآخرين منهم ، فلما عرضوا على السلطان وبخهم بالكلام واشتد غضبه عليهم ورسم بتسليمهم الى الوالى .

ومما وقع للسلطان فى أمر المصادرات من الغرائب ، أنه فى أوائل دولته قبض على شموال اليهودى الصيرفى وعاقبه وعصره هو وزوجته ، واستخرج منه فوق الخمسمائة ألف دينار ، حتى أخذ رخام بيته الذى فى حارة زويلة فوضعه فى مدرسته ، واستمر يعاقب شموال هو وزوجته حتى ماتا تحت العقوبة .

وفى يوم الثلاثاء المذكور قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده ووكل بهما فى الجامع الذى بالحوش ، وكان شمس الدين بن عوض رأس المرافعين فى المباشرين قاطبة وهو غير محبب للناس .

وفى يوم السبت ثامن عشرينه فيــه ثارت فتنة كبيرة من المماليك الجلبان ، وركبوا وطلعوا الى الرملة وهم بزموط وكبورة . وكان سبب ذلك أن اللحم الذى كان يصرف للمماليك فى كل يوم تعطل بواسطة المعلم على الصغير والمعلم خضر بسبب ما تقدم لهما ، وكان العليق أيضا معطلا ، فما طاق المماليك ذلك فثارت الفتنة من كل جانب وركبوا على السلطان ، وقصدوا قتل الوزير يوسفه البدرى فهرب وغيب من بيتــه ، ثم ان المماليك طلبوا من السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار ، وكان للمماليك مدة يقصدون الوثوب على السلطان فما صدقوا بأمر اللحم والعليق فجعلوا ذلك حجة .

فلما ثارت هذه الفتنة اضطربت أحوال القاهرة ووزع الناس قماشهم وغلقت الأسواق والدكاكين خوفا من النهب كما فعل المماليك قبل ذلك من أمر النهب كما تقدم لهم ، فبات الناس على وجل .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك خشى السلطان من اتساع الفتنة فنادى للمماليك بأن ينفق عليهم لكل مملوك مائة دينار فى أول شهر رجب ، فلما سمع المماليك ذلك خمدت الفتنة قليلا ، وسكن الحال بعد ذلك الاضطراب .

وفى هذا الشهر أفرج السلطان عن القاضى

شرف الدين الصغير ناظر الدولة وكاتب المماليك ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بجامع القلعه ، وأفرج عن عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد بن صلاح الدين وكانا فى الحديد وهما فى الترسيم بجامع القلعة ، وأفرج عن علم الدين المتحدث فى الخزائن الشريفة ، وأفرج عن المعلم يعقوب اليهودى وبانوب النصرانى الكاتب فى الخزانة ، فلما أفرج عن هؤلاء وزع عليهم أربعمائة ألف دينار ، فقرر على عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد خمسين ألف دينار ، وقرر على شرف الدين الصغير عشرين ألف دينار ، وقرر على علم الدين خمسين ألف دينار ، وقرر على المعلم يعقوب اليهودى مائة وأربعين ألف دينار ، وأفرج عن شمس الدين بن عوض وعن ولده ، وقرر على شمس الدين بن عوض مائة ألف دينار ، وقرر على بانوب النصرانى عشرين ألف دينار ، وهذا على ما أشيع بين الناس ان كان صحيحا ، فقيل كتبوا خطوط أيديهم بذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم الخميس ثالثه ، نزل السلطان من القلعة وشق من القاهرة وقدامه ولده ، فزينت له القاهرة ، واستمر حتى نزل فى جامعه الذى أنشأه فى الشرابشيين ، فكشف عليه وعلى المدرسة ، فمد له هناك الأمير خاير بك مدة حافلة ، وأنعم فى ذلك اليوم على صوفية المدرسة لكل واحد منهم ، وأنعم على البوابين والفراشين وأيتام المكتب ، ففرق فى ذلك اليوم نحوا من خمسمائة دينار بأشرفى ، وأنعم على مشايخ الدرس لكل واحد بعشرة أشرفية ، وحضر قدامه قراء البلد والوعاظ ، وكان له موكب حافل ، ومشت قدامه الأمراء الرءوس النوب بالعصى من باب زويلة الى الجامع ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له الزغاريت من الطيقان ، ولم يقع له من حين عمر الجامع والمدرسة أنه نزل وكشف على عمارتهما سوى هذه المرة ، وكان له يوم مشهود .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن السلطان لما طلع الى المدرسة تزاحمت الناس على سلم المدرسة فوقع الافريز الرخام الذى كان على السلم فانعطب من تحته شخص كان تحت السلم فانكسرت رجله ، وحصل لجماعة آخرين الضرر الشامل بسبب ذلك . وكان معه من الأمراء الأتابكى سودون العجمى ، وأركماس أمير مجلس ، والأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، والأمير طومان باى الدوادار قريب السلطان ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية .

وفيه توفى شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له أزبك الشريفى ، وكان يعرف بأزبك اليهودى ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم السبت خامسه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو المطرية ، ثم رجع ودخل من باب النصر وأتى الى خان الخليلى وكشف عن العمارة التى أنشأها هناك ، وقد ملك خان الخليلى وهدمه وأنشأه عمارة جديدة .

وفى يوم الاثنين رابع عشره عمل السلطان الموكب فى الحوش بالشاش والقماش وخلع على الأتابكى سودون العجمى خلعة الأنظار ، وكذلك سودون الدواداری رأس نوبة النوب .

وفى يوم الخميس سابع عشره عرض السلطان المعلم على الصغير وأخاه المعلم أحمد والمعلم خضر وكانوا فى الترسيم مدة ، فلما عرضوا على السلطان قرر عليهم اثنى عشر ألف دينار وألزمهم بأن يحضروا ذلك فى تلك الساعة وكان يوم الجامكية ، فقالوا

ما نقــدر على ذلك ، فحنق السلطان منهم ، فأمر بضربهم بالمقارع فضربوا ضربا مبرحا حتى أشرفوا على الموت ، ولم يقدر أحد من الأمراء يشفع فيهم ، وقد قيل فى المعنى :

ومن خدم السلطان أكرم نفسه
ولكنــه عمــا قليــل أهانهــا

كمن عبد النيران لم ينتفع بهــا
ولم يلق الا حــرها ودخانهــا

وفى يوم الأحــد عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطعم السلطانى ، فجربوا هناك قدامه عدة مكاحل فصح منها بعض شىء ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه توجه السلطان الى سد أبى المنجا ففتح بحضرته ، وكان يوما مشهودا ، ثم توجه من هناك ونزل فى الحراقة الى نحو المقياس فمد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة فأقام هناك الى بعد الظهر ، ثم نزل فى الحراقة وأتى الى بولاق فكشف عن المراكب التى أنشأها هناك ، ثم عزم عليه الأمير خاير بك الخازندار فى السبكية التى ببولاق فمد له هنــاك مدة حافلة ، فأقام هنــاك الى بعد العصر فركب وشق من على جزيرة الفيل من بين الغيطان ، واستمر شاققا حتى طلع من على قنطرة باب البحر وشق من المقس ، ثم أتى الى باب القنطرة وكشف على الربعين اللذين أنشــأهما هنــاك ، ثم شق من سوق مرجوش الى القاهرة وخرج من باب زويلة وطلع من هناك الى القلعة ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية

وفى يوم السبت ســادس عشرينه رسم السلطان بتوسيط تسعة أنفار ، منهم مشــايخ عربان ومنهم جماعة كانوا نقبوا حائط المقشرة وقصدوا التسحب من هناك فأدركوهم وقبضوا عليهم ، ثم وسطوهم فى أماكن شتى .

وفى هذا الشهر عم النيل أراضى الديار المصرية وتطنبت منه الحلجان ، وكانت البهجة فى هذه السنة للخليج الحــاكمى لكون أن السلطان على قنطرة الخروبى وقنطرة باب القنطرة ، وصار يدخل من تحتهما المراكب المسترة بالدلور ، فصــار الناس ينزلون فى المراكب ويشقون الخليــج الحاكمى الى عنــد قنطرة السد ويرجعون ، فحصل للمتفرجين بهجة ثانية . ونظم الشيخ بدر الدين الزيتونى فى هذه الواقعة بديعية كلها غرر ، وذكر فيها ما جدده السلطان من قنــاطر وعمائر وغيطان وغير ذلك من التذكار الحسن بالديار المصرية وغيرها من الجهات ، كما ســيأتى الكلام على ذلك فى القصــيدة التى نوردها هنا وهى هذه :

قد جــدد الغورى ســـــلطاننا
قنــاطر للأجــر والخــير

أكــرم به من ملك أشرف
مؤيد بالعــز منصـــــور

على الخليج الحاكمى وضــعها
قد شــــاع فى طول وتقصــير

قنــاطر الور لقــد أقامت
تزهو ببشـــــنين وفرفور

كذا بنى وايل معمـــــورة
بأمــره من غــير مأمور

وجددت قنطره بعـــدها
بالكحل قد ضــاءت من النور

قنطرة الحاجب تجــــديده
والعين للحاجب ذو نور

فاق على الخروب فيما بنى
من ضـــيق بنيان وتحقير

وكان فى تجددها حكمة
لم يحتكمها صاحب السور

قنطرة الباب ترى فوقهـــا
بابا بها يســـمى بتقدير
على بنـاها صـار فى وسـعة
يدخل فيها كل شـــختور
بعدة القلع وان شـــاء فى
مســـتر فيهـــا بـدلور
لا يقطع الموصـــول مع منشد
غنى على دف وطنبـور
وكل عـــواد نرى عـنـوده
صـحبة جنـكلى وسـنطير
ناصبها أعـرب فى رفعها
مركب فى الكسر مجـرور
والموسـكى صـلح بنيانهـا
بسرعة منـه على الفور
كذا حسـين صار مع سـنقر
بناهما فى مصر كالطور
وباب خرق حار لمـا رأى
قنطرة فاقت على السور
طقـزدمر شـيد بنيـانه
كذا عمـر شاه بعد تأخير
وكم سـباع قادها نصره
تسلسلت من غـير تنـكير
ومن بكى فى السـد يوم الوفا
بجـبر قلب غـير منـكور
فهـــو نهار الكسر مع جبـره
ما بين مكسور ومجبور
وجسر البحــر بزاربيـة
فجاء جسر غير مشكور
وانقطعت لذات ســكانها
من مقلع يأتى ومحدور

وجدد المقياس حتى غدا
يزهو بمنظـــوم ومنثور
ومجـرة الميـدان انشـاءه
عقـودها دور على دور
ميدانه يحكى لنا جنـة
مسـاكن الولدان والحور
أغصـانه هب عليها الهوى
من كل ممدود ومقصور
أطياره فى دوحها غـردت
من كل مسـموع وعصفور
وكل سن ضـاحك مطـرب
وكل حســون وزرزور
وبلبـــل هيج بلبالنـــا
وكل قمـــرى وشحرور
ومن هـزار بات مع الفـه
مطوقا بالوصـــل مسرور
وفاخت فى شـــكره دائمـــا
فى ضيقة الأقفـــاص مأسور
وبحرة هب عليهـــا الهـــوا
جعدها تنقيش تصـــوير
فى جمع تصـحيح ترى ماءها
وبالهـوا فى جمـع تـكسير
وعمر القلعة صـــارت به
أماكنـــا عامـرة الدور
وقد حـــوى فى مصر من جامع
فرد بذكر الله معمـــور
والقبـــة الزرقا وصهريجهـــا
والمـــاء والكيزان والزير
كأن برد الثلج فى مائه
لكل عطشـــان ومحـرور

وفى طريق الحج كم منهل
عمره قصدا الى الخير
وعين بازان جرى ماؤها
تجديدها أمنا من الغور
فالله ينصره ويبقى لنا
أيامه آمنا بلا جور
وصل يا رب على المصطفى
منقذنا من كل محذور
صلاة زيتون يرى نشرها
أطيب من مسك وكافور
والآل والأنصار مع صحبه
أهل الثنا والفضل والخير
ما أقبل الصبح بأنواره
وأدبر الليل بديجور

* * *

وفى رجب — فى يوم مستهله — توجهت طائفة من المماليك الجلبان الى شونة السلطان ونهبوا أشياء كثيرة من الشعير ، فعز ذلك على السلطان ، وكانت المماليك متقحمة على الشر ، وأشيع أمر الركوب وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك

وفى يوم الجمعة ثالثه ، الموافق لسابع عشرين توت القبطى ، ثبت النيل المبارك على تسع أصابع من عشرين ذراعا ، وكان نيلا جيدا لكن كان حب البرسيم غاليا وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل أردب ، وارتفع سعر سائر الغلال ، واستمر النيل ثابتا الى أواخر بابه .

وفى يوم الأحد خامسه ، قوى أمر الاشاعة بركوب المماليك ووزع التجار ما كان عندهم من القماش وغلقت الأسواق قاطبة ، وسبب ذلك أن السلطان رجع عن أمر النفقة بعد أن نادى فى القاهرة للعسكر بأن النفقة مع جامكية شهر رجب فلما رجع عن ذلك أشيع أمر الركوب .

وفى يوم الأحد خامسه . عرض السلطان المماليك فى الحوش وهم مماليكه الجلبان فقط ، فلما عرضهم وبحهم بالكلام وقال : أنا أخلع نفسى من السلطنة وولوا من تختارونه ، فأقام يعرض المماليك الى بعد العصر ، فآل الأمر الى أن وقع الاتفاق على أنه ينفق على مماليكه المشتريات فقط وأن النفقة تكون أربعين دينارا . فامتنع المماليك من ذلك ، فتكلم بعض الأمراء مع السلطان بأن تكون النفقة خمسين دينارا وهو يقول : « ما أقدر على ذلك » ، فانفصل المجلس على أنه ينفق عليهم لكل مملوك خمسين دينارا ، ثم ان السلطان شرع فى بيع أملاك ورزق مما كان أوقفهم على مدرسته بسبب تحصيل المال لأجل النفقة ، وأظهر أن الخزائن مشحوتة من المال وأنه عاجز عن تحصيل المال .

وفى ليلة الثلاثاء رابع عشره فيها خسف جرم القمر خسوفا فاحشا ، وأقام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة حتى أظلمت الدنيا ، ولم ينجل الى قريب التسبيح ، وفى واقعة حال الخسوف يقول بعض الشعراء :

كأنما البدر وقد شانه
خسوفه فى ليلة البدر
وجه مليح حسن وجهه
جارت عليه ظلمة الشعر

ثم ان السلطان رمى على التجار فاطبه شاشات وأزرا وأثوابا صوفا ، ورمى على السوقة ريتا وعسلا وزبيبا وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث . وصاروا يستحثونهم فى سرعة الثمن لأجل النفقة ، فغلقت الأسواق بسبب ذلك واقامت وهى مغلوقة أياما ، ثم ان السلطان رمى على بعض جماعة من الأمراء المقدمين ورق مشترياته ، وحثهم فى سرعة

قبض ثمن ذلك ، ورمى على جماعة من أعيان اولاد الناس قبل ذلك وحثهم فى سرعة قبض ثمن ذلك . ومن جملة أولاد الناس الناصرى محمد بن خاص بك ، وغيره من اولاد الناس أيضا وحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذه النفقة ، ثم ان السلطان أنفق على مماليكه المشتريات فقط ولم يعط المماليك القرانصة شيئا ولا مماليك الأشرف قايتباى ولا المماليك السيفية ، فأنفق على مماليكه لكل مملوك خمسين دينارا ، فعز ذلك على المماليك القرانصة وكثر القال والقيل فى ذلك ، وأشيع أمر الركوب على السلطان بسبب ذلك ، فلم يطلع من يدى المماليك القرانصة شىء وراحت على من راحت ، وأكمل السلطان النفقة على مماليكه ولم يعط القرانصة شيئا .

وفى يوم الأحد سادس عشرينه تشحط اللحم من القلعة وأقام أياما لم يصرف للعسكر لحم سوى للمماليك الذين فى الطباق فقط ، فنهب المماليك القرانصة اللحم وهو طالع الى القلعة ففعلوا ذلك مرتين فى هذا الشهر

***

وفى شعبان — فى يوم الخميس مستهله — خلع السلطان على الأمير يوسف الناصرى ، الذى كان نائب حماة وولى نيابة ملطية وحماة ونيابة قلعة حلب ثم حضر الى الديار المصرية ، فقرره فى شادية الشراب خاناه ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين توجه الأمير أبرك مملوك السلطان الى حلب وأعيد الى نيابة قلعتها كما كان ، وذلك قبل أن يلى نيابة طرابلس .

وفى هذا الشهر تشحط اللحم البقرى والضانى أيضا واضطربت أحوال القاهرة ، وكان سبب ذلك أن السلطان قد رمى على الجزارين نيران الأكرة وأقامها عليهم كل ثور بأربعين دينارا ، فهرب الجزارون من هذه الرماية وتعطل بيع اللحم البقرى والضانى ، فأقامت المدينة معطلة أياما حتى تراجع الأمر قليلا ، وكانت لحوم العسكر معطلة نحوا من أربعة أشهر لم تصرف بسبب ما جرى للمعلم على الصغير والمعلم خضر كما تقدم .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو تربة العادل وجرب هناك مكاحل ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الأحد ثامن عشره نزل السلطان وشق من القاهرة وتوجه الى خان الخليلى وكشف عن عمارته التى أنشأها هناك ، ثم توجه الى باب الفتوح وكشف عن عمارة الأتابكى قرقماس التى أنشأها هناك ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو بولاق وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، ثم نزل فى الحراقة وتوجه الى المقياس وجلس فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، ثم صلى العصر وعدى من المقياس الى بر مصر وطلع الى القلعة وشق من الصليبة فى موكب حافل

وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه ، الموافق لسابع عشر هاتور القبطى ، فيه قلع السلطان البياض ولبس الصوف .

ثم فى يوم السبت صبيحة ذلك نزل السلطان وتوجه الى نحو مدرسته التى بالشرابشيين ، فمد له هناك الأمير خاير بك الخازندار مدة حافلة فأكل منها ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أنعم السلطان على الأمير أزبك المكحل بتقدمة ألف كما كان أولا ، وكان من حين شفع

فيه قرقد بك بن عثمان وحضر من دمياط وهو طرخان ، وأنعم على قانصوه الفاجر بتقدمة ألف أيضا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد سماطا حافلا ، وأقام هناك الى بعد العصر ، وعدى من هناك الى نحو بولاق فكشف على المراكب ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى رمضان — وكان مستهله يوم السبت — طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وطلع الوزير يوسف البدرى الى القلعة والزينى بركات ابن موسى المحتسب ، وطلعوا باللحم والخبز والدقيق والسكر وهو مزفوف على رءوس الحمالين وكان السلطان فى الميدان فخلع عليهما ، وكان يوما مشهودا .

وفيه وزع السلطان على اليهود السمرة نحوا من سبعين ألف دينار فتشكوا من ذلك ، وسبب توزيع هذا المال أن المعلم يعقوب اليهودى لما صادره السلطان قرر عليه مائة ألف دينار فشكا من ذلك وأظهر العجز ، فرسم السلطان بأن طائفة اليهود السمرة والربان تساعد المعلم يعقوب فى هذه المصادرة ، فوزعوا ذلك على السمرة والربان والقراء وجماعة من التجار اليهود ، فحصل لهم الضرر الشامل قاطبة ، وقيل تضاعفت هذه المصادرة الى دون المائة ألف دينار .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من البلاد الحلبية والشامية بأن الموت قد كثر فى الأبقار فمات منها ما لا يحصى ، وقد وقع مثل ذلك بالديار المصرية فى أيام الخلفاء الفاطميين .

وفى يوم الأحد تاسعه نزل السلطان من القلعة وصحبته ولده ، فتوجه الى نحو المطعم السلطانى وجلس على المصطبة التى هناك ، فرموا قدامه رماية بالطيور والكلاب وانشرح فى ذلك اليوم ، وسير الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الخميس ثالث عشره حضر الى الأبواب الشريفة قانصوه خازندار الأمير آزدمر الدوادار الكبير كان ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا فى نيابة عينتاب فسعوا عليه حتى عزل ورجع الى مصر وهو معزول ، بعد أن سعى فى ذلك بمال له صورة فأقام مدة يسيرة وعزل عنها .

وفيه تغير خاطر السلطان على الرئيس كمال الدين بن شمس المزين ، وكان من خواصه ، فمنعه من الطلوع الى القلعة ورسم له بأن يتوجه الى بلاده ويقيم بها .

وفى يوم الأحد سابع عشره توفى الأمير عبد اللطيف الزمام وكان أصله من خدام الأشرف اينال وكان دينا خيرا لين الجانب قليل الأذى ، وكان قد كبر سنه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر وكان رومى الجنس أبيض اللون طويل القامة نحيف الجسد .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره تغير خاطر السلطان على القاضى أبى البقاء ناظر الاسطبل ومستوفى الخاص ، فوضعه فى الحديد وعراه من أثوابه وكشف رأسه وكان ذلك فى قوة البرد ، فسلمه الى الوالى فى ذلك اليوم ونزل من القلعة وهو ماشى عريان مكشوف الرأس فى الحديد ، وحلف السلطان بحياة رأسه أنه لا يلبس أثوابه ولا عمامته حتى يغلق ما قرره عليه من المال ، ورسم للوالى بأن يقعده على البلاط من غير فرش ، وهذه ثانى نكبة وقعت لأبى البقا مع السلطان وكان مظلوما مع السلطان فى هذه الواقعة ، فان أمره كان رائجا وله دواليب قصب بدمياط تسد ما عليه فوضع

السلطان يده على الدواليب وطلب منه بعد ذلك المال الذى قرره عليه فحصل له الضرر الشامل بسبب ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا من يرى خدمة السلطان عمدته
هل أرث ذلك الا الهم والهرم
فقلبه وجل والنفس خائفة
وعرضه عرض والدين ملتثم
هذا اذا كان فى أيام دولته
فكيف بالمرء ان زلت به القدم

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر وكانت فى غاية الانشحات من تعطيل المباشرين .

وفى يوم السبت ثانى عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة شخص من أمراء عربان الشام يقال له محمد بن ساعد ، وكان من العصاة لم يدخل قط تحت طاعة السلاطين ولا نواب الشام ، وكانوا يخشون من بأسه ، فحضر فى دولة الغورى الى الديار المصرية وصحبته تقدمة حافلة الى السلطان ما بين مال وخيول وسلاح وغير ذلك ، فعد حضور ابن ساعد الى مصر من جملة سعد السلطان قانصوه الغورى وكيف دخل تحت طاعته ، وقد قيل فى المعنى :

أيا مليك العصر لا زلت فى
عز وتأييد ونصر وفى
صارمك المشهور ماضى الشبا
ونورك بالسعد لا ينطفى

وفى يوم الأحد ثالث عشرينه نزل السلطان من القلعة وصحبته ولده ، فتوجه الى المقياس وأقام به ساعة ، ثم نزل فى الحراقة وأتى الى بولاق وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، ثم ركب من هناك وأتى الى قنطرة الحاجب فطلع من عليها ودخل من باب الشعرية ، ثم آتى الى باب القنطرة وكشف على الربع الذى عمره على القنطرة من الجهتين ، وخرج من باب القنطرة وشق من سوق مرجوش ، ثم شق من القاهرة وطلع من بابى زويلة الى القلعة ، وكان فى نفرقليل من العسكر ، ومشى الوالى ورءوس النوب قدامه بالعصى والزينى بركات بن موسى المحتسب من بولاق الى القلعة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه نزل السلطان وسير الى جهة المطرية ثم عاد الى القلعة .

وفى ذلك اليوم كان ختم البخارى بالحوش السلطانى فى خيمة كبيرة وحضر القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على من له عادة من الفقهاء ، وخلع على القضاة الأربعة ومن له عادة من العلماء ، وكان ختما حافلا .

وفى هذا الشهر كان سعر الحلوى المشبك والمنفوش فى غاية الارتفاع بموجب غلو السكر والفستق فرفعت هذه القصيدة الى القاضى بركات ابن موسى المحتسب بمعنى أنواع الحلوى وذكرت فيها أشياء لطيفة فمن ذلك قولى :

لقد جاد بالبركات فضل زماننا
بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكتها شفاه الغانيات حلاوة
ألم ترنى من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها
يبدد فيها ماله ويضيع
فكم ست حسن مع أصابع زينب
بها كل ما تهوى النفوس مجمع
وكم كعكة تحكى أساور فضة
وكم عقدة حلت بها البسط أجمع
كفوف من الحلوى غدت مبسوطة[1]
لكم بدعاء صالح تتضرع

(١) الشطرة مكسورة .

وكم قد حلا فى مصر من قاهرية
كذاك المشبك وصله ليس يقطع
وفى ثوبه المنفوش جاء بورنق
فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد صرت فى وصف القطايف هائما
ترانى لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضيا بالله محتسبا عسى
ترخص لنا الحلوى نطيب وترتع

وفى يوم السبت تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، وكانت فى هذه السنة فى غاية الوحاشة وهى من القماش القطنيات الملون التى مثل العنكبوت وغالبها بلا طرز ، ولم يعطوا لأحد عادته غير أصحاب الوظائف فقط ، فحل عند الناس كسر خاطر وراحت على من كان له عادة بخلعة فى العيد ، وكان ناظر الخاص فى هذه السنة فى غاية الانشحات والمطل للناس .

وفى يوم الأحد ، وهو الثلاثون ، غمى الهلال ولم ير ، وكان فى أوائل رمضان جاءت الأخبار بأن أهل الاسكندرية ودمياط والمحلة قد صاموا يوم الجمعة ، فكان يمكن أن يجىء رمضان ناقصا بناء على أن غالب البلاد قد صاموا يوم الجمعة ، وكان الصيام فى مصر يوم السبت ، وكان ذكر فى التقاويم على أن رمضان يجىء ناقصا فجاء تماما ، فقامت الأشلة على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقالوا : « قد فطّرنا فى أول رمضان وصوّمنا فى يوم العيد » . وقال :

يا قاضيا بات أعمى	عن الهلال السعيد
أفطرت فى رمضان	وصمت فى يوم عيد

وقال آخر :

ان قاضينا لأعمى	أم على عمد تعامى
سرق العيد كأن ال	عيد من مال اليتامى

وقد وقع مثل ذلك فى أيام الهروى وكان سببا لعزله من القضاء .

❊ ❊ ❊

وفى شوال ، كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، وكان موكب العيد حافلا ، فخلع على الأمراء وأرباب الوظائف . وكانت الخلع سبة من السبب ، وكان القاضى كاتب السر محمود بن أجا متوعكا فى جسده وكان له مدة وهو منقطع فى داره فحصل له الشفاء ، فدخلت اليه فى يوم العيد وسلمت عليه وهنيته بالعيد وبالشفاء وقدمت اليه هذين البيتين وهما :

قد عم بالعيدين فرحات الورى
بشفائكم وبعيد فطر أشرفا
فالشكر لله الذى عافاكمو
لما توسلنا بآيات الشفا

وكان حاضرا فى المجلس جماعة من الأعيان فطربوا لذلك ، ولى فيه قبل ذلك من المديح وقد صرحت باسمه بما وافق التورية فى المعنى ، وهو قولى :

يا قاضيا شأنه الأسرار يكتمها
لا يعدم الناس جودا فيك موجود
فالناس تحمد من فعل تسود به
وأنت فى سائر الأفعال محمود

وفى يوم السبت سادسه نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، وصنع له الزينى بركات بن موسى المحتسب طواجن بوزى ومأمونية وحلوى وأشياء مؤنقة ، فأقام هناك الى بعد العصر ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه نزل السلطان وتوجه الى خان الخليلى وكشف على عمارته التى أنشأها هناك

ثم عاد الى القلعة من يومه ، وقد أضر الناس كثرة نزول السلطان وتعطلت أحــوال الرعيه من عــدم المحاكمات فى أشغال الناس وقد قلت العلامة على المراسيم ، فكان الســلطان يقعد نحوا من أربعين يوما لا يمسك فيها قلما ، ولا يعلم على مرسوم ، حتى عزت العلامات جدا وبيعت ، وكان السلطان يكره المحاكمات ويكره العلامات على المراسيم ، وكان دأبه الركوب فى كل يوم والاشتغال برؤية التنزه والرياضات دائما .

وفى يوم الاثنين ثامنه حضر الى الأبواب الشريفة آبرك نائب طرابلس ، وهو من مماليك السلطان ، وكان ولى نيابة قلعة حلب ، ثم حضر الى القاهرة فى سنه احدى عشرة وتسعمائة ، فلما حضر قرره السلطان فى شادية الشراب خاناه عوضا عن ولده لما توفى ، فأقام بمصر نحوا من شــهر وعاد الى حلب وفرر فى نيابة قلعتها ، ثم ولى نيابة طرابلس فتغير خاطر السلطان عليــه فأرسل خلفه فحضر ، فلمــا قابل الســلطان لم يخاطبه ولا خلع عليــه ، ثم نزل فى مكان أعد له

وفى يوم الاثنين خامس عشره جلس السلطان فى الميدان جلوسا عاما ، ثم عرض كسوة الكعبة الشريفة ، البرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل الشريف ، فشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود

وفيه ظهر بالقبــة التى أنشأها الســلطان فى مدرسته تشقق فاحش حتى آلت الى السقوط ، فأمر بهدمها فهدمت من سفلها ، ثم علقوها ورموها رما حافلا ، وقد تقدم أن المئــذنه التى بالجامع هدمت قبل ذلك وأعيدت ثانيا

وفى يوم الخميس ثامن عشره خــرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان له يوم مشهود حتى ارتجت له القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير صومان باى الدوادار الكبير ابن أخى السلطان . وبالركب الأول الأمير بك باى أحد الأمراء العشراوات الذى كان نائب القــدس قبل ذلك .

وفى هذه السنة حج جماعة كثيرة من الأعيان منهم الأمير خاير بك ، أحد المقدمين الألوف الذى كان كاشف العــــربية قبل ذلك ، وحج الشرف يونس بن الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وغير ذلك جماعة من الرؤساء بالديار المصريه . وحجت فى هذه السنة زوجه الأمير طومان باى ابنه الأمير أقبردى الدوادار ، ووالدتهــا بنت خاص بك ، وحجت ايضــا زوجة الأتابكى سودون العجمى ، وغير ذلك جماعة من مشاهير الستات ، وحج شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ، وحج حسام الدين بن بغداد وجماعة من مشايخ عربان هوارة . وغير ذلك من الأعيان .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة يخشــباى حاجب حجاب دمشق ، وكان ولى نيابة صفد ونيابة حماة ثم ولى نيابة طرابلس ثم بقى بعــد ذلك حاجب حجاب دمشق ، وكان صهر الأتابكى دولات باى قرابة العادل ، فحضر الى الديار المصرية بطالا ، فعين له السلطان لما حضر تقدمة ألف وصار يقف مع الأمراء المقدمين

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه رسم الســلطان بتوسيط أربعة أنفار قــد سرقوا وقتلوا ووجب عليهم القتل ، فوسطوهم فى الرملة .

* * *

وفى ذى القعدة — فى يوم الأربعاء ثانيه — نزل الســلطان وتوجه الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وطلع وشق من الصليبية فى موكب حافل

وفى يوم الخميس ثالثه قبض الســلطان على

شمس الدين بن عوض ووكل به بجامع القلعة الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفى يوم الاثنين رابع عشره نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة ، وجلس هو واياهم فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ومد لهم فى ذلك اليوم أسمطة حافلة ، ونصبت الأمراء لهم صواوين على شاطىء البحر الذى تجاه الجيزة ، وأغدق عليهم فى ذلك اليوم بأشياء كثيرة من حلوى وفاكهة وغير ذلك ، فأقام هناك الى قريب العصر ثم نزل فى الحراقة وتوجه الى بولاق ، ونصب له فى الحراقة سحابة أطلس أصفر ، وقيل انه ألبس الأمراء المقدمين فى ذلك اليوم لكل واحد منهم سلارى ما بين وشق وسمور ، وكان ذلك اليوم بالسلطانى .

وفيه أحضروا بين يدى السلطان شخصا من الشحاتين الجعيدية ، وجدوا معه مائة وسبعين دينارا ، وهى ضرب الأشرف برسباى ، فقال له السلطان : « من أين لك هذا الذهب ؟ » فقال : « ورثتها من أمى » . فأخذ السلطان منه ذلك الذهب وسلمه الى محمد مهتار الطشتخاناه ، ورسم بأن يشترى للشحات من ذهبه جوخة وقميصا وعمامة ، وأن يصرف له فى كل يوم نصفين فضة يأكل بها حتى تفرغ فلوسه ، فلم يرض الشحات بذلك ، وصار يقول : « عبدوا لى ذهبى ومالى حاجة بكسوتكم » . واستمر الذهب تحت يد محمد المهتار .

***

وفى ذى الحجة — فى يوم الاثنين خامسه — فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع لجماعة كثيرة من الفقهاء والأيتام ، وضيقوا كتاب المماليك على الناس فى هذه السنة فى تفرقة الوصولات الى الغاية ، وراحت الأضحية فى هذه السنة على كثير من الناس .

وفى يوم الخميس[1] خامس عشره ركب القاضى كاتب السر محمود بن أجا وطلع الى القلعة ، وكان له مدة خمسة أشهر لم يركب وهو منقطع فى داره فركب فى ذلك اليوم ، وخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل الى داره وهو فى غاية العظمة ، وقد قلت فى ذلك :

سيدى أنت معدن التشريف
بدر تم منزه عن خسوف
فابق واسلم ودم وعش فى شفاء
لألوف من كل عصر ألوف

وفى هذا الشهر نادى السلطان على الفلوس الجدد والعتق بأن الرطل منهم بثمانى عشرة نقرة ، وضرب فلوسا معاددة تخسر فيهم السوقة الثلث ، وهم فى غاية الخفة ، فصارت البضائع تباع بسعرين : سعر بالفلوس الجدد ، وسعر بالفلوس العتق .

وفى يوم الخميس[1] خامس عشره المذكور أعلاه توفى الشيخ علاء الدين الملة على العجمى الشافعى شيخ تربة جانى بك نائب جدة ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، وله شهرة فى مصر بين العلماء ، وكان لا بأس به .

وفى يوم السبت[1] سابع عشره رضى السلطان على أبى البقا ناظر الاسطبل ، وخلع عليه واستمر على وظيفته كما كان بعد أن قاسى شدائد ومحنا ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توفى القاضى نور الدين الأشمونى ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، بقية الناس ، وله شهرة بين النواب ، وكان لا بأس به .

وفيه أذن السلطان للخليفة المنفصل المستمسك بالله يعقوب ، والد المتوكل على الله محمد ، بأن

(١) كان فى الأصل الثلاثاء خامس عشره ، وصححتها الخميس وكان فى الأصل الخميس سابع عشره ، وصححتها السبت كما أثبتناه .

يركب الى صلاة الجمعة ويسير ويزور القرافة ، وكان من حين انفصل من الخلافة وولى ولده وهو مختف فى داره لم يركب ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى أذن له السلطان فى الركوب .

وفى يوم الثلاثاء[1] عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد على دولات وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ، فمن جملتها مماليك وخيل وجمال بخاتى ، ومن جملة ذلك خيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون صفة أشجار مزهرة وعليها أطيار ، ومن جملة التقدمة خركاه خشب مدهونة بماء ذهب ولازورد وألوان غريبة وهى منقوشة هيئة وحوش كاسر ومكسور ، ولهذه الخركاه غشى جوخ أزرق مقصص ، ولها أطناب وعراوى حرير أحمر ولها باب خشب موشق وعليه ضبة ، ولتلك الخركاه بساط مدور على قدرها منقوش صنعة غريبة لم يعمل مثله ، وكانت هذه الخركاه من تحف حسن بيك الطويل فوصلت الى اسمعيل الصفوى ، والصفوى أرسلها الى على دولات وعلى دولات أرسلها الى السلطان ، فكانت هذه الخركاه والخيمة من جملة التحف الغريبة ، فأمر السلطان بنصبهما فى الحوش للفرجة ، وأوكب فى ذلك اليوم لأجل القاصد موكبا حافلا بغير شاش ولا قماش .

وفى أواخر هذه السنة توفى القاضى شمس الدين المنوفى أحد نواب الشافعية .

وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وكان أشيع بين الناس عن الحجاج أخبار مهولة فبطل ذلك حين جاء المبشر وكان من أهل الفضل .

وفى يوم الثلاثاء[2] سابع عشرينه عزم السلطان على قاصد على دولات فى الميدان ، وجلس هو واياه على البحرة التى فى البستان ، ومد له هناك مدة حافلة ، وقد عزم عليه قبل ذلك مرة أخرى فأقام عنده الى بعد الظهر فى الميدان ، ثم انصرف القاصد وطلع السلطان الى القلعة ، وألبس القاصد سلارى بسمور من ملابيسه .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه رسم السلطان بتسمير ثلاثة أنفار ، قيل انهم سرقوا حجرة[1] من حجورة[1] السلطان تسوى نحو مائتى دينار ، فسمروهم ووسطوهم ، وقيل ان الحجرة[1] سرقت وهى فى الربيع فى بر الجيزة

انتهى ما أوردناه من أخبار هذه السنة ، وقد خرجت عن الناس على خير ، وكانت سنة مباركة لم يقع فيها طاعون ولا فتن ، غير أن كان البرد فيها شديدا ووقع فيها عدة أيام أفرط فيها البرد حتى جمدت المياه وصارت جليدا ، وأحرق غالب الأشجار ، ووقع فيها تشحيطة فى سائر الغلال وتناهى سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، وكذلك الشعير والفول وجميع الحبوب كانت مشتطة فى أسعارها ووقع الغلاء فيها أيضا ، حتى وقع الغلاء فى أصناف الحضر أيضا ، وفى سائر البضائع من السكر والعسل والزيت والسمن والسيرج ، حتى الزيت الحار والزبيب والأرز وسائر الأصناف ، حتى البرسيم وغير ذلك .

سنة ثمانى عشرة وتسعمائة (١٥١٢ م) :

فيها — فى المحرم — كان مستهل الشهر بالجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة يهنون السلطان بالعام الجديد .

وفى يوم الأحد ثالثه نزل السلطان من القلعة ، وصحبته ولده ، فتوجه الى القرافة وزار

(١) كان فى الأصل الخميس عشرينه ، وصححها الثلاثاء كما اثبتناه .

(٢) كان فى الأصل الأربعاء سابع عشرينه ، وصححها الثلاثاء اثبتناه .

(١) الحجرة : الأنثى من الخيل (المختارة) .

الصالحين ، ثم توجه من هناك الى شاطىء البحر فشق من عليه وطلع من على الصليبية الى القلعة .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع السلطان على قاصد على دولات وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى يوم الثلاثاء خامسه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، وكان يوما ماطرا مغيما ، فنزل من هناك فى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، فأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الأربعاء سادسه توفى الشيخ شمس الدين محمد الغزى خطيب جامع السلطان الذى فى الشرابشيين ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان علامة فى الخطب فصيحا فى عبارته ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الجمعة ثامنه توفى القاضى عز الدين عبد العزيز بن الأمانة أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، وهو ابن أخى القاضى جلال الدين بن الأمانة .

وفى يوم السبت تاسعه طلع الرئيس كمال الدين بن شمس المزين وقابل السلطان ، وقد تقدم القول بأنه قد تغير خاطره عليه ومنعه من الطلوع الى القلعة ، فاختفى هذه المدة ولم يعلم له خبر ، فطلع فى ذلك اليوم وصحبته فقراء من مقام سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه وهم يذكرون ومعهم أعلام ومصاحف فدخلوا الحوش ، وكان السلطان عرض فى ذلك اليوم مماليك كتابية وأخرج منهم خرجا على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم فى غاية السودنة ، فلما دخل أولئك الفقراء عليه وهم على هذه الهيئة ازداد سودنة ، فلما وقفوا بين يديه رأى كمال الدين بن شمس وعليه احرام صوف أبيض وهو بطيلسان وعذبة فى عمامته ، فلما رأى ذلك نهر الفقراء الذين معه وشتتهم ، ثم التفت الى كمال الدين بن شمس ، ووبخه بالكلام وشتمه وسبه سبا فاحشا وقال له : « أنا ما قلت لك لا ترينى وجهك ، فأنا ما شوشت عليك ولا صادرتك ، فما تروح عنى بشحم كلاك ، غبت وجئت الى شيخ من المشايخ ! متى بقى لك سر وبرهان ؟ ! » ، ثم ان السلطان رسم بتسليمه الى الوالى يعاقبه ... ثم فى ثانى يوم أشيع بين الناس أن السلطان أرسل كمال الدين الى المقشرة . فما أحد شكر كمال الدين على ذلك ، وكان عدم مقابلته له أصوب . وكان كمال الدين من خواص السلطان ويكبّسه وقت الظهر اذا نام ، ثم تغير خاطره عليه . وكان سبب ذلك أن السلطان حصل له قرو فى محاشمه فقصده كمال الدين فى محاشمه عدة مرار ، فبلغ السلطان أن كمال الدين قد شرع يقول للأمراء والناس : « ان السلطان بقى مقيلط » . فتغير خاطره عليه بسبب ذلك . وقيل كان كمال الدين يبلص الأمراء والمباشرين على لسان السلطان ، فكثرت فيه المرافعات من كل جانب وسقط نجمه من السماء .

وفى يوم الأحد ، وهو يوم عاشوراء ، فيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وجلس فى القصر الذى أنشأه هناك ، وكان معه جماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى قريب المغرب ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات ... ثم ان شخصا مضحكا يقال له على باى الذى يعمل عفريتا فى المحمل ، فقام رقص ثم سحب الوالى كرتباى فرقصه ، ثم سحب أمير آخور ثانى أقباى الطويل فرقصه ، ثم سحب بركات بن موسى المحتسب فرقصه ، ثم سحب عبد العظيم الصيرفى فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى فتخاطف ذلك المماليك ، وابتهج

فى ذلك اليوم ، ثم عدى أواخر النهار من الروضة وطلع من عند قصر ابن العينى الذى بالمنشـية ، وطلع من هناك الى القلعة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره حضر الى الأبواب الشريفة قصـاد من عند ملوك الفرنج الفرانسة ، وكان هؤلاء القصـاد من رؤساء الفرنج ، فأرسل لهم السـلطان خيولا يركبونهـا من بولاق الى القلعة ، فلما طلعوا أوكب لهم السلطان بالحوش ، وزينوا لهم باب الزردخاناه وباب القلعة بالصناجق واللبوس وآلة السلاح ، فلما طلعوا الى القلعـة فكانوا نحوا من خمسين نفرا ، ومن أعيانهم اثنان لابسان ثياب محمل كفوى ، فى رقابهما سـلاسل من ذهب ، فلما وقفوا بين يدى السلطان أظهـروا التعـاظم ثم باسوا له الأرض ، فلما قرأوا كتابهم انصرفوا وأنزلوهم فى بيت كاتب السر أبو بكـر ابن مزهر الذى فى بركة الرطلى ، ونزل نائب المهمندار صحبتهم ، وشقوا من القـاهرة ، وكان ذلك يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس رابع عشره توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمر الذى كان كاشف الجيزة فيما بعد ، وكان موته فجأة .

وفى هذا الشهر قرر السلطان قاضى القضـاة المالكى محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى فى خطابة جامعه الذى بالشرابشيين عوضا عن شمس الدين الغزى بحكم وفاته ، فلما سعى الشرفى يحيى فى الخطابة رسم له السلطان بأن يخطب به حتى يسمع خطبته ، وكان ذلك فى أول جمعـة فى السـنة ، وخطب قاضى القضـاة الشـافعى كمـال الدين فى ذلك اليوم فى جامع السـلطان ، فلما خطب الشرفى يحيى بالسـلطان أعجبه خطبته فقرره فى خطابة جامعه عوضـا عـن الغزى .

وفى يوم الخميس حادى عشرينه دخـل أمـير الحاج بالركب الأول وهو الأمير بكباى ثم فى يوم السبت ثالث عشرينه دخل المحمـل الى القـاهرة صحبته أمير الحاج طومان باى الدوادار الكبـير ، فطلع الى القلعة وخلع عليه السلطان فوقانى بطرز يلبغاوى عريض ، وخلع على من حج معه من الأعيان وهم الأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد المقدمين ، والشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وشيخ العرب أحمد بن بقر ، وغير ذلك من مشايخ العربان ممن كان فى الحجاز ، ومنهم ابن بعداد وآخرون من الأعيان ، فنزل الأمير طومان باى فى موكب حافل وقدامه الأمراء المقدمون قاطبه ، وكان له يوم مشهود ، وقد رجع من هذه السفرة والناس عنـه راضية ، وأشيع عنه أخبار حسنة مما فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والاحسـان وفعل الخير وحمل المنقطعين والصدقات بطول الطريق عـلى الفقراء والمساكين ، فشكر له الناس ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سـادس عشرينه ، ورد على السلطان أخبار ردية من البحيرة بأن العربان قـد جالت هناك والقتل بينهم عمال ، وقد آل أمر تلك الجهات الى الخراب ، وقيل تحالفت سبع طوائف من العربان بأن يكونوا كلمة واحدة على العصيان ، فلما تحقق السلطان ذلك عين جماعة من الأمراء ، فلم يبادروا بالعزم الى ذلك ، فحنق منهم وقال : « أنا أخرج الى ذلك بنفسى » ، فشرع فى ذلك اليوم بعرض السنيح والخيول والجمال والسفايين ، ورسم بعمل حراقة نفط على أنه يتوجه من هناك الى ثغر الاسكندرية ، فقوى عزمه على ذلك وأقام يعرض أشياء كثيرة فى الميدان الى بعـد العصر ، وما يعلم ما بعد ذلك .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه جاءت الأخبـار من البحيرة بأن عرب غزالة وغيرهم من العربان قد

أظهروا العصيان ، وزحفوا على البلاد وأفسدوا الزروع ونهبوا المغل ، وأن شيخ العرب الجويلى معهم فى المحاصرة ، وطردوا كاشف المنوفية وغيره عن البلاد ... فلما تحقق السلطان ذلك عين لهم تجريدة وبها من الأمراء الأمير طومان باى الدوادار الكبير قريب السلطان الذى كان فى الحجاز ، وعين أيضا الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد المقدمين ، وعين الأمير علان الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وآخرين من الأمراء والعسكر ... فصلوا صلاة الجمعة وخرجوا على جرائد الخيل ، فرجت لهم القاهرة ، فخرج الدوادار ومن معه من الأمراء ونزلوا بانبابة حتى يتكامل خروج بقية العسكر ، وقد كثر الكلام وزادت الاشاعات بسفر السلطان الى ثغر الاسكندرية ، وأنه أرسل يقول للخليفة والقضاة الأربعة : « جهزوا لكم برك حتى تخرجوا صحبتى الى ثغر الاسكندرية » ، وكذلك أعيان المباشرين ، فاضطربت الأحوال بسبب ذلك .

وفى يوم السبت سلخه جلس السلطان بالميدان وعرض جماعة من العسكر فكتب منهم نحوا من مائتى مملوك ، وأمرهم بسرعة الخروج مع الدوادار الى البحيرة ، وكتب طائفة من المماليك الى جهة الفيوم والبهنسا ... فبينما السلطان يعرض العسكر ، ورد عليه قصاد من عند نائب حلب ، وأخبروا بأن أوائل عسكر اسمعيل شاه الصفوى قد وصل الى البيرة ، وأن جماعة من عسكر البيرة التف على عسكر الصوفى . فتنكد السلطان فى ذلك اليوم لهذه الأخبار ، واضطربت أحواله بين أمر العربان الذين جالت وبين أمر الصفوى . ولله الأمر فى ذلك .

وفى هذا الشهر طلع قاصد ملك الفرنج بتقدمة حافلة للسلطان ما بين أوانى بلور مزيكة بذهب ، وحمالين عليهم جوخ ومخمل وتماسيح مذهب ، وقيل ذهب عين ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للملوك .

وفى أواخر هذا الشهر خلع السلطان على شرف الدين بن روق وقرره فى نظر الخزائن الشريفة وجعله مستوفيا على أولاد الجيعان ، وقد سعى فى ذلك بخمسة آلاف دينار ، فاستخف الناس عقله على ذلك الذى يستوفى على أولاد بنى الجيعان وهذه غاية الخفة ، وأشيع أنه متحدث فى وكالة بيت المال أيضا ، وغاية الأمر أن كان معه مال فأذهبه فى البطال على شىء لا يظهر له منه نتيجة ، وكان ساعيا قبل ذلك فى قضاء الشافعية بمصر فما تم له ذلك ، وقد خف وركب الخبل وطاش فى الحال .

وفى أواخر هذا الشهر توفيت الست بنت خوند بنت الملك المؤيد شيخ ، وهى بنت الأمير يشبك الفقيه الذى كان دوادارا كبيرا فيما بعد ، وكانت من أعيان الستات .

* * *

وفى صفر بطل سفر السلطان الى ثغر الاسكندرية بموجب ما ورد عليه من أخبار الصفوى فتنكد لذلك .

وفى يوم الاثنين ثانيه خرج الأمير قانصوه بن سلطان جركس أحد المقدمين والأمير ماماى جوشن فتوجها الى نحو البهنسا والفيوم ، وخرج صحبتهما نحو من مائتى مملوك .

وفى يوم الخميس خامسه رسم السلطان بشنكلة شخص من الغلمان زعموا أنه حرق بيت أستاذه لأجل النهب ، فاحترق فى ضمينته عدة بيوت وربوع ، فلما قبضوا عليه عرضوه على السلطان فرسم بأن يشنكل ويعلق فى مكان حرقه ، ففعلوا به ذلك .

وفى يوم الاثنين تاسعه توفيت الريسة خديجة

أم خوخة ، وكانت من أعيان مغانى الدكة ، ولهـا فى هذا الفن اليد الطويلة ، وقبل ذلك بأيام قلائل توفيت الريسة بدرية بنت جريعة وكانت من أعيان المغانى أيضا ، ولها شهرة بين المغانى بذلك .

وفى يوم الخميس ثانى عشره توفى الأمير طوخ المحمدى أحد الأمراء الطبلخانات ، وأصـله من مماليك الأشرف قايتباى ، وقيل ان أصله كان من مماليك تنم نائب الشام ، وكان لا بأس به عشرة لطيف الذات .

وفى يوم الاثنين سـادس عشره حضر الأمـير طومان باى الدوادار ، وكان قد توجه الى البحيرة بسبب فساد العربان كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الجمعة عشرينه عرض السلطان العسكر فى الميدان باكر النهار ، فعين من فرسانهم جماعة يتوجهون صحبة الجويلى شيخ جهات البحيرة ، ورسم السلطان الى العسكر بأن يقيموا بالبحيرة بعد وفاء النيل .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره غيب القاضى شرف الدين الصـغير كاتب المماليك ، فلما غيب اختفى جميـع أقاربه حتى غلمانه وحاشـيته ، فرسـم السلطان للقاضى بركات بن موسى أن يكبس على داره ويفحص عن أمره ، وقد اشتد الأمر فى طلبه جدا . وسبب ذلك أن كان عليه تقاسيط من المال على الجوامك فى كل شهر فلم يف بذلك فتغيب واختفى .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الفرنج البنادقة ، فكان له يوم مشهود ، وأوكب السلطان فى ذلك اليوم وزين باب الزردخاناه باللبوس والسلاح ، ثم طلع القاصـد وصحبته تقدمة حافلة نحو من مائة حمال ما بين أوانى بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل تماسيح وشقق وحرير أطلس وغير ذلك أشياء حافلة ، فطلع القاصد وهو راكب على فرس وقدامه سبعة أنفس من أخصائه وهم راكبون على خيـول والبـاقى مشاة ، فكانوا نحوا من خمسين انسانا من جماعة القاصد الذين جاءوا صحبته . وكان القاصد رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار ، وكان لابسا خلعة جر ذهب على حرير أصفر فطلعوا الى القلعة وقابلوا السلطان ، ثم نزلوا الى مكان أعد لهم ، وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قـد جاء يسعى عند السلطان فى فتح القيامة التى بالقدس الشريف ، وكان السلطان أغلق بابها ومنع الفرنج من الدخول اليها بسبب ما تقدم منهم .

وفى ذلك اليوم أطلق السلطان شيخ العرب بقر بن الأمير أحمد بن بقر ، وكان له مدة طويلة وهو فى البرج بالقلعة ، فأفرج عنه فى ذلك اليوم وكان له نحو من اثنتى عشرة سنة وهو فى البرج بالقلعـة مقيد ، فشفع فيه أبوه الأمير أحمد بن بقر وضمنه حتى أطلقه السلطان .

وفى يوم الجمعة سـابع عشرينه قلع السـلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثامن عشر بشنس قبطى ، وقد أبطأ فى قلع الصوف هذه السنة بموجب أن الوقت كان رطبا .

ومن الحوادث فى أواخر هذا الشهر أن قـد سرق من سوق الباسطية ثلاثة دكاكين ، وكذلك من الصاغة ، فراح على التجار جملة أموال لهـا صورة ولا يعلم من فعل ذلك ولا نقب لهم حائط ، وراحت على من راح .

وفى يوم السبت ثامن عشرينه أرسـل الأمير قانصوه بن سلطان جركس الذى توجه الى الصعيد فبعث ثمانية رءوس من عرب عزالة منهم شخص يسمى خضر بن كروان وكان من كبار المفسدين ، وقيل هو الذى كان سببا فى قتل ابن جميل ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الأحد تاسع عشرينه رسم السلطان بعرض السادة الأشراف ، وسبب ذلك أن السلطان قصد أن يخرج عنهم شيئا من الجهات الموقوفة عليهم مثل بركة الحبش وبلقس وغير ذلك من الجهات ، وكان القائم فى مرافعتهم الشريف بن مصبح دلال الأملاك ، فالتزم بأن يوفر للسلطان من هذه الجهات فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، فرسم السلطان بعقد مجلس بالقضاء الأربعة بسبب الأشراف ، وقد طعنوا فى أنساب جماعة منهم ، وهذه من جملة الوقائع الفاحشة فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

* * *

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فكان فى ذلك اليوم عقد مجلس بين يدى السلطان بسبب بنت يشبك الدوادار زوجة قانى باى قرا أمير آخور كبير وبنت جانى بك حبيب زوجة الأمير دولات باى قرموط .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى جددها لأجل المماليك التراكمة وأولاد الناس الذين نزلهم ، فقيل انه عوق جوامك جماعة منهم وقطعها .

وفى يوم الخميس رابعه ظهر بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وكان له مدة وهو مختف كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الاثنين ثامنه خلع السلطان على مملوكه أبرك وأعاده الى نيابة طرابلس كما كان أولا ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأمراء .

وفى يوم تاريخه رسم السلطان بنقل المكاحل التى سبكها فى المسبك الذى بجوار الميدان ، فأمر بأن يتوجهوا بها الى نحو تربة العادل حتى يجربها هناك ، فوضعوها على عجل وسحبتها الأبقار ، فنزلوا بها من الصليبة ، فرجت لها الأسواق وصاروا يتصلبون بين الدكاكين فما خلصوا الا بعد جهد كبير . فلما وصلوا الى بيت الأمير تانى بك قرا الذى عند حمام الفارقانى ، انخسف باحداها سرداب هناك ، فوقعت تلك المكحلة الكبيرة فى السرداب فأعيا الناس طلوعها ، وأقامت على ذلك الى قريب المغرب وهى على حالها ، وقيل ان السلطان سبك نحوا من سبعين مكحلة ما بين كبار وصغار من نحاس وحديد ، فكان منها أربع كبار فقيل وزن كل واحدة منها ستمائة قنطار شامى ، فكان طول كل واحدة نحوا من عشر أذرع ، فحصل فى ذلك اليوم غاية المشقة بسبب ذلك ، وكان صحبة المكاحل الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش فما قاسى فى ذلك اليوم خيرا من التعب الزائد والمشقة .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى الأمير دولات باى قرموط أحد الأمراء المقدمين ، فنزل السلطان وصلى عليه ، وكان له جنازة حافلة ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان موصوفا بالشجاعة ، وكان من أعيان المقدمين ، وتولى من الوظائف ولاية القاهرة ثم بقى مقدم ألف . وقد توفى من الأمراء المقدمين خمسة فى مدة يسيرة ، وكانوا من أجل الأمراء وأعظمهم ، وقد قلت فى ذلك :

اذا صفا الدهر يوما … عن ذلك الصفو يرجع
هل من لبيب تراه … بأيسر العيش يقنع
فكم نرى لأمير … من مصرع بعد مصرع

وفى يوم الخميس حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى ، وصادف ذلك أنه جاء فى ليلة الجمعة فاجتمع القضاة الأربعة فى ذلك اليوم بالحوش السلطانى ، وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، وكان مولدا حافلا على جارى العادة .

وفى يوم الأحد رابع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وكشف على المكاحل التى توجهوا بها الى هناك حتى يجربوها ، فلما توجه الى هناك أقام ساعة وعاد الى القلعة سريعا .

وفى يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير طومان باى الدوادار وسافر الى جهة الصعيد بسبب ضم المغل ، وسافر معه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، وكان صحبته الأمير خاير بك الكاشف أحد المقدمين ممن كان من مضافاته ، فخرج فى موكب حافل وكان له يوم مشهود .

وفى يوم الخميس ثامن عشره أرسل نائب سيس الى السلطان عشرة رءوس وعليهم طراطير حمر ، وزعموا أنهم من عسكر الصفوى كانوا يفسدون فى البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وحز رءوسهم وأرسلهم الى السلطان ، فلما عرضوا عليه رسم باشهارهم على رماح فأشهروهم فى القاهرة ثم علقوهم على باب النصر وباب الفتوح ، وقد قويت الاشاعات بأن الصفوى متحرك على البلاد ، وأن قاصده واصل الى السلطان .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه خلع السلطان على الأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرة الحاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير يوسف الناصرى شاد الشراب خاناه الذى كان نائب حماة فيما تقدم وقرره فى أمرة الحاج بالركب الأول فتشكى من ذلك فلم يقبل .

وفيه رسم السلطان لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلا على البلاد ، ويستخرجا من الفلاحين الحمايات والشياخة وقدوم الكشاف عن سنة ثمانى عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل ، وقبل أن تنزل النقطة وينادى على النيل ، فحصل للمقطعين غاية الضرر وصارت الكشاف تنزل على البلاد وتكبس على الفلاحين ويستخرجون منهم الأموال بالضرب ، والذين يهربون يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم . فخرب غالب البلاد ، ورحل عنها الفلاحون ، فصار الذى تخرب بلاده من المقطعين يأخذون جامكيته فى نظير الحماية والشياخة ، وصارت الكشاف يستخرجون المال من البلاد ، وجانى بك يستخرج من المقطعين بالقاهرة ، فضاع الخراج بينهما ، والذى يكون مسافرا من المقطعين يرسمون على زوجته وأولاده ووصيه حتى يأخذوا منهم الحماية . وكان القائم فى ذلك جانى بك الذى كان دوادار الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقد بقى الآن ناظر الديوان المفرد ، فنوع فى أيامه أنواع المظالم التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم .

ومن العجائب أن المغل كان قائما على أصوله فى الأرض لم يحصد بعد ، والعسكر لم يقلعوا الصوف ، وصار جانى بيك يكبس على بيوت الأمراء العشراوات بالطواشية ويقبض منهم الحماية بالعسف ، ويرسم على الخاصكية ، ويدعهم فى التراسيم بسبب الحماية والشياخة وقدوم الكشاف ، ولا يعرف ان كانت البلاد خرابا أو عامرة ، فجرى على المقطعين ما لا خير فيه من المغارم والبهدلة .

وفى يوم السبت فى العشر الثالث من هذا الشهر ابتدأ السلطان بضرب الكرة فلعب هو والأمراء بالميدان .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه قبض السلطان على المهتار حسن الشراب دار ، ورسم عليه وختم على بيوته وحواصله ، وقرر عليه عشرين ألف دينار فأورد من ذلك نحوا من ثمانية آلاف دينار ، وقسط الباقى عليه فى كل شهر ألف دينار على الجوامك ، وكتب عليه بذلك التزام ، واستمر فى

الترسيم حتى يغلق ما كتب عليه ، وكان سبب مصادرة المهتار حسن أن شخصا من غلمان الشرابخاناه يقال له أبو الخير الاسمر رافع المهتار حسن عند السلطان ، وقال له لما قتل الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى أحضر نجارا وصنع عدة مفاتيح للحواصل التى بالقلعة وأخذ منها ما قدر عليه ، ومن جملة ذلك سكرجة زمرد وحمل ما أخذه على بغل من بغال الحمارة . فلا زال السلطان يفحص عن حقيقة هذا الأمر ، فأحضر النجار الذى صنع المفاتيح فاعترف بذلك وأحضر الحمار الذى حمل الحوائج من القلعة فاعترف أيضا بذلك وقال : « ما أعرف ما كان فى العلب التى حملتها » ، فعند ذلك قبض السلطان على المهتار حسن ورسم عليه وشكه فى الحديد ، وقرر عليه عشرين ألف دينار ، فأورد منها سبعة آلاف دينار وكسور وحلف أنه لا يملك غيرها ، فلم يقبل منه السلطان ذلك واستمر فى التوكيل به حتى يغلق ما قرره عليه .

ثم بعد ذلك بمدة فعل ذلك بمهتاره الحاج على مهتار الخيل وقرر عليه مالا نحو ذلك ، ورسم عليه حتى يرد ما قرره عليه من المال ، وقيل انه عرض ما كان فى تسليمه من السروج المغرق والكنابيش فوجد ذلك قد نقص منه أشياء كثيرة .

وفى أثناء هذا الشهر قبض السلطان على شرف الدين بن روق الذى كان قد سعى فى استيفاء الخزائن الشريفة ، فلم ينتج أمره فى ذلك ولا عرف يباشر فى مصطلح الخزائن ولا عرف يكتب وصولات الرجعات ، وكان رجلا أهوج وعنده خفة ورهج فلم يرث له أحد فيما جرى عليه . فلما قبض عليه السلطان سلمه الى الزينى بركات بن موسى المحتسب وكان ابن روق هذا زوج أخت علم الدين الذى كان متحدثا فى الخزانة ، فلما قبض السلطان على علم الدين واختفى فضمنه ابن روق فى عشرين ألف دينار ، فلما قبض السلطان على ابن روق طلب منه ما ضمنه بسبب علم الدين . وكان ابن روق يتهم بسعة المال ، وكان قصده يسعى فى قضاء الشافعية ، فما تم له ذلك ولم يساعده الزمان على ذلك ، وكان من أعيان الشافعية ولكن كان أرشل قليل الحظ ، كما يقال :

اذا أذن الله فى حاجة
أتاك النجاح بها يركض
فلا رشد الا بتوفيقه
وان محض الرأى من يمحض
فمن ذا يدبرنا غيره
ومن يبرم الأمر أو ينقض

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه حضر جماعة من الأمراء الذين كانوا توجهوا الى نحو بلاد الصعيد بسبب فساد العربان ، وكان الذى توجه من الأمراء المقدمين قانصوه بن سلطان جركس والأمير ماماى جوشن ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية . فلما طلعوا الى القلعة خلع السلطان على الأمراء المقدمين ونزلوا الى دورهم .

* * *

وفى ربيع الآخر — فى يوم الأحد سادسه — نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التى بالريدانية ، وجلس هناك ونصب له سحابة واجتمع حوله الأمراء على المصطبة وحضر الجم الغفير من العسكر ومن الناس المتفرجين ، ثم جربوا قدامه مكاحل كبار وصغار التى كان سبكهم بالميدان ، فكان عدتهم سبع وخمسين مكحلة ، فلم يخطىء منها سوى واحدة وقيل اثنتان ، والذى صح من المكاحل فيها من عدى حجره الى قريب بركة الحاج ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية ،

وأقام هناك الى بعد العصر ونصب له خيمة كبيرة وهى الخيمة التى أهداها اليه على دولات وقد تقدم ذكر ذلك ، ومد هناك أسمطة حافلة وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع ، أنقص من العام الماضى بذراع . ولما عاد السلطان الى القلعة طلع من بين الترب ولم يشق من القاهرة .

وفى يوم السبت ثانى عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير تمرباى الهندى أحد الأمراء العشراوات ، الذى كان قد توجه قاصدا الى الصفوى شاه اسماعيل ملك العراقين ، وكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحوا من سنتين ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وماتت خيوله وجماعة من غلمانه ومن الخاصكية الذين كانوا صحبته ، ولم ينصفه الصفوى ولا أكرمه ، وقيل لم يقابله غير مرة واحدة ولم يكتب له الجواب عن مطالعة السلطان التى أرسلها اليه ، وأرسل جوابه صحبة قاصده .

فلما نزل تمر باى الى خانقة سرياقوس أرسل يعرف السلطان أن قاصد الصفوى جاء صحبته وقاصد من عند ملك الكرج ، فعين السلطان الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يلاقيهم ويمد لهم هناك مدة ، فتوجه الى الخانكاه ومد لهم هناك مدة حافلة ، فلما دخل قاصد الصفوى أنزلوه فى بيت قانى باى سلق الذى فى رأس الرملة عند سويقة عبد المنعم ، وكان مع هذا القاصد شديد البأس أغلظ على نائب حلب فى القول لما قدم عليه .

وفى ذلك اليوم ضرب السلطان الكرة فى الميدان فتقنطر فى ذلك اليوم الأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب ، فنزل على كتفه فانصدع فتألم لذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره طلع قاصد الصفوى الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكب السلطان بالحوش من غير شاش ولا قماش ، وجلس على المصطبة التى أنشأها ونصب السحابة الزركش ، وحضر الأمراء المقدمون واجتمع العسكر ، وأمر بأن يزين باب الزردخاناه فزينوه فى ذلك اليوم بآلة السلاح والصناجق واللبوس ، فخرج القاصد من بيت قانى باى سلق وصحبته آزدمر المهمندار والأمير كرتباى والى القاهرة ، فطلع القاصد وصحبته تقدمة الى السلطان فكانت نحوا من أربعين حمالا ، عليها من الفهودة سبعة وقيل كانوا تسعة فمات منهم اثنان ، فلما طلعوا بهم الى القلعة جعلوا عليهم أجلال حرير ، ومن جملة هذه التقدمة طوالة خيل ، ومنها حمال عليه فضيات ما بين أباريق فضة وشربات وطاسات ذهب ، ومنها حمالان عليهما زرديات وخوذ خاص وأثواب مخمل ملون ولبوس خيل مكفتة ، ومنها حمالان عليهما أقواس حلقة ، وحمالين عليها شقق حرير برصاوى مقصب ، وحمالان عليهما بعلبكى ، وغير ذلك أشياء كثيرة ما بين سجاجيد رومى ومديات وغير ذلك .

فلما طلع القاصد بين يدى السلطان وكانا اثنين ، قيل هما من أعيان أمراء الصفوى ، فباسا الأرض للسلطان ، ثم تقدما وباسا ركبة السلطان ، وقدما اليه مطالعة شاه اسمعيل الصفوى ، فلما قرئت بين يدى السلطان بحضرة الأمراء وجد فيها ألفاظا يابسة وكلاما فجا ، فلم ينشرح السلطان لذلك وظهر فى وجهه التكظم ، ثم نزل القاصد من عند السلطان الى المكان الذى أعد له .

ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع قاصد ملك الكرج ، وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ما بين

سمور ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك أشياء حافلة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الناصرى محمد ابن الشهابى أحمد بن الأمير أسنبغا الطيارى الكلبكى أمير شكار ، فلما تغير خاطره عليه قبض عليه وأودعه فى الترسيم وقرر عليه ألف دينار فأغلظ على السلطان فى القول ، فحنق منه فرسم بنفيه الى قوص ، فلم يجسر أحد من الأمراء أن يشفع فيه ، وكان الناصرى محمد عنده شمم زائد ورقاعة فلم يرث له أحد من الناس ، فكتب وصيته وتوجه الى نحو الصعيد ، والذى أكله كركى تقاياه بلشون .

وفيه ، فى يوم الأحد عشرينه ، نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل ، وجلس على المصطبة التى هناك ، وجربوا قدامه بقية المكاحل المقدم ذكرها ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد هناك سماطا حافلا ، ونصب له هناك وطاقا ، واجتمع عنده جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم ركب بعد العصر ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه ، حضر الى الأبواب الشريفة طراباى أخو الأتابكى قيت الرجبى ، وكان مسجونا بقلعة دمشق ، وكان سبب نفيه الى هناك أنه فى سنة تسع وتسعمائة خلى الأمير أزدمر الدوادار طالعا الى القلعة فلما وصل الى باب القلعة رمى عليه من الطبقة ثلاث فردات نشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما بلغ السلطان ذلك نفاه الى دمشق وسجنه بقلعتها . فاستمر هناك حتى شفع فيه الأمير طومان باى الدوادار .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له طراباى ، وكان طراباى هذا ولى الأتابكية بحلب ثم حضر الى مصر وسعى فى نيابة صفد بمال له صورة حتى تولاها من يشبك ، واستقر نائبا بصفد عوضا عن جان بردى الغزالى بحكم انتقاله الى نيابة حماة ، وكان طراباى هذا من مماليك يشبك ابن حيدر الذى ولى حماة .

وفيه ، فى يوم الخميس رابع عشرينه ، نادى السلطان فى القاهرة أن لا أمير ولا جندى يركب بغدارة فى سرجه ومن فعل ذلك لا يلوم الا نفسه . وكان سبب ذلك أن مملوكا من مماليك السلطان تشاجر مع شخص من المماليك يقال له جانم ، وكان أصله من مماليك الأمير طراباى رأس نوبة النوب ثم بقى مملوك سلطان ، فلما تشاجر معه لحل عليه الغدارة وضربه على يده قطعها ، فوقف ذلك المملوك للسلطان ويده مقطوعة ، فشق ذلك على السلطان ونادى فى ذلك اليوم بأن لا أحد من العسكر يركب بغدارة قط ، فرجعوا المماليك عن ذلك . ورسم للأمير مغلباى الزردكاش بأن يكتب قسائم على الصناع أن لا يصنعوا لأحد من المماليك غدارة ، وكان بهذه الغدارات يحصل من المماليك الضرر الشامل .

وفيه ، فى يوم الجمعة خامس عشرينه ، رسم السلطان لأزدمر المهمندار بأن يأخذ قاصد الصفوى وجماعته ويتوجه بهم الى جامع السلطان الذى أنشأه فى الشرابشيين ، فيصلوا الجمعة هناك . فلما حضروا بالجامع اجتمع به القضاة الأربعة وأعيان الناس وجماعة من الأمراء ، فخرج قاضى القضاة المالكى يحيى بن الدميرى ، وكان قرر قبل ذلك فى خطابة جامع السلطان : فصعد المنبر وهو لابس السواد ، وخطب خطبة بليغة ، وذكر فيها مناقب الامام أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فكان

بالجامع يوم مشهود ، واجتمع به قراء البلد والوعاظ .

ومن النوادر الغريبة أن قاضى القضاة محيى الدين يحيى بن الدميرى لما ولى القضاء لبس له طوقا ، وهذا بخلاف زى القضاة ، و لايعلم حجته فى ذلك .

وفيه رسم السلطان الى الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يتسلم شرف الدين بن روق الذى كان ولى التحدث على الخزائن الشريفة ، فتسلمه على عشرين ألف دينار . فلما تسلمه شكه فى الحديد ونزل به من القلعة حتى يكون من أمره ما يكون .

وفيه ، فى يوم السبت سادس عشرينه ، خلع السلطان على قاصد ملك الفرنج الفرانسة وأذن له بالسفر .

وفيه عزم السلطان على قاصد ملك الكرج ومد له سماطا بالبحرة التى بالميدان ، وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه ، فى يوم الأحد سابع عشرينه ، عزم السلطان على قاصد شاه اسماعيل الصفوى فجلس معه فى المربع الذى بالميدان وفرجه على لعب الكرة ، ثم دخل به الى البحرة التى ببستان الميدان ، وأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة بحضرة القاصد ، ومد له هناك أسمطة حافلة ، حتى أدهشه مما رأى فى ذلك اليوم من حسن النظام وتزايد العظمة .

وفيه فى يوم الاثنين ثامن عشرينه ، حضر قاصد ابن رمضان أمير التركمان وعلى يده تقدمة حافلة للسلطان .

ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا ، وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصفوى ، وقاصد ملك الكرج ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفى خليل أمير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذى توجه الى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرانسة ، وقاصد البنادقة ، وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة بالميدان ، وكانت جماعة من هؤلاء القصاد حاضرين ، فلما انتهى ضرب الكرة قام السلطان وطلع الى الحوش وجلس بالمقعد ، وأحضروا قدامه ثيرانا تتناطح وكباشا ، ومد فى ذلك اليوم أسمطة حافلة وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة وكذلك القصاد . فلما صلى الظهر خرج وأحضر مماليك يلعبون بالرمح فوقع بينهم فى ذلك اليوم خصمانية ، حتى تعجب القصاد من ذلك ، وكان يوما مشهودا بالحوش ، فاستمروا على ذلك الى بعد العصر فنزلت الأمراء وانفض ذلك الجمع .

وفى يوم الأربعاء سلخه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وعاد الى القلعة .

* * *

وفى جمادى الأولى طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

وفى ذلك اليوم طلع قاصد صاحب تونس وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ، قيل انها قومت بعشرة آلاف دينار ، وهى ما بين قماش فاخر

وخيول وسلاح وغير ذلك ، فخلع عليه السلطان كاملية صوف بسمور ونزل من القلعة .

وفيه طلع قاصد ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مطالعة للسلطان ، فأشيع بين الناس أن ابن عثمان أبا يزيد ضعيف على خطة ، وقد نزل عن الملك الى ولده الصغير الذى يسمى سليم شاه وصار متملكا على بلاد الروم عوضا عن أبيه أبى يزيد ، فجاء القاصد ببشارة ذلك .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى استجدها برسم المماليك التراكمة وأولاد الناس ، كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الجمعة ثانى هذا الشهر وردت الأخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم الغازى المجاهد المرابط ملك الروم وصاحب مدينة الروم بالقسطنطينية العظمى وما مع ذلك من الفتوحات ، وهو السلطان أبو يزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد خان بن أبى يزيد المعروف بيلدرم ابن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان ابن عثمان الأكبر الذى مات شهيدا بالغزاة وكان مولد السلطان أبا يزيد سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وولى على ملك الروم وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وأقام فيه الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، فقدمت الأخبار بوفاته يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى من هذه السنة ، فكانت مدة ولايته على مملكة الروم نحوا من ثلاث وثلاثين سنة الا أشهرا ، وفتح فى أيامه عدة مدن من بلاد الفرنج ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ، وكان من خيار ملوك بنى عثمان قاطبة .

ولما مات خلف من الأولاد الذكور ثلاثة : هم قرقد بك وكان أكبرهم ، وأحمد بك ، وسليم شاه الذى عهد له بالملك بعده ، فتولى على ملك الروم فى حياة والده أبى يزيد ، وقد جاءت الأخبار بولايته على مملكة الروم قبل وفاة أبيه .

فلما تحقق السلطان وفاته بكى عليه وأظهر الحزن والأسف ، ثم صلى عليه صلاة الغيبة بالقلعة ، فلما شاع الخبر بموته فى ذلك اليوم بين الناس صلوا عليه صلاة الغيبة بعد صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وفى جامع السلطان الذى بالشرابشيين وغير ذلك ، وقد حزن عليه الناس فانه كان قامعا للفرنج لا يفتر عن الجهاد فيهم ليلا ولا نهارا ، وكان به نفع للمسلمين .

وفى يوم الأحد رابعه أشيع بين الناس بموت أمير مكة الشريف قايتباى ، وبموت الشيخ عامر صاحب اليمن وكان من خيار ملوك اليمن ، وبموت الخواجا عيسى القارى وكان من أعيان تجار مكة وهو فى سعة من المال وله شهرة زائدة .

وفى يوم الاثنين خامسه طلع الأمير بيبرس بن الأمير أحمد بن بقر شيخ العرب الى السلطان وقابله ، فخلع عليه ونزل الى داره ، وكان له مدة طويلة وهو عاص على السلطان فقابله فى ذلك اليوم

وفيه طلع الأمير خاير بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية بسمور . ونزل الى داره فى موكب حافل وصحبته الأمراء ، فزينت له القاهرة ، وسبب ذلك أنه كان قد مرض مرضا خطرا وأشرف فيه على الموت ثم شفى من ذلك .

وفى يوم الأربعاء سابعه نزل السلطان الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وكان النيل قد

قارب الوفاء فزاد فى تلك الليلة أربعا وعشرين أصبعا فى دفعة واحدة ، فتفاءل الناس بنزول السلطان الى المقياس .

وفى يوم الخميس ثامنه جلس السلطان فى الميدان ، وأحضر قصاد الصفوى وخلع عليهم كوامل مخمل أحمر كفرى بسمور ، وعلى بقية جماعته سلاريات صوف مفرية ما بين سمور ووشق وسنجاب ، ودفع اليهم جواب كتابهم ، ولكن كتب الى الصفوى فى جوابه عبارة ألفاظها يابسة فى الكلام ، وكان الصفوى أرسل الى السلطان فى كتابه ألفاظا فاحشة فأجابه بمثل ذلك وزيادة ، وهذا أول ابتداء وقوع الوحشة بين السلطان وبين شاه اسماعيل الصفوى ، وكان الصفوى قد حصل منه فى حق قاصد السلطان الأمير تمرباى الهندى لما توجه اليه غاية الفحش به .

وفى هذا الشهر وقعت نادرة وهو أن أشيع بين الناس أن رودس قد فتحت على يد المسلمين بحيلة من غير قتال ولا حرب ، فقويت الاشاعات بذلك ، وهم أن يدق السلطان الكوسات فى ذلك اليوم ويزين القاهرة ، وكان سبب ذلك أن شخصا من أبناء الشام جاء الى شخص من مماليك الأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين ، وكان هذا المملوك شادا فى بلد تسمى زفتة ، فجاء اليه ذلك الرجل الشامى ودفع اليه عدة مطالعات ، وقال له : هذه من عند الأمير محمد بك قرابة السلطان الذى أشاعوا قتله ، وقد ظهر أنه فى قيد الحياة وقد تحيل على أهل رودس حتى أخذها منهم وملكها وآسر أهل المدينة بحيلة ، وأن الأمير محمد بك قد وصل الى الطينة وأرسل يطلب فرسا وقماشا ، فأخذ المملوك منه المطالعات وحضر الى عند السلطان ، فلما قرأ تلك المطالعة انصاع لذلك الكلام وظن أنه حق ، فخلع على ذلك المملوك خلعة ، وفرق على الامراء مطالعاتهم ، وهم أن يدق الكوسات لهذا الخبر ، وأرسل صحبه ذلك المملوك فرسا وبقجة فيها قماش ، وكذلك الأمير طقطباى نائب القلعة ، والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، فأخذ المملوك القماش والخيل ومضى ، ثم ظهر فى عقيب ذلك أن هذا الكلام كذب مصنوع ، فعين السلطان يحيى بن نكار دوادار والى القاهرة بأن يتوجه خلف ذلك المملوك ويحضره ويحضر الرجل الشامى الذى دفع اليه المطالعات ، فغاب أياما وأحضر المملوك وما أخذه من الخيول والقماش ، وأحضر ذلك الرجل الشامى الذى جاء بالمطالعة ، فلما حضر بين يدى السلطان حزق عليه بالكلام فاعترف أنه صنع تلك الكتب افتعالا عن الأمير محمد بك ، وأن شدة الفقر أحوجته الى ذلك ، فقال له السلطان : « كنت أنت وقفت الى وطلبت منى شيئا كنت أنعم عليك به » ، ثم عراه بين يديه ليضربه بالمقارع فوجد فى أجنابه أثر الضرب بالمقارع ، فسأله عن ذلك ، فاعترف أنه كذب مرة أخرى على خاير بك نائب حلب فضربه بالمقارع وقطع أنفه ، ثم ان السلطان ضربه بين يديه وبعثه الى المقشرة من يومه ، واستعاد الخيول والقماش من ذلك المملوك الذى أتى بالمطالعات .

وفيه أنعم السلطان على تمرباى الهندى الذى توجه قاصدا الى الصفوى بامرة طبلخاناه ، وكان قبل أن يسافر أمير عشرة .

وفى يوم الجمعة تاسعه تلاقى ماء النيل ودخل الى الزربية ، وكان له يوم مشهود ، وكان السلطان فى العام الماضى سد خليج الزربية وعمل له جسرا من عند قنطرة موردة الجبس ، فلم تسكن بيوت الزربية فى العام الماضى ، ولم يدخل خليجها المراكب

على جارى العادة بالغلال ، فوجدوا فم الخليج قد تربى فيه الطين نحوا من سبع أذرع ، فرسم السلطان بابطال ذلك الجسر ، ففرح به سكان الزربية .

وفى يوم السبت عاشره خلع السلطان على قاصد ملك الكرج وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى أول يوم من مسرى وفتح السد فى اليوم الثانى منها ، ووقع مثل ذلك فى دولة الأشرف قايتباى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة أن النيل أوفى فى آخر يوم من أبيب وفتح السد فى أول يوم من مسرى ، فلما أوفى فى هذه السنة زاد عن الوفاء عشر أصابع من الذراع السابعة عشرة ، فعد ذلك من النوادر .

وفى اليوم الثانى من بعد الوفاء زاد النيل اثنتى عشرة أصبعا ، وزاد فى اليوم الثالث ست عشرة أصبعا فغلق سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع من ثمانى عشرة ذراعا ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة . فلما أوفى النيل رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فتوجه وفتح السد وكان له يوم مشهود ، وقد قيل فى المعنى :

النيل زاد زيادة قد أذنت
من كل باسقة النخيل بقلعها
فلكم به من مركب فى الجو قد
أمسى عمود الصبح صارى قلعها

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وكانت ليلة البدر فبات بسطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وقرأ ختمة وحضر سائر قراء البلد والوعاظ ، وأقام هناك الى اليوم الثانى وطلع بعد العصر ، وكانت ليلة الجامكية ، وهذا أول بياته عن القلعة ، ولم يمع له من حين ولى السلطنة أنه بات عن القلعة سوى هذه الليلة ، وكان ولده المقر الناصرى محمد صحبته ، قيل انه قرأ فى تلك الليلة عشرين ختمة بالنجبرتية ، وانشرح تلك الليلة الى الغاية ، ثم فى اليوم الثانى نزل السلطان من المقياس فى الحراقة وتوجه الى بولاق ، وكان الأمير خاير بيك الخازندار عليلا وهو مقيم فى البيت المعروف بالسبكية ، فطلع عنده السلطان وعاده فمد له خاير بك هناك مدة حافلة ، فأكل منها ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى هذا السهر تناهى النيل فى الزيادة الى اثنتى عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وذلك قبل دخول النوروز بسنة عشر يوما ، حتى عد ذلك من النوادر ، فأخصبت الفواكه فى هذا الشهر جدا ، حتى البطيخ الصيفى والعبدلى والعنب والرمان وسائر الفواكه ، لكن الزبيب كان غاليا وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل قنطار ، وصاروا يخلطون مع الأقسماء العجوة ، وكانت أصناف الغلال جميعها مشططة ، وسائر البضائع من السيرج والزيت والزيت الحار والسمن مشططة فى السعر ، وكذلك سائر الأجبان حتى السكر والقطر ، وتشحط اللحم الضانى والبقرى ، وغلا سعر الأرز ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

* * *

وفى جمادى الآخرة تغير خاطر السلطان على الزينى بركات بن موسى المحتسب ، وسبب ذلك أنه حصل بينه وبين الجمالى يوسف البدرى الوزير تشاجر بحضرة السلطان ، فخرج الزينى بركات على البدرى فى القول قدام السلطان وأساء عليه . فحنق السلطان من الزينى بركات وأمر بالقبض

عليه ، ووكل به ألماس دوادار سكين وشخصا آخر من دوادارية السكين ، فأطلعوه الى طبقة الحوش ، ورسم له السلطان بأن يقيم له حساب أربع سنين عن الجهات التى كان يتكلم عليها ، فاستمر فى الترسيم ثمانية أيام وهو فى كل يوم يدفع الى ألماس ورفيقه مائة دينار ، ولم يجسر أحد من الأمراء أن يكلم السلطان فى أمره .

فلما كان يوم السبت تاسع هذا الشهر أفرج السلطان عن الزينى بركات وألبسه كاملية صوف بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، ومعه جماعة من أرباب الدولة ، فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين ، وتخلق الناس بالزعفران ، حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون فعلقت فى الطيقان ، وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقته الطبول والزمور ومغانى النساء ، وكان ساكنا ببركة الرطلى فى أيام النيل . وكان الزينى بركات محببا للناس فى أيام ولايته على الحسبة ، ولما قبض السلطان عليه رثى له الناس ، وكانت الأعداء شنعت عليه أن السلطان يقصد شنقه مثل على بن أبى الجود ، فنجاه الله تعالى من ذلك ، وقد هنيته لما خلص بهذين البيتين وهما :

تاب اليك الدهر مما جنى
من فعله فى حكمه الجاير
فما نجا من شر كيد العدا
سوى الفتى المحتسب الصابر

وقيل ان السلطان قرر عليه نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وقيل أربعين ، يقوم بشىء من ذلك فى كل شهر على الجوامك .

ومن الوقائع الشنيعة أن الوالى قبض على شخص من الأتراك يقال له دمرداش ، وكان مشدا على دار البطيخ التى بباب النصر ، وقد غمز عليه أنه ينبش على القبور ويأخذ رءوس الموتى ولحمهم ويبيع ذلك للفرنج يعملون منه المومية ، وقيل السم ، فلما قبضوا عليه وجدوا عنده من عظام الموتى أشياء كثيرة من جماجم وأعضاء ، فحملوا ذلك فى قفاف على حمير وطلعوا بها الى السلطان حتى شاهد تلك العظام . فلما وقف دمرداش المذكور بين يدى السلطان ، سأله عن أمر هذه الجماجم ، فقال : هذه من قبور النواويس يأتينى بها العربان فأصنع منها المومية وأبيع ذلك فى بلاد الفرنج ، ثم وجدوا على العظام لحما طريا ، وشهد عليه الناس أنه فى كل يوم يتوجه الى الصحراء وينبش قبور الموتى الجدد ويأخذ لحمهم وعظمهم يبيع ذلك على الفرنج . فلما تحقق السلطان ذلك أمر بشنقه ، فسمروه على جمل وأشهروه فى القاهرة حتى أتوا به الى داره بالقرب من دار البطيخ فشنق هناك ، وكان له يوم مشهود .

وقد تقدم مثل هذه الواقعة بعينها فى دولة الأشرف برسباى . وذلك أن رجلا أعجميا كان بمصر ينصب على النساء والأطفال ويقتلهم وينزع لحمهم عن عظمهم ، ويبيع اللحم على الفرنج كل قنطار بخمسة وعشرين دينارا ، فلما غمز عليه قبض عليه السلطان وأشهره فى القاهرة وقطع يديه وعلقهما فى رقبته ثم وسطه ، وكان ذلك فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه من بين الكيمان الى أن وصل الى السواقى التى فى الهد ، فنزل من هناك فى الغراب الذى عمره ، ثم انحدر الى المقياس وطلع الى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ثم ان السلطان

عزم هناك على الأمراء قاطبة من المقدمين والطبلخانات والعشراوات وغالب العساكر ، فنصب الأمراء لهم خياما على شاطئ البحر الذى تجاه بر الجيزة ، فبات السلطان تلك الليله فى المقياس هو والأمراء قاطبة ، فمد له هناك القاضى كاتب السر محمود ابن اجا أسمطة حافلة ، وما أبقى فى ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى وفاكهة وسكر حريف وأقسماء وبطيخ صيفى وأجبان مقلى فى الطوارى ، وعم ذلك على سائر الأمراء قاطبة ، وممن كان صحبة السلطان من المباشرين وأرباب الدولة ، فألبسه السلطان هنـاك كاملية مخمل أحمر بسمور من ملابيسه ، وشـكر له السلطان ما صنعه من ذلك ... فكان مصروف تلك الأسمطة نحوا من سبعمائة دينار ، وعزم السلطان هناك على القضاة الأربعة وأعيـان الناس ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ .

ثم ان السلطان أوقد فى قاعة المقياس وقدة حافلة باطنا وظاهرا ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر الذى أنشـأه على شرفات المقياس ، قناديل فى أحمال وأمشاط ، حتى أوقد جامع المقياس والمئذنة ، ثم ان سكان بر مصر وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين ، حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضـة . ثم أحضر السلطان المركب الكبير الغليون الذى عمره وصرف عليه نحوا من عشرين ألف دينار فأرسوا به قبالة المقياس ، وصنعوا له ثمانية مراس فى البحر ، وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشـاط ، فكان الذى وقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل .

ثم صنع السـلطان فى تلك الليلة حراقة فكان مصروفها نحوا من مائة وسبعين دنانرا مثل حراقة نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة قدام القلعة ، فشقوا بالنفط من القـاهرة وهو مزفوف وقدامه الطبول والزمور ، فكان عدة قلاع النفط خمسين قلعة ، والمآذن ستين مئذنة ، وأزيار عشرة ، وجرر أربعين جرة ، وصواريخ كبار ثلاثمائة ، ومأويات ألفا ومائتين ، وشجرات عشرة ، وتنانير عشرين ، وقطع ألفين ، وشعل أربعين ، فلما وصلوا بالنفط الى شاطئ البحر أنزله فى خمسين مركبا ، وصفوا المراكب قبالة المقيـاس عند البهطلة . ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس ، ففعلوا ذلك ، فكان حس الطبول والزمور مع الكوسات مثل صوت الرعد القاصف . فلما صلى السلطان العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشـأه على بسطة المقياس ، والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط ، وكان النيل فى ثلاث أصابع من عشرين ذراعا ، وكانت ليلة البدر ، فكانت تلك الليلة ، فدقت كوسات السلطان مع كوسات الأمراء المقدمين ، وهم أربعة وعشرون مقدم ألف ، فقاموا فى صعيد واحد عند احراق النفط ، فكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، ولم يقع لأحد من الملوك قبله مثل هذه الواقعة ، ولا للمؤيد شيخ ولا للناصر فرج ابن برقوق .

وقد وقع للأمير جانى بك نائب جـدة أمير دوادار كبير أنه لما أنشأ القبة التى فى منشية المهرالى وكملت أوقد فيها تلك الليلة وقدة حافلة ، وأحضر مراكب وعلق فيها أحمالا بقناديل وركز صوارى قدام القبة وعلق فيها قناديل فى حبال ، وكانت له ليلة حافلة ، وذلك فى أواخر سنة سـبع وستين وثمانمائة . وقد تقدم ذكر ذلك فى دولة الظاهر خشقدم ، ولكن لم تعادل ليـلة وقعت للأشرف الغورى فانها كانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وقد بلغ كرى كل مركب فى تلك الليلة

خمسة دنانير وأكثر من ذلك ، والمراكب التى هى مرسية على البر اشحنت بالحلايق ، فأخدوا على كل رأس أربعة أنصاف فتحصل من ذلك جملة مال للنوانية .

وكان بطول الليل والى القاهرة يدور فى مركب وينادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد يشوش على أحد ولا مملوك يعبث على امرأة ، فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان ، ولكن عبثت المماليك فى الطرقات على الناس وصاروا يخطفون العمائم والشدود ، وقتل مملوك امرأة فى طريق مصر وقد ساق الفرس فقوى رأسه عليه فداس امرأة راكبة على حمار فماتت من وقتها ، وغرقت مركب تلك الليلة بمن فيها من الناس ، وكانت ليلة كثيرة الاضطراب ماجت فيها الناس وخرجت البنت فى خدرها حتى تنظر وفدة السلطان وحراقة النفط ، فأقام السلطان فى المقياس يوم الأربعاء ويوم الخميس الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة ، وكان ولده المقر الناصرى محمد صحبته وغالب الأمراء ، وقد نظمت هذه القصيدة فى هذه الواقعة حيث أقول :

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج
كليلة سمحت للأشرف الغورى

فان ترد وصفها أنشدت مرتجلا
فى وقدة الليل بالأملاك والدور

من بر مصر ومقياس يقابله
كأن التقابل بين النور والنور

حاكت مصابيحها ضوء النجوم اذا
ما أزهرت بالدجى فى ليل ديجور

وكم رأينا قلاعا فى ذخائرها
صوارخ بضياء فى الجو منشور

كواكب النفط قد حاكت لنا قمرا
بضوء زهر بدا فى الماء منشور

قلوب أزياره صارت مفرقعة
من وهج نيرانها فى زى مفهور

وصوت باروده مثل الرعود اذا
ما صرخوه يحاكى نفخة الصور

وضاق رحب الفضا فى البحر من سفن
لما بدت فى ازدحام كل شحتور

وكم سمعنا مغن صوته طرب
يشدو على آلتى عود وطنبور

قالت لنا روضة المقياس ذا عجب
هل بعد يوم الوفا جبر لمكسور

تاريخ سلطاننا فاق الملوك اذا
تفاخروا فهو تاج الكل بالدور

حفت عساكره من حوله زمرا
فكم سبا جمع أحزاب على الفور

لو عاش من أنشأ المقياس قال له
الآن أنت علينا خير مشكور

فلا الرشيد ولا المأمون ناسبه
فى أمره ناهيا عن كل منكور

فالله يبقيه فى عز وفى شرف
أعيذه من شرار الناس بالطور

ما غرد الطير فى روض وناشده
على الغصون هزار حول شحرور

محمد بن اياس نظمه درر
وقد أضاءت بمدح الأشرف الغورى

ثم الصلاة على المختار ما طلعت
شمس الضحى واستنار الأفق بالنور

وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه خلع السلطان على ناظر الخاص وخرج على الهجن وسافر الى

مكة ، وخرج صحبته جماعة من مصر يرومسون الحج .

وفى يوم الخميس رابسع عشرينه توفى قراكز الشريفى الفهلوان أحد الأمراء العشراوات ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم الخميس ثامن عشرينه أشيع بموت علم الدين الذى كان متحدثا فى كتابة الخزانة ، وقد قاسى شدائد ومحنا وصودر ، واستمر فى المصادرة من سنة أربع عشرة وتسعمائة الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، وضرب غير ما مرة وعصر وأخذ منه مال له صورة نحو من مائة وعشرين ألف دينار على ما قيل ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وآخر الأمر مات وهو تحت العقوبة فى الترسيم .

وفيه قبض السسلطان على تاج الدين ابن كاتب الدواليب وسلمه الى الزينى بركات بن موسى ، وسبب ذلك قيل عنه أن عنده لعلم الدين المذكور وديعة .

وفيه حضر الناصرى محمسد بن الشهابى أحمد ابن أسنبغا الطيارى أمير شكار ، وقد تقدم أن السلطان تغير خاطره عليه بسبب علم الدين جلبى السلطان فرسم بنفيه الى قوص ، فلما توجه الى هناك كان الأمير طومان باى الدوادار مسافرا نحو الصعيد ، فلما وصل الناصرى محمسد الى هناك ترامى على الأمير طومان باى بأن يشفع فيه عند السلطان ، فأرسسل شفع فيه ، فرسم السسلطان بعسوده الى مصر ، فلمسا طلع السسلطان خلع عليه ونزل الى داره ، لكن غرم مالا له صورة .

وفى يوم الجمعة تاسسع عشرينه هجم المنسر ليسلة السبت على سكان الزربية من المتفرجين ، فدخلوا المقاصف ونهبوا عمائم الناس وقماشسهم وعبيهم وقتلوا شخصا من الخفراء ، وكانت ليلة مهولة ، وراحت على من راح .

وفى يوم الجمعة المذكور صنع الأمير قانصوه ابن سلطان جركس أحسد الأمراء المقدمين وقدة وحراقة نفط فى بركة الفرايين ، مكان داره التى أنشأها هناك ، فكانت له ليلة حافلة وعسزم على الأمراء عنده ، ونقل مراكب صغارا على جمال الى بركة الفرايين فكانوا نحسوا من ثلاثين مركبا أو دون ذلك ، وأمر سسكان البركة بأن يوقسدوا فى بيوتهم القنساديل والثريات والأمشاط ، فأوقدوا وقدة حافلة تلك الليلة ، ومد أسسمطة حسافلة للأمراء ، ولم يقع قط فى بركة الفرايين ليلة مثل تلك الليلة فى الفرجة والقصف .

***

وفى رجب ، كان مستهله يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فحصل للقاضى الشافعى من السلطان بعض مقت ، وسبب ذلك أن قوس الهسلال كان تلك الليسلة لا يرى ، فقيل رآه بعض الناس ، وكان قوسسه تلك الليلة على درجتين ونصسف ، وكان عسر الرؤية وحكم أرباب التقويم أنه لا يرى تلك الليلة ، فثبت رؤيته على قاض فى الصسليبة يقسال له شمس السدين الأتميدى ، فلمسا طلع القضاة الى السلطان وقال للقاضى الشافعى : أحضر لى القاضى الذى ثبت عليه برؤية الهلال على درجتين ونصف وهو غير ممكن الرؤية ، فنزل القاضى الشافعى كمال الدين الطويل وهو فى غاية التعفيش وأشيع عزله

وفى يوم الأربعاء خامسه نزل السسلطان الى المقياس وأقام به الى أواخر النهار ، وكان بلعسه مجىء الأمير طومان باى الدوادار من الصعيد ، فلما أن وصل بالمركب نزل الى المقياس وسلم على السلطان هناك ، ثم فى ثانى يوم طلع ولبس خلعة حافلة ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى يوم الخميس سادسسه خلع السلطان على

قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب وقرره فى قضاء الشافعية عوضا عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل بحكم انفصاله عنها ، وهـذه خامس ولايـة وقعت لابن النقيب ، وقد سـعى فى هـده المرة بثلاثة آلاف دينار وقيل انه نفد منه فى هذه الخمس ولايات نحو من سـبعة وعشرين ألف دينـار ، غير ما سـعى به للمتكلمين له على ما قيل

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره نزل السلطان الى المطرية وأقام فى قبة يشـبك الدوادار الى بعـد العصر ، وأكل السماط هناك ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، الموافق لأول يوم من بابه ، ثبت النيل المبارك على ثمانى أصابع من احدى وعشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى نصف هاتور . وقد تقدم القول أن فى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتبـاى ، ثبت النيل المبارك على احدى عشر أصبعا من احدى وعشرين ذراعا ، فكان أزيد من هذا بثلاث أصابع .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه فرق السلطان على المماليك القـرانصة الخيول التى كانت لهم فى الديوان ، فأعطى لهم عن كل فرس فحل خمسة آلاف درهم ، والذى له فحل واكديش ثلاثة آلاف درهم عن الاكديش وأعطاه فحلا مع الثلاثة آلاف ، ومن حين تسلطن الى يوم تاريخـه لم ينفق على المماليك القرانصة ثمن خيول الرد سوى فى هذا الشهر .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وكانت ليلة مستهل الشهر .

* * *

وفى شعبان طلع الخليفة والقضـاة الأربعة الى السلطان ليهنوه بالشـهر ، فقيل لهم بأن السلطان فى المقياس لم يطلع الى الآن ، فرجع الخليفة الى داره ، وقيل ان القضاة عدوا له الى المقياس وهنوه بالشهر هناك ، وكل هذا استخفاف بالناس ، ولم يكن له فى ذلك اليوم شغل يقتضى معاده فى المقياس ذلك اليوم ، فكان يوم تفرقة الجامكية الخامسة التى استجدها .

وفى يوم الثلاثاء ثانيه نزل السلطان الى الميدان وجلس فيه الى قريب الظهر ، ثم طلع الى الدهيشة فلم يأكل السماط على جارى العادة ، وحصل له توعك فى جسده ودخل الى دور الحرم ، وأقام فيه يوم الأربعـاء والخميس ، فكثر القال والقيل بين الناس ، وأشيع أنه قد أصابه القولنج . ثم خرج يوم الجمعـة وصلى فى الجامع فأبطل ذلك القيل والقـال .

وفى هذا الشهر قبض السـلطان على أقبـاى كاشف الشرقية ووكل به بالقلعـة وتغير خاطـره عليه ، فنادى فى القاهرة كل من كان له ظلامة عند أقباى كاشف الشرقية فعليه بالأبواب الشريفة . وكان أقبـاى أفحش فى الشرقية غاية الافحاش ، حتى ضج منه جميع المقطعين وكثرت فيه الشكاوى من العسـكر . ثم رسم السلطان بنزوله الى بيت نقيب الجيش حتى يرضى العسكر فيما أخذه من البلاد غير العـادة ، فلم يفـد من ذلك . وأرضى السـلطان بمال وراح على المقطعين ما أخـذه من بلادهم عن سنة ثمانى عشره الخـراجية معجلا . وفعل أشياء بالشرقية لم يفعلها غيره من الكشاف .

وفى يوم الاثنـين خامس عشره خلع السـلطان على قانصوه العادلى وقرره كاشف الشرقية عوضا عن أقباى بحكم انفصـاله عنها ، وخلع على جان بلاط الأشرفى كاشف الغـربية وأقـره على حاله بالغربية ، وكان أشيع عزله .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره رسم السـلطان بالافـراج عن شرف الدين يونس النابلسى الذى

كان أستادارا وعزل عنها ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وأقام نحوا من ثلاث سنين وهو فى الترسيم بالجامع الصغير الذى هو داخل الحوش السلطانى ، وربما كان فى الحديد فى هذه المدة ، وضرب بين يدى السلطان غير ما مرة ، وصودر وقرر عليه مال له صورة يرد منه على الجوامك فى كل شهر خمسمائة دينار .

وفيه كانت كاينة الخواجا شمس الدين الحليبى مع السلطان ، وسبب ذلك أن السلطان كان صادره مرارا عديدة وأخذ منه جملة مال ، فأرسل الحليبى الى مكة كتابا بخط يده الى شخص من أصحابه بمكة وذكر فيه ما فعله به السلطان ، وأرسل يقول له : « ادع على السلطان فى تلك الأماكن الشريفة فانه ما هو مسلم ولا فى قلبه رحمة قليل الدين » .

فظفر بعض أعداء الحليبى بهذا الكتاب فأوصله الى السلطان ، فلما قرأه أحضر الحليبى وأطلعه على ذلك الكتاب فأنكر الحليبى ذلك وقال : « هذا ما هو بخطى » . فشهد عليه جماعة أن هذا خطه ، فرسم السلطان عليه وشكه فى الحديد ، وقصد عليه أن يثبت عليه كفرا كون أنه عمله قليل الدين وما هو مسلم . ثم آل أمره على أن السلطان قرر عليه مالا له صورة .

وفيه فرق السلطان اطلاقات الطين على الأمراء ، ولكن أحدث شيئا ما فعله أحد من الملوك قبله ، وهو أنه نقص من اطلاقات الأمراء أشياء كثيرة وأخذ منهم الحلوان زيادة عن العادة ، فنقص من اطلاق أمير كبير سودون العجمى مائتى فدان ، وكان قبل ذلك سلخ من اقطاعه جهات بنحو من عشرين ألف دينار كون أنه كان لين الجانب فاستضعفه ، ونقص من اطلاق بقية الأمراء المقدمين كل واحد مائة فدان ، ومن اطلاقات الأمراء الطبلخانات كل واحد عشرين فدانا ، ومن اطلاقات الأمراء العشراوات كل واحد خمسة عشر فدانا ، وفرق على أصحاب الوظائف لكل واحد أشرفيين ، وبقية المماليك كل واحد أشرفيا ، وآخرين أشرفيا ونصف .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه نزل السلطان الى المقياس وأقام به الى آخر النهار ، ومد هناك سماطا حافلا ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر .

وفى يوم الخميس خامس عشرينه خلع السلطان على المعلم يعقوب اليهودى ، وقرره متحدثا على دار الضرب ، كما كان ابن نصر الله الذى تسحب كما تقدم ذكر ذلك ، فألبسه كاملية صوف أزرق بسمور ونزل من القلعة وهو فى غاية العظمة .

وفى يوم الجمعة سادس عشرينه ، الموافق لتاسع هاتور القبطى ، فيه قلع السلطان البياض ولبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشرينه نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، ثم نزل فى خرطوم الروضة ونصب له هناك خياما وأقام الى أواخر النهار . وانشرح فى ذلك اليوم ، وكان صحبته ولده المقر الناصرى محمد وجماعة من الخاصكية . وأشيع أن خرطوم الروضة أعجبه فأمر أن يبنى هناك قصر بأربعة أوجه .

وفى أواخر هذا الشهر لم يعرض السلطان المسجونين الذين فى الحبوس على جارى العادة ، وكان له عادة يعرض من فى الحبوس قبل رمضان بأيام قلائل ، ويطلق من المحابيس جماعة ، وينعم على المديونين بشىء ، ويصالح عنهم الغرماء ، ويفعل أشياء كثيرة من هذا النمط ، فلم يعمل فى هذه السنة شيئا من ذلك وتغافل عن هذا الأمر .

* * *

وفى رمضان كان مستهله يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وجلس

السلطان فى الميـدان وعرض عليه الوزير يوسف البدرى اللحـم والخبز والدقيق والسكر والغنم وغير دلك ، على جارى العادة ، وهو مزفوف على رءوس الحمـالين ، فخـلع الوزير عـلى الزينى بركات بن موسى المحتسب ونزلا من القلعـة فى موكب حافل .

وفى أوائل هذا الشهر عز وجود الحطب قاطبة ، وصـار الناس يقـدون الجـلة والكرس وقش الغيطان ، وتعطلت مطـابخ الأمـراء بسبب ذلك ولا سيما فى رمضـان ، واستمر الحال على ذلك الى أواخر الشهر .

وفى يوم الخميس ثانى رمضان حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك الهند ، وصحبته فيلان عظيما الخلقة ، وعليهما بركستوانات مخمل أحمر بمسامير كفت ، وعلى ظهورهما صنـاجق ، وعلى أنيابهما غلوف من الفولاذ ، فرجت لهما القـاهرة لما دخلوا ، وكان السـلطان فى الميـدان فعرضا عليه وقدامهما الطبول والزمور ، فتسارع الفيلان قدام السلطان فى الميـدان ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ثم رسم بأن يتوجهوا بهما الى بيت الأتابكى تمراز الذى عند القبو فأقاما به ، وحضر صحبة القاصد أولاد الخواجا عيسى القارى الذى توفى بمكة ، فقرر عليهما مائة ألف دينار ، فتشكوا من ذلك فحلف بحق رأسه ما يأخذ منهم الا مائتى ألف دينـار ، فرجعوا من عنده وهم فى أسوأ حال .

وفى يوم الأربعاء ثامنه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطعم الذى بالريدانية وجلس على المصطبة التى هناك ، وأطلقوا قـدامه الكلاب والصقورة والفهـودة ، وانشرح فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع السـلطان على المقر السيفى طومان باى أمير دوادار وقرره متحدثا على ديوان الوزارة والأستادارية وسائر الدواوين قاطبة ، وأشيع أنه بقى نظام المملكة ، فتضاعفت عظمته جـدا ، واجتمع فيه عـدة وظائف سنية ولا سيما لكونه قـرابة السلطان ، فلما نزل من القلعـة كان له يوم مشهود ، ونزل صحبته سائر الأمراء وأرباب الدولة حتى الفيلين المقدم ذكرهما ، وهما مزينان بالصناجق واللبوس ، وقدامهما الطبول والزمور .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الرئيس حامد المغربى وكان السلطان أرسله الى بلاد ابن عثمان ليشترى أخشـابا وحبالا ومكاحل نحاس . فلما بلغ ابن عثمان مجيئه أكرمه وأرسل صحبته الى السلطان عدة مكاحل نحاس وحديد وأخشـاب وحبال وغير ذلك أشياء كثيرة فى مراكب موسوقة .

وفى يوم الجمعـة عاشره حضر على الجركسى قاصـدا من عنـد خاير بك نائب حلب ، وكان السلطان أنعم على الجركسى بأمرة عشرة بحلب وجعله حاجبا ثانيا هناك ، وذلك لأجل خاطر خاير بك نائب حلب ، ويقال ان على الجركسى هذا كان أصل أبيه فرانا ، وكان على حسن الشكل فأخذه الأمير خاير بك عنده بجمقدار ورباه صغيرا حتى كبر ، فلا زال يرقى حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ، والعبد بسعيه لا بأبيه ولا بجده .

وفيه كان ما وقع لرئيسة المغانى ، وهى امرأة يقـال لها هيفة اللذيذة ، وقد رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من المـال ولها حلة للكرى ، فلما سمع السـلطان ذلك قبض عليها وأقامت فى الترسيم ، وعرضت للضرب غير ما مرة ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ، فباعت الحلى وجميع ماتملكه وأوردت ألف دينار ، وقد تكلم لها القاضى بركات

ابن موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد فى كل شهر مائة دينار على كل جامكية ، وقد طفل السلطان نفسه الى مصادرات المغانى أيضا ، والأمر لله .

وفى يوم الخميس سادس عشره فرق السلطان الكسوه مع الجامكية ، ولكن جعل كسوة أولاد الناس والمماليك العواجز ألفى درهم ، وصار لا يأخذ كسوة ثلاثة آلاف درهم سوى المماليك القرانصة وجلبانه فقط .

وفى ذلك اليوم حضر سيف نائب كختا ، وأشيع أنه مات قتيلا من بعض التراكمة .

وفى يوم الأحد تاسع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة ونزل فى مدرسته وزار قبر أولاده ، ثم عرض الأيتام الذين بالمكتب ورسم لهم بكسوة على العيد ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين عشرينه خلع السلطان على الشيخ خليل بن اسمعيل بن شبانة ، شيخ عربان جبل نابلس ، وقرره على عادته فى مشيخته بجبل نابلس ، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من النصارى يقال له عبد الصليب ، وهو من نواحى دلجة من الجهات القبلية ، فقيل عنه انه وقع فى حق النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بكلمات فاحشة . فشهد عليه جماعة بذلك وكتبوا به محضرا وثبت على قاضى الناحية ، فلما أحضروا النصرانى بين يدى السلطان اعترف بما قاله فى حق النبى صلى الله عليه وسلم ، فعرضوا عليه الاسلام فأبى ، فبعثه السلطان الى بيت الأمير طومان باى الدوادار ، فعقد له مجلس فاعترف بين يدى القضاة بما قاله وصمم على ذلك ، وقد بايع نفسه على عدم تغيير دينه ، فحكم القضاة بسفك دمه ، وثبت ذلك على بعض نواب المالكية فأركبوه على جمل وهو مسمر وأشهروه فى القاهرة حتى أتوا به الى عند المدرسة الصالحية ، فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة . ثم ان العوام أحضروا له النار والحطب وأحرقوا جثته فى وسط السوق ، فلما دخل الليل أكل الكلاب عظامه ومضى أمره .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه عرض السلطان خلع العيد ، وكانت فى هذه السنة فى غاية الوحاشة ، وهم بحكم النصف عن كل سنة ، وتعوق غالب الخلع . وسبب ذلك أن ناظر الخاص كان مسافرا فى الحجاز .

وفى ذلك اليوم كان ختم البخارى بالقلعة ، وحضر القضاة الأربعة ، وفرقت الخلع والصرر على من له عادة ، وكان ختما حافلا بالحوش السلطانى فى الخيمة المدورة .

وفى يوم الخميس سلخ الشهر حضر الأمير حسين الذى كان توجه باش التجريدة التى توجهت الى بلاد الهند ، وكانت مدة غيبة الأمير حسين فى هذه السفرة نحوا من سبع سنين وثلاثة أشهر ، وتوجه الى بلاد الهند واتقع هناك مع الفرنج وكسروه ونهبوا ما كان معه من المراكب والسلاح ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وهو الذى كان شادا على عمارة الصور والأبراج التى أنشأها السلطان بجدة وجاءت من أحسن المبانى . وكان الأمير حسين قرر فى نيابة جدة فى هذه المدة ، وأظهر هناك الفتك والعظمة ، وجار على التجار فى أمر العشر ، وظلم الناس قاطبة حتى ضجوا منه ، وتوجه فى هذه المدة الى جماعة من ملوك الهند . ولما حضر الأمير حسين جاء صحبته قاصد من عند الملك مظفر شاه ابن الملك محمود شاه صاحب كنباية ، الذى توفى الى رحمة الله تعالى ، فحضر

قاصد الملك مظفر شاه حتى يأخذ له من الخليفة تقليدا بولايته على كنباية ، فخلع السلطان على الأمير حسين وعلى قاصد ملك الهند ، ونزلا فى موكب حافل .

* * *

وفى شوال كان العيد يوم الجمعة ، وخطب فى ذلك اليوم خطبتان ، وكان موكب العيد حافلا .

وفى يوم الاثنين رابعه طلع الأمير حسين بتقدمة حافلة للسلطان ، ومثلها تقدمة من عند قاصد ملك الهند صاحب كنباية ، وكانت تقدمة الأمير حسين لها المنتهى من كل صنف فاخر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه حضر القاضى علاء الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم القول على أنه توجه الى مكة لينظر فى أمر من يلى امرة مكة عوضا عن الشريف قايتباى الذى توفى . فلما حضر ناظر الخاص حضر صحبته ابن الشريف بركات ، وحضر صحبتهم موذن عزورة أمير مكة وهو صبى صغير السن يقال له محمد أبو نمى ، وحضر معه ابن عمه الشريف عرعر ، وحضر صحبتهم قاضى قضاة مكة الشافعى والقاضى المالكى ، فلما أقبلوا قام لهم السلطان وأكرمهم غاية الاكرام ، وخلع عليهم كوامل بسمور ، وعلى ناظر الخاص . وقد لاقاهم لما دخل قضاة مصر الأربعة والقاضى كاتب السر ابن أجا وأعيان النـاس ، فنزلوا فى مكان أعد لهم .

وفى يوم الأربعاء سادسه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، فأقام بها الى ما بعد الظهر ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الخميس رابع عشره جلس السلطان بالميدان ، وعرضوا عليه كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل ، وشقوا بها من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خرج الحاج من القاهره وصحبتهم المحمل الشريف ، وكان أمير ركب المحمل تمر الحسنى أحد الأمراء المقدمين ، وبالركب الأول يوسف الناصرى شاد الشراب خاناه الذى كان نائب حماة ، وخرج صحبتهما الأمير قطلوباى الذى قرر باش المجاورين ، فكان لخروجهم يوم مشهود ، وظهر لهم أطلاب حافلة حتى رحت لهم القاهرة ، وخرج قدام المحمل الأفيال الكبار وهى مزينة باللبوس ، وعلى ظهورها الصناجق ، وقدامها الطبول والزمور . وخرج قدام المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة الذين حضروا وابن الشريف أمير مكة ، وخرج قدام أمراء الحاج أعيان الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة مصطفى التى فى المرج والزيات وبات بها تلك الليلة وأقام هناك .

وفى يوم الأربعاء سابع عشرنه نزل السلطان الى نحو تربة العادل وجلس هناك ، وجربوا قدامه عدة مكاحل ، ثم أقام هناك الى بعد العصر وعاد الى القلعة .

وفيه توفى المعلم عبد القادر الشماع ، وكان علامة فى فن التقويم وأخبار الملك .

وفى أواخر هذا الشهر توفى الأمير اينال شاد العمائر السلطانية ، وكان أصله من مماليك الأتابكى أزبك بن ططخ ، وأنعم عليه السلطان بأمرة عشرة ، وكان عنده من المقربين ، وكان عارفا بأمور الهندسة وأحوال البناء وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر رسم السلطان بتجديد عمارة

ميدان المهارة الذى بالقــرب من قناطر السباع ، فشرع فى ذلك وأمر الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير بأن يتولى أمر العمارة ويباشر ذلك بنفسه . فامتثل ما رسم به وأظهر العزم فى ذلك .

* * *

وفى ذى القعدة ، فى يوم الأربعاء خامسه ، نزل السلطان الى نحو تربة العادل التى تجاه المطرية ، وجلس على المصطبة التى هناك ، وجربوا قدامه عدة مكاحل بأحجار كبــار ، ثم توجه الى قبة يشبك التى هنــاك ، وأمر بعمارة فساقى وحفر بئر بسبب مرور المســافرين من هناك ، وشرع فى فتح عمــارة كبيرة . وجعــل الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين شادا على هــذه العمارة ، فقدروا على مصروف هذه العمارة مالا جزيلا ، وما كان الوقت محتاجا الى تلك العمارة هناك ، وتكلموا بأنه ينشىء هناك قصرا عظيما ، وبحرة طولها نحو من مائة ذراع ، وينشىء هناك غير ذلك أشياء كثيرة .

ومما وقع فى هذه الأيام أن كلبة فى الأزبكية ولدت أحد عشر كلبا فى بطن واحدة فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى يوم الخميس سادســه حضر الى الأبواب الشريفة أحــد أولاد أحمد بك بن عثمان ملك الروم ، وهو شــخص يسمى سليمان بك ، فلما حضر أكرمه السلطان وألبسه ســلارى صوف بسمور من ملابيسه ، وقيل ان والده أحمد بك فر من أخيــه سليم شاه الذى تولى على مملكة الروم ، وقصد أنه يحضر الى عند السلطان ، فبدا له من بعد ذلك أمر ، فتوجه الى عند شاه اسماعيل الصفوى وحضر ابنه الى عند السلطان ، فما انشرح السلطان لذلك وخشى مما يأتى من هذه الحركة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير أقباى الطويل أمير آخور تانى ، وعينه بأن يتوجه قاصدا الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، ليهنيه بالملك ، وينسج مودة بينهما . فنــزل أقباى من القلعة فى موكب حافل .

وفيه تعير خاطر السلطان على الشرفى يونس بن الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وقرر عليه عشرين ألف دينار وكتب خط يده بذلك ، وكان سبب هذه الكاينة له أن يونس السيفى قيت الرجبى كاشف منفلوط تغير السلطان عليه وقرر عليه مالا له صــورة ، وسلمه الى يونس نقيب الجيش . فلما نزل به الى داره تسحب من عنده واختفى فتغير خاطر السلطان على نقيب الجيش وقال : « ما أعترف بالمال الذى عليه الا منك » . فكان هذا سببا لكاينة نقيب الجيش مع السلطان ، وكان نقيب الجيش من وسائط السوء اذا وقف بين يدى السلطان ما يتحدث فى أحد من الناس بخير ، ويحصل للناس منه الضرر الشامل ، فكان يستحق كل سوء ، فلما جرى عليه ذلك شرع فى بيع أملاكه ورزقه وقماشه وخيوله ، وجاء عليه الســلطان مجىء وحش ، والمجــازاة من جنس العمل .

وفى يوم الخميس ثالث عشره خلع السلطان على قاضى القضــاة كمال الدين وأعاده الى منصب القضــاء ، وصرف عنه محيى الدين بن النقيب ، وهذه ثالث ولاية وقعت لكمال الدين الطويل ، وقد نفد منه فى هذه الثلاث ولايات فوق العشرة آلاف دينار ، وأما محيى الدين بن النقيب فانه تولى خمس ولايات ، فكانت مدته فى هذه الخمس ولايات ســنة وتسعة أشهر وثمانية أيام لا غير ، كما يقال فى المعنى :

أعماله ردت علىـه بما جنى
والدهر قد جازاه من جنس العمل

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره نزل السلطان وكشف على العمارة التى فى الميدان ، كما تقدم ذكر ذلك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الجمعة رابع عشره صلى السلطان صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم ركب ونزل وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه ثلاث طوايل خيول بسروج ذهب وكنابيش ، وقدامه من الأمراء الأمير طومان باى الدوادار الكبير فقط ، ومن الأمراء الطبلخانات أقباى أمير آخور ثانى وكرتباى والى القاهرة ، وجماعة من الخاصكية والسلحدارية ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة لساء ، وعليه سلارى صوف فستقى بسمور ، وهو راكب فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وأشيع أنه يتوجه الى نحو الأهرام ويقيم به أياما ، فنصب هناك وطاقا . وأشيع أنه يتوجه من هناك الى الفيوم كما وقع للأشرف قايتباى نظير ذلك ، فرجت القاهرة لسفره على حين غفلة ، وماج العسكر الذى لم يكن على نفقة من احتياج السفر . ولما نزل السلطان من القلعة توجه الى المقياس وبات به لىلة السبت ، فلما طلع النهار عدى من هناك وطلع الى بر الجيزة وتوجه الى الوطاق الذى نصبه عند الأهرام .

وقيل ان السلطان أخذ معه جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، فمنهم محمد بن عوينة العواد وجلال السنطيرى والبوالقة وابن الليمونى وغير ذلك من المغانى . فلما توجه الى الوطاق أقام به يوم السبت والأحد ، ثم رحل عن الوطاق يوم الاثنين سابع عشره وقصد التوجه الى نحو الفيوم وكان صحبته من الأمراء الأتابكى سودون العجمى وقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء المقدمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية ، فتوجهوا على الهجن وساروا الى الفيوم .

وفى يوم الاثنين المذكور فرقت الجامكية على العسكر فى غيبة السلطان بباب القلعة . وحضر ذلك مقدم المماليك والأمير خاير بك الخازندار والوزير يوسف البدرى ، وغير ذلك من الأعيان مثل القاضى بركات بن موسى المحتسب وغيره

ومن الحوادث فى غيبة السلطان قد حضر المقر علاء الدين بك أخو سليمان بك أولاد المقر الشهابى أحمد بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، وكان توجه الى زيارة بيت المقدس فلم يحضر صحبة أخيه سليمان بك لما حضر ، فأنزلوه عند ما حضر فى بيت الأتابكى تمراز الذى عند القبو الى أن يحضر السلطان

فلما توجه السلطان الى الفيوم وجدها خرابا وشرق غالبها ، وقد تقطع الجسر الذى بها ، فلم يقم بها السلطان سوى ليلة واحدة ، ورسم للأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين بأن يقيم هناك حتى يعمر الجسر الذى بها ، ثم ان السلطان رسم له بأن يفرد على البلاد التى هناك من اقطاعات ورزق على كل فدان طين عشرة أنصاف ، وقيل أفرد على المقطعين هناك ثلث ما لهم من الخراج ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الضرر .

وكان قبل ذلك رسم السلطان بعمارة جسر أم دينار الذى بالجيزة ، فندب الى عمارته الشرفى يونس نقيب الجيش وشخصا آخر من المباشرين يقال له جمال الدين ، فأفردوا على البلاد والرزق والاقطاعات التى هناك فى اقليم الجيزة الثلث من الخراج ، فحصل للمقطعين الضرر الشامل ، وصار

يتعسف معهم ويستخرج منهم المال ، وصار السلطان يعوق جوامك المماليك الدين لهم اقطاعات فى اقليم الجيزة بسبب عمارة هذا الجسر ، فما أبقى نقيب الجيش فى ذلك ممكنا من باب المظالم ، لا سيما شدة عسفه فى المظالم السلطانية .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد قصد العود من الفيوم ، فخرج الى تلقيه أمير المؤمنين وهو المتوكل على الله محمد فلاقاه من دهشور وهى بلد الخليفة ، فأقبل عليه السلطان ورحب به وبالغ فى اكرامه وتعظيمه وألبسه سلارى صوف فستقى بسمور من ملابسه ، قيل ان مشترى سموره ثلثمائة دينار .

وكان الخليفة لما توجه السلطان الى الفيوم مر من على دهشور بلد الحليفة فقدم اليه الخليفة مهارة وأغناما وأبقارا وأشياء كثيرة من دجاج وأوز ومن أنواع الأكل قدور عسل نحل وجرر لبن وغير ذلك أشياء كثيرة ، فشكر له ذلك .

ثم ان السلطان أتى الى الوطاق الذى تركه منصوبا تحت الأهرام ومضى الى الفيوم ، فلما نزل بالوطاق تسامعت به الناس فتوجه اليه قضاة القضاة ، وهم كمال الدين الطويل الشافعى ومحيى الدين يحيى الدميرى المالكى والشهاب أحمد الشيشينى الحنبلى ، وخرج اليه غالب أعيان الناس ، فنزل السلطان بالوطاق يوم الأربعاء سادس عشرينه ، فأقام به يومى الأربعاء والخميس وأحرق هناك احراقة نفط ثانية .

فلما كان يوم الجمعة عدى السلطان من هناك ونزل بالمقياس فأقام به الى يوم الأحد سلخ الشهر فتوجه اليه هناك أولاد ابن عثمان الذين حضروا كما تقدم القول على ذلك .

* * *

فلما كان يوم الاثنين مستهل ذى الحجة ، عدى السلطان من المقياس وأتى الى بر مصر وركب من هناك ، ومشت قدامه الرءوس النوب بالعصى ، ومشى قدامه الجم الغفير من الخاصكية بغير شاش ولا قماش ، وركب قدامه الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار الكبير وحاجب الحجاب أنص باى ، وجماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف ، وكان قاضى القضاة الحنفى عبدالبر بن الشحنة مسافرا صحبه السلطان فركب قدامه ، فألبس السلطان الأمراء المقدمين كوامل مخمل أحمر بسمور ، وهم أمير كبير وأمير مجلس والدوادار الكبير ، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور ، وكذلك جماعة من الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف ممن كان مسافرا مع السلطان ، وألبس قاضى القضاة الحنفى عبد البر كاملة صوف أبيض بسمور وكان مسافرا معه ، وركب قدامه العسكر قاطبة ، فشق من الصليبية مع طلوع الشمس وهو فى موكب حافل ، وعليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، وهو راكب على فرس بسرج ذهب وكنبوش ، وقدامه ثلاث طوايل خيل بسروج ذهب وكنابيش ، وقدامه حجورة بسروج بداوى وركب مغربى ، وكان قدامه أربع نوب هجن فيها نوبتان بأكوار زركش ، وكان قدامه الفيلان الكبيران وعليهما البركستوان المخمل الأحمر ، وعلى ظهورهما الصناجق الحرير الملون ، وكان قدامه طبلان وزمران والنفير البرغشى والطبردارية . قد شاهدت هذا كله بعينى ، وركب قدامه أولاد ابن عثمان ملك الروم ، وركب قدامه جماعة من أولاد ابن قرمان كانوا بمصر ، وركب قدامه جماعة من

مشايخ عربان جبل نابلس ، وغير ذلك من الأعيان ، فاستمر فى هذا الموكب الحافل حتى طلع الى القلعة ، وهذه كانت أول سفرات السلطان ، وكانت مدة غيبته فى هده السفرة سبعة عشر يوما ذهابا وايابا .

ووقع له فى هذه السفرة امور غريبة لم يقع للأشرف قايتباى مثلها لما سافر الى الفيوم ، وقد بلغنى ممن أثق به أن السلطان فتك فى هذه السفرة فتكا زائدا وأظهر أنواعا من العظمة ، وصار يمد للأمراء بطول الطريق أسمطة حافلة وطوارى فاخرة فى كل يوم أربع مرار ، ما بين حلوى وفاكهة وأجبان مقلى وجلاب وغير ذلك من الأسمطة الحافلة ، ولا يمنع من يأكل على السماط من الغلمان وغيرهم . وكان يطوف على العسكر بالسكر فى قرب مع السقايين ويسقيهم السكر بالطاسات ، وحكوا عنه أشياء غريبة من هذا النمط ، ورتب العليق لخيول العسكر بطول الطريق ، وكانت هذه السفرة على سبيل التنزه .

وقد أشيع بين الناس أن السلطان توجه الى هناك بسبب مطلب وجد هناك ، والأصح أنه توجه بسبب الكشف على الجسر الذى هناك ، وهو جسر اللاهون ، وجسر آخر هناك ، فانه كان تقطع حتى شرق منه اقليم الفيوم . فلما توجه السلطان الى هناك صار يتصيد فى جهات الفيوم ودخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان وغيرهم .

وقد بلغنى ممن أثق به أن السلطان فرق على الأمراء الذين كانوا معه من التقادم التى دخلت عليه ، فأعطى الأتابكى سودون العجمى ثلاثمائة دينار وفرسين وخمسين رأس غنم وخمس بقرات ، وأعطى الأمير أركماس أمير مجلس مائتى دينار وفرسا وأربعين رأس غنم وأربع بقرات ، وأعطى الأمير طومان باى الدوادار الكبير مثل ذلك ، وأعطى الأمير آنص باى حاجب الحجاب مثل ذلك ، وأعطى لبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم مائه وخمسين دينارا وفرسا وبقرتين وأربعين رميسا ، هذا خارجا عن الأوز والدجاج . وأعطى للأمراء الطبلخانات لكل واحد منهم أربعين دينارا وللأمراء العشراوات لكل واحد مهم عشرين دينارا وفرق عليهم أغناما بحسب مقام كل واحد منهم ، وأنعم على جماعة من الخاصكية من أرباب الوظائف بحسب ما يختاره ، ثم أنعم على من كان معه من المغانى لكل واحد منهم بعشرين دينارا وحنين صوف بسنجاب . وهذا على ما نقل ولم ألتزم صحة ذلك .

ثم ان السلطان ألبس الأمراء المقدمين عند عوده الى القلعة لكل واحد من أرباب الوظائف كاملية مخمل أحمر بسمور ، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور ، وألبس قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة كاملية صوف أبيض بسمور ، وألبس جماعة ممن كان معه من أرباب الوظائف لكل واحد منهم كاملية صوف بسمور ، وقد تقدم القول على ذلك .

فلما طلع السلطان الى القلعة دخل الى الميدان وكان مستهل الشهر ، فطلع القضاة الى الميدان وهنوه بالشهر ، ثم نزلوا صحبة قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة .

وهذا ملخص ما وقع للسلطان فى هذه السفرة الى الفيوم .

وفى يوم الأربعاء ثالثه نزل السلطان الى قبة يشبك التى فى المطرية وكشف على العمارة التى أنشأها هناك .

وفى يوم الخميس رابعه ابتدأ السلطان بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بشنق ابن حمادة شيخ العرب بالقليوبية ، فشنق على قنطرة الحاجب .

وفى يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، وكانت الأضحية فى هذا العيد فى غاية الانشحات من الغنم والبقر وذلك بسبب تسلط المماليك الأجلاب على الفلاحين الذين يحضرون البقر والغنم ، فكان المماليك يخرجون الى المطرية والى الخانكاه ويخطفون الغنم غصبا ، فحصل للناس غاية الضرر بسبب ذلك ، حتى الفحم كان مشحوتا والحطب فى هذا العيد .

وفى يوم الاثنين خامس عشره خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له جان بلاط وقرره فى نيابة كختا ، فخرج فى ذلك اليوم الى محل نيابته بكختا ، وخرج بطلب لطيف .

وفى يوم الأحد حادى عشرينه نزل القاضى بركات ابن موسى المحتسب ونادى على الفلوس الجدد بأن تكون الفلوس الجدد والعتق بالميزان وهى بنصفين الرطل ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه أظلم الجو وثار ريح عاصف واشتد البرد ، وكسفت الشمس فى ذلك اليوم كسوفا فاحشا ، وكان ذلك قبل العصر بأربع عشرة درجة ، وأقامت فى الكسوف نحو ساعة .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه أمطرت السماء بردا غزيرا مثل الحصا التى فى الصحراء .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وكانت سنة مباركة خصبة نتج فيها الزرع وأفلح فيها البطيخ العبدلى والبطيخ الصواصلى وسائر الفواكه ، ووقع فيها الرخاء ، وكان فيها النيل عاليا وثبت فيها ثباتا جيدا ، وكانت سنة هادئة من الفتن والشرور ، ولم يظهر فيها الطاعون بمصر بل ظهر بثغر الاسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يدخل منه الى مصر شىء .

سنة تسع عشرة وتسعمائة (١٥١٣ م)

وكان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، ففيه فى المحرم طلع أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد .

وفى ذلك اليوم أمطرت السماء مطرا غزيزا وفيه حصى وهبت رياح عاصفة .

وفى يوم السبت رابعه نقلت الشمس الى برج الحمل وهو أول فصل الربيع ، فلما نقلت الشمس الى برج الحمل ظهر الطاعون بمصر ومات به جماعة من الأطفال والعبيد والجوارى ، فخرجت طائفة من الواحية وتوجهوا الى بلادهم فرارا من الطعن وقد فشا أمره .

وفى يوم الأحد خامسه نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ، وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، وانشرح فى ذلك اليوم ، وطلع القلعة بعد العصر .

وفى يوم الثلاثاء سابعه كانت كاينة قرقماس المقرى ، وذلك أنه قد اتهم بقتل امرأة ومملوك . وسبب ذلك أنه كان ساكنا عند غيط المرستان فى زقاق الكحل ، فطلعت غلمانه وعبيده الى هذه الامرأة والمملوك وفى أيديهم السيوف وزعموا أنهم منسر ، فضربوا الامرأة والمملوك زوجها ، وقطعوا آذان ابنتها وأخذوا منها الحلق ، فماتت البنت فى ليلتها ، فلما طلع النهار وجد فى الامرأة والمملوك جروح بالغة ، حتى قيل وجد فيه ست عشرة ضربة بالسكاكين ، فحملوهما على أقفاص حمالين وعرضوهما على السلطان ، فقال له المملوك والامرأة : ما لنا غرماء سوى قرقماس المقرى وغلمانه . وكان هذا المملوك ساكنا بالقرب من بيت قرقماس المقرى فى زقاق الكحل ، فلما تحقق السلطان من ذلك شك قرقماس المقرى فى الحديد

وسلمه الى الوالى هو وغلمانه ورسم له بأن يعاقب الغلمان والعبيد حتى يقروا على من فعل ذلك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الأمير يخشباى الذى كان كاشف البهنسا ، وعرض أغاته الأمير قنبك الشيخ أحد الأمراء العشراوات ، وكان له مدة وهو مختف لأمر أوجبه ، فلما عرضوهما على السلطان شك الأمير يخشباى فى الحديد وسلمه للوالى ، وكذلك الأمير قنبك الشيخ ، واستمر عند الوالى حتى يكون من أمرهما ما يكون .

ثم ان السلطان حل بعد ذلك فى أمر قرقماس المقرى ، ولم يأخذ بيد المملوك الذى جرح ولا بيد الامرأة التى ماتت ابنتها لما قطعوا آذانها ، وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على شخص من مماليكه يسمى جان بردى وقرره فى نيابة طرسوس ، وكان من الأمراء العشراوات .

وفى يوم الأحد تاسع عشره كان فيه فطر النصارى ، فنزل السلطان فى ذلك اليوم الى قبة يشبك التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ، وعزم على جماعة من الأمراء ومد هناك أسمطة حافلة وانشرح فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة قبل غروب الشمس ، وكان يوما حافلا .

وفى يوم الاثنين عشرينه كان أول يوم فى الخماسين وهو عيد النصارى ، فكانت النصارى فى هذا العيد فى غاية النكد بسبب ما قرر عليهم السلطان من المال ، وهو نحو من عشرين ألف دينار ، وذلك بسبب أنهم يشترى لهم جوار للخدمة ، فتغير خاطر السلطان عليهم ومنعهم من ذلك ، وقد ترافعوا فى بعضهم فحنق منهم السلطان وصادرهم وضيق عليهم ، فكانوا فى هذا العيد فى غاية الضرر .

وفى يوم الاثنين المذكور وقعت زلزلة خفيفة ، واستمرت تعاود الناس ثلاث مرار والأرض تضطرب اضطرابا ظاهرا ، وكان هذا كله دلائل على تزايد أمر الطاعون ، فلما دخلت الخماسين تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا .

ثم ان بعض الحكماء أشار على السلطان بأن يلبس فى أصابعه خواتم ياقوت أحمر فانه ينفع لمنع الطاعون . فأخرج من الذخيرة فصى ياقوت أحمر مثمنة وصاغهما على ذهب خاتمين ، وصار يلبسهما دائما ويجلس فى المواكب وهو لابس تلك الخواتم فى أصابعه ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولا سيما من سلطان تركى .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرينه ثارت رياح عاصفة ، وقام فى الجو رعد شديد وبرق وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وذلك بعد نقل الشمس الى برج الحمل بأيام عديدة .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه دخل أمير الحاج بالركب الأول وهو يوسف الناصرى ، وصحبته الأمير خاير بك العلاء المعمار باش المجاورين .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه دخل المحمل الى القاهرة صحبة الأمير تمر الزردكاش أحد الأمراء المقدمين ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل من القلعة فى موكب حافل ، ولكن كان الثناء الحسن من الحجاج بالركب الأول للأمير تمر يوسف الناصرى ، ولم يثن الحجاج على الأمير تمر أمير المحمل خيرا ، وشكا من بخله فى الطريق الحجاج قاطبة .

وفى يوم الجمعة فى الرابع والعشرين منه أمطرت السماء حصى قدر البندق وذلك وقت صلاة الجمعة ، حتى أعاق الناس عن دخول الجامع من شدة الأمطار والوحل ، وذلك بعد نقل الشمس الى برج الحمل ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه خرج الأمير طومان باى الدوادار الكبير وتوجه الى نحو جهات الصعيد بسبب مساحة الأراضى وضم المغل ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وطلب طلبا حربيا ، وكان له يوم مشهود .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه نزل السلطان وعدى الى المقياس وأقام به الى أواخر النهار ، وأشيع بين الناس أنه عمر مركبا ببولاق على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية ، فلما فرغ منها العمل أمر بأن تزين بالصناجق ويضعوا فيها الطبول والزمور النفوط ، وتجىء وهى على هذه الهيئة من بولاق الى تحت المقياس حتى يشاهدها السلطان وهو بالمقياس ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية وابتهج ، ثم صلى العصر وعدى وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود .

* * *

وفى صفر تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب ، فهرب قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة أولاده من أمر الطاعون فأخرجهم الى نحو جبل الطور ، وله بذلك عادة بأنه يهرب أولاده الصغار الى جبل الطور فى أيام الفصول ويسلمون من الطاعون ويجيئون بعد مضى الفصل وهم سالمون ، لا يفقد منهم أحد حتى ولا من عياله ، ويقال ان تلك الجهات لا يدخلها الطاعون .

ثم ان القاضى عبد البر حسن للسلطان عبارة بأن يرسل ولده الى هناك فلم يوافق على ذلك .

ثم ان الأمير قانى باى أمير آخور كبير لما رأى قاضى القضاة عبد البر أرسل أولاده الى الطور ، فقامت زوجته بنت الأمير يشبك الدوادار الى أمير آخور وقالت له : أرسل ولدى صحبة أولاد القاضى ، فعمل لها سنيح وخرجت فى محفة وابنها صحبتها ، ثم عمل مثل ذلك الأمير جان بردى الذى كان باش المجاورين فأرسل ولده صحبة ابن أمير آخور . ثم ان الأمير نوروز تاجر المماليك أرسل ولده وسراريه صحبة ابن أمير آخور ، ثم ان أنص باى حاجب الحجاب أرسل جماعة من مماليكه الى هناك ، وكذلك الأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وتبعهم جماعة من أعيان الناس على ذلك وأرسلوا أولادهم الى الطور خوفا عليهم من الطعن ، وهذا شىء لم تفعله الأمراء قط سوى فى هذا الفصل من عظم ما وقع فى قلوب الناس من الرعب من هذا الطاعون ، ومع أنه كان خفيفا جدا بالنسبة الى الطواعين المتقدمة .

وفى هذا الشهر أمر السلطان بهدم القبة التى أنشأها بمدرسته التى فى الشرابشيين وكانت قد تشققت وآلت الى السقوط ، فهدموها عن آخرها ثم أعادوها ثانية .

وفى يوم الأربعاء سابعه كانت وفاة قاضى القضاة الحنبلى ، وهو شهاب الدين أحمد بن على ابن أحمد الشيشينى الحنبلى ، وكان علامة فى مذهبه من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة أربع وأربعين وثمانمائة ، وكان قد شاخ وكبر سنه وناف عن السبعين سنة من العمر ، ومات بالطاعون ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وكانت جنازته حافلة .

وفى يوم الخميس توفى الأمير تغرى برمش السيفى كسباى الششمانى المؤيدى المعروف بالرماح ، وكان تغرى برمش رئيسا حشما تولى الوزارة غير ما مرة وأقام بها مدة طويلة ، وكان قد طعن فى السن وذهل فى عقله ، وقد باشر ديوان الوزارة أحسن مباشرة .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان وتوجه الى

ميدان المهارة الذى بقناطر السباع وكشف على العمارة التى أنشأها بالميدان ، ثم توجه من هناك الى الروضة وأقام بالمقياس ذلك اليوم .

وفى ذلك اليوم كان عقد مجلس بالمدرسة الصالحية ، وحضر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وقاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى ابن الدميرى ، وكان هذا العقد للمجلس بسبب شرف الدين بن روق ، ومن ملخص واقعته أنه كان رجلا أهوج ، وعنده خفة ورهج ، وكان السلطان حاططا عليه بسبب علم الدين الذى كان متحدثا على الخزانة وقد تقدم القول على ذلك ، وكان شرف الدين بن روق صهر علم الدين زوج أخته ، فلما جرى لعلم الدين ما تقدم ذكره فضمنه شرف الدين بن روق فيما تأخر عليه من المال الذى قرره عليه السلطان ، فلما مات علم الدين رسم السلطان على ابن روق وطالبه بما على علم الدين وجرى على ابن روق بسبب ذلك شدائد ومحن يطول شرحها .

ثم ان ابن روق وقع من لسانه بكلمات فاحشة فى حق قضاة العصر وغيرهم من الناس حتى قيل عنه انه قال : « لم أستكمل الآن أحدا من القضاة ولا غيرهم بأن أصلى خلفه » فضبطوا عليه ذلك ، فلما أحضروه فى المدرسة الصالحية فجر على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وعلى قاضى القضاة المالكى يحيى بن الدميرى ، وكان شرف الدين بن روق من أهل العلم والفضل بارعا فى أصول الدين . فلما أفحش فى حق عبد البر بن الشحنة ، عزره قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وسطحه على ظهره فى وسط المدرسة الصالحية ، وضربه على رجليه بعض عصيات بسبب اساءته على قاضى القضاة عبد البر ، فلما جرى ذلك كادت العوام أن ترجم عبد البر بن الشحنة وتعصبوا الى ابن روق ، ثم انفض ذلك المجلس مانعا ، وكان السلطان قائما فى أن يثبت على ابن روق كفرا ويضرب عنقه فلم يتم له ذلك ، وكان قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل قائما فى الباطن مع ابن روق ، فلما بلغ السلطان ذلك مقت القاضى الشافعى بسبب أنه لم يوافق على اتلاف ابن روق .

فلما انفض المجلس من الصالحية تسلم القاضى بركات المحتسب ابن روق ومضى به الى بيته ليعاقبه ، فوضعه فى الحديد وحصل له غاية البهدلة فى ذلك اليوم ، حتى قيل ان ابن موسى ضربه فوق المائة عصا ، واستمر عنده فى الحديد حتى يستخلص منه المال الذى ضمن فيه علم الدين . وقيل ان شرف الدين ابن روق لما عرضوه على السلطان كلمه بكلام فاحش حتى حنق منه السلطان وقصد أن يوقع فيه فعلا ويتلفه ، فلم يتم له ذلك .

وفى يوم الأربعاء رابع عشره توفى القاضى شرف الدين يحيى الأنصارى نقيب القضاة الحنفى ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك فى المماليك وفى العبيد والجوارى والأطفال والغرباء ، وصار يوما يزيد ويوما ينقص ، وتناهت ورقة التعريف فى هذا الشهر بعدة من يموت فى كل يوم ، فبلغت الى ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ممن يرد التعريف ، والعادة فى الفصول الكبار ان الواحد من التعريف بعشرة ممن لا يرد التعريف ، فلما تزايد أمر الموت فتحت مغاسل السبيل على جارى العادة فى الفصول المتقدمة .

ومما أحدثه السلطان من أبواب المظالم فى هذا الفصل أنه رسم للأمير مغلباى الزردكاش بأن

يأخذ من موجود من يموت من المماليك السلطانية ممن له جامكية ، فيرسم على وصى الميت حتى يحضر بسيف مسقط بفضة وزرديه وخوذة وتركاش ، فصار الزردكاش يرسم على زوجة المملوك الذى يموت حتى يأخذ منها ما ذكرناه ، ثم رسم للأمير آخور كبير بأن يأخذ ممن يموت من المماليك ممن له جامكية وعليق فيأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما ، والخاصكى ثلاثة رءوس خيل وبغلة ، وأصحاب الوظائف ممن يموت منهم فيأخذ من وصيه خمسة رءوس خيل وبغلة ، فيرسم على الوصى وزوجة الميت حتى يأخذ منهما ما ذكرناه .

وما هو أعظم من هذا كله أنه رسم الى الماس دوادار سكين بأن يأخذ ممن يموت من مماليكه الأجلاب خمسين دينارا ، وهى النفقة التى كان قد أنفقها عليهم ، ويأخذ من الجمدار عشرين دينارا ، فأطلق فى أوصياء المماليك النار وصاروا يمتنعون من الوصية ، فما طاق العسكر ذلك وكادت أن تنشأ من ذلك فتنة كبيرة ، فأقام الحال على ذلك أياما ثم رجع عن بعض شىء من ذلك ، وهذا الأمر لم يقع قط من ملك قبله ولا أحدث هذه المظلمة ، فلما تزايد أمر الموت رسم السلطان بشيل الدكك التى على أبواب الحكام ، ومنع النقباء قاطبة من على أبواب الأمراء أرباب الوظائف ، ووقع له أيضا مثل ذلك فى سنة عشر وتسعمائة لما وقع فيها الطاعون فرسم بشيل الدكك ومنع النقباء قاطبة ، وهذا ثالث فصل وقع فى أيامه فان الطعن وقع فى أيامه سنة تسع وتسعمائة ، وكان خفيفا جدا وتناهت فيه ورقة التعريف الى مائة انسان ممن يريد التعريف ، ثم اختفى الطعن وغاب ثمانية أشهر وظهر فى سنة عشر وتسعمائة وتناهت فيه ورقة التعريف الى أربعمائة وخمسة عشر انسانا ممن يريد التعريف ، ثم وقع الطاعون فى أيامه فى هذه السنة وهى سنة تسع عشرة وتسعمائة ، ومن العجائب أن هذه الطواعين التى ذكرناها يستمر الطعن فيها عمالا حتى تنزل النقطة ويزيد النيل ، وقد تناهت فيه ورقة التعريف الى ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ممن يريد التعريف .

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره نزل السلطان وتوجه الى العمارة التى أنشأها فى المطرية وكشف عليها ، ثم عاد ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ، ثم طلع الى مدرسته وكشف عن القبة التى بها ، وقد تقدم القول على أنها قد تشققت وآلت الى السقوط فأمر بهدمها عن آخرها ، وقد رممها ثلاث مرار ولم يفد من ذلك شيئا ، فلما شق السلطان من القاهرة أسمعته العوام الكلام بسبب تشحيط الخبز وغلو الدقيق ، وكان القمح الجديد قد وصل وأشيع بين الناس أن السلطان بيشترى القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل اردب قمح الى سبعة أشرفية ، وكذلك حلب أيضا ، فكان يشترى القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد ، فلما شق السلطان من القاهرة تسببت عليه العوام بالكلام المنكى وقالوا له جهارا : « الله يهلك من يقصد الغلاء الى المسلمين » فسمع ذلك بأذنه فتنكد فى ذلك اليوم وطلع الى القلعة من بين الدروب ولم يشق من باب زويلة .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الرئيس الأصيل العريق ، وهو سليمان بك بن أحمد بك بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، فلما بلغ السلطان وفاته تأسف عليه فانه كان حسن

الشكل جميل الهيئة ، وكان حضر الى مصر فرارا من عمه سليم شاه لما تولى على مملكة الروم ، وقد تقدم القول على ذلك ، فتوفى ببولاق فى المكان الذى أنزلوه به فأخرجت جنازته من هناك ، ومات بالطاعون ، فصنع له السلطان كفارة قدام جنازته ، وأخرجوا قدام جنازته خيوله وهى مقصوصة الأذناب وقد قلبوا سروجها ، ووضعوا عمامته على نعشه ، وكسروا أقواسه ووضعوها على نعشه ، وهذه على طريقة بلادهم ، فنزل السلطان وصلى عليه ، وعاتب الأمراء الذين لم يمشوا قدام جنازته من بولاق ، ثم توجهوا به الى الصحراء فدفنوه فى تربة البجاسى .

وفى أثناء هذا الشهر عرض السلطان محابيس الحجرة من النساء وأطلق من كان بها من النساء ، وهن زوجة رمضان المهتار وسريته وقد سجنتا بسبب خوند أم الملك الناصر ، وأطلق تحفه التى كانت دوادارة خوند أم الناصر ، وأطلق ام معين الدين بن شمس الذى كان وكيل السلطان وجرى عليه ما جرى ، وأطلق فاطمة بنت عاقولة وكانت سجنت بسبب بنت خوند بنت المؤيد شيخ ، وأمرها مشهور ، وأطلق زوجة القاضى هانى وكانت مسجونة على دين ، ولم يعرض من فى الحبوس من الرجال واستمر الحال على ذلك .

وفى ذلك اليوم توفى الأمير سودون بن حيدر ، ويعرف أيضا بسودون الفقيه ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفى ذلك اليوم توفى القاضى كمال الدين محمد الأبوتيجى ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان فى سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين سادس عشرينه نادى السلطان بمنع بيع النبيذ والحشيش والبوزة ، ومنع النساء الخواطى من عمل الفاحشة ، واستمر يشهر المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية ، وكان قد تزايد أمر الطاعون وصار الناس كل من يموت له بنت عروسة يجعل على نعشها شربوش الحلى مع الطرحات ، ويضعون عصافير الحلى فى أرجل النعوش ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه فيه أحضرت جثة كاشف الغربية وهو الأمير جان بلاط ، وأصله من مماليك الأشرف الغورى ، وكان من الأمراء العشراوات ، فلما أحضرت جثته دفن بالقرافة .

وفى ذلك اليوم توفى منلباى دوادار سكين ، وكان من أعيان الخاصكية .

ومن الغرائب ما وقع فى أواخر هذا الشهر ، وذلك أن فى يوم الخميس المذكور بعد انفضاض الموكب ، نزل الزينى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة من القلعة ، وقدامه مشاعليين ينادون فى مصر والقاهرة حسبما رسم به المقام الشريف بابطال المشاهره والمجامعة . وابطال المكوس قاطبه التى كانت مقررة على السوقة وعلى أصحاب البضائع من المتسببين قاطبة حتى على الطواحين التى فى القاهرة قاطبة ، ورسم بابطال ما كان يؤخذ على مشترى كل اردب من الغلال موجب ، فكان يؤخذ على كل اردب قمح نصف فضة ثم صارت نصفين موجب ، وكيالة فتصل الى ثلاثة أنصاف على كل أردب ، واستمر ذلك على سائر مشترى الغلال ، فلما رسم السلطان بابطال ذلك ارتفعت له الأصوات بالدعاء ثم انطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكانت الأسعار قد غلت فى سائر البضائع بموجب ذلك وصارت تباع المثل مثلين ولا يقدر أحد يزجر البياعين على ذلك فانه أمر سلطانى ، وكان متحصل هذه الجهات فى كل سنة فوق الأربعين ألف دينار ، بل أكثر من ذلك مما كان من مشاهرة وغير ذلك

من مكوس ، وكان السلطان يحيل بهـذا القدر جماعة من الأمراء عوضا عن الاقطاعات ، وهـذا كان أشد الظلم على الناس قاطبة أمر هذه المشاهرة والمجامعة ، وكان ابطال ذلك فى أيام السلطان من العجائب التى لم يسمع بمثلها ، وسـبب ذلك أن الطعن كان كل يوم فى تزايد وكان السلطان موهوما على نفسه ، وقد أشيع بين الناس أنه رأى مناما بأن النجوم قد تساقطت من السماء الى الأرض ، ثم بعد ذلك سقط القمر ، فأول ذلك بأن النجوم هى العسـكر والقمر هو الملك ، فعنـد ذلك أخذ فى أسباب اظهار العدل وابطال شيء من المظالم ، ولله الحمد على ذلك .

وفى يوم الجمعة سلخ هذا الشهر قلع السلطان الصوف ولبسُ البيـاض ، وذلك فى حادى عشر بشنس القبطى ، وكان الوقت رطبا .

***

وفى ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة للتهنئة بالشهر ، ففى ذلك اليوم خلع السلطان على العزى عز الدين ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمـد الشيشينى الحنبلى وقرره فى قضاء الحنابلة عوضا عن أبيـه بحكم وفاته ، وكان شابا حسن السيرة لا بأس به ، وقد سعى فى هـذه الوظيفة جماعة من الحنابلة منهم شهاب الدين الفتوحى وغيره فلم يوافق السلطان على ذلك ، وأرسل يقـول لعز الدين : أورد ألف دينار والبس وظيفة أبيك ، ففعل ذلك .

وفى يوم الاثنـين ثالثه نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وأشهر المناداة عن لسان السلطان بتسـعير البضائع حتى الدقيـق ، فعز ذلك على السوقة وغلقـوا الدكاكين أياما واضطربت بسبب ذلك القاهرة ، ثم امتثلوا ذلك وسكن الاضطراب .

وفى يوم الثلاثاء رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من العسكر وعين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى الغربية ، فان العربان من حين مات جان بلاط الكاشف اضطربت أحوال الغربيـة ، وكان السلطان لما توفى جان بلاط الكاشف خلع على أخيه وولاه على كشف الغربية عوضا عن أخيـه ، فلما توجه الى هنـاك فزعت عليه العربان وطردوه وقتل خاصكى كان صحبته وجماعة من البلاصية ، فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة وخرجت على الفور .

وفى يوم الأربعاء خامسه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له جانم البواب ، وكان أصله من مماليـك الأشرف قانصوه الغـورى ، وكان لابأس به .

وفى يوم السبت ثامنـه توفى الرئيس الأصيل العـريق عـلاء الدين بك أخو سـليمان بـك ابن أحمـد بك ابن السـلطان أبى يزيد بن عثمان ملك الروم ، وقد تقدم ذكر وفاة أخيـه سليمان فتبعه أخوه عـلاء الدين على بك ، وكان ترابهما بمصر ، وماتا بالطاعون ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلى عليـه ، ومشت الأمراء قدام نعشه ، وأخرجوا قدامه كفارة كما فعلوا بأخيه سليمان ، ودفن على أخيه بالصحراء .

وفى يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى مدرسته التى أنشأها بالشرابشيين فقام بها الى آخر النهار ، ونصب له سحابة على سطح المدرسة حتى يكشف على عمارة القبة التى هدمت وأعيدت ثانيا .

وفى يوم الاثنين عاشره جاءت الأخبـار بوفاة مصرباى أخى جان بلاط الذى قرر فى كشف الغربية عوضا عن أخيـه جان بلاط ، فلم يقم فى كشف الغربية بعد أخيه الا أياما ومات ، فلما مات خلع

السلطان فى ذلك اليوم على شخص يقال له ألماس الساقى ، فقرره فى كشف الغربية عوضا عن مصرباى الذى توفى كما تقدم .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى على العادة ، ولكن كان الطعن عمالا والناس فى غاية النكد ، ومات بالطاعون من العسكر ما لا يحصى .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد ابن عثمان بأن سليم شاه الذى تولى على مملكة الروم بعد أبيه أبى يزيد بن عثمان ، وقد وقع بينه وبين أخيه قرقد شقيقه وهو الذى حضر الى مصر كما تقدم ، فلما وقع بينهما احتال عليه حتى حضر الى عنده فقتله وقيل خنقه بوتر ، وأشيع أيضا أنه قتل اخاه أحمد بك الذى حضر أولاده الى مصر وماتوا بالطاعون كما تقدم ، وأشيع أنه قتل جماعة من وزرائه ، وقد صار ملك الروم فى اضطراب وربما يخشى عليه من الفرنج ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وقد فنى أكثر أولاد ابن عثمان ، وكان ابن عثمان ماسك زمام البلاد لطرد الفرنج عنها .

وفى يوم السبت خامس عشره توفيت ابنة السلطان الأشرف جان بلاط ، فصلى عليها السلطان ودفنت فى مدرسة أبيها بباب النصر ، وكان لها من العمر نحو من اثنتى عشرة سنة ، وكانت جنازتها حافلة .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان الى مدرسته وكشف على عمارة القبة ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة ، ونصب له السلطان سحابة على سطح المدرسة ، ونظر الى عمارة القبة واستحث البنائين على سرعة البناء .

وفى هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك فى المماليك حتى صار يموت منهم فى كل يوم نحو من خمسين مملوكا ، وكان قوة عمله بعد الخماسين وظهور الثريا ، ونزلت النقطة والطعن عمال .

وفى يوم الاثنين سابع عشره احتجب السلطان فى الدهيشة ولم يخرج الى الناس ، وتزايد به ذلك العارض الذى فى عينه ، وأشيع بين الناس أن جفونه ارتخت على عينه ، ولم يحضر تفرقة الجامكية وكثر القال والقيل بين الناس ، فلما كان يوم الجمعة لم يخرج السلطان الى صلاة الجمعة ، فلما انقضت صلاة الجمعة دخل قاضى القضاة الشافعى والأمراء المقدمون وسلموا على السلطان وهو فى الدهيشة فأسقاهم سكرا ، ثم سلموا عليه وانصرفوا .

وفى يوم السبت ثانى عشرينه حضر هجان من مكة فى مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وأنهم يحاصروا مدينة سواكن ، وأن الشريف بركات أمير مكة خرج الى جدة هو وباش المجاورين وجماعة من المماليك المجاورين الذين هناك بمكة ، وأقاموا بجدة خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه ، فأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلما جاء هذا الخبر تنكد له السلطان الى الغاية ولا سيما كان منقطعا فى الدهيشة بسبب عينه ، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد .

فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة ، فلما خرج قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ورقى الى المنبر خطب خطبة بليغة فى معنى هذه النازلة التى وقعت بسبب الفرنج وأخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن ، فلما قامت الصلاة قال المؤذنون : « القنوت عقيب

الصلاة » . فلما صلى قاضى القضاة صلاة الجمعة قنت فى الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة ، فقنت السلطان والأمراء ومن فى الجامع قاطبة ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأمر بعرض العسكر الذين استجدهم فى الطبقة الخامسه ، فعرضهم وهم لابسون الزرديات والخوذ وفى أوساطهم السيوف ، وكان منهم رماة بالبندق الرصاص . فلما عرضهم كتب منهم جماعة نحوا من ثلاثمائة انسان ، وعين باشهم الأمير أركماس أمير مجلس ومعه الأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين ، وعين معهم جماعة من المماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن يتوجهوا الى السويس ويقيموا به بسبب عمارة المراكب التى عمرها السلطان هناك .

وفيه عين السلطان الأمير حسين بأن يتوجه الى جدة ويستقر فى نيابتها على عادته ، وعين الأمير خشقدم شاد الشون بأن يتوجه الى جدة ويقيم بها لأجل الكشف على أخبار الفرنج وغير ذلك .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من الزردكاشية ورماة البندق الرصاص والنفطية ، وعين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى جدة صحبة الأمير خشقدم ويقيموا بها الى أن يعين لهم السلطان تجريدة .

وفيه صلى السلطان صلاة الجمعة ودخل الى الدهيشة واجتمع هو والأمراء وضربوا معه مشورة فى أمر الفرنج الذين تسلطوا على جهات اليمن ، فأشيع بين الناس أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربع تجاريد الى جهات معلومة ، فأقام الأمراء عند السلطان فى ضرب هذه المشورة الى قريب العصر وتخففوا من ثيابهم ، وكان مجلسا حافلا ، ووقع فيه بعض جدال بين السلطان وبين الأمراء بسبب من يسافر منهم .

وفيه تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، حتى بلغت ورقة التعريف فى يوم واحد ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ، خارجا عمن يخرج من المغاسل والأسبلة ، فيقال ان ورقة التعريف فى أيام الفصول الواحد فيها بعشرة ، فعلى هذا يقاس أن كان يموت فى كل يوم ثلاثة آلاف وكسور ، وصار يزيد يوما وينقص يوما ، وكان أكثر فتكه فى الجوارى والعبيد والمماليك والأطفال .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له ورديش بن قانصوه ، وتوفى سيدى يحيى بن تانى بك قرا الأينالى أمير مجلس كان ، وكان شابا لا بأس به ، فكان بينه وبين وفاة أخيه سيدى محمد ثمانى سنين .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمراز بن أقباى .

وفيه توفى شخص من أولاد ابن قرمان أمير التركمان يقال له مصطفى بن حمزة ، وكان مقيما بمصر فمات بالطاعون .

وفيه سرقت عملة ثقيلة من بيت الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وكانت عملة بنحو خمسة آلاف دينار ، فاتهموا بها جماعة من الجيران منهم ابن اينال باى دوادار سكين وجماعة من الغلمان ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم للوالى بأن ينزل الى بيت ابن الجيعان ويحرر أمر هذه العملة ويفحص عمن فعل ذلك ، فلما حضر الوالى الى هناك وحزق على جماعة ممن اتهم بذلك فظهر من تلك العملة أشياء كثيرة ، منها بشبخاناه عنبر ومخدات

عنبر وصحون صيني ونحاس أصفر مكفت وفواتي مقفولة لم يعلم ما فيها ، وغير ذلك من مقاعد وألحفة ، واستمر الوالي يحضر في كل يوم الى هناك ويقرر من فعل ذلك والعملة يظهر منها شيء بعد شيء ، حتى ظهر غالبها في عدة أيام متفرقة .

وفي أواخر هذا الشهر رسم السلطان بابطال مولد سيدى احمد البدوى رضى الله عنه ، وسبب ذلك أن العربان كانت ثائرة في البلاد ، والطعن كان عمالا في القاهرة ، والأحوال مضطربة من كل وجه ولا سيما بتوعك السلطان بعينه ، والاشاعات قائمة باثارة فتنة كبيرة .

* * *

وفي ربيع الآخر ، ففي يوم الاثنين ثانيه ، خلع السلطان على الأمير قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين وقرره في امرة ركب المحمل ، وخلع على الأمير طومان باى حاجب ثاني وقرره في امرة الحاج بالركب الأول ، وكان من الأمراء الطبلخانات .

وفي تلك الليلة نزلت النقطة وكان عيد ميكائيل .

وفي ذلك اليوم كان وفاة على الجركسى ، وكان من أخصاء خاير بك نائب حلب ، فحضر الى مصر في بعض أشغال نائب حلب فمات بالطاعون بمصر ، وكان رقى في أيام خاير بك نائب حلب حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ، وهى في منزلة امرة طبلخاناه بمصر .

وكان أصل على الجركسى هذا ابن فران ، وكان في صغره مليح الشكل فحظى عند الأمير خاير بك حتى بقى عنده بجمقدارا ، فلما قرر خاير بك في نيابة حلب سعى له عند السلطان في الحجوبية الثانية بحلب وصار من جملة الأعيان بمصر وحلب ، وكان حضر الى مصر وتوجه الى الحجاز فحج ورجع من الحجاز وأقام بمصر مدة يسيرة ومات مطعونا ، وكانت له جنازة حافلة .

وفيه أبطل السلطان ضرب الكرة بسبب ذلك العارض الذى حصل له في عينه ، ولأجل أن الطعن كان عمالا ، وكان غالب الأمراء في نكد بسبب فقد أولادهم .

وفيه تزايد بالسلطان رخو في جفونه ، فجمع الأطباء والكحالين وعقدوا له مجلسا بسبب ذلك الرخو الذى في جفونه ، فاجتمع رأى الحكماء والكحالين على أنهم يقصوا من جفنه ما طال ، فلم يوافق السلطان على ما قالوه من قص جفنه ، فطلعت اليه امرأة تركية وقالت له : « أنا أداويك من غير أن أقص جفنك بشيء من الفولاذ » . فأقامت عند السلطان مدة وهى تعالج في عينه .

وفي يوم الاثنين تاسعه جلس السلطان في شباك الأشرفية التى بجوار الدهيشة ، وعرض جماعة من المماليك السيفية وغير ذلك من أولاد الناس ، وكتب منهم نحوا من ثلاثمائة مملوك بأن يتوجهوا الى السويس صحبة الأمير أركماس أمير مجلس والأمير قانصوه أبو سنة ، بسبب الكشف على المراكب التى عمرها السلطان هناك واستعجال سرعة العمل في ذلك ، ثم ان السلطان عين الأمير مغلباى الزردكاش الكبير وعين معه ثلاثين انسانا من الزردكاشية بأن يتوجهوا الى نحو السويس صحبة المكاحل التى يرسلها السلطان الى هناك ، وعين معهم جماعة من النجارين والحدادين ، وعين معهم جماعة من الرماة بالبندق الرصاص وجماعة من النفطية ، ورسم لهم بأن يخرجوا الى هناك بسرعة من غير نفقة فتضرروا من ذلك ، ثم بلغ السلطان أن المماليك المتعينين الى السفر قد صمموا على عدم السفر ،

وكان منهم ناصرية وظاهرية وأشرفية وعادلية وغير ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به ورسم بعرض المماليك المعينة الى السفر ، فلم يطلع منهم فى ذلك اليوم أحد ، فبلغ السلطان أنهم قالوا : « نحن نسافر بلا نفقة نموت فى البرارى بالجوع والعطش » . فتنكد السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية ، وقام من المجلس سريعا ، وكان فى غاية التشويش بسبب عينه ، وأشيع فى ذلك اليوم الركوب على السلطان .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره نزل السلطان وتوجه الى المطرية وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، ثم أقام فى قبة يشبك التى هناك الى بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الخميس ثانى عشره جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن اسمعيل شاه بن حيدر الصفوى ملك العراقين قد خرج عليه بعض أعدائه من ملوك التتر ، فتحارب معهم فانكسر الصفوى وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفا ، وأن الصفوى جرح وفقد ولم يعلم له خبر ، فكاتب السلطان بهذا الخبر سبعة من النواب ، فلما سمع السلطان هذا الخبر سر به .

وفيه توفى الريس عبد القادر القطبى ، وكان من أعيان الأطباء .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره نزل السلطان وتوجه الى المقياس وصلى هناك صلاة الجمعة ، وتوجه الى هناك قاضى القضاة الشافعى وخطب به فى جامع المقياس وصلى صلاة الجمعة هناك ، وأقام بالمقياس الى بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة ، فتزايد به رخو الجفون فى عينيه وأشيع بين الناس أنه قد عمى وغارت عينه ، فاحتجب أياما عن الناس فى القبة الأشرفية ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، فتعطلت الناس فى هذه المده من المراسيم لأجل قلة العلامة وعدم المحاكمات ، حتى اشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يخلع نفسه من الملك ويولى ولده عوضا عنه لأجل العلامة على المراسيم والمحاكمات ، فلم تتم تلك الاشاعة التى أشيعت بين الناس بذلك . ومما بلغنى من بعض أخصاء السلطان أنه لما تزايد به هذا العارض فى عينيه واضطربت به الأحوال ، كان يقف فى شباك قبة الأشرفية بطول الليل ويتضرع الى الله تعالى ويقول : « يا من لا يوصف بالظلم والجور ، ارحم عبدك قانصوه الغورى » . ثم يقول : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . وكان يكثر من قول : يا بصير يا بصير ، وقد خشى مما شاعت به أعداؤه ، ونسى ما قدمت يداه ، وقد قلت فى معنى ما وقع له :

سلطاننا الغورى غارت عينه
لما اشترى ظلم العباد بدينه
لا زال ينظر أخذ أرزاق الورى
حتى أصيب بآفة فى عينه

وفيه شاوروا السلطان على اعادة الدكك التى على أبواب الحكام فلم يوافق على اعادتها ، وقال : « أنا تركت ما كان على الحسبة من المجامعة والمشاهرة وكانت بنحو ثلاثين ألف دينار فى كل سنة ، فكيف ما تبطل الأمراء ما كان يحصل لهم من أمر الدكك ؟ » .

وكان الطعن قد أخذ فى التناقص قليلا .

وفى يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر .

وفى ذلك اليوم طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاء القاع ست أذرع وست عشرة أصبعا ، فلما أنفق السلطان الجامكية لم يحضر تفرقة الجامكية

الى آخرها ، وكان ذلك اليوم فى غاية التشويش من عينه .

وفيه توفى شخص كان من العوانية الخوارج ، يقال له محمد بن طاهر ، يرافع الناس عند السلطان ، فلما وقع الطاعون بمصر طعن ابن طاهر هذا ومات بالطعن ، فأراح الله تعالى المسلمين منه ، فعد موته من حسن الزمان .

ومما وقع له فى المرافعة أنه رافع امرأة جارية بيضاء يقال لها زوجة اينال باى ، وكانت ساكنة فى درب الحجر بالقرب من قنطرة سنقر ، فرافعها بأن عندها مالا وديعة لبعض الأمراء فطمعت عليه ، فلما سمع السلطان ذلك أرسل قبض على تلك الامرأة ورسم عليها عشرة آلاف دينار ، فباعت جميع ما تملكه وأوردت من ذلك شيئا ، فلما رأت أنها لم تقدر على ما قرر عليها من المال وصارت فى الترسيم شنقت نفسها بيدها تحت الليل ، ووقعتها مشهورة بين الناس ، ولو عاش ابن طاهر هذا لظهر منه للناس غاية الضرر ، فعجل الله تعالى بروحه الى النار ، كما يقال :

زبانية النيران تكره وجهه
ومنه استعاذت مذ رأته جهنم

ويقال ان ابن طاهر هذا كان من أقارب ابن علم الدين رأس باش الأوجاقية .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه قويت الاشاعة بالركوب على السلطان ، ولم يفتح فى ذلك اليوم باب السلسلة ولا باب المدرج ولا باب الميدان ، ووزعت الأمراء قماشهم وغالب الناس ، واضطربت الأحوال على السلطان وضاق به الأمر حتى صار يدعو على نفسه بالموت . ثم ان السلطان أرسل خلف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء . فلما طلعوا الى القعلة جلس السلطان معهم فى الدهيشة وعينه مرفودة بخرقة بيضاء ، ثم التفت الى الأمراء وقال لهم : « بلغنى أنكم بنوزعوا قماشكم » . فقالوا له : « نعم قد بلغنا أن المماليك الجلبان يقصدون قتلنا ونهب بيوتنا فلما سمعنا ذلك وزعنا قماشنا » . فلما سمع السلطان ذلك أحضر مصحفا وحلف عليه بأنه لا يخونهم ولا يغدرهم ولا يمسك منهم أحدا ، ثم انه حلف الأمراء أيضا بأنهم لا يخامرون ولا يركبون عليه ، فحلفوا بذلك على المصحف ، ثم قامت الأمراء من عنده وانفض المجلس .

فلما نزلت الأمراء رسم السلطان للوالى بأن ينادى فى القاهرة للناس بالأمان والاطمان والبيع والشراء ، وأن أحدا من الناس لا ينقل له قماشا من مكان الى مكان ، ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة ونهب ما معه من القماش ، وأن لا مملوك ولا غلام ولا عبد يمشى من بعد المغرب بسلاح ، ولا مملوك يعبث على سوقى فى دكانه ولا متسبب .

ثم بعد ذلك قبض الوالى على غلام الأمير ماماى جوشن أحد الأمراء المقدمين ، فلما قبض عليه بالليل وجد معه بغال محملة قماشا فاخرا ، فأخذ منه القماش وأمر بشنقه حتى شفع بعض من كان مع الوالى من الأمراء حتى أطلقه ، وقيل عرض على السلطان فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض الأمراء ، وكان الوالى فى مدة توعك السلطان يطوف فى القاهرة من بعد العشاء ومعه جماعة من الخاصكية نحو من مائة انسان ، وكان غالبهم لابس زرديات وفى أيديهم رماح ، فيطوف فى كل ليلة المدينة والحارات والأزقة ويقبض على من يجده يمشى من بعد العشاء .

ومن الحوادث أن جماعة من الصناع دخلوا الى الزردخاناه ليصحنوا البارود ، فصعد منه الدخان فاحترق سقف الزردخاناه وعملت فيه النار ،

فاضطربت القلعة لذلك ، وكان السلطان فى شباك الأشرفية فقام واختفى من عظم الدخان ، فاحترق من الصناع ثلاثة أنفار حتى ذاب لحمهم عن عظمهم من النار فنزلوا بهم الى بيوتهم فقاموا ثلاثة أيام وماتوا الثلاثة قاطبة ، فتفاءل الناس بأن حرق الزردخاناه فأل على السلطان .

ولما تزايد بالسلطان ذلك العارض فى عينه طلع الخليفة وسلم عليه ، فأشيع بين الناس بأن السلطان أرسل خلف الخليفة ليخلع نفسه من الملك ويولى ولده ولم يكن لهذا الكلام صحة ، فاضطربت الأحوال لذلك ، فسلم الخليفة على السلطان ونزل الى بيته ، فلما نزل خمدت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه جلس السلطان فى القبة الأشرفية وحضر عنده الأتابكى سودون العجمى وعلم على المراسيم وحكم وهو جالس فى الشباك ، وأظهر أنه قد شفى من ذلك العارض والا لما حاذر على عينه الأخرى التى كان ينظر بها ، وفى هذه الواقعة يقول محمد بن قانصوه بن صادق :

شفاك الله يا ملك البرايا
من الداء الموكل بالعيون
وأذهب عنهما باللطف منه
سقاما محدثا رخو الجفون
لتبقى فى هناء بها قريرا
قريبا والتحرك فى سكون
بمن لقتادة قد رد عينا
وقال كأختكى فى الحسن كونى
ومن رمد بتفلته عليا
شفى فى الحال من ألم مبين

ثم ان جماعة من الكحالين قالوا للسلطان : ما تصح عينك حتى تقطع ما طال من جفنك ، فامتنع السلطان من ذلك فأحضروا قدامه أربع أنفس بهم رخو فى جفونهم ، وكان فيهم شخص يسمى سيدى محمد بن منكلى بغا فقصوا جفنه بحضرة السلطان على أنه يشجعه على ذلك ، فلم يوافق السلطان على القص ، فأقام الناصرى محمد ابن منكلى بغا أياما وشفى مما كان به فى عينه وطلع الى السلطان فرأى عينه وقد طابت .

وفى يوم الأربعاء خامس عشرينه تزايد الأمر فى الاشاعة بالركوب على السلطان ، فلما بلغ السلطان ذلك نزل الميدان وجلس به وأرسل خلف الأمراء قاطبة ، فلما طلعوا اليه وبخهم بالكلام وقال لهم : « ما هذه الاشاعة التى تبلغنى عنكم فى أمر الركوب على ؟ ان كان عندكم من تسلطنوه فأنا أخلى لكم القلعة وأنزل أقعد فى جامعى الى أن أموت » ، فقام له الأمراء قاطبة وباسوا له الأرض واستغفروا له ، ثم التفت الى الأمير أركماس أمير مجلس ووبخه بالكلام ثم قال له : « الزم بيتك » . والتفت الى قانى باى قرا أمير آخور كبير ووبخه بالكلام وأغلظ عليه فى القول لأمر بلغه عنه فى أمر الركوب ، ثم التفت الى الأمير أنص باى والأمير تمر والأمير سودون الدوادارى والأمير علان ووبخهم بالكلام لأمر بلغه عنهم ، ثم ان المماليك الجلبان صارت متقحمة على مسك الأمراء فى ذلك اليوم ، فما نزلوا من القلعة وفى عينهم قطرة وقد ملئوا منهم رعبا ، فلما نزلوا من القلعة أشيع الركوب على السلطان ووزع الأمراء قماشهم فى الحواصل .

واشتد وجع عين السلطان وارتخى جفنه على عينيه واحتجب عن الناس فى الأشرفية أياما ، وكثر القيل والقال بين الناس ، وأشيع أن السلطان قد عمى فصار يجلس فى شباك الأشرفية قدر درجة حتى ينظره الناس ، فكانت الكحالين يصنعون له

رفادة على عينيه وفى الرفادة لزق بعلوكات حتى يرتفع جفنه قليلا عن عينه وينظر الناس ما دام جفنه مرتفعا فاذا قلعت تلك اللزق ارتخى جفنه كما كان أولا .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له جان بلاط بن تعرى بردى ، وكان أصله من مماليك الملك الأشرف قايتباى .

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه لم يخرج السلطان ولا صلى الجمعة ، وكثر الاضطراب بسبب ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشرينه فرق السلطان على مماليكه سيوفا وزرديات ، وصاروا يباتون فى القلعة كل ليلة ومعهم آلة السلاح ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة وأن السلطان يقصد القبض على بعض الأمراء ، فأخذت الأمراء حذرهم من السلطان وصاروا لا يطلعون القلعة الا قليلا . وفى هذه المدة أشيع بأن السلطان أرسل الى ثغر الإسكندرية مراسم بأن نائب الاسكندرية يضيق على الظاهر قانصوه وهو فى السجن ويمنع عنه من كان يدخل اليه من الناس حتى من غلمانه الذين كانوا يدخلون عليه ، وصار الظاهر فى غاية الضنك ، وقيل ان الأمراء يقصدون عوده الى السلطنة ، فأشيع ذلك حتى أرسل السلطان ضيق عليه .

وفى يوم الأحد تاسع عشرينه أراد السلطان بأن يظهر العدل بين الناس فجلس فى شباك الأشرفية وأمر بعرض المحابيس الذين فى الحبوس ، فلما عرضوا عليه من فى الحبوس الأربعة أمر بعرض من فى البرج الذى بالقلعة ومن كان بالعرقانة التى بالحوش السلطانى . فلما عرضوا عليه أمر باطلاق جماعة منهم ممن كان بالعرقانة ، وهم : الأمير تغرى بردى الترجمان ، والجمالى يوسف بن أبى أصبع الحلبى وكان من جملة أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه وجرى عليه شدائد ومحن .

وأطلق صهره عبد الرحمن ، وكان له مدة طويلة وهو فى العرقانة ورسم السلطان بأنه لا يحلق له رأس ولا يقص له أظفار ، فلما خرج من العرقانة طال شعره حتى صار مثل شعر النساء فعجب منه الناس لما خرج ورأوا شعره .

وأطلق ابن الخولى المتحدث وكان مسجونا بسبب المماليك الذين قتلوا فى باب اللوق . وكان من أمراء الشام . ومن فى المقشرة وبقية الحبوس جماعة كثيرة منهم الرئيس كمال الدين ابن شمس المزين ، وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه فسجنه فى المقشرة .

وأطلق الشيخ شمس الدين بن روق بعد ما جرى عليه شدائد ومحن ووافعته مشهورة .

وأطلق الخواجا شمس الدين الحليبى التاجر ، وأطلق شخص يسمى تمر باى أبو قورة الذى كان أمير الحاج بالركب الشامى وكسره الجازانى ، فغضب عليه السلطان لكونه فرط فى أمر الحاج حتى نهب الركب الشامى فأقام فى البرج مدة طويلة نحوا من عشر سنين .

وأطلق الأمير قنبك الشيخ أحد الأمراء العشراوات وكان فى البرج لأمر أوجب ذلك .

وأطلق يخشباى الكاشف خازندار الأتابكى قرقماس ، وكان تغير خاطر السلطان عليه فسجنه ، وأطلق تانى بك ، وشيخ العرب عبد الدائم ابن الأمير أحمد بن بقر ، وكان له مدة وهو فى البرج مقيدا بموجب عصيانه على السلطان فضمنه لأبيه وأطلقه وخلع عليه .

وأطلق ابن فتوح بردار الأمير حسين نائب جدة وكان تغير خاطر السلطان عليه كونه أحدث أشياء كثيرة من المظالم بجدة .

وأطلق يحيى بن أحمد بن قراكز أحد الزردكاشية وكان السلطان سجنه بالمقشرة لما هرب أبوه وواقعته مشهورة .

وأطلق شخصا يسمى محمد سكيكر وكان أشيع عنه أنه قد قتل أباه فلما عرضوه على السلطان أطلقه وقال : « اذا كان يوم القيامة ، هو وأبوه يتحاكمان بين يدى الله تعالى » .

وأطلق بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط وكان مسجونا على مال فلما أطلقه من المقشرة سلمه للزينى بركات بن موسى حتى يغلق ما عليه من المال .

وأطلق أخاه نجم الدين قاضى أسيوط أيضا وولده محمد ، وأطلق شخصا شريفا كان من منفلوط وقد اتهم بقتل شخص ، وأطلق شهاب الدين المرقبى الذى كان متحدثا فى أوقاف الزمامية وسجنه السلطان على مال ، وأطلق محمد بن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف وكان ناظر الخاص وسجنه لكونه قد سعى عليه فى نظر الأوقاف .

وأطلق ابن الطحاوية أحد مشايخ عربان الشرقية ، وأطلق محمد بن سودون السودونى وكان له مدة طويلة وهو فى السجن بسبب احضار مكتوب وقف ، وأطلق الشبراوى التاجر . وفى ذلك اليوم أطلق جماعة كثيرة من مشايخ العربان والمدركين والفلاحين والغلمان ممن كان عليه مال أو دين فسامحهم بذلك جميعه ، وأطلق من كان فى سجنه قاطبة دون من سجن فى أيام غيره ، حتى الحرامية استتوبهم وأطلقهم ، حتى أصحاب الجرائم والزغلية والعمال ممن عليه مال منكسر ، فأطلق فى ذلك اليوم واحدا وثمانين انسانا ، وأظهر العدل فى ذلك اليوم جدا حتى ارتفعت له الأصوات بالدعاء وكبر من كان حاضرا فى الحوش السلطانى من الجم الغفير من الناس حتى سمعوهم من الجبل المقطم ، وكان يوما مشهودا ، فانطلقت النساء له بالزغاريت فى الحوش وضجت له الرعية بالأدعية السنية .

ثم فى ذلك اليوم شاوروه على اعادة الدكك التى كانت على أبواب الحكام فلم يوافق على ذلك وقال : « الذى له حق يتوجه بغريمه الى الشرع ، والحرامية يتوجهون بهم الى بيت الوالى » .

وفى ذلك اليوم أشهر السلطان المناداة للعسكر بالعرض ولا يتأخر منهم لا كبير ولا صغير ، فصار العسكر لا يدرون ما سبب هذا العرض ، وكان الطعن قد أخذ فى التناقص عما كان .

* * *

وفى جمادى الأولى طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وجلس السلطان فى المقعد الذى بالميدان ، وطلع اليه العسكر والأمراء قاطبة من كبير وصغير ، فلما قام الخليفة والقضاة وانصرفوا رسم السلطان باحضار المصحف العثمانى فتوجه لاحضاره ألماس دوادار سكين ، فلما أحضروه بين يدى السلطان تقدم القاضى كاتب السر محمود بن أجا وحلف عليه الأمراء المقدمين قاطبة ثم الأمراء الطبلخانات ثم جماعة من الأمراء العشراوات ، فحلفوا على المصحف العثمانى بأنهم لا يخامرون على السلطان ولا يركبون عليه ولا يثيرون فتنة بين المماليك وبين السلطان ، فلما حلفوا حلف لهم السلطان أيضا بأنه لا يغدرهم ولا يخونهم ولا يمسك أحدا منهم لا كبيرا ولا صغيرا ، ثم أحضروا الأمير أركماس أمير مجلس فحضر وهو بتخفيفة صغيرة ، وقد تقدم القول على أن السلطان تغير خاطره عليه وقال له ، الزم بيتك أو توجه الى دمياط ، فلما طلع رضى عليه السلطان وألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور من ملابيسه وأقره فى امرة مجلس على عادته .

فلما نزلت الأمراء التفت الى العسكر وشرع يأخذ بخواطرهم وقال لهم : « أنا مقصر فى حقكم لا تؤاخذونى ونحن أولاد اليوم فكل من كان له عليق مكسور أو لحم مكسور أصرفه له » ، ثم نادى للعسكر فى الميدان بأن النفقة مع الجامكية لكل مملوك ثلاثون دينارا من كبير وصغير حتى أولاد الناس والأمراء المقدمين ، لكل واحد منهم ألف دينار ، والأمراء الطبلخانات لكل واحد مائتا دينار ، والأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار ، فلما سمع العسكر ذلك ضجوا له بالدعاء ونزلوا وهم فى غاية الجبر من السلطان . وكان سبب هذه النفقة أن السلطان لما حصل له هذا العارض فى عينه أشاعوا عنه أنه قد عمى فاتفق رأى الأمراء على خلعه من السلطنة ، وذكر للسلطنة جماعة من الأمراء ثم ذكر الظاهر قانصوه الذى بالسجن بثغر الاسكندرية ، وذكر للسلطنة سيباى نائب الشام ، وذكر أيضا للسلطنة ابن السلطان . وكان العسكر قاطبة مقلوبا على السلطان بسبب أن لهم عليقا مكسورا ، وكذلك اللحوم ولم ينفق عليهم شيئا لما أنفق على مماليكه ، وكانوا يشكون من خراب اقطاعاتهم من جور الكشاف ومشايخ العربان ووزن الحمايات فضجوا من ذلك ، فكان كما يقال فى أمثال الصادح والباغم وهو قوله :

ومن أضاع جنده فى السلم
لم يحفظوه فى لقاء الخصم
فالجند لا يرعون من أضاعهم
كلا ولا يحمون من أجاعهم
وأضعف الملوك طرا عقدا
من غره السلم فأقصى الجندا

فلما رأى السلطان أن العسكر قد تغلب عليه نادى لهم بالنفقة وشرع يستجلب خواطرهم مما تقدم منه قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

وفى ذلك اليوم ظهر محمد بن نصر الله الذى كان ناظر دار الضرب واختفى من السلطان مدة طويلة ، فلما أظهر السلطان العدل فى هذه الأيام أرسل يطلب منه الأمان فبعث اليه بمنديل الأمان حتى ظهر .

ثم بعده ظهر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وكان له مدة وهو مختف من السلطان ، فلما طلع وقابله خلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل ، وكان السلطان قد أرسل اليه منديل الأمان حتى ظهر ولكنه لما خلع عليه لم يعده الى وظيفته فى كتابة المماليك كما كان أولا .

ثم شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر الأمير أزدمر الدوادار وكان له مدة طويلة وهو مختف فظهر بالأمان من السلطان .

وفى يوم الثلاثاء ثانيه ظهر المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد ، المعاملين فى اللحم ، وكان المعلم على له مدة وهو مختف من السلطان فنادى له بالأمان حتى ظهر هو وأخوه المعلم أحمد .

وفى يوم الأربعاء ثالثه جلس السلطان فى شباك الأشرفية وأنفق على المماليك الذين عينهم صحبة الأمير خشقدم شاد الشون ، فأنفق على كل مملوك ثلاثين دينارا ، وأنفق لكل مملوك جامكية أربعة أشهر ، واستحثهم فى سرعة الخروج صحبة قاصد ملك الهند الذى حضر قبل تاريخه .

وفيه ظهر القاضى تقى الدين بن الرومى الحنفى وكان له مدة وهو مختف بسبب ما وقع له من أمر الواقع الكفرى الذى وقع فيه ، وكان السلطان متطلبه طلبا حثيثا ، فلما أفرج السلطان عن المسجونين ظهر فى هذه الحركة وقابل السلطان فعفا عنه .

وفى يوم الخميس رابعه شاوروا السلطان فى اعادة الدكك التى كانت على أبواب الأمراء

الحكام ، وكان السلطان لما تزايد أمر الطاعون رسم بشيل الدكك من على أبواب الأمراء كما تقدم ، فلما شاوروا السلطان على ذلك قالوا له : « السلطان ما بيحكم شيء والأمراء ما بتحكم شيء وضاعت حقوق الناس عليهم » . فعند ذلك أشهر المناداة فى القاهرة باعادة الدكك على أبواب الحكام ، وأن النقباء والرسل لا يجورون على الأخصام فى غرامتهم لهم على حق طريقهم ، ولكن المجامعة والمشاهرة التى كانت على الحسبة استمرت بطالة ، وكذلك المكوس التى كانت على القمح والبطيخ وسائر الغلال أبطلها جميعها ، فياليت شعرى هل يتم ذلك أم لا !

ثم نادى فى القاهرة أن كل من قهر أو ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ، وأن لا ظلم اليوم . فارتفعت الأصوات له بالدعاء من الخاص والعام ، وتمنى كل أحد له البقاء على الدوام ، فكان كما يقال فى المعنى :

لم يبق للجور فى أيامكم أثر
الا الذى فى عيون الغيد من حور

فلما أظهر السلطان العدل شفعوا عنده فى الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين ، وكان السلطان تغير خاطره عليه بسبب واقعة ابن قجق فرسم السلطان بنفيه الى الواح . فلما شفعوا فيه رسم باحضاره الى مصر ، ثم رسم باحضار يشبك حبلص الاينالى وكان نفاه الى الصعيد بسبب الأتابكى قيت الرحبى كونه كان عشيره ، ورسم باحضار ابراهيم بن السكر والليمون وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى مكة ، فلما شفعوا فيه رسم بعوده الى مصر .

ومما فعله من وجوه البر والاحسان أن وقف له القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك ، فلما وقف له شكا له من ضيق حاله فرسم له بجامكية ألفى درهم فى كل شهر وزبديتين لحم فى كل يوم ، ورسم باعادة جامكية الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيارى الذى كان أمير شكار وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى قوص وقطع جامكيته ، فلما رضى عليه أعاده الى مصر وصرف له ما قطع من جامكيته .

ثم ذكر له الشرفى يونس النابلسى الذى كان أستادارا وعزل عنها فسامحه بما بقى عليه من مال المصادرة ، وقيل انه رتب له على الجوالى فى كل شهر ثلاثة آلاف درهم ورسم له باعادة بلد فى نابلس كانت أخذت منه فى المصادرة ، بعد ما قاسى شدائد ومحنا فعطف عليه ورتب له ذلك ... هذا على ما قيل وأشيع بين الناس ولم ألتزم صحة ذلك .

وقيل ان السلطان فرق فى هذا الشهر نحوا من ثلاثة آلاف دينار على مجاورى جامع الأزهر والزوايا التى بالقرافة والمزارات ، وفعل فى هذا الشهر أشياء كثيرة من هذا النمط من وجوه البر والاحسان حتى عد ذلك من النوادر الغريبة .

وأشيع بين الناس أن السلطان قد رد لبعض جماعة من أولاد الناس ما كان أخرجه عنهم من اقطاعاتهم ، ووعد برد الجوامك التى قطعت للنساء والأيتام بواسطة الأتابكى قيت الرحبى أن يعيدها اليهم عن قريب . ومما وقع لى أننى امتدحت السلطان نصره الله تعالى بقصيدة سنية ومن جملة أبياتها :

قد أظهر العدل فى الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذى عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم

يصــــير الشــاة فى حمـــاه
تمشى مع الأســد والضراغم

فلامنى الناس على قولى :

قــد أظهــر العدل فى الرعايا
وأبطــل الجـــــور والمظالم

وكان السلطان فى فوة عسفه على الناس فى تلك الأيام فما عن فريب حتى أظهر السلطان هذا العدل العظيم الذى وقع منه فى هذه الأيام ، فكان الفأل بالمنطق فى اظهــار عدله وقــد ألهمه الله تعــالى الى ذلك .

وفى يوم السبت ســادسه جلس الســلطان فى شباك الأشرفية وفرق على مماليكه الذين أخــرج لهم الخيل والقماش ففرق عليهم فى ذلك اليــوم سيوفا وأقواسا وتراكيش ونشابا وزرديات ، وكانوا نحوا من ثلاثمائة مملوك . وفى اليوم الثانى فرق على ثلاثمائة أخر .

وفى يوم الأربعــاء عاشره ابتدأ السلطان فيــه بتفرقة النفقة على الأمراء المقدمين ، فأرسل أولا الى الخليفة المتوكل على الله ألف دينار عــلى يد بدر العــادلى فراش الخزانة ، فلما أحضر للخليفة ألف دينار ، ألبسه كاملية صوف بسمور وأعطاه خمســين دينارا ، ثم أرســل للأتابكى ســودون العجمى ألفى دينار ، وأرسل لبقية الأمراء المقدمين لكل واحــد منهم ألف دينار ، وأرســل للأمراء الطبلخاناة لكل واحد منهم مائتى دينار ، وأرسل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار .

وفى يوم الخميس حادى عشره ابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العســكر فأعطى لكل مملوك ثلاثين دينارا .

وفى يوم الجمعــة ثانى عشره خــرج الأمــير خشقدم شــاد الشون الذى تعين صحبة قاصــد الهند . وفى دلك اليــوم توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له شاهين ، وكان كاشف البحيرة .

وفى يوم الاثنين خامس عشره فرق الســلطان الجامكية على العادة ومعها النفقة ، فأعطى ثلاثين دينارا لكل مملوك ، وأعطى للعواجز منهم عشرين دينارا ، وللشيوخ الضعفــاء منهم عشرة دنانير ، وأنفق على المماليك الكتابيــة لكل مملوك خمسة دنانير ، وأنفق على بعض جماعة من الأيتام ممن له جامكية أشرفى فأعطاهم أشرفيين ، وأعطى لمن له جامكية ألف عشرة دنانير ، فقيل كان جمــلة هذه النفقة على ما قيل ثلاثمائة ألف دينار ، وقيل فوق ذلك ، حتى عدت هذه النفقة من النوادر الغريبة كونه صرف ذلك بطيب من خاطره من غير كره منه ، فكان كما يقال فى المعنى :

كأنه فى العطــــاء بحــر ندا
وبذلــــه النقــد فيه تيــار
ان استمال القــلوب لا عجب
لله عنــد القــلوب أسرار
قــد راقب الله خشــية وله
عند اكتســاب الثواب أوطار

ثم انه فى يوم الثلاثاء ســادس عشره نادى فى الحوش بأن كل من كان قطعت له جامكية من رجال أو نساء فيطلع فى أول الشهر حتى ينظر السلطان فى حالهم ويرد لهم ما قطع لهم ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس ثامن عشره رسم السلطان بأن يبطل ما كان على الخانكاه من المشاهرة والمجامعة التى كانت على الحسبة .

وفيه أرسل السلطان للخليفة المنفصل المستمسك بالله يعقوب والد المتوكل على الله ، وقــد تذكره

السلطان ، فأرسل اليه نفقة خمسمائة دينار على يد الأمير طقطباى نائب القلعـة ، ورسم بأن أحـدا لا يكلفه بشيء . فلما نزل اليه الأمير طقطباى قال له : « السلطان يسلم عليك ويقول لك ادعو له وابرى ذمته ولا تؤاخذه بما وقع منه فى حقك » . فكان فى حظ نفس ، فقال له : « والله أنا داعى للسـلطان وخاطرى طيب عليه وما حصل منه الا خير » . وقد تقدم القول على أن السلطان لما ترافع سيدى خليل مع الخليفة يعقوب تعصب السلطان لسيدى خليل وقال للخليفة يعقوب : « أنت ضعيف النظر فلا تصح ولايتك على المسلمين » . وكسر بخاطره وغرمه مالا وخلعه من الخلافة بغير ذنب كما تقـدم ذكر ذلك ، فلما حصل للسلطان هذا العـارض فى عينه ظن أن ذلك بخطيئة الخليفة يعقوب ، فأرسل الأمير طقطباى نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين يتعطف بخاطره ويسأله له الدعاء وأرسل اليه خمسمائة دينار ... فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه أنفق السلطان على أولاد الناس والتراكمـة الذين فى الطبقـة الخامسة المسـتجدة ، فأعطى لكل مملوك عشرة أشرفية ، وأعطى لجمـاعة منهم ثمانية أشرفية ، وأنفق عليهم النفقة مع الجامكية ، وفى ذلك اليوم فرق السلطان على مماليكه أتراسا وخوذا وكثرت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة .

* * *

وفى جمادى الآخرة طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان بالميدان ، ففرق فى ذلك اليوم على جماعة من المماليك القرانصة خيولا نحوا من ألف فرس ، وذلك لمن كان له فرس فى الديوان مدونا ومات .

وفى يوم الخميس ثانيـه خرج الأمير أقبـاى الطويل أمير آخور ثانى الذى عينه السلطان بأن يتوجه قاصـدا الى سليم شـاه بن عثمان ملك الروم ، فخـرج بطلب حافل ، وهذا قط لم تتفق لقاصد قبله أنه خرج على هذه الهيئة الجميلة حتى عد ذلك من النوادر ، فشق ذلك الطلب من داخل الميـدان حتى نظر اليه السـلطان وهو جالس فى المقعد الذى بالميدان .

وفيه حضر قانصـوه العـادلى كاشف الشرقية وصحبته شخص من أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمى صالح ، وهو من بنى حرام ، فسلخ جلده وحشاه تبنا ، وأركبوه على فرسه وألبسه زمطه على رأسه وألبسه كبرة حرير ، وكان شابا جميل الهيئـة فتأسف عليه الناس ، فلما عرضـه على السلطان شق ذلك عليه ولم يكن يرسم بسلخه قبل ذلك ، فلما جرى ذلك ثارت العـربان فى البـلاد وقطعوا جسر الحلفاية فساح على الأرض فى غير مستحقه وكان ذلك ليالى الوفاء .

وفى يوم الجمعة ثالثه خـرج السلطان وصلى صلاة الجمعة وهو بالشاش والقماش وكان له نحو من ست جمع لم يخرج ولم يصل الجمعة بسبب ذلك العـارض الذى حصل له فى عينـه ، فشال الرفادة عن عينه وخرج وصلى الجمعة ، فسر الناس لذلك وتخلقت الخدام بالزعفران وكذلك الغلمان ، وكان شفاؤه على غير القياس ، وكانوا أشاعوا عنه أنه قد عمى لا محالة .

وفى يوم الأحد خامسه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك رابع عشر مسرى ، فأوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وكان عرس النيل ، وفتح السد فى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة الموافق لخامس عشر مسرى ، وفى ذلك يقول القائل :

قد وفا النيل رابعا عشر مسرى
فملا بشره قلوب العباد

جاء فى وقته اذا قلت أهلا
بحبيب قد جاء فى الميعاد

فرسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فكان له يوم مشهود ، فلما عاد من فتح السد كان له موكب حافل ومشت قدامه الأفيال الكبار وهى مزينة بالصناجق والطبول ، فطلع الى القلعة فألبسه السلطان خلعة على جارى العادة

وفى يوم السبت حادى عشره ركب السلطان ونزل من القلعة ، ولم يركب من حين حصل له ذلك العارض فى عينه ، فلما ركب سير نحو المطرية وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، فمد له الزينى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ، وأقام بقبة الأمير يشبك الى بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة ولم يشق من القاهرة ، وكانت الناس شرعوا فى الزينة على أنه يشق من القاهرة ، فطلع من بين الترب ولم يشق من المدينة فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به ، وخلع على الأمير حسين نائب جدة وأقره فى نيابتها على عادته وسافر من يومه .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الأيتام من الرجال والنساء فرد لجماعة منهم ما قطع من جوامكهم ، وذلك بحكم النصف ، فرد منها شيئا يسيرا .

وفى يوم الخميس سادس عشره جلس السلطان على الدكة التى بالحوش وحكم بين الناس وأنفق الجامكيه ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر لم يجلس على الدكة ولا حكم بين الناس بالحوش على جارى العادة . وقد هنيته بهذين البيتين لما شفى من ذلك العارض الذى حدث له فى عينه من رخو الجفون ، فقلت فى ذلك مع اظهار التورية :

بعافية السلطان قرت عيوننا
ونال الورى منه بلوغ المقاصد

وقالوا به عين أصابت لعينه
فلما شفى غارت عيون الحواسد

فلما قرئا على السلطان استحسنهما وابتهج بهما

وفى يوم السبت ثامن عشره جاءت الأخبار بوفاة الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين أستادار العالية ، وكان من أعيان أولاد الناس ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونفاه السلطان الى الواح بسبب جاريه ابن فجق كما تقدم ذكر ذلك . فلما أظهر السلطان العدل وأطلق من فى السجون قاطبة شفع بعض أخصاء السلطان فى ابن بنت جمال الدين فرسم بأحضاره من الواح ، فلما وصل الى منفلوط مرض هناك ومات فدفن بمنفلوط ولم يدخل الى مصر .

وفى يوم الاثنين عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة نائب طرابلس ، وهو أبرك مملوك السلطان ، فحضر هو وعياله بطلب من السلطان ، فاستمر بالقاهرة حتى يكون من أمره ما يكون

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه نزل السلطان وتوجه الى المطرية ، ثم فتح سد الأميرية بنفسه ، فدخل الماء الى الملقة ثم رجع وشق من باب الشعرية فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، فطلع من على الناصرية وقناطر السباع وشق من الصليبية ، ثم طلع الى القلعة وهو فى غاية السودنة ، وقد وقفت له العوام وتسيبوا عليه بسبب الفلوس الجدد ، وقد وصل

صرف النصف الفضة الى عشرين من الفلوس الجدد ، وصارت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، وتشحط الخبز من على الدكاكين فى تلك الأيام ، وغلقت الأسواق بسبب الفلوس ، وحصل للناس غاية الضرر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ، وكان مسافرا فى جهات بلاد الصعيد ، فحضر فى ذلك اليوم وصحبته جماعة كثيرة من مشايخ عربان الصعيد والمدركين وجماعة كثيرة من الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل من أيام ابن ثعلب وغيره من المباشرين ، حتى قيل كان عليهم نحو من سبعين ألف أردب من القمح . فلما طلع الأمير الدوادار الى القلعة ألبسه السلطان خلعة سنية ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه أمير كبير وبقية الأمراء المقدمين والجم الغفير من العسكر ، فلما عرضوا على السلطان هؤلاء الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد قال : « ما بال هؤلاء ؟ » . فقالوا له : « ان عليهم مغل منكسر من السنين الخالية من أيام ابن ثعلب وغيره نحوا من سبعين ألف أردب » . فسكت ساعة قال : « أطلقوهم أجمعين فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان فيهم الشيوخ والضعفاء والعواجز والصبيان الصغار ، فأطلقوهم من الحديد أجمعين وهو ينظر اليهم ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، فكان أحق بقول القائل :

فاذا سطا ملأ القلوب مهابة
واذا سخا ملأ العيون مواهبا

وفى يوم الأحد سادس عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطرية وكشف على العمارة التى هناك ، ثم أتى الى قبة الأمير يشبك فأقام بها الى بعد العصر ، فمد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فتعشى بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه كان يوم النوروز وهو أول السنة القبطية ، ففى ذلك اليوم قبض السلطان على شخص من الأتراك وقد نقل عنه أنه كاتب نائب حلب وجماعة من النواب بأن السلطان قد عمى ولم صار ينظر شيئا ، فأرسلوا المكاتبات الى السلطان ، فلما أحضر السلطان ذلك المملوك وعرض عليه تلك المكاتبات أنكر ذلك ، فلما قامت عليه البينة بذلك رسم السلطان بضربه فضرب ضربا مبرحا وسجنه السلطان بالبرج حتى نقر على من الجاه الى ذلك من الأمراء فلم يقر بشىء .

* * *

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فجلس السلطان بالمقعد الذى بالحوش ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنئونه بالشهر .

فلما كان يوم الأحد رابعه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، وكان النيل يومئذ فى عشر أصابع من تسع عشرة ذراعا .

وفى يوم الثلاثاء سادسه نزل السلطان وكشف على العمارة التى بالمطرية ، فلما عاد شق من المدينة ودخل من باب النصر ، فلما أن وصل الى مدرسته نزل عن فرسه ودخل اليها ، فتوشحت الغلمان بالبنود الحرير الأصفر حتى توشح بذلك جماعة من المباشرين ، فنهاهم السلطان عن ذلك ، وأقام السلطان هناك الى بعد الظهر ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الخميس ثامنه خلع السلطان على الزينى بركات بن موسى وأقره فى الجلسة الشريفة

على عادته ، وكان أشيع عزله بسبب اضطراب البلد لأجل الفلوس ، ثم ان السلطان أشهر المناداة فى القاهرة بأن الفلوس تصرف بالميزان بعدما كانت معاددة ، فخسر الناس فى هذه الحركة جملة مال له صورة .

ومن العجائب أن السلطان لما حصل له ذلك العارض فى عينه جاد مع الناس وأبطل المجامعة التى كانت على الحسبة والمشاهرة وأشياء كثيرة من المكوس ، مما كان على القمح والبطيخ وغير ذلك ، فلما شفى من ذلك العارض وشق من المدينة ضجت له العوام بسبب الفلوس الجدد ، فلما طلع الى القلعة حنق منهم ورسم باعادة المجامعة والمشاهرة والمكوس التى كانت على القمح والبطيخ وغير ذلك كما كانت وزيادة ، وقال : « أنا أبطلت عنهم أشياء كثيرة بنحو ألفين دينار فى كل شهر وهم يتضررون من الفلوس ! » . ثم ان السلطان شرع فى مطالبة من كان عليه بواقى مال من المصادرات التى تقدم ذكرها واعاد القاضى ابن ثعلب الى المقشرة بسبب ما تأخر عليه من المال ، وكان أشيع بين الناس أن السلطان لما كان عليلا بعينه سامح أرباب المصادرات بما عليهم من الأموال ، فلم يتم ذلك وشرع يطالب كل من كان عليه شىء من المال وقد ندم على ما فعله من اظهار العدل فى تلك الأيام ، وقد قلت فى معنى ذلك :

سلطاننا مذ كان فى ضعفه
يمنحنا عدلا واحسانا
فمذ شفاه الله من دائه
أحدث ظلما فوق ما كانا

فكان الفأل بالمنطق ، ورجع كل شىء الى ما كان عليه من وجوه الظلم كما كان أولا .

وفى هذا الشهر قوى عزم النيل حتى قطع جسر أم دينار الذى بأراضى الجيزة وشرق غالب أرضها بسبب ذلك ، وكان السلطان أمر الوزير يوسف البدرى بأن يهتم بعمارة جسر أم دينار هذا . فندب اليه شخصا من المباشرين يسمى جمال الدين فما أبقى ممكنا فى الظلم ، وأفرد على كل فدان بأراضى الجيزة ألف درهم ، فحصل على المقطعين بتلك النواحى ما لا خير فيه وضاع عليهم خراج تلك السنة من أجل هذا الجسر ، ولم يفد من ذلك شيئا ، وشرق غالب الأراضى بالجيزة لأجل ذلك الظلم .

وفى يوم الأحد حادى عشره أشيع بين الناس أن شخصا من البرابرة قبض على فرس البحر من بعض جهات الصعيد وأحضرها بين يدى السلطان ، فلما أحضرت بين يدى السلطان فرح بها وقيل انه أطلقها فى البحرة التى فى الميدان ، وقد أخبرنا بصفاتها الياس أحد الأمراء الآخورية .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره ترافع أحمد ابن الصايغ بردار الزينى بركات بن موسى ، ترافع معه ، وكان الزينى بركات تشكى بأنه يخسر فى تلك الجهات التى فى تحدثه ، فقال أحمد بن الصايغ : علىّ السداد ، فخلع عليه السلطان كاملية وأشرك بينه وبين بركات بن موسى فى التحدث على البلاد التى فى تقسيطه والحمايات ، ولم يشركه معه فى التحدث فى الحسبة الشريفة .

وفى يوم الخميس خامس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، فخست الجامكية تسعمائة دينار فغلقها ابن الصايغ من ماله ، فكان هذا أول عكسه .

وفى يوم الجمعة سادس عشره توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له مصرباى بن يشبك .

وفيه ثبت النيل المبارك على أربع أصابع من

عشرين ذراعا وكان فى العام الماضى غلق العشرين ذراعا وزاد ثمانى أصابع من واحد وعشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى نصف هاتور القبطى .

وفى يوم الأحد ثامن عشره نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى فى المطريه ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى مدة حافله . فتعشى هناك ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره جلس السلطان بالمقعد الذى بالحوش ، وخلع على شخص من الأمراء كان بطالا يقال له جانم بن ولى الدين ، واستقر به نائب طرابلس عوضا عن الأمير أبرك مملوك السلطان بحكم انفصاله عنها ، وجانم هذا تقدم أنه تولى نيابة حماة ونيابة طرابلس قبل ذلك ، وكان السلطان عين نيابة طرابلس الى الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب فلم يوافق على ذلك وأبى ، فخلع السلطان على جانم هذا وأقره فى نيابة طرابلس كما كان قبل ذلك ، وقيل انه سعى فى نيابة طرابلس بستين ألف دينار على ما قيل .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه احتجب السلطان ولم يخرج الى الأمراء ، وأشيع أنه قد قص ما طال من جفنه وقطبوه له فتشوش من ذلك .

فلما كان يوم الجمعة لم يخرج ولم يصل الجمعة ورسم للأمراء بألا يطلعوا الى القلعة بسبب الصلاة ولا يكلفوا خاطرهم فان السلطان شارب فى ذلك اليوم دواء ، فلم تطلع الأمراء فى ذلك اليوم الى صلاة الجمعة فى القلعة .

وفى ذلك اليوم توفى القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك وعزل عنها ، فأقام مدة وهو بطال حتى مات ، وكان من أعيان المباشرين وقد قارب الثمانين سنة من العمر ، وقاسى شدائد ومحنا وصودر غير ما مرة ، وكان أصله من أبناء الأقباط .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بفتح سد أبى المنجا ، فتوجه الأمير كرتباى والى القاهرة وفتح السد على العادة .

وفى يوم الأحد سادس عشرينه توفى الأمير نانق بن يحشباى أمير شكار كان ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان من الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض السلطان المماليك الذين قررهم فى الطبقه الخامسة ، وهو العسكر الملفق ، فرسم لهم بأن يعملوا برقهم ويتوجهوا الى السويس لأجل حفظ المراكب التى أنشأها السلطان هناك ، فقالوا : « نحن ما نسافر بلا نفقة » . فحنق السلطان منهم وقال : « أنا أسافر الى السويس بنفسى » . وقد تقدم القول على أن الفرنج قد زاد تشويشهم على التجار فى البحر الملح وصاروا يخطفون البضائع من المراكب ، وقد ملكوا كمران وهى من بعض جهات الهند . وقد تكامل من مراكب الفرنج فى البحر نحو من عشرين مركبا ، فكثرت الاشاعات بسفر السلطان الى السويس .



وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فلم يجتمعوا بالسلطان وقيل لهم قد دخل الحمام ، وقد حصل له الشفاء لما قطبوا له جفنه ، وكان السلطان يظن الهلال لا يرى تلك الليلة فدخل الحمام فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت ثانيه نزل السلطان الى الميدان وشال الرفادة عن عينه وجلس وحكم بين الناس ، ورسم للعسكر بأن يصرف لهم العليق شعير ،

وكان يصرف لهم العليق مثمن فرسم لهـم بأن بصرف العليق شعير .

وفى يوم الاثنين رابعه طلعت الأمراء الى القلعة على العادة ، فخرج لهم السلطان من الدهيشة وهو ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبـيرة المسماة بالناعورة ، وهى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولى بها الأتراك ، وكانت التيجان يلبسها ملوك الفرس من الأكاسرة ، فصارت التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال لسـلاطين مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ، وقد جاء فى بعض الأخبار أن العمائم تيجان العرب وكان السلطان له نحو من أربعـة أشهر لم يلبس هذه التخفيفة الكبيرة ولا جلس على المصطبة التى يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج تمشى وجلس على تلك المصـــطبة ، فباس له الأمراء الأرض وهنـوه بلبس التخفيفة الكبيرة ، ثم أحضروا له بالدواة فعلم فى ذلك اليوم على عدة مراسيم ونفذ عدة محـاكمات ، ثم قام وطلع الى المقعد الذى أنشأه بالحـوش ، فلما قام نثر على رأسه المعلم يعقوب اليهودى خفائف من ذهب وفضـة ، فتخاطفتها الخاصكية وتزاحموا على السلطان حتى كاد أن يقع من شـدة الازدحام . فلمـا طلع الى المقعد خلع فى ذلك اليـوم عدة كوامل صوف بسـمور ، فخلع على الرئيس شـمس الدين بن القيصونى ، وخلع على الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وخلع على الرئيس تقى الدين المنوفى الكحال الذى قطب له عينه ، وخلع على الرئيس صلاح الدين الشامى ، وقيل رسم لكل رئيس منهم بمائة دينار ، ثم خلع على محمد مهتار الطشتخاناه كاملية حافلة بسمور ، وخلع على علم الدين الحلبى كاملية حافلة بسمور ، ثم ان خوند زوجة السلطان أرسلت لكل واحـد من هؤلاء المذكورين كاملية حافلة بسمور ، ثم ان الحكماء صاروا يدخلون الى بيـوت الأمراء المقدمين ويبشرونهم بعـافية السلطان فيخلعون عليـهم الكوامل الحافلة ، وكذلك أرباب الوظائف من المباشرين قاطبة وأخصاء السلطان ، فدخل عليهم عدة كوامل بسمور حافلة ، وقد قلت لما شـفى السلطان ولبس التخفيفة الكبيرة فى ذلك اليـوم فهنيته بهذين البيتين وهما :

لما شفى السلطان من رمد به
بوسيلة من صاحب المعـراج
فتفـاءلت كل الأنام بأنه
فى الملك باق يوم لبس التاج

وهنـأه الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق بهذه الأبيات :

يا ملكـا عـدله أرانا
تبسـما فى فم الزمان
وقد حبانا بحـار جود
يقصر عن عدها لسانى
اهنـأ ببرء يلى بقـاء
مؤيدا مظهـر التهـانى
لا زلت للملك ذا نظام
تبدى به جوهر المعانى

وفى يوم الاثنين المقدم ذكره حضر الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وكان السلطان رسم له بأن يقيم فى الفيوم حتى يعمر الجسر الذى هنـاك ، فأقام بالفيـوم مـدة حتى انتهى ذلك العمل من الجسر ، فلما حضر خلع عليه السلطان كاملية بسمور حافلة ونزل الى داره ، ولكن حصل منه غاية الضرر على كل من كان له فى الفيـوم رزقة أو اقطاع ، فأفرد عليهم ثلث خراجهم فى هـذه السنة بسبب

عمارة الجسر المقدم ذكره الذى سافر السلطان الى الفيوم بسببه ، فجار الأمير أرزمك على أصحاب الرزق والاقطاع غاية الجور ، وراح على المقطعين خراجهم فى هذه السنة بسبب عمارة هذا الجسر .

وفى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته أعيان المباشرين وأرباب الدولة وهم موشحون بالحرير الأصفر لأجل عافية السلطان ، فشق من القاهرة وقدامه الحكماء بالخلع ، فنادى فى القاهرة بالزينة لأجل عافية السلطان ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، ثم ان الزينى بركات بن موسى أشهر المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطيقان لأجل عافية الملك . فانطلق سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطيقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ... ودارت الطبول والزمور فى المراكب يهنون أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان ، ثم ان سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطيقان أحمالا وأمشاطا فيها القناديل ، فاحتفل سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية ، وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ، ويقع بالبركة من القصف والفرجة ما لا يحصى وصفه ولا سيما قد صار أمرا سلطانيا .

وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى ذلك عن الحد ، وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه زينت القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق ، وهم سوق الشرب والباسطية وسوق الحاجب وسوق الفاضل وسوق جامع ابن طولون وسوق مرجوش وسوق الوراقين وسوق الجواهرة وغير ذلك من الأسواق ، وزينوا مصر العتيقه وبولاق حتى زينوا أسواق الخانكاه ، وزينوا حارة زويلة وخان الخليلى وغير ذلك من أسواق القاهرة ، ثم ان الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من الأمراء الطبلخانات زينوا أبوابهم بالصناجق والخيام الحافلة مثل زينة العيد ، ثم ان الخليفة زين بابه بستور ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها ، ثم ان قضاة القضاة زينوا أبوابهم بالشاخين المحمل والنواميس الحرير ، ولاسيما قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة فانه خرج فى الزينة عن الحد ، فزين بابه بالبشاخين الزركش والعنبر فعد ذلك من البدع المنكرة ، ثم ان الزينة أقامت سبعة أيام متوالية ، والكوسات عمالة كل يوم نوبتين باكر النهار وبعد العصر ، وهى بالقلعة وعلى أبواب الأمراء المقدمين . ولم يقع قط بمصر مثل هذه الواقعة فى عافية سلطان ولا أمير ، وهذا من باب الوجاهة والزوكرة للسلطان ، فان قضاة القضاة زينوا أبواب المدارس التى يسكنون بها حتى باب المدرسة الصالحية وخانقاه بيبرس وغير ذلك من الأماكن الجليلة ، فعاب بعض الناس على القضاة هذه الفعلة ، وقد صنع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ردكا بأشجار وأحواض جلد على باب الخانقاه البيبرسية ، فعد ذلك من البدع المنكرة وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

لبرئك يا ذا الملك سرت نفوسنا
وقد زينت من بعد ما عطلت مصر
وأصبح ثغر الدهر مبتسما لنا
وفى وجنة الدنيا غدا ينظر البشر

وكان سبب ايساع هذه الزينة أن الأخبار قد شاعت فى البلاد الشرقية والغربية بأن السلطان قد

عمى بعينيه الاثنتين ، فأراد السلطان اظهار هـذه الزينة حتى يشاع فى البلاد أن السلطان قد شفى وزال عنه الألم الذى كان فى عينيه ، فأمـر بزينة القاهرة ودق الكوسات حتى يشـاع ذلك بدق الكوسات بالقلعة وعلى أبواب الأمراء .

وفى يوم الخميس سـابعه جلس السلطان على المصطبة بالحوش وعين فى ذلك اليوم خمسة أنفس من الأمراء المقدمين بأن يعملوا يرقهم ويتوجهوا الى السويس ، ثم بطل ذلك فيما بعد ولم يسافر منهم أحـد ، وكان أشيع سفر السـلطان بنفسـه الى السويس ولم يتم ذلك ، فشرع يقول للعسـكر والأمراء : « جهزوا يرقكم فانى أسـافر نصف الشهر » ، وصنع أربع محفات ، وجعل يعـرض نوب هجن وبغال وغير ذلك .

وفى يوم الاثنين حادى عشره جلس السلطان فى الميدان وفرق اطلاقات الطين على العسـكر وكان غالب أراضى الجيزة شراقى ، فردوا وصـولات الاطلاقات ، وكادت أن تكون فتنة .

وفى يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها ، ورسـم لنقيب الجيش بأن يطوف على الأمـراء المقدمين قاطبـة ويعلمهم بأن السلطان يوكب من القبة ويشـق من القاهرة ، وأرسـل يعزم على الأمراء فى القبة ، فحضر اليـه الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس وبقية الأمراء المقدمين قاطبة ، فباتوا عند السلطان بالقبة ومد لهم هناك أسمطة حافلة ، فلما كان يوم الأحد ركب السلطان من القبة وقدامه الأمراء المقدمون قاطبة والأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين قاطبة وأعيان الدولة والعسكر قاطبة . وكان السلطان قصد أن تحمل على رأسه القبـة والطير فنهاه الأمراء عن ذلك وقالوا له : « ما هى عادة أن السلطان اذا خرج الى المطرية تحمل على رأسه القبة والطير » ... فرجع عن ذلك .

ثم ان السـلطان دخل من باب النصر وشق من القـاهرة فى موكب حافل ، ولاقته طائفة اليهود والنصـارى وبأيديهم الشموع موقدة ، وسارت قـدامه أرباب الوظائف من المبـاشرين وهـم متوشحون بالحرير الأصفر ، وكذلك نقيب الجيش والوالى وأعيان الخدام وولد السلطان ، ومشت قدامه الرءوس النوب بالعصى من باب النصر الى القلعـة ثم سحبت قـدامه الجنائب بالكنابيش الزركش ومشى قدامه الأوزان والشبابة السلطانية والنفير البرغشي والمجامع السلطانية بالغشاء الحرير الأصفر ، ولم تلبس الأمراء ولا أحد من العسكر فى هـذا الموكب الشاش والقماش ، ولم يستطع السلطان لبس التخفيفة الكبيرة من العارض الذى فى عينه ، بل كان فى هذا الموكب بتخفيفة صـغيرة مكسى وسـلارى بعلبكى أبيض ، ومشى قدامه غالب الخاصكية من باب النصر الى القلعة ، فكان له يوم مشهود ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة عليه ، وتركزت له الطبول والزمور فى عدة أماكن من القـاهرة ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وكانت القاهرة مزينة زينة حافلة منـذ سـبعة أيام ، وأوقدوا له الشموع والقنـاديل فى الأحمال بالنهـار على الدكاكين ، وأطلقوا له البخور فى المجامر ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب الحافل على ما ذكرناه حتى طلع الى القلعة . وقد قلت فى هذه الواقعة أبيات مواليا وهى هذه :

سلطاننا لو محاسن فيه موصوفه

ولو مواكب لهـا أوقات معروفه

مذ خف عنو الرمد بألطاف محفوفه
أوكب لها أوقات مصر مصفوفه

ولما شق السلطان من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وقال له جماعة من العوام : ابطل عنا أمر المجامعة والمشاهرة التى على الحسبة ، فلم يلتفت الى كلامهم وتغافل عن ذلك .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن امرأة خرجت تتفرج على السلطان وكانت حاملا ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزل الولد من بطنها فى الحال وماتت من يومها ، فرجعت الى بيتها فى تابوت وذلك بالقرب من باب النصر .

ثم شرع كل أحد من أعيان المباشرين يقدم للسلطان تقادم حافلة ما بين ذهب وقماش وسكر وأغنام وغير ذلك ، وقدم اليه أيضا جماعة من الأمراء من أخصاء السلطان تقادم حافلة ما بين خيول وصوف ووشق وسنجاب وغير ذلك ، فخلع عليهم فى ذلك اليوم كوامل مخمل أحمر بسمور ، والذى لم يقدم له شيئا لم يخلع عليه .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه عرض السلطان عسكر الطبقة الخامسة التى استجدها ، فلما عرضهم عين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى السويس فشرع مقدم المماليك سنبل يقول لهم : « يا أغاوات عبوا يرفكم حتى تسافروا الى سويسة ! » فضحكت عليه الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه صنع السلطان ستورا من حرير أسود بطرز مزركشة ، وكانوا نحوا من سبعة ستور لبقية الأنبياء الذين هناك ، ولأجل ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، فشقوا من القاهرة وقدامهم الطبل والخليلة ، وكان لهم يوم مشهود ، وكان خادم حرم الخليل عليه السلام حاضرا فنزل قدام الستور هو وجماعة من الفقراء .

وفى يوم الخميس رابع عشرينه دخل جماعة من المماليك الذين تعينوا الى السويس على الأمير طومان باى الدوادار وشكوا له سفرهم الى السويس بلا نفقة ، وصمموا على عدم السفر الى السويس ، فطلع الأمير طومان باى وذكر للسلطان ما قاله المماليك ، وكاد أن يقع من ذلك فتنة ، فلما سمع السلطان ذلك أمر ببطلان السفر الى السويس وخشى من اقامة فتنة .

وفى يوم الجمعة نزل السلطان وعدى الى الروضة ، ونصب له خياما على خرطوم الروضة وبات هناك ومد له الزينى بركات بن موسى هناك أسمطة حافلة ، فأقام الى يوم الأحد وطاب له ذلك المكان وانشرح به ، وكان صحبته مغانى وأرباب الآلات ، فطلع الى القلعة يوم الأحد أواخر النهار .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج الأمير جانم الذى قرر فى نيابة طرابلس كما تقدم ذكر ذلك ، فكان له يوم مشهود .

وفى يوم الخميس من أواخر هذا الشهر كانت وفاة الأمير برد بك تفاح ، وكان من الأمراء الطبلخانات ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان أميرا من جملة الأمراء المقدمين الألوف بالشام ، فأتى الى مصر ليسعى فى الحجوبية الكبرى بالشام فلم يتم له ذلك فاستمر مقيما بمصر ، وكان له مرتب على الذخيرة فى كل شهر حتى مات وكان له مدة وهو عليل ، فلما مات كانت له جنازة حافلة ومشت قدامه خشداشينه من الأمراء وأخرجوا قدامه كفارة ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان وسير الى مصر العتيقة وشق من على ساحل البحر ، ثم طلع من على قناطر

السباع وشق من الصليبة وطلع الى القلعة ، فلما شق من الصليبة ضجت له العوام بالدعاء وذكروا له أمر الفلوس الجدد وأن البضائع صارت تباع بسعرين ، فلما طلع الى القلعة نادى فى ذلك اليوم بأن الفلوس تكون بنصفين الرطل ، وكانت بثلاثة أنصاف الرطل ، فخسرت السوقة فى هذه الواقعة نحو الثلث من أموالها ، وكانت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، ففرح غالب الناس بهذه المناداة .

وفى يوم السبت سلخ الشهر نزل السلطان الى المطرية وتوجه الى قبة يشبك وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

* * *

وفى رمضان كان مستهل الشهر يوم الأحد ، فجلس السلطان بالميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعه يهنونه بالشهر على جرى العادة

وفى ذلك اليوم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب باللحم والخبز والدقيق والسكر والغنم وهم على رءوس الحمالين وقدامهم الطبول والزمور ، وشقوا من القاهرة وكان لهم يوم مشهود ، فخلع السلطان على الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى ونزلوا الى بيوتهما فى موكب حافل ، ثم ان السلطان رسم المزينى بركات بن موسى بأن ينادى فى القاهرة بتسعير البضائع : بأن البطة الدقيق بسبعة أنصاف واللحم الضانى بتسع نقر الرطل واللحم البقرى بست نقر الرطل ، وسعر الأجبان والسيرج والزيت وغير ذلك من البضائع ، وأن النصف الفضة لا يصرف بأكثر من اثنى عشر درهما ، وأن الفلوس العتق والجدد بالميزان وكل رطل بنصفين .

وفى يوم الجمعة سادسه قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، ووافق ذلك ثامن هاتور القبطى .

وفى يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الكسوة مع الجامكية على العسكر

وفى ذلك اليوم كانت وفاة المعلم على الصعير أحد معاملى اللحم ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، ولكن قاسى فى أواخر عمره شدائد ومحنا وصودر غير ما مرة ، وضرب بالمقارع على أجنابه بين يدى السلطان ، وسجن بالعرقانة مدة وتسحب من هناك وتدلى بحبل فانقطع به ووقع على الأرض فانكسر ضلعه ، واستمر مختفيا مدة ، وسافر الى الحجاز وهو مختف ، ثم ظهر عند ما أفرج السلطان عن أصحاب الجرائم كما تقدم ذكر ذلك ، فظهر واستمر عليلا مما قاساه حتى مات ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر ، وكان من أعيان المعاملين ناتجا بالسداد ، وقد ذكر فى أيام الأمير أقبردى الدوادار بأن يلى الوزارة مثل البباى فلم يتم له ذلك .

وفى هذا الشهر أشيع بين الناس بأن الناصرى محمد بن أزدمر نائب حلب كان قد قتل فى معركة ببلاد ابن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان تغير خاطره عليه فرسم بشنقه فى حلب ، فلما بلغه ذلك فر الى بلاد ابن عثمان فقتل هناك ، وكان غير مشكور السيرة فى سائر أفعاله .

وفى يوم الأحد ثانى عشرينه نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وكشف على العمارة التى هناك ، فلما رجع دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وأقام فى خرطوم الروضة ، وأشيع بين الناس بأن السلطان نقصد أن ينشىء هناك قصرا بأربعة وجوه .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه كان ختم صحيح البخارى بالقلعة ، ونصب السلطان خيمة

كبيرة بالحوش على العادة ، وحضر هناك القضاة الأربعة ومشايخ العلم وأعيان الفقهاء ففرقت عليهم الخلع والصرر لمن له عادة ، وكان ختما حافلا .

وفى يوم الأحد تاسع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التى بالمطرية فجلس على المصطبة التى هناك وجربوا قدامه عدة مكاحل بحجارة كبار ، فأقام هناك ساعة ثم عاد الى القلعة .

وفيه عرض ناظر الخاص خلع العيد وكانت فى غاية الوحاشة .

وفيه أنفق السلطان الكسوة والجامكية على عسكر الطبقة الخامسة .

* * *

وفى شوال كان عيد الفطر يوم الثلاثاء ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد وهو بالشاش والقماش ، وكان موكب العيد حافلا .

وفى يوم السبت خامسه نزل السلطان وعدى الى الروضة وبات بالمقياس تلك الليلة ، وأقام به يوم الأحد الى بعد العصر ، ثم عدى وطلع الى القلعة وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه ولده وبعض أمراء ، وكان قدامه قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء العشراوات ، والأمير خاير بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين وكان صحبة السلطان فى المقياس .

وفى يوم الاثنين سابعه توفى القاضى عرفات بن السجان ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر خلع السلطان على عبد العظيم الصيرفى وقرره فى التحدث فى أمر الشون السلطانية وجهات الذخيرة ، فتعاظم عبد العظيم الى الغاية وكبر عمامته وصار من أعيان الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالكسارات وعصر أكعابه بالمعاصير وحرق أصابعه بالنار ، فنسى ذلك كله وصار فى شمم عظيم .

وفى يوم السبت ثانى عشره نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة يشبك الدوادار وبات بها ليلة الأحد ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم السبت المقدم ذكره وقعت كائنة عظيمة وهى التى عمت وطمت ، وكان سبب ذلك أن شخصا من نواب الحنفية يقال له غرس الدين خليل ، وكانت له زوجة حسناء فهويها شخص من نواب الشافعية يقال له نور الدين على المشالى واعتشر بها مدة طويلة ، فاتفق أن فى ليلة السبت المقدم ذكره طلع غرس الدين خليل الى الامام الليث رضى الله عنه وبات به ، فأرسلت الامرأة خلف نور الدين المشالى وأعلمته بأن زوجها خليل بائت فى الامام الليث ، فاطمأن بذلك ثم أرسل اليها ما يلائم ، وكان بجوار بيت الامرأة شخص تسميه الناس شميس ، وهو ابن أخت القاضى نور الدين الدمياطى ، وكان يهوى هذه الامرأة وهى لم ترض به ، فلما تحقق أن نور الدين المشالى بائت عندها تلك الليلة فصبر حتى طلع اليها نور الدين واستقر عندها فى البيت ، فركب شمس الدين ابن أخت الدمياطى وتوجه الى الامام الليث وأعلم خليل زوج الامرأة بذلك ، فركب خليل من وقته وجاء الى بيته فوجد الباب مقفولا . ودخل الى البيت ، فوجد نور الدين وزوجته فى الناموسية وهما تحت اللحاف متعانقان فقبض عليهما باليد .

فلما تحقق نور الدين المشالى أنه تعدى على خليل وطلع الى بيته وفسق فى زوجته قصد تستر هذا الأمر فقال لخليل : « أكتب لك على مسطورا بألف دينار ولا تفضحنى بين الناس » . وقالت الامرأة : « خذ جميع ما فى البيت من الأمتعة وستر هذه القضية والستر مطلوب » . فلم يوافق خليل

على ذلك ، ثم أغلق عليهما الباب وأتى الى دار حاجب الحجاب فقص عليه ما جرى له ، فأرسل حاجب الحجاب فبض عليهما ، فلما مثلا بين يديه أقر نور الدين المشالى أنه طلع الى بيت خليل وكان بينه وبين زوجتـه ما كان من أمر الزنا ، ثم ان حاجب الحجاب أحضر القاضى شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية فشهد على نور الدين المشالى بما أقر به على نفسه بالزنا وكتب خطه بذلك وكتب بذلك محضرا وثبت عليـه . ثم ان حاجب الحجاب عرى نور الدين المشـالى وضربه ضربا مبرحا حتى كاد يهلك ، ثم ضرب الامرأة عـلى أكتاف المشاعلية ضربا مبرحا ، ثم أمر باشهارهما فى القاهرة ، فأركب نور الدين المشالى على حمار وألبسه عمامته وأركب الامرأة أيضـا على حمار وقلبوا وجهيهما الى خلف الحمار وطافوا بهما فى الصليبة والقاهرة وقناطر السباع ، وكان لهما يوم مهول ، ثم رجعوا بهما الى بيت حاجب الحجاب ، فقرروا على الامرأة مائة دينار لحاجب الحجـاب فقالت الامرأة : « أنا زوجى وضع يده على جميع مالى فلا أملك من الدنيا شيئا » فقالوا لزوجها : «هات من مال زوجتك مائة دينار لحاجب الحجاب». فلم يوافق على ذلك وامتنع فرسموا عليه ، وكان لخليل ولد صغير يقرأ مع المقربين عند السلطان فى الدهيشة ، فلما رسموا على أبيه طلع الى السلطان وذكر له ما جرى من أوله الى آخره ، فعند ذلك اتسع الخرق على الراقع وفشـا الكلام بالمواقع ، فلما اتصـل هذا الأمر بالسلطان كان من الأمر ما سنذكره فى موضعه .

وفى يوم رابع عشره نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم عليـه السـلام والمحمـل الشريف ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم وقف الى السـلطان بشخص قتيـل يقـال له قانم المداقف ، وكان من جملة الزردكاشية ، فأنهوا أولاد القتيـل على أن بعض المماليك الأجلاب عزم عليه وأسكره ثم قام اليه وخنقه بوتر حتى مات ، وكان بيد قانم هذا اقطاع تقيل فقتله الجلبان بسبب ذلك ، وكان له أولاد وزوجة فقتل ولم تنتطح فى ذلك شـاتان ، وحل السلطان فى أمره ولم يأخذ له بثأر .

وفى ذلك اليوم توفى الحاج رمضـان مهتـار الأشرف قايتباى ، وقد قاسى فى أواخر عمره أشياء كثيرة من شدائد ومحن ، وصودر غير ما مرة ، وضرب وعصر فى أكعابه ، وباع بيوته فى المصادرة وجميع ما يملكه ، وصار يسـتعطى من الأمراء بالقصص ، وكان أصله من الصعيد ، وخدم الأشرف قايتباى حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ، ورأى فى أيامه من العز والعظمة ما لا رآه غيره من المهاترة الذين سلفوا من قبله ، وكان بيده مهترة الطشتخاناه الشريفة ونظـر الكسوة الشريفـة والتحدث على جهات السلطان ، وكان غالب السعى لأرباب الدولة من بابه ، ويقال كان متحصله فى كل يوم نحوا من أربعين دينارا ، فسـلب ذلك منه جميعا ومات فقيرا لا يملك من الدنيا شيئا ، وكان قد شاخ وكبر سنه ومات وهو فى عشر الثمانين .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره أرسل السلطان خلف القضاة الأربعة ، فلما حضروا بين يديه وبخهم بالكلام الفج وقال لهم: « والله افتخرتم ياقضـاة الشرع : نوابكم شىء يشرب الخمر وشىء يزنى وشىء يبيع الأوقاف » . وفى ذلك تسميعة لقاضى القضـاة الحنفى عبـد البر بن الشحنة وكان هو المقصـود بذلك الكلام ، ثم طلب المحضر الذى ثبت على القاضى شمس الدين بن وحيش ، فقال

له ابن وحيش : « أنا ثبت عنـدى رجمهما » . فانصاع السلطان لهذا الكلام وقصد بذلك اظهار العدل حتى يكتب ذلك فى تاريخه أنه رجم من زنى فى أيامه ، كما وقع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لماعز وزينب اللذين أمر النبى برجمهما ، فقال السلطان لابن وحيش : « احكم برجمهما » : فقال ابن وحيش : « حتى ينفذ لى قاضى القضاة الشافعى » . فقال القاضى الشافعى : « قد نمدت لك ذلك » . فانفصل المجلس على رجم المشالى والامرأة وعلى أن يحفر لهما حفيرة ويرجما فيها ، ولو فعـل السلطان ذلك فى يومه لمشى أمر الرجم وقضى ذلك الأمر ، لكن عارض السلطان خروج المحمل وأمر الحجاج ، فأخر هذه القضية لبعد خروج الحجاج .

فلما كان يوم الخميس سابع عشر شوال خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد الى الغاية ، وكان له يوم مشهود ، وحضر فى هذه السنة ملكان من ملوك التكاررة ، فحرجا فى ركب وحدهما بعـد خـروج الحـاج بأيام ورجعا صحبه الحجاج لما حضروا ، وحرج قدامه القضـاة الأربعة ، وكان أمير ركب المحمل قانصـوه كرت أحـد الأمراء المقدمين ، وبالركب الأول الأمـير طومـان باى حاجب ثانى ، فخرجا فى موكب حافل وقدامهما الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين .

فلما اشـتغل السـلطان بأمر خروج الحجاج تعصب لنور الدين المشالى شحص يقال له شمس الدين الزنكلونى أحـد نواب الشافعية ، فكتب فتاوى على أن الرجل اذا زنى واعترف بالزنا ثم رجع عن ذلك الاعتراف فهل سقط عنه الحد أم لا ، فدار بهـذا السؤال على جماعة من العلماء ومشايخ الاسلام ، فكتب على ذلك السؤال الشيخ برهـان الدين بن أبى شريف المقدسى الشـافعى

وكتب عليـه جماعة آخرون من العلماء بمعنى ما أجاب به الشيخ برهان الدين بن أبى شريف أنه اذا رجع عن الاقرار يسقط الحد من رجم وغير ذلك من الحدود . فلما بلغ السلطان ذلك اشتد غضبه على القضاة وقال : « يامسلمين رجل يطلع الى بيت رجل ونفسق فى زوجته ويقبض عليه تحت اللحاف مع زوجته ويعترف الخصم بذلك ويكتب خط يده بما وقع منه ... يقولوا بعد ذلك له الرجوع !! » . فأمر بعقد مجلس بين يديه بالقلعة وأمر بأن القضاة الأربعة تحضر ومشايخ العلم قاطبة .

فلما كان يوم الخميس رابع عشرين شـوال حضر الأربعة قضـاة وهم : كمال الدين الطويل الشـافعى وعبد البر بن الشحنة الحنفى ومحيى الدين يحيى بن الدميرى المالكى وعز الدين بن الشيشينى الحنبلى ، فجلسوا عن يمين السلطان وحضر شيخ الاسـلام المنفصل عن القضاء زين الدين زكريا فجلس رأس الميسرة ، وجلس تحته الشيخ برهان الدين بن أبى شريف وحضر قاضى القضاة الشيخ برهان الدين القلقشندى المنفصل عن القضاء ، وحضر الشيخ برهان الدين بن الكركى الحنفى ، وحضر غير ذلك من مشايخ العلماء جماعة كثيرة منهم الشيخ نور الدين المحلى والشيخ عبد الحق السنباطى الشافعى وآخرون من المشـايخ والفقهاء . فلما تكامل المجلس أخذ السلطان يتكلم مع الشيخ زكريا والشـيخ برهان الدين بن أبى شريف ، فقال لهم : « كيف يكون رجـل متزوج بامرأة ويطلع الى بيته فيجد رجلا أجنبيا راقدا مع زوجتـه تحت اللحاف ويعترف بالزنا وتقولوا له الرجوع ؟ » . فقال له ابن أبى شريف : « شرع الله هذا » . وأراه النقل فى هـذه المسألة ، فلم

يلتفت الى النقول فى ذلك وقال : « أنا ما أنا ولى الأمر ولى النظر العام فى ذلك ؟ » . فقال له ابن أبى شريف : « نعم ولكن بموافقة الشرع الشريف . وان قتلتهما تلزمك ديتان عنهما » . فحنق منه وكاد أن يبطش به فى المجلس ، ثم التفت الى الشيخ زكريا وقال له : « ايش قلت انت فى هذه المسألة ؟ » . قال : « له الرجوع بعد الاعتراف . واذا رجع سقط عنه الحد » . فقال له السلطان : « هذا يبقى فى ذمتك » . فقال الشيخ زكريا : « ايش كنت أنا ؟ هذا فى ذمة الامام الشافعى صاحب المذهب » . فذكر على أن السلطان قال له : « أنت ذهلت ما بقى لك عقل » . ثم التفت الى قضاة القضاة ووبخهم بالكلام وقال : « اتو الأربعة قوموا لا ترونى وجوهكم قط » . فقاموا من ذلك المجلس وهم يتعثرون فى أذيالهم ، وكان لهم يوم مهول ، فانفصل المجلس مانعا وحصل فيه كل سوء من مقت السلطان لهم .

ثم ان السلطان عزل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف من مشيخة مدرسته وأشيع بنفيه الى القدس ، وعزل محيى الدين يحيى بن الدميرى من قضاء المالكية ومن خطابة جامعه ، واشتد غضبه على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، وكاد أن يبطش به . وكان عنده من المقدمين الأخصاء ، وكان يبات عنده ثلاث ليال فى الجمعة وكان من ندمائه ، ويسافر معه اذا شوط ، وصار بيده الحل والعقد فى أمور السلطنة ، فانقلب عليه كأنه لم يعرفه قط ، وكان بمنزلة جعفر البرمكى من هرون الرشيد ، الحمد لله .

ومما وقع فى ذلك المجلس بحضرة السلطان أن الشيخ نور الدين على المحلي قال للسلطان : « يا مولانا السلطان . ان الذى صدر من مشايخ الاسلام بصحة الرجوع فهو الحق ، وهو نص ما نقله الامام الشافعى وغيره من العلماء رضى الله عنهم أجمعين بعد القرار فى أمر الزنا فلا عبرة باقراره فى ذلك » . فقال له السلطان : « ان شاء الله تطلع الى بيتك فتجد من يفعل فى زوجتك الفاحشة كما فعل المشالى فى زوجة خليل » . فقال له الشيخ نور الدين المحلى : « عافانا الله من ذلك » . فشق كلامه على السلطان فى الباطن ، وانفض ذلك المجلس من غير طائل ، وحصل للعلماء فى ذلك المجلس غاية البهدلة ولا سيما ما حصل للشيخ برهان الدين بن أبى شريف وأمره مشهور . فكان كما يقال فى المعنى :

احذر مداخلة الملوك ولا تكن
ما عشت بالتقريب منهم واثقا
فالغيث غوثك ان ظمئت وربما
ترمى بوارقه اليك صواعقا

ويقال ان سبب تغير خاطر السلطان على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة أنه فى أول الأمر وافق السلطان على أن الرجل والامرأة يرجمان ، فلما أفتوا أنه اذا رجع عن الاقرار يسقط عنه الحد فوافقهم عبد البر على ذلك ، فقال له السلطان : « أنت تقرر معى شيئا وترجع عن ذلك ؟ كنت قلت لى هذا من الأول حتى عرفت أمر الرجوع بعد الاقرار » . فلما تحقق عبد البر أن السلطان متغيظ عليه دار على الأمراء وكاتب السر بأن يشفعوا فيه عند السلطان ، ثم ان السلطان رسم الى يحيى بن نكار دوادار الوالى بأن يسجن نور الدين المشالى الذى زنى ، فتوجه به الى المقشرة وتوجه بالامرأة الى الحجرة .

وبعد مضى الحجاج بخمسة أيام خرج ركب التكرور والمغاربة وعين معهم السلطان ثلاثة من الدللة يرشدونهم الى الطريق فتوجهوا بهم من

مخالص غير مخالص الحجاج . وفى هـذه السنة حج الأمير بقر بن الأمير أحمـد بن بقر شـيخ العرب ، وحج صحبته الجم الغفير من الفلاحين .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميـدان وجلس به وأرسـل أحضر شمس الدين الزنكلونى الذى دار على العلماء بالفتوى بسبب نور الدين المشـالى حين رجع عن الاقرار ، فلما حضر قال له السلطان : « يا زنكلونى ! حكمك أنت يمشى وحكمى أنا يبطل ؟ » . ثم بطحه على الأرض وضربه نحوا من ألف عصا وضرب أولاده الاثنين كل واحد نحوا من ستمائة عصا . وكان رفيقهم فى هذه المسألة ابن شريف الوكيل ، فلما بلغه ذلك اختفى ، وكان المتعصب عليهم فى ذلك القاضى شمس بن وحيش وأوحى للسـلطان أن الزنكلونى وأولاده قد أسـوا عليه وسـبوه فحرض عليهم السلطان حتى جـرى ما جـرى للزنكلونى . ثم ان السلطان رسم بنفى الزنكلونى الى الواح فنزلوا بالزنكلونى وأولاده وهم على وجـوههم راكبين على حمير والدم يسـيل من أكعـابهم .

وفى يوم الأربعاء سلخ الشهر أشيع بين الناس بأن الزنكلونى قد مات من شـدة الضرب ، وأن أولاده فى حال العدم .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قليوب ، وظن أن الشهر قد هل فى ذلك اليوم فنزل حتى لايقابل القضاة ولا ينظر اليهم ، وقد كثرت الاشاعة بعزل القضاة الأربعة .

* * *

وفى ذى القعدة كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع الخليفة وهنأ فى ذلك اليوم . فلما قام الخليفة من عنده ركب السلطان ونزل الى دار البقر حتى لا يجتمع على القضاة ، وكان القضاة قد جلسوا فى الجامع فلم يجتمع عليهم السلطان ونزل سير ، فلما بلغ القضاة ذلك نزلوا من القلعة بحمى حنين .

ومن العجائب أن من يوم عقد المجلس المقـدم ذكره وحصل ما حصل على القضاة بسبب الفتوى فى أمر الرجوع ، فصرح السلطان فى ذلك اليوم بعزل القضـاة الأربعـة ، فأقامت مصر شـاغرة نحوا من خمسة أيام لم يعقد فيها عقد نكاح ولا وقع فيهـا أحكام شرعية ، وأغلقت الشـهود دكاكينهم قاطبة ، وتعطلت أحوال مصر واضطربت فى تلك الأيام الى الغاية ، ورسم السلطان للوالى وقال له : « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران فاقبض عليه وأنا ألبسك كاملية مخمـل بسمور وأركبك فرس بكنبوش » . وأشيع بين الناس أن السلطان قال : « لا يدخل علىّ أحد من المباشرين وهو لابس عمامة » من بغضه فى الفقهاء ، فكان القراء اذا دخل أحد منهم على السلطان فيلبس له زمط وعليه شد ملفوف . وأشيع أن الزينى بركات ابن موسى لبس له تخفيفة ودخـل على السلطان فضحك عليه ، وكذلك القاضى عـلاء الدين ناظر الخاص لبس له تخفيفة ودخل على السلطان فقال له : « بقيت مثل المماليك الجراكسة » .

ومن الحوادث فى يوم مستهل هذا الشهر سقط ربع تجاه باب الوراقين على رأس عطفة الخراطين فقتل تحت الردم شخص يبـاع جزر ، فمات هو والحمار من وقته تحت الردم .

وفيه كثر الكلام بسبب عزل القضـاة ، فنزل السلطان الى الميدان ، فلما جلس به قام الأتابكى سـودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار وغير ذلك من الأمراء المقدمين والقاضى كاتب السر ، فقاموا فى صـعيد واحد وباسوا الأرض للسلطان ثم شفعوا فى القضاة الأربعة ، فلما سمع السلطان ذلك حنق على الأمراء

وحلف بحياة رأسه أنه ما يعيد أحدا من القضاة الى وظيفته وصمم على ذلك ، وقد قلت فى هـذه الواقعة :

سلطاننا عزل القضــاة لحادث
قد شاع فى مصر وعم الأسمعه
مذ خالفـوه وحاودوا عن أمره
نفـذ القضا فيهم بعزل الأربعه

ولم يتفق قط أن القضاة الأربعة يعزلون كلهم فى يوم واحد الا فى هذه الواقعة التى جرت ، فعد ذلك من الوقائع الغريبة .

ولما كان يوم الجمعة ثانيه أرسل السلطان يقول للقاضى كاتب السر : « أبصر لنا من يخطب ويصلى بنا صلاة الجمعة » . فذكر له الشيخ علاء الدين الاخميمى الشهير بالنقيب ، وكان يخطب فى جامع الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وكان علامة فى الخطب والقراءة فى المحراب ، فلما ذكر للسلطان قال : « أعرفه » . وكان تقدم للشيخ علاء الدين أنه خطب بالسلطان قبل ذلك عدة مرار فى أيام قاضى القضاة ابن أبى شريف وفى أيام قاضى القضاة ابن فرفور ، وكان الشـيخ علاء الدين له شهرة طائلة عند الأتراك ، وكان علامة فى الرمى بالنشاب عارفا به وكان له اليد الطولى فى ذلك ، وكان عارفا باللغة التركية ، وقد حوى كل فن من علوم شتى وهو نادرة عصره ، فأرسـل القاضى كاتب السر خلف الشيخ علاء الدين فتوجه اليه الحاج على الأسمر البرددار ، فقال له : « القاضى يقـول لك اطلع واخطب بالسلطان » . وكان يومئذ علامة عصره فى أمر الخطبة ، فقيل ان الشيخ علاء الدين لمـا أراد أن يطلع يخطب بالسلطان توجه الى قاضى القضاة كمال الدين الطويل واستأذنه فى ذلك قبل أن يطلع فقال له : « اطلع واخطب على بركة الله تعالى » . فطلع فى ذلك اليوم وخطب بالسلطان فترشح أمره بأن يلى القضاء ، وكان ذلك من الأمور الربانية والسر المكنون . وقيل فى أمثال الصادح والباغم فى المعنى :

الرزق بالحظ وبالتقـدير
وليس بالسعى ولا التدبير

ومنه :

تنــال بالرفق وبالتــأنى
ما لم تنـل بالحـرص والتعنى

وفى يوم الثلاثاء سادسه رسم السلطان بتوسيط مملوك من مماليكه وقد قتل قتيلا ، فلما عرضوه على السلطان أراد ضربه بين يديه فتعترس قدام السلطان فحنق منه فرسم بتوسيطه ، فوسـطوه فى الرملة . .

وفى يوم الأربعاء سابعه كانت كاينة نور الدين المشالى والامرأة ، وذلك أن السلطان رسـم بشنقهما ، فأمر يحيى بن نكار بأن يتوجه الى دار الشيخ برهان الدين بن أبى شريف وينصب على بابه مشنقة ، وكان ساكنا فى بيت أبى البقا بن الجيعان فى حارة أولاد الجيعان ، وكان السلطان تقصـد دلك عمدا بسبب المقت فى حق ابن أبى شريف لكونه أفتى بأمر الرجوع ، فاشتد غضب السلطان عليه بسبب ذلك ، وأشـيع بنفيه الى القدس بطالا . فلما توجه يحيى بن نكار دوادار الوالى الى بيت ابن أبى شريف ونصب المشـنقة على بابه ظن عياله أن الشـيخ هو الذى يشنق فقاموا بالصراخ واللطم والبكاء ، ثم أسـفرت القضية على شنق نور الدين المشالى والامرأة ، فنصـبوا لهما مشنقة على باب ابن أبى شريف وأحضروا نور الدين المشالى من المقشرة وأحضروا الامرأة من الحجرة وشنقوهما على باب ابن أبى شريف ، ورسم السلطان بأن يشنقا فى حبل واحد ويجعلوا وجه الرجل فى وجـه الامرأة ، فصلبت

الامرأة وهى بازارها وعليها أثوابها مسبولة ، فلما شنقا جاء الناس أفواجا أفواجا يتفرجون عليهما من كل فج عميق ، وقد قلت فى هذه الواقعة :

لقد صلب السلطان من كان زانيا
وأظهر فى أحكامه مسلكا صعبا

فقلت لأرباب الفسوق تأدبوا
فحد الزنا قد صار فى عصرنا صلبا

وفى ذلك يقول الأديب محمد بن الصايغ .

أيا لهما من عاشقين عليهما
قضى من قضى بالموت حتما وأشنقا

فقلباهما عند الحياة تألفا
وجسماهما عند الممات تعلقا

بعضهما متعلقان ولو يكن
لجسميهما روحان كانا تعانقا

وقد تقدم للأشرف قايتباى أنه صلب جارية بيضاء جركسية من جوار حريمه وقد حملت من بعض مماليكه فى طريق الحجاز ، فلما وضعت ذلك الجنين قتلته من خوفها ، فلما بلغ السلطان ذلك شنقها لكونها قتلت قتيلا ، فصلبها فى طريق حدرة ابن قميحة عند درب نكار على شجرة عند الأحواض ، فصلت بازارها ، وأما المملوك فخصاه وقطع محاشمه ، فعد ذلك من النوادر .

فأقام نور الدين المشالى والمرأة التى زنى بها يومين لم يدفنا ثم شاوروا السلطان فى دفنهما فأذن فى ذلك ، وكان لهما يوم مهول .

وفى ذلك اليوم أرسل السلطان يقول لناظر الخاص : « اطلع غدا معك بأربعة تشاريف لأجل القضاة الأربعة » .

فلما كان يوم الخميس ثامن هذا الشهر طلب السلطان القضاة الذين عزم على ولايتهم فحضر الشيخ علاء الدين ابن الشيخ جلال الدين الاخميمى النقيب والشيخ شمس الدين السمديسى امام مدرسته ومؤدب ولده والشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم والشيخ شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد العزيز الفتوحى الشهير بابن النجار ، فلما حضروا أفاض عليهم التشاريف وأحضر لهم أربعة بغال مكفية بالعدد الفاخرة ، فقرر الشيخ علاء الاخميمى فى قضاء الشافعية عوضا عن القاضى كمال الدين الطويل بحكم انفصاله عن القضاء ، وقرر الشيخ شمس الدين السمديسى فى قضاء الحنفية عوضا عن القاضى عبد البر بن الشحنة بحكم انفصاله عن القضاء ، وقرر الشيخ جلال الدين بن قاسم فى قضاء المالكية عوضا عن محيى الدين يحيى ابن الدميرى بحكم انفصاله عن القضاء ، وقرر الشيخ شهاب الدين الفتوحى فى قضاء الحنابلة عوضا عن عز الدين الشيشينى بحكم انفصاله عن القضاء ، فخلع السلطان على الأربعة قضاة فى ساعة واحدة حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، فلما نزلوا من القلعة تلقاهم جماعة النواب من الأربعة المذاهب فكانوا نحوا من ثلاثمائة نائب فرجت لهم القاهرة .

وفى القاضى علاء الدين الاخميمى يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

قاضى القضاة علاء الدين أنت لها
كفء لتنفيذ أحكام بأحكام

خليفة الشافعى فى الحكم صرت فدم
جبرا اذا لاح كسر الدين كلام

يعنى كالمرهم فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا فشقوا من القاهرة فى موكب حافل ، وكان قدامهم العلاء ناظر الخاص وجماعة من أعيان الناس ، فاستمروا فى هذا الموكب حتى نزلوا بالمدرسة الصالحية النجمية كما جرت به العادة ، فاصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ولاقتهم

الرسل مشاة يقولون : الدعا لمولانا السلطان بالنصر أدام الله أيامه ، ولم يقع قط فيما تقدم من الدول الماضية أن السلطان ولى القضاة الأربعة فى يوم واحد ، فعد ذلك من النوادر الغريبة التى لم يسمع بمثلها قط .

[1] وقد وقع فى أيام الظاهر خشقدم أنه ولى قاضى القضاة صلاح الدين المكينى عوضا عن قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى ، وولى قاضى القضاة برهان الدين الدميرى عوضا عن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى ، فنزلا من القلعة وعليهما التشاريف فى يوم واحد ، فعدوا ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما بولاية هؤلاء الأربعة فى يوم واحد . وأعجب من هذا أن السلطان لم يأخذ من هؤلاء القضاة الذين تولوا ولا الدرهم الفرد ، وقد فاته فى ولاية هؤلاء القضاة الأربعة نحو اثنى عشر ألف دينار ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما من الأشرف الغورى فكانت ولايتهم على وجه العز والاقبال من غير سعى ولا كلفة بخلاف ما وقع لغيرهم من القضاة فيما تقدم ، فعد لهم ذلك من جملة السعد ، وقد قلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات :

امام الورى ولى قضاة لشرعنا
فهم أربع وهى البدور الطوالع
فمنهم علاء الدين قاض معظم
بدا نوره بين الورى وهو ساطع
ومنهم امام جيد شاع زهده
على مذهب النعمان لله طائع
ومنهم عريق الأصل من نسل قاسم
أتى مالكى للموطأ تابع
ومنهم فقيه تابع لابن حنبل
أتته فتوح العلم أولاه صانع
بهم بنية الاسلام صحت وكيف لا
تصح وهم أركانها والطبائع
فلا عجب ان وسع الله فى الهدى
مذاهبنا بالعلم فالشرع واسع

وكان السلطان لما ولى هؤلاء القضاة قرر معهم بأن يخفوا من نوابهم .

فلما كان يوم الجمعة طلع القاضى علاء الدين وخطب بالسلطان ، فلما انتهى أمر الصلاة عرضوا على السلطان قوائم بأسماء النواب من الأربعة مذاهب ، فرسم للقضاة الأربعة بمائة نائب : للقاضى الشافعى أربعين نائبا ، وللقاضى الحنفى ثلاثين نائبا ، وللقاضى المالكى عشرين نائبا ، وللقاضى الحنبلى عشرة نواب . وقرر معهم ألا يولوا أحدا من النواب الا باذنه ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة وأشيع سفره الى وادى العباسة ، فلما نزل توجه الى قبة يشبك التى بالمطرية فبات بها ، وكان صحبته الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة ، خلا أمير آخور كبير وطقطباى نائب القلعة وخاير بيك الخازندار ، فكان معه الجم الغفير من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية ، فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم . فأقام السلطان فى قبة يشبك الى يوم الأحد فرحل من هناك هو والأمراء قاطبة ، وكان صحبته من البيرق والسنيح ما يعادل سفر البلاد الشامية .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره توجه قاضى القضاة الشافعى علاء الدين الأخميمى الى درس المدرسة الصالحية النجمية ، وهو أول حضوره الى الدرس ، فتصدر للتدريس بها فأبدى فوائد كثيرة وقواعد جليلة مع الفصاحة وحسن التأدية ، فقال فى ذلك

صاحبنا الشيخ شمس الدين أبو اليمن السنهورى وأجاد فى ذلك حيث قال :

لـدرس الصـالحية جئت حبـا
الى قاضى القضـاة أبى العـلاء
عـلاء الدين الأخميمى أبدى
قواعـد مـن علوم مـع ثنـاء
ولا عجب لمـا أبدى فان الـ
قواعـد من تآليف العـلاء

وقال الناصرى محمد بن قانصوه :

قاضى القضـاة علاء الدين أنت لها
كفؤ لتنفيذ أحـكام بأحـكام
خليفة الشافعى فى الحكم صرت فدم
جبرا اذا لاح كسر الـدين كلام

ولما تم أمر القـاضى علاء الدين فى القضاء جاء على الوضع وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، وله يد طائلة فى معرفة أمور القضاء ، فكان كفؤا لذلك ، وكان دينـا خيرا ما عهـد له صبوة قط ، مطرح النفس عفيفا عن الرشوة من حين كان نائبا والى أن بقى قاضى القضـاة ، فهو من أهل الفضـل والدين ، ثم انه قرر الشيخ محلى بأن يتولى أمور بابه بما يرد عليه من الفتاوى وغير ذلك .

وفى يوم الثلاثاء المقدم ذكره كانت وفاة الأمير جـانم السـيفى قانى باى الفهـلوان الذى كان دوادار الأمير يشبك بن مهـدى الدوادار ، وجانم هذا هو الذى أنشأ المدرسة اللطيفة التى تجـاه جامع قوصـون ، وكان دينا خـيرا لا بأس به ، وكان قد كبر وطعن فى السن .

وفيه حضر سيف تمراز نائب قلعة حلب ، وكان تولى نيابة قلعة البيرة وعينتاب

وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بوفاة الجويلى شيخ مشـايخ عربان البحيرة ، وكان محمـود السيرة فى طرد العربان المفسدين عن البلاد ، وكان فى سعة من المال ، فلما مات تقرر بعده ابن أخيه فى مشيخة البحيرة .

وفى يوم الخميس خامس عشره فرقت الجامكية فى غيبة السـلطان ، فحضر الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير خـاير بك الخازندار وشمس الدين ابن عوض وكتاب المماليك ، وفرقت الجامكية على العسكر وحصل السداد فى غيبة السلطان .

وفى يوم الجمعة سـادس عشره كان السلطان مسافرا ، فلم يطلع القاضى الشافعى فى ذلك اليوم ولم يصل بالقلعة ، بل صلى فى جامع الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، ولم يخطب هو به فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت سابع عشره عاد السلطان من تلك السرحة وقد وصل الى العكرشا ثم عاد ، فكانت مدة غيبته فى هـذه السرحة ثمانية أيام ، وقد تكلف الأمراء كلفـة زائدة ، وكان أشيع أنه يسرح فى البـلاد الشرقية ويتوجـه الى وادى العباسة فلم يصح ذلك ، ولما رجل نزل بالوطاق بالريدانية وبات به ليلة الأحد وأحرق هنالك احراقة نفط ، فلما كان يوم الأحـد أوكب السلطان من هنـاك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ولبس التخفيفة الناعورة ، وركب قدامه الأمراء قاطبة والمباشرون ، ولاقته القضاة الأربعة من رأس الحسينية ، ولم تكن هذه عادة أن السلطان اذا خرج وشوط تلاقيه القضاة الأربعة ، ولكن عملوا ذلك خـدمة له كونهم تولوا جـددا ، فشق من القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، على حكم الموكب المقدم ذكره قبل ذلك ، وقـد

انشرح فى هذه السفرة وتصيد ودخل عليه تقادم كثيرة من كاشف الشرقية وشـيخ العرب ، من خيـول وبقر وغنم وغـير ذلك ، ولكن حصـل للمقطعين غاية الضرر . وقد أفرد الكاشف وشيخ العرب على البلاد خيولا وأغناما وأبقارا ومبلغا ، وحصل بسبب ذلك ما لا خير فيه . وكان السلطان أخذ معـه محفة على أنه يتوجه من هنـاك الى السويس ، فلم يتم له ذلك ورجع عن قريب .

وفيه كانت وفاة الزينى فرج أحـد الأمـراء المقدمين الألوف ابن برد بك أحد الحجاب ورأس باش البريدية ، وكان من أعيـان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما من ذوى العقول ، وقاسى فى أواخر عمره شـدائد ومحنا ، وصودر وأقام فى الترسيم مدة طويلة ، وباع جميع ما يملكه ، وكان شاخ وكبر سنه وجاوز الثمانين سنة من العمر .

وفى يوم الاثنين سـادس عشرينه توفيت نور كلدى الجركسـية زوجة الأمـير خـاير بك أحد المقدمين الذى كان كاشف الغربية ، وهى بنت أخت خوند الجركسية قرابة الملك الظاهر جقمق ، وكانت شابة جميلة حسنة ، فكان لها مشهد حافل ، ومشت قدامها الأمراء قاطبة ، وصـلى عليها فى سبيل المؤمنين .

* * *

وفى ذى الحجة كان مسـتهل الشـهر يوم الجمعة ، فصعد الخليفة للتهنئة بالشهر ، وصعد القضـاة الأربعة الذين تولوا جـددا ، فجلس كل منهم فى منزلته على العادة ، وكان السـلطان فى الميدان .

وفى يوم الاثنين رابعه رسم السـلطان لنقيب الجيش بأن يقبض عـلى أولاد الزنكلونى الذى مات تحت الضرب ، فشكهما فى الحديد ، ورسم له السلطان بأن يرسلهما الى جهة الواح فى مكان يسمى «موط» ، وهو كثير العقـارب والهوام ، فقبض عليهما وأرسل صحبتهما متسفرا ، وأخـذ منهما خمسة عشر دينارا . وقد كفى ما جرى عليهما .

وفى يوم الأحد كان عيد النحر ، وكانت الأضحية مشتطة فى السعر ولا توجد بسبب أذى المماليك وخطفهم للأغنام والأبقار ، وأعجب من هـذا أن الملح حرج السلطان على بيعه وحكره ، فعز وجود الملح حتى بيـع كل أردب ملح بثمانمائة درهم . وهذا قط ما اتفق فيما مضى من السـنين ، وعز وجود الفحم حتى بيع كل قنطار بثمانية أنصاف ، وكذلك الشـعشاع حتى عد ذلك من النـوادر الغريبة .

وكان السلطان حرج على بيع الخشب السنط بسبب عمارة المراكب ، وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطـان غصبا باليـد ويرسـلونه الى السويس لأجل عمارة المراكب التى هناك ، وعز الكبريت أيضا حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف ولا يوجد الا قليلا .

وفى يوم السبت سادس عشره نزل السلطان باكر النهار وعدى الى بر الجيزة ، وكان صحبته الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلخانات والعشراوات والجم الغفير من الخاصكية والمماليك السـلطانية ، فنصب له وطاقا فى المنية وأشـيع بين الناس أنه يتوجه من هناك الى جهة الفيوم حتى يكشـف على الجسر الذى عمره الأمير أرزمك الناشف ، وكان تقدم له أنه فى أواخر السنة الخالية توجه أيضـا الى الفيوم . ثم ان السلطان أخذ صحبته محفة فتحقق عند الناس أنه لا بد أن يشوط من هناك الى مكان يختاره .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره أنفقت الجامكيـة على العسكر فى غياب السلطان .

وفى أثناء هذا الشهر قتل شخص من المماليك السلطانية يقـال له برسباى حداية ، وكان أصله من مماليك الظاهر خشـقدم ، فوجدوه مذبوحا فى داره هو وعبـده ولا يعلم من قتله . ويقال ان بعض المماليك الأجلاب قتله لأجل اقطاعه ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره جاءت الأخبار بأن السلطان لمـا توجه الى بر الجيزة نزل بالمنية التى عند انبابة ، ثم توجه من هنـاك الى المنصورية ونصب بها الوطاق هو والأمراء وأقام بها أياما ، وصار يركب من هناك ويسير ويتصيد ، وقيل أنه توجه الى جسر أم دينار وكشف عليه ثم رجع الى الوطاق .

ثم انه فى يوم الجمعة رحل من المنصورية وعاد الى انبابة فأقام بها فى ذلك اليوم ، وكان أشيع بين الناس بأن السلطان بحرق هناك فى ليلة السبت احراقة نفط ، فتوجهت اليه الناس أفواجا أفواجا بسبب الفرجة فلم يصح أمر النفط هناك ، وقد استخف عقل السلطان جمـاعة من الأمراء فى هذه التشوطة التى شوطها فى هذه الأيام الشاتية ، وقد حصل للأمراء والعسكر غاية الكلفة والمشقة من غير سبب يوجب ذلك . وكان السـلطان آخـذ صحبته محفة وقويت الاشـاعة بين النـاس بأن السلطان يتوجه من هنـاك الى الفيوم وقيل الى ثغر الاسكندرية فلم يصح ذلك .

فلمـا كان يوم السبت ثالث عشرينـه صـلى السلطان العصر بالوطاق ، ثم عدى من هناك الى بولاق وقصد التوجه الى القلعة ، فطلع من على قناطر السباع وشق من الصليبة ، وكان فى موكب هين بخلاف ستة أنفس وهم : الأمير طومان باى الدوادار والأمير علان الدوادار الثـانى أحـد المقدمين والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير تمر أحد المقدمين والأمير خـاير بك الكاشف أحد المقـدمين والأمير ماماى جوشن أحـد المقدمين وبعض أمراء عشراوات وبعض خاصكية مشـاة . وكان قدامه جماعة من أرباب الوظائف من أعيان المباشرين ، خلا القاضى كاتم السر ابن أجا فانه كان عليلا منقطعا عن الركوب ، وكان السـلطان والأمراء بتخافيف صـغار وسـلاريات صـوف بسمور . وكان قدام السلطان بعض جنائب ونوب هجن ، وكان قدامه طبلان وزمران والنفير البرغشى فطلع الى القلعـة قبـل المغرب بخمس درجات . فكانت مدة غيبته فى هذه التشوطة ثمانية أيام .

وفى يوم السبت المقدم ذكره حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وقد وصل من مكة الى القاهرة فى أحد عشر يوما فعد ذلك من النوادر .

وقد خرجت هذه السنة المباركة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة وقع فيها الرخاء فى سائر الغلال ، وأخصب فيهـا الزرع والفواكه والبطيخ ، وكان النيل فيها عاليا وثبت الى أواخر بابه ، وكانت سـنة مباركة غير انها كانت كثيرة الحوادث ، ووقع فيها الطاعون فى أوائلها ، وحصل فيهـا توعك للسـلطان فى عينه حتى أشرف على العمى ثم شفى من ذلك . وحصل فيها عزل للقضاة الأربعة فى يوم واحد وولى السلطان أربعة قضاة عوضـهم فى يوم واحـد ، وكان السلطان أبطل المجامعة والمشـاهرة التى كانت تؤخذ من جهات الحسـبة ففرح الناس بذلك . ثم بدا للسـلطان اعادة ما أبطله من وجوه المظالم فشق على الناس ذلك ، وكانت جهـات الشرقية والغربيـة فى غاية الاضطراب بسبب فسـاد العربان لموت الجويلى

وجور الكشاف ومشايخ العربان ، والأمر فى ذلك كله الى الله تعالى .

سنة عشرين وتسعمائة (١٥١٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان مستهل الشهر يوم الأحد المبارك ، فكان الخليفة يومئذ الامام المتوكل على الله محمد بن الامام المستمسك بالله يعقوب ابن الامام المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان الديار المصرية الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره . وأما القضاة الأربعة أئمة الدين فالقاضى السافعى علاء الدين الأخميمى ، والقاضى الحنفى شمس الدين بن النقيب محمد السديسى الامام ، والقاضى المالكى جلال الدين عبد الرحمن ابن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، وأما الأمراء المقدمون فالأمير سودون بن جانى بك الشهير بالعجمى أتابيك العساكر بالديار المصرية ، والأمير أركماس بن ولى الدين أمير مجلس . وكانت امرة السلاح يومئذ شاغرة ، وبقية الأمراء المقدمين على حكم ما ذكر فى السنة الخالية . وفى هذه السنة تكاملت عدة الأمراء المقدمين سبعة وعشرين مقدم ألف ، ويأتى الكلام على أسمائهم فى مواضعه ، وذلك خارجا عن امرة السلاح فانها كانت شاغرة .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية ، وبقية المباشرين على حكم ما تقدم ذكره فى السنة الخالية .

فلما كان مستهل الشهر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ، فبالغ السلطان فى اكرامهم وقام اليهم فسلموا ونزلوا الى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء ثالثه جلس السلطان بالميدان وعين الى خاصكيته خوذا ولبوس خيل من خاصات البركستوانات ، وقبل ذلك بمدة فرق عليهم سيوفا مسقطة بفضة وزرديات عال ، حتى فرق عليهم التراكيش والفسى وقد اعتنى بهم بخلاف من تقدمه من الملوك ، فانه كان ينعم عليهم فى الباطن والظاهر بالمال والاقطاعات والقماش الفاخر وغير ذلك .

وفى يوم الأربعاء رابعه وجد فى سوق الغنم شخص من المماليك القرانصة وهو قتيل ، وقد خنق بوتر فى رقبته وعروه من أثوابه ورموه على قارعة الطريق ولم يعلم من قتله ، فقيل ان ذلك من فعل المماليك الأجلاب بسبب اقطاعه ، وقد فعلوا مثل ذلك بجماعة كثيرة من المماليك القرانصة بسبب اقطاعاتهم ، فقتلوا ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وقد اضطربت الأحوال فى هذه الأيام الى الغاية وصار المماليك يقتلون من يلوح لهم عليه مضرب لأجل اقطاعه ، واذا عرضوا من يقتل على السلطان فيتغافل عن ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الخميس خامسه تغير خاطر السلطان على الأمير جانى بك الأستادار فقبض عليه وأودعه فى الترسيم حتى يقيم الحساب ، فانتدب الى عمل حسابه شمس الدين بن عوض والشرفى يونس النابلسى الذى كان استادارا ، فالتزموا بأن يبقوا عليه فى حساب الديوان المفرد خمسة وثلاثين ألف دينار ، فاستمر فى الترسيم بالقلعة حتى يكون من أمره ما يكون ، وكان جانى بيك ظالما عسوفا غير محبب للناس ، فلم يرث له أحد فى هذه الكائنة التى وقعت له .

وفى يوم السبت سابعه تعطل اللحم الذى كان يطلع الى طباق المماليك الأجلاب فضجوا فى ذلك اليوم وكادت أن تقع فتنة كبيرة ، وكان الوزير يوسف البدرى مسافرا فى جهة البحيرة وديوان الدولة فى غاية الاضطراب ، وقد تعطلت لحوم جماعة من المماليك القرانصة نحوا من ستة أشهر

لم تصرف لهم من حين عزل المعلم على الصغير ومات عقيب ذلك ، فكثر الكلام فى حق السلطان من المماليك وربما ينتشى من ذلك فتنة ، وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه البضائع فى السنة الخالية ، وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحوا من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط ، وكانت جهة البحيرة فى هذه الأيام فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان من حين مات الجويلى وولى ابن أخيه عوضه .

وفى يوم السبت المذكور نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، وأقام بها ذلك اليوم ... كل هذا من ضيقة حضيرته من أجل هذه الأحوال التى هى غير صالحة ، والأمر الى الله .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره جلس السلطان بالحوش وعرض جماعة من خاصكيته فقط وفرق عليهم خوذا نحو ثمانمائة خوذة ، وفرق عليهم أيضا بركستوانات ما بين مخمل ملون وفولاذ وذلك نحو ستمائة بركستوان ، وكان قبل ذلك بمدة يسيرة فرق عليهم زرديات وأتراسا ورماحا بسن وسيوفا مسقطة بفضة ، وفرق عليهم أيضا تراكيش وقسيا ونشابا . وكان ذلك بالزردخاناه من مواجيد المماليك الذين ماتوا فى الفصل فى السنة الخالية ، ولم يفرق موجودهم الا فى هذا الشهر .

وفى يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وفى هذا الشهر حسن ببال السلطان أن يضيف الطبقة الخامسة التى جددها برسم العسكر الملفق ، فوزع ذلك العسكر على الطباق الأربع كما كانوا فى الأول ، وأبطل أمر الطبقة الخامسة ، وصار العسكر شيئا واحدا فى تفرقة الجامكية .

وفى يوم الخميس تاسع عشره دخل الحاج الى بركة الحاج ، فدخل الركب الأول وقد جد فى السير أمير الحاج طومان باى حاجب ثانى ، فخرق العوائد فى دخوله فى التاسع عشر من المحرم ، فدخل القاهرة وطلع الى القلعة فى يوم الجمعة عشرينه ، فخلع عليه السلطان وشكره على ذلك .

وفى يوم السبت حادى عشرينه دخل المحمل الشريف الى القاهرة وطلع أمير ركب المحمل الأمير قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره فى موكب حافل ، ورجعا والحجاج راضية عنهما فيما فعلاه فى طريق الحجاز .

وفى هذه السنة رجع من الحجاز القاضى شمس الدين التتاى المالكى أحد النواب ، وكان مجاورا بمكة ثلاث سنين .

ورجع سيدى خليل ابن عم الخليفة ، وكان مجاورا بمكة فرجع وهو مريض على خطة لايعى ، فلما توجه الى داره أقام بها الى يوم الاثنين ثالث عشرينه وتوفى الى رحمة الله تعالى . وهو خليل ابن محمد بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله العباسى الهاشمى القرشى . وكان رئيسا حشما بهى المنظر شائب اللحية ، وكان فى عشر السبعين لما مات ، فكان له جنازة حافلة ودفن على أبيه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وقد كبر سنه وشاخ ولم يل الخلافة ، لاهو ولا أبوه محمد ولا جده يعقوب ، وكان خليل هذا طامعا بأن يلى الخلافة فلم يقسم له ذلك وجاءه الموت على غرة ، فمات وفى قلبه من الخلافة حسرة ، ففاته نيل

الخلافة ، وعانده الدهر فيما أمله بخلافه . وقد قلت فى المعنى :

مات سيدى خليل بالقهر لما
لم ينل بالخلافة التفضيلا
وتولى عنه الزمان بريب
وكذا الدهر لا يراعى خليلا

وكان سيدى خليل عنده رهج وخفة وكان أهوج فى نفسه ، وقد جرى بينه وبين ابن عمه أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب بسبب الخلافة ما لا خير فيه . وقد تقدم ما وقع لهما فى سنة أربع عشرة وتسعمائة ، فما أبقى سيدى خليل ممكنا فى أذى ابن عمه الخليفة يعقوب ، وقد ذكرنا ذلك فى موضعه ، ومات والعداوة واقعة بينهما ، وقد كفى الله الخليفة يعقوب وولده محمد المتوكل على الله شر خليل بصبرهما عليه . وقد قيل فى المعنى :

اصبر على مضض العدو
فان صبرك قاتله
النار تأكل بعضها
ان لم تجد ما تأكله

وفى يوم الاثنين ثالث عشرين المحرم فيه خلع السلطان على الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق وقرره أمير حاج بالركب الأول فبكى وشكا من ذلك ، وكان فقيرا لايحمل حاله ذلك ، فلم يلتفت السلطان الى شكواه ولارق له ، وقد خالف السلطان العوائد القديمة فى لبس أمراء الحاج فى شهر المحرم ، وكانت العادة القديمة بأن يلبسوا بعد المولد فى شهر ربيع الأول ، فبادر السلطان وألبسهما فى هذا الشهر وعجل بذلك .

وفى أواخر هذا الشهر جاءت الأخبار من مكة بوفاة قطلباى باش المجاورين ، فلما تحقق موته خلع السلطان على شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جانى بك قرا وقرره فى باشية مكة عوضا عن قطلباى بحكم وفاته بمكة .

وفيه خلع السلطان على شخص من المماليك يقال له يونس ، وقرره ترجمانا عوضا عن تغرى بردى الترجمان ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين تغير خاطر السلطان على تغرى بردى كما تقدم ذكر ذلك . وكان يونس هذا قبل ذلك من جملة الزردكاشية ثم بقى نائب الترجمان ثم بقى ترجمانا كما كان تغرى بردى .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه عرض السلطان جماعة من خاصكيته وعين منهم نحوا من ثلاثمائة خاصكى ليتوجهوا معه الى السويس بصحبته . ثم عين بعد ذلك جماعة من الأمراء المقدمين ليتوجهوا صحبته الى السويس ، فعين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار قرابة السلطان ، وعين الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين ، والأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين . وعين جماعة من الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف منهم مغلباى الزردكاش ، وجماعة آخرين من الأمراء العشراوات ، فلما عينهم شق عليهم سفر السلطان الى السويس لعدم الماء والكلفة .

وفيه نزل السلطان وعدى الى الروضة وأقام فى خرطوم الروضة ذلك اليوم ، وكان نهار غيم فانشرح فى ذلك اليوم ، وأحضر له الزينى بركات ابن موسى هناك مآكل فاخرة وأسمطة حافلة ، فأقام هناك الى بعد العصر وعدى وطلع القلعة وشق من الصليبة فى نفر قلائل من الخاصكية ، وكان صحبته الأمير خاير بيك الخازندار أحد

الأمراء المقدمين وآخرون من الأمراء العشراوات .
وفى يوم السبت ثامن عشره صلى السلطان صلاة الفجر ، ونزل من القلعة فتوجه الى الريدانية ونزل بالوطاق الذى نصب هنـــاك ، وجلس بالمخيم الشريف ، وخرج صحبته الأمراء المعينون المقدم ذكرهم ، فأقام السلطان بالوطاق من يوم السبت الى يوم الأربعـــاء ، وقد قصـــد التوجه الى نحو السويس ليكشف على المراكب التى أنشأها هناك .
وكان صحبته من المباشرين القاضى شـــهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر وأخوه كريم الدين وأولاد الملكى كاتب الخزانة وأبو البقا ناظر الاسطبل وناظـــر الخاص علاء الدين وأولاده ابن فخـــيرة كتـــاب المماليك وآخرون من أعيـــان المباشرين .
وأخـــذ السلطان صحبته الصنجق السلطانى والكوسات والطبول والزمور ... وأخذ صحبته محفة بغشى أطلس أصفر وطلبـــا حربيا ، ورسم للعسكر الذين صحبته بأن يأخـــذوا معهم اللبس الكامل من زرديات وبركستوانات وخوذ وغير ذلك من آلة السلاح ، فلما تحقق العسكر خروج السلطان ماجت القاهرة لخروجه وتكالب العسكر على مشترى قرب وبقسماط وغير ذلك من احتياج السـفر ، ولم يعهد قط من سلطان أنه خرج الى السويس وســـافر على هـــذا الوجه . ولما كان السلطان فى الوطاق خلع على شخص من الأمراء العشراوات يقـــال له جانى بك قرا فقرره باش المجاورين بمكة ، ولمـــا نزل السلطان من القلعة شـــق من بين الترب حتى نزل بالوطاق ، فرسم للوالى بأن يشهر المناداة فى القاهرة عن لســـان السلطان بأن لا مملوك ولا ابن ناس ولا غـــلام ولا عبد يخرج من داره من بعـــد المغرب ، وان لا أحـــــد يمشى بســـلاح ولا مملوك يغطى له وجه ، ولا يعبث على متسبب . فلما أشهر النداء بذلك ارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فصار الوالى يكرر هذه المناداة فى القاهرة ثلاثة أيام متوالية .

* * *

وفى صفر كان مستهل الشـــهر يوم الثلاثاء ، وكان السلطان مقيما بالوطاق فتوجه اليه الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فبالغ السلطان فى اكرامهم ، ولا سيما أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فان فى ذلك اليوم توجه أبو بكر وأخوه أحمد أولاد سيدى خليل ابن عم الخليفة الذى توفى فرافعوا أمير المؤمنين المتوكل عند السلطان بسبب المرتب الذى كان لوالدهم خليـــل ، فان الخليفة المتوكل لما ولى الخلافة زاد فى مرتب سيدى خليل حتى قطع بذلك لسانه عنه ، فلما توفى ســـيدى خليل قرر الخليفة ما كان زاده فى مرتب سيدى خليل لولده سيدى هرون ، فلما سمع السلطان كلام أولاد سيدى خليل تعصب للخليفة ونهر أولاد سيدى خليل وقال لهما : « اذا زاد فى معلوم أبوكم شىء حتى قطع به لسانه عنه فلما مات أقول له اجعل الذى زدته لخليل من بعـــده لأولاده . أنا أحكم عليه فى شيه . اخـــرجوا عنى لا ترونى وجوهكم قط » . ثم قال : « والله ان يرجع أحد منكما يشكو من الخليفة عندى ما يحصل له معى خير . اخرجوا من وجهى نزقتونى » . وكان الذى بالغ فى مرافعة الخليفة أبو بكر بن سيدى خليل وأخوه أحمد ، ثم قال لهما : « كونوا كلكم تحت طاعة ابن عم أبيـــكم » فخرجا من بين يديه وهما يتعثران فى أذيالهما ، ونصر الخليفـــة المتـــوكل عليهما ، وقرر الخليفة ما كان زاده لخليل وجعله لابنه هرون ، ولم يطلع من يد أولاد خليل فى حق الخليفة شىء وانتصف عليهما ، ورجع الخليفة من عند السلطان وهو فى غاية العز والعظمة .

ثم ان السلطان أقام بالوطاق الى يوم الأربعاء ثانى الشهر ، فرحل من الريدانية بعد الظهر وتوجه الى الخانكاه فتعشى هناك ، ثم رحل وقصد التوجه الى نحو السويس ، ورجع بقية الأمراء الذين لم يسافروا مع السلطان ، فلما رحل من الخانكاه جاءت الأخبار بأن الماء الذى حمله السلطان معه فى القرب قد فسد جميعه من القرب كونها كانت جديدة فصار الماء أحمر كالدم وتتن ودود ، وكان السلطان حمل معه نحو ثلاثة آلاف قربة ، ففسد ذلك الماء جميعه .

فلما كان يوم الجمعة رابعه أرسل السلطان الى الأمير خاير بك الخازندار والزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يرسلا اليه جمال السقايين بالروايا والماء ، فعند ذلك قبض الزينى بركات بن موسى على جمال السقايين الذين بالقاهرة فاختفى بقية السقايين وأخفوا الجمال ، فعند ذلك ماجت القاهرة واضطربت لأجل منع الماء ، واشتد عطش الناس ، وصار الأمراء والعسكر الذين بالقاهرة ينقلون الماء فى الجرر على ظهور الخيل والبغال ، وبقية الناس ينقلون الماء بالجرر على ظهور الحمير ، واستمرت القاهرة أربعة أيام لم يلح بها راوية ماء على جمل . وقبض الزينى بركات بن موسى على نحو مائة وعشرين جملا برواياها وأرسلها الى السلطان . فبلغ بعد ذلك سعر كل قربة ماء نصفين فضة ولا توجد . وصار الناس يشربون من الصهاريج والآبار العذبة فى مدة ذلك الاضطراب . وقد قلت فى هذه الواقعة :

مذ عطلت مصر من سقا يلوح بها ،
لما أحل بها السلطان بلواء
وقد بقينا لفقد الماء من ظمأ
مثل البنات العذارى نشتهى الماء

وقال آخر :

سبحان من يحكم فى خلقه
بعدله فيهم ولو شاء بطش
خوفهم بالجوع لم ينتهوا
عذبهم من بعده بالعطش

وفى يوم الأربعاء تاسعه جاءت الأخبار بأن السلطان عاد من السويس ونزل ببركة الحاج ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ثمانية أيام . وقاسى العسكر فى هذه المدة اليسيرة غاية المشقة ، ومات لهم عدة بغال ووقع فيهم عطشة شديدة . وتكلف الأمراء والعسكر فى هذه السفرة كلفة كبيرة . فلما بلغ الخليفة والقضاة الأربعة مجىء السلطان توجهوا اليه نحو بركة الحاج ، وذلك فى يوم الخميس عاشر صفر ، فلما سلموا عليه وهنوه بالسلامة بالغ فى اكرامهم ، ثم توجه اليه الأمراء والعسكر الذين كانوا بالقاهرة فخرجوا اليه قاطبة ، ولاقاه القاضى كاتب السر ابن أجا وغير ذلك من الأعيان .

وكان من ملخص أخبار هذه السفرة أن السلطان لما وصل الى السويس كان يوم دخوله هناك يوما مشهودا ، وطلب طلبا حافلا ما بين جنائب وهجن باكوار زركش ، وكان صحبته محفة والكوسات والطبول والزمور ، وكان هناك الرئيس سلمان العثمانى وجماعة من العثمانية البحارة فقصد السلطان اظهار العظمة لأجل جماعة ابن عثمان حتى قيل دخل العسكر الى السويس وهو لابس آلة الحرب ، وكان جماعة ابن عثمان هناك نحوا من ألفى انسان ، فلما وصل السلطان الى هناك كشف على تلك الأغربة التى عمرها هناك وكانت نحو عشرين غرابا ، فالذى انتهى منه العمل أنزلوه الى البحر الملح بحضرة السلطان ، وكان ذلك اليوم

هناك مشهودا ، وقيل كان مصروف تلك الأغربة بما فيها من مكاحل نحاس وحديد وغير ذلك من آلة السلاح فصرف على ذلك من مال السلطان نحو أربعمائه ألف دينار وكسور على ما قيل ، وكان الرئيس سلمان العثمانى هو الشاد على عمارة تلك الأغربة ، وهو المشار اليه فى ذلك ، فلما حضر السلطان مد له هناك الرئيس سلمان مدة حافلة ، فخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وأنعم عليه بألف دينار ، وخلع على جماعة من النجارين والحدادين والقلافطة لكل واحد خلعة سنية .

وقيل ان فى ذلك اليوم احترق جماعة من الصناع الذين يصحنون البارود فمات منهم نحو عشرين انسانا ، وقيل ان النار تعلقت فى قلع غراب من الأغربة فأحرقته عن آخره ، فكان مصروف ذلك القلع نحو خمسمائة دينار لأن قلوع بحر الملح بخلاف قلوع بحر النيل

وأشيع أن السلطان عبث على بعض الأمراء فأنزلهم فى الغراب الكبير الذى برسم الباش ، وكان به قاعة تحت المقعد الذى يجلس فيه الباش ، فرسم للأمراء بأن ينزلوا الى تلك القاعة ، فنزل الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب . والأمير أنصباى حاجب الحجاب ، والأمير علان الدوادار الثانى ، وآخرون من الأمراء . فلما استقروا بتلك القاعة طلع الأمير طومان باى الدوادار وأغلق على الأمراء باب الطابقة التى على تلك القاعة وتكاسل عنهم ساعة ، فظن الأمراء أن السلطان قد قبض عليهم بهذه الحيلة التى عملها عليهم ، فأقاموا والطابقة مغلوقة عليهم نحو عشر درجات فضاق الأمر عليهم وساء بهم الظن ، فعند ذلك جاء اليهم الأمير طومان باى الدوادار فقال لهم : من أراد أن يطلع من الطابقة يحضر كل واحد منكم قنطار سكر للسلطان ، فما صدقوا بذلك وقالوا : السمع والطاعة ، ففتح لهم باب الطابقة فطلعوا وهم فى غاية الاضطراب ! ..

وكانت اقامة السلطان فى السويس ثلاثة أيام .

وقد أنشأ السلطان هناك خانا ودكاكين وبعض دور وغير ذلك من الأبنية المفيدة ، وحفر هناك آبارا وصنع عليها سواقى ، فلما عاد السلطان الى بركة الحاج أنعم على الأمراء الذين كانوا بصحبته . فأنعم على الأتابكى سودون العجمى بخمسمائة دينار فى نظير كلفته وتعبه ، وأنعم على الأمير أركماس أمير مجلس بأربعمائة دينار ، وكذلك الأمير سودون الدوادارى والأمير طومان باى الدوادار والأمير أنصباى حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ممن كان صحبته . وأنعم على الأمراء الطبلخانات ممن كان صحبته وهم : قنبك رأس نوبة ثانى ومغلباى الزردكاش وآخرون من الأمراء الطبلخانات فأنعم على كل واحد منهم بمائة دينار فى نظير كلفته . وأنعم على الأمراء العشراوات ممن كان صحبته لكل واحد منهم بخمسين دينارا فى نظير كلفته ، ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ونزل بالريدانية .

فلما كان يوم السبت ثانى عشر صفر ركب السلطان من هناك ودخل من باب النصر وشق القاهرة فى موكب حافل بغير شاش ولا قماش ، وكان قدامه ولده المقر الناصرى محمد ، وهو لابس تبع سلطانى ولا صنجق سلطانى ولا قبة ولا طير ، فلاقاه القضاة الأربعة من الريدانية ودخلوا القاهرة قدامه ، ولاقاه سائر الأمراء المقدمين قاطبة والمباشرين . وكان الأتابكى سودون العجمى ابنه ضعيف على خطة فدخل قبل السلطان واشتغل بولده ، وكان السلطان ألبس الأمراء

المقدمين الذين كانوا صحبته كوامل مخمل أحمر بسمور ، وشيء كوامل صوف بسمور

فلما تحقق الناس دخول السلطان اصطفوا له على الدكاكين بسبب الفرجة ، واصطفت له الطبول والزمور على عدة دكاكين من القاهرة ، فشق من القاهرة وقدامه طبلان وزمران والنفير السلطاني ، وقدامه عدة نوب هجن فيها أربعة نوب بأكوار زركش والبقية بأكوار محمل ملون . وكان قدامه من الجنائب نحو أربعين فرسا بعضها بكنابيش زركش وسروج مغرق . وكان من جملة الجنائب بغال وحجورة بسروج بداوى وركب بداوى فعد ذلك من النوادر .

وكان قدامه عشر كاشات بأغطية حرير أصفر ، وكان قدامه محفة على بغال بعشى حرير أصفر . فلما مشى الطلب والجنائب والأمراء جاء بعدهم السلطان وقدامه الخاصكية مشاة ورءوس النوب والشبابة السلطانية والشعراء . وكان لابسا تخفيفة صغيرة ملساء وعليه سلارى صوف أبيض بوجه صوف أخضر ، فشق القاهرة فى ذلك الموكب وكان له يوم مشهود ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فطلع من على سويقة العزى من على مدرسة السلطان حسن ، وشق الرملة ثم دخل من باب الميدان بعد أن سلم على القضاة والأمراء وانفض ذلك الموكب . فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ذهابا وايابا ثمانية أيام منها اقامته فى السويس ثلاثة أيام .

وفى يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالميدان جلوسا عاما وحكم بين الناس الى قريب الظهر ، وكان له مدة طويلة لم يحكم بين الناس من قبل أن يتوجه الى السويس .

وفى ذلك اليوم رسم بتوسيط شخصين من الغلمان قد سرقوا زرديتين لأستاذ بينهما فى هذه السفرة ، فوسطهما فى الرملة عند سوق الخيل

وفى يوم السبت تاسع عشره فيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الأجلاب ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، ونهبوا الدكاكين التى فى خرائب التتر ، ونزلوا الى بيت الأمير طومان باى الدوادار وأركبوه من بيته غصبا ، وطلعوا به الى القلعة وقالوا له : قل للسلطان ينفق علينا كما أنفق على الأمراء الذين سافروا صحبته الى السويس . فاستمرت المماليك ثائرة بالقلعة ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، وأغلقوا باب السلسلة وباب الميدان فى ذلك اليوم ، وكان العسكر قاطبة له أربعة أشهر لم يصرف لهم قيمآ لحم ولا عليق .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بأن من كان له عليق مكسور أو لحم مكسور يطلع الى القلعة يوم الاثنين فيصرف له ذلك ، فلما كان الاثنين طلع العسكر قاطبة فلم يصرف لهم سوى العليق فقط واستمر اللحم موقوفا ، وكان ديوان المفرد فى تلك الأيام فى غاية الانشحات ، والوزير يوسف البدرى مع المماليك فى غاية الذل ، وهو مهدد منهم بالقتل فى كل يوم . وكان السلطان أخرج عن ديوان الوزارة عدة جهات كانت توسعة فى الديوان ، منها جهات قطيا وغير ذلك من الجهات ، فأنعم بجهات قطيا على الأمير قانصوه روح لو ، واستمر مقيما هناك على تقدمته ، فانشحت الديوان الى الغاية بسبب ذلك ، وكان العسكر كثيرا ولا سيما ما جدده السلطان من العسكر فى الطبقة الخامسة فانشحتت الدواوين من الجوامك واللحوم والعليق بسبب ذلك .

وفى يوم الأحد عشرينه جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش ، وأحضر الوزير يوسف

البـدرى ومباشرى الديوان ، وأحضر المعـاملين والطباخين فعملوا حسابهم بحضرة السلطان ، فظهر لهـم مال له جرم منكسر فى الديوان ، فرسم على المباشرين بجامع القلعة وأقام فى عمل حسابهم الى بعد الظهر ، وكان ذلك اليوم فى غاية النكد ، هذا والمماليك قائمة عند حظوظ أنفسهم ، وقد أتسـيع بين الناس أمر الركوب على السلطان .

وقيل ان السلطان أحضر بعد العصر جماعة من أعيان خاصكيته وعتبهم على هذه الأفعال الشنيعة فأغلظ عليه بعض الخاصكية وقال له : « أنت الذى أشحت الدواوين بهذا العسكر الكثير الذى جمعته وجعلت له طبقة خامسة وقطعت جوامك الأيتام والنساء بسببهم وهم ما بين تراكمة وأعجام وسويخاتة وأساكفة وأولاد ناس ملفقين شىء خياط وشىء بخاتقى » . فقال لهم : « أنا ما جعلت ذلك العسكر المستجد الا أن يكون فداء لكم فى الأسفار والتجاريد » . فقال له المماليك : « هذا ما كان طريقة الملك الأشرف قايتباى وأنت الذى أشحت الدواوين حتى صار اللحم ينكسر خمسة أشهر ، وكذلك العليق يعطوه لنا من الشون قمح مسوس ما تأكله الخيل . والجامكية التى تعطيها لنا ما تكفانا لكراء بيت واسطبل وجامكية الغلام ولكسوتنا ، والقماش كله غالى حتى الخام ما يوجد . والأقسمة صارت غالية كل جرة بنصفين فضة ، فما نشبع فى أيامك لا من اللحم ولا من الأقسمة ، ونحن جياعة عراية » . فسكت السلطان ساعة ثم قال : « لكم الرضا أصرف لكم اللحم المكسور وكذلك العليق أصرفه لكم شعير مغربل وأجعل لكم الأقسمة كل جرة بنصف فضة » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانصرفوا من بين يديه وهم شاكرون وخمدت تلك الفتنة قليلا .

وكان المماليك الأجلاب عولوا على نهب بيوت الأمراء والمباشرين ونهب أسواق القاهرة والدكاكين وحرق البيوت ، فلطف الله تعالى وجاء الأمر الى سلامه ولله الحمد ، ولو فعلوا ذلك لطلع ذلك من أيديهم وما كانت تنتطح فى ذلك شانان ، ولكن الله سلم .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول الخماسين وهو يوم عيد النصارى وفطرهم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه طلع الجنـاب الشرفى يونس ولد الأتابكى سودون العجمى الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور من ملابيسه ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، وزينت له دكاكين حارته عند قنطرة سنقر . وكان سبب ذلك أن الشرفى يونس كان مـرض مرضا عظيما حتى أشرف فيه على الموت ، ثم بعد ذلك بعث الله تعالى له بالشفاء فشفى من ذلك العارض وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود ، وكان قبل ذلك أنعم عليه السلطان بامرة عشرة وصـار من جملة الأمراء العشراوات .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على عسكر الطبقة الخامسة . وحدث فى ذلك اليـوم نادرة غريبة ، وهى أن المماليك الأجلاب وقفوا فى الحوش وصار كل من قبض الجامكية من عسكر الطبقة الخامسة يأخذون منه أشرفيا من الجامكية ويقولون له : « نشرب به أقسمة » . فيأخذون منه الأشرفى طوعا أو كرها ، فحصل لعسـكر الطبقة الخامسة فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان غاية البهدلة وما قدر السلطان على منعهم من ذلك ، وصاروا يخطفون الجامكية من يدى من يقبضها ، فمنهم من يأخذ منها أشرفيا ويعيـد الباقى الى أصحابه ، ومنهم من يأخذ الجامكية كلها ويهرب ، فأعيا أمرهم الرءوس النوب ، وحصـل فى ذلك اليوم غاية الضرر لعسكر الطبقة الخامسة .

* * *

وفى ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعه للتهنئة بالشهر ، واتفق أن ذلك اليوم كان أول بشنس من الشهور القبطية فوافق أن الشهر العربى والقبطى كانا فى يوم واحد ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الخميس ثانيه خلع السلطان على القاضى شرف الدين الصغير وأعاده الى نظر الدولة وكتابة المماليك كما كان أولا ، وجعل له التكلم فى ثلث الوزارة مع يوسف البدرى المتولى للوزارة فتضاعفت عظمة القاضى شرف الدين الصغير الى الغاية ، وكان له مدة طويلة وهو بطال مختف فى داره حتى رضى عليه السلطان وأعاده الى وظائفه ، وقيل سعى فى ذلك بثمانية آلاف دينار وخمسة آلاف أردب شعير ، فلما خلع عليه نزل من القلعة فى موكب حفل وقدامه أعيان المباشرين وغير ذلك من أعيان الناس ، وكان له يوم مشهود .

وفى يوم السبت رابعه فرق السلطان على المماليك رماحا بسبب لعب الرمح ، ثم أنفق عليهم فأعطى لكل مملوك ستة أشرفيــة ثمن خام على جارى العادة ، وكان فى السنة الخالية لم يعطهم شيئا ، فأعطاهم ست أشرفية عن هذه السنة وما قبلها حتى يرضيهم وهم غير راضين بذلك والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة وصار الناس على رءوسهم طيرة ، ووزع التجار قماشهم من الدكاكين خوفا من النهب .

وفى يوم الاثنين سادسه خرج الأمير طومان باى الدوادار الكبير الى بلاد الصعيد بسبب ضم المغل وجمــع الأموال ، فخلع عليــه السلطان ونزل من القلعة فى موكب حفل ، وصحبته الأمراء المقدمون وأعيان المباشرين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الثــلاثاء ســابعه جلس السلطان على المصطبة بالحوش وفرق على العسكر ثلاثة أشهر عن سن اللحم المنكسر لهم ، فغلق لهم الى آخــر سنة تســع عشرة وتسعمائة ، وصار لهم من أول سنة عشرين وتسعمائة ، وصار يستدعى طبقة بعد طبقة مثل تفرقة الجامكية

وفى يوم الجمعة عاشره قلع السلطان الصــوف ولبس البياض ، ووافق ذلك عاشر بشنس القبطى ، وكان الوقت رطبا .

وفى يوم السبت حادى عشره عمــل السلطان المولد الشريف النبوى ، ونصب الخمة الكبــيرة بالحوش ، وحضره القضاة الأربعة الذين تولوا عن قريب ، وهذا كان أول اجتماعهم فى المولد النبوى بالقلعة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين ، فكان المــولد فى ذلك اليــوم حافلا .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من الجيزة بأن عرب عزالة نازلين بالقرب من البدرشين ، فلما بلغ ذلك الأمير طومان باى الدوادار ركب من وقته وكبس عليهم ، فقبض على جماعة من مشــايخهم وشكهم فى الحديد ، وقيل كان عدتهم غير المشايخ المذكورين من أعيانهم وكانوا نحو ثمانية عشر انسانا — مائة خمسة وأربعين انسانا وبعث بهم الى السلطان ، فلما عرضوا على السلطان قصــد أن يكلبهم على أبواب القاهرة ، فمنعــه بعض الأمراء من ذلك وقال له : « متى أن قتلت هؤلاء العربان نهبت عرب عزالة اقليم الجيزة عن آخره » . فرجع عن قتلهم وأمر بسجنهم فى المقشرة .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قانصوه الفقيه ، وأصــله من مماليك الأشرف قايتباى ، فقرره فى نيابة عينتاب ، وقيل نيابة سيس ، وكان

قبل ذلك فى نيابة سيس ثم عزل عنها ، وكان مقيما بمصر بطالا حتى خلع عليه وولاه كما كان

وفى يوم الجمعه سابع عشره نزل السلطان وعدى الى الروضة وأقام بالمقياس وصلى هنــاك صلاة الجمعه ، فلما بلغ ذلك قاضى القضاة الشــافعى علاء الاخميمى توجــه الســلطان الى المقيــاس ، فتوجه اليه وخطب به فى جامع المقياس وصلى به الجمعة هناك . ثم ان الســلطان أقام فى المقيــاس الى بعد العصر ونزل فى مركب وشـــق على بر الروضة وطلع من على الجزيرة الوسطى وأتى الى القلعة .

وفى يوم السبت ثامن عشره فيه ابتــدأ السلطان بضرب الكرة فى الميدان ، فطلع اليه الأمراء على جارى العــادة ، ولكن كان السلطان محصتكا فى جسده فلم يضرب الكرة الا ضربا هينا ... حتى يقال ان السلطان ضرب الكرة فى هذه السنة !

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع الســلطان على الأمير أزبك المكحل كامليــة صوف صــينى بسمور لم وألبسه تخفيفة كبيرة التى يســمونها الناعورة ، وكان امن حين حضر من ثغــر دمياط وهو بتخفيفة صغيرة ولم يدق على بابه طبلخاناه وكان كهيئة الطرخان ، فجبر الســلطان بقلبه فى ذلك وخلع عليه وأعاده الى التقدمة كما كان .

وفى ذلك اليوم المذكور حضر قاصد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان بالميدان ، فلما قرىء على السلطان مطالعة ابن عثمان أشيع بين الناس أن ابن عثمان يقصد أن يمشى على شــاه اسمعيل الصفوى صــاحب العراقين . فأرســل يعلم السـلطان بذلك وأن يكون هو والسلطان أمرا واحــدا وقولا جازما على الصفوى حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى ذلك اليوم توفى الخواجا شــمس الدين محمد الحليبى وكان من أعيان التجار فى سعة من المال ، ولكن جرى عليه شدائد ومحن فى أواخر عمره ، وصودر وأخذ ماله غير ما مرة ، وقد تقدم القول بما وقع له مع السلطان من المصــــادرات ودخوله الى المقشرة وهو فى الحديد وأقام بهــا مدة ، وكان السلطان قصد أن يثبت عليه كفرا ويضرب عنقه وقد تقدم سبب ذلك فى موضعه ، وقد مات قهرا مما وقع له .

وفيه توفى صاحبنا أبو الفضل الذى كان متحدثا فى نظر المواريث ، وكان لين الجانب عشير الناس وكان لا بأس به ، ومات والناس عنه راضية .

وفى يوم السبت خامس عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعزم على قاصد ابن عثمان وأضافه وخلع عليــه ، وأذن له بالعــودة الى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته .

وفى هذه الأيام اشتد أمر الحر ، فأقام السلطان فى الميدان أربعة أيام بلياليها وهو فى أرغد عيش ، وأطلق الماء فى البحرة التى بالميــدان ، وصار يمد السماط هناك ويأكل هو وأخصاؤه ، فشق ذلك على بقية مماليكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه وكسروا الصحون الصينى ، فلما بلغ الســلطان ذلك تنكد وقام من وقته وطلع الى الدهيشة ، وكان قصده الاقامة فى الميدان الى يوم الجمعة فنكد عليه المماليك .

* * *

وفى ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الجمعة فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا بالشهر

وفى يوم الاثنين رابعــه حضر الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وكان له مدة وهو مقيم بالفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك كما تقدم

ذكر ذلك ، فلما كمل عمارته حضر الى القاهرة فخلع عليه السلطان كاملية حافلة بسمور ونزل الى داره وصحبته جماعة من الأمراء .

وفى يوم الثلاثاء خامسه كانت وفاة شيخنا العلامة زين الدين عبد الباسط بن الغرسى خليل ابن شاهين الصفوى الحنفى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما من ذوى البيوت ، وكان من أعيان الحنفية ، وكان مولده سنة أربع وأربعين وثمانمائة فكانت مدة حياته نحو ست وسبعين سنة . وكانت له اليد الطولى فى علم الطب ، وله عدة مصنفات نفيسه منها تاريخه الكبير المسمى بالروض الباسم وآخر دونه يسمى نيل الأمل فى ذيل الدول ، وآخر فى التوفيقات على حروف المعجم ، وآخر فى علم الطب ، وغير ذلك فى الشروحات على كتب الحنفية ، وكان والده الغرسى خليل من أعيان الناس ولى الوزارة بالديار المصرية وولى عدة نيابات جليلة منها نيابة حماة وصفد والقدس الشريف ونيابة الاسكندرية وغير ذلك من النيابات الجليلة وكان فى مقام الأمراء المقدمين ، وأما الشيخ عبد الباسط رحمه الله فكانت صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يربى له ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جدا حتى أن بعض شعراء العصر قال فيه مداعبة لطيفة وهو قوله :

أدخلت فى منخرة أصبعى
وقلت : ما ذا العضو ؟ .. سميه
فقال لى مستعجلا : منخرى
قلت : أنا يا سيدى فيه

وكان الشيخ عبد الباسط ضنينا بنفسه وعنده يبس طباع مع شمم زائد ، وكان معظما عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف وكان أصابه علة السل فأقام نحو سنة ونصف وهو عليل منقطع فى داره حتى مات رحمة الله عليه .

وفى يوم الخميس سابعه نزل السلطان وتوجه الى تربة العادل التى بالريدانية ، وجلس هناك على المصطبة ونصب له سحابة ... ثم جربوا قدامه مكاحل نحاس وحديد ، فكان عدتهم نحو أربع وسبعين مكحلة فصح منهم شىء وتفرقع شىء .

ثم ان السلطان قام من هناك وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية فأقام هناك الى بعد العصر ، وركب وعاد الى القلعة وشق من القاهرة ودخل من باب الفتوح فى نفر قليل من العسكر ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء وقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحو مائة دينار وكسور على الفقراء والمساكين والمغانى الذين كانوا صحبته فى القبة ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره كان آخر مضى الخماسين ، وصادف أنه فى ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة فى ليلة الاثنين . وقد مضت الخماسين على خير ولم يقع فيها الطاعون ، ولم يدخل الى مصر . وكانت الناس تلهج بوقوع الطاعون فى هذه السنة ويكون أمرا عظيما ، فوقع بعض طعن فى الشرقية وأقام أياما وارتفع ولم يفش أمر الطاعون بمصر .

وفى ليلة الثلاثاء ثانى عشره كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبابى رضى الله عنه ، وكانت من الليالى المشهودة وخرجت فيها الناس عن الحد فى القصف والفرجة ، وضرب فى الجزيرة التى ببولاق تجاه الرصيف فوق الخمسمائة خيمة ، وكانت الناس فى أمن ورخاء ، وكان فى الرمل سوق حافل بدكاكين مبنية ونقلوا اليها أفخر البضائع ، وكثر هناك البيع والشراء على المتفرجين .

وفى يوم الخميس رابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى الذى كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه كاملية حافلة بسمور ونزل فى موكب مشهود ، وحصل له جملة تقادم عظيمة من ابن عثمان ومن النواب ما بين مال وخيول ومماليك وقماش وغير ذلك .

وفيه وقعت مرافعة مهولة بين الزينى بركات بن موسى وبين أحمد بن الصايغ ، وقصد ابن الصايغ أن يتسلم الزينى بركات بن موسى على ثلاثين ألف دينار ، واستمرت هذه المرافعة عمالة بينهما حتى يكون من أمرهما ما سنذكره فى موضعه

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن فى حادى عشر صفر وقع سيل عظيم حتى دخل الى الحرم ، ووصل الماء الى عتبة البيت الشريف وغطى الحجر الأسود ومقام ابراهيم ، وهدم عدة دور بمكة وغرق فيه من الناس ما لا يحصى ، وكان أمرا من الأمور المهولة ، وتقدم القول على أن فى دولة الأشرف قايتباى وقع مثل هذا السيل بعينه حتى عام المنبر الذى بالحرم وامتلأت بئر زمزم بالماء وكان أيضا أمرا مهولا .

وفيه رسم السلطان للشهابى أحمد ناظر الجيش المنفصل بأن يطلع الى الخدمة فى كل يومى اثنين وخميس ويقف فوق ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، فاستمر على ذلك مواظبا للخدمة وهو وهو منفصل عن نظر الجيش ، ولم يعلم ما قصد السلطان بذلك .

وفى يوم الجمعة خامس عشره توفى القاضى رضى الدين الاسحاقى أحد نواب المالكية ، وكان موته فجأة ، وكان رئيسا حشما من أعيان الناس ، وكان لا بأس به فى نواب المالكية .

وفى يوم السبت سادس عشره ضرب السلطان الكرة بالميدان ، ثم بعد ذلك رسم للأمراء بأن يتخففوا من ثيابهم ، ثم دخل هو واياهم فى البحرة التى فى الميدان وخلا بهم وضربوا مشورة فى أمر التجريدة ، فوقع الرأى من الأمراء بأن العسكر يخرج من مصر ويقيم فى حلب حتى يظهر ما يكون بين ابن عثمان والصفوى من الفتن ، وأن العسكر لا يدخل بين الفريقين حتى يبدو من أحدهما الغدر الى عسكر مصر ، فأقام عند السلطان الأمراء فى هذه المشورة الى بعد الظهر ، وانفض المجلس على ما ذكرناه من خروج العسكر من مصر ويقيم بحلب يحصنها من العدو حتى يكون من هذه الفتنة التى بين ابن عثمان وبين الصفوى ما يكون ، فانفض المجلس على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره طلع الأمير أقباى الطويل القاصد بتقدمة حافلة الى السلطان ما بين خيول ومماليك وسلاح وقماش وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل ذهب عين ما يعلم قدره وقد اختلف فيه .

أقول ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربى عليه ، فكانت عمامته عمامة الفلاحين وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف كما جاء من وراء المحراث ولم ينطل فى رياسته ، فكان كما يقال :

وزب قحف قد أتى ... لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى ... هذا من النخل سقط

وقال آخر فى المعنى :

فقيه ريف يقول : انى
برعت فى العلم والرواية
فقلت : لا شك أنت عندى
تصلح للدرس والدرايه

وكان أصل شمس الدين بن عوض فلاحا من

فلاحين منية مسير بالغربية ، وقيل من بانوب والله أعلم .

وفى يوم الثلاثاء المذكور بعد العصر قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده الصغير فوضعوهما فى الحديد ، وكان سبب ذلك أن الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين كان متحدثا على بعض بلاد فى تقسيط ابن عوض ، فحصل بينه وبين ابن عوض حظ نفس بسبب ابن جميل أحد مشايخ الغربية وقد شفع فيه عنده فلم يقبل شفاعته . فقال الأمير خاير بك للسلطان : « أنا أثبت لك فى جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار » . فاعتدل السلطان على ابن عوض وشكه فى الحديد هو وولده وأرسلهما الى بيت الأمير خاير بك ، ثم نقلهما من بعد ذلك الى بيت الزينى بركات بن موسى ، وكان الزينى بركات بلغه أن ابن عوض ساعى فى القبض عليه فبادر اليه ابن موسى ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات بن موسى التزم بما قرر على شمس الدين ابن عوض من المال وتسلمه ونقله الى داره وشرع فى عقابه وضربه وعصره بالمعاصير فى أصداغه وأكعابه هو وولده وتفنن فى عذابهما تفننا ، فلم يرد ابن عوض من المال الذى قرر عليه الا اليسير ، وكلما زاد فى عقابهما لم يفده ذلك شيئا ، وكان شمس الدين بن عوض متكلما على عدة جهات من البلاد ، وقبض عليه السلطان ، وابنه متكلما على كتابة الخزائن الشريفة مع مشاركة أولاد الجيعان ، وكان ابن عوض من المقربين عند السلطان فأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه .

وفيه غيب أحمد بن الصايغ لما رأى السلطان مائلا الى الزينى بركات بن موسى ولم يسمع فيه مرافعة ، فما وسعه الا أن غيب خوفا من ابن موسى . وكان أحمد بن الصايغ باغيا على الزينى ابن بركات بن موسى فانه هو الذى أنشأه وكان يردادارا عنده ، فلما راج أمر أحمد بن الصايغ صار شريكا للزينى بركات فى جميع جهاته التى يتكلم عليها حتى الحسبة الشريفة ، فلم يقنع بهذا كله فقصد أن يشترى الزينى بركات من السلطان بثلاثين ألف دينار فلم يوافقه السلطان على ذلك ونهره ، فخاف وغيب واختفى مدة يسيرة وسيظهر بعد ذلك .

وفيه فى يوم الجمعة ثانى عشرينه خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعودة الى بلاده وعين صحبته اينال باى دوادار سكين ليوجهه الى هناك ويكشف عن الأخبار الصحيحة ويعلم السلطان بذلك ، وقيل ان السلطان أنعم على اينال باى بخمسمائة دينار لأجل عمل يرقه ، فخرج فى ذلك اليوم على جرائد الخيل وقرر معه السلطان أياما معدودة ويرد عليه الجواب عن الأخبار الصحيحة عن مشى ابن عثمان على الصفوى ، فخرج قاصد ابن عثمان واينال باى فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين خامس عشرينه خلع السلطان على شخص من أولاد ابن رمضان أمير التركمان يقال له سليم بك ، فخلع عليه وقرره فى امرة التركمان عوضا عن ابن عمه محمود بك فى امرة شقر أباه .

ومن الحوادث أن شخصا خياطا يقال له نجا بن تمساح زنق صبيا صغيرا عمره نحو عشر سنين ، فزنقه فى بيت فى الجزيرة الوسطى فاستغاث الصبى فذبحه ذلك الخياط ورماه فى بئر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبى على الخياط وعرضته على السلطان فاعترف بقتل الصبى ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط فى المكان الذى قتل فيه الصبى وقيل رسم السلطان بأن تقطع محاشمه وتعلق فى

عنقه وهو مشنوق ففعلوا بذلك ، وقد تقدم مثل هــذه الواقعة لشخص طحان ورسم السلطان بأن يخوزقوه فخوزقوه فى المداين وقد تقــدم القول على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ست أذرع واثنى عشر أصبعا ، وكانت فى العام المــاضى أرجح من ذلك ، وكانت زيادته فى أول يوم خمس أصابع . وفى يوم الثلاثاء المذكور كانت وفاة القاضى فخر الدين والد القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة وكاتب المماليك . وكان القاضى فخر الدين هذا من أعيان المباشرين وباشر ديوان قانى باى أمير آخور كبير وغيره من الأمراء ، وكان رئيسا حشما لا بأس به بين المباشرين .

* * *

وفى جمــادى الأولى كان مستهل الشهر يوم السبت ، فجلس السلطان بالميـدان وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوه بالشهر .

وفى ذلك اليوم كان ختام ضرب الكرة وختام خصمانية لعب الرمح ، فلما انقضى ضرب الــكرة طلع السلطان الى الحوش وجلس بالمقعد الذى به ومد هناك للأمراء مدة حافلة وما أبقى ممكنا من المآكل الفاخرة ، ومد عدة طوارى مؤنقة ما بين حلوى وفاكهة وسكر حريف وبطيخ صيفى وأجبان مقــلى وجلاب وغــير ذلك من المآكل ، وأحضر الأفيال الكبار والسباع والثيران والكباش برسم النطاح فتناطحوا بين يدى السلطان ، وأقام هناك الى بعد العصر وعنــده الأمراء مجتهدين ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس سادسه خلع الســلطان على شــخص من الأمراء العشراوات يقــال له ماماى الخازندار ، وأصله من مماليك الســلطان ، فعينه بأن يتوجه الى الشام وعين صحبته الخواجا يونس العادلى ، وسبب ذلك أن السلطان قوى عزمه على أن يزوج ولده بابنة سيباى نائب الشام فأرسل هذين اللذين عينهما بالمهر ، وأنهما يعقدان العقد بالشام ، فلما توجها الى غزة جاءت اليهما الأخبار بأن بنت سيباى نائب الشام التى توجها بســببها قد توفيت الى رحمــة الله تعالى ، فأرســلا كتابا للســلطان بذلك وأن لنائب الشــام بنتا أخرى صغيرة ، فأرسل السلطان يقول لهما ادفعا لنائب الشام المهر الذى أرسلناه واعقدا العقد على ابنته الصغرى ، فامتثلا لذلك .

وفى عقيبه خلع السلطان على شــخص يقال له ابراهيم السمرقندى وعين صحبته خاصكيا ، بأن يتوجهــا الى القــدس والكرك فى بعض المهمات السلطانية ، ثم بعد ذلك بطل سفرهما الى تلك الجهات لأمر أوجب ذلك .

وفى يوم الخميس المذكور تغير خاطر السلطان على جانى بك دوادار الأمير طراباى الذى هــو متحدث فى الأستادارية الآن ، وكان السلطان أنعم على جانى بك هذا بامرة عشرة ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على جانى بك أن الأمير طومان باى الدوادار أرسل مطالعــة للسلطان وهو بالصعيد يشكو فيها من جانى بك هذا أنه صار يعارضــه فيما يرسم به ويعاكسه فيما يقوله فى أمر الديوان المفرد ، وكان جانى بك غير محبب للناس لا يراعى من الأمراء أحدا ويأخذ الحمايات المقطعين معجلا قبل أن تروى البلاد ، فصار معه سنة معجلة من المقطعين من الحماية والشياخــة دايرة فى حساب الديوان المفرد وربما راحت على المقطعين ، ويرسم

على الأمراء وأعيان الناس حتى يستخلص منهم جميع ما عليهم من الحمايات فى يوم واحد فضج منه الأمراء والعسكر ، فلما تزايد ظلمه وعسفه بالعسكر والفلاحين وضعفاء الناس أخذه الله تعالى من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وكان عند السلطان من المقربين الخواص فانقلب عليه ما كأنه يعرفه ، وهذا الذى وقع له بدعوة مظلوم ، فكان كما قيل فى المعنى :

ألا قولوا لشخص قد تقوى
على ضعفى ولم يخش رقيبه
بعثت له سهاما فى الدياجى
وأرجو أن تكون له مصيبه

فلما عزل جانى بك من التحدث فى الأستادارية كثرت فيه المرافعات وقال له السلطان : أقم الحساب بما قبضته من الأموال فى مدة تحدثه فى الأستادارية على ما قيل ، ومن نوقش الحساب عذب .

وقيل ان جانى بك لما رأى أن الأمير طومان باى الدوادار محطا عليه سأل السلطان وباس رجله بأن يعفيه من التحدث فى الأستادارية ، ولا زال يقسم عليه حتى أعفاه من التحدث فى الأستادارية ، ولما عزل جانى بك وقف على البرماوى بردار السلطان والتزم بالسداد على الجهات التى كان جانى بك متحدثا عليها وضمن ذلك . فقصد السلطان أن يخلع عليه فقال له : « ما ألبس خلعة حتى يجىء الأمير الدوادار » . واستمر متحدثا فى الأستادارية عوضا عن جانى بك بحكم انفصاله عنها .

وفى يوم السبت ثامنه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها وأقام يومين ، وسبب ذلك أن السلطان أنشأ هناك فساقى وقد تقدم ذكر ذلك ، فأطلق فيها الماء فى ذلك اليوم ، وانشرح السلطان لذلك الى الغاية .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الزينى بركات بن موسى وقرر فى أستادارية الذخيرة ، عوضا عن شمس الدين بن عوض بحكم انفصاله كما تقدم . فنزل من القلعة فى موكب حفل وقدامه أعيان المباشرين ، ورسم له السلطان بأن ينادى قدامه أن لا أحد من الناس يحتمى عليه ولا يتجاها . فتزايدت عظمة الزينى بركات وصار محتسبا وأستادار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف السنية . وكان الزينى بركات له سعد خارق وهو مسعود الحركات فى أفعاله محببا للناس ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات تسلم ابن عوض على مائة وخمسين ألف دينار ، فشرع فى عقابه وضربه وعصره كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الجمعة ثانى عشرينه خرج اينال باى دوادار سكين صحبة قاصد ابن عثمان ، وقد تقدم القول على أن السلطان عين اينال باى بأن يخرج صحبة القاصد ويقف على صحة الأخبار فى أمر ابن عثمان والصفوى ويرد الجواب على السلطان بسرعة ، وقرر معه لا يبطىء عليه بالخبر غير مسافة الطريق ، وأنعم عليه بخمسمائة دينار ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الخميس ثالث عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش ونصب السحابة وأمر بعرض العسكر ، وعين تجريدة كبيرة الى حلب يقيمون بها حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان والصفوى ، وعين فى ذلك اليوم تجريدة أخرى الى نحو بلاد الهند بسبب تعبث الفرنج هناك كما تقدم ، وعين جماعة من أولاد الناس وغيرهم من

المماليك لحفظ الجسور التى بالشرقية والغربية ، فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة قيل ثلاثة آلاف مملوك وقيل ألفا مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين أربعة وهم : الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير وجعله باش العسكر ، وعين الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، وعين الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وعين الأمير بيبرس قرابته ثم بطل عقيب ذلك ، وتعين عوضه الأمير أبرك الذى كان نائب طرابلس وهو الآن مقدم ألف . وأبرك هذا من مماليك السلطان ، فلما عينه جعله باشا على المماليك الجلبان الذين عينوا الى السفر ، وعين فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء الطبلخانات ومن الأمراء العشراوات .

ثم فى يوم السبت خامس عشره نزل السلطان الى الميدان وعرض بقية العسكر ، وكتب الغالب منهم إلى حلب .

وفى هذه الأيام تصدى الزينى بركات بن موسى الى عقوبة شمس الدين بن عوض وولده ، فما أبقى ممكنا فى ذلك من ضرب كسارات وعصر أكعاب ، وعصرهما فى أصداغهما وفى أيديهما وحرق أصابعهما بالنار ، ولم يرد ابن عوض من المال الذى قرر عليه الا القليل وكان جلدا على العذاب . وقد تقدم له مع الأمير أزدمر الدوادار أنه عاقبه أشد العقوبة ولم يقر بشىء من المال .

وفى يوم الاثنين سابع عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش وأنفق الجامكية على العسكر ، ثم أنفق نفقة السفر على العسكر المعين الى حلب ، فدفع الى كل مملوك مائة دينار على العادة وجامكية أربعة أشهر معجلا وثمن جمل سبعة أشرفية ، وقد مشى على طريقة الملك الأشرف قايتباى فى أمر النفقة على العسكر عند توجههم الى البلاد الشامية .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره نزل السلطان وزار ضريح الامام الشافعى والامام الليث بن سعد رضى الله عنهما ، وتصدق فى ذلك اليوم بمبلغ له صورة ، وكان السلطان فى حملة كبيرة بسبب ابن عثمان والصفوى .

وفيه ظهر أحمد بن الصايغ شريك الزينى بركات ابن موسى ، وكان له مدة وهو مختف من الزينى بركات وقد تقدم القول على ذلك ، فطلع به بعض الأمراء وقابل السلطان فلم يخلع عليه لأجل خاطر الزينى بركات .

وفى ذلك اليوم جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك فكان الذى كتب من القرانصة والجلبان جملة ذلك نحو ألفين وأربعمائة مملوك على ما قيل وعينهم للسفر الى حلب .

وفى يوم الخميس عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة السادة الأشراف اخوة السيد بركات أمير مكة ، وكان سبب حضورهم الى القاهرة أن وقع بينهم وبين أخيهم السيد بركات فتنة مهولة ، وقتل جماعة كثيرة من الفريقين ، فانكسر اخوة السيد بركات وولوا مدبرين ، فما وسعهم الا الحضور الى عند السلطان حتى يكون من أمرهم ما يكون .

وأرسل الأمير حسين نائب جدة يعلم السلطان بذلك وأن الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران من ضياع جهات الهند . وأرسل يستحث السلطان فى ارسال تجريدة بسرعة قبل أن تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جده من أمر الفرنج . وفى هذا الشهر اضطربت الأحوال على السلطان من جميع الجهات .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه حضر الى

الأبواب الشريفة قاصد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم ؛ وهذا القاصد جليل القدر من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان ابن عثمان عين هذا القاصد من حين كان الأمير أقباى الطويل عنده فلم يحضر الى مصر الا الآن ؛ فلما دخل القاهرة أنزله فى بيت الظاهر تمربغا الذى عند سوق السلاح بالقبو الى أن يقابل السلطان .

وفى يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى قبة يشبك وأقام بها الى بعد العصر وعاد الى القلعة .

***

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

وفى ذلك اليوم طلع قاصد ابن عثمان الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكب له بالحوش وجلس على المصطبة ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم بأن يزينوا باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق فزينوه ، واصطفت الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش ، ثم طلع القاصد وصحبته أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب ، وطلع معه تقدمة حافلة للسلطان تشتمل على خمسة وعشرين حمالا ما بين وشق وسمور وقاقم وأثواب مخمل وبرصاوى وشقق سمرقندى ملون ، وحمال عليه أوانى فضة ، وطلع صحبته بخمسة وعشرين مملوكا صغارا حسان الأشكال . وكان ذلك القاصد جميل الهيئة وصحبته جماعة من العثمانية ذوو هيئات جميلة . فلما طلع وقابل السلطان أكرمه وقرأ مطالعته ثم نزل وانفض الموكب ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وعزم على قاصد بن عثمان هناك وجلس معه فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ومد له هناك أسمطة حافلة وأظهر أنواع العظمة الزائدة فى تلك الليلة ، وأحضر قراء البلد وأقام بالمقياس يومين . ثم طلع الى القلعة يوم الأربعاء أواخر النهار وانشرح هناك الى الغاية .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه أرسل السلطان الى الأمراء المقدمين الذين تعينوا الى السفر فأرسل لهم فى ذلك اليوم النفقة ، فأشيع أنه أرسل الى الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر خمسة آلاف دينار ، وأرسل الى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب أربعة آلاف دينار ، وأرسل الى الأمير أرزمك الناشف ثلاثة آلاف دينار ، والأمير أبرك مثله .

وفى ذلك اليوم وقعت كائنة عظيمة للأمير قانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين . وسبب ذلك أن علاء الدين ناظر الخاص كان اقترض من الأمير قانصوه هذا مبلغا له صورة وشرع يمطله به مدة طويلة ، فحنق منه الأمير قانصوه فركب وجاء الى بيته فوقع بينه وبين ناظر الخاص تشاجر ، ففجر عليه ناظر الخاص فحنق منه الأمير قانصوه وشتمه فأغلظ عليه ناظر الخاص فى القول ، فقام اليه ولكمه على رأسه فطلع ناظر الخاص الى القلعة وشكاه الى السلطان . فلما تحقق السلطان صحة ذلك تغير خاطره على الأمير قانصوه وأرسل يقول له : الزم بيتك . وقصد يختم على حواصله ويحتاط على موجوده . وأشيع نفيه الى دمياط فقيل ان الأتابكى سودون العجمى طلع الى السلطان وشفع فيه من النفى ، ورضى خاطر السلطان عليه واستمر على امرته كما كان .